المغرب العربي

في التاريخ الحديث والمعاصر

الجزائر • تونس • المغرب الأقصى

تأليف
الدكتور صلاح العقاد



المغرب العربى

في التاريخ الحديث والمعاصر

الجـزائر ـ تونس ـ المغرب الأقصى

تأليف

دكتور صلاح العقاد

الطبعة السادسة

مزيدة ومنقحة

١٩٩٣

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ ش محمد فريد

مقــــدمة الكتــــاب

يتناول هذا الكتاب تاريخ المغرب منذ القرن السادس عشر حتـــى وقتنا الحاضر . فهو اذن من كتب التاريخ العام · وليس معنى ذلك انــه قد بلغ فى التبسيط الى حد يمكن معه وصف الكتاب بأنه مدرسى · فقد اتبعنا فيـــه منهجـــا وسطا بين السرد التاريخى المبسط وبين التحليل الأكاديمى الذى يتناول كل مسألة تاريخية بالتفصيل · وهو على كـــــل حال يفتح مجالات للذين يريدون بعد ذلك التوســـع فى موضـــوع مـــن موضوعاته ويعرفهم باقرب مراجعة . كما انه يعطى لراغبى الاطلاع على احوال المغرب صورة شاملة تعينهم على فهم مشاكله المعاصرة ·

وليست كتابة التاريخ العام بالمهمة اليسيرة كما يتبادر الى ذهن البعض، الذين قــــد يتصورونها مجرد تلخيص للوقائع وعنـــــدنا ان براعـــة المتصدر لهذا النوع من كتـــابة التاريخ . تتوقف على تقييم الموضـــوعات المختلفة ومعرفة مايستحقه كل منها من الاهتمام بالنسبة للآخر · ولاشــك ان هذا التقييم يستدعى تصورا شاملا للموضوع . ثم استخلاص الأفكار مما تجمع لديه من مادة أولية غزيرة ·

وقد خصص القسم الأول لدراسة الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى سنة ١٨٣٠ ، ولم نتخذ هذا القرن بداية لموضوع الكتاب تقليدا لمناهج تاريخ أوربا حيث يطابق هذا القرن قيام النهضة . وبالتالى بدايـــة العصور الحديثة . انما لهذا الاختيار مايبرره من واقع تاريخ المغرب · ففى القرن السادس عشر حدثت هناك تطورات سياسية واجتماعية هامة . ففيــه تجدد الصراع بين أوربا والمسلمين فى الحوض الغربى للمتوسط ، وفيه ظهرت النيابات العثمانية الثلاث : طرابلس ، والجزائر . وتونس التى شاركت فى المواجهة . بينما ظهرت أسرة الأشراف السعديين فى مراكش لنفس الهدف · وكذلك اتسع نشاط الطرق الصـــوفية التى بعثت التقاليد الاســـلامية فى كثير من الجماعات البربرية التى ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن التأثر بالثقافة الاسلامية . وعملت بذلك على التقريب بين عناصر السكان ان لمتكن قد جعلت منهم وحدة متكاملة . أما اختيار سنة ١٨٣٠ بالذات ليكون حـــدا

فاصلا بين هذا القسم والذى يليه . فمرجعه الى أن استيلاء الفرنسيين على الجزائر فى هذا العام يعد نقطة تحول فى تاريخ المغرب الحديث . ولايقتصر أثره على الجزائر وحدها لأن صداه كان بعيدا فى القطرين المجاورين · فهو يعتبر بالنسبة لتونس ومراكش بداية السقوط · أما فرنسا فقد اتخذت من الجزائر مبررا لأطماعها فى المغرب بأسره وقاعدة تقفز منها على هذين القطرين ·

أما القسم الثانى فقد خصص لدراسة الاستعمار الفرنسى ومايتعلق به من أزمات دبلوماسية مهدت للاحتلال العسكرى · ولكننا حرصنا فى هذا القسم على افراد فصول خاصة بنظم الادارة وأوجه الاستغلال المختلفة التى اتبعها الفرنسيون · وذلك لما لاحظناه من أن معظم الكتاب والمؤرخين العرب ركزوا اهتمامهم على الجانب الدبلوماسى عندما تناولوا علاقة فرنسا بالمغرب ، ولايوجد حد زمنى يفصل بين القسمين الثانى والثالث . فان هذا القسم الثالث قد خصص لدراسة الحركات القومية وتطورها حتى الاستقلال بالنسبة لتونس ومراكش ، وحتى ثورة سنة ١٩٥٤ بالنسبة للجزائر · ويعتبر هذا القسم والقسم الثانى على وجه الخصوص هما صلب الكتاب ، بينما يمكن وصف القسم الاول بأنه تمهيد تاريخى · أما القسم الأخير الذى يتناول المشاكل المعاصرة والاتجاهات السياسية· فى المغرب فقد امتد فى هذه الطبعة على وجه الخصوص واحتل فيها مكانا بارزا بالقياس الى الطبعات السابقة · وفى اطار كل من هذه الاقسام طفنا بكل قطر من الأقطار الثلاثة على حدة . وربما ود بعض القراء لو تتبعنا كل قطر منها من البداية حتى النهاية · ولكن هذا المنهج يتعارض مع فكرتنا الأساسية وهى وجود الرابطة التاريخية بين هذه الأقطار واشتراكها فى هذه المراحل مع امكان مقارنة كل منها بالآخر فى كل مرحلة · ثم ان هذا المنهج يجعل الكتاب أشبه بثلاثة كتب منفصلة ·

وقد يتساءل القارىء أيضا : لماذا لم يشمل الكتاب ليبيا ، وقد جرى العرف على احتسابها من بلاد المغرب ؟ والجواب على ذلك ينطوى على حقيقة مؤسفة وهى أن الاستعمار ترك فى بعض البلاد العربية آثارا بعيدة بحيث أوجد رابطة خاصة من نوع جديد بين البلاد التى خضعت لاستعمار واحد ·

ويرجع اهتمامنا بالمغرب وتاريخه الى ايام اقامتنا فى باريس من سنة ١٩٥٠ ـ سنة ١٩٥٦ وهناك اتجهنا الى التخصص فى تاريخ العرب الحديث ، ومع أن موضوع رسالتنا للدكتوراه كان يتعلق بتاريخ شبه جزيرة العرب والتنافس الاستعمارى فى الخليج العربى الا أن وجود الطالب العربى فى العاصمة الفرنسية يجذبه بالطبع الى الرغبة فى الاطلاع على تاريخ المغرب وأحواله نظرا لوفرة مراجعة ووقوعها فى متناول يده . بل انه يجد المعاهد التى أسست خصيصا لدراسة نواحى الحياة المختلفة فى المغرب . ثم تصادفت اقامتنا هناك مع وقوع أحداث هامة فى تلك البلاد . مما جعل أنباءه تحتل الصدارة فى جميع الصحف الباريسية ، ثم ازددنا اتصالا بهذا الموضوع بمناسبة تتلمذنا على شارل أندريه جوليان أستاذ مادة تاريخ الاستعمار وصاحب عدة مؤلفات عن شمال افريقيا وكان معروفا آنذاك بتاييد الحركات الوطنية كما اتاحت لنا الاقامة فى فرنسا فرصة الاتصال بالشبيبة المغربية والتعرف على عقليتها واتجاهاتها السياسية عن كثب . وبعد العودة الى أرض الوطن عهد الينا بتدريس مادة شمال أفريقيا فى معهد العلوم السياسية ثم فى معهد الدراسات العربية العالية ، ولم تنقطع صلاتنا بالدراسات المغربية بعد ذلك . فقد اتيحت لنا فرصة الاتصال المباشر ببعض اقطار المغرب . اذ عهد الينا بتدريس التاريخ الحديث بجامعة قسنطينة بالجزائر خلال العام الدراسى ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ . وفى سنة ١٩٧٦ قمنا بزيارة موريتانيا ضمن بعثة علمية أوفدها معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، وذلك لاعداد موسوعة شاملة عن هذه البلاد .

وخلال هذه الفترة الطويلة التى تمتد الى مايزيد على ثلث قرن تقدمت الدراسات فى جوانب مختلفة وبعد أن كانت الكتابة العلمية فى تاريخ المغرب تكاد تكون مقصورة على الفرنسيين ، ظهر من بين المغاربة أساتذة أكفاء تناولوا موضوعات متخصصة فى بعض جزئيات من هذا التاريخ كما اهتموا بنشر التراث العربى فى بعض عصور كان يظن أنها خالية من هذا التراث كالعصر العثمانى ، كما أن لهؤلاء المؤرخين رؤية خاصة فى دراسة الحركة الوطنية . ويرجع الفضل فى ذلك التقدم الى انتشار التعليم الجامعى بدول المغرب المستقلة . والعودة الى اتخاذ اللغة العربية لغة تعليم ودراسة فى بعض الأقسام الجامعية . ويلاحظ أن قسم التاريخ كان فى مقدمة ما عرب من الأقسام . ثم تكونت مراكز لجميع الوثائق الوطنية أو نقلها من الخارج .

وصدرت دوريات متخصصة تعالج قضايا تاريخية وحضارية علـى مـر العصـــور ٠

فى نفس الوقت لم تفتر همة الفرنسيين فى اضافة الجديد الى الدراسات المغربية واتسمت المؤلفات الفرنسية بعد نهاية العهد الاستعمارى بأنهـا صارت أكثر موضوعية وافضل من حيث التعمق . يدل على ذلك هذا النشاط الجم الذى يبذله مركز دراسات افريقيا المتوسطية الملحق بجامعة اكس أن بروفانس حيث اودعت كميات هائلة من الوثائق المتعلقة بالعصر العثمانـى والعهد الاستعمارى ٠

وفى تقديرنا ان ظهور تلك الدراسات لايغنى عن مجلد شامل لتاريخ المغرب الحديث . فما زال يسد حاجة أمام المتخصص المبتدىء فى اقســام التاريخ فى المشرق اذ خصصت من بين مواد التاريخ الحديث مادة لتاريخ المغرب الحديث والمعاصر ٠ لهذا كله نقدم للقراء الطبعة السادسة بعـد ادخال اضافات واجراء تحقيق وضبط . ونرجو ان نكون قد وفقنا ٠

أ ٠ د ٠ صلاح العقاد

مصر الجديدة فى ٢١ مايو ١٩٩٢

تمهيـــد

احوال المغرب قبيل القرن السادس عشر

شهدت افريقيا الشمالية قيام دول كبيرة ابان العصور الوسطى ، مثل دول المرابطين والموحدين ؛ وتمتعت فى ظـــل هذه الدول بالوحدة السياسية . وقد حدث فى بعض الأحايين أن دخلت الأندلس مع المغرب تحت حكم دولة واحدة ، ولذلك لم يألف الكتاب العرب فى هذا العصر التقسيم التقليدى الذى يجعل من المغرب العربى ثلاث أو أربع وحدات سياسية منفصلة . وانما كانوا يطلقون اسم المغرب الاقصى ويقصدون بـــه مراكش . والمغرب الأوسط ويقصدون بـــه الجزائر ، ويسمون القسم الشرقى منه بتونس او افريقية . ولكن لم تتحدد بالضبط مفاهيم هذه الأسماء من الناحية الجغرافية . ذلك انه لا توجد حواجز طبيعية تميز بين حدود كـــل من تونس والجزائر والمغـــرب ، بل على العكس نلاحظ أن التقسيمات الجغرافية لشمال افريقيا تتخلل الاقطار الثلاثة عرضا وتمتد بمحاذاة البحر . فتبدأ من الشمال باقليم ساحلى خصب تشقه انهار قصيرة تستمد مياهها من منطقه التل وتنزل منحدرة نحو البحر . ويلى هذا الاقليم جنوبا منطقه الأطلس الصغير أو التل ، ثم منطقة الهضاب العليا . وتقع الصحراء الكبرى وراء هذه الأقسام الثلاثة .

ومن النـــاحية البشريه تميز المغرب العربى دون المشرق باحتفاظ عنصر السكان الاصليين البربر ببعض مميزاتهم . بخلاف الأجناس الاخرى التى دخلت الاســـلام فى المشرق العربى . مثل المصريين او الشعوب السامية الأخرى فى الشام التى اندثرت لغاتها الاصلية واصطنعت اللغة العربية وحدها للكتابة أو الحديث اليومى . اما فى المغرب فقد احتفظ البربر فى بعض المناطق الجبلية بلغتهم الاصلية كلغة حديث فقط . ولكن قسما كبيرا منهم استعرب مثل الاجناس الاخرى التى اعتنقت الاسلام ، فكأن عدا هو العنصر الأول فى تأكيد صفة المغرب العربية : خاصه وان

فكرة العروبة تقوم أساسا على وحدة اللغة بدون اعتبار للاصل العربى . أما العنصر الثانى فهو توافد هجرات عربية كثيفة الى المغرب منذ القرن الرابع الهجرى . ومن اشهرها هجرة قبائل الهلالية وبنى سليم ، التى تركت آثارا بعيدة فى تاريخ المغرب . وهناك عنصر ثالث يؤكد عروبة المغرب ويتمثل فى هذه الحقيقة ، وهى أن المتكلمين بالبربرية يسلمون بأن اللغة العربية هى لغتهم الثقافية الوحيدة . ومن ثم لم يتمسكوا بتراث بربرى ولم يحاولوا كتابة لغتهم كما فعلت بعض الشعوب الاسلامية الأخرى ، مثل الفرس الذين اصبح تراثهم الخاص نواة لقيـــام قومية او شعوبية منفصلة فى العـــالم الاسلامى .

وقد حاولت فرنسـا أن تثير النعرة القومية بين البربر ، غير انهــا لم تستطع أن تحقق سوى جـــزء يسير من اهدافها . وعندما حصلت مراكش على استقلالها اخذت مشكلة البربر تتلاشى سريعا وتتغلب روح الوحدة القومية سواء باسم العروبة ام الاسلام . ويبلغ عـــدد المتكلمين بالبربرية فى مراكش نحو ٣٦٪ وفى الجزائر ٢٥٪ ، وفى تونس ١٪ ، الا ان عددا كبيرا من هؤلاء لديهم معرفة باللغة العربية ويستخدمون اللغتين فى حياتهم اليومية ، أما العكس فنادر الوقوع . ففى مراكش قدر عدد الذين يتكلمون اللغتين بنحو ١٤٪ ويلاحظ ان اللغة العربية قد اخذت تزداد انتشارا فى الآونة الأخيرة وذلك بفعل عاملين :

الأول : سهولة الاتصال بين المناطق الجبلية الوعرة وبين بقية البلاد .

والثانى : تصميم دول المغـــرب المستقلة على نشر الثقافة والتعليم باللغة العربية .

ولا يطلق البربر على انفسهم ذلك الاسم ، بل يعرف الشخص نفسه باسم المجموعة القبلية التى ينتمى اليها ، فهم فى الريف المراكشى يسمون انفسهم بالامازيغ . وفى الاطلس الكبير بالشلوح .

وفى الجزائر تعرف اكبر مجموعـــة من البربر باسم القبايل وهى تنتشر فى شمال قسنطينة وتختلف لهجات هذه القبائل بعضها عن بعض حتى يصعب التفاهم بينها احيانا .

وقد بدات سمات الانقسام بين اجزاء المغرب العربى الثلاث تظهر فى القرن الثالث عشر ، حينما اضمحلت دولة الموحدين ، وحلت محلها بالتدريج دول ثلاث : دولة الحفصيين فى تونس . وبنو عبد الواد فى المغرب الأوسط ، وبنو مرين فى المغرب الأقصى . هذا الانقسام لم يتضح

الا فى نهاية القرن السادس عشر . فان كلا من دولة الحفصيين وبنى مرين حاولت ان تبسط نفوذها على المغرب بأسره وتؤسس دولة كبيرة على نمط دولة الموحدين التى خلفت فى تاريخ المغرب آثارا بعيدة . ولكن ايا من الدولتين الجديدتين لم تستطع تحقيق اهدافها الا فى فترات قصيرة وسرعان ما عادت دولا اقليمية محدودة .

كانت دولـــة الحفصيين هى أسبق الدول الثلاث ظهورا واوسعها انتشارا . وهى تنتمى الى ابى حفص عمر راس قبيلة الهنتاتة من مجموعة مصمودة البربرية . وكان الموحدون قد عهدوا الى افراد تلك الأسرة بعمالة تونس ســــنة ١٢٠٥ ، فاستأثروا بهذا المنصب حتى تولاه ابو زكريا فى سنة ١٢٢٨ . فأظهر نزعته الى الاستقلال بحكم تونس عن دولة الموحدين واعلن ذلك رسميا فى سنة ١٢٣٧ ، وتوارثت اسرته حكم البلاد بعد ذلك اكثر من ثلاثة قرون . واتســـع نفوذ هذه الدولة فى بداية عهدها حتى اصبحت تمتد من طرابلس الى طنجة ، ودفـــع لها بنو مرين الجزية فى بعض الأحيان .

واعترف شريف مكة بسيادة الحفصيين وتلقبوا بأمراء المؤمنين . واصبحت تونس فى عهدهم من اهم مراكز الثقافة العربية . كما عقدت الدولة معاهدات تجارية مع معظم الدول الاوروبية فأقامت فيها القنصليات وذلك قبل أن تسوء العلاقات بين المغرب وأوربا حينما تجددت النزعات الصليبية فى القــــرن الســـادس عشر . كذلك قدم الحفصيون المعونة للامارات المتداعية فى الأندلس . ولكن لم يحل القــــرن الرابع عشر حتى اخذ شأن الدولة يضعف بسبب الانقسامات الداخلية ، فكان احد الحفصيين يحكم فى تونس وآخر فى بجاية وثالث بقسنطينة : وانتهى امـــر هذه الدولة بوضع نفسها تحت حماية الغزاة من الأسبان .

كذلك ظهرت دولة بنى عبد الواد فى منتصف القرن الثالث عشر ، واتخذت من تلمسان حـــاضرة لها . وقد أسس هذه الدولة يغمراسن بن زياد . وهو من اصل بربرى مثل مؤسس الدولة الحفصية ولكن كما رأينا بالنسبة للحفصيين لم تؤثر صفة الدولـــة البربرية على اهتمامها بالثقافة العربية ، فازدهرت تلمسان فى ظل دولة عبد الواد كمركز ثقافى ، كما اشتهرت حدائقها الغناء التى كانت تصدر منتجاتها عن طريق الموانى الساحلية . ولم تحكم دولة عبد الواد سوى الجـــزء الغربى مما يقابل الجزائر حاليا . وطمع كل من الحفصيين وبنى مرين فى الاستيلاء عليها ، ودخل المرينيون فعلا تلمسان فى منتصف القرن الرابع عشر ، الى ان احيا الدولة ابو حمو الثانى ســــنة ١٣٥٩ ــ ١٣٨٩ . واصبحت الدولة تعرف باسم الفرع الجديد وهو بنوزيان . ومع أن تلمســان كانت تعتبر فى

ذلك الوقت حاضرة المغرب الأوسط ، الا ان المدن الساحليه كانت تكون جمهوريات مستقلة اشبه بالجمهوريات القائمة على الساحل المواجه فى ايطاليه . وقد ادى هذا التفكك الى طمع الصقليين فى الجزائر فغزوا بعض مدنها الساحلية واحتلوها فترة خلال القرن الرابع عشر . ولم تتحقق للجزائر وحدتها الاقليمية الا فى العهد العثمانى .

وتعاصر دولة بنى مرين على وجه التقريب فى مراكش دولة الحفصيين فى تونس وبنى عبد الواد فى تلمسان وينتمى بنو مرين الى قبيلة زناتة البربرية وبدأ ظهورهم فى جنوب مراكش فى بداية القرن الثالث عشر ، وانتشر نفوذهم بفضل جهود ابى يحيى عبد الحق الذى ضم فاس ومكناس ولكن الدولة لم تتشكل الا بعد أن تم لأبى يوسف يعقوب الاستيلاء على مدينة مراكش سنة ١٢٦٩ . وبما أن مراكش كانت مركز الثقل فى دولة الموحدين فكان طبيعيا ان يطمع المرينيون فى ان يرثوا هذه الدولة للهيمنة على المغرب بأسره ، خاصة وانهم كانوا من الناحية العسكرية أقوى من دول المغرب الأخرى ، بيد انه كان يعوزهم النفوذ الادبى الذى تمتع به الحفصيون .

ومن ثم اضطر المرينيون فى بداية أمرهم الى الحكم تحت سيادة الحفصيين الاسمية حتى كان عهد ابى الحسن المرينى الذى قام بحملة على مدينة تونس سنة ١٣٤٧ ، وهناك تلقى هزيمة منكرة كادت تطيح بأسرة المرينيين فى مراكش ذاتها . وهكذا اصبحت الدولة المرينية دولة مراكشية محلية . وقد ورث المرينيون بحكم موقعهم الجغرافى تقالبد سياسة الموحدين فى الأندلس وتقديم المساعدات الفعالة فيما اعتبره المسلمون مكان الاستشهاد المثالى الا وهو ارض الأندلس . وللأسف دب الخلاف بين المرينيين ودولة بنى الاحمر حول تملك بعض الموانى على شاطىء الأندلس مما أضعف قدرة المسلمين على المقاومة ، وتعرضت مراكش نفسها لغزو الدول المسيحية الناشئة فأخذت الحملات المسيحية برتغالية وقشتالية تتردد على موانيها منذ بداية القرن الخامس عشر . ولما سقطت سبتة فى أيدى البرتغاليين سنة ١٤١٥ تحرج مركز المرينيين . ومما زاد موقفهم سوءا انتشار المنافسات الداخلية بعد مقتل أبى سعيد المرينى سنة ١٤٢٠ ودخول كل من غرناطة وتلمسان لتؤيد هذا المدعى او ذاك فى عرش فاس ، وطمع بنو وطاس . وهم فرع صغير منهم كان يتولى الوزارة للمرينيين فى الاستئثار بالسلطة ، وانتقل الحكم الى ايديهم فعلا فى منتصف القرن الخامس عشر وان كان المرينيون قد استعادوا مركزهم بعض الشىء بعد مقتل الوزير يحيى سنة ١٤٥٨ . وقد استطاع محمد الشيخ اشهر الحكام الوطاسيين أن يسترد سلطته فى فاس وامتد حكمه من سنة ١٤٧٢ - سنة ١٥٠٤ ، الا انه ظل بعيدا عن تحقيق الوحدة لمراكش ، فقد بقى

المرينيون يحكمون بمدينه مراكش عاصمة الجنوب ، واصبح القسم الشمالي يسمى بمملكة فاس والقسم الجنوبي يسمى بمملكة مراكش واستعانت الثانية على الأولى بالغزاة من البرتغاليين . ولم ينقذ البلاد سوى ظهور الأسرة السعدية .

اظهرت الدول الناشئة في شبه جزيرة ايبريا نواياها العدوانية نحو المسلمين في المغرب حتى قبل القضاء على آخر الدول الاسلامية بالاندلس، وهي دولة بني الأحمر في غرناطة . ففي سنة ١٤٠١ هاجمت قشتالة مدينة تطوان واحتلتها فترة من الزمن وحملت بعض اهلها عنوة الى اسبانيا ، ولكن هذه الحملة لم تسفر عن احتلال دائم للمنطقة ، وعلى العكس كانت حملة البرتغال على مدينة سبتة في سنة ١٤١٥ ابعد اثرا في تاريخ البلاد ، فمنذ ذلك التاريخ ومدينة سبتة ترزح تحت الحكم الاجنبي سواء أكان برتغاليا ام اسبانيا حتى وقتنا الحاضر .

ويتداخل العامل الاقتصادي مع التعصب الديني في دفع البرتغال نحو هذه السياسة التوسعية التي اتبعوها في شمال افريقيا والتي استمرت حتى أواسط القرن السادس عشر حينما تفوق الأسبان على البرتغاليين في شبه الجزيرة وخارجها . فقد قيل ان مراكش كانت دائما تقرن بغينيا في بناء اقتصاد الامبراطورية البرتغالية . فكان هدف القائمين بأعمال الكشف والاستعمار في ساحل افريقيا الغربي . ان يتزودوا من مراكش بالقمح والخيل ليشتروا بها الذهب من الرؤساء الافريقيين . الذين يتعاملون مع المحطات البرتغالية . ثم يستخدمون هذا الذهب لشراء التوابل من الشرق الاقصى وقيل ايضا ان أوروبا كانت تعتقد بوجود مناجم الذهب في المغرب بسبب ما لاحظه التجار الاوروبيون من وجود ثروات ضخمة في موانيه . وحتى بعد العثور على تراب الذهب لدى الرؤساء الأفريقيين في غرب افريقيا ، استمر البرتغاليون على أملهم في ان يصلوا الى المناجم الداخلية عبر اراضي المغرب . ومن المتوقع في مثل هذه الظروف أن يتجه البرتغاليون الى التوسع على ساحل مراكش المواجه للاطلسي . غير انهم اتجهوا على العكس الى سبتة ثم الى طنجة على ساحل المتوسط التي احتلوها في سنة ١٤٣٨ مما ينم عن ان العامل الديني كان هاما ايضا في دفع الحملات البرتغالية . فهدفهم من هذا الاتجاه على ما يبدو هو شطر المغرب الاسلامي الى قسمين لاجتياح أراضيه (١) .

ويذكر المؤرخون السبب المباشر الذي حدا بيوحنا الأول ملك البرتغال الى غزو سبتة على نحو ابسط من هذا . فيقولون انه بعد توقيع الصلح

---

(1) Ricard P, 144 S, Q.

مع قشتالة فى سنة ١٤١١ راى انه من الضرورى أن يشغل النبلاء عن المنازعات الداخلية بحملة سبتة ٠

على ان الغزو البرتغالى للمغرب لم يتسع نطاقه إلا فى الثلث الاخير من القرن الخامس عشر ، وقد شمل فى هذه الفترة موانى البحر المتوسط والاطلسى على السواء ، وبدأ الاسبان يشاركون البرتغاليين فى هـذه الحملات ويقدمون لهم المعونة حينما يضيق المسلمون الخناق على الجيوب البرتغالية ٠ ففى سنة ١٤٦٨ وضع البرتغاليون حمايتهم على آزمور ٠ واتفقوا مع احد مدعى العرش فى مراكش على ان يتنازل لهم عن القصر الصغير . هذا علاوة على طنجة وسبتة ، واصيلة التى احتلوها سنة ١٤٧١: وامتدت اطماعهم الى المغرب الأوسط فاقاموا مؤسسة تجارية فى وهران سنة ١٤٨٣ ــ ١٤٨٧ ٠ وحاولوا فرض معاهدة على مملكة تلمسان ٠ وفى عهد امانويل الأول فى بداية القرن السادس عشر تحول اهتمام البرتغاليين عن الشمال . حيث تفوق الاسبان عليهم الى ساحل مراكش الجنوبى ٠ واصبحت وطأة الحكم البرتغالى فى الجنوب اقوى منها فى الشمال واكثر توغلا فى الداخل ، فقد استغلوا هناك المنازعات الداخلية وناصروا بعض الأمراء ورؤساء القبائل ضد منافسيهم ، وامتد نفوذهم الى مدينة مراكش نفسها ، ودفع لهم كثير من الأمراء المحليين الجزية ، كما اسسوا ميناء مزغان ٠ كذلك ظهر الاسبان فى جنوب مراكش ، ولكن ظهورهم كان عابرا والصق بمستعمرة كناريا الاسبانية منه بحكومة مدريد ٠ فتذكر المراجع الاسبانية ان حاكم تلك الجزر اقام محطة للصيد وتجارة الرقيق فى مكان سموه ا سانتا كروز دى ماربكينا Sainta cruse de Marpequena وأن هذا الموقع احتل من سنة ١٤٧٧ ــ ١٥٢٤ ٠ ولكن لما لم يرد ذكر لهذا الاحتلال لدى كتاب المغرب المعاصرين ، لم يعرف اسم المكان عند المغاربة٠ فقد ظهرت فى الأزمنة الحديثة صعوبة لتحديد موقع تلك المحطة وذلك بمناسبة تجديد الاسبان المطالبة بها سنة ١٨٦٠ . بناء على الحقوق التاريخية المشار اليها . الى أن تحايل الخبراء الاسبان ، فادعوا بانها تقابل منطقة سيدى افنى حاليا ٠

ذلك ان اهتمام الاسبان منذ نهاية القرن الخامس عشر انصرف الى الساحل المغربى المواجه للمتوسط ٠ فقد عقدت الملكة ايزابيلا مؤتمرا فى توردى سيللاس واسفر عن معاهدة مع البرتغال قسمت بمقتضاها المغرب الى منطقتين ٠ [1]

---

(١) نشرت الوثائق البرتغالية الخاصة بهذه الفترة ضمن مجموعة دى كاسترى على حدة ٠

الأولى : تقع شرق حجر بادس . ويتولى الاسبان فيها مهمة حرب الاسترداد .

والثانية : تقع غرب هذه المنطقة . وقد تركت للبرتغال .

وكان الاسبان يحتلون آنذاك ميناءى سبتة ومليلة . فاتجهوا شرقا الى ساحل الجزائر حتى طرابلس . وكانت الملكة ايزابيلا من أشد المتحمسين لحرب الاسترداد كما سماها الاسبان حينذاك بالرغم من انها تنطوى على احتلال اراض اجنبية لم يسبق لهم حيازتها . وقد تركت وصية قبيل وفاتها فى سنة ١٥٠٤ . قالت فيها (اننى ارجو من الأميرة ابنتى والأمير زوجها وآمرهما باطاعة وصايا الكنيسة امنا المقدسة . فعليهما ان يقوما بحمايتها والا يكفا عن متابعة فتح افريقيا ومحاربة الكفار) .

وبالاضافة الى وجود هذه الروح الصليبية فان هجرة المسلمين من الاندلس الى موانى المغرب قد زادت من شدة الصراع بين شمال افريقيا الاسلامية واوربا المسيحية ذلك أن الاسبان بعد القضاء على غرناطة فى سنة ١٤٩٢ ، خالفوا شروط التسليم الخاصة باحترام العقيدة الاسلامية. وفضل كثير من المسلمين ان يتركوا ديارهم . ويلجأوا الى الشاطىء المواجه للبحر المتوسط . ومن الطبيعى أن يحمل هؤلاء المهاجرون روح النضال ضد الدول المسيحية . ولذلك ساهموا بنصيب كبير فى تنشيط حركة الجهاد فى البحر . وفى شن الغارات المفاجئة على ساحل اسبانيا والاتصال ببقايا المسلمين هناك وتشجيعهم على الثورة .

وليست هجرة المسلمين من الاندلس بظاهرة جديدة فى حياة المغرب . فمنذ ان اخذت الدولة الاسلامية هناك تنكمش وموجات المهاجرين تفد تباعا . ويستقر معظمها فى موانى المتوسط من الاسكندرية حتى موانى المغرب الواقعة على الأطلسى . وقد صبغ هؤلاء المهاجرون الحياة الفنية والأدبية فى المغرب بالصبغة الأندلسية المعروفة . ولا تزال آثارها تظهر فى الحياة الاجتماعية والفنية بأقطار شمال افريقيا المعاصرة . وقد ضمت هذه الهجرات الأندلسية الجاليات اليهودية التى كانت مقيمة فى الاندلس فى ظل تسامح الدول الاسلامية . والتى عانت مثل المسلمين من اضطهاد حكومة اسبانيا الكاثوليكية المتعصبة . وهذا ما يفسر لنا (١) وجود عدد

---

(١) توزع اليهود قبل سنة ١٩٥٦ فى شمال افريقيا بصورة تقريبية على النحو الآتى : مراكش ٢٠٠ر٠٠٠ ـ الجزائر ١٠٠ر٠٠٠ ـ تونس ٥٩ر٠٠٠ . الا انهم تناقصوا بصورة ملحوظة بعد استقلال دول المغرب وخاصة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ بالهجرة الى فرنسا واسرائيل .

كبير من الجاليات اليهودية بأقطار شمال افريقيا الثلاث ، واحتفاظ بعضها بلكنته الاسبانية خاصة فى مراكش ، بيد أن غالبية اليهود تصطنع لغة أهل البلاد وتقاليدها . ولا توجد أقلية مسيحية وطنية فى شمال أفريقيا وانما يمثل المسيحيين فقط هناك المهاجرون من الأوروبيين فى الأزمنة المعاصرة . وقد اشتهر الأندلسيون ايضا بالتفوق فى النشاط الاقتصادى حتى انهم سيطروا على تجارة المغرب .

قامت حكومة مدريد بأول محاولة لتنفيذ وصية ايزابيلا فى سنة ١٥٠٥ . واختير ميناء المرسى الكبير فى غرب الجزائر لنزول أولى هذه الحملات الاسبانية . ويبدو أن اختيار هذا الميناء كان ردا على غارة قام بها بحارته على شاطىء بلنسيا . ولم يتسع نطاق العمليات الأسبانية الا بعد سنة ١٥٠٨ حينما تولى قيادة الأساطيل الاسبانية بدور نافارو . ففى تلك السنة استولى الاسبان على حجر باديس . وفى العام التالى سقطت وهران وبجاية فى ايديهم . وفى سنة ١٥١٠ دمر ميناء طرابلس . واضطرت موانىء دلس والجزائر (وهى حينذاك قرية ساحلية صغيرة) الى دفع جزية للاسبان . وكانوا قد اقاموا امام هذه القرية حصنا على صخرة مواجهة يعرف بالبينون (١) . وكان على مملكة تلمسان ان تواجه هذا الغزو وخاصة بالنسبة للموانى التى تتبعها مثل وهران ؛ ولكن الزيانيين عجزوا عن القيام بهذه المهمة لضآلة مملكتهم . بل على العكس تعرضت دولتهم فى هذه الفترة لتفكك جديد ؛ ونشوب ثورات داخلية احتجاجا على الضرائب الجديدة التى اضطروا الى فرضها لمواجهة الغزو الخارجى . وانتهى بهم الأمر الى عقد صلح مع الاسبان فى سنة ١٥١٢ ؛ اعترفوا (٢) فيه باستيلاء الاسبان على عدة موانى فى غرب الجزائر .

واجمالا للقول فقد بلغ التفكك السياسى فى شمال افريقيا اقصاه فى أوائل القرن السادس عشر . ورغم تهديد الخطر الخارجى نجد طرابلس تستعين بفاس ضد الحفصيين . وفى شرق الجزائر يستمر النزاع بين الأمراء الحفصيين من جهة وتتنازع فيما بينها امارات بربرية صغيرة فى بلاد القبايل من جهة أخرى . كل ذلك سهل على الغزاة الاسبان الاستيلاء

---

(١) تطلق كلمة بينون على الجزر الساحلية او الرءوس الداخلة فى البحر والتى اعتاد الاسبان فى افريقيا أن يبنوا فوقها الحصون فمثلا يسمون حجر باديس Penon de Valèse

(٢) نشرت الحكومة الفرنسية فى الجزائر الوثائق المتعلقة بالجيوب الاسبانية فى هذه الفترة .

Documents Inedits sur L'histoire de L'occupation Espagnole en Afrique 1506. 1584.

على أهم موانى الجزائر . علاوه على موانى مراكش فيما بين سنة ١٥٠٩ وسنة ١٥١٥ . ولذا كـــان مجىء العثمانيين الى شمـــال أفريقيا بمثابة نجدة انقذت البلاد من الغزو الأوربى وعملت على توحيدها سياسيا . وقد رحبت معظم طبقات السكان بمجيىء العثمانيين؛ كما تدل كتابات هذا العصر . ولايختلف عن ذلك كتاب وقتنا الحاضر الذين عالجوا تاريخ الجزائر من وجهة النظر القومية الحديثة . فلم يعتبروا دخول شمال أفريقيا فى حظيرة الدولة العثمانية احتلالا اجنبيا (١) .

---

(١) انظر مثلا من الكتاب القوميين المعـــاصرين . توفيق المدنى فى كتابة الجزائر ص ٢٣ حيث يصف مجىء العثمانيين الى شمال أفريقيا بانه مثل بارقة الأمل للشعوب الاسلامية فى المغرب . ومن الكتاب القدامى رحب ابن دينار بقدوم العثمانيين وان شكا من تعسفهم فى الحـــكم : انظر المؤنـــس ص ٨٠ :

الفصل الأول

العثمانيون في الجزائر وتونس

لم تمد الدولة العثمانية نفوذها الى تونس والجزائر بواسطة غزو عسكرى . او تدخل مباشر من حكومة الآستانة كما حدث فى مصر ، بل جاء تدخل الدولة نتيجة لاشتداد الصراع بين الاسلام والمسيحية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط فى اوائل القرن السادس عشر . وقد اجتذب هذا الصراع عددا كبيرا من البحارة المغامرين ، الذين نشأوا فى خدمة اسطول الدولة العثمانية ثم راحوا يكونون اساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص وتجاهد ضد أعداء الدين فى نفس الوقت . ولذا فقد كان هؤلاء المغامرون يعتبرون فى نظر المسلمين ابطالا وطنيين وفى نظر خصومهم قراصنة بحار ، لا يخضعون لأى قانون او نظام . وحين يذكر رجال البحر المغامرون لهذا العصر فان الذهن ينصرف مباشرة الى الاخوين عروج (١) وخير الدين . وقد نشأ الرجلان بجزر الأرخبيل فى شرق المتوسط حيث تقع اهم قواعد الأسطول العثمانى ، وكان يحشد لخدمته بحارة من الأتراك بجانب عدد كبير من العناصر البلقانية التى اعتنقت الاسلام . ولكن الكتاب الأوربيين يهتمون بابراز الأصل الأوروبى سواء أكان يونانيا أم ايطاليا أم اسبانيا لمعظم الذين اشتهروا فى البحرية الاسلامية بشمال افريقيا . فيذكرون مثلا باصل عروج وخير الدين اليونانى . ويشعر القارىء انهم يريدون أن يعزوا تفوق هؤلاء البحارة المسلمين الى ذلك الأصل الأوروبى . والواقع أن البحارة وان تعددت

---

(١) نشر باحث جزائرى هو الأستاذ نور الدين مخطوطا فريدا عن حياة عروج وخير الدين ، لمؤلف مجهول . وعنوانه « الغزوات » طبع فى مدينة الجزائر سنة ١٩٣٤ .

اجناسهم الا انهم تدربوا جميعا فى ظل الأسطول العثمانى ، وكان اسطول خير الدين يضم أجناسا مختلفه من عرب وبربر وترك واوربيين اعتنقوا الاســـــلام (١) .

بدأ عروج نشاطه فى غرب المتوسط حوالى سنة ١٥١٠ وهو يمتلك حينذاك نحو ١٢ سفينة . وقد فتح لــــه الأمير الحفصى موانى تونس ، واتخذ عروج من بعض الجزر الساحلية قواعد لأسطوله . ولما سمع اهل القبايل بغاراته الناجحة على الاسبان استقدموه الى بلادهم ليعاونهم على استرداد بجاية اكبر موانى شرق الجزائر حينذاك ، فكانت بجاية هى اول ميناء يسترده المسلمون من الأسبان. ولذا ذاع صيت عروج فى المغرب الأوسط خاصة بعد أن نقل قاعدته من تونس الى جيجل وهو ميناء صغير فى شرق الجزائر ايضا .

ومن هناك استدعاه سالم السالى حاكم ميناء الجزائر فأتى مع قوة صغيرة من العثمانيين ونجح فى صد هجوم اسبانى عن المدينة فى ســــنة ١٥١٦ ، وأباح لنفسه ان يتخلص من الحاكم الوطنى ويؤسس تحت قيادته حكومة عسكرية . ويلاحظ أن جيش عروج لم يقتصر على العنصر التركى بل كان يضم عددا كبيرا من القبايل والمغاربة (ســــــكان المدن) . وبذا اكتسبت حكومته صفة وطنية .

اخذ عروج يبسط نفوذه فى المغرب الأوسط على حساب الامارات الوطنية الصغيرة . وكان طبيعيا أن يصطدم بكبرى تلك الامـــارات فى تلمسان حيث انشق على حاكمها بوحمو جماعة قوية اعترضت على تعـــاون الحـــاكم مع الاسبان ونادى هؤلاء المنشقون بالوقوف بجانب قوة عروج الصـــاعدة فى البلاد .

وفى سنة ١٥١٧ اتجه عروج على راس قواته الى تلمسان مارا بمدن الجزائر الرئيسية مثل مديا ومليانه . فأقام فيها حاميات عثمانية وامتد نفوذه فى غرب الجزائر بعد ان دخل تلمسان ، وخضعت له القبائل النازلة على حدود مراكش مثل بنى عامر وبنى سناسن . وأقام علاقات طيبة مع مملكة فاس . وفى هذه الأثناء خرج بوحمو من تلمسان مستنجدا بأعداء البلاد . فرحبت به الحكومة الاسبانية . وارسلت امدادات قوية لم يسبق أن خصصت مثلها اسبانيا لحملات شمال افريقيا . وللمرة الأولى توغلت القوات الاسبانية داخل ارض الجزائر بالتعاون مع بوحمو حتى وصلت الى

---

(1) Achard Paul : L'histoire de la Mediterranee. Vie extraordinaire des freres Barberousses. Paris 1939.

مدينة تلمسان وضربت عليها حصارا قويا ، وعاند عروج فى المقاومة ولكن بعض اهل المدينة ممن تأثروا بالحصار خانوه فاضطر الى الفرار بعد أن فنيت تقريبا الحامية العثمانية ، ومع انه نجح فى اختراق الحصار الا أن القوات الاسبانية تتبعته واستطاعت قتله وهو فى طريقه (١) الى مدينة الجزائر .

كان خير الدين يقود خينذاك الحامية العثمانية فى الجزائر . فتحرج مركزه بعد مقتل اخيه ، واضطر الى طلب المعونة من حكومة الآستانة ، فارسل له السلطان سليم سنة ١٥١٨ الفين من الانكشارية وسمح لرعاياه بالتطوع فى جيش المغرب . واقبل الناس على ذلك امـــلا فى الغنائم . ودخلت الجزائر منذ ذلك الوقت ضمن الولايات العثمانية ولكن بقى على خير الدين أن يبذل جهودا طائلة قبل أن يؤسس ولاية قوية ، فقد تعرض فى هذه الفترة الأولى من حـــكمه لمؤامرات عدة اشترك فيها الحفصيون وأمراء البربر فى بلاد القبايل واوشك خير الدين أن يقع بأيدى الحفصيين ونجا باعجوبة ، وذهب الى جيجل حيث اتخذ منها قاعدة لنشاطه البحرى مؤجلا مسالة بسط النفوذ داخل اراضى الجزائر الى حين تسنح له الفرصة .

وفى المدة ما بين سنة ١٥٢٠ ـ سنة ١٥٢٥ اخضع الملاحة فى البحر المتوسط لسيطرة الأساطيل الاسلامية وهابته جميـــــع دول أوربا حتى اشتهر عندها باسم بربروس Barberousse أى الرجل ذى اللحية الحمـــراء .

وكان على خير الدين فى هذه الفترة الأولى من حكمه للجزائر ان يحارب فى جبهتين :

الجبهة الخارجية : وتتمثل فى ذلك الصراع العنيف مـــع الدول الأوربية عامة واسبانيا بصفة خاصة ومحاولة طرد الاسبان من الجيوب التى تحتلها على ساحل الجزائر وقد اصاب خير الدين فى هذا الميدان نجاحا جزئيا اذ بقيت وهران شوكة اسبانية فى جنب ولاية الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر .

أما الجبهة الداخلية : فتتمثل فى محاولة توحيد المغرب الأوسط تحت حكمه ، فقد تعرض فى هذا السبيل لمؤامرات من الحفصيين وبنى

(1) Grammont P. 20 - 28.

زيان ، ومن امارات العبائل الصغيرة . ومع ذلك فقد تمكن من توسيع دائرة نفوذه باسم الدولة العثمانية . سواء بالزام تلك الامارات اعلان تبعيتها للدولة أم احتلال بعض المدن الداخلية الهامة مثل قسنطينة فى سنة ١٥٢٧ . كما ساعده الحظ بوقوع خلاف بين بنى زيان وبين حماتهم من الاسبان . وتتمثل الجبهة الثانية فى النضال ضد الجيوب الأسبانية . وقد أشرنا الى أن خير الدين تمكن من تخليص معظم موانئ المغرب الأوسط من الاحتلال الاسبانى وضم اليه عنابة وقالة فى شرق الجزائر ولكن لعظم حادث بلا شك هو القضاء فى سنة ١٥٢٩ على حصن البينون الذى أقامه الاسبان فى مواجهة ميناء الجزائر ، واذا كان عام ١٥١٨ يعد بداية وصول السلطة العثمانية رسميا الى شمال افريقيا ، فان استيلاء خير الدين على البينون يعد بداية لتأسيس ما عرف (بنيابة الجزائر) ، فمنذ ذلك التاريخ تحول ميناء الجزائر الى عاصمة كبرى للمغرب الأوسط ، بل لشمال أفريقيا العثمانية بأسرها ، وبدأ استخدام كلمة الجزائر للدلالة على اقليم المغرب الاوسط منذ ذلك الوقت فقط .

كانت اسبانيا هى اكثر الدول تأثرا بانتصارات خير الدين ، وقد دخلت فى ذلك الوقت ضمن امبراطورية شارل الخامس الكبيرة التى شملت المانيا واجزاء من ايطاليا واوربا الشرقية ، ومن المعروف أن شارل الخامس هو الذى نصب من نفسه مدافعا عن أوربا المسيحية ضد الزحف العثمانى نحو شرق أوربا ووسطها . ولذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين نيابة الجزائر ، كان بمثابة فتح جبهة ثانية فى الحرب ضد الدولة العثمانية ؛ وقد ارسل شارل الخامس مبعوثا للتجسس فى شمال افريقيا فى سنة ١٥٣٣ وهو الضابط (أوشوا درسلا) فطاف بانحاء تونس وهناك اكتشف استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس ، ونبه الى استعدادات خير الدين للاستيلاء على تونس . وقال ان هذا الاستيلاء سيسهل على الدولة العثمانية السيطرة على افريقيا بأسرها نظرا لاهمية تونس الاستراتيجية (١) .

وفعلا كان خير الدين قد اتفق مع السلطان سليمان القانونى على ضرورة ضم تونس الى حظيرة الدولة العثمانية ؛ ونجح فى دخول عاصمة البلاد سنة ١٥٣٤ وقضى على حكم الحفصيين فيها ، فكان هذا الحادث بالاضافة الى اعلان محمد الزيانى ثورته على حاكم وهران الاسبانى، حافزا لكى يقود شارل الخامس بنفسه حملته الأولى على شمال افريقيا . ففى أوائل يونيو سنة ١٥٣٥ ، خرجت من برشلونة الحملة البحرية الكبرى وكانت تضم

---

(١) انظر هذه المذكرة فى documents Espagnols P. 67.

أربعمائة سفينة و ٢٨٠٠٠ جندي ، وبفضل هذا التفوق العددي واستنادا الى خيانة بعض الامــــراء المحليين وعلى راسهم الحسن الحفصى ، تمكن شارل الخامس بسهولة من الاستيلاء على تونس . ولم تفت الهزيمة فى عضد خير الدين ، ورأى ان يرد على الحملة بالمثل ، فشن غارة مفاجئة على جزر البليار ، وحمل من هناك ٦٠٠٠ اسير ثم عاد الى ميـنـــاء الجزائر ليستأنف الجهاد ضد القوى الأوربية الطامعة ، وهكذا لم تحقق حملة شارل الخامس سوى جـــزء يسير من اهدافها ، فقد قبل الحسن الحفصى ان يحكم تونس تحت حماية شارل الخامس ، كما تنازل لـــه عن ميـنـــاء حلق الوادي ، حيث اقام الاسبان حامية على نمط تلك الحاميات التى انشأوها على ساحل الشمال الافريقى .

وبعد مضي زمن قليل من هذه الحوادث استدعى السلطان خير الدين باشا ليعينه قائدا عاما للاسطول العثمانى مكافأة له على الأعمال الجليلة التى قام بها لخدمة الاسلام . وخلفه فى منصب البيلر بكويه حسن اغا ، وبينما ركز خير الدين نشاطه فى الفترة التالية فى شرق البحر المتوسط لم تنقطع جهود نيابة الجزائر فى الحوض الغربى ، ولذا قرر شارل الخامس أن يعيد الكرة على المغرب الاسلامى واختار فى هذه المرة مقر الزعامة بالجزائر لانزال حملته . جمع شارل الخامس فى سنة ١٥٤١ نحو ٣٦٠٠٠ جندى للقيام بالحملة ، واختار لقيادة أسطولها احد مشاهير القواد البحريين الاسبان اندريه دوريا ، وكان خير الدين قد حصن الميناء فأقام رصيفا يصل ما بين الساحل وبين الجزيرة المواجهة التى كان الاسبان قد اقاموا فيـ[illegible]ـعة ردحا من الزمن . واصبح من العســير غزو الميناء من البحر ، ولذلك اختـــــارت بعض الحملات الأوربية التى وجهت ضد الجزائر نقطة اخرى مجاورة للنزول الى البر . وهكذا فعل شارل الخامس ؛ ومع انه نجح فى انزال قواته الى البر ، الا ان حصون المدينة ردت الهجوم الأول وتصادف ان قامت (١)عاصفة اغرقت كثيرا من سفن الحملة مما شجع الجزائريين على الخروج لمهاجمة قوات الغزو التى فنى معظمها فلم يتمكن من العودة سوى عدد ضئيل . وهكذا سجلت نيابة الجزائر صفحة مجيدة فى تاريخ المغرب ، حيث تمكنت من الانتصــــار على أكبر الدول الأوربيــــة فى ذلك العصر وهى امبراطورية شارل الخامس ، وقد لجأ امبراطور الغرب بعد ذلك الى وسائل المؤامرات السياسية فعرض على الأمير العثمانى الاستقلال بحكم المغرب تحت سيادته ولكن خير الدين اطلع الباب العالى اولا بأول على تلك المحاولات وقد عرف القائد البحرى العظيم بتأييده لفكر التحالف العثمانى الفرنسى ، وساهم فعلا فى تحقيق مشروعاته حينما طلب اليه فرانسوا الأول المســـاعدة فى

---

(١) المدنى : حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر واسبانيا ص ٢٩٨ وما بعدها .

تخليص ميناء نيس من قوات شارل الخامس ، واتيح لخير الدين أن يعود الى موطن نجاحه الاول فى الحوض الغربى من البحر المتوسط سنة ١٥٤٣ ، وقضى شتاء هذا العام فى طولون مع قواته العثمانية . وادى مهمته بنجاح حيث تمكن الفرنسيون من استعادة نيس . ولم يكن هذا الحادث هو نهاية عهد اسرة خير الدين بالمغرب فاعترافا بمكانته فى شمال افريقيا عهدت حكومة الآستانة الى ابنه حسن باشا بمنصب البيلربكوية ثلاث مرات .

وقد كف الاسبان فترة طويلة بعد هذه الحوادث عن التفكير فى معاودة الكرة بمهاجمة الجزائر . ولذا نلاحظ أن ميدان الصراع بين القوى المغربية العثمانية من جهة وبين البحرية الاسبانية من جهة اخرى ، انتقل منذ العقد الخامس حتى سنة ١٥٧٤ الى تونس .

فى سنة ١٥٤٠ تمكن اندريه دوريا من الاستيلاء على عدة موان تونسية مثل سفاقص وسوسة ومناستير ، مما أثار حفيظة السكان على حكامهم الحفصيين لوهنهم أمام الغزو الأجنبى ، واضطر الحسن الحفصى ازاء انتشار الثورات الداخلية ، الى الرحيل الى اوروبا بحثا عن المساعدة . وفى هذه الاثناء حاول احد افراد الأسرة اغتصاب العرش ، ولكنه لم يكن بأقدر من سابقه على مواجهة الفوضى التى عمت البلاد . ومرة اخرى ظهر بحار عثمانى هو درغوث باشا ليملأ الفراغ فى تونس كما فعل خير الدين وعروج فى الجزائر . واصبح منافسا قويا لأندريه دوريا فى ميـاه المتوسط . وكانت الدولة العثمانية قد استولت على ميناء طرابلس الذى انتزعه مراد اغا من يد فرسان القديس يوحنا سنة ١٥٥١ ، فكافات الدولة هذا البحار بتوليته تلك النيابة العثمانية فى شمال افريقيا . ومن هذه القاعدة الثابتة ، استطاع درغوث باشا ان يحتل ميناء قفصة فى سنة ١٥٥٦ وأن يتوغل فى الداخل حتى القيروان التى احتلها واقام فيها حامية سنة ١٥٥٨ . ولكن الاسبان بمعونة الحفصيين ظلوا يسيطرون على شمال تونس . ومن الواضح ان جزيرة مالطة التى تقع بين حوضى المتوسط الشرقى والغربى وتتحكم فى مداخلهما تغدو هدفا للفريقين المتصارعين على سواحل تونس . وقد تجمعت القوى العثمانية المغربية لمحاصرتها فى سنة ١٥٦٥ . واستماتت فرسان القديس يوحنا فى الدفاع عنها ولذلك اضطر القائد العثمانى الى رفع الحصار بعد ان تكبدت قواته خسائر فادحة فى الأرواح وكان على رأس الضحايا درغوث باشا .

واذا كان درغوث باشا لم يصب سوى نجاح جزئى فى تونس . فان نيابة الجزائر قد اتمت تخليص ذلك القطر من الحكم الاجنبى . وقد لمعت اسماء عدة بحارة ممن تولوا نيابة الجزائر بعد خير الدين ، مثل صالح ريس وحسان بن خير الدين باشا سنة ١٥٥٧ ــ سنة ١٥٦٨ ، والعلج على الذى

تولى بعده ، وقد وقعت فى عهد هذا الأخير احداث هامة فى تاريخ البلاد ، بدأ علج على حكمه بتدبير خطة لاعادة الحكم الاسلامى الى اسبانيا وذلك بأن عقد اتفاقا سريا مع الثوار المسلمين الذين اعتصموا بجبال الاندلس ونجح فعلا فى انزال الأسلحة وبعض المتطوعة على الساحل الاسبانى فى اوائل سنة ١٥٦٩ . وفى هذه الأثناء سمع باستعداد دون جوان اميرالنمسا لغزو الجزائر ، فعدل عن هذه الخطة مؤقتا ، وصمم على التخلص أولا من القواعد الاسبانية الباقية فى تونس .

وقد كانت الدول الأوربية تخشى بشدة من توحيد المغرب تحت سلطة دولة اسلامية كبيرة مثل الدولة العثمانية . ولا يستثنى من ذلك فرنسا حليفة هذه الدولة فتذكر الوثائق أن سفير فرنسا بالآستانة كان قد الح على عزل حسن خير الدين من نيابة الجزائر لأنه كان معروفا بنواياه الرامية الى توحيد المغرب (١) تحت الحكم العثمانى . لذلك ظهر رد فعل عنيف لاستيلاء العثمانيين على تونس فى سنة ١٥٦٩ . فدعا البابا لتأليف حلف مسيحى هدفه الاحتفاظ لأوروبا بمراكزها الأمامية على الساحل الافريقى . وفى سنة ١٥٧١ التقت القوى العثمانية الاسلامية بأساطيل هذا الحلف فى معركة تعد من اهم المعارك فى تاريخ منطقة المتوسط وهى معركة « ليبانتو » (٢) وقد دارت هذه الوقعة قرب سواحل مالطة وتغلبت فيها قوى الحلف المسيحى . وترتب على ذلك توقف النفوذ العثمانى فى الحوض الغربى للمتوسط . واحتفاظ الاسبان ببعض الجيوب الساحلية فى شمال افريقية وبقاء جزيرة مالطة بيد فرسان القديس يوحنا حتى استولى عليها الانجليز سنة ١٨٠٢ .

وقد شجع هذا النصر اسبانيا على معاودة هجوم تونس سنة ١٥٧٣ واعادة حكم الحفصيين اليها . ولكنهم لم يحتفظوا بمراكزهم سوى عام واحد . وبعودة العثمانيين الى تونس سنة ١٥٧٤ استقر حكمهم بها وتأسست النيابة الثالثة فى شمال افريقيا .

وانتهى حكم الحفصيين الذى دام أكثر من ثلاثة قرون ، وقد وقعت فى سنة ١٥٨١ محاولة لاعادة حكمهم الى تونس ولكن هيبتهم كانت قد ضاعت ، فكانت هذه المحاولة اشبه بسحابة صيف .

وباقتراب القرن السادس عشر من نهايته اخذت حدة الصراع بين

---

(١) هذا نقلا عن Grammont P. 100. ويعد كتابه من افضل المراجع عن الجزائر فى العهد التركى .

(٢) انظر وصف هذه المعركة فى Lane-pool P, 160 s. q.

الدولة العثمانية وبين اسباب نهدأ نسبيا . فقد انحل الحلف المسيحي بعد معركة ليبانتو وانصرفت حكومة الآستانة عن الاهتمام بشئون المغرب . كما ان فيليب الثاني واجه عدة مصاعب داخلية ، وركزت حكومة مدريد اهتمامها بالمستعمرات التي تأسست حديثا في امريكا وهـذا من الأسباب التي تفسر لنا ضآلة عدد الحاميات التي وضعت في الجيوب الاسبانية ، والتي كان يسميها الاسبان بـ الـ Presidios ويمكن اجمال الأسباب الأخرى التي ادت الى انسحاب الاسبان من تونس والجزائر وطرابلس فيما يلي (١) :

اولا : قيام المنازعات بين السلطتين العسكرية والمدنية حول ادارة تلك الجيوب .

ثانيا : صعوبة تموين هذه المدن الساحلية نظرا لامتناع السكان عن التعاون مع الغزاة ، مما اضطر الاسبان الى نقل المؤن عبر البحر المتوسط ، فاصبحت هـذه الحاميات عبئا ثقيلا على ميزانية الدولة . لهـذا كله طلب فيليب الثاني توقيع هدنة مع الباب العالي في سنة ١٥٨١ ، ولكن النزاع بين اسبانيا ونيابة الجزائر كان يتجدد باستمرار طوال القـرنين السابع عشر والثامن عشر ، وذلك بسبب استمرار احتلال الاسـبان لوهـران .

انظمة الحـكم

نشأت في افريقيا الشمالية ثلاث ولايات عثمانية ، وهي حسب تاريخ تأسيسها : الجزائر ، فطرابلس ، فتونس وكانت الجزائر بالاضافة الى كونها اقدم تلك الولايات شبه عاصمة لشمال افريقيا العثمانية ، لذلك كان ممثل الدولة فيها يحمل لقب البيلربك اي رئيس البكوات ، ولكن هـذا الاشراف لم يدم طويلا . فقد انفصلت تونس اثر تمرد عسكري في سنة ١٥٩٠ . وصار يحكمها داي يتصل بالآستانة مباشرة .

على ان تبعية ولايات شمال افريقيا لحكومة الآسـتانة لم تكن يوما ما تبعية مباشرة سواء في عهد البيلربكوات العظام ام بعد انفصال تونس وتحول الجزائر الى باشوية . ومن ثم اعتاد الكتاب الاوربيون ان يسـموا الولايات الثلاث بـ Les Regences Barbaresques اي نيابات بلاد البربر باعتبار ان حاكمها يشبه نائب الملك ، او (Regent)

---

(1) Documents Espagnols P. 153. S Q.

فهو يتمتع بسلطات تامة داخل ولايته ، حتى ان تعيين القناصل لم يكن يتم الا بموافقته وبعد استرضائه بمبالغ معينة من المال ؛ والواقع ان عدم تدخل حكومة الآستانة فى الادارة الداخلية للولايات كانت ظاهرة عامة فى نظام الدولة العثمانية أنذاك ، ولكن استقلال ولايات شمال افريقيا لم يكن يقف عند حد الادارة المحلية ، بل كان يتجاوز ذلك الى التحكم فى اختيار الولاة حتى تأسست بعض الأسر الحاكمة مثل الأسرة الحسينية فى تونس والأسرة القرمنلية او القرقمنلية فى طرابلس ، بينما سيطر الجند والبحرية سيطرة تامة على نيابة الجزائر ، ولذلك يمكن القول بأن استمرار التبعية للآستانة كان امرا اختياريا حفز اليه شعور التضامن الدينى ، وكان اهم رمز لهذه التبعية استصدار الفرامانات لاقرار تعيين الحكام الذين اختارهم الاوجاق ، ثم الدعوة للسلطان العثمانى فى خطب الجمعة ، وكثيرا ما كانت النيابات الثلاث ترسل أساطيلها لمعونة الدولة فى بعض الحروب الا ان هذه المساعدات تعتبر اجراءات اختيارية ٠

وقد شهدت الجزائر تغيرات عدة فى نظام الحكم ٠ ويمكن التمييز بين أربع فترات مختلفة فى العهد العثمانى ، وتطابق الفترة الأولى عهد البيلربكوات سنة ١٥١٨ : الى سنة ١٥٨٨ ، وقد نجح الحكام العثمانيون خلال هـذه الفترة فى السيطرة على رجال الجيش والبحرية ، لكن شأنهم أخذ يتضاءل منذ هزيمة ليبانتو ٠ فألغت الاستانة نظام البيلربك وجعلت من الجزائر ولاية عادية يتولاها احد الباشوات الذين يعينون لمدة ثلاث سنوات فقط ، وذلك احتياطا من أن يسيطروا على شئون الولاية وخاصة فى تلك المناطق البعيدة عن مركز الدولة ٠

وتمتد المرحلة الثانية من سنة ١٥٨٨ حتى سنة ١٦٥٩ ، وفى خلالها فقد الباشوات سيطرتهم على الانكشارية ؛ وانتقلت السلطة الفعلية الى الأوجاق وهو المجلس الاعلى للجند ، وكان يتألف من ٢٤ ضابطا ممن وصلوا الى درجة صاغ وينتخب الاوجاق الاغا رئيس الجند والكخيا (وكيل الوالى) وقد اخذت اهمية الباشوات تتضاءل حتى تمكن الاوجاق فى سنة ١٦٥٩ من تنصيب احد اعضائه دايا او حاكما فعليا للولاية على نمط النظام المتبع فى تونس منذ الانقلاب الذى أحدثه الانكشارية بها سنة ١٥٩٠ ٠

ولم تطل هذه المرحلة من حكم الانكشارية فقد ادى النظام الذى اتبعه الأوجاق الى انتشار الفوضى ، لان الاغا الذى صار حاكما فعليا للبلاد ، لم يكن يستقر فى منصبه أكثر من شهرين حتى يفسح المجال للشخص الذى يليه فى الاقدمية ليتولى هـذا المنصب ؛ كما ان الاهالى الوطنيين استاءوا من استئثار الانكشارية بالسلطة ومالوا الى تأييد الطائفة او رؤساء البحر على الجند العثمانى الرسمى لعدة أسباب :

اولها : لان البحرية هى مصدر دخل رئيسى فى الجزائر ٠

وثانيها : لان الطائفة اصدق تمثيلا لعناصر السكان الوطنية ٠

ومن ثم وضع رؤساء البحر حدا لسيطرة الانكشارية بأن فرضوا أحد رجالهم على الأوجاق فى سنة ١٦٧١ ٠ وشاع منذ ذلك الوقت استعمال لقب داى لوصف حاكم النيابة وهو لقب من القاب الطائفة (١) ٠

وهكذا تبدأ المرحلة الرابعة التى استمرت حتى سنة ١٨٣٠ ٠

والواقع ان الانكشارية امتزجت على مر الزمن بطائفة الريسين ، ولذلك اختفى هذا الصراع بين الطائفتين على السلطة فى الجزائر تدريجيا ، وقد استقر بعض الدايات ازمنة طويلة فى الحكم خلال القرن الثامن عشر حتى سقوط النظام فى سنة ١٨٣٠ ٠ وان كان هذا لا ينفى حقيقة ظاهرة فى تاريخ الجزائر ، وهى أن معظم الدايات قد انتهت حياتهم بالقتل لاتفه الأسباب ٠

وقد تمت هذه التغيرات والباب العالى مستمر على ارسال الباشوات الذين يمثلونه فى الجزائر حتى قرر على داى فى سنة ١٧١٠ ، اخراج الباشا العثمانى من البلاد ، وصدقت الاستانة على هذا الاجراء كما صدقت من قبل على جميع التغيرات التى طرأت على نظام الحكم ، وأصبح دايات الجزائر يحملون فى نفس الوقت لقب باشا ٠

اقتصرت الادارة العثمانية فى عهد خير الدين على القسم الشمالى من الجزائر ٠ أما خلفاؤه فقد اهتموا بتوسيع دائرة نفوذهم جنوبا ، فأقيمت حاميات عثمانية فى بسكرة جنوب شرق الجزائر على حافة الصحراء ، وكذلك فى تلمسان بعد سقوط الدولة الزيانية ؛ بل ان صالح ريس أرسل فى سنة ١٥٥٢ طوابير عسكرية الى واحات ورغلة وتوغرت داخل الصحراء الكبرى ، ويذكر أحد المؤرخين الجزائريين (٢) أن السلطة العثمانية امتدت الى واحات الميزاب الموغلة فى الصحراء والتى تسكنها فرقة الاباضية وهى احدى الطوائف الدينية المشهورة فى المجتمع الجزائرى ، ولكن الكتاب الفرنسيين

---

(١) يختلف الكتاب فى اصل هذه الكلمة ، فمن قائل بأنه تحريف تركى عن كلمة داعى التى كانت تعنى رئيس المائة فى الجيوش الاسلامية ومن قائل بأن داى معناها العم بلهجة الريسين من رجال البحر ؛ وهذا هو الارجح ٠

(٢) تحفة الزائر ص ٦٧ ٠

يحاولون على العكس التقليل من اهمية الحكم العثماني في الجزائر . فيقولون انه كان مقصورا على الساحل وانه لم يبلغ في امتداده ما بلغه الرومان الذين حكموا شمال أفريقيا في العصور القديمة ، وأن الجزائر العثمانية لم تصل يوما ما الى مساحة الجزائر الفرنسية .

ولهذه المغالطات التاريخية أهداف سياسية واضحة ، فكان الفرنسيون يريدون القول بأن الجزائر بحدودها الجغرافية الواسعة انما هي من خلق فرنسا في العصور الحديثة ، وان المحاولة الأولى لتوسيع حدود الجزائر تمت في عهد امبراطورية أوربية استعمارية قديمة هي الامبراطورية الرومانية التي يعتبر الفرنسيون انفسهم ورثة لها .

والحق ان الجزائر كوحدة سياسية قائمة بذاتها انما تم تشكلها خلال العهد العثماني .

ولم يكن من طبيعة الحكم العثماني ان يرتكز على ادارة مباشرة . ولعل هذا هو ما يبرر للكتاب الفرنسيين مغالطتهم ، ففي خارج المدن كان العثمانيون يعتمدون على محالفات القبائل ، وقد انخرط بعضها في خدمة الحكومة . وكانت هذه تعرف باسم الزمالة من الزمول وهو المعسكر أو بالدوائر ، وتقوم هذه القبائل بجمع الضريبة من القبائل الاخرى نظير اعفائها هي ، على ان الادارة العثمانية تركت فعلا بعض التكتلات القبلية القوية وخاصة في بلاد القبايل دون التدخل في شئونها واكتفت بالنسبة لبعضها بتلقي جزية أو على الأصح هدايا غير منتظمة تدفع للحاكم بالعاصمة .

ونظام اداري كهذا الذي وصفناه لا يحتاج الى قوات نظامية كبيرة العدد ، وهكذا لم يزد عدد الانكشارية في الجزائر عن ٦٠٠٠ رجل نصفهم يرابط بالعاصمة . وقد عمد خير الدين منذ بداية عهده بالبلاد الى تجنيد فرق من الاهالي : بربر ، ومغاربة وأسرى أوربيين اعتنقوا الاسلام ، وتجاوزت هذه الفرق في معظم الاحيان عدد الانكشارية فبلغت ثمانية آلاف .

ويبدو أن خير الدين فعل ذلك ليوازن بهذه القوات الوطنية نزعة الانكشارية الى التسلط . واشتهرت بعض القبائل الجزائرية بالتخصص في الخدمة العسكرية لدى العثمانيين مثل قبيلة الزواوة حتى أن الفرنسيين اطلقوا على الفرق الجزائرية التي تعمل لديهم اسم Zouaves زواف وهو على ما يبدو تحريف عن كلمة زواوة . وظهرت في الجزائر كذلك طبقة خاصة من الجند العثماني تعرف بالقولغلان أو القورغلي ، وهي تتكون من ابناء الجند الاتراك الذين تزوجوا بنساء من أهل البلاد . وقد وكل الى

هذه الطبقة فى الغالب المحافظة على الأمن الداخلى فى الاقاليم ، وظل الأوجاق مرتبطا بطائفة الانكشارية ورجال البحر . وينظر الى تلك الطبقات من الجند المحليين على انها فرق من الدرجة الثانية . ويبدو أن الانكشارية تغاضت عن انشاء هـــذه الفرق نظـــرا لأن غنائم الحروب البحرية كانت توفر لهم مرتبات كافية .

ولمـا استقر نظام الدايات ، تكون فى مدينة الجزائر ديوان مستقل هـــو اشبه بمجلس وزراء . اذ أن كل عضو من أعضاء الديوان الخمســة كان يختص بناحية من نواحى الادارة . فهناك وكيل الخرج المختص بشئون البحرية ، والبيت مالجى المختص بالشئون المـالية ، ورئيس أمن مدينة الجزائر ، وناظر القصر ، ورئيس الخيل الذى كان حلقة الاتصــــال بين القبائل والحكومة (١) .

كان الداى يتخذ مقره فى أعلى مدينة الجزائر بضاحية تعـــــرف بالجنينة ، حتى انتقل « عمر باشا » سنة ١٨١٥ الى القصبة اى القلعة فى أسفل المدينة على البحر ليكون فى مأمن من الاضطرابات التى كثرت فى ذلك العصر ، ولقد تجمعت لدى الدايات ثروة ضخمة كانت تستمد من الهدايا التى يقدمها قناصل الدول الأجنبية ، ومن نصيبه فى غنائم البحر ، ثم ما يتلقاه من اتاوات نظير تعيين حكام الاقاليم والنواحى .

وقد ازدهرت مدينة الجزائر فى العهد العثمانى وخاصة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقدر ســـكانها فى ذلك العصر بنحو مائة الف : ولكن شانها أخذيضمحلمنذ القرنالثامن عشر حتى انه عندماتماستيلاء الفرنسيين عليها سنة ١٨٣٠ . كان سكانها قد هبطوا الى ٣٠٠٠٠ وقــــد وصفها احد الرحالة الاسبان دى هايدو الذى زار المدينة فى سنة ١٥٨٠ ، فقال « لقد انتشرت بها القصور المشيدة على الطراز الأندلسى والتى كان يجلبه لها الرخام من ايطاليا ، وقد عجت هـــذه القصور باجمل ما ابدعه الفن الاوربى من تحف ، والتى كان يسببها القراصنة من السفن الاوربية » .

وكانت الجزائر فى العهد العثمانى مقسمة الى اقاليم ثلاثة رئيسية : قسنطينة فى الشرق وهى أكبر تلك الاقاليم ، ويليها اقليم وهـــران فى الغرب وكانت عاصمته معسكر التى ستصبح فيما بعد مقر حكومة الامير عبد القادر ، وقد نقلت عاصمة الاقليم الى وهران بعد جلاء الاسبان عن الميناء سنة ١٧٩٢ . أما الاقليم الثالث فهو تيطرى وكانت عاصمته مدية ، وكان البكوات الذين يحكمون تلك الاقاليم بمثابة ملتزمين يؤدون مبالغ معينة

---

(1) Julien : histoire de L' Afrique du Nord Chap 18

سنويا الى الداى ، على أن يقوموا بجمع الضرائب على مسئوليتهم فى الاقليم . وكانت الاقاليم بدورها مقسمة الى قيادات ، وتوزع هذه القيادات احيانا على أساس جغرافى واحيانا حسب توزيع القبائل . وقد أبقت الادارة الفرنسية على هذه الوحدات الادارية وخاصة فى المناطق التى لم ينتشر بها الاستعمار الأوربى ، وما زالت المراكز تعرف باسم القيادة فى شمال افريقيا حتى وقتنا الحاضر ، ويسمى رئيس المركز بالقائد ، وفى العهد العثمانى كان منصب حاكم الاقليم مقصورا على الاتراك . أما القواد فيختارون من بين الاتراك أو السكان الأصليين على السواء ، وجريا على عادة الادارة العثمانية لم يحدث اى تدخل فى حياة السكان الاجتماعية ولذلك ظل النظام القبلى سائدا فى الجزائر . وقد اشرنا الى أن بعض القيادات كانت تتمشى مع توزيع القبائل .

ولكن فى خلال القرن الثامن عشر ، ظهرت تكتلات قوية من نوع جديد وذلك نتيجة لتزايد نفوذ الطرق الصوفية ، ومن اهمها فى الجزائر طريقة الدرقاوية . والتيجانية . ولهذه الطرق الفضل فى صهر القبائل فى وحدات اجتماعية أكبر . بل انها نجحت فى ادماج عنصرى العرب والبربر ، بيد انها كانت تثير القلاقل فى وجه الادارة العثمانية وقد عمد بعض سلاطين مراكش الى استخدامها لاثارة الاضطرابات ضد حكومة الجزائر .

ويلاحظ أن اصطدام الادارة العثمانية برجال الطرق قد تفاقم فى بداية القرن التاسع عشر . فهاجم أحد زعماء التيجانية مدينة قسنطينة واحتلها فترة قصيرة خلال سنة ١٨٠٣ ، كما أن رجال الطريقة الدرقاوية اشتبكوا مع السلطات العثمانية فى وهران عدة سنوات .

ولذلك يمكن القول بأن الطرق كانت عامل وحدة وتفكك فى نفس الوقت .

أما فى تونس فقد قام سنان باشا بأول محاولة لتنظيم ادارتها اثر فتحها سنة ١٥٧٤ وانتفع كثيرا بالنظم المتبعة فى عهد الحفصيين . واعتبرت تونس باكوية تابعة للجزائر حتى شعرت حاميتها التى وصل عددها الى اربعة ألاف بقوتها فحاولت أن تقلد أوجاق الجزائر ، ولكن بدلا من أن تنتخب الاغا كرئيس للأوجاق ، تجاوزت ذلك ففرضت أحد أفرادها حاكما للنيابة باسم الداى . وفعلا وافقت حكومة الاستانة على هذا التغيير . وتولى ابراهيم رودسلى ولاية تونس باسم الداى سنة ١٥٩٠ . وهكذا سبق ظهور نظام الدايات فى تونس ، وان كانت الجزائر قد اشتهرت به نظرا لأنه استقر هناك فترة اطول . اما فى تونس فقد قضى البايات — وهم حكام الاقاليم — على نفوذ الدايات منذ منتصف القرن

السابع عشر . ومن أعظم الدايات الذين تولوا حكم تونس فى الفترة الأولى عثمان داى من سنة ١٥٩٤ — سنة ١٦١٠ ويوسف داى من سنة ١٦١٠ — سنة ١٦٣٧ . وقد وضع الاول نظام حكومة الاقاليم ووزع عليها البكوات وحدد لكل اقليم مقدار المجبى أو الضريبة المفروضة عليه (١) .

وكان الأسطى مراد من سنة ١٦٣٧ — سنة ١٦٤٠ آخر الدايات العظام فى تونس ويبدو من لقب هــذا الداى انه نشأ بين طائفة الريسين ، ومع ذلك لم تلعب البحرية فى تونس ذلك الدور الرئيسى الذى لعبته فى الجزائر ، فكانت موارد البلاد لا تستمد بصورة أساسية من حركة الجهاد فى البحر ، وانما كانت التجارة والملاحة السلمية تشكل عنصرا هاما من عناصر الاقتصاد التونسى . وكانت تونس على صلات تجارية بوســط افريقيا واستخدمت موانيها لتصدير بضائع تلك المنطقة الى أوربا .

وفى اواسط القرن السابع عشر استطاع احد حكام الأقاليم وهــو مراد بك ان يخضع حكومة الداى فى تونس لنفوذه الشخصى ، بل انه ورث منصبه لأبنائه فتكونت شــبه اسرة حاكمة فى تونس تعرف باسم الأسرة المرادية واستمرت تسيطر على البلاد حتى سنة ١٧٠٢ . ولذا يمكن القول بأنها مهدت السبيل أمام حسين على لكى ينشىء بدوره أسرة حاكمة اكثر استقرارا فى تونس . وقد حصل مراد بك على لقب الباشوية من الباب العالى وهو لقب كان يحمله الداى بصفته لقبا شرفيا ، أما لقب الباى فكان يرمز فى تونس الى تولى منصب هام هو فى الغالب منصب ملتزم الضريبة فى اقليم أو رئيس الجند . ولذلك سيتمسك به افراد الأسرة الحسينية بالرغم من ان الباب العالى كان يمنحهم لقب الباشوية .

وكما سيفعل ابناء الأسرة الحسينية استعان البايات المراديون بعضهم ضد بعض بدايات الجزائر . واستغل هؤلاء الفرصة فاشترط احدهم وهو ابراهيم خوجة ان تدفع تونس للجزائر جزية سنوية فى نظير مســاعدته محمد باى ضد اخيه سنة ١٦٨٥ وانتهى هذا الحــال بأن تمكن ابراهيم الشريف داى من استعادة مركزه كزعيم للأوجاق ووال لتونس ، ولكن عودة الدايات كان بمثابة الانتفاضة الاخيرة التى تسبق الموت . فسرعان ما قام أحد ضباط الانكشارية ، وهو حسين على ، بانقلاب هام قضى على نظــام الدايات ووضع الأساس لأسرة حاكمة فى تونس . هى الأسرة الحسينية التى امتد حكمها من سنة ١٧٠٥ حتى اعلان الجمهورية سنة ١٩٥٧ (٢) . ويقول أحد المؤرخين المحدثين الذين خدموا هــذه الأسرة إن حسين على كان

---

(١) المؤنس لابن دينار ص ١٨٣ .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب ص ١٣٤ .

كخيا لآخر الدايات وانه لما خلت السلطة بأمر ذلك الداي انتخبه علماء تونس واليا للبلاد (١) .

وتهتم المراجع الاوربية بابراز اصل حسين على اليونانى ، واذن فهو من فئه المعامرين الذين اعتنقوا الاسلام وكان لهم بعد ذلك شان فى الجيش العثمانى . وقد استطاع حسين على بعد خمس سنوات من استتباب الحكم له ان يعلن عن نيته فى توريث الحكم لابناء اسرته ، وسرعان ما ظهرت الخلافات ابان حياته حول وراثة الحكم . وذلك عندما انجب اولادا . فثار ضده ابن اخيه على باشا الطامع فى وراثة الحكم وقد تمكن فعلا من الاستيلاء على تونس وتتبع حسين حتى قتله فى مدينة القيروان سنة ١٧٣٥ . وامتاز حكم على باشا بالاستمرار والتفوق فى مكافحة النفوذ الاجنبى . وخاصة تحرير الشواطىء التونسية من بعض الحصون التى انشاتها الدول الاوربية طبعا لمعاهدات سابقة . وكان احد ابنائه المدعو يونس قد ساهم بالقسط الاكبر فى هذه الاعمال حتى حسده ابوه واخوته . وادى هذا الموقف الى تدخل داى الجزائر . وكان محمد بن حسين على المؤسس لاجئا لديه فانتهز الفرصة وتدخل باسمه . وفى سنة ١٧٥٦ تمكن من الاستيلاء على تونس واعادة محمد الى حكمها بعد الاتفاق على دفع جزيه سنوية على شكل كميه من الزيت بقصد انارة المسجد الكبير فى الجزائر ، وقد استمر دفع هذه الجزية حتى وقعت الحرب بين النيابتين من سنة ١٨٠٦ — سنه ١٨٠٩ .

لم يدم حكم محمد باى اكثر من ثلاث سنوات ، وترك اطفالا صغارا ، فاستاثر بالحكم اخوه على الذى ورثه لاكبر شخصية من شخصيات الاسرة وهو ابنه حمودة باشا الذى حكم من سنة ١٧٨٢ — سنة ١٨١٤م وقد تعرضت تونس خلال حكمه لعدة حملات عسكرية ، واستطاع ان يرد العدوان على نحو ما سنرى فى الفصل التالى الخاص بالعلاقات الخارجية .

وقد ظلت الاسرة الحسينية محتفظة بطابعها التركى سواء فى حياة القصر أم فى الاعتماد على طائفة الانكشارية ، ومن مظاهر ذلك جعل المذهب الحنفى مذهبا رسميا للدولة بالرغم من ان المذهب السائد فى شمال أفريقيا هو المذهب المالكى ، ولكن حمودة باشا الذى كان معروفا بحب التسلط لم يتحمل صلف الانكشارية وغرورها ، وعمد الى تجنيد فرق من القبائل العربية وسكان المدن مما اثار حفيظة الجند الاتراك عليه ؛ فقام ضباط الانكشارية بمحاولة انقلاب لاسقاط الاسرة الحسينية التى قطعت عليهم سبل

---

(١) نفس المرجع ص ١٣٨ .

الوصول الى السلطة العليا ، وتمكن الثوار فعلا من الاستيلاء على قصبة المدينة ولكن الجند العرب والقولوغلان أظهروا ولاء لشخص الباى وانقذوا الاسرة الحسينية . وقد سرح حمودة باشا اثر هـذا الحادث الحامية التركية (١) ، الا ان ذلك لم يقطع نهائيا صلات الاسرة بحكومة استانبول ، بل ان تونس بحكم موقعها الجغرافى كانت أكثر اتصالا بالعالم العثمانى ، واشد تأثرا بالتيارات السياسية والاجتماعية التى شهدتها الولايات العربية فى المشرق خلال القرن التاسع عشر .

(1) Faucon Vol 1 P. 175 S. q.

الفصل الثاني

العلاقات الخارجية

اظهر الحكام فى النيابات الثلاث التى تأسست فى شمال أفريقيا نزعة شديدة نحـــو الاستقلال بتصريف شئون ولاياتهم الخارجية دون التقيد بأوامر الدولة صاحبة السيادة ومن جهة اخـــرى لم تعمل حكومات تلك النيابات على تنسيق سياستها الخارجية فيما بينها بالرغم من اشتراكها جميعا فى حركة النضال او الجهاد بأسلوب العصر ضد الدول الأوربية التى شملت اعتداءاتها سواحل المغرب بأسره ، ولا تختلف النيابات المغربية فى هـــذا الموقف عن دول الخصوم على الشاطىء المواجه للبحر المتوسط ٠ فكما تعارضت السياسة الفرنسية مع السياسة الاسبانية ازاء الشمال الافريقى ، فكذلك تباعدت سياسة تونس عن الجزائر تباعدا تاما منذ ان انفصـــلت النيابة الأولى عن تبعيتها للثانية ونشأت بين الدولتين مشكلة حدود ، وكلما قامت حكومة قوية فى تونس طمحت الى ضم اقليم قسنطينة ٠ حدث هذا مثلا عندما استولى مراد بك على السلطة فى تونس فى منتصف القـــرن السابع عشر ٠ كذلك كان الدايات الاقوياء فى الجزائر يطمحون الى اخضاع نيابة تونس بأسرها ، وقد أشرنا الى محاولتين من هـــذا النوع فى الفصل السابق ، وكانت اهمها تلك المحاولة التى أسفرت عن الزام تونس بدفع جزية للجزائر سنة ١٧٥٦ ٠ وقد بلغ الصراع بين النيابتين الى حد أن بايات تونس قدموا المساعدات للاسبان عندما كان هؤلاء يصطرعون مع الجزائريين من أجل ميناء وهران ، وسنرى كيف أن البايات اتخـــذوا نفس الموقف المعـــادى عندما قام الفرنسيون بغزوهم الكبير سنة ١٨٣٠م ٠

وكثيرا ما كانت الدولة العثمانية تتوســـط فى النزاع بين النيابتين مذكرة بالوشائج الروحية التى تربط فيما بينهما ، فكان الدايات والبايات يلبون هـــذا النـــداء بدافع من انفسهم أحيانا ، واحيانا اخرى مضطرين

تحت ضغط الرأى العام الاسلامى ، مثال ذلك اضطرارهم عند قيام الحملة الفرنسية على مصر الى اعلان الحـرب على فرنسا ، وكذلك اشـتراك أساطيل النيابتين فى معركة نفارين بجانب الاسطولين المصرى والعثمانى ، مما اعطى للمعركة صورة اسطول اسلامى فى مواجهة أسطول مسيحى • وقد اراد الباب العالى ان يزيل سببا من اهم اسباب النزاع بين تونس والجزائر الا وهو مشكلة الحدود ، فتوسط لعقد اتفاقية بينهما لتخطيطها كان أولها وآخرها اتفاقية سنة ١٨٢١ وهى أقرب الى أن تكون اتفاقية حدود دولية منها الى تخطيط حدود ادارية بين ولايتين (١) •

اما العلاقات بين النيابات المغربية واوربا فكانت على اسوا ما تكون فى معظم العصر العثمانى ، وذلك بسبب الروح الصليبية التى تزعمتها اسبانيا وحركة الجهاد فى البحر التى تزعمتها الجزائر • ولذلك كانت علاقة هـذه النيابة اشد سوءا مع اوربا ، وقد كثرت كتابات الاوربيين فى هذه الفترة حول ما اسموه بقرصنة (النيابات البربرية) ، والواقع ان العلاقات بين تلك النيابات وبين أوربا لم تكن تدخل فى دائرة القانون العام ، لان المسلمين كانوا يعتبرون البحر المتوسط بحرا اسـلاميا ، وبالتالى فليس للدول المسيحية ان تمارس الملاحة فى مياهه دون أن تحصل على ترخيص من الدول الاسلامية ، وذلك بتوقيع معـاهدة او اتفاقية معها • ولم تكن حكومة الجزائر تكتفى بالمعاهدات المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية فلم تاخذ بعين الاعتبار قيام التحالف التقليدى بين الاستانة وفرنسا ، ولذلك كانت تتطلب توقيع معاهدات خاصة معها ، وحتى فى عهد البيلربكوات عارض حسن فنزيانو استقبال القنصل الفرنسى فى مدينة الجزائر سـنة ١٥٧٩ الى ان ارسلت الاستانة خطاب تهديد ؛ ومع ذلك لم يتحمل الجزائريون بقاء القناصل الفرنسيين فى عاصمتهم • وقلدتهم حكومة تونس فى عهـد الداى عثمان فطردت ممثلى فرنسا من اراضيها وعندما جدد هنرى الرابع اتفاقية الامتيازات مع الدولة العثمانية سنة ١٦٠٤ ارسـل سفيره فى الاستانة الكونت سافارى دى بريف فى بعثة خاصـة الى تونس والجزائر حيث وقع مع داى تونس واوجاق الجزائر اتفاقيات على حدة تتناول مسألة تحـرير الاسرى الفرنسيين واحترام السفن الفرنسية فى البحر (٢) •

ولم تكن المشكلة مقصورة على مدى التزام حكومات النيابات بتنفيذ معاهدات الدولة العثمانية ، بل ثمة مشكلة مراعاة رؤساء البحر (الريسين)

---

(1) Grammont P. 313.

(٢) نشر الكتاب الفرنسيون المراسـلات المتبادلة بين حكومتهم وبين قناصلهم فى كل من تونس والجزائر ، وهى تبدأ سنة ١٥٧٩ حتى سنة ١٨٣٠ • انظر عنوان تلك المراسلات فى ثبت المراجع •

لاتفاقات حكوماتهم ولعل هـذا هو ما يبرر للكتاب الأوربيين وصف رؤساء البحر المغاربة بانهم قراصنة ، ولكن هناك مغالطة ظاهرة فى هـذا الوصف اذا ما طبقنا عليهم مقاييس عصرهم ؛ لأن بحارة الدول الاوربية كانوا يسلكون تماما نفس السلوك ، فقد كان من التقاليد الشائعة لدى الدول البحرية فى اوربا ان تمنح الحكومات لبعض الأفراد الذين اشتهروا بالمغامرات البحرية تراخيص تعطيهم الحق فى استخدام سفنهم الخاصة لمهاجمة سفن اعداء الدولة ، وبذا يضيفون قوة الى اساطيل دولهم . هكذا كان مثلا حال البحار الانجليزى الشهير فرانسيس دريك الذى يعد من بناة الامبراطورية البريطانية فى عصر اليزابيث . ومن الواضح أن هؤلاء الأفراد الذى يعملون لحسابهم الخاص لا يمكن السيطرة عليهم فكثيرا ما كانت الغنيمة تدفعهم الى عدم الالتزام بارتباطات حكوماتهم ، فيهاجمون سفن الأعداء والأصدقاء على السواء ؛ وقد هيأت الطبيعة للجزائر وسائل التفوق البحرى فساحلها يمتد على مسافة ١٢٠٠ كيلو متر فى مواجهة سواحل ايطاليا وفرنسا ؛ وتجلى هـذا التفوق بصورة خاصة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وامتد نشاط البحرية الجزائرية خارج البحر المتوسط حتى وصل بحار الشمال . وليست حركة الجهاد فى البحر من مستحدثات النيابات العثمانية بل ذكر ابن خلدون (فى القرن الرابع عشر) أن أهل بجاية كانوا يمارسون الجهاد ضد السفن الأوربية ؛ وانما اشتدت تلك الحركة فى القرن السادس عشر نتيجة لسياسة اسبانيا العدوانية وهجرة المسلمين من الأندلس ، وكان دافع الجهاد اوضح فى هذا القرن منه فى الأزمنة التالية حين اختلط بدافع الكسب المادى واصبح شبيها بالمشروعات التجارية فيساهم الاغنياء فى تجهيز مراكب الجهاد (حتى النساء كن يبعن حليهن للمساهمة فى تلك المشروعات) فيصيبون اجر محاربة الكفار بجانب تلك الغنائم الوفيرة . وقد يقع بحارة سفن الأعداء اسرى فى أيديهم فيطلبون فيهم فدية كبيرة حسب اهمية شخصياتهم والا احتفظوا بهم رقيقا .

وتعد مسألة استرقاق الاسرى وافتدائهم من اهم المسائل التى شغلت العلاقات بين نيابات المغرب واوربا . ويقف الكتاب الاوربيون من هـذه المسألة نفس الموقف المتحيز الذى ينظر الى المشكلة من زاوية واحدة فيشكون من كثرة عدد الرقيق المسيحى فى النيابات وقد بلغ فى بعض السنوات ثلاثين ألفا فى الجزائر وسبعه آلاف فى تونس ، ويتغاضون عن آلاف الرقيق المسلمين الذين غصت بهم أسواق ايطاليا وكان فى مالطة وحدها نحو عشرة آلاف . وقد استمرت عادة استرقاق المسلمين حتى نهاية القرن الثامن عشر بدليل ان نابليون حين احتل مالطة سنة ١٧٩٨ وجد الفين منهم فحررهم على أمل استرضاء العالم الاسلامى قبيل حملته على مصر . هـذا مع ملاحظة ان معاملة الأسرى المسيحيين فى البلاد الاسلامية

ربما كانت افضل بشهادة شيلر (١) القنصل الأمريكي في الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر الذي قال « لقد سمح للذين كان يؤتمن عليهم من الهرب بممارسة الاعمال المربحة حتى ان بعضهم ترك الجزائر آسفا واشتغل بعضهم في الحكومة . وكانت أبواب السجون تفتح للرهبان الذين يتصلون بالأسرى بحرية تامة » . ولا شك أن القصص التي انتشرت عن تعذيب هؤلاء الأسرى وآلامهم في سجون الجزائر وتونس انما روجها بعض رجال الدين الذين كان لهم مصلحة في المبالغة حتى يستدروا عطف المحسنين وأهم من ذلك جيوبهم . وقد شاء القدر أن يقع سيرفانتيز امير شعراء اسبانيا في القرن السابع عشر في أسر بحارة الجزائر فاكد هذه الفكرة بما كتبه من شعر حول أيام الأسر . ولم يكن لدى المسلمين في ذلك الوقت أدباء يهتمون بهذه الشئون الواقعية . ولكن الحكومات الاسلامية لم تهمل شئون الاسرى ، فمثلا الح مولاى اسماعيل في مراكش ودايات الجزائر على لويس الرابع عشر في تحرير الأسرى المسلمين ولكنه رفض لانه كان يسخرهم لأعمال التجديف الشاقة في الاسطول الفرنسي . وقد تخصصت بعض الطوائف الدينية فيموضوعافتكاك الاسرى وافتدائهممثلطائفةاللازاريين وطائفة الترينتيه ، وكثيرا ما كانت الحكومة الفرنسية تختار قناصلها من بين آباء تلك الطوائف لان أهم عمل كانوا يقومون به هو مسألة افتكاك الأسرى .

وهناك موضوع ثالث كان له أهمية في العلاقات بين النيابات المغربية واوروبا ؛ وهو يتعلق بالاتاوات والهدايا التي ألزمت معظم الدول البحرية بتقديمها لحكام النيابات وخاصة حكومة الجزائر نظير تأمين ملاحتها في البحر المتوسط . وقد استمرت بعض الدول الصغيرة تدفع هذه المبالغ الى أن تدهورت قوة الجزائر البحرية قبيل الغزو الفرنسي . اما فرنسا فقد كفت عن تقديم الهدايا منذ عهد نابليون وكانت الدول البحرية الصغيرة مثل السويد والدانمرك والجمهوريات الايطالية تدفع اتاوات معينة بصورة منتظمة . اما الدول الكبيرة فكانت تقدم ذلك على شكل هدايا بمناسبة توقيع معاهدة او تعيين قنصل جديد ، ولا تكاد دولة مسيحية تخرج عن هذا الالتزام ؛ وحتى الولايات المتحدة حينما انفصلت عن بريطانيا واصبحت دولة مستقلة طلب اليها دفع الاتاوة . وسنعطي فيما يلي صورة عن هذه الاتاوات نقلا عن احد الكتاب الجزائريين ؛ هو صاحب كتاب تحفة الزائر ، مع مقارنتها بالأرقام التي ذكرها ضابط انجليزي هو جاكسون الذي اشترك في الحملة الانجليزية ضد الجزائر سنة ١٨١٦ .

اولا : حسب صاحب التحفة كانت :

بريطانيا : تؤدي ٦ آلاف جنيه .

(1) Barbour P. 33.

فرنسا : تقدم هدايا كلما تغير القنصل ٠
الدانمرك : تقدم آلات حربية بما قيمته ٤ آلاف ريال ٠
هولندا : تؤدى ٦٠٠٠ ليرة ٠

مملكة نابولى : تؤدى ٢٤ الف ليرة ٠

سردينيا : تؤدى ٦ آلاف ليرة ٠

الولايات المتحدة : تقدم هدايا بما قيمته ٤ آلاف دولار عدا عشرة آلاف دولار نقدا ٠

تقـدم كل من النرويج وامارتى هانوفر وبريم بالبلطيق ٦٠٠ ليرة سنويا (١) ٠

اما جاكسون فيعطى تقديرات اخرى ويضيف أنها دفعت فقط سنة ١٨٠٢ بمناسبة قيام حرب نابليون ومحاولة جميع الأطراف شراء صداقة الجزائر وهى كما يلى مقدرة بالقروش :

بريطانيا : تقدم ١٨٠ الفا ٠

فرنسا : تقدم ٢٣٥ الفا ٠

الدانمرك : تقدم ١١٢ الفا ٠

هولندا : تقدم ٧٥ الفا ٠

مملكة نابولى ١٨٧٫٥٠٠ الف كفدية عن ٧٥ أسيرا ، ويضيف الى هـذا أن البرتغال قدمت سفينة و ٦٧٤ الف قرش كفدية عن أسراها ، ١٢٠ الف فرسن أخرى لتسترد ٧ سفن صغيرة من الجزائر ٠ ويقـدر مجموع ما حصلت عليه الجزائر من الدول الأوربية فى هـذا العام بمليون و ٨١٨ الف فرسن (٢) بينما يقدر ايرادات البلاد من مواردها الداخلية بالاضافة الى الجزية التى كانت تدفعها تونس بمليون ومائة الف فرسن ٠

ويلاحظ اختفاء اسبانيا من بين قائمة الدول التى تدفع الاتاوات ، والواقع أن استمرار احتلال القوات الاسبانيه لميناءى وهران والمرسى الكبير فى ارض الجزائر قد جعل الاتصال السلمى بأى شكل من الأشكال امـرا مستحيلا بين البلدين ، فلم تفكر اسبانيا فى محاولة ارسال قناصل يمثلونها فى الجزائر ، وانما قررت الاحتفاظ بهذين الجيبين على امل اتخاذهما

---

(١) تحفة الزائر ص ٨٠ ـ Jackson P. 68 -

(٢) كانت قيمة الفرسن تبلغ خمسة شـلنات . أو كرونة ـ ربع جنيه انجليزى ٠

قاعدة للوثوب على المسلمين في شمال افريقيا حينما تسنح الفرصة ، ومع ان قوة الجزائر البحرية قد بدا عليها الضعف منذ نهاية القرن السابع عشر الا ان الدايات لم يكفوا عن النضال من اجل تخليص البلاد من الاحتلال الاجنبي . فانتهزوا فرصة حرب الوراثة الاسبانية واخرجوا الحامية من وهران سنة ١٧٠٨ ولكن الاسبان ظلوا يترقبون الفرص حتى تمكنوا من العودة في ١٧٣٢ ، ولم تتمكن حكومة الجزائر من التخلص من الاسبان نهائيا الا بفضل الداى محمد باشا المعروف بالمجاهد والذى امتد حكمه على خلاف العادة من سنة ١٧٦٦ - ١٧٨٨ . وقد اشتهر الداى محمد بجانب كفاحه ضد الاسبان بجهوده في ميادين التعمير وبسط الامن والرخاء في البلاد وكان يعاصره كحاكم لوهران عثمان باشا الكردى ساعده الايمن في الجهاد .

عمل محمد باشا اولا على حشد القبائل بواسطة الزعماء الدينيين حتى يشتركوا في حصار المراكز الاسبانية . وقد استطاع بفضل هذه السياسة ان يحول القبائل العربية التى كانت تنزل قرب المراكز الاسبانية ، وترغم على تادية مقدار من الحبوب كجزية للغزاة الى تبعية الحكومة الجزائرية . فلما ضيق الخناق على الاسبان اصبح كثير من الجند يفرون الى خارج هذه المراكز ويعتنقون الاسلام املا في الوصول الى منصب لدى الحكومة الجزائرية . ولم يقف نشاط الداى محمد عند حصار الاسبان داخل الجزائر ، بل شجع البحرية الجزائرية على العودة الى مهاجمة سواحل اسبانيا ذاتها . وازاء هذا قرر شارل الثالث ملك اسبانيا أن يقوم بحملة كبيرة ضد ميناء الجزائر سنة ١٧٧٥ . وفى ٨ ابريل استطاع الاسبان النزول في وادى حراش غرب مدينة الجزائر ولكن على عكس ما سيحدث عند وقوع الغزو الفرنسى سنة ١٨٣٠ لم ينتظر الداى نزول الغزاة الى الارض واستقرارهم بل أسرع لملاقاة الجنود اثناء نزولهم ولذلك تمكن من حصد ٤ آلاف رجل من بين ٢٢ الفا كانوا يؤلفون هذه الحملة (١) . ولم يجد شارل الثالث بدا بعد هذه الهزيمة من محاولة الصلح مع حكومة الجزائر ، فوسط الباب العالى لهذا الغرض ، ولكن محمد باشا أصر على ترك وهران اولا . ومما زاده تمسكا بموقفه ان شارل الثالث كان يسعى في نفس الوقت الى تاليف حلف صليبى من امارات ايطاليا تحت رعاية البابابيوس السادس ؛ الا انه فشل في تكوين هذا الحلف فعاد الى توسيط الباب العالى سنة ١٧٨٣ ولكن دون جدوى . وعلى اثر ذلك عاد شارل الى تجربة القوة . فأرسل حملتين كبيرتين ، كانت الثانية تؤلف من ١٨٠ سفينة واستطاعت تدمير جزء كبير من مدينة الجزائر ، الا ان حسن استعداد الداى للدفاع فوت على الحملة غرضها . فقد اخلى المدينة من

---

(1) Revue Africaine 1864 N. 5.

المدنيين وجمع عددا وافرا من العمال لاصلاح ما يدمر من الحصون أولا باول :
واخيرا اضطر شارل الى اعلان رغبته فى اخلاء وهران سنة ١٧٨٥ ولكن حفظا لماء الوجه طالب بأن تحصل اسبانيا على حصن صغير لحماية التجارة فى وهران . ولم يكن من المعقول ان يقبل حكام الجزائر هـذا الشرط وهم يعلمون ان بقاء اسبانيا فى الجزائر يكلفها ٤ ملايين فرسن والف رجـل سنويا . وماطل الاسبان فى المفاوضات ما استطاعوا حتى اذا وقع زلزال مدمر فى وهران سنة ١٧٩٠ اقتنصوا الفرصة التى أتاحت لهم التظاهر بأن اخلاء المدينة كان لسبب خارج عن ارادتهم . وعندما تم التسليم سـنة ١٧٩١ كان الداى محمد قد مات فجنى صهره الداى حسان ثمرة مجهوداته الطويلة من اجل تخليص الجزائر من الاسبان . ومما يسترعى الانتباه أن حسان باشا اصر على تسليم مفاتيح المدينة للباب العالى . وقد تم جـلاء الاسبان على الشروط الآتية :

اولا : يدمر الاسبان جميع الحصون التى بنوها منذ احتلال الميناء .

ثانيا : يسمح لاسبانيا باقامة وكالة تجـارية فى جامع الغزوات (٢) ويكون لهـا حق استيراد القمح . وكان هـذا الحق مقصورا على شركة افريقيا الفرنسية ، وقد أدى هـذا الى رفع أسـعار القمح الجزائرى لتنافس الشركتين على استيراده . وصادف هـذا افلاس الحـكومة الفرنسية أثناء اضطرابات الثورة واحتياجها الى استيراد كميات كبيرة من القمح الجزائرى ، وترتب على هـذا أن اصبحت فرنسا تشترى القمح اقتراضا . ويضيف المؤرخ الجزائرى صاحب كتاب تحفة الزائر شرطا ثالثا وهو ان تدفع اسبانيا مثل باقى الدول جزية سنوية قدرها مليونا كرونة .
وبانتهاء مشكلة وهران تمهد السبيل لعقد معاهدة صلح مع اسبانيا سنة ١٨٠٢ . وقد التزمت هـذه المعاهدة اسبانيا مثل غيرها من الدول بدفع مبلغ ٦٠ الف دولار سنويا لحكومة الداى ، كما نصت على ان يقـدم كل قنصل جديد (هدايا) بما قيمته ٤٢ الف دولار .

أما عن العلاقات مع فرنسا فقد رأينا كيف ان خير الدين باشـا أثناء توليه حكومة الجزائر تحمس لفكرة التحالف العثمانى الفرنسى ، ولذلك كان السبيل ممهدا أمامها لكى تحصل على بعض الامتيازات التجارية منذ اواسط القرن السادس عشر . ويلاحظ أن مركز فرنسا قد تصاعد بالتدريج فى النصف الثانى من هـذا القرن حتى اصـبحت كبرى الدول الاوربية

(1) Revue Africaine N. 1882 P. 219 Sq.

(٢) اشتهرت فى العهد الفرنسى باسم نيمور NEMOUR

الواقعة على البحر المتوسط ، ذلك أن اسبانيا أخذت تضعف بعد زوال امبراطورية شارل الخامس ، بينما كانت ايطاليا مفككة ، ولذلك تطلعت فرنسا قبل غيرها الى انشاء قنصلية لها فى الجزائر سنة ١٥٦٤ لولا أن عارض البيلربك وأيده التجار الفرنسيون فى ذلك الموقف لأنه كان مفهوما أن القنصل سيكون تاجرا يستغل مركزه لمصلحته الخاصة ، ولذلك تأخر تأسيس القنصلية حتى سنة ١٥٨٠ وكان صيد الأصداف من الساحل الجزائرى هو أهم مظهر من مظاهر تلك العلاقات التجارية حيث كان لتلك الأصداف أهمية كبرى فى ذلك العصر لأنها كانت من أدوات الزينة الهامة فى أوربا .

وكان الجنويون قد سبقوا الى استغلال مصايد الشمال الافريقى ، بيد أن فرنسا أخذت تحل محلهم بالتدريج وفى الجزائر اختارت موقعا بين قالة وعنابة لاقامة مؤسسة تجارية ، ومع أن شروط الامتياز كانت تحرم تحصين هذا المركز فقد خالف الفرنسيون هذا الشرط حتى نشأ على الساحل الجزائرى ما يعرف بحصن فرنسا فى ميناء قالة ، وكثيرا ما تعرض هذا الحصن لهجوم الجزائريين باعتباره رمزا لقوة المسيحية فوق أرض اسلامية .

ولكن بمناسبة تجديد الامتيازات مع الدولة العثمانية سنة ١٦٠٤ اعترف الباب العالى بامتلاك فرنسا لحصن القالة وحق انشاء المخازن فيه . وقد أصبحت غرفة تجارة مرسيليا بعد تأسيسها فى نهاية القرن تشرف على العلاقات التجارية بل وعلى القنصلية الفرنسية فى الجزائر (١) .

ويمكن القول بأن العلاقات بين فرنسا والجزائر كانت هادئة على وجه العموم وان تخللتها عدة مناوشات وظهرت خلالها أطماع من فرنسا لامتلاك الجزائر كما حدث فى سنة ١٥٧٢ حينما اقترح شارل التاسع على الباب العالى التنازل عن الجزائر لأخيه دوق أنجو مقابل جزية طيبة يدفعها للاستانة ولكن هذه الأطماع لم تعد كونها مشروعات خيالية واستمر الحال على هذا النحو حتى سنة ١٦٢٠ ، وفى هذا العام كان وفد جزائرى قد وصل مرسيليا ليتفاوض فى موضوع حصن فرنسا وجاءت الأخبار أثناء وجود هذا الوفد بأن سفينة فرنسية قد تعرضت لهجوم الجزائريين

---

(١) من خير الأبحاث التى ألفت فى هذا الموضوع كتابان عن التجارة الفرنسية فى الشرق والبحر المتوسط ، انظر :

Masson Poul Histoire du Commerce francais au.

Levant aux XVI et XVII siecle 1396

Histoire,.. aux XVIII Siecle.

فى البحر ، فما كان من السلطات الفرنسية الا أن قتلت أعضاء الوفـد غدرا . حينئذ اعلنت البحرية الجزائرية حربا لا هوادة فيها على الملاحة الفرنسية فى البحر المتوسط حتى قدرت خسائر التجارة الفرنسية من سنة ١٦٢٩ ـ سنة ١٦٣٤ بـ ٤ ملايين ، ٧٥٢ الف جنيه (١) ونتيجة لهـذا تأثرت التجارة الفرنسية النشطة مع شرق البحر المتوسط تأثرا كبيرا واصبحت فرنسا اكثر الدول تعرضا لأخطار هجمات البحرية الجزائرية ، اولا بحكم موقعها الجغرافى وثانيا لأن سفنها التجارية كانت تسير فى قوافل صغيرة ويحمل أكبرها ١٥ مدفعا ، بعكس السفن الانجليزية التى كانت تخرج كل عام فى قافلتين كبيرتين تحميهما السفن الحربية . وقد حاول ريشليو تقليد النظام الانجليزى فى الملاحة لكى يحتفظ بمركز فرنسا التجارى فى الشرق ولكن تبين ان هـذا يحتاج الى تكاليف ضخمة ويؤدى الى رفع اسعار السلع فلم تتم الخطة الجديدة .

وفى هـذه الاثناء ظهر أحد تجار مرسيليا المطلعين على احوال المغرب وعادات أهله وهو سانسون دى نابلون فاقترح على الحكومة الفرنسية اتباع وسائل التهدئة برد الأسرى المسلمين وتقديم (الهدايا) اللازمة الى حكومة الداى . وفعلا وزع فى الجزائر ٣٠٠ الف جنيه حتى تمكن من عقد معاهدة جديدة فى سنة ١٦٢٨ تنص على احترام الامتيازات السابقة وعلى حقوق التجار الفرنسيين كما اشتملت المعاهدة فى مادتها الأولى على أن تطلق فرنسا اسرى المسلمين لديها ، وتتعهد بعدم بيعهم لأمم معادية . وفى ذلك ما يدل على أن الحكومات الاسلامية فى المغرب لم تهمل امر اسراها على خلاف ما هـو شائع .

غير أن جهود سانسون كانت فردية ولم تجد هذه السياسة تأييدا من الرأى العام الذى كان ينبذ فكرة التفاهم مع الدول الاسلامية ، ويبدو ان ريشليو فكر فى غزو سواحل الجزائر ثم ما لبث ان تراجع توفيرا للنفقات وانتظرت فرنسا عهد لويس الرابع عشر لتقوم بمحاولات استخدام القـوة جديا ضـد الجزائر .

ذلك ان كلبير الذى تولى وزارة البحرية فى عهد الملك العظيم (لويس الرابع عشر) سنة ١٦٦٤ كان مهتما باحياء التجارة الفرنسية فى المشرق

---

(١) هـذا حسب تقدير غرفة تجارة مرسيليا نقلا عن
Grammont P. 270 S. Q.

وحسب هذه التقديرات بلغ عـدد السفن المسيحية التى استولى عليها الجزائريون من جميـع الأجناس ٩٣٦ مركبـا وذلك فى المدة من سنة ١٦١٣ ـ سنة ١٦٢١ .

وتأسيس امبراطورية استعمارية فيما وراء البحار ، وكان طبيعيا أن يفكر في تدمير قوة الجزائر البحرية ، وفي نفس هـــذا العام سير أول حملة ضد الجزائر ومن المدهش ان اختياره قد وقع على ميناء صغير في الشرق وهو جيجل فلم يحدث احتلاله أثرا يذكر ولذلك أخلته الحملة بعد مضي ثلاثة أشهر وشغلت حكومة لويس الرابع عشر بعد ذلك بحروبها في أوروبا وخاصة مع هولاندا . فلما توقفت هـــذه الحروب فترة من الزمن بعد سنة ١٦٧٨ عاد لويس الرابع عشر الى التفكير في تحطيم الجزائر وكان ذلك ضمن سياسة عامة اتبعها ضـــد العالم الاسلامي عموما وخـــرج بها عن تقاليد التحالف مع الدولة العثمانية . وتقوم خططه الجديدة على أساس أنه من الافضل تدمير الجزائر دون ضرورة احتلال جزء من اراضيها بصورة دائمة . ولكن قبل أن يقوم باستخدام القوة تظاهر برغبته في مفاوضة الجزائريين بشأن تبادل الأسرى ، حتى اذا ما تم الاتفاق بين البلدين ارسل الجزائريون ما لديهم من اسرى فرنسيين الى مرسيليا ليتبادلوا هناك مع اسراهم ، غدر الفرنسيون بالاتفاق وامتنعوا عن تسليم الأسرى المسلمين . وكان أن اعلنت الجزائر الحرب رسميا على فرنسا سنة ١٦٨١ ، واتيحت للويس الرابع عشر المبررات الكافية لارسال الحملات المتوالية ضد مدينة الجزائر ، فقام الاميرال ديكسن بعدة حملات كان اوسعها نطاقا تلك الحملة التي ارسلت سنة ١٦٨٢ وامتد خلالها حصار الجزائر عدة اشهر وكاد الداي يســـلم بشروط فرنسا بدفع غرامة كبيرة ولكن السكان ثاروا عليه وقتلوه ، واضطر ديكسن الى رفع الحصار . وعاود لويس الرابع عشر الكرة في سنة ١٦٨٨(١)، ومع أن مدينة الجزائر تعرضت في هـــذه الحملة لتدمير شديد الا انها استماتت في المقاومة وعجز الأميرال دي ستراي عن انزال قواته الى الميناء وسرعان ما اعاد الجزائريون تعمير مينائهم بمساعدة الدولة العثمانية .

وقد تعرضت سواحل فرنســـا الجنوبية في مقاطعات بروفانس ولانجدوك اثناء هذه الفترة من الصدام مع الجزائر لغارات مفاجئة من رجال البحرية تمكنوا خلالها من النزول الى الأرض واختطاف بعض الســـكان وحملهم أسرى الى الجزائر .

على ان حملات لويس الرابع عشر لم تكن عديمة الاثر بالنسبة للجزائر فقد سادت اثرها فترة من السلام بين البلدين . واستطاع الفرنسيون ان يستردوا مراكزهم ومؤسساتهم التجارية على الساحل ، ومن جهة اخرى

---

(١) دمرت القنصلية الفرنسية اثناء هذا الحصار ، وضاعت وثائقها ، ولذلك لا نجد مصدرا غنيا بالوثائق الا في الفترة الواقعة بعد انتهاء حملات لويس الرابع عشر . انظر :

Les archives du Consulat de France à alger, alger 1374.

غيرت فرنسا سياستها واصبحت تفضل اللجوء الى الطرق الدبلوماسية فى حل مشاكلها مع الجزائر ، واشرفت الحكومة اشرافا مباشرا على المؤسسات التجارية التى ادمجت فى شركة جديدة باسم الشركة الملكية لافريقيا سنة ١٧٤١ ، كذلك ضعف نشاط البحرية الجزائرية بصورة ملحوظة خلال القرن الثامن عشر ولكن لا يمكن الربط بين هذه الحقيقة وبين تدخل فرنسا العسكرى المشار اليه . وانما يعزى ذلك الضعف الى ظاهرة عامة وهى أن اوربا أخذت تجنى فى القرن الثامن عشر ثمار نهضتها العلمية ويظهر تفوقها بصورة أكيدة على العالم الاسلامى فى جميع مظاهر الحضارة المادية بما فى ذلك القوى العسكرية ، ومع ذلك لم تنحدر قوة الجزائر بنفس السرعة التى انحدرت بها بعض الدول الاسلامية الأخرى بدليل انها احتلت مكانا بارزا فى الصراع الدولى الذى ميز العلاقات الأوربية فى عهد الثورة ونابليون ، فتسابق الانجليز والفرنسيون الى خطب ود النيابات المغربية ودخلت الولايات المتحدة كعنصر جديد فى علاقات النيابات الخارجية ، ولكن قبل الدخول الى هذا الموضوع يجدر بنا أن نشير الى علاقة الجزائر ببريطانيا فى الفترة السابقة ، ومن المعروف أن اهتمام بريطانيا بالبحر المتوسط كان محدودا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ويكاد يكون مقصورا على اعمال شركة الليفانت (شرق المتوسط) التى تأسست سنة ١٥٩١ ولذلك كانت بريطانيا هى ثانى دولة تسعى الى انشاء قنصلية لها فى الجزائر غير أن التمثيل القنصلى البريطانى شهد فترات انقطاع كثيرة مثل ما حدث للتمثيل القنصلى الفرنسى وتعرضت الجزائر لعدة هجمات من الاسطول البريطانى الا انها كانت أقل من الهجمات الفرنسية من حيث العدد ومن حيث الالحاح . ولا تكاد تختلف بريطانيا فى ذلك عن معظم الدول البحرية الأوربية كهولندا والدانمرك التى كان من الضرورى اصطدامها بالدول الاسلامية البحرية الكبيرة (١) ، وعلى العموم كانت علاقة بريطانيا بنيابة الجزائر أفضل وقد ازدادت تحسنا خلال القرن الثامن عشر عندما تأكد تفوق بريطانيا فى البحار واصبحت سياستها تقوم على نظرية مؤداها ان من مصلحة الدول الكبرى بقاء الجزائر كقوة بحرية فى البحر المتوسط وذلك حتى لا يتاح للدول الصغيرة منافستها فى الميدان التجارى اذا تحقق امن الملاحة فى البحر المتوسط .

عندما اتسع الصراع الدولى نتيجة حروب الثورة الفرنسية عملت حكومة الثورة على تحسين علاقاتها بنيابة الجزائر ، لانها كانت فى حاجة الى استيراد القمح سيما وأن الجزائر كانت تمنحها تسهيلات للشراء على سبيل

(1) Playfair. R. L : Episodes de L'histoire des Relations de la grande Bretagne avec les Etats Barbaresques avant la conquete Francaise.

الافتراض وقد حلت حكومة الثورة شركات الامتياز وادارت لجنة الشئون الخارجية بنفسها تجارة البلاد الخارجية • وكان الداى يستفيد شخصيا من هـــذه المعاملات التجاريه ولذلك حرص على حسن العلاقات حتى عند قيام الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ ، فلم يقطع علاقاته مع فرنسا الا تحت ضغط الراى العام وحكومة الاستانة • وترقب بعد ذلك اول فرصة لاستعادة العلاقات مع فرنسا عندما عرض نابليون الصلح سنة ١٨٠٠ ولكن الآستانة عادت بالاشتراك مع انجلترا الى ممارسة الضغط على الداى حتى اعلن الحرب على فرنسا من جديد • ففى ٢٤ فبراير سنة ١٨٠١ بعث الباب العالى بخطاب الى الداى حسن • جاء فيه :

« هل تصادقون الفرنسيين اعداء المسلمين ؛ وتعادون الانجليز حلفاء السلطان ؟ انكم تقدمون المؤن للفرنسيين • بل عقدتم معهم معاهدة ، فاذا لم يأتنا الخبر بأنكم قطعتم كل صلة بالفرنسيين والغيتم المعاهدة خلال بستين يوما ، فلن يسمح السلطان بخروج افواج جديدة من العسكر (الذين كانت تدعم بهم حكومة الجزائر باستمرار) وسوف تحجز السفن الجزائرية فى موانى السلطنة ؛ واذا كنتم تبغون الجهاد فثمت سفن فرنسية تقف رابضة فى جزر الأرخبيل كما ان هناك سفنا اخـــرى تقف محملة بالغنائم امام الاسكندرية •

وتضيف رسالة الباب العالى هذه العبارة « ان قنصل بريطانيا فى الجزائر سيكون شاهدا عليكم » •

لم يخف هـــذا الانذار حاكم الجزائر ، فقد تم عقد معاهدة صلح مع فرنسا بالفعل فى نهاية العام نفسه ــ ديسمبر سنة ١٨٠١ ــ وربما تصرف الداى مصطفى على هـــذا النحو لاقتناعه بأن الدولة العثمانية عاجزة عن حمايته اذا ما فكر الفرنسيون فى الانتقام منه •

تغيرت سياسة الدايات بعد تولى نابليون الامبراطورية وضم ايطاليا الى املاك فرنسا ؛ فقد اصبح يشعر بمسئولية حماية السفن الايطالية والاسرى الطليان الذين يشكلون غالبية الأسرى المسيحيين فى الجزائر ، فارسل اخاه جيروم فى حملة كبيرة سنة ١٨٠٥ لتهديد الداى ونجح فعلا فى استخلاص ٢٥٠٠ اسير • وتجديد امتيازات التجارة ؛ الا ان هزيمة فرنسا البحرية فى الطرف الأغر اتاحت للجزائر الفرصة للتخلص من قيود هذه التعهدات ،

ورد هـــذا الخطاب وغيره من الوثائق الهامة فى بحث اجراه امين محفوظات الجزائر الفرنسى Devoulx ضمن كتاب عن البحار الجزائرى الريس حميدو • انظر ثبت المراجع •

وطبيعي أن يحدث في مثل هـــده الظروف تقارب بين الجزائر وبريطانيا . فعقدت اتفاقية بين البلدين سنة ١٨٠٧ تنازلت بمقتضاها الجـــزائر عن حصن قالة للانجليز لمدة عشر سنوات غير ان الجزائر لم تشكل حينئذ اهم مناطق التنافس بين الدولتين ، بل تركز الصراع في المضايق ومصر وحول مســـتعمرات المحيط الهندي . وكذلك يمكن القول بأن مشروعات نابليون للتوسع في شمال افريقيا وان تعددت الا انها تأتي بالمناســـبات فكما وتدت حملة جيروم سنة ١٨٠٥ نتيجة الاهتمام بايطاليا فكذلك ارسل بعثة لدراســـة غزو مراكش والجزائر معا بمناسبة ضم اسبانيا سنة ١٨٠٧ . ويعزى الى نابليون وضع مشروع ضخم لضم النيابات الثلاث : طرابلس ؛ وتونس . والجزائر ، وذلك على اثر صلح تلست سنة ١٨٠٧ . وتفرغ نابليون لمشروعاته التوسعيه في الشرق . ويبرر نابليون هذا الامر بعوامل عسكريه واقتصادية معا . فهـذا المشروع من شأنه ان يجعل من البحر المتوسط بحيرة فرنسية ، وهو امل حكام فرنسا الذين اخذوا بسياسة العظمة . ومن الناحية الاقتصادية سيعود ضم تلك النيابات على جميع بلدان اوربا بالرخاء ، ويمكن الاستعاضة بمحاصيلها عن منتجات امريكا الوسطى والهند ، كما انها تفتح الطريق لتجارة افريقيا الوسطى .

اختار نابليون ضابطا مهندسا هو دي بوتان لدراسة احوال الجزائر عامة وطبوغرافيتها بصفة خاصة ، الا انه عندما عاد دي بوتان من بعثته سنة ١٨٠٩ ، كان عهد صلح تلست قد انتهى . فكان مصير تقريره هو محفوظات وزارة الحربيه . الا انه من المفيد ان نشير الى اهم ما ورد في هـذا التقرير نظرا لأنه استخدم في حملة سنة ١٨٣٠ فقد اوصى بضرورة القضاء على حكومة الداي لمصلحه فرنسا ، وقدر قواتها وقت السلم بـ ١٥ ألف يمكن زيادتها الى ٦٠ الف جندي عند وقوع الحرب . ودعا الى ضرورة انشـــاء حكومة (متحضرة) في هذه المنطقه من المتوسط المواجهه لفرنسا . وارسال المزارعين الاوربيين لتعميرها . ولم يوافق بوتان على الفكرة الشـــائعه آنذاك من أنه يمكن اثارة شعور العرب ضد حكامهم من الترك . مســـتدلا بالتضامن الذي تجلى امام الحملة الاســـبانية ١٧٧٥ ، ولكنه قال انه من الممكن استماله رجال الطرق الصوفية .

ولقد اجتذبت الولايات المتحدة الى هـذا الصراع في حوض البحر المتوسط نتيجة لتحالفها مع فرنسا وما تبع ذلك من ارسال السفن الامريكيه الى هـــذا البحر لنقل المساعدات الى الحليف ، وكان من المتوقع ألا تمر هـــذه السفن في البحر المتوسط دون ان يلحظها بحارة الجزائر . وفي ١٧٩٣ استولى الجزائريون على احدى السفن الامريكية واسروا ٢١٧ من بحارتها . ولم تكن الجمهوريه الناشـــئه على علم دقيق بتقاليد النيابات البحريه . فلم تعم بالواجبات المتبعه في مثل هـــذه الظروف من عقد

معاهدة مع ما يتبعها من هدايا واتاوات . وكان هـذا الحـادث من بين الأسباب التى حدت بالكونجرس سنة ١٧٩٤ الى اتخاذ قرار بانشاء أسطول حربى للولايات المتحدة ، وقام أسطول الجمهورية بتجربته الأولى ضـد النيابات فى طرابلس وكانت النتيجة هى الفشل . وشجع هـذا حكومة الداى على تشديد مطالبها من الولايات المتحدة فطالبت بمليونى در .ر ثمنا لتوقيع المعاهدة وان كانت المساومة قد انتهت بتقدير مبلغ ٦٤٢ الف ، ويدخل ضمن هـذا المبلغ افتداء الأسرى . واشترطت كذلك دفـع ما قيمته ٢١ الف دولار سنويا على هيئة معدات حربية واخذ الداى على عاتقه مهمة عقد الصلح بين الولايات المتحدة وبين النيابتين الاخريين . وهذا تسليم من الولايات المتحدة بأمر واقع وهو زعامة الجزائر للنيابات المغربية . وعلى اثر ذلك عينت الولايات المتحدة قناصل لها فى الجزائر وتونس وطرابلس ، وقد اشتهر قنصلها فى طرابلس وليم اتون باستنكار سياسة بلاده ووصـفها (بأنها تذلل لدول متبربرة لا تساوى أساطيلها جميعا صفين من الأسطول الأمريكى الحربى) ومن ثم جددت الولايات المتحدة سياسة القوة فارسلت عدة حملات بحرية ضد النيابات كان أهمها فى سنة ١٨١٢ وسنة ١٨١٥ وقد نتج عن هذه الحملة الاخيرة تعديل المعاهدة مع (مملكة الجزائر) لصالح الولايات المتحدة . وكان الامريكيون يتهمون بريطانيا بتحريض الجزائر ضد سفنهم حتى يقطعوا على الأمريكيين سبل المنافسة التجارية فى حوض البحر المتوسط . وتتضح هـذه السياسة فعلا عند وقوع الحرب بين بريطانية والولايات المتحدة (١٨١٢ ــ ١٨١٤) فقد أرسل الوصى على عرش بريطانيا خطابا الى الداى يذكره فيه بهذه المناسبة بالصداقة بين بريطانيا والجزائر ويعبر فيه عن نية حكومته فى حماية النيابة من الاعتداءات الأجنبية .

وهكذا نلاحظ أن فترة الصراع الدولى من سنة ١٧٩٣ ــ سنة ١٨١٥ قد أتاحت للجزائر تجديد قوتها البحرية . وقد اشـتهر الريس حميدو بمجهوده الفعال فى اعادة بناء الأسطول الجزائرى حتى قدر بحارته سنة ١٨١٥ بثلاثين الفا وكان الاسلوب المتبع غالبا هو مهاجمة رؤساء البحـر للسفن التجارية ، فاستن الريس حميدو خطة جديدة ، وهاجم السفن الحربية ؛ وقد استولى على فرقاطة برتغالية تحمل ٤٤ مدفعا ، وفى هذه الحالة ؛ فان حكومة الداى كانت تشترى الاسلحة بالمال الذى يوزع على البحارة بدلا من الغنائم .

وفى سنة ١٨١١ توقفت الولايات المتحدة عن دفع الاتاوة المخصصة للجزائر ؛ فأمر الداى الريس حميدو بمهاجمة السفن الامريكية . ونلاحظ أن نشاط هـذا البحـار المغامر خرج عن نطاق البحر المتوسط واستولى على ثلاث سفن فى عرض المحيط الأطلسى سنة ١٨١٢ وفى سنة ١٨١٥ التقى الريس حميدو بالأسطول الامريكى المتجه لتأديب نيابة الجزائر ، ويبدو انه وجد نفسه فجاة أمام أسطول ضخم فقتل بعد معركة قصيرة .

لعبت الدويلات الايطالية الدور الرئيسى فى علاقات تونس الخارجية منذ العصور الوسـطى فكان التجار الجنويون والبنادقة يترددون على ساحلها ويقيمون الفنادق فى العاصمة لايواء تجارهم وقناصلهم ، ولذلك كان على فرنسا ان تزيح من طريقها مؤسسات جنوة التى تعمل فى صيد الأصداف ، والتى كانت تمتلك مخازن مشيدة فى طبرقة واستغلت فرنسا صداقتها للباب العالى واستطاعت فعلا ان تفتح مخزنا لشركة لنش التى تعمل بالجزائر فى تانكرت Cap-Negre شمالا كما افتتحت قنصلية فى تونس عام ١٥٧٩ وظهر التجار الفرنسيون فى بنزرت منذ ذلك الوقت .

ولم تخل العلاقات التونسية الفرنسية من المناوشات لان بحـرية تونس لم تغفل الاشتراك فى حركة الجهاد فى البحر ، ولكن معظم اشتباكات هذه البحرية انما وقعت مع فرسان مالطة ، الذين يشبهون بالنسبة لاوربا المسيحية رجال الطائفة بالجزائر فكانوا يشـنون الغارات الخاطفة على السواحل التونسية القريبة ، وفى عام ١٦٤١ هدموا الميناء المحصن الذى انشاءه الأسطى مراد واشتهر باسمه الايطالى « بورتوفارينا » .

ولما تولى مراد بك السلطة استن سياسة اتبعها خلفاؤه الحسينيون ، وهى تقوم على مبـدأ توثيق الصـلات بفرنسا باعتبارها كبرى الدول الأوربية بالبحر المتوسط . وذلك بقصد اثبات استقلالهم الذاتى بالنسبه للآستانة من جهة ، والحصول على تأييد أوربا ضد نيابة الجزائر القـوية من جهة اخرى . وستتخذ فرنسا من هـذه المعاهدات فى القـرن التاسع عشر دليلا على استقلال تونس ، وبالتالى عدم السـماح للدولة العثمانية بالتدخل لحمايتها .

وهـذه السياسة لم تأت فى عهدها بالثمرات المرجوة منها ، فلم يتجنب لويس الرابع عشر مثلا تونس حينما كان يقوم بحملاته ضد الجزائر ، وعلى العكس استغل هـذه الحملات ليفرض على تونس فى عام ١٦٨٥ معاهدة تتضمن شروطا تمس سيادة تونس ، فكان من بينها :

تعهد تونس باحترام الامتيازات بما فى ذلك مبدأ تحديد الضريبة الجمركية على البضائع الفرنسية بحد أقصى قيمته ٣٪ ، وكذلك الامتيازات القضائية الخاصة بعدم محاكمة الرعايا الفرنسيين الا بحضور قناصلهم . واهم من ذلك تعهد تونس بالقبض على سفن الجزائر او طرابلس او سلا ، اذا اشتبكت هـذه المدن البحرية فى حرب مع فرنسا . وفى هذه الحالة تقفل الموانى التونسية فى وجهها . واخيرا تعهدت تونس بعدم استرقاق الاسرى الدرسيين وتحرير من يوجد منهم . وقد عقدت هذه المعـاهدة

لمدة مائة عام ولكنها لم تطبق بحذافيرها • وقد جدد حسين على معظم تلك الشروط في معاهدة اخرى عقدها مع فرنسا سنة ١٧٢٨ ونص فيها بالاضافة الى تلك المبادىء على حق فرنسا بان تعامل معاملة الدولة الأولى بالرعاية (١) واكد حسين على هذه السياسة بعقد معاهدات اخرى مع معظم الدول البحرية مثل هولندا والدانمرك وانجلترا • فثبت امتيازات هذه الدول لصيد الأصداف واقامة الحصون لهذا الفرض على بعض المراسي والجزر التونسية مثل طبرقة وتانكرت • ولكن خليفته على باى خرج عن تلك الخطة فتقرب من دايات الجزائر من جهة وعمل على اخراج الاوربيين من مراكزهم الساحلية •

ومع ان حمودة باى قد اتبع فى الداخل سياسة الحزم الا انه تساهل مع الفرنسيين فى منحهم الامتيازات الاقتصادية • فعقد اتفاقا مع شركة الأصداف الافريقية واعطاها احتكار مصايد الاصداف من طبرقة حتى طرابلس مع حق انشاء المخازن • وتعهد بحماية موظفى الشركة حتى عند وقوع الحرب • وذلك نظير عوائد سنوية • ووقف الباى موقفا شبيها بموقف الدايات من فرنسا ابان الحملة على مصر فتقاعس عن تلبية اوامر الدولة العثمانية باعلان الحرب على فرنسا • وفى عهد حمودة باى تعرضت تونس لمهاجمة اساطيل البندقية وذلك بمناسبة استيلاء التونسيين على احدى السفن التابعة للجمهورية • وقد قامت البندقية بارسال الحملة الاولى عام ١٧٨٤ فطافت بموانى سفاقص • وسوسة • وحلق الوادى La goulette وعادت فى العام التالى ملحقة الأضرار بعدة موانى من بينها بنزرت • ومما يذكر ان فرسان مالطة فتحوا جزيرتهم لتكون قاعدة لاساطيل البندقية ولكن اسبانيا توسطت فى هذا النزاع حتى تجتذب صداقة الباى فى الوقت الذى كانت مشتبكة فيه مع الجزائريين بخصوص وهران • ويمكن القول بأن حملات البندقية كانت بمثابة انذار بما ستظهره ايطاليا بعد اتحادها من اطماع فى تونس •

---

(١) انظر نصوص تلك المعاهدات Flaux P. 335 - 359

الفصل الثالث

السعديون في مراكش

كما أن مجيء العثمانيين الى شمال افريقيا كان نتيجة للاعتداءات الاوربية . فكذلك يعزى ظهور الأسرة السعدية في مراكش الى نفس الظاهرة ؛ وقد رأينا كيف أن بني وطاس بعد استيلائهم على فاس وادعاء السلطة لانفسهم في نهاية القرن الخامس عشر قد فشلوا في الدفاع عن اراضي مراكش حتى آلت جميع موانيه تقريبا الى دولتي البرتغال واسبانيا . فلما اخذ السعديون على عاتقهم حركة الجهاد ضد البرتغاليين في الجنوب بدات كفتهم ترجح على بني وطاس .

وينتمي السعديون الى أسرة شريفة تنحدر من نسل محمد النفس الزكية ، من ابناء الحسين بن علي . ولفكرة الشرافة اهمية كبرى في حياة مراكش منذ أن تأسست بها دولة الأدارسة في القرن الثالث الهجري ؛ واذا كان الأشراف قد انزووا مؤقتا في عهد الدول البربرية ، فقد عادوا الى الظهور في عهد المرينيين ، واكتسبوا من جديد زعامتهم الروحية بتأييد الطرق الصوفية التي انتشرت في مراكش آنذاك ولا سيما الطريقة الشاذلية التي تتفرع عنها كثير من الطرق الصوفية في شمال افريقيا ، وقد هاجر أسلاف السعديين في القرن السابع الهجري واستقروا بدرعة من بلاد السوس جنوب مراكش . وفي سنة ١٥٠٩ (١) طالب أهل السوس محمدا القائم بأمر الله السعدي بأن يتولى قيادتهم في حركة الجهاد ، واعترف به بنو وطاس على أمل ان يعاونهم في تخليص البلاد من الحاميات البرتغالية . وبعد وفاة القائم حوالي سنة ١٥١٧ انتقل حكم اقليم السوس الى ولديه محمد الشيخ واحمد الأعرج : وقد ارتفع

---

(١) انظر جـ ٥ ، ٦ من كتاب الاستقصا للناصري وقد خصصا لتاريخ الدولة السعدية .

شأن الاخوين حينما نجحا في طرد البرتغاليين من آسفي وآزمور في الجنوب فيما بين سنة ١٥٣٩ وسنة ١٥٤١ واصبح بامكانهما الخروج عن تبعية بني وطاس . ومع ان محمد الوطاسي المشهور بالبرتقالي قد عرض على السعديين تولى حكم مدينة مراكش عاصمة الجنوب ، فقد رفض محمد الشيخ ، الذي لقب بعد ذلك بالمهدي ؛ ذلك العرض لأنه اصبح يطمح الى توحيد مراكش تحت سلطته . وقد دخل في نزاع مضن مع أخيه ومع الوطاسيين في نفس الوقت حتى تمكن أخيرا من دخول فاس واعلان نفسه سلطانا سنة ١٥٤٩ وبذا يعد محمد المهدي هو المؤسس الحقيقي للأسرة السعدية . ولم تقف جهوده عند هذا الحد فقد عمل بعد ذلك على تخليص الموانى الشمالية من البرتغاليين كما فعل في الجنوب من قبل واسترد أصيلة والقصر الصغير سنة ١٥٤٩ - سنة ١٥٥٠ ولم يبق لدى البرتغاليين بعد ذلك سوى طنجة وسبتة ومزغان تقوم بالدفاع عنها حاميات ضئيلة لا تتجاوز ٢٥٠٠ رجل (١) .

حتى ان يوحنا الثالثملكالبرتغال لجأ الى الامبراطور شارل الخامس يطلب اليه المساعدة ولكنه كان مشغولا بألمانيا وكذلك لم يستطع ملك البرتغال استغلال الفرصة حينما اتى اليه احد الوطاسيين يستنجده لاستعادة ملكه .

ذلك انه بعد ان شتت محمد المهدي الأسرة الوطاسية تمكن احد افرادها وهو ابو حسون على الوطاسي من الفرار من مراكش وراح يستعين بجميع الدول التي يتوقع منها المساعدة لاستعادة الملك . فلجأ الى البرتغاليين والى شارل الخامس والى الدولة العثمانية . ولدى هذه الدولة الأخيرة وجد استعدادا للمساعدة فأرسلت التعليمات الى صالح ريس بيلر بك الجزائر لكي يقوم بغزو مراكش بالتعاون مع ابي حسون ، وقد تمكن فعلا من الوصول الى مدينة فاس واعادة المدعي الوطاسي الى الحكم بضعة اشهر سنة ١٥٥٤ فكانت هذه المرة الوحيدة والأخيرة التي وصل فيها نفوذ العثمانيين الى مراكش . اذ سرعان ما استعاد المهدي عاصمة ملكه .

وقد كان من المتوقع حدوث تضامن بين القوى العثمانية والسعدية في المغرب نظرا لأن هدف سياستهما كان واحدا ، ويبدو ان السلطان سليمان القانوني قد فكر في هذه السياسة ولكن على اساس ان تدخل الدولة السعدية في تبعية الدولة العثمانية . وقد ارسل سفارة بهذا المعنى الى محمد المهدي ، ومع انه لم يكن قد دخل فاس بعد الا انه رفض تلك الفكرة واصر في رده على

(1) Ricard P. 368.

تلقيب نفســـه بأمير المؤمنين · ثم جدت مشكلة تلمسان فأضافت عنصرا جديدا من عناصر النزاع بين السعديين والعثمانيين ·

ومن المعروف ان تلمسان تقع فى غرب الجزائر قرب الحدود المراكشية وترتبط كثير من أسرها بوشائج القرابة مع أهل فاس ، ولذا عندما تدهورت الأسرة الزيانية وانتهى أمرها بأن فتحت المدينـــة سنة ١٥٤٣ للقوات الاسبانية ، اتجه اهل تلمسان الى القوى السعدية الناشئة لكى تتدخل لحمايتهم من الاحتلال المسيحى ·

ولما كـــانت السياسة الاسبانية تقوم على مبدأ عدم التوغل فى الداخل فان حاكم وهران لم يتشبث باحتلال المدينة ، واصبح من السهل على محمد المهدى أن يملأ هذا الفراغ الذى تركه الزيانيون فى تلمسان وارسل قواته لاحتلالها ؛ فاستاء بيلر بك الجزائر نظرا لانه قد سبق للعثمانيين حـــكم تلمسان · والواقع أن موقع هذه المدينة قد جعل اهلها يترددون بين القوتين الرئيسيتين فى شمال افريقيا وهى الاسرة السعدية فى مراكش والحكومة العثمانية فى الجزائر · ولم يترك صالح ريس الحاكم العثمانى بالجـــزائر تلمسان بيد السعديين فـــارع الى احتلالها سنة ١٥٥٠ واستمرت منذ ذلك الوقت جزءا من الولاية العثمانية ولكنها بقيت مع ذلك مثار نزاع بين دول مراكش وحكومة الجزائر ونشأت بينهما مشكلة حدود (١) ·

ويبدو أن النزاع مع الدولة العثمانية قد اثر على اتجـــاه سياسة السعديين ، فتذكر الوثائق الاسبانية (٢) ان حاكم وهران أرسل ســـفارة سنة ١٥٥٥ للتفاوض مع حـــاكم فاس بخصوص تبـــادل الأسرى ولكن المفاوضات تطورت الى الحديث عن قيام تحالف اسبانى مراكشى ضـــد العثمانيين وتجهيز أسطول مغربى بأموال اسبانية لضرب مدينة الجـــزائر وتسليمها للاسبان · وحسب رواية اخرى ان سلطان مراكش لم يذهب الى حد تسليم الجزائر الى الاسبان ولكنه قبل تدميرها فقط وهو الارجح · وعلى كل فقد ادت هذه الاتصالات الى تشكك صالح ريس فى نيات المهدى فأعد حملة ثانية على مراكش ولكنه مات قبل تنفيذها · ولم يكف خلفه حسان باشا خير الدين عن التفكير فى ضم مراكش ليوحد شمال افريقيا تحت السلطة العثمانية بيد انه لم يقيض لأى من هذه المشروعات النجاح ·

والراجح أن مفاوضات المهدى مع الاسبان لم تكن جادة ، اذ ليس من المعقول ان تخرج الدولة السعدية وهى بعد فى عهـــد مؤسسها الكبير :

---

(١) أفرد أحـــد المؤرخين الفرنسيين بحثا عن العـــلاقات العثمانية المراكشية من سنة ١٥٠٩ الى سنة ١٨٣٠ انظر Cour-august

(2) Documents Espagnols P. 268.

عن الأهداف التى وجدت من أجلها ، ولكن بعد مرور جيل ستصبح هذه السياسة امرا حقيقيا وخاصة بعد ظهور المنازعات بين افراد الأسرة على الملك واستعانة بعضهم ضد بعض بالدول المسيحية أو الدولة العثمانية ، وقد اظهر عبد الله الغالب بالله بن محمد المهدى الذى حكم من سنة ١٥٥٧ ــ ١٥٧٤ • بعض الميول نحو هذه السياسة حتى ان اخويه أحمد وعبد الملك اعترضا عليه ولجأ الى العثمانيين بالجزائر • فلما انتقل الحكم الى المتوكل وصادف هذا صعوبات داخلية استغل عبد الملك الفرصة وتسلل الى مراكش بمعاونة العثمانيين وتمكن من طرد ابن اخيه سنة ١٥٧٦ ولكنه ما كاد يملك زمام الحكم حتى فكر فى التخلص من حلفائه السابقين ، حتى لا يثقلوا عليه بمطالبة تبعيته لهم ، وقد نشر مشروع تحالف قدمه عبد الملك الى الاسبان فى أبريل سنة ١٥٧٧ منحهم فيه بعض الامتيازات على الساحل نظير معاونته ضد العثمانيين والبرتغاليين (١) •

ذلك انه بعد خروج المتوكل من مراكش التجأ الى سباستيان ملك البرتغال الذى كان قد اظهر اطماعه فى احتلال مراكش وارسل ضدها حملة سنة ١٥٧٤ ، ولذلك رحب بالمتوكل ، واعد العدة لحملة هائلة • اما اسبانيا فقد نفضت يدها من الموضوع لعدم التوصل الى اتفاق • وهكذا اصبح على عبد الملك ان يواجه الحملة البرتغالية وحده •

وفى اغسطس سنة ١٥٧٨ التقى الجيشان عند وادى المخازن شمال فاس حيث دارت معركة تعد من المعارك الحاسمة فى تاريخ شمال افريقيا وفى شبه جزيرة أيبريا معا • وقد هزمت فيها القوات البرتغالية هزيمة ساحقة ففقدت ٢٦ ألف قتيل وسقط فيها ثلاثة من الملوك هم : سباستيان، والمتوكل ، وعبد الملك • ولذلك اشتهرت باسم معركة الملوك الثلاثة(٢) ففى مراكش جنى احمد اخو عبد الملك ثمرات هذا النصر اذ آل اليه الحكم ولقب بالمنصور ؛ وانفسح امامه المجال لكى يصبح اعظم سلاطين الاسرة السعدية ؛ وفى شبه جزيرة ايبريا تحطمت قوة البرتغال ولم يمض عامان حتى كان فيليب الثانى ملك اسبانيا قد ضمها الى ملكه سنة ١٥٨٠ •

ولحكم المنصور اهمية عظمى فى تاريخ مراكش ويمكن توضيحها فى ثلاثة عناصر رئيسية هى : تنظيم الادارة الداخلية ؛ ومد نفوذ مراكش الى

---

(1) De Castrie I P. 350.

(٢) انظر وصف هذه المعركة ونتائجها Ibid P. 385. s. q.
ويذكر دى كاسترى أن وثائق هذه المعركة قد اختفت لأن الحكومات آنذاك كانت تعمد الى اخفاء ما لا يسرها •

حوض السنغال ، ثم دخولها ضمن الاعيب المنافسات والمحالفات التى ميزت العلاقات الأوربية فى ذلك الوقت ٠

ففى عهد المنصور وصل نظام المخزن (١) وهو الجهاز الادارى للحكومة فى مراكش الى الصورة التى استمر عليها تقريبا حتى عهد الحماية الفرنسية ، فعمد الى تعيين القواد لدى القبائل وخصص بعضها لخدمة جيشه ، فعليها أن تلبى دعوة الجهاد كلما احتاج الامر ٠ وتتولى هذه القبائل جمع الضرائب من القبائل الاخرى نظير اعفائها هى او نظير منحها اقطاعات من الارض الزراعية ، واصبحت هذه القبائل تسمى بقبائل المخزن ، وهى على عكس قبائل السيبة او اراضى السيبة التى لا تخضع للسلطة المركزية خضوعا مباشرا ٠ وقد ظهر استخدام كلمة مخزن للدلالة على الحكومة فى مراكش منذ عهد الموحدين ، ويبدو أن اختيار هذه التسمية انما مرجعه الى أن مهمة الحكومة الرئيسية ، كانت هى خزن المال فى نظر اهل العصر : أما كلمة السيبة فظاهر انها تحريف عن كلمة سائبة ٠ وكانت مشكلة مراكش التقليدية هى محاولة الحكومة المركزية توسيع بلاد المخزن ما استطاعت على حساب بلاد السيبة ٠ ولم يكن السلاطين يلجأون الى طرق فعالة لتثبيت حكمهم فيما يقابل حدود مراكش الحالية ، وانما كانوا يخرجون فى حركة (حملة) أو يرسلون حملة تتكون من بعض قبائل المخزن لتغير على قبائل السيبة فتجمع منها الضريبة المطلوبة ثم تعود الى اماكنها المخصصة لها ٠ وكثيرا ما كانت هذه الحملات تترك وراءها الدمار ، ثم تعود القبائل العاصية الى سابق عهدها من الاستقلال وكانت معظم قبائل المخزن تنتمى لأصل عربى ، وتعتبر مراعيهـا اراضى حبوس (أوقاف) واشتهرت بعض تلك القبائل مثل الشرارقة والشراردة بالخدمة فى جيش السلاطين ٠

وتعزى مغامرة المنصور فى الاستيلاء على السودان الى ما عرف به من حب جمع الثروة ٠ وقد لاحظ أن التجار المغاربة يأتون من هناك حاملين كميات وفيرة من الذهب ، وقد حققت لهم تجارة السودان أرباحا وفيرة : لأنهم علاوة على عمليات تبادل تراب الذهب بسلع مراكش كانوا يبيعون منتجات السودان للتجار الاوربيين ٠ وبهذا أصبحت تجارة السودان عنصرا أساسيا فى دورة التجارة المراكشية ٠ وابدى المنصور اهتمامه بالجنوب منذ بداية حكمه فعمر مدينة مراكش واحتل الواحات الجنوبية مثل توات تمهيدا لضم السودان ٠ وقيل أنه قام بمحاولة أولى فى هذا السبيل فى أوائل حكمه ولكن جيشه هلك فى الطريق الصحراوى جوعـا وعطشا ، فانتظر حتى أكمـل استعداداته وواتته الظروف سنة ١٥٩٠ حينما دمر الانجليز الأسطول الاسبانى فخف تهديد فيليب الثانى لمراكش ٠

---

(١) أنظر مادة مخزن فى دائرة المعارف الاسلامية ٠

وللمغرب علائق وشيجة تربطها بالسودان، وهو حسب عرف المغاربة، البلاد الواقعة فى حوض السنغال والنيجر بغرب افريقيا . وترجع هذه العلاقات الى بداية انتشار الاسلام فى تلك المناطق فى القرن الخامس الهجرى ، فقد اخذ المسلمون من المغرب على عاتقهم مهمة نشر الاسلام فى تلك الاصقاع ، واصبحت المراكز الاسلامية فى غرب أفريقيا صورة مصغرة لحضارة المغرب، وشاهد ذلك انتشار المذهب المالكى والطرق الصوفية المعروفة بالمغرب ، كما أن المسلمين فى تلك المناطق اعتادوا أن يتلقوا علومهم الدينية فى المراكز الاسلامية فى المغرب مثل فاس ومراكش والقيروان .

وتأكدت هذه الصلات الروحية بنشاط تجارة القوافل العابرة للصحراء ، فكانت هذه القوافل تحمل معها المنسوجات وغيرها من منتجات الحضارة . وفى الطريق تعرج على واحة تغازة حيث يكثر الملح ، وهو من اهم ما كان يطلبه سكان السودان ويتبادلون به تراب الذهب ، ثم تعود القوافل حاملة الرقيق ومنتجات السودان من ريش النعام والعاج وغير ذلك . وقد نشأت فى القرن السادس عشر دولة اسلامية كبيرة فى غرب افريقيا تعرف بدولة سنغى ، وهى تعاصر السعديين فى مراكش . ومن الطبيعى أن يشعر هؤلاء الحكام نحو الاسرة السعدية الشريفة بالتبجيل ، غير أن خلافا نشأ بين دولة سنغى ومراكش حول واحة تغازة التى اشرنا الى اهميتها ، وقد استاء المنصور لأن سكان الواحة يدينون بالتبعية لملكة سنغى ، وعندما وصله خطاب من احد امراء تلك المملكة يستنجد على اخيه الحاكم ؛ تلقف الفرصة واسرع باعداد حملة السودان . ولم يستمع المنصور الى نصيحة تجار مراكش بالعدول عنها ، وحجتهم فى ذلك أن الحملة غير مثمرة من الناحية الاقتصادية وغير مأمونة العواقب من الناحية العسكرية وستتبين فيما بعد سلامة نظرتهم ، ولكن المنصور اصر على مشروعه فانفذ الحملة فى أكتوبر سنة ١٥٩٠ .

تألفت الحملة من ٢٠ر٠٠٠ رجل فيهم عدد كبير من الأسرى الأسبان الذين اعتنقوا الاسلام ، وقد اختير احدهم وهو جودار باشا لقيادة الحملة ، ورغم هلاك كثير من الجند أثناء عبور الصحراء ، فقد تغلب الجيش المراكشى بعد وصوله الى السودان على قوات اسكى اسحق (١) وذلك بفضل تفوق اسلحتهم فدخلوا عاصمته جاو . وكانت خيبة املهم عظيمة اذ رأوها قرية تتكون من عدة اكواخ ولم يستطيعوا البقاء بها . وعرض عليهم أمير سنغى بنفسه المساعدة فى نقل الجيش الى تمبكتو على النيجر حيث المناخ

---

(١) اسكى : هو لقب حكام دولة سنغى .

اكثر ملاءمة ، وقد أصبحت بعد ذلك مقرا لحكومة المراكشيين ، ذلك أن اسكى نوح حاكم سنغى عرض على المنصور أن يعلن تبعيته لمراكش مع بقائه حاكما فعليا للبلاد ، وربما كان هذا الاقتراح افضل لمصلحة مراكش نفسها لأنه اقرب الى التحقيق من احتلال ثابت لمنطقة شاسعة تترامى اطرافها ، ولكن المنصور رفض الاقتراح وعمل على ارسال التعزيزات ليكمل احتلال السودان ، وكانت النتيجة ان صمم اسكى نوح على المقاومة وانسحب الى مناطق الغابات حيث يتعذر العمل على الجيش المراكشى ، وهكذا ثبت للمنصور استحالة احتلال السودان فضلا عن الاستيلاء على موارده ٠ ولم يعثر جيش مراكش على مناجم الذهب، التى كان حكام السودان يحتفظون بها سرا ، ومن ثم كان نظام التجار المراكشيين الذى يعتمد على التبادل مع السودانيين دون محاولة الوصول الى المناجم او استغلالها مباشرة انجح من الخطة التى سعى اليها المنصور ، فماذا حققت اذن مغامرة المنصور في السودان ؟ (١) ٠

لقد وصف احد التجار الاوربيين بمدينة مراكش الغنائم التى حصلت عليها حملة جودار ، فقال انها اشتملت على حمل ثلاثين جملا من الذهب ، وقدر ايرادات جاو وتمبكتو بمائتى الف جنيه انتفع بها المنصور فى تحصين ميناء العرائش وتطوير صناعة السكر فى السوس ٠ وقد اصبح المنصور يلقب بالذهبى وراجت الاخبار فى اوروبا عن تضخم ثروة مراكش ، ولكن من الواضح انه قد بولغ فى تقدير هذه الثروة واذا صح أن حملة السودان، قد اتت بغنائم وفيرة فان ذلك كان على شكل غنائم حرب اكثر منها ايرادا ثابتا ٠

ولم تكن آثار الحملة السياسية بأفضل من نتائجها الاقتصادية ، فقد ترتب على تحطيم دولة سنغى بالقضاء على اسكى نوح سنة ١٥٩٣ تفكك السودان وعودته قبائل واجناسا متنافرة ، ولم يستطع المراكشيون أن يبسطوا نفوذهم على جميع مناطق الدولة المنهارة وانحصروا تقريبا فى اقليم تمبكتوا وعند منحنى النيجر ٠ ثم تراخت علاقات التبعية لمراكش حتى تلاشت تماما بعد عهد المنصور ٠ وفى عهد فاتح السودان نفسه اظهر الجيش المرابط هناك نزعته الى تولى السلطة وذلك حين فكر المنصور فى ارسال قائد عسكرى لقيادة الجيش وتولية جودار الادارة المدنية فقط،

---

(١) افرد Bovill بوفل احد الكتاب الانجليز بحثا عن المغاربة وتجارة الذهب وخصص معظم الموضوع للصلات بين مراكش والسودان ، انظر ثبت المراجع ٠

فرفض جودار هذه القسمة وطلب تحكيم الجند فاختاروه حاكما . وهكذا استن المبدأ الذى استمر عليه الباشوات من حكام تمبكتو الا وهو اختيار الجند للحاكم . واذا لم يكن جودار قد خلع طاعة المنصور فلم يكن من المتوقع أن يستمر باشاوات تمبكتو على ولائهم لخلفائه وخاصة بعد أن عمت الفوضى مراكش اثر وفاة المنصور (١) . ولعل أهم أثر تركته حملة المنصور فى السودان هو قيام تلك الحكومة المراكشية وسط حوض النيجر مدة قرنين ، وظهور طبقة من المولدين فى السودان نتيجة لتزاوج الجند المراكشيين بالنساء من أهل البلاد . كما أن هذه الحملة تعد من الذكريات التاريخية التى أثارها المغرب بمناسبة المطالبة بموريتانيا وبعض اجزاء من اراضى السنغال ومالى فى الستينات من هذا القرن.أن تولى المنصور الحكم اثر الانتصار فى معركة كبرى على البرتغاليين قد أكسب مراكش فى عهده هيبة فى العالم الخارجى ، فأرسل له السلطان العثمانى سفارة للتهنئة وتحسنت العلاقات عموما بينه وبين الدولة العثمانية ، وفكرت جميع الدول الأوربية القائمة آنذاك فى اجتذاب مراكش لمحالفتها فى الصراع مع الدول الأوربية الأخرى ولا يستثنى من ذلك اسبانيا الخصم التقليدى ، وكانت أكثر الدول الأوربية اصرارا على هذه السياسة هى بريطانيا ، فقد تصادف عصر المنصور مع الحرب الانجليزية الاسبانية ، واتفقت مصلحة انجلترا مع مراكش فى معاداة اسبانيا حتى قيل بأن مراكش احتفلت سنة ١٥٨٨ بانتصار الانجليز فى معركة الأرماد الشهيرة .

وترجع علاقات انجلترا بالسعديين الى بداية ظهور الأسرة فى الجنوب، فقد أخذ التجار الانجليز يترددون على موانى مراكش يشترون منتجات السودان وملح البارود ؛ وأهم من ذلك كله السكر وكان يصنع بكثرة فى السوس ، وقد توصل المغاربة الى أفضل الطرق المعروفة فى ذلك العصر لصناعة تكرير السكر . ولما كانت حاجة انجلترا الى سكر مراكش شديدة فقد تغاضى التجار عن أوامر البابا التى كانت تحظر بيع الأسلحة للمسلمين فكانوا يتبادلون السكر بالأسلحة التى كان يلح المراكشيون فى طلبها ، حتى قيل بأن السعديين تغلبوا على البرتغاليين بفضل الأسلحة الانجليزية . ولما استقر حكم السعديين عملوا على تشجيع التجارة الخارجية لأن الحكومة كانت تستفيد منها من جهتين : اولا لأنها احتكرت تجارة السكر ، وثانيا لأنها كانت تحصل على الصادرات ضرائب جمركية . وتعتبر الضرائب الجمركية

---

(١) ظهر لقب باشا فى مراكش فى حكم الدولة السعدية تقليدا لجيرانهم العثمانيين ولكن ظل أقل انتشارا منه فى الولايات العثمانية كما انه لا يدل على وظيفة معينة ، فيحمل هذا اللقب بعض حكام الأقاليم دون البعض الآخر .

فى بلد لا تستطيع الحكومة فيه الزام الأهالى بدفع الزكاة والعشور من أهم موارد الدولة وأكثرها ثباتا وبالتدريج تطورت هذه العلائق التجارية الى فكرة التعاون السياسى . وقد ظهر هذا الاتجاه فى انجلترا فى عهد اليزابيث الذى يعاصر المنصور الجزء الأكبر من حكمها . وقبل تولى المنصور بعام واحد ارسلت اليزابيث ادموند هجن فى أول سفارة ذات طـــابع سياسى الى مراكش ، وكان الهدف الذى أعلن عنه آنذاك هو التفاوض من أجل تبادل الأسرى . ولكن هجن حمل تعليمات بجس النبض عن امكان قيـــام تحالف سياسى مع السلطان عبد الملك ، وقد اخفى هذا الموضوع نظرا لانه لم يكن من اليـــسير على الرأى العام الانجليزى قبول فكرة التحالف مع دولة اسلامية ، الا أن الوضع قد تغير بعد ارتقاء المنصـــور للعرش وعلو شأن مراكش وسمعتها فى السياسة الأوربية وقد اصبح موضوع دون انطونيو المطالب بعرش البرتغال هو محور مشروعات التحالف الانجليزى المراكشى طوال خمسة عشر عاما من عام ١٥٨٠ الى ١٥٩٥ (١) ذلك انه بعد أن ضم فيليب الثانى البرتغال الى دولته عام ١٥٨٠ التجأ دون انطونيو احد افراد الأسرة الحاكمة البرتغالية الى انجلترا فرحبت به الحكومة الانجليزية باعتباره أداة فعالة لتهديد اسبانيا ، وقد وضعت تفاصيل مشروع التحالف مع مراكش على أساس أن تقدم بريطانيـــا اسطولا لغزو البرتغال باسم مدعى العرش اللاجىء لديها . ويقوم المنصور بتحمل نفقات الحملة وتزويدها بالمؤن ، وفى مقابل ذلك يتنازل انطونيو عن الجيوب البرتغالية الباقية على سواحل مراكش . وبينما تحمس انطونيو لهذه المشروعات وارسل ابنه رهينة لدى المنصور ليثبت له صدق نيته ، تبين ان كلا من انجلترا ومراكش تتخذ من موضوع عرش البرتغال وسيلة للمـــاومة مع الاسبان ، ولذلك لم يقيض لهذه المشروعات الخروج الى حيز التنفيذ . وحينما بدات اليزابيث بانفاذ الحملة الى برشلونة عام ١٥٩٠ اعتذر المنصور بانشغاله بحملة السودان ، ويقال ان السبب الحقيقى لتراجعه انما هو خشيته من أن يحاربه فيليب الثانى بنفس السلاح نظرا لوجود لاجئين من الأسرة السعدية فى اسبانيا يطالبان بالحكم . ويلاحظ أن المراسلات حول هذا الموضوع بين اليزابيث والمنصور انقطعت منذ عام ١٥٩٥ كما توقف الحديث عن مشاريع المحالفات الأخرى .

كذلك نمت العلاقات التجارية بين انجلترا ومراكش فى عهد المنصور . ففى عام ١٥٨٥ تألف أول اتحاد للتجار الانجليز فى مراكش ، وكان هـــذا الاتحاد هو نواة شركة بلاد البربر التى تأسست عـــام ١٥٩٢ ، وهى من

---

(١) خصص القسم الثالث من الوثائق التى نشرها دى كاسترى عن تاريخ مراكش للعلاقات الانجليزية . ويشغل موضوع دون انطونيو الجزء الأكبر من هذه الوثائق .

اوائل شركات الاحتكار التجارية فى انجلترا ، الا انها لم تعش طويلا مثل مثيلاتها شركة الهند الشرقية وشركة شرق البحر المتوسط ، لان قرب مراكش من انجلترا مكن صغار التجار من الوصول الى موانى مراكش والاتجار لحسابهم الخاص مخالفين حقوق امتياز الشركة ٠

وكما أن خصومة اسبانيا كانت من أهم أسباب التقارب الانجليزى المراكشى ، فان ثورة الهولنديين فى ذلك الوقت على الحكم الاسبانى لابد أن تكون عاملا قويا للتقريب بين البلدين ٠ وقد أظهرت الجمهورية التجارية البحرية اهتماما خاصا بموانىء مراكش الشمالية نظرا لأن سفنها الذاهبة الى امريكا كانت تتوقف عندها ، وقد ركزت اهتمامها على كيفية استغلال هذه المحطات للتبادل التجارى ٠ وفى سنة ١٥٩٦ ارسل أول مشروع للتحالف بين هولندا ومراكش ، وبلغ هذا التعاون السياسى أقصاه فى عهد مولاى زيدان حينما تم عقد معاهدة صداقة وتجارة بين البلدين ، ولكن حكم زيدان لم يكن مستقرا ، ولم يحترم بحارة سلا هذه الاتفاقات فكانوا يهاجمون السفن الهولندية قرب سواحل مراكش (١) ٠

لقد حاول فيليب الثانى بعد تولى المنصور الحكم أن يجتذبه الى السياسة التى سار عليها بعض اسلافه من حكام مراكش والتى تقوم على فكرة التحالف مع اسبانيا ، ولو ادى هذا الى بعض التنازلات لمراكش من أجل مواجهة قوة العثمانيين فى شمال افريقيا ٠ فارسل بعض الهدايا ولم يقطع المنصور الأمل على فيليب الثانى فتظاهر بقبول مبدأ التفاوض الا أن المسألة لم تعد جس النبض من الطرفين ٠ وما لبثت العلاقات أن عادت الى سابق عهدها من التوتر : أولا بسبب انتقال الجيوب البرتغالية : طنجة وسبتة ومزغان الى الاسبان ٠ وثانيا لأن فيليب الثانى احتفظ لديه بلاجئين من الأسرة السعدية واخذ يهدد بهما المنصور ٠ ولما كانت فرنسا فى معظم تلك الفترة على صلات طيبة باسبانيا ، فانها ظلت بعيدة عن مراكش سواء فى ميدان السياسة أو التجارة وان لم يمنع هذا من ظهور مشروع تحالف مراكشى عثمانى فرنسى عندما ساءت العلاقات بين هنرى الرابع واسبانيا ، غير أن مشروع التحالف هذا يتصل بتاريخ الفترة التى تلت عهد المنصور ٠

عندما قضى المنصور نحبه فى عام ١٦٠٣ تنازع العرش ابناؤه الثلاثة ، وكان مفروضا ان يئول الى زيدان فاتحد اخواه المأمون ويعرف بالشيخ ، وابو فارس حاكم مدينة مراكش لمعارضته وتغلبا عليه ٠ الا ان المأمون سرعان ما تنكر لاخيه فأقاله من منصبه ٠ فاستغل زيدان هذه الفرصة

---

(١) خصص القسم الثانى من مجموعة دى كاسترى للوثائق الهولندية وهو يقع فى خمسة اجزاء ٠

وجمع كلمة اهل البلاد حوله واستقر فى فاس . وكانت النتيجة أن ذهب المأمون يطلب المعونة من فيليب الثالث ملك اسبانيا مانحا اياه ثغرا من اهم الثغور الاسلامية فى شمال مراكش وهو ميناء العرائش ، بل يعزى الى المأمون انه تسبب فى اخراج بقايا المسلمين نهائيا من الاندلس ، وذلك بأن كشف لفيليب الثالث خطة كانوا قد وضعوها للثورة على الاسبان واعادة الحكم الاسلامى بالتعاون مع مراكش ، فكان قرار التشريد سنة ١٦١٠ . ثم نفذ تسليم العرائش واستصدر فتوى من علماء فاس بأنه يجوز افتداء ابناء النبى بتسليم بلد من بلاد المسلمين الى الكفار (١) ويفهم من هذا انه كان لدى فيليب الثالث بعض افراد الأسرة السعدية اطلقهم نظير هذا الاتفاق .

وقد ادت سياسة المأمون الى مقتله على يد مجاهدى تطوان سنة ١٦١٣ . ولم يستطع ابنه عبد الله ان يستقر فى الحكم لسوء سمعة ابيه ، فيعود زيدان الى السلطة ولكن دون أن يتمكن من بسط سيطرته على جميع انحاء البلاد ، وتتشعب المنازعات حتى تختفى الأسرة تماما فى منتصف القرن السابع عشر . وفى هذه الأثناء تظهر زعامات سياسية تستأثر بالسلطة فى هذا الاقليم او ذاك من مراكش ، ويعتمد بعض هذه الزعامات على أساس دينى مثل الطريقة الدلائية أو السملالية وغيرها من الطرق الصوفية ، وبعضها الآخر على اساس منظمات عسكرية مثل حكومة النقسيس فى تطوان ، وحكومة العياشى فى سلا . وكثيرا ما كانت تندمج هذه الطرق الصوفية بالجماعات العسكرية ، ولذلك يمكن القول بأن الطرق الصوفية التى ساعدت الأسرة السعدية فى مرحلة تأسيسها ، قد خرجت عليها بعد ان انحرفت سياستها عن أهداف الجهاد .

وقد أصبحت حكومة سلا التى يتزعمها ابو عبد الله العياشى من اقوى تلك الوحدات السياسية القائمة بذاتها فى مراكش ابان العقد الرابع من القرن السابع عشر . فامتد نفوذها على القسم الشمالى ما بين شاطىء الأطلسى حتى تطوان بما فى ذلك مدينة فاس . واستمدت هذه الحكومة قوتها من حركة الجهاد فى البحر ، حيث أن ميناء سلا كان موطنا لمهاجرى الاندلس الذين تكاثروا بعد قرار طرد المسلمين من اسبانيا سنة ١٦١٠ ، واستأثر المهاجرون بالحكم فكانوا يشبهون فى ذلك أوجاق الجزائر فينتخب البحارة زعيمهم من بين رجال الطائفة وحدهم . وقد اشتهر بحارة سلا بجرأة لم يسبق لقراصنة (البربر) ان اظهروا مثلها . فاصبحت السفن الاسبانية الآتية من امريكا والمحملة بالذهب والفضة هدفا ثمينا لبحارة هذا الميناء الواقع على الاطلسى ، ووصلت غاراتهم الى شواطى جزر بحر الشمال ،

---

(١) انظر كتاب تاريخ تطوان لمحمد بن داود ١٨١ نقلا عن كتاب معاصر يسمى تاريخ الدولة السعدية .

ولذا كان من المتوقع ان تسوء علاقاتهم بالانجليز ، ولكن بحارة الإنجليز كانوا ينظرون الى هــذا النوع من النشاط البحرى على انه اشبه بالمغامرات الرياضية . ولذلك اعجبوا بهذه الجمهورية البحرية وحاولوا توطيد الصلة بها الى حد ان احد ممثلى انجلترا بمراكش وهو جون هاريسون أرســل تقريرا سنة ١٦٢٧ الى الملك شارل الاول مرفقا به طلب من العياشى بأن يقدم الانجليز مساعدة لمهاجرى الأندلس حتى يتمكن المسلمون من العـودة الى اسبانيا . واجاب شارل الاول مذكرا بحسن نية الانجليز نحو هؤلاء المشردين واتبع ذلك سنة ١٦٣٠ باصدار امر الى القراصنة الانجليز بالكف عن مهاجمة الموانى المراكشية . كما رسم هاريســون خطة للتعاون مع المراكشيين لاسترداد سبتة . وبذا يكتسب الانجليز نفوذا على مضيق جبل طارق . ولم تقتصر علاقات الانجليز فى هذه الفترة بجمهورية سلا البحرية ان صح هــذا التعبير فقد تمت بعض الاتصالات مع مدعى السلطة فى البلاد من اعقاب الاسرة السعدية كما حدث سنة ١٦٣٧ حينما وقعت معاهدة مع محمد الشيخ الاصغر بخصوص تبــادل الأسرى ، غير أن علاقات الانجليز بالسلاطين كانت تتعرض فى هــذا الوقت لأزمات شديدة لأن الانجليز كانوا يبيعون الأسلحة على نطــاق واسع للحكومات المحلية .

وعلى عكس السياسة الانجليزية اظهر الفرنسيون ميلا فى هذه الفترة الى التفاهم مع السلطات الشرعية ولم يكن للفرنســيين تجارة تذكر مع مراكش فى ذلك الوقت ، ولعل اهم ما يذكره التاريخ محاولة لفرانسوا الاول سنة ١٥٣٢ لايجاد بعض العلاقات التجارية مع مراكش ، ولكن هذه المحاولة لم تسفر عن نتيجة ايجابية . ولمــا تولى ريشليو شئون المستعمرات والبحرية سنة ١٦٢٥ كان لمراكش نصيب فى سياسته العامة الرامية الى توســيع نشاط فرنســا التجارى ، فأرسل احد رجال البحرية وهو ايزاك دى رازلى Isac de Rasilly للتفاوض مع السلطات فى مراكش بشأن عقد هدنة ، ولكن الى اى هــذه السلطات كان عليه ان يتجه ؟ .

اتجه دى رازلى الى مدينة مراكش حيث يحكم عبد الملك بن زيدان ، ولكن سرعان ما تبين خطأ هذه السياسة . اذ ليس للسلطان سلطة فعلية يستطيع ان يجبر بها بحارة سلا على احترام اوامره بالامتناع عن مهاجمة السفن الفرنسية . فاضطر الى العودة مرة اخرى على راس حملة بحـرية ضربت الحصار حول سلا بضعة اشهر سنة ١٦٢٩ ، غير أنها لم تنل من المدينة شيئا . واقتصر اثرها على منع خروج السفن مدة الحصار ، وقد ظل دى رازلى يتردد على مراكش دون جدوى حتى سنة ١٦٣١ اذ عاد اليها للمرة الخامسة دون ان يغير سياسته القائمة على التفاهم مع السلاطين السعديين . وعقد اول معاهدة رسمية بين فرنــسا ومراكش ، وكان السلطان وليد الذى وقعها ضعيفا بحيث لم يمكنه معارضة الشروط التى قدمتها

فرنسا : وهى تنص على تحـــرير الأسرى المسيحيين الذين استرقوا فى مراكش ، والسماح باقامة قناصل فرنسيين فى الموانى المراكشية . وحرية التجارة للرعايا الفرنسيين ما داموا يؤدون الضريبة الجمركية المفروضة . وكذلك حرية ممارسة الطقوس الدينية اثناء اقامتهم بالبلاد . وبالطبع لم يكن لهـــذه المعاهدة اى جدوى وخاصة فيما يتعلق بالشرط الأول ما دام السلاطين لا يسيطرون على البلاد .

الفصل الرابع

دولة الأشراف العلويين

راينا كيف ان الطرق الصوفية اخذت تسيطر على بعض اقاليم مراكش ابان فترة الفوضى التى اعقبت وفاة المنصور . ففى اقليم السوس ودرعة استولى رجال الطريقة السملالية على الحكم ، ولكن الأهالى استاءوا من حكمهم وآثروا عليهم احد الأشراف : هو مولاى محمد بن الشريف الذى بايعه أهل سجلماسة حوالى سنة ١٦٣١ ولما استقر حكمه فى الجنوب اشرابت نفسه لامتلاك فاس ، وكانت حينذاك بيد زعيم صوفى أخر هو ابو عبد الله محمد الدلائى . وفى سنة ١٦٤٦ أغار على المدينة واستطاع دخولها ولكنه لم يستقر بها . وكان على العلويين ان ينتظروا بعد ذلك عشرين عاما قبل أن يستقروا بالعاصمة . وقد تم ذلك فى عهد مولاى الرشيد سنة ١٦٦٦ بعد ان اغتصب الحكم من اخيه محمد الشريف ، وهو يعد بحق مؤسس الأسرة العلوية التى ما زالت تحكم مراكش حتى الآن (١) .

نشأت الأسرة العلوية اذن فى الجنوب موطن الأشراف الذى خرجت منه الأسرة السعدية ايضا ، وتنتمى كلتا الأسرتين الى فرع شهير من الأشراف يعرف بالأشراف الحسنيين تمييزا لهم عن الأشراف الحسينيين الذين يقطنون الشمال : والذين تنتمى اليهم دولة الادارسة وتعرف الأسرة العلوية أحيانا عند الكتاب الاوربيين بالأسرة الفلالية ، نسبة الى واحة تافيلالت بالجنوب الشرقى ، وهى الواحة التى استقر بها أسلاف الأسرة منذ قدومهم من الحجاز فى القرن السابع الهجرى ، كما تسمى اختزالا بالأسرة الشريفية . وكانت مراكش تعرف بالامبراطورية الشريفية ابان عظمة

---

(١) انظر عن نشأة الأسرة العلوية الناصرى جـ ٧, Terrasse, Tom : II P. 253, ويهتم تيراس بتاريخ الحركات الدينية فى مراكش على وجه الخصوص .

تلك الأسرة . وعلى خلاف الأسرة السعدية التي اعتمدت على تأييد الطرق الصوفية عند نشأتها ، اصطدم الأشراف العلويون منذ البداية بتلك الطرق وظلت علاقاتهم بها سيئة معظم فترات حكمهم واعتبروها عنصرا من عناصر الفوضى . كذلك بدات الأسرة عهدها بالاصطدام مع الحكومة العثمانية بالجزائر حتى بعث عثمان باشا واليها يلوم الشريف على تفرقة كلمة المسلمين . على عكس الأسرة السعدية التي بدات عهدها بالكفاح ضد الجيوب المسيحية .

لم تطل حياة الرشيد بعد دخول فاس فترك الحكم لاخيه مولاى اسماعيل سنة ١٦٧٢ ، ويعد مولاى اسماعيل من اعظم سلاطين تلك الأسرة واطولهم حكما . اذ استمر اكثر من نصف قرن ١٦٧٢ — سنة ١٧٢٧ . عمل خلالها على تثبيت قوة الحكومة المركزية من جهة واعادة هيبة مراكش في العالم الخارجى من جهة اخرى . وقد امضى مولاى اسماعيل سنى حكمه الاولى فى القضاء على النزعات الانفصالية ، المشكلة التقليدية التى عانت منها حكومات مراكش ، وقد زاد المشكلة تعقيدا فى تلك السنوات امتناع ثلاثة من اخوته وابناء اخيه عن الاعتراف به ، واستقلال كل منهم بحكم منطقته . وتأييد العثمانيين فى الجزائر للولاة الثائرين حتى اضطر مولاى اسماعيل الى الاعتراف بأحدهم حاكما على مراكش وآخر حاكما على السوس . وحتى ينفذ اسماعيل خطته بدقة تخلى عن النظام القديم القائم على الاستعانة ببعض القبائل على البعض الآخر . وعمد الى تجنيد جيش ثابت يدين لشخصه بالولاء واختار لتكوين هذا الجيش العبيد الافريقيين . فحررهم ومنحهم الاقطاعيات واصبح يعرف بجيش عبيد البخارى . لان السلطان كان يقدم صحيح البخارى لهؤلاء الجند ليقسموا عليه يمين الولاء قبل انخراطهم فى سلك الجيش .

ومما يذكر ان هؤلاء العبيد قد جلبوا الى مراكش منذ حملة المنصور في السودان ولكن اسماعيل لم يكتف بما كان موجودا فى عهده منهم فعمل على الاكثار منهم بأن شجع غير المتزوجين منهم على الزواج حتى قيل ان جيشه المنظم بلغ ١٥٠٫٠٠٠ رجل . ويقال انه فكر فى تكرار مغامرة المنصور فى السودان ولكنه لم يلح مثل سلفه على احتلال تلك المناطق النائية . وكان هدفه اولا هو جلب عدد جديد من العبيد للجيش ومع ذلك لم يهمل مولاى اسماعيل الجنوب تماما فقد وصلت حركاته الى شنقيط او موريتانيا .

ولقد نجح الى حد كبير فى تحويل بلاد السيبة كلها تقريبا الى بلاد مخزن . حتى قبائل الصنهاجة التى استعصت على حكومات مراكش من قبل خضعت لحكومة فاس فى عهد مولاى اسماعيل ، كما عمد الى نشر الحاميات الثابتة فى المواقع الاستراتيجية الهامة فى البلاد مثل تازا .

والحدود الشرقية التى انشأ فيها سلسلة من الحصون لتكون حاجزا بينه وبين العثمانيين فى الجزائر نظرا لكثرة المنازعات بينهم وبين مراكش فى عهده . واشتهر اسماعيل بالشدة التى بلغت حد القسوة فى سبيل اخضاع القبائل ، فكانت حملاته تدمر كل ما تمر عليه فى الطريق . ولم يتجنب مولاى اسماعيل فى شدته افراد أسرته (١) بمجرد أن يشك فى ولائهم ، ولكن مولاى اسماعيل لم يشذ بهـــذا السلوك عن المقاييس الخلقية المتعارف عليها فى عصره . وقد استطاع ان يؤمن للمخزن دخلا ثابتا بفضل هـــذه السياســـة اولا ؛ ثم بنظام احتكار التجارة الخارجية الذى فرضـــه على الموانى .

اتجه مولاى اسماعيل بعد تدعيم ســـلطته فى الداخل إلى ما بقى للأوربيين من جيوب على الساحل محاولا تخليص البلاد من هـــذا الكابوس الذى ظل جاثما عليها منذ نحو قرنين ؛ فاسترد من الاسبان موانى المعمورة (المهدية الآن) سنة ١٦٨١ ؛ والعرائش ١٦٨٩ ، واصيلة ١٦٩١ ، بيد انه فشل امام موانى سبتة ومليلة وهكذا لم يبق فى عهده من الجيوب الاوربية سوى هذين الميناءين بيد الاسبان ، بالاضافة الى مزغان بيد البرتغاليين والتى سينجح حفيده مولاى محمد فى استردادها سنة ١٧٦٦ .

اما طنجة فكان البرتغاليون قد اســـتردوها بعد اســــتقلالهم عن الاسبان سنة ١٦٤٠ ثم شعروا بعجزهم عن الدفاع عنها . فمنحها ملك البرتغال لشارل الثانى ملك الانجليز بمناسبة تزويج ابنته له كجزء من مهرها ؛ وفى سنة ١٦٨٤ ضرب المراكشيون عليها الحصار ، فانسحب الانجليز بعد بضعة اشهر ، قيل توفيرا للنفقات .

يوافق حكم مولاى اسماعيل الجزء الاكبر من عصر لويس الرابع عشر ، ومن المعروف ان أوروبا شهدت فى عصر هـــذا الملك سلسلة متتابعة من الحروب ، وكان من المتوقع ان يستخدم مولاى اسماعيل هذه الخصومات ليستعين بفرنسا ضـــد العدو المشترك انجلترا واسبانيا وذلك اثناء نضاله من اجل تحرير السواحل المراكشية . وفعلا ارسل سنة ١٦٨١ ســـفارة الى لويس الرابع عشر ليعقد معه حلفا سياسيا ؛ الا ان سياسة التعالى التى تميز بها لويس الرابع عشر ازاء الدول الاسلامية اثنته عن فكرة التحالف مع مراكش ، كما ان مشكلة تبـــادل الأسرى وقفت حائلا دون تحقيق

---

(١) يشكو الناصرى من وسائل مولاى اسماعيل الوحشية ، انظـر الاستقصا جـ ٧ ص ١٠٠ — ص ١٢٥ .

الصفاء بين البلدين ، لأن حكومة لويس الرابع عشر ظلت تماطل فى تسليم الأسرى المراكشيين كما فعلت مع الجزائر من قبل . ويبدو أن سفير مولاى اسماعيل محمد التميمى قد بهرته معالم مدينة باريس فعاد الى مراكش حاملا معه معاهدة تجارية تفاوض بشأنها مع كلبير . وتؤكد هذه المعاهدة الامتيازات التى وردت فى أول معاهدة مراكشية فرنسية سنة ١٦٣١ وتزيدها تفصيلا ، فهى تنص على قيام سلام دائم بين البلدين ، وعلى ضمان حرية الملاحة ، وتتعهد فيها مراكش بحماية السفن الفرنسية فى مياهها حتى ضد السفن الجزائرية ، وتنص المادة الخامسة على تبادل المساعدات فى حالة اعتداء قراصنة البحر المتوسط على سفن البلدين ، وتشترط المعاهدة الا تفرض على الرعايا الفرنسيين رسوم تزيد على تلك التى يدفعها اهل مراكش ، كما تقرر حق ملك فرنسا فى تعيين قناصل له فى اى مكان يختاره من البلاد ، وان يتولى هؤلاء القناصل الشئون القضائية لرعاياهم . وفى حالة وقوع نزاع بين رعايا فرنسيين ومراكشيين لا تنظر امام المحاكم العادية بل امام الملك او من يمثله فى الثغور (١) .

والظاهر ان حكام المسلمين فى ذلك الوقت لم يفهموا مغزى الامتيازات ، وتوقعوا ان تكون هذه الامتيازات متبادلة بين الطرفين ، ولكن تفوق أوروبا فى ميادين التجارة والملاحة قد اظهر بجلاء أنها وحدها تستفيد من الامتيازات . ومن ثم حق لهذه المعاهدات أن توصف بأنها غير متكافئة .

وقعت هذه المعاهدة فى يناير ١٦٨٢ ، وقد ارسل لويس الرابع عشر على اثرها بعثتين فى سنة ١٦٨٤ و ١٦٩٣ على التوالى ، غير ان فرنسا لم تستفد كثيرا من هذه المعاهدة ابان عهد مولاى اسماعيل لقلة المعاملات التجارية مع مراكش .

وكان السلطان هو الذى اخذ جانب المبادرة محاولا تجديد العلاقات مع ملك فرنسا العظيم ، فارسل سفارة اخرى برياسة عبد الله بن عائشة . ويمكن تعليل هذا الموقف بأن مولاى اسماعيل كان يشعر بالغيرة من السلطان العثمانى ويرغب فى ان تحل مراكش محل الدولة العثمانية فى سياسة التحالف التقليدى بينها وبين فرنسا ، ولكن بعثة ابن عائشة لم تكن انجح من سابقتها ، وكل ما اسفرت عنه هو تبادل المحادثات حول بعض المشروعات غير الجدية ، فمثلا عندما رأى ابن عائشة اثناء اقامته فى

---

(١) انظر نص هذه المعاهده فى وثائق De castrie الجزء الأول من القسم الرابع وهذا القسم مخصص للعلاقات بين فرنسا ومراكش فى عهد العلويين .

باريس مدام دى كونتى ابنة لويس الرابع عشر وهى أرملة شابة وأعجبه بها ، ارسل الى مولاه يقترح عليه الزواج منها فلقى هذا الاقتراح السخرية فى البلاط الفرنسى . وجر هـــذا الموضـــوع الى دعوة لويس الرابع عشر لاسماعيل الى الدخول فى المسيحية . فرد عليه السلطان المراكشى بدعوته الى الاسلام ، وهكذا .

واخيرا افهم الوفد المراكشى بضرورة العودة لأن اقامته فى باريس تكلف الحكومة الفرنسية نفقات باهظة . يلاحظ اذن ان فرنسا فى سياسة مولاى اسماعيل قد حازت نفس الاهمية التى كانت لبريطانيا فى عهـد المنصـــور .. وقد اشرنا الى ان بريطانيا عندما انسحبت من طنجة سنة ١٦٨٤ برر البرلمـان ذلك العمل بأنه توفير للنفقات . ولكن سرعان ما تبين من جديد اهمية مدخل البحر المتوسط ، فكان احتلال جبل طارق ســنة ١٧٠٤ . وبوجود بريطانيا فى هذه القاعدة ازدادت اقترابا من الســواحل المراكشية والدليل على ذلك هو سعيها لعقد معاهدة تجارية سنة ١٧١٦ . وقد حصلت من وراء هــذه المعاهدة على عدة امتيازات . واصبحت بريطانيا منذ ذلك الوقت وحتى قبيل الحماية الفرنسية اكبر عميل فى تجارة مراكش الخارجية .

اما عن علاقة اسماعيل بالحكومة العثمانية فقد بدات بداية سيئة ، لأنه حاول فى سنى حكمه الأولى التوسع شرقا وضم تلمسان الى مراكش ، الا انه تراجع عند اول صدام مع القوات العثمانية ، واعترف بالحـدود التى كانت قائمة فى السابق بين البلدين ، كما انه اظهر رغبته فى التعاون مع مراد بك مغتصب السلطة فى تونس وذلك بقصد تكوين جبهة معادية لنيابة الجزائر . وفى بعض الأحيان كان شعور التضامن الدينى يدفعه الى مجاملة السلطان العثمانى . حدث هذا مثلا عندما استردت نيابة الجزائر ميناء وهران سنة ١٧٠٨ . فأرسل مولاى اسماعيل تهنئة الى السلطان احمد الثالث . ولكن كان ســوء التفاهم يتجدد دائما فى مثل هـــذه المناسبات لتمسك ســلاطين مراكش بلقب أمير المؤمنين . وكانت امنية سلاطين العثمانيين فى أن يعترف لهم حكام مراكش بالسيادة الاسمية فقط . الا ان هؤلاء كانوا على العكس يرون انهم أحق من العثمانيين بتلك الزعامة الروحية لانتمائهم الى النسب الشريف .

شهدت مراكش بعد وفاة مولاى اسماعيل سلسلة من الحروب الاهلية بين أفراد الأسرة الحاكمة . والواقع أن دلائل الفوضى قد بدات تظهر فى حياة السلطان الكبير عندما تنازع ابناؤه على حكومات الأقاليم فى السنوات الأخيرة لحـــكم والدهم . ومما زاد حدة الصراع أن كلا من المتنافسين على

العرش استند الى كتلة من الكتل الاجتماعية فى مراكش · وبالاضافة الى المجموعات القبلية العربية والبربرية التى دخلت هـــذا الصراع ظهر عنصر جديد وهـو جيش العبيد ·

ولا ادل على هذه الفوضى من انه تعاقب على حـــكم البلاد ستة من السلاطين فى الفترة ما بين ١٧٢٧ و ١٧٥٧ · وكان من الممكن ان تؤدى هذه المنافسـات الى اندثار الاسرة العلوية ، لولا ان المتنافسين على العرش كان يحترم كل منهم حياة الآخر اذا وقع فى يده · ولولا ذلك لمـا أتيح مثلا لمولاى عبد الله بن اسماعيل أن يرقى للعرش أربع مرات ·

وبتولى محمد بن عبد الله العرش ١٧٥٧ ــ ١٧٩٢ · عاد الاســـتقرار نسبيا الى البلاد · ويعد حكم هـــذا السلطان صورة مصغرة لعهد مولاى اسماعيل ، فهو قد حاول تجديد العلاقات مع بعض الدول الاوربية من جهة ؛ واستأنف الجهاد ضد الجيوب المسيحية من جهة أخرى · وقد كان اميل فى البداية الى فكرة تنشيط التجارة فأنشأ ميناء موجادور ، ودخل فى معاهدات تجارية مع جميع الدول الاوربية التى لها معـــاملات مع مراكش ، ولم يستثن من ذلك اسبانيا · وقد استلزم عقد المعاهدة معها تجنب مشكلة الجيوب ، وذلك بتخصيص بعض نصوص المعاهدة لتحريم الغارات البحرية وعقد الهدنة على حدود الجيوب · ولكن بعد نجاحه فى استرداد مزغان من يد البرتغاليين طمع فى أن يتخلص من بقية الجيوب : سبتة ، ومليلة ، فلما احتجت اسبانيا بوجود المعاهدة ، رد مولاى محمد بأن الهدنة تنطبق على البحر فقط · ولم يكن هـــذا الرد مستندا فى الحقيقة الى نص المعاهدة ؛ ومهما يكن فقد تراجع مولاى محمد عن هـــذه الخطة بعد محاولتين فاشلتين سنة ١٧٧٣ و ١٧٧٤ ·

وقد صادف عهده حرب السنوات السبع ، ولا شك انه كان أميل الى الدول الشمالية البروتستنتية التى تكتلت فى هذه الحرب ضـــد فرنســا واسبانيا معا · فعقد معاهدة تجارية مع الدانمرك ، كما جدد المعــاهدة البريطانية المعقودة سنة ١٧١٦ ، ورغم هزائم فرنسا فى هـــذه الحـــرب فقد عاودت نشاطها البحرى بمجهود الأميرال فلورى · وأرسلت حملة تأديبية على موانى العرائش وسلا · والظاهر ان مولاى محمد كان مســتاءا من نزعات هـذه الموانى الانفصالية ولذلك لم يتأثر كثيرا بهذه الحملات · ولم يلبث ان دخل مع فرنسا فى معاهدة صداقة وتجارة · وتعتبر هــــذه المعاهدة المراكشية الفرنسية التى عقدت سنة ١٧٦٧ مبدا فكرة الحماية التى سيكون لها اثر بعيد فى تطوير المسألة المراكشية فى نهاية القـــرن التاسع عشر ، فهى تعيد معظم المبادىء التى نصت عليها معاهدة ١٦٨٢ مع

لويس الرابع عشر وتضيف اليها حق القناصل الفرنسيين فى حماية التجار ومن يدخل فى خدمتهم حتى من غير الرعايا الفرنسيين . ولهؤلاء القناصل ان يشرفوا على الأموال الفرنسية اذا غاب أصحابها أو ماتوا . وقد حاول المبعوث الفرنسى الكونت دى برنيون ان يحصل بالاضافة الى تلك المعاهدة على مركز ساحلى يقيم الفرنسيون عليه حصنا مثل حصن قالة فى الجزائر ولكن مولاى محمد رفض هذه الفكرة رفضا باتا .

ومما هو جدير بالملاحظة ان عهد محمد بن عبد الله شهد فى نهايته قيام أول اتصال بين جمهورية الولايات المتحدة الناشئة وبين دولة عربية اسلامية ، وحتى قبل أن تتشكل الحكومة الفدرالية فى واشنطن اقترح الكونجرس سنة ١٧٨٦ عقد معاهدة صداقة وتجارة مع مراكش ووسط السلطان لدى نيابات تونس وطرابلس لكى تكف عن مهاجمة السفن الامريكية . ومع أن السلطان لم ينجح فى وساطته ، لأن النيابتين طلبتا من الولايات المتحدة اتاوة ، وهو ما لم تقبله الحكومة الفدرالية ، فقد بعث جورج واشنطن بعد توليه الرئاسة برسالة شكر الى مولاى محمد فى ديسمبر ١٧٨٩ (١) نوه فيها بالصداقة التى نشأت بين البلدين منذ قيام الجمهورية . واعتبر الأمريكيون أن تراسل السلطان مع الكونجرس يعنى انه كان من اوائل الدول التى اعترفت بجمهورية الولايات المتحدة وقد استمرت العلاقات الطيبة بين البلدين قائمة فى عهد خلفائه . وكانت الولايات المتحدة من اوائل الدول التى انشأت لها قنصلية فى طنجة سنة ١٨٢٠ .

وتتميز سياسة مولاى محمد باتجاه جديد وهو توثيق الروابط مع الدولة العثمانية والمشرق الاسلامى بصفة عامة . فقد تبادل المراسلات والهدايا مع الباب العالى ؛ وارتبط بالمصاهرة مع الشريف سرور حاكم مكة ، ويلاحظ ان قوافل الحج المراكشية قد كثر ترددها على الحجاز . ولما كانت هذه القوافل تمر بشمال افريقيا فمصر ، فقد استدعى ذلك زيادة عوامل الاتصال بين مراكش وهذه الاقطار . ومما يجدر بالملاحظة ان احدى هذه القوافل قد وصلت الى مكة سنة ١٨١١ حينما كان السعوديون مستولين على الحجاز : فأعجب الحجيج المراكشى بالمبادىء السلفية التى تدعو اليها الحركة الوهابية السعودية . ولعل مهاجمة الوهابيين للطرق الصوفية وخرافاتها هى أهم ما اجتذبت العلويين فى مراكش ، الذين اصطدموا مع هذه الطرق منذ نشأتهم ، حتى أن مولاى سليمان المعاصر لهذه الحادثة الف الرسائل فى الرد على الطرق الصوفية . ومن

---

(١) انظر رسالة واشنطن فى Landau P, 185

مظاهر هـــذه السياسة رفض مولاى سليمان تأييد الطرق الصوفية فى وهران ضـــد السلطات العثمانية بالجزائر ، مع أنها عرضت عليه التبعية لعرش مراكش ٠

لقد سادت مراكش بعد مولاى محمد فترة من العزلة عن العـــالم الخارجى ، ومال السلاطين الى مصالحة الاســبان والاعتراف بمراكزهم الساحلية ٠ وازدادت هـــذه السياسة وضوحا فى عهد مولاى سليمان ١٧٩٤ ــ ١٨٢٢ ، فقد عمد الى بيع سفن الموانى المراكشية الشهيرة الى نيابات تونس والجزائر ، وذلك ليتجنب المشاحنات مع أوربا بايقاف حركة الجهاد فى البحر ٠ بل حرم على رعاياه الخروج للتجارة فى البلاد المسيحية ، وهو الذى خصص ميناء طنجة ليكون مقرا للممثلين الأجانب فلا يتعدونه الى العاصمة الداخلية فاس ٠

كذلك حدد مولاى سليمان الموانى التى يجـــوز للتجار الأوربيين ان يقيموا فيها ، وحظر على جميع الرعايا المسيحيين تجاوزها الى الدخل ٠ ولذلك أصبحت مراكش لغزا غامضا يسعى الرحالة الأوربيون لاكتشافه ، وكان هؤلاء يضطرون الى اخفاء شخصياتهم عند القيام برحلاتهم ٠ ومـــع ان مولاى سليمان كان يعاصر عهد الثورة ونابليون ، فان مراكش لم تلعب على مسرح الصراع الدولى الذى اقترب من شواطئها ذلك الدور الذى لعبته الجزائر ، ولم يستغل مولاى سليمان وقـــوع اسبانيا بيد الامبراطورية النابليونية لكى يسترد سبتة ومليلة ، بل راعى معاهدة الصلح التى كان قد عقدها مع الاسبان سنة ١٧٩٩ ٠ ورغم حرص سليمان على سياسة العزلة فقد وصلت مراكش فى عهده اثنتان من تلك البعثات الاستطلاعية التى اشتهر نابليون بايفادها الى العالم الاسلامى تمهيدا لمشروعاته التوسعية ، منها بعثة دى مانجو باديا ، الذى تنكر فى شخصية أحد أثرياء المسلمين باسم على بك العباسى ونشر رحلته عن مراكش ، ثم بعثة الضابط بوريل سنة ١٨٠٧ ــ ١٨٠٨ ٠

خلف عبد الرحمن مولاى سليمان عام ١٨٢٤ وحاول أن يجـدد حركة الجهاد فى البحر ولكن كما يقول صاحب الاستقصا (١) ٠ (صادف عصره علو شوكة النصارى وهو ما هو من استيلاء الفرنسيين على ثغر الجزائر) ، ومهما يكن من تردد مولاى عبد الرحمن فى موقفه من هـــذا الحادث فان ســـلاطين مراكش لم يذهبو ابدا مثل بايات تونس الى حـد التعاون مع الغزاة ٠

---

(١) الناصرى جـ ٩ ص ٢٤ ٠

القسم الثاني

الاستعمار الفرنسي

الفصل الخامس

المسالة الجزائرية من ١٨١٥ الى ١٨٣٠

١

رأينا فى غضون الحديث عن علاقات الجزائر الخارجية اثناء عهد الثورة ونابليون ، أن النيابة قد استفادت من الحروب الأوربية خلال هذه الفترة ، وشرعت تجدد قوتها البحرية . ويبدو ان اوربا قد اسفت على ادخال الجزائر كطرف فى منازعاتها ولذلك تحولت فى مؤتمر فينا الى سياسة جديدة تقوم على مبدأ العمل المشترك ضد نيابة الجزائر ، ولكنها ظلت تتردد فى كيفية تنفيذ هذه السياسة ، حتى اتيح لفرنسا أن تنفرد بمهمة تحطيم النيابة فى نهاية الأمر .

وقد اثير موضوع الجزائر فى مؤتمر فينا الاول سنة ١٨١٤ بمناسبتين الأولى : عندما طالب فرسان مالطة باعادة الجزيرة اليهم ، أو بمنحهم اى مقر آخر فى البحر المتوسط ليكون قاعدة لجميع الشعوب المسيحية ، تعمل منها على تحطيم قراصنة المسلمين بصفة عامة وشمال افريقيا بصفة خاصة . والمناسبة الثانية تتعلق بموضوع تجارة الرقيق ، ورغبة المؤتمرين فى تحرير الأسرى المسيحيين الذين ما يزالون بالمغرب (١) ، وقد أبدى الأميرال البريطانى سدنى سميث اهتماما كبيرا بهذه المشكلة ، نظرا لاتصاله بمنطقة المتوسط ابان الحروب النابليونية . ففى اغسطس ١٨١٤ قدم مذكرة بخصوص نيابة الجزائر الى هيئة الدول المتحالفة التى انتصرت على فرنسا ، واشتملت على عدة مبادىء هامة : منها ضرورة قيام أوربا بعمل جماعي ضد قرصنة المغاربة ؛ لأن فرسان مالطة لا يستطيعون تحقيق هذه المهمة ، ولا يعنى هذا التدخل الأوربى احتلال الجزائر وانما يكتفى بتحطيم حكومة الدايات

---

(١) قدر عدد الأسرى المسيحيين آنذاك بمدينة الجزائر بـ ١٢٠٠ بينما كان متوسط عدد الأسرى المسيحيين خلال القرن السابع عشر ٣٥ الفا .

القائمة ، واقامة حكومة اخرى فى الجزائر تراعى المبادىء المتبعة بين الدول المتحضرة . وفى رأى الأميرال البريطانى ، لا يعد هـــذا التدخل تعــديا على سيادة الدولة العثمانية ، لأن الداى لا يعترف رسميا بهذه السيادة ، بدليل ان اعتداءاته تتكرر على نيابتى تونس وطرابلس المجاورتين . وعلى العكس سيعمل التدخل الاوربى على توكيد سيادة السلطان على تلك البلاد المتمردة . ولذلك يمكن للدول أن تطلب الى السلطان التعاون معها ، وذلك بمنع خروج رعايا الدولة اليها للانخراط فى بحريتها او جيشها ، وسحب ما بها من حاميات واتخاذ الحزم مع باى تونس ، بالزامه احترام المبادىء الدولية . ولتحقيق هـــذه الخطة اقترح سدنى سميث ، تأليف قوة بحرية مشتركة وابدى رغبته فى ان يكون قائدها (١) ولكن اتفقت كل من انجلترا وفرنسا عند انعقاد المؤتمر على رفض المشروع . أما بالنسبة لفرنسا فالسبب واضح وهو انها خرجت من حروب نابليون مستضعفة ، وكانت تعلم جيدا انهــا لن تستطيع فى هـــذه الظروف أن تلعب دورا رئيسيا فى أى عمل جماعى يتخذ ضـــد الجزائر . اما بريطانيا فقد وضع وزير خارجيتها كاسلريه بنفسه موقفها ، فقال « أن بريطانيا ما زالت تحتفظ بسياستها التقليدية التى تفضل بقاء النيابات حتى لا تتعرض شمال افريقيا لحالة من الفوضى تمكن فرنسا من اخضاعها دون عناء » لذلك اكتفى المؤتمر فى قراراته النهائية فى يونيو ١٨١٥ ، بوضع مبـــدأ عام يحرم القرصنة واسترقاق المسيحيين فى المغـــرب ضمن سياسة عامة تهدف الى الغاء عادات القرصنة والرق فى العـــالم .

على انه لم يمض عام واحد على مؤتمر فينا ، حتى كانت بريطانيا قـــد نفذت فكرة التدخل باسم اوربا والمسيحية ، ولكنها انفردت تقريبا بالتدخل المسلح ضد الجزائر وان أشركت معها قطعا من الأسطول الهولندى لتثبت صفة الحملة الأوربية ، ولا شك أن هذا التدخل انما جاء نتيجة للمركز الجديد الذى اكتسبته بريطانيا فى منطقة البحر المتوسط اثر حـــروب نابليون ، فقد آلت اليها جزر الايونيون فى شرق المتوسط ، وكذلك جزيرة مالطة باقرار من مؤتمر فينا . وبالاضافة الى جبل طارق أصبحت بريطانيا تعتبر نفسها من دول المتوسط ، وبالتالى كرهت احياء البحرية الجزائرية سنة ١٨١٥ ، خاصة وان الريس حميدو ركز نشاطه فى هذا العام ضـــد السفن الاســـبانية والبرتغالية ، والدولتان الايبيريتان آنذاك حليفتان لبريطانيا .

---

(١) يمكن الاشارة الى مرجعين هامين فى موضوع هذا الفصل اولهما :

(أ) محاضرات القاها الدكتور احمد عزت عبد الكريم ونشرها معهد الدراسات العربية بعنوان « المسألة الجزائرية فى السياسة الدولية » .

E. P. Marchand : L'europe et la Conquète, d' alger .

وفي اوائل سنة ١٨١٦ تعرضت احدى السفن البريطانية الصغيرة للأسر ، فاسرعت بريطانيا بارسال حملة بحرية كبيرة ليست ضد الجزائر فحسب ، بل كان عليها ان تطوف بالنيابات الاسلامية في شمال افريقيا ، مرهبة اياها حتى تسرح ما لديها من أسرى وتعطي تعهدات باحترام قوانين البحر .

قاد اللورد اكسماوث هذه الحملة وانضم اليه في جبل طارق الاسطول الهولندي ، وفي ابريل ١٨١٦ اخذ يطوف بموانى الشمال الافريقي حيث ظفر بتعهدات حكامها بأن يطلقوا الأسرى بفدية مخفضة . والظاهر أن الداي لم يكن مستعدا لقبول التهديد ، فبمجرد ابتعاد الأسطول البريطاني القى القبض على عدد كبير من الرعايا الانجليز والفرنسيين الذين كانوا يعملون في مصايد الصدف قرب ساحل الجزائر الشرقي ، كما طرد القنصل البريطاني من الجزائر . ولعل هذا هو ما يفسر لنا وقوف القنصل الفرنسي ديفال موقف التأييد من المطالب الانجليزية ، بالرغم من استياء فرنسا لانفراد بريطانيا بالعمل في الجزائر . فتذكر الوثائق الفرنسية أن الداي عمر باشا رفض رفضا باتا فكرة الاقلاع عن القرصنة متعللا بأنها هي المصدر الوحيد الذي ينفق منه على الجيش ، ويضيف ديفال انه نصح حينئذ الداي بقبول شروط الحملة الانجليزية لأن أوربا اجمعت على تأييدها .

وفي اغسطس عاد اكسماوث بعد أن عزز قوته البحرية فاصبحت تضم اكثر من ٤٢ سفينة حربية كبيرة ؛ وقدم شروطا جديدة أكثر تحديدا من مطالب ابريل ، فهي تشمل الكف عن استرقاق الأسرى المسيحيين ومعاملتهم طبقا للمعاهدات السائدة في أوربا ، والاعتراف بحق اخذ الفدية عنهم ولكن بشرط أن تكون معتدلة ، وكذلك رد الأسرى التابعين لنابولي وسردينيا الى بريطانيا (وكانوا يكونون الغالبية العظمى من الأسرى وقد قدر عدد الأسرى الذين حررهم اكسماوث في الجزائر وحدها بـ ١٦٠٠ ، أصبحوا ٣٠٠٠ بعد ان أضيف اليهم أسرى تونس وطرابلس ، وفي نفس الوقت اعترف اكسماوث بحق الاسطول الجزائري في تتبع سفن الدول التي لم تعقد مع الجزائر معاهدات خاصة ، بيد انه طلب الحاق شرط بهذه الاتفاقية ينص على تعهد الداي بعقد معاهدات مع جميع الدول الاوربية بشأن الغاء القرصنة .

ولكي يضمن اكسماوث النجاح لمهمته ؛ دبر حيلة يسيطر بها على ميناء الجزائر في حالة رفض الداي للشروط . فبينما كان المفاوض يتقدم في السفينة التي تحمل العلم الأبيض ؛ ارسل خلفه سفينة حربية رست داخل الميناء ؛ وعندما رفض الداي عمر كما كان متوقعا هذه المطالب ،

استطاعت هذه السفينة ان تفتح الميناء للاسطول البريطاني الذي تمكن من الحاق اضرار جسيمة به . وازاء هــذا الخطر الداهم ، اضطر الداي عمر الى توقيع الشروط التي قدمت اليه في ٢٩ اغسطس ١٨١٦ وسلم الاسرى الطليان الذين كان اكسماوث يطالب بتحريرهم (١) .

حنق الجند ورجال الطائفة على عمر باشا لخضوعه أمام التهديد البريطاني ، فقرروا قتله واختيار داي آخر يستطيع الصمود امام اوربا ، ووقع الاختيار على الداي حسين . ولعل هــذا ما يفسر لنا مواقفه المتصلبة من المطالب الأوربية ثم الفرنسية فيما بعد . ولم يثن تحطيم الأسطول البريطاني لميناء الجزائر بحريتها عن تتبع سفن الدول الأوربية الصغيرة ، ولا سيما الجمهوريات البحرية الناشئة على البلطيق مثل بريمن وليبك بالاضافة الى مملكة بروسيا والتمسك بالاتاوات او زيادتها بالنسبة للسويد والدانمارك . لذلك عادت بريطانيا تطالب بالتدخل على اساس مشروع سدني سميث ، الذي اهملته من قبل ، واقترحت أن توضع القوة الجماعية تحت أشراف مجلس اوربي . مثل ذلك المجلس الذي يشرف آنذاك على قوات الحلفاء المحتلة لفرنسا . ولكنها اصطدمت بمعارضة جميع الدول الكبرى تقريبا ، فروسيا التي تتزعم الحلف المقدس في ذلك الوقت ترى في بريطانيا منافسا خطرا لنفوذها في الولايات العثمانية ، أما فرنسا فقد كانت تسعى لأن يقتصر التدخل على دول المتوسط تحت زعامتها ان أمكن ، وقد عبر شاتوبريان احد الاعضاء البارزين في مجلس النواب عن هذا الاتجاه قائلا « لقد كان الفرنسيون هم أول الصليبيين ، فليكونوا الآن آخرهم » .

أما اسبانيا فقد وجدت في هــذا الموضوع فرصة لانتقاد بريطانيا التي كانت تشجع حينئذاك الثورات في المستعمرات الاسبانية بامريكا ، فطالبت بأن يشمل موضوع القرصنة المستعمرات الأمريكية مثل نيابات الشمال الافريقي تماما .

وازداد هذا الخلاف بين الدول الاوربية وضوحا ، عندما اعيد بحث موضوع نيابة الجزائر في مؤتمر اكس لا شابل سنة ١٨١٨ . فقد اظهرت روسيا ميلا الى الاشتراك في القوة الاوربية (الرادعة لقراصنة البربر) . فاثار هذا المطلب مخاوف كل من بريطانيا وفرنسا ، وكان من بين العوامل التي أرست سياسة الدولتين التقليدية ، تلك السياسة التي ترمي الى

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة :

E. Salame — A Narrative of the expedition to Algiers in the year 1816 under LORD Ex Mouth.London 1819.

ابعاد روسيا عن حوض البحر المتوسط . وهكذا مالت فرنسا الى توسيط الآستانة فى المشكلة الجزائرية . بينما دعت بريطانيا الى اشتراك فرنسا معها لتاليف قوة رادعة ضد الجزائر ، وهذا ما ستنفذه فعلا فى العام التالى . ومع ان المؤتمر لم يتخذ مثل سابقه قرارا حاسما ، الا ان الباب العالى استشعر من هـــذه المناقشات وجود فكرة التضامن المسيحى ضد احدى الولايات الاسلامية . وبين الريس افندى وزير الخارجية أن الدولة العثمانية لا تستطيع فى مثل هـــذه الظروف ان تقف ضد شعب اسلامى . وقد ظهر هـــذا الاتجاه فى السياسة العثمانية فعلا منذ الحملة البريطانية سنة ١٨١٦ ، فقد منحت الجزائر اثـر هـــذه الحملة ثلاث سفن حربية ، كما توسطت لانهاء المنازعات بينها وبين تونس .

كان قرار اكس لاشابل يقضى بأن يوجه انذار الى الجزائر بالكف عن الرق والقرصنة ، مع التهديد باستخدام القوة ، واتفق على ان تقوم بريطانيا وفرنسا معا بهذه المهمة بالنيابة عن اوربا . وقد ظهرت اســـاطيل الدولتين امام الجزائر فى سبتمبر ١٨١٩ . وجاء فى الاعلان الذى ارسل الى الداى حسين ، بأنه اذا بدأ المغاربة فى العدوان فستكون اوربا تحالفا قويا ضدهم ، ولكنها مستعدة لاقامة علاقات طيبة مع الجزائر اذا غيرت من نظمها غير الملائمة للعصر . وطلب الاعلان اسقاط نظام الرق اســـاسا فى الجزائر ، ولمـا كانت اوربا كلها مهتمة بهذا الموضوع الخطير ، فلن تكتفى الحملة هذه المرة بالوعود الشفوية ، انما ينبغى على الداى اصدار وثيقة رسمية بهذه التعهدات . كذلك طالب الانذار بتخلى الداى عن حقه فى تفتيش السفن الأجنبية وعدم مصادرتها بحجة عدم استيفاء أوراقها . ومن الطبيعى ان يرفض الداى هذين المطلبين لان فيهما اذلالا لكرامة الجزائر وانتقاصا لسيادتها ، الا انه رفض ايضا التعهد بعدم تتبع سفن الدول غير المرتبطة بمعاهدات ، (ولن تجد الجزائر فى اى تجارة عوضا عن هـــذه الأعمال) ، كما ان الغاء نظام الرق دفعة واحدة لم يكن من الأفكار المقبولة فى مجتمعات ذلك العصر .

ولم يكن لدى الحملة تفويض باحتلال الجزائر او تدميرها فى حالة الرفض ، وذلك نظرا لمـا بين الدول من خلاف وتنافس حول تلك المشكلة ، بل ان فرنسا التى اشتركت مع بريطانيا فى تلك الحملة لم تكن تثق فى نيات شريكتها وتعتقد بأنها تسعى لاحراز مركز ممتاز فى الجزائر ، ولم يعرف الداى حسين كيف يستفيد من حالة التنافس بين تلك الدول . وادت سياسته الصلبة الى خلق المسوغات امام كل دولة ان تستخدم الشـــدة مع الجزائر دون ان تجد معارضة جدية من الدول الأخرى ، ويظهر مما سبق أن بريطانيا قـــد اصبحت فى المدة ما بين ١٨١٦ – ١٨٢٤ هى المتزعمة لسياسة تحطيم قوة النيابة . ولذلك اظهر قناصلها صلفا فى معاملاتهم مع

الجزائريين ، فعمد « ماكدونالد » مثلا الى بسط حماية دولته على الرعايا الجزائريين الذين كانوا متهمين باحداث ثورة داخلية ضد حكومة الجزائر ، فاضطر الداى الى ابعاده عن البلاد مما ادى الى مظاهرة بحرية جديدة سنة ١٨٢٤ ، فكانت هــذه هي آخر المظاهرات البريطانية امام الجزائر ٠

وكانت ذكرى فرنسا النابليونية المعادية لأوربا قد اخــذت تنمحى بالتدريج ، فلما جاء دورها لتسوى مشاكلها بطريقتها مع الجزائر لم تصطدم بمعارضة فعالة ٠

٢

النزاع مع فرنسا

تأزمت العلاقات بين فرنسا وحكومة الداى سنة ١٨٢٦ وتطور الامر الى ضرب الحصار على مدينة الجزائر فى العام التالى ، حتى انتهى بارسال الحملة لاحتلال النيابة فى يونيو ١٨٣٠ ٠ وسنحاول فيما يلى أن نرد هذه الأزمة الى اصولها التاريخية مميزين بين نوعين من اسباب النزاع : الأسباب العامة ثم الحوادث التفصيلية التى تسببت بصورة مباشرة فى الاحتلال ٠ فمن هــذه الأســباب العامة مايتعلق بفقدان فرنســا لامبراطوريتها الاستعمارية ابان حروب الثورة ونابليون ، وتنازلها لبريطانيا عن بعض هذه المستعمرات نهائيا سنة ١٨١٥ ٠ ولذلك يجمع مؤرخو الاستعمار فى فرنسا على أن الاستيلاء على الجزائر يعد نقطة البداية لاحياء السياسة التوسعية وتأسيس امبراطورية استعمارية ثانية ٠

ومنها ما يتعلق بهيبة حكومة البوربون ، فمن المعروف أن هذه الحكومة قد عادت على أكتاف الأجانب وقبلت اذلال فرنسا ، ولما عجزت عن تعديل معاهدة فينا راحت تبحث عن نصر خارجى فكانت ازمة الجزائر فرصــة طيبة لابراز عظمتها فى الخارج ، وقد زادها تمسكا بهذه السياسة التوسعية رغبتها فى تغطية القوانين الرجعية التى اشتطت فى سنها خلال الأعوام القليلة التى سبقت عام ١٨٣٠ ٠ وهناك سبب ثالث ــ ولعله الاهم ــ وهو استمرار شعور التعصب الدينى وبعث ذكريات عهد القراصنة والجهاد فى البحر كلما وقــع حادث ولــو بســيط من بحــارة الجزائر ضــد اى دولة أوربية ٠

وبينما كانت الجزائر تتزعم دول المغرب فى هــذا الصراع : كانت فرنسا تشعر أنها زعيمة الدول الكاثوليكية فى المتوسط ٠ وقد تأكد هذا

الاتجاه في عهد شارل العاشر ١٨٢٤ ــ ١٨٣٠ ، وهو معروف بتأييده المطلق لحــزب الكنيســة : ولهذا الدافع الديني شواهد عدة : منها ان فريق الوزراء الذين تحمسوا لفكرة الاحتلال كانوا فى الغالب من الحزب اليمينى ، فمثلا عندما انقسم مجلس الوزراء على نفســه سنة ١٨٢٨ بخصوص اهداف الحصار ، دافع كليرمون دى تونير وزير الحربية عن وجهة نظر الحــزب اليمينى فى الاحتلال فى تقرير ننقل منه الفقرة التالية : « لقد أرادت العناية الالهية ان تثار حمية جلالتكم بشدة فى شخص قنصلكم على يد الد أعداء المسيحية ، ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يدعى ابن لويس التقى لكى ينتقم للدين وللانسانية ، ولاهانته الشخصية فى نفس الوقت . وربما يسعدنا الحظ بهذه المناسبة لننشر المدنية بين السكان الأصليين وندخلهم فى النصرانية » . وعندما اقام بورمون قائد الحملة صلاة الشكر فى أنــــاء القصبة بمناسبة الانتصار ، بعث بوصف لهــــذا الاحتفال قال فى نهايته : « مولاى ، لقد فتحت بهذا العمل بابا للمسيحية على شــــاطىء أفريقيا ، ورجاؤنا ان يكون هــــذا العمل بداية لازدهار الحضارة التى اندثرت فى تلك البــــلاد » ولم يخف المؤرخون المحدثون هــــذه الحقيقة ، فوصف ادواردريو المؤرخ الفرنسى المعروف بدراساته عن الشرق حادث الاستيلاء على الجزائر ، « بانه كان اول اسفين دق فى ظهر الاسلام » .

اما الحادثة الشهيرة بلطمة المروحة والتى كانت سببا مباشرا فى ضرب الحصار ثم الاحتلال ، فهى نتيجة لتطور موضوع قديم يرجع الى عهـــد الثورة حينما اضطرت فرنسا الى شراء القمح من الجزائر على ســـــبيل الاقتراض .

وقد افتتح هذه السياسة الداى حسان ، واشترك بعض الماليين من اليهود ولا سيما بيت بكرى ، الذى هاجر من ليفورن الى الجزائر فى سنة ١٧٧٠ ، فى هذه العمليات كوسطاء . فكان الدايات يبيعون لهم القمح بثمن بخس نظير اقتراضهم الاموال من تلك البيوت المالية عند الحاجة . ثم يبيع هؤلاء الوسطاء القمح لفرنسا بأثمان باهظة لحاجتها الى المؤن واضطرارها للدفع على آجال ثم دخل الداى مصطفى باشا الذى خلف حسان فى هــذه العمليات كدائن ، وذلك بتقديم بضائع لفرنسا قيمتها ٣٠٠ الف فرنك على سبيل الاقراض ، ومن ثم اصبح الداى يستفيد مثل الوسطاء اليهود من عمليات التجارة مع فرنسا . وهذا ما يفسر لنا موقف الداى المتراخى منها ابان حربها مع الدولة العثمانية ١٧٩٨ ــ ١٨٠١ وكان اليهود من بيت بكرى يحرصون على توثيق صداقات بالشخصيات الكبيرة فى باريس حتى يضمنوا اسداد ديونهم فى مواعيدها ودفع الفوائد الكبيرة عنها ، واعتمد الداى عليهم فى هــذه المهمة ؛ وتكشف الوثائق عن الدور الذى لعبه تاليران فى تلك

المعاملات ، وتلمح الى انه كان يأخذ الرشاوى لانجاز مطالب اليهود وحكومة الجزائر : فقد شاع عن ابراهيم بكرى قوله : « اذا لم يكن الأعرج ، مشيرا الى تاليران . ملك يدى ما كنت استطيع فعل شيء في باريس » والظاهر ان تاليران تآمر مع اليهود لتسوية ديونهم أولا في الوقت الذى كان الداى يلح فيه لاستيفاء ديونه .

ويبدا مصطفى داى منذ سنة ۱۸۰۰ تقريبا ، تلك السلسلة الطويلة من الرسائل التى بعث بها هو وخلفاؤه ملحين فيها على فرنسا بسداد ديونها (۱) . وظهر منذ البداية الخلاف على تقديرات الديون من ۳ الى ۸ مليون فرنك . وقضى الداى مصطفى سنة ۱۸۰٥ دون أن تسوى المشكلة ثم انقطع الحديث عنها بسبب توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا في عهد خلفه الداى احمد .

فلما انتهت المنازعات الدولية سنة ۱۸۱٥ ، وانقطعت بذلك اسباب الخصومة الرئيسية ، ارسلت فرنسا قنصلا جديدا الى الجزائر هو بيير ديفال الذى عاصر جميع الحوادث التى انتهت بالاحتلال سنة ۱۸۳۰ . وكان يحمل معه تعليمات بتسوية جميع اسباب الخلاف ومن بينها مسالة الديون . وقد مهد لذلك بتقديم هدايا قيمة ، فأعيدت امتيازات شركات الأصداف الفرنسية مع تخفيض العوائد التى تدفعها سنويا ولكن احتدمت المناقشات من جديد بمشكلة تقدير الديون ، ولذلك تألفت لجنة مالية في باريس لتسوية هذا الخلاف ، وانتهت في تقريرها الى انزال المبلغ من ٢٤ مليون ، كان يطالب بها الداى وشركاؤه ، الى سبعة ملايين فرنك . ورغم هذا فقد اضطر الداى الى الاعتراف بالتعديل على امل أن تقوم فرنسا بسداد ما عليها دون مماطلة . غير أن المشكلة لم تقف عند هذا الحد . فعندما عرضت الاتفاقية الجديدة المعدلة على مجلس النواب قرر الافراج عن ۲/٥ مليون فرنك ، وهو المبلغ المستحق للوسيطين اليهوديين يعقوب بكرى وبوزناك ، وحجز الباقى حتى تصدر المحكمة الفرنسية رايا بالمبلغ الذى يستحقه جميع المدعين وتحفظت بحقوق بعض الفرنسيين واليهود (۲) .

واعترض الداى على ان تفصل محكمة فرنسية في خلاف بينه وبين اثنين من اليهود يعتبران من رعايا النيابة . وكان القنصل ديفال يتعلل في هذا الموضوع بتعقيد الاجراءات القانونية في نظم دولته ، وحاول الداى

---

(۱) انظر هذه المراسلات Plantet Tom II P. 500. S. Q.

(۲) ذكر صاحب تحفة الزائر ص ۹۳ أن تجار مرسيليا هم الذين ادعوا دينا على الجزائر . وأن مجلس النواب احتفظ بجزء من الدين كضمان لهم .

أن يخرج من هذه الأزمة باقتراح جديد ، وهو أن تدفع له فرنسا المبلغ الذي حددته ويتعهد هو بتسوية جميع مطالب الدائنين .

ارسل ذلك العرض فى اغسطس ١٨٢٦ ، ولم يتلق الداى عنه جوابا وانما ارسلت التعليمات الى ديفال لابلاغه شفويا بأن الاجراءات الفرنسية معقدة ويجب عليه الانتظار ، فكان هذا سببا لاثارة حسين باشا لأنه اعتقد ان القنصل يخفى الرد عنه ، وطلب الى داماس وزير خارجية فرنسا سحبه من الجزائر . وفى هـذه الأثناء وقع حادث آخر زاد من حدة التوتر ، وهو وقوع اشتباك بين السفن الجزائرية وبعض سفن البابا التى اسرها الجزائريون . واهتمت فرنسا بالأمر وارسلت سفينة للاحتجاج فى اكتوبر سنة ١٨٢٦ .

وبينما كان الداى يتوقع رد وزير الخارجية على طلب سحب ديفال ، اذ بهذا الوزير يركز رده فى فبراير سنة ١٨٢٧ على موضوع السفن البابوية فيطالب بتعويض ورد مسلوبات السفن ، والتعهد بعدم التعدى عليها . أما فيما يتعلق بمسالة الدين فلم يزد عما قاله ديفال .

واستعدت الحكومة الفرنسية لاتباع هذا الخطاب ببعض السفن الحربية لتهديد الداى والزامه بالتعويض . فكأن فكرة استخدام القوة قد سبقت حادثة لطمة المروحة .

صدر الأمر فى اوائل ابريل ١٨٢٧ الى قاعدة طولون البحرية بارسال اربع سفن حربية الى الجزائر ؛ ويبدو ان ديفال قد تلقى الرسالة الخاصة بتحرك السفن فى اواخر هذا الشهر . وعلم الداى بتلقيه رسالة من حكومته ، فظن انها تتعلق بالدين ولم يكن فى استطاعة القنصل أن يبرز الرسالة قبل وصول القطع البحرية ، وفى هـذا الجو تمت المقابلة التاريخية بين ديفال والداى حسين باشا فى ٣٠ ابريل سنة ١٨٢٧ وسنورد فيما يلى ملخصا للحوار الذى دار بين الرجلين حسب رواية ديفال (١) .

بدأ الداى بالسؤال عن صحة الأنباء بوقوع حرب بين انجلترا وفرنسا بسبب البرتغال ، فأجاب ديفال بالنفى قائلا « بأن حكومته لن تتدخل فى شئون البرتغال » .

اهكذا تعطى فرنسا لانجلترا كل ما تشاء ، ولا تعطينى شيئا ؟ .

(١) انظر نص الحوار فى Esquer chap. 2.

سيدى أعتقد أن حكومة جلالته اعطتك دائما كل ما أردت ·

لماذا اذن لم يرد على وزير الخارجية ؟ ·

لقد حملت اليك رده الشفوى بمجرد أن تلقيته ·

ولكن لماذا لم يكتب الى مباشرة ! هل انا شخص تافه ، أم انا رجل حافى القدمين ؟ انك انت الذى تسببت فى عدم الرد ، ولأنك وشيت بى عند حكومتك أنت شرير كافر ·

ان حكومتى لن تكتب اليك أبدا ·

حينئذ نهر الداى القنصل طالبا منه الخروج وأشاح بمروحة كانت فى يده فمست وجه القنصل ·

وتختلف المصادر الجزائرية عن تقرير ديفال ، وترميه بتزييف الحقائق بسبب بغضه الشخصى للداى ، فقد نفى الداى فى رسائله بعد ذلك للحكومة الفرنسية واقعة الضربة ، وان الأمر لم يتجاوز التهديد بالكلام ·

كانت فرنسا اذن قد قررت استخدام القوة ضد الجزائر قبل مقابلة ٣٠ أبريل · ولكن تقارير ديفال عن هذه المقابلة اثارت نعرة الحكومة الفرنسية ، فقررت ضرب حصار جدى على ميناء الجزائر · وقد بدأ الحصار فعلا فى يونيو سنة ١٨٢٧ ، واستمر اكثر من سنتين · وحتى أوائل سنة ١٨٣٠ لم تستقر فرنسا على هدف محددمن وراء هذا الحصار · وقد فتحت المفاوضات مع الداى أكثر من مرة ، ولكن حسين باشا ظل صلبا فى رايه ؛ او قل أصر على الاحتفاظ بكرامته ، اذا أردنا ان ننظر الى الجزائر على قدم المساواة مع فرنسا · وقد شعر الداى بروح التحدى واضحا ، فعند بداية الحصار طلب القائد الفرنسى (صمود) وزير البحرية الجزائرى الى السفن الفرنسية لتقديم الاعتذار ، واصدار تعهد بالامتناع نهائيا عن القرصنة والاتاوات مع اعادة المسلوبات من السفن البابوية والاعتراف لفرنسا بحق الدولة الأولى بالرعاية فى الجزائر ، وأخيرا ولعله الأهم ؛ هو تخلى الداى عما له من ديون · واجاب الداى على هذه المطالب قائلا بأنه « لم يبق الا أن يطلبوا امراتى » ·

ومنذ بداية الحصار تحمس ديفال لفكرة الاحتلال ، مؤكدا سهولة تنفيذ النزول الى البر ، وايده فى ذلك قائد الحصار كولوت · ولكن السلطات العليا فى البحرية لم تقر هذا الراى ، ورات فى نزول القوات مخاطرة كبيرة · وانقسم مجلس الوزراء ، فالغالبية ترى ان الحصار

وسيلة لتأديب حكومة الجزائر وإرغامها على قبول مطالب فرنسا ، بينما دعا قليل من الوزراء لفكرة الاحتلال وعلى رأسهم وزير الحربية كلير مون دى تونير فبعد ان اشار فى تقريره الى العامل الدينى الذى ذكرناه آنفا ، وضح الفوائد التى ستعود على الحكومة من احتلالها للجزائر على النحو الآتى :

ان احتلال الجزائر سيكون أول فرصة للتخلص من معاهدة فينا ، لأنه ينطوى على خرق مبــدأ من مبادىء تلك المعاهدة والذى ينص على عدم اجراء اى تغيير اقليمى بدون موافقة الحلف الرباعى ، ويمضى التقــرير فى بيان فائدة الاحتلال بالنسبة للعرش « ان شعبا معروفا بالشغب مثل الشعب الفرنسى ، لا بد له من حين لآخر أن يرى حوادث خطيرة تخرج به عن الحياة المألوفة . واحتلال الجزائر سيغذى هــذا الخيال ، وسيمكن الملك من حل البرلمان الذى قويت فيه المعارضة » . أما نفقات الحملة التى تثير كثيرا من الاعتراضات ، فيتوقع وزير الحربية أن خزينة النيابة التى تضم نحو ١٨٠ مليون فرنك ، ستغطى مصاريف الحملة . وعلاوة على ذلك ستحصل فرنسا على ثروة طبيعية فى الجزائر ، حيث يستطيع الملك أن يوزع الأرض على أعوانه . ويعوض البلاد عن منتجات المســتعمرات القديمة (١) .

ولم تلبث وزارة دى فيلل القائمة آنذاك أن سقطت وحلت محلها وزارة اخرى برياسة مارتنياك : الذى كان اقل اعتمادا على العناصر الرجعية ، وبالتالى تأكد الاتجاه نحو استبعاد فكرة الاحتلال . ولم يكن وزير الخارجية الجديد دى لافورنيه من انصار تقسيم اشلاء الدولة العثمانية مع روسيا لاعتقاده بأنانيتها . اما النواب فكانت غالبيتهم العظمى تجهــل اهمية المسألة ؛ والذين تحدثوا فيها انما فعلوا ذلك على سـبيل الاعتراض على نفقات الحصار الذى يكلف فرنسا اكثر من مليون فرنك سنويا دون أن يكون هــذا الحصــار محكما ؛ او أن يؤثر تأثيرا كبيرا على حـكومة الجــزائر ، ولم يطــالب بفكرة الغــزو ســوى نائبين عندما طرح الموضوع للمناقشة صيف ١٨٢٩ . ولذلك فاتحت حـكومة مارتنياك الداى فى توقيع الصلح اكثر من مرة وخففت من مطالبها ؛ ولكن اصطدمت هــذه المحادثات بموضوع تقديم الاعتذار ، فقد اصر الداى على عدم تقديمه الا بعد الانتهاء من شروط الصلح . وقد جاء فى خطاب العرش سنة ١٨٢٩ ان هدف الحكومة هو توقيع الصلح مع المحافظة على كرامة فرنسا .

وقد وقعت اهم تلك المحاولات فى صيف سنة ١٨٢٩ ، حين ارسلت

---

(1) Esquer chap. 3.

وزارة البحرية لابروتنيير (للاتفاق على تسوية معقولة) وتوسط قنصل سردينيا لتقديم شروط فرنسا وكانت تحتوى على ثلاث نقاط رئيسية ، وهى ارسال مندوب عن الداى الى باريس لتقديم الاعتذار ، ورد اسرى السفن البابوية ، وعقد هدنة مؤقتة تمهيدا للصلح ، ولكن الداى قدم شروطا مضادة ، وتوسط قنصل بريطانيا سان جون فى ابلاغها الى فرنسا • وقد عمل خلال هذه الأزمة على انهاء النزاع تجنبا لما قد يجره من احتلال فرنسى للجزائر • طالب الداى بتنازل فرنسا عن ادعاءاتها فى حصن القالة ، وعن احتكار تجارة عنابة • وبعد توقيع الصلح على هذه الأسس يمكن ارسال مندوب للاعتذار • غير أن تعرض سفينة المفاوض الفرنسى لضرب مدفعية الميناء وضع حدا لهذه المحاولة ، بالرغم من أن الداى اقال وزير بحريته ، حتى يثبت للدول التى توسطت فى حل النزاع ، عدم مسئوليته عن الحادث •

٣
اقتراح تدخل محمد على

تصادف وقوع هذه الحوادث مع تولى دى بولينياك رئاسة الحكومة فى فرنسا ، وكان دى بولينياك يمثل الرجعيين ، وبالتالى فمن المتوقع ان يكون رده على حادثة ضرب سفينة المفاوض الفرنسى عنيفا • ولكن كانت لديه مشروعات أخرى اكثر طموحا فى أوربا ، فهو يسعى الى عقد تحالف كبير مع روسيا يهدف الى تغيير خريطة اوربا ، وذلك بتسليم الأفلاق والبغدان اليها نظير التخلى عن بلجيكا لفرنسا • ولذلك رحب دى بولينياك بفكرة دروفتى، قنصل فرنسا فى مصر، التى وصلته بعد أيام وهى تتضمن اقتراحا بتدخل محمد على لحل المشكلة الجزائرية • ويميل الكتاب الفرنسيون الى تصوير محمد على ، على انه صاحب فكرة التدخل فى الجزائر ، بل ينسبون اليه التقدم باقتراح من هذا النوع سنة ١٨٢٧ وان فرنسا رفضته فى هذا الوقت • والظاهر من الوثائق المنشورة (١) أن دروفتى هو الذى اغرى محمد على بفكرة التدخل ، وان الباشا قد قبل الفكرة على أساس أنها وسيلة لابعاد الاحتلال عن دولة اسلامية وفرصة لتحقيق مطامحه الشخصية فى نفس الوقت • أما الحكومة الفرنسية فقد بنت مشروعها على اساس أن محمد على عميل لها ، وليس باعتباره حليفا كما يتبادر الى الذهن •

---

(١) انظر عنوان هذه الوثائق فى ثبت المراجع تحت اسم Douin وكذلك انظر Esquer chap. 4.

وقد ارسل مشروع الاتفاق الاول بين دروفتى ومحمد على الى باريس فى اوائل اغسطس ١٨٢٩ ، وهو يقوم عن اساس تكفل محمد على بتأديب الداى بخروج حملة برية من مصر يؤيدها الاسطول الفرنسى بحرا وتقديم بعض المساعدات المالية . ويترتب على هذه الخطة انتقال كل من ولايات طرابلس وتونس والجزائر الى محمد على ، فيقيم فيها حكومة متحضرة تحترم قوانين الملاحة ، ويقوم محمد على بضم هـذه الولايات باسم السلطان ويدفع له جزيتها . وفى مقابل مساعدات فرنسا يمنحها كل ما تطلب من امتيازات اقتصادية أو عسكرية فى الجزائر .

ويعدد دروفتى فوائد هذا المشروع بالنسبة لفرنسا على النحو التالى :

١ ــ توفير نفقات الحملة التى ستكلف فرنسا كثيرا نظرا لضرورة تموينها عبر المتوسط .

٢ ــ تعويض خسائر محمد على فى اليونان ، وبذلك يمكن اعادة العلاقات الطيبة بينه وبين فرنسا .

٣ ــ تحويل نظر محمد على عن التوسع فى الشام وتجنب الازمة الدولية التى قد تترتب على هـذا .

٤ ــ تجنب معارضة بريطانيا التى قد تتراجع عندما تصبح المسألة اسلامية بحتة .

على انه سرعان ما تبين خطأ دروفتى فى تقدير فوائد المشروع ؛ فمن جهة لم يوافق الباب العالى على منح منافسه القوى فرصة كهذه للتوسع ، ومن جهة اخرى تبين ان بريطانيا لم تكن اقل معاداة لمد نفوذ محمد على فى المتوسط منها لتوسع فرنسا . كذلك لم يتفق بولينياك مع قنصله على اهمية موافقة الباب العالى ، فأرسل الى السفير الفرنسى فى استانبول فى ١٤ اكتوبر ١٨٢٩ يطلب منه تبليغ الباب العالى بالاتفاق مع محمد على ويصور تدخله على انه عمل بوليسى داخل الدولة ، ويهدد بانه فى حالة معارضة الآستانة للمشروع فان فرنسا ستتولى بنفسها حل المشكلة بتدمير الجزائر او ضم اراضيها وفى تلك الحالة ستفقد الدولة العثمانية كل ما بقى لهـا من نفوذ فى الجزائر .

ويبدو أن محمد على كان اكثر تقديرا للملابسات السياسية ، فقد فهم منذ البداية استحالة موافقة الباب العالى على هذه الخطة . وتوقع معارضة بريطانية شديدة . والظاهر انه تردد بين عاملين ، الرغبة فى الاتفاق مع فرنسا مباشرة لتحقيق طموحه فى التوسع ، والخوف من اثارة الرأى العام الاسلامى ضده اذا ثبت انه عميل لفرنسا .

والدليل على ذلك انه فاتح القنصل الانجليزى فى القاهرة ، وأخبره بوجود خلافات كبيرة بينه وبين فرنسا حول مشروع الجزائر واضاف قوله « انتى لا اقبل المشاركة مع فرنسا فى حرب ضد المسلمين فأخسر ثقتهم بى ، وأود لو وثقت انجلترا بى ، لأن من مصلحتها الاعتماد على فى مواجهة الخطر الروسى » ولم تتحول بريطانيا عن سياستها المعادية وكانت خطتها ازاء مسألة الجزائر ، هى السعى لدى فرنسا لقبول وساطة الباب العالى فى هذا النزاع بدل محمد على . وهى التى حفزت حكومة استانبول على ارسال مبعوث لها سنة ١٨٣٠ على نحو ما سيجىء فيما بعد . ولكن فرنسا عارضت بشدة تدخل الباب العالى كطرف فى النزاع وعبثا حاولت ان تفهم بريطانيا أن من مصلحتها تحويل اطماع محمد على عن الولايات الشرقية الى الغرب . واخيرا ابلغت بريطانيا الحكومة الفرنسية فى ٢٣ يناير ١٨٣٠ بأنها ستعارض تدخل محمد على بالقوة (1) . وذلك بعد تأكدها من معارضة تركيا للمشروع .

كان هذا هو العامل الأول فى القضاء على مشروع تدخل محمد على ، أما العامل الثانى فيتعلق بالمساومات التى دارت بين فرنسا وبين الباشا حول مبدأ المشروع وقيمة المساعدات الفرنسية فقد عرضت فرنسا عشرة ملايين فرنك ، غير أن محمد على طالب بعشرين مليون ، كما اختلف على طبيعة المساعدة البحرية ، هل تسلم قطع الاسطول لمحمد على ؟ ، أم تشترك فى الحملة على انها جزء من الأسطول الفرنسى . واذا كان محمد على قد تخوف من هبوط سمعته فى العالم الاسلامى بسبب مشاركة فرنسا ، فلا شك انه قد أصبح من المستحيل عليه قبول المشروع الثانى الذى قدمه بولينياك فى يناير سنة ١٨٣٠ . والذى يختلف اختلافا اساسيا عن المشروع الاول ، من حيث انه يؤدى الى تقسيم النيابات بين فرنسا ومحمد على فيستولى الباشا على طرابلس وتونس بينما تحتفظ فرنسا بالجزائر .

والواقع أن بولينياك قد اصطدم منذ البداية بمعارضة وزير حربيته بورمون ، ووزير البحرية دى هوسى ، فقد استنكرا استخدام فرنسا لحاكم شرقى (كى تنتقم لشرفها) وتساءلا : هل محمد على حقيقة ارقى من الداى ؟ ، واستمرا فى معارضتهما حتى بعد تعديل المشروع وهددا بالاستقالة . والظاهر أن كليهما قد تحمس لارسال حملة فرنسية محضة لانهما يرجوان من وراء ذلك تحقيق مجد شخصى . ثم أتت المعارضة الدولية من معظم عواصم أوربا ؛ التى ابلغت بفكرة تدخل محمد على :

---

(1) C.F. Vernon section. 3.

ويرجع هذا المؤلف الى الوثائق الانجليزية المتعلقة بهذا الموضوع .

فاعترضت فينا المحافظة لأن المشروع يتعارض مع مبــدأ الحقوق الشرعية للدولة العثمانية . ذلك المبــدأ الذى يتمسك به مترنيخ . ولم توافق بريطانيا على المشروع حتى بعد تعديله . اما روسيا التى كانت تؤيد اطماع فرنسا فى الولايات الافريقية على أساس تقسيم الدولة العثمانية فقــد تحولت عن خطة التحالف مع فرنسا فى أوائل سنة ١٨٣٠ ، وكان هــذا عاملا أساسيا دفع بولينياك الى التفكير من جديد فى انفراد فرنسا باحتلال الجزائر ، هــذا بالاضافة الى معارضة الصحف الفرنسية للمشروع المصرى . ولذلك لم تنتظر فرنسا رفض محمد على فى آخر فبراير سنة ١٨٣٠ . فمنذ نهاية ديسمبر ١٨٢٩ ، بدأ مجلس الوزراء يبحث احتمالات التدخل الفرنسى المباشر .

٤

الحملة وملابساتها سنة ١٨٣٠

فى ٣٠ يناير ١٨٣٠ اتخذ مجلس الوزراء فى باريس القرار بارســال حملة برية لتفرض شروط فرنسا على الجزائر اذا استمر الداى فى موقفه العنيد ، وكان قد مضى على ضرب الحصار أكثر من سنتين ونصف . وقــد اتخذ هــذا القرار دون أن يستقر الرأى على هدف واضح من الحملة ، هل هى مؤقتة لمجرد ارغام الداى على قبول مطالب فرنسا ؟ . أم لاحتلال الجزائر كلها أو جزء منها بصورة دائمة ؟ وسنرى أن الخلاف حول هــذا الموضوع قد استمر الى ما بعد احتلال مدينة الجزائر .

وقد اجلت الحكومة ما استطاعت اعلان النبأ ، فلم تعرضــه على مجلس النواب الا فى آخر مارس ، وذلك تجنبا للمعارضة الشديدة التى كانت تتوقعها من الراى العام وقد فهمت العناصر المتحررة أن شارل العاشر « يريد بحملة الجزائر الانتقام من الدستور اكثر مما يريد الانتقام لكرامة فرنسا » (١) ، وتأكد هــذا الاعتقاد حينما عرف الشخص الذى اختير لقيادة الحملة ، وهو الجنرال دى بورمون ، فقد اشتهر بنزعته الرجعية منذ أن خان نابليون فى وقعة واترلو ، وتعاون مع البربون فى قمع الحركات التحررية وهو الذى قاد الحملة ضد احرار اسبانيا فى سنة ١٨٢٣ . وقد اختير هــذا الموعد بالذات لعرض الموضوع على مجلس النواب لأنه كان يسبق عطلة عيد الفصح بقليل .

---

(1) Julien P. 579. S. Q.

وعلى كل فقد كانت سلطة المجلس محدودة ، ولم تؤخذ موافقته على ميزانية الحملة ٠ والواقع ان الراى العام فى فرنسا لم يكترث كثيرا لهذه المسألة ولم يتحمس للحملة سوى مقاطعات الجنوب وأهل مرسيليا بصفة خاصة ٠ كذلك تفسر معارضة الاحرار للحملة بأسباب داخلية محضة ، فهم ينتقدونها لأن القائمين بها من العناصر اليمينية ، لذلك سرعان ما تحولوا الى انصار للاحتلال بعد سقوط ملكية البوربون فى ثورة يوليو واعتبروها مسألة قومية لا حزبية ٠

كذلك واجهت فرنسا معارضة ضئيلة فى المحيط الدولى ، وساعدها على ذلك شهرة الجزائر بالقرصنة فى المجتمع الاوربى وما تحمله من ذكريات تاريخية ٠ وقد استغل بولينياك هذه الظروف وراح يصور التدخل الفرنسى على انه لصالح الحضارة عامة وأوربا المسيحية بصفة خاصة ٠ تدل على ذلك رسالة ١٠ مارس التى ابلغ بولينياك بواسطتها الدول الكبرى بقرار الحملة ٠ وكانت حكومات الدول ما بين مؤيد مثل روسيا او غير مكترث مثل بروسيا والنمسا ، حتى اسبانيا التى شعرت بغيرة من فرنسا التى قد تنجح فيما فشلت هى فيه عدة مرات فى القرون السابقة ؛ سمحت باستخدام جزر البليار كمحطة للأسطول الفرنسى وبتأجير عدد كبير من السفن التجارية الاسبانية للحكومة الفرنسية لتعضيد الحملة ٠ هذا مع ملاحظة ان ساسة هذه الدول لم يعولوا كثيرا على ما ورد فى رسالة بولينياك من ان غرض الحملة تأديبى ، وليس احداث تغيرات اقليمية فى حوض المتوسط ، والدليل على ذلك تعليق مترنيخ على النبأ بقوله « لا يعرض اكثر من اربعين الف رجل للموت وينفق أكثر من مليون فرنك من اجل لطمة مروحة » ٠ وكانت بريطانيا وحدها هى التى الحت فى المعارضة ، فان مذكرة بولينياك المشار اليها قد لمحت الى ان فرنسا ستتشاور فيما بعد مع حلفائها لتثبيت النظام الجديد فى الجزائر على أسس من الحضارة والمدنية ٠ ولكن ابردين وزير الخارجية البريطانية لم يطمئن الى تلك العبارة المبهمة ووضح فى رده بأن الحكومة البريطانية لا يمكن أن تعامل فى هذه المسألة مثل بقية الحلفاء ، لانها هى الدولة الوحيدة التى يهمها توازن القوى فى البحر المتوسط وقال فى رده بتاريخ ١٦ مارس « لا بد من توضيح هدف فرنسا من الحملة ، والا كان بوسعنا ان نرسل أساطيل الى الشواطىء المهددة بالغزو : لكننا لا نريد الحرب » ٠ وهكذا اظهر وزير الخارجية البريطانية منذ البداية ان المعارضة لن تبلغ حد الاشتباك فى حرب مع فرنسا ، ومع ذلك فقد الح فى اصدار تعهد مكتوب ، حتى اضطر بولينياك الى توزيع منشور آخر على الدول بتاريخ ١٢ مايو ١٨٣٠ وضح فيه اهداف الحملة على النحو الآتى « للحملة هدفان رئيسيان : الاول يتعلق بفرنسا وحدها ؛ وهو يشمل الانتقام للكرامة الوطنية وحماية مصالح

المؤسسات التى كانت لها امتيازات فى عنابة وشبرق الجزائر ، واستخلاص تعويض من الداى على ما ارتكبه من اعمال . والثانى يخص اوربا بأسرها وهو منع الرق والقرصنة والاتاوات التى ما زالت تدفعها بعض الدول الأوربية . فاذا تمخضت الحـــرب عن سقوط حكم الداى ، فان فرنسا مستعدة من الآن لدعوة حلفائها لعقد مؤتمر دولى يناقش الوضع الجديد الذى يمكن اقامته فى الجزائر لخير المسيحية جمعاء (١) » .

والواقع أن الصحف البريطانية قد اختلفت فى موقفها ازاء هـــذه الحملة فرحبت بها جريدة التايمز بينما هاجمتها صحف الاحرار ، ولكنها ركزت هجومها على علاقة الحملة باوضاع فرنسا الداخلية ، وكيف أنهـــا محاولة لقتل الحريات وتوقعت لهـــا الفشل ، ولم تكترث كثيرا بمســـألة حفظ التوازن فى البحر المتوسط . ويمكن القول عموما بأن معارضـــة بريطانيا للحملة الفرنسية البحتة كانت اضعف من معارضتها لمشروع محمد على . وربما اضافت ظروف بريطانيا الداخلية عاملا جديدا لاضعاف هذه المعارضة ، فقد كانت مشغولة فى ذلك الوقت بالاصلاح الانتخابى وبازمة اقتصادية . ولذلك رحب الانجليز بابعاد الجيش الفرنسى عن القارة الأوربية فى مثل هـــذه الظروف . وقد توقع بولينياك أن تخف هـــذه المعارضة اكثر بقدر ما تحرزه فرنسا من انتصارات حربية ، وهذا ما حدث فعلا حتى امكن للحكومة الفرنسية فى النهاية أن تتخلص من الوعد الذى قطعته فى مذكرة ١٢ مايو بعقد مؤتمر دولى بعد احتلال الجزائر . ولم يمنع هـــذا كله بولينياك من أن يتخذ كل الاحتياطات بعد خروج الحملة الى البحر من مواجهة احتمال تدخل الاسطول البريطانى وكان يفكر فى اجتياز حـدود بلجيكا فى هـــذه الحـالة .

اما المعارضة الدولية الأخرى التى تستحق الذكر ، فقد اتت من الدولة العثمانية . ومع أن فرنســا لم تكترث لهـــا بتاتا لعدم وجـــود قوة عسكرية تؤيد اعتراضها ، فانها مع ذلك قد دخلت فى اخذ ورد مع الباب العالى كسبا للوقت . وقد تدخلت حكومة الآستانة على اساس انها تستطيع اجبار الداى على الاعتدال مع فرنسا ، وليس على اساس الاحتجاج على تعدى دولة أجنبية على احدى الولايات التابعة لها ولو اسميا . وقد ثبت عجز الدولة العثمانية عن الوساطة لحل المشكلة منذ أن فشل مبعوثها خليل افندى فى الوصول الى الجزائر سنة ١٨٢٩ . فلما تقرر ارسال الحملة

---

(١) نشرت وزارة الحربية والحكومة الفرنسية بالجزائر معظم الوثائق المتعلقة بالحملة . ولكنا نشير هنا الى بعض المراجـــع الوثائقية التى فى متناول يدنا :

(1) Netement (2) Gothereau. (3) Esquer.

نهائيا ، بعثت استانبول بشخصية أكثر أهمية هو طاهر باشا ، من رجال البحرية العثمانية ، وحصلت له من السفارة الفرنسية على موافقة بالمرور عبر الحصار بشرط أن ترافقه سفينة واحدة غير مسلحة . وكان طاهر باشا يذيع بانه قادر على اقالة الداى . ولذلك أعلن حسين باشا انه لن يستقبل مبعوث الدولة العثمانية وسخر منه كما سخر من محمد على من قبل (١) . ولم يحتج الداى الى مقاومة المبعوث السلطاني لأن قائد الحصار لم يعترف بجواز مرورة فوجهه الى طولون فوصل اليها فى ٢٧ مايو اى بعد قيام الحملة بيومين ، وهناك احتجز فى الحجر الصحى .

وفى هـــذه الأثناء كتب طاهر باشا الى بولينياك ، فكان رده هـو السؤال عما اذا كان يحمل سلطات كاملة للتفاوض . وعلى كل فقد فات الأوان لأى مباحثات جدية لان الحملة كانت قد نزلت بارض الجزائر ، ومع ذلك لم يستبعد بولينياك تماما فكرة اشراك الدولة العثمانية فى حل المشكلة الجزائرية ، اما كسبا للوقت أو لاستخدامها فى حالة قيام معارضة بريطانية جدية ، ثم ان الهـدف من الحملة لم يستقر بعد . وقد كان من بين الاحتمالات تسليم الجزائر الى حكومة استانبول بعد حصول فرنسا على امتيازاتها . ويدل على ذلك الرسالة التى بعث بها بولونياك الى سفيره فى استانبول جيبمنو بتاريخ ١٧ يوليو فقد قال فيها بأن أهداف الحملة قد وضحت الآن ويحتم علينا واجب الصداقة للدولة العثمانية ان نشركها فى ثمارها . ثم عرض اعادة الجزائر على الدولة بشرط أن تنفذ الوسائل التى تنشر بها الحضارة طبقا لمـا يشير به المؤتمر الدولى الذى سينعقد فى باريس . والظاهر أن بولينياك لم يكن قد تحقق بعد من نتائج الحملة فى فى ذلك التاريخ لانه بعد أيام حث سفيره على التباطؤ فى مفاوضة الباب العالى ، وقال ان فرنسا لا تنكر على الباب العالى حق الاهتمام بالجزائر ولكن لعامل الدين فقط ، ثم تلاشت بسرعة فكرة اعادة الجزائر للدولة العثمانية بمجرد أن تثبت مركز الفرنسيين فيها . وسبق بورمون الى الاعتراض بشدة على هـــذه الفكرة وارســـل خطابا بهـــذا المعنى الى بولينياك فى ١٥ يوليو ١٨٣٠ منبها الى ضرورة الاحتفاظ بهـــذا الكسب السهل .

---

(١) تروى بهذه المناسبة قصـــة طريفة ، تدل على عدم فهم الداى لأحوال العالم الخارجي . فعند ما بلغ الداى حسين أمر المباحثات التى تجرى مع محمد على بشأن تدخله فى الجزائر ، علق بقوله (قل للباشا يأكل فول) وقد بلغت هذه العبارة محمد على فاسرها فى نفسه . ثم شاءت الاقدار بعد سقوط الجزائر ان ينتهى المطاف بالداى الى الاقامة فى مصر . وتعمد محمد على أطلاعه على منجزاته العمرانية ، ثم سخر منه قائلا ان الفضل فى ذلك كله يرجع الى اكل الفول .. انظر « تحفة الزائر » .

خرجت الحملة من قاعدة طولون البحريه في ٢٥ مايو سنة ١٨٣٠ وقد ضمت ٣٧ الف مقاتل علاوة على ٢٠ الفا من رجال البحرية . وكان الاسطول يتألف من اكثر من مائة سفينة حربية بالاضافة الى عدد أكبر من السفن التى استؤجرت للمساعدة . وقد عين الأميرال دى بيريه قائدا للأسطول ، ولكن التعليمات كانت تقضي بخضوعه لبورمون القائد العام في حالات الخلاف ، ذلك أن الرأى السائد في البحرية كان يميل الى الاعتقاد بصعوبة الحملة . وكان مشكوكا في ولاء دى بيريه واتهم بأنه تلكأ في عبور البحر فلم يصل الى المكان المحدد للنزول الا في ١٢ يونيو . وقد أحسنت القيادة اختيار مكان النزول وهو خليج سيدى فرج الواقع على بعد ٢٥ كيلو مترا غربي مدينة الجزائر . وقد حرصت الحكومة الفرنسية على اغراء باى تونس بالتعاون معها ، وفعلا تغاضى الباى عن بيع التونسيين المؤن للحملة ، لكنه لم يذهب الى حد ارسال قوات لمحاربة الداى كما طلبت فرنسا .

كذلك استخدمت تونس طريقا لارسال المنشورات المكتوبة بالعربية التى تحث الجزائريين على الاستسلام . وقد ارتكب الفرنسيون في هذه المنشورات نفس الخطأ الذى ارتكبوه في مصر ، حيث برروا تدخلهم على انه محاولة لتحرير العرب واهل البلاد من الاضطهاد التركى . ووعد المنشور باحترام املاك العرب والقولوغلان . وطلب اليهم التعاون مع الجيش الغازى .

كانت تعليمات بورمون تقضى بألا يسعى للمفاوضات فيكون هدفه دائما هو احتلال الجزائر ، الا اذا عرض الداى الصلح قبل نزول الحملة الى البر فيمكنه قبول المبدأ على أساس شروط قاسية ، ويجب على كل حال تسليم الاسلحة والحصون الخارجية واحتلال الجزائر مؤقتا الى ان تنفذ تلك الشروط ، ومن بينها سفر وفد من كبار الشخصيات للاعتذار لدى الحكومة في باريس ، والتعهد بالغاء الرق والقرصنة والاتاوات نهائيا . ودفع غرامة قدرها خمسون مليون فرنك . وهو ما يعادل نفقات الحصار والحملة وما ارتكبه الداى من تعد على الوفد الفرنسى أثناء مفاوضات سنة ١٨٢٩ ، ويعود الداى الى تبعية الدولة العثمانية فيثبته السلطان ويعين خلفاءه ، ويجدد الداى امتيازات فرنسا السابقة لصيد الأصداف مقابل عوائد سنوية ، واخطر من ذلك كله يتنازل عن جزء من الساحل يمتد من عنابة وخليجها حتى الحدود التونسية ويعترف بسيادة فرنسا عليه .

وتدل هذه التعليمات على ان الحكومة الفرنسية لم تكن حتى قيام

الحملة قد استقرت بعد على فكرة احتلال الجزائر ، واستمر هذا الغموض الى ما بعد نزول الحملة . ففى ٢٦ يونيو تداول مجلس الوزراء الفرنسى فى مستقبل الجزائر . وطرحت امامه عدة احتمالات لحل المشكلة . منها الابقاء على الداى ولكن بعد ان تشذب قوة النيابة العسكرية والسياسية . ومنها تسليم الجزائر للباب العالى حتى يقيم فيها حكومة منظمة ؛ ثم تقسيم ساحل الجزائر بين دول المتوسط المسيحية ، واشراك انجلترا معها فى هذا التقسيم . او تحطيم حصون الجزائر ومسح الميناء من الوجود ؛ واحتلال فرنسا لقطعة من الساحل الشرقى ؛ وكانت عنابة وخليجها دائما هى مطمح الفرنسيين فى هذه الحالة ، ثم كان من هذه الاحتمالات احتلال الجزائر احتلالا شاملا واتخاذها مستعمرة للمهاجرين الأوربيين .

وقد ظهر أن بولينياك أميل الى فكرة تسليم الجزائر للدولة العثمانية . بشرط حصول فرنسا على امتيازات هائلة كاشتراط موافقتها على تعيين الباشا . وهو ما لم تقبله الدولة العثمانية . وقد راينا كيف أن هـــذا الاحتمال قد تلاشى بمجرد الاستيلاء على العاصمة ؛ كذلك استبعد احتمال بقاء الداى وتقسيم البلاد . أما فكرة الاحتلال الشامل والاستعمار : فقد علق عليها احد الوزراء بقوله « اذا ساءلنا الكبرياء الوطنى فلا شك انه يملى علينا الاحتفاظ بالغنم . لكنى اعترف ان هـــذا الحل ابعد عن مصالحنا الحقيقية ، فمن المؤكد اننا لا نفهم شيئا فى أصول الاستعمار كما يثبت التاريخ . كما ان نجاح مشروعاته يتطلب روح الاستقرار والمنهج فى العمل ويستدعى انفاق مبالغ كبيرة لن يوافق عليها البرلمان . والحل الأمثل هـو تحطيم حصون الجزائر واحتلال جزء من الساحل » ولا شك ان هزيمة الداى السريعة هى التى رجحت كفة الاحتلال .

صمم الداى على المقاومة واخذ يستعد لملاقاة الفرنسيين ، واظهر شعب الجزائر فى الازمة تضامنا كاملا ، فارســـل حكام الاقاليم الثلاثة ما استطاعوا جمعه من الجند لمساعدة الأوجاق ، بل ساهمت القبائل ، كل حسب قدرتها ، بارسال عدد من ابنائها للجهاد ، حتى تجمع لدى الداى ٦٠ الف مقاتل ، وقيل ايضا بخروج بعض المتطوعين من طرابلس . ولكن الداى ارتكب عدة أخطاء فى تنظيم الدفاع ، منها تعيين صهره ابراهيم اغا رئيسا للقوات التى نيط بها ملاقاة الفرنسيين ، وهو غير كفء . ومنها انه ابقى معظم المتطوعين من القبائل بعيدا عن المدينة توفيرا للنفقات . واهم هـــذه الأخطاء هو عدم ملاقاة الفرنسيين عند النزول الى البر ، وانتظارهم فى الحصون التى تحمى مدينة الجزائر اعتقادا بأنها لا تقهر .

وقد اختار ابراهيم اغا هضبة اسطى والى (مصطفى والى) لتكون خط

الدفاع الاول عن المدينة . واذا قورنت هذه المعركة بوقعة الاهرام ، التى فر فيها المماليك بسرعة ، يمكن القول ان الجزائريين قد صمدوا نسبيا امام أسلحة الفرنسيين الحديثة وكبدوهم بعض الخسائر . وربما تغير وجه المعركة لو ان القبائل لم تنسحب منها بسرعة .

عول الداى حسين بعد ذلك على برج الحنن او حصن الامبراطور الذى هزم عنده شارل الخامس منذ ثلاثة قرون ، والذى يحمى مدخل المدينة الجنوبى . وقد ضرب عليه الفرنسيون حصارا محكما ، وبمجرد سقوطه فقد الداى حسين ثقته بنفسه وقبل التسليم بالشروط التى املاها عليه برمون فى ٤ يوليو ، وتقضى هذه الشروط بالآتى .

١ ــ تفتح المدينة فى اليوم التالى للقوات الفرنسية وتسلم اليهم القصبة وجميع الحصون .

٢ ــ يكون للداى حق اختيار المكان الذى يريد الاقامة فيه خارج الجزائر . واذا اراد الاقامة فى البلاد فانه يتمتع بحماية فرنسا على شخصه واهله وأمواله .

٣ ــ وينص الشرط الثالث على ضمانات مماثلة للانكشارية .

٤ ــ تتعهد فرنسا باحترام الشعائر الدينية للسكان ، والا تتعرض لهم فى أملاكهم أو صناعاتهم أو تجاراتهم .

ومع ذلك فقد أسف بعض ضباط الحملة لانه كان من الممكن فى رايهم دخول المدينة دون تقديم اى تعهد ، وخاصة التعهد باحترام أملاك الأهالى ، مما اظهر فرنسا فيما بعد بمظهر المعتدى على شروط التسليم (١) . فمن المعروف ان فرنسا قد توسعت فيما بعد فى مصادرة الأملاك الوطنية ، كذلك لم يراع البند الخاص باحترام الشعائر الدينية حينما حول الفرنسيون المسجد الكبير الى كتدرائية .

وفى صباح ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ دخلت القوات الفرنسية المدينة العتيدة دون مقاومة . واستولت على ما فى خزائن القصبة من أموال . وقد جرت الشائعات بأن بعض قادة الجيش الذين دخلوا القلعة نهبوا خزائن الحكومة . وجرى تحقيق فى هذا الأمر وتبادل المسئولون التهم ، ولكن اقفل الموضوع حرصا على سمعه جيش الاحتلال فى بلد احتل حديثا .

---

(١) انظر مثلا Pelissier Vol. I. P. 37-79. فيما يتصل بنص الشروط والتعليق عليها .

ومع ذلك فقد غنم الفرنسيون ما قيمته ٣٥ مليون فرنك ، مما يزيد على نفقات الحملة والحصار بـ ١٢ مليون ٠

اما الداى حسين فقد خير فى المكان الذى يود الاقامة فيه فاختار مالطة ولكن رفض طلبه ، ثم وقع اختياره على نابولى وسمح له الفرنسيون بالذهاب اليها وحمل كمية كبيرة من الاموال ٠

ومن هناك قام الداى حسين بعدة محاولات تافهة لاسترداد الجزائر ، لم تؤد الا الى طرده من ايطاليا بضغط من الحكومة الفرنسية فذهب الى مصر فى ضيافة محمد على ! حيث أقنعه الباشا بالاقلاع عن هذه المحاولات ٠

أما بقية الجند العثمانيين فقد رحل منهم ٢٥٠٠ الى الأناضول وهم الذين يكونون الفرقة الانكشارية ٠

هكذا انتهى عهد النيابة العثمانية التى عاشت نحو ثلاثة قرون تشهد بقوة المسلمين فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ٠

الفصل السادس

الاحتلال ومقاومته

١

تم سقوط مدينة الجزائر بسرعة أدهشت القيادة نفسها حتى اعتقد بورمون ان بقية النيابة ستسلم تبعا للعاصمة ، وكتب الى بولينياك فى ٧ يوليو ، بأنه يكفيه خمسة عشر يوما فقط للانتهاء من اخضاعها . ثم أتت بعض الحوادث مؤكدة لهـــذا الاعتقاد ، فقد أعلن مصطفى بومزراق حاكم تيطرى اعترافه بالتبعية للفرنسيين ، ثم تم الاستيلاء على عنابة بسهولة . ومن الملاحظ ان القيادة سارعت الى احتلال الميناء تمشيا مع الخطط التى ترمى الى ضم هـــذا الجزء من ساحل الجزائر الشرقى وكذلك أعلن حسن باشا حاكم وهران اعترافه بتغيير الحكومة ، واكتفت فرنسا بهـــذا الاعلان ولم ترسل قوات لاحتلالها قبل يناير ١٨٣١ .

والظاهر أن كثيرا من الحكام الأتراك القدامى كانوا مستعدين للتعاون مع الغزاة على امل أن يحتفظوا بمناصبهم وامتيازاتهم كما كانوا على عهد النيابة ، وشاركهم فى هـــذا الموقف بعض الشخصيات الوطنية . ففى أواخر شهر يوليو اقبل ابن زمون زعيم قبائل الفليسة وعرض التعاون مع الحكومة الفرنسية باسم عرب المتيجة ، بشرط ان لا تتدخل الادارة فى حياة السكان ولا تحتل بلادهم . ولكن هؤلاء الزعماء الوطنيين على وجه الخصوص تحولوا عن موقفهم حينما لاحظوا أن الحكام الجدد يريدون توسيع رقعة احتلالهم خارج المدن الساحلية . يدل على ذلك موقفهم من المحاولة الأولى التى قام بها بورمون للتوغل فى الداخل بقصد احتلال بليدة وذلك بناء على اتفاقه مع بومزراق ، وحينما اقترب من المدينة ، فاجأته قبـــائل المتيجة بحرب الكمين ، التى ستشتهر بها المقاومة الجزائرية فتراجع بورمون الى العاصمة فى حالة ذعر شديد .

ولم تلبث أنباء ثورة يوليو فى باريس أن وصلت الى الجزائر ، فدفعت جميع تلك العوامل حاكم تيطرى الى تغيير موقفه باعلان الخـــروج على الفرنسيين .

وهكذا بدأت صعوبات الاحتلال تتضح ، وفى نفس الوقت شددت المعارضة هجومها على الحملة باثارة موضوع السرقات تارة ونفقات الاحتلال تارة اخرى . وكانت النتيجة أن خفضت القوات المحتلة الى الثلث ، ولجأ الجنرال كلوزيل الذى عين خلفا لبورمون الى تجنيد العناصر الوطنية ، التى عرفت بالزواف ، من بين القبائل التى اعتادت الخدمة العسكرية على عهد النيابة ، ولكنه ظل عاجزا عن تنفيذ خططه التوسعية .

ولم يخطىء الفرنسيون فى تقدير الموقف من الناحية العسكرية فحسب ، بل دلت تصرفاتهم فى هذه الفترة الأولى على جهل تام بالأوضاع الاجتماعية ، وقد اشرنا الى انهم رحلوا الجند الانكشارية بعد أن هددوهم بسحب جميع امتيازاتهم اذا بقوا فى البلاد (١) ، لأنهم اعتقدوا بأن طبقة الحكام العثمانيين هى التى تحول دونهم والسيطرة على الجزائر . ولكن سيتيبنون فيما بعد أن هذه الفئة من الجند المحترفين كانت مستعدة للخدمة فى اى جيش يضمن لها امتيازاتها الاجتماعية . وعلى العكس عول الفرنسيون على تعاون العناصر الوطنية ، ثم تبين بعد قليل خطأ نظرتهم فقد كان من بين العناصر الوطنية التى اشتهرت بصلابة المقاومة مجموعة من البربر سكان الجبال تعرف بالقبائل . ولم يتنبه الفرنسيون الى هذه الحقيقة . ويمكن القول بأن هذا العنصر هو الذى حمل لواء المقاومة ولم يتم اخضاعه الا بعد سبعة وعشرين عاما ، كما انه هو الذى تولى قيادة ثورة الجزائر الكبرى سنة ١٨٧١ تلك الثورة التى تعد نهاية المقاومة المسلحة الى ان تبعث الحركة الوطنية الحديثة .

اما العناصر التى اعتمد عليها الفرنسيون فلم تكن ذات أهمية فى البلاد ، وهى تتألف عادة من ابناء مهاجرى الأندلس المشهورين بالنشاط التجارى وحب المغامرة ، ثم اليهود بحكم معرفة بعضهم باللغة الفرنسية ، فاستاءت الاسر الكبيرة فى الجزائر ووهران وهجرت المدن المحتلة الى الداخل ...

وسنحاول فى هذا الفصل ان نتتبع حلقات المقاومة فى مراحلها الرئيسية على النحو التالى :

اولا : من ١٨٣٠ ــ ١٨٣٢ ويمكن تسمية هذه الحقبة بالفترة المائعة .

ثانيا : ظهور الأمير عبد القادر وتثبيت سياسة الاحتلال المحدود .

---

(1) Gothereau P. 171 — Esquer chap. 14.

ثالثا : الاحتلال الشامل وحرب الابادة حتى تسليم الامير عبد القادر .

رابعا : المقاومة فى الواحات الجنوبية وبلاد القبايل من ١٨٤٨–١٨٥٧.

خامسا : الانتفاضات الاخيرة ولا سيما ثورة المقرانى سنة ١٨٧١ .

وقد وصفنا الفترة من سنة ١٨٣٠ ـ سنة ١٨٣٢ بالميوعة ، لأن فرنسا لم تستقر على سياسة واضحة من جهة ، ولأن عناصر المقاومة فى الجزائر لم تتبلور بعد من جهة اخرى . فقد قررت ملكية يوليو الاحتفاظ بالجزائر بالرغم من ان الحملة قد اعتبرت يوما ما عملا شخصيا لشارل العاشر ، فلم يكن معقولا التخلى عن هذا الكسب السهل خاصة وانه لم تقم معارضة دولية فى وجهه . ولكن هذا لم يمنع سحب جزء كبير من الحملة توفيرا للنفقات التى كان البرلمان يعترض اساسا على السياسة الجزائرية بسببها ، ولذلك دار جدل عنيف بين المسئولين فى فرنسا حول السياسة التى يجب اتباعها فى الجزائر . فرأى فريق الاكتفاء باحتلال المناطق الساحلية وترك الداخل للزعماء الجزائريين والاتفاق معهم ان امكن ، وبهذه الطريقة يمكن الاحتفاظ لفرنسا بمكاسبها وتوفير الأموال والأرواح فى نفس الوقت . وهذا ما يعرف بسياسة الاحتلال المحدود . وما لبثت ان اصطدمت هذه السياسة بمعارضة ، وبنى المعترضون حجتهم على اساس ان الاحتلال المحدود لا يمكن ان يكون دائما . وذكروا بمصير الجيوب الاسبانية الساحلية ، وبأن الرومان لم يحتفظوا بحكمهم لشمال أفريقيا الا بفضل توغلهم فى الداخل حتى الصحراء واقامة الحصون على حافتها . غير ان المعترضين انقسموا الى فريقين : فريق استنتج من عدم امكان تحقيق الاحتلال المحدود فكرة الانسحاب من الجزائر خاصة بعد أن تبين عزم الجزائريين على المقاومة . وفريق آخر رأى أن الانسحاب يتعارض وهيبة فرنسا ، وبالتالى فلا بد من احتلال الجزائر احتلالا شاملا .

ولذلك ارسلت لجنة برلمانية الى الجزائر للتحقيق فى هذا الموضوع ، فانتهت فى تقريرها الى ضرورة الاحتفاظ بهذا (الكسب القومى) ومما يستحق الانتباه ان المبررات التى بنت عليها البعثة تقريرها تتسم بالروح العاطفية . فهى تقول مثلا لا يجوز التخلى عن ارض (سال عليها الدم الفرنسى) وهذا يشعرنا بأن أغلب الفرنسيين كانوا يرون عدم فائدة الجزائر من الناحية العملية . ولا أدل على هذا التردد من أن كلوزيل . وهو المعروف بميله الى توسيع الاحتلال . قد دخل فى مفاوضات مع باى تونس بشأن تولية احد اخوته لحكم اقليم قسنطينة ، واحد اقاربه الآخرين لحكم اقليم وهران نظير الاعتراف بالتبعية لفرنسا .

ويمكن استخلاص أهم عناصر المقاومة الجزائرية فى هـــذه الفترة الأولى على النحو التالى :

اولا : الحاميات العثمانية القائمة هنا وهناك فى الداخل والتى تتألف غالبا من القولوغلان ، وقد انقسمت هـــــذه الحاميات فاندمج بعضها مع العناصر الوطنية فى المقاومة بينما فتحت بعض الحاميات الأخرى حصونها لجيش الغزاة . ومن اشهر الحاميات العثمانية فى تاريخ المقاومة الجزائرية ؛ حامية قسنطينة التى كان يقودها احمد بك .

كان احمد بك حاكما لواحة بسكرة فى الجنوب الشرقى وتتبع ولاية قسنطينة . فلما سمع بغزو الجزائر انتقل الى عاصمة الاقليم وظل صامدا فى وجه الفرنسيين حتى سنة ١٨٣٧ . وبفضل جهوده تعثرت الحملات التى ارسلت لاحتلال الموانى الشرقية ، فاحتلت بجاية وعنابة واخليت اكثر من مرة من سنة ١٨٣٠ ــ سنة ١٨٣٣ وذلك بسبب تهديد طرق الاتصال بها برا .

ثانيا : فى اقليم تيطرى حيث تزعم بومزراق القبائل العربية حتى سهل المتيجة المجاور للعاصمة ، وفشل الفرنسيون فى التوغل الى ميدية مرتين ، حتى اضطر بيرتزن الى مهادنة اهل المتيجة وفتح مدينة الجزائر لتجـــارتهم .

ثالثا : فى الغرب اقتصر الاحتلال على مدينة وهران ، فهجرته الاسر الاسلامية . الكبيرة الى المدن الداخلية فى الأقليم مثل معسكر وتلمسان . وتعاونت مع القبـــائل لحفظ استقلالها . وهم الذين فكروا فى الاحتماء بسلطان مراكش فأرسل اليه اهل تلمسان يعرضون تبعيتهم ، ولكنه لم يرسل نائبا عنه الى المدينة الا بعد ان تحقق من ان الفرنسيين لا يطمعون فيها . وهـــذا يدل على انه لم يكن الشخص الذى يعول عليه ، وفعلا سحب نائبه من المدينة بمجـــرد احتجاج الفرنسيين وظهور احدى ســـفنهم امام طنجة .

وعلى الجملة لم يكن هناك تنسيق بين عناصر المقاومة الجزائرية فى هذه الفترة . وكان من الممكن ان تنهار انهيارا مبكرا خاصة وان الدوق دى روفيجو ، الذى عين حاكما عاما على الجزائر من ديسمبر ١٨٣١ ــ مارس ١٨٣٣ ، كان مشبعا بفكرة القهر وحب القتال لذاته . ويمكن القول بأنه هو الذى افتتح حرب الابادة . فبمناسبة اغتيال احد الجزائريين من اعوان فرنسا شن روفيجو غارة على القبيلتين المتهمتين بقتله فى سهل المتيجة فابادهما عن بكرة ابيهما .

وقد جاء ظهور الامير عبد القادر بمثابة افتتاح مرحلة جديدة فى حركة المقاومة ، فهو الذى حاول ان يجمع العناصر المشتتة التى رأيناها فى المرحلة السابقة لتشكل شبه حركة وطنية جزائرية جديدة .

٢

الأمير عبد القادر : التصاعد من ١٨٣٢ ــ ١٨٣٩

تعتبر حركة الامير عبد القادر الحلقة الرئيسية فى تاريخ المقاومة الجزائرية ، فهى تمتد خمسة عشر عاما منذ انتخاب القبائل للامير فى وهران سنة ١٨٣٢ الى تسليمه للفرنسيين فى آخر سنة ١٨٤٧ . ويمر تاريخ الامير عبد القادر بمرحلتين متميزتين : المرحلة الاولى تبدأ من انتخابه وتنتهى سنة ١٨٣٩ حين بلغت قوة الامير ذروتها بعد ان اصبح يسيطر على ثلثى الجزائر تقريبا . وتبدأ المرحلة الثانية بانقطاع الصلح بينه وبين الفرنسيين فى نوفمبر ١٨٣٩ الى أن سلم لهم بعد ثمانى سنوات من كفاح مرير .

وينتمى الأمير عبد القادر بن محيى الدين الى احدى القبائل العربية . النازلة قرب مدينة معسكر عاصمة وهران القديمة . وهى قبيلة هاشم . ويبدو أن اسرته كانت تحتل مكانا بارزا فى القبيلة . لأن والده لعب دورا هاما فى الثورة التى قامت ضد الحكم العثمانى فى وهران قبيل الغزو الفرنسى كمظهر من مظاهر الصراع بين الطرق الصوفية ذات الطابع الوطنى وبين الادارة التركية . وقد أدى هذا الى القبض عليه ذات مرة سنة ١٨٢٦ بواسطة حسن باشا حاكم وهران . وكان حينئذ متأهبا للحج . ولكنه أطلق سراحه بعد التحقيق . وقد صحب عبد القادر أباه فى الرحلة الى بلاد المشرق حيث زار العراق ومصر علاوة على الحجاز . ويقال انه اعجب أثناء زيارته لمصر بالتنظيمات والاصلاحات التى ادخلها محمد على على البلاد . وانه سيحاول فيما بعد النسج على منواله بما فى ذلك الاستعانة بالأوربيين لاقتباس اساليب الادارة الحديثة وخاصة فى المجال العسكرى . وكما اعتاد المؤرخون القدامى أن ينسبوا الى عظماء بلادهم بعض الحوادث الخارقة التى تنبىء عن مستقبلهم . فقد روى مترجمو الأمير ان الشيخ عبد القادر الجيلانى ظهر لوالده أثناء زيارته للعراق ، وتنبأ لعبد القادر بملك المغرب .

وحين عاد محيى الدين وابنه الى الجزائر وجد الكارثة العظمى قد حلت بها . واتفق رجوعهما مع تولى احد الحكام المتعسفين لمدينة وهران ، هو الجنرال بويه . وقد عبر عن آرائه فى الجزائريين بمثل قوله « لكى نمدين العرب يجب أن نستعمل وسائل مثل وسائلهم غير المتحضرة » . يعنى بذلك انه يبرر سياسة حرب الابادة .

---

١ تحفه من ص ٩٨ ــ ص ١٠٠ .

ولما يئس اهل وهران من مساعدة سلطان مراكش لهم سنة ١٨٣٢ ٠ حاولت القبائل أن تتخذ عملا حاسما من تلقاء نفسها وتحاصر وهران والمدن الساحلية حتى تقطع على الفرنسيين امكانيات ارسال المدد ٠ ولكن الحاميات التركية التى كانت ما تزال موجودة فى موانى مستغانم وارزو أفسدت عليهم هذه الخطة حين دعت الفرنسيين للدخول الى حصونها ٠ وشعر الوهرانيون بضرورة زعامة موحدة ، وفى صيف سنة ١٨٣٢ اجتمع زعماء ثلاث من القبائل : هى هاشم ، وغربة وبنو عامر : وكلها قبائل عربية مثل معظم اهل وهران ٠ وعرضوا على الشيخ محيى الدين ان يتولى قيادتهم فى الجهاد ٠ ولكنه رفض معتذرا بكبر سنه واشار الى كفاءة ابنه عبد القادر فتمت له البيعة وكان فى ذلك الوقت قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره ٠

ومن الواضح أن هذه القبائل لم تبحث عن اقامة ملك وراثى ، وانما كان همها هو مواجهة الظروف العصيبة التى طرات على البلاد ٠ لذلك تمت البيعة : كما يسميها مترجمو الامير تحت تاثير فكرة الجهاد الدينى وبتأييد من رجال الطرق الصوفية ٠ ولا ادل على ذلك من ان الأمير عبد القادر كان يعترف بالسيادة العليا لسلطان مراكش ٠ اظهر الأمير عبد القادر براعة فى احكام الخطط ، فقد بدا بمراقبة القبائل النازلة حول المراكز الفرنسية ٠ وبواسطة الوعظ الدينى تارة وبالتهديد باستخدام القوة تارة اخرى ٠ الزمها أولا بقطع التموين عن الغزاة والهجرة من الأراضى المحتلة ٠ ثم راى ضرورة اتخاذ عاصمة لتكون مقرا له فوقع اختياره على مدينة معسكر ٠ ولم يكن اتخاذ ميناء على البحر بأقل اهمية للامير الذى طمع فى الاتصال بالدول الاجنبية ليستفيد منها ، سواء باستيراد السلاح او للتأثير الدبلوماسى على الفرنسيين ؛ وقد استطاع الأمير ان يبسط نفوذه على ميناء ارزيو غرب وهران ؛ ولكن الفرنسيين شعروا بخطورة اتصال الأمير بالخارج ٠ فدبر لـه ديميشيل ، الذى خلف بوييه حاكما على وهران ٠ مؤامرة بالاتفاق مع قاضى المدينة ادت الى سقوطها فى ايدى الفرنسيين ٠ ولكنه عجز تماما عن اغراء القبائل التى كان محتاجا اليها للتموين لان الامير أذاع فتوى ، « ان كل من ساعد الفرنسيين ارتد عن دينه » ٠ لذلك اطلق على القبائل الخاضعة للفرنسيين اسم المتنصرة ٠ وبذا ظلت مشكلة التموين المشكلة الأساسية التى واجهت ديميشيل ، فانتهز فرصة اسر اربعة من (المتنصرة) وافتتح فى سبتمبر ١٨٣٣ مراسلاته مع الأمير ، بداها ببعض خطابات الاحتجاج ٠ ولم يجب عليه الأمير الا فى المرة الثالثة ؛ وحتى عندما أجاب كان رده جافا ٠ فصمم ديميشيل على مقاتلته ٠

بدا الأمير فى اتباع خططه الحربية الجديدة فى المعارك التى دارت أواخر سنة ١٨٣٣ وهى القائمة على عنصر المفاجاة وعدم مواجهة الفرنسيين

فى الميدان المكشوف . واحس ديميشيل انه ليس من السهل التغلب على عدو يتبع مثل هذه الخطط ، وفكر جديا فى الطريقة التى تؤدى الى مصالحته . وعندما ذكر الأمير فى جوابه بأنه لا يستطيع اعادة الأسرى نعدم وجود معاهدة تلزمه بذلك ، انتهز ديميشيل الفرصة واشار عليه بامكان التسوية . وقبل الأمير هذه الفكرة على ان يوضح ديميشيل أسسها (١) .

وفى يناير ١٨٣٤ ارسل الامير وزير خارجيته مولود بن عراش الى وهران حيث قدم له ديمشيل المبادىء التى يمكن توقيع الاتفاق على أساسها ، ومن اهمها تحديد كميات المؤن التى يجوز للفرنسيين شراؤها من وهران : وانهاء حالة القتال . وفتح المناطق الخاضعة للأمير للتجارة الفرنسية وكذلك تفتح للرحالة والمسافرين بشرط حصولهم على جواز سفر من الأمير . ويجب على عبد القادر بعد ذلك رد ما لديه من أسرى فرنسيين ، والتعهد برد الفارين من الجيش .

راى عبد القادر امكان قبول هذه الشروط فوقعها بالرغم من انه كان يريد ادخال تعديلات عليها . وقد أتاح هذا التسرع لديميشيل التلاعب فى تعديلات الأمير . وكانت هذه التعديلات تتناول الأمور الآتية :

تحديد معنى حرية التجارة فتشمل حرية تجارة الأسلحة ، وان يكون للأمير اشراف على ميناء أرزيو حتى يتمكن فعلا من ممارسة هذا الحق . وان يكون استيراد الفرنسيين لمواد التموين محدودا بحاجة مدينتى وهران ومستغانم . وطلب فى التعديلات أيضا أن يكون الشرط الخاص باعادة الفارين منطبقا على الطرفين . وطالب بأن لا يكون لحاكم الجزائر اى سلطة على المنطقة التابعة له ؛ والنص على حرية خروج المسلمين من المناطق المحتلة .

غير ان ديميشيل لم يوقع هذه التعديلات كما كان يتوقع عبد القادر ولم يردها اليه بالرفض ؛ وانما اضافها الى الشروط الموقعة وجعلها وثيقة واحدة بعد ان حذف من تعديلات الامير شرطين لم يوافق عليهما وهما الشرط الخاص بتحديد تموين الفرنسيين ، واشراف الأمير على ميناء ارزيو . واعتبر أن الوثيقة قد وقعت على هذا النحو . ولا يوجد لدينا ما يؤكد اطلاع مندوب الأمير فى وهران على تصرف ديميشيل بالاتفاقية .

---

(١) انظر نص الرسائل المتبادلة بين ديمشيل والامير . تحفة ص ١٠٠ ـ ١١٣ .

وعلى كل فانه بعد توقيع ديميشيل لهذا النص فى ٢٨ فبراير١٨٣٤. وصلت اليه تعليمـــات مخالفة من الحكومة الفرنســية . حيث طلبت شروطا متعسفة كاساس لتوقيع الصلح . ومن بين هذه الشروط الاعتراف بالسيادة لفرنسا ودفـــع جزية سنوية واخذ رهائن من الامير . وان يكون شراؤه للأسلحة مقصورا على فرنسا . بيد ان ديميشيل حاول التخلص من هذا الموقف الحرج ؛ فرد على حكومة باريس بأنه يمكن تجاهل الشروط التى قدمها الامير حيث أن شروطه هو قد وقعها الأمير بخاتمه . وهذا يرينا الى اى حد كانت الحكومة الفرنسية تتجاهل القواعد المتبعة دوليا حينذاك عند تعاملها مع الامير الجزائرى .

والمؤرخون الفرنسيون الذين يرون ـــ رغم هذا التلاعب ـــ أن ديميشيل تساهل مع الامير . يعللون هذا التساهل بسببين مختلفين : فهو اما أن يكون قد قام بهذا العمل ليثبت لنفسه استقلاله عن الحـــاكم العام فى الجزائر ؛ واما ان يكون قد تساهل لانه يؤمن بأن صداقة الامير تقوى نفوذ الفرنسيين . وتنفى الوثائق الفرنسية اعتماد حكومة باريس للوثيقة التى وقعها ديميشيل . وذكر ايضا ان ديميشيل اخفى المـــــاهدة عن حكومته (١) . بينما يؤكد صـــــاحب كتاب التحـــفة ، وهو ابن الامير عبد القادر . توقيع حكومة باريس على معاهدة ديميشيل ، وليس هذا بعيدا عن الصواب لأن ديميشيل ظل طول العام التالى يقدم للامير مساعدات كبيرة حتى انه عاونه ضد الاضطرابات التى قامت فى وجه حكومته فى الداخل . فلو كانت حكومة باريس تستنكر هذه السياسة ؛ ما ابقت على ديميشيل حاكما على وهران طوال هذه السنة . ويعترف مترجمو الامير بقيمة تلك المعونة الفرنسية . وقـــد شملت التزويد بالأسلحة والمدربين العسكريين .

واجه عبد القادر بعد توقيع الصلح صعوبات جديدة . اهمها عودة النزعة القبلية الى الظهور . واتخذت هذه القبائل سببين لتبرير الثورة على حكومة الامير : السبب الاول هو ان القبائل تضررت من دفع الضريبة الاضافية التى فرضها الامير اثناء فترة القتال ، فقالوا انه لا يوجد مبرر لها بعد توقيع الهدنة . والسبب الثانى : هو حسد بعض رؤساء القبائل للنجاح الذى أحرزه عبد القادر . واتخذ الحساد من توقيعه للهدنة مبررا لبث الدعاية ضد الامير الذى قبل مصالحة (النصارى) . ومما يثبت سوء نية هؤلاء ، وان الحسد وحده كان هو الدافع على خروجهم عـــلى الامير ؛ ان مصطفى بن اسماعيل الذى تزعم هـــذه الحـــركة التجأ الى

(1) Pelissier Vol. 1 P. 165.

الفرنسيين بعد فشله فى قلب حكومة عبد القادر ، واصبح من اكبر اعوانهم.
ولكن الامير عبد القادر تغلب على الثائرين بفضل حسن تنظيم قواته ، وفى
نهاية سنة ١٨٣٤ كان اقليم وهران قد خضع له بأجمعه باستثناء المراكز
الفرنسيين على السواحل : وهران ومستغانم ، واتجه نظر الامير بعد هذا
الى توسيع دائرة نفوذه بحيث شملت جزءا كبيرا من اقليم تيطرى ،
فاستولى على مليانة واقام فيها نائبا ، وتمكن من طرد أحد رجال الطرق
من ميدية فى ابريل ١٨٣٥ ، واستغل سقوط حكم احمد باى فى قسنطينة
سنة ١٨٣٧ ، واستولى على بعض مواقع فى الاقليم .ولا سيما واحة
بسكرة ، وكان طبيعيا ان يزعج هذا السلطات الفرنسية .

ورغم ان معاهدة سنة ١٨٣٤ لا تشمل تحديدا جغرافيا للمناطق
التابعة للأمير ، الا ان الحاكم العام آنذاك درويه درلون أرسل خطابات
احتجاج شديدة الى عبد القادر محاولا أن يثبت أن تقدمه خارج اقليم
وهران يخالف الاتفاق مع فرنسا ، لأن توقيع المعاهدة بواسطة حاكم وهران
يدل على أن الحكومة الفرنسية لا تعترف بالأمير الا فى هذا الاقليم .
وعلاوة على هذا فقد طلب درلون تعديل المعاهدة لينص فيها على اعتراف
الأمير بسيادة فرنسا ودفع جزية لها ، كما طلب بأن يرفع عبد القادر
الحظر المضروب على حرية التجارة الفرنسية فى اراضيه . ولكن عبدالقادر
رفض التفاوض فى غير الشرط الأخير . ومع ذلك فقد اضطر درلون طوال
مدة حكومته حتى يوليو ١٨٣٥ الى اتباع سياسة الاحتلال المحدود وان يترك
شئون الأمن فى تيطرى للأمير عبد القادر الذى كان يمثله فى مدينة الجزائر
وكيل سياسى بارع هو اليهودى بن دوراند فيبدو انه هو الذى اقنع درلون
بتجنب الصراع مع الأمير .

على ان توقيع معاهدة سنة ١٨٣٤ ، لم يحقق السلام بين الفريقين .
فقد تدخل درلون لدى حكومته لعزل ديميشيل لأنه اتبع سياسة المهادنة
والمصادقة مع عبد القادر . وعمل على أن يخلفه ، فى منصب حاكم وهران،
أحد الجنرالات المتحمسين لاثبات جدارتهم العسكرية وهو الجنرال تريزل.
ومن جهة أخرى استاء تجار مرسيليا من احتكار الأمير لتصدير منتجات
الجزائر الداخلية . ثم لاحظ الفرنسيون أن الدعاية الدينية التى بنى
الأمير عليها حكمه كانت تهددهم وتمنع اتصالهم بالقبائل ، لأن الأمير كان
يلزمها بالسكن بعيدا عن المراكز الفرنسية ، وينزل فيما بينها وبين هذه
المراكز جماعات يثق بها .

لكل هذه الأسباب صمم تريزل على نقض المعاهدة والاعتداء على
الأمير عله يظفر بما لم يظفر به ديميشيل . فلم يمض على مجيئه الى وهران

نحو شهرين حتى اغرى قبيلتى الدوائر والزمالة بسكنى المنطقة المحتله • واعتبر عبد القادر هذا العمل نقضا للمعاهدة وطلب اعادتهما تنفيذا لشروط تسليم القارين • ولم يقف تحدى تريزل عند هذا الحد بل انه خرج بقوات كبيرة واتجه الى المنطقة الداخلية التى يسيطر عليها الأمير • وفى وادى المقطع استطاع عبد القادر ان يوقع القوات المعتدية فى كمين وأن يلحق بالفرنسيين اكبر هزيمة منوا بها منذ احتلال الجزائر وقد كان لهزيمة المقطع دوى كبير فى فرنسا بالرغم من ان البلاغات الرسمية حاولت التخفيف من وقع الصدمة : فقدرت الخسائر بـ ٢٥٤ قتيلا ، ٤٠٠ جريح ، فارتفعت أصوات المعارضة مطالبة بالانسحاب من الجزائر ، التى تكبد البلاد خسائر فادحة فى الأرواح دون أن تعود عليها بفائدة تذكر • واضطرت الحكومة الى عزل الحاكم المسن دراون واعادة كلوزيل للمرة الثانية للجزائر وهو من اكبر انصار الاحتلال الشامل •

لذلك كان اول ما فكر فيه بعد وصوله الى مقر عمله هو كيفية القضاء على زعيم المقاومة الجزائرية ، وظن انـه يستطيع ذلك باحتلال عاصمة الأمير • وفى نوفمبر ١٨٣٥ قرر القيام بحملة كبيرة لاحتلال مدينة معسكر دون أن يستشير الحكومة الفرنسية وعندما وصل اليها وجدها قاعا صفصفا ، فقد خربها الأمير قبل مغادرته اياها ؛ وما بقى منها اسرع الجند الفرنسيون لنهبه قبل أن تصل قيادتهم • ولم ير كلوزيل فائدة من الاقامة بهذا المكان القاصى ، خاصة وانه لم يجد ما يحمى به جنده من البرد • وبينما كان يعد العـدة للرحيل عن وهران الوسطى • اذ اتته دعوة من الحامية التركية التى ظلت محتفظة باستقلالها عن التبعية للأمير فى مدينة تلمسان • فارسل لها طابورين خفيفين للاقامة بحصن المدينة بجانب الاتراك ، ولكن ما لبث أن تحولت القوات الفرنسية من قوات غازية الى حامية محصورة بعد أن استرد الأمير قوته •

ذلك أن سقوط معسكر لم يؤثر قط فى قوة الأمير السياسية أو العسكرية ، لانها لم تكن تعتمد على اساس اقليمى ؛ بل كانت ترتكز على عدد القبائل التى تلتف حولها وقد اوشكت هذه القبائل ان تتفرق اثر تدمير معسكر حتى يئس عبد القادر منهم ، وفكر لحظة فى اللجوء الى مراكش • ولكن انسحاب الفرنسيين السريع ، ثم معاملتهم القاسية لأهل تلمسان ، عرفت أهل وهران بخطورة الخضوع للغزاة ؛ وكانت السلطات الفرنسية فى تلمسان قد فرضت على أهل المدينة غرامة فادحة قدرها ١٥٠ الف فرنك فعادت القبائل سريعا للالتفاف حول الأمير الذى استطاع اعادة بناء معسكر •

لم يكن فشل كلوزيل في حملة معسكر هو الضربة الوحيدة التي تلقاها الفرنسيون في ظل حكومته • فقد شهد عام ١٨٣٦ هزيمة اخرى ساحقة لحقت بقواتهم في الجانب الآخر من الجزائر ، حيث قام كلوزيل بمحاولة للتخلص من احمد بك حاكم قسنطينة الذى استطاع طوال هذه الفترة أن يحتفظ باستقلال الاقليم الشرقي • ويختلف احمد بك عن معظم اقرانه من الولاة العثمانيين بقوة التصميم على مقاومة الغزو الفرنسي • وقد جمع حوله معظم القبائل العربية والبربرية النازلة في هذا الاقليم • ولكن للأسف لم تقم اية محاولات لتنسيق اعمال المقاومة بينه وبين الامير عبد القادر • وفى اكتوبر ١٨٣٦ أعد كلوزيل حملته للاستيلاء على مدينة قسنطينه ، الا انه وقف عاجزا حتىءلى الصعود الى الهضبة التىتقوم عليها المدينة ، فقد تلقته مدفعيتها بنيران حامية • ولكن الفرنسيين يعزون تراجع كلوزيل الى الموقع الطبيعى الذى جعل المدينة منيعة على الغزاة ، اذ تحيط بها وديان سحيقة ولا تتصل بما حولها الا بممر ضيق • فكان هزيمتهم لا يمكن ان تكون الا لاسباب طبيعية • ولو كان ذلك صحيحا لما خرجت حامية قسنطينة لتتبع فلول الفرنسيين المنسحبة •

وهكذا فشل كلوزيل فى تنفيذ سياسة الاحتلال الشامل حيث لم تؤد الا الى وقوع تلك الكوارث •

وبينما كان كلوزيل منهمكا فى اعداد حملة قسنطينة ، وصل الى وهران احد العسكريين الذين سيلعبون فيما بعد دورا هاما فى الجزائر ، وهو الجنرال بيجو فى مايو ١٨٣٦ ، وكانت مهمته مقصورة فى ذلك الوقت على ايجاد وسيلة لتخليص القوات الفرنسية التى حوصرت فى تلمسان ، او على الأقل رسم خطة لاستخدام نهر التافنة الذى يصل بين تلمسان والبحر لتموين الحامية • وفى الفترة القصيرة التى قضاها بيجو فى الجزائر وضع الاسس التى سيبنى عليها خططه فى محاربة الامير عبد القادر ، وهى استخدام الطوابير الخفيفة التى تستطيع ان تجارى جيوش الامير فى حركاتها السريعة • واستطاع أن يجرب جدوى هذه الخطط ، اذ احرز انتصاره الاول فى صيف ١٨٣٦ فى معركة وادى سكاك ، غير انها لم تؤثر كثيرا فى مركز الأمير •

لاحظ الفرنسيون انه من الصعب عليهم ان يحاربوا الجزائريين فى جبهتين مختلفتين وهران وقسنطينة • لذلك فكروا فى مهادنة الأمير عبد القادر حتى يتفرغوا لمحو هزيمتهم بقسنطينة التى كادت تطيح بسمعتهم العسكرية فى شمال افريقيا • وقد حفزهم ايضا على الاسراع فى مفاوضة الأمير تردد الاشاعات بوجود مراسلات بين عبدالقادر

وبين الحكومة البريطانية . ولو انه اصبح من المعروف الان ان خطاب الأمير الى وليم الرابع ظل دون جواب وان انجلترا تحولت عن معارضتها لسياسة فرنسا التوسعية فى الجزائر لتكافىء لوى فيليب على قبول حياد بلجيكا. ولكن وكلاء عبد القادر فى ذلك الوقت تعمدوا ان يشيعوا أن الانجليز وافقوا على ارسال الأسلحة عبر مراكش . ومن الاسباب الاخرى التى دفعت الحكومة الفرنسية الى مفاوضة عبد القادر ، مشكلة تموين جيش الاحتلال، وهى نفس المشكلة التى دفعت ديميشيل الى عقد اتفاقية سنة ١٨٣٤ فقد كانت سلطات الاحتلال تعول على تزويده بالمؤن من داخل البلاد ، والدليل على ذلك هو النص فى المعاهدة على تقديم كمية من القمح للفرنسيين . وسبب آخر هو بقاء حامية تلمسان محاصرة بواسطة قوات الامير منذ انسحاب كلوزيل فى الشتاء السابق . وكانت سياسة الحكومة القائمة آنذاك ضد التوغل فى الداخل . ورغم اهمية هذه الأسباب التى توضح حاجة فرنسا الى عقد الصلح مع عبد القادر ، فان ساسة ذلك الوقت اعتبروا ان معاهدة التافنة تنطوى على تساهل كبير من جانب فرنسا بالنسبة لعبد القادر . بل تذكر بعض الوثائق الفرنسية ان بيجو قد تجاوز عن تعليمات حكومته التى كانت تقضى بأن يعترف الامير لفرنسا بالسيادة ، وبأن يقدم لها جزية ، وتقول انه اخذ فى مقابل ذلك رشوة قدرها ١٨٠ الف فرنك كما اعترف بذلك بيجو ، ويستدلون على ذلك ايضا بأن الضابط بروسار الذى عرف بيجو بابن دران قد ثبتت عليه تهمة الرشوة (١) .

اما الظروف التى جعلت عبد القادر مستعدا لقبول المفاوضة فى الصلح فهى رغبته فى التفرغ لبسط نفوذه على الجزء الاكبر من الجزائر حتى الصحراء الكبرى وهو شيء اقرب الى التحقيق من طرد الفرنسيين الى البحر . ولكن يؤخذ عليه انه لم يكترث بالهدف الرئيسى للفرنسيين وهو اتخاذ الصلح مع الأمير وسيلة للتفرغ لأحمد بك حاكم قسنطينة . وعلى كل فالأمير لم يقرر التفاوض فى الصلح الا بعد ان جمع مجلس شوراه واقره على ذلك كما استأذن فى هذا الأمر سلطان مراكش . وقد تولى بيجو ، الذى عاد حاكما لوهران فى اوائل سنة ١٨٣٧ ، مهمة التفاوض مع الأمير ، ومثل الامير عبد القادر فى هذه المفاوضات وزير خارجيته مولود بن عراش واليهودى بن دوراند .

ورغم ان المعاهدة لم يسر مفعولها سوى سنتين وخمسة اشهر (٣١ مايو ١٨٣٧ — ١٨ اكتوبر ١٨٣٩) فانها تعتبر حلقة هامة فى تاريخ الجزائر .

نشرت الوثائق الفرنسية المتعلقة بمعاهدة التافنة ، انظر Yver

أولا : لانها النص الوحيد المعترف به من الحكومة الفرنسية كاتفاق رسمي بينها وبين حكومه جزائرية في عهد الاحتلال .

ثانيا : لان نصوصها كانت محل جدل بين الطرفين أدى الى اندلاع الحرب بينهما والقضاء على حكومة الامير عبد القادر . ولذلك يحسن أن نتوقف لتحليل المعاهدة وذكر أهم نصوصها (١) . يعترف الأمير فى المادة الأولى بسلطة فرنسا على مدينتى الجـــزائر ووهران . ثم تمضى المواد ٢ ، ٣ ، ٩ فى تحديد الاراضي التابعة لكل من الطرفين المتعاقدين .ويتضح من هذا التحديد أن فرنسا اعترفت بسلطة عبد القادر على القسم الأكبر من وهران وكل اقليم تيطرى بما يوازى ثلثى ارض الجزائر تقريبا باستثناء الصحراء . ولم يحتفظ الفرنسيون الا بخمسة مراكز ساحلية مع الأراضى المحيطة بها والتى تختلف كل منها عن الأخرى من حيث الاتساع . واصبحت مدينة الجزائر أكبر المناطق الساحلية حيث انها ضمت سهل المتيجة ، وتخلت فرنسا عن بعض الحصون التى كانت قائمة بها داخل اراضى الأمير واهمها قلعة تلمسان المعروفة بالمشور . وتنظم المواد التالية العلاقات بين الدولتين ، فتنص المادة ٤ على انه « ليس للأمير حكم ولا سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا،ويباح للفرنسيين أن يسكنوا فى مملكة الأمير. كما انه يباح للمسلمين أن يستوطنوا فى البـــلاد التابعة لفرنسا » وتؤكد المادة الخامسة حرية المسلمين فى ممارسة دينهم بالاراضى المحتلة . وتعهد الأمير فى المادة ٦ بتقديم ٣٠ الف كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بمكيال وهران ، وخمسة آلاف راس بقرى ، الى القوات الفرنسية ، ولكن سيدور الجدل فيما بعد حول ما اذا كانت هذه المؤونة تدفع على سبيل الجزية أم على سبيل التعاون الاقتصادى . وتنص المادتان ٧ ، ١٠ على حرية التجارة مع فرنسا بما فى ذلك حق الأمير فى شراء الاسلحة . والمادة ١٢ خاصة بمبدأ تبادل المجرمين . وللمادتين ١٣ ، ١٤ اهمية ملحوظة فقد تعهد عبد القادر الا يعطى أيا من الدول الأجنبية قســـما من الشاطىء الا برخصة من فرنسا والا يسوغ بيع محصولات أو لوازم الاقليم ولا شراء الا فى الأسواق الفرنسية وهذا يعنى اعترافا صريحا من الأمير بامتيازات فرنسا الخاصة فى الجزائر ، مما يدل على أن هذه المعاهدة لم تكن فى صالح عبد القادر دائما كما حاول المعلقون الفرنسيون أن يثبتوه . واخيرا تنص المادة ١٥ على « حق فرنسا فى تعيين وكلاء لها فى المدن التى فى مملكة الامير . ينظرون فى أشغال الرعايا الفرنسيين وحل المشـــكلات التجارية فيما بينهم وبين العرب ، وكذلك للأمير أن يضع وكلاء من طرفه فى المدن التى تحت ادارة دولة فرنسا .

---

(١) انظر النص العربى فى تحفه الزائر حـ ١ ص ١٧٧ .

وإذا قارنا هذا النص بالنص الفرنسي ، نجد بينهما خلافات جوهرية منشؤها اضافة تحديدات فى النص الفرنسى تترتب عليها التزامات خطيرة. واهمها ما ورد فى المادة الأولى وهى أن عبد القادر يعترف بحق السيادة لفرنسا . كما ان مواد التموين التى التزم عبد القادر بتقديمها للفرنسيين قد حددت صفتها فى النص الفرنسى على انها جزية سنوية ، وهذا ما لا يبدو فى النص العربى . وثمة خلاف ثالث وقع حول الحدود الشرقية التى تفصل بين أراضى الأمير والأراضى التابعة لفرنسا ، فقد ذكر فى النص العربى ان نهر قدرة وما فوقه يحد الأراضى الفرنسية شرقا ، أما النص الفرنسى فيستعمل عبارة "Au - dela" اى نهر قدرة وما يليه . وكان هذا هو السبب المباشر فى القضاء على المعاهدة واستئناف القتال على نحو ما سنرى . وقد تعلل الفرنسيون بهذا الخلاف ونقضوا شروط الصلح حينما مكنتهم ظروفهم العسكرية من ذلك .

ولا شك ان سقوط قسنطينة فى فترة الصلح كانت اهم العوامل التى قوت مركز الفرنسيين . فانهم ما كادوا ينتهون من الميدان الغربى فى وهران حتى اتخذ الحاكم العام دامرنمون الاجراءات لضرب حصار طويل حول المدينة العنيدة . وبينما كان يعد للحملة أرسل الى احمد بك يعرض عليه مقترحات للصلح تقوم على أساس الاعتراف به كحاكم للاقليم مع اعلان تبعيته لفرنسا ، وتقضى بأن يدفع نفس الاتاوة التى كانت تدفعها قسنطينة لحكومة النيابة ، وكان جواب أحمد بك حسب المراجع الفرنسية (1) قوله «اتعرضون على شروطا اقل من تلك التى منحتموها لعبد القادر !»أماالمصادر التركيةوأوراق احمدباىالتى عثرعليهافترسم صورةمختلفةعن الوالى العثمانى العظيم . فقد اصبح منذ احتلال الجزائر قبلة لبعض عناصر المقاومة من ابناء الجاليات التركية . واتصلت به الدولة العثمانية محاولة تشجيعه على المقاومة وخاصة بعد تدعيم سيطرتها على طرابلس سنة ١٨٣٥ .

وكان الباب العالى ـ كما ذكرنا ـ يسعى لمنع احتلال الجزائر بالطرق الدبلوماسية لأنه كان من الناحية العسكرية قد ضعفت قوته البحرية فى البحر المتوسط بعد معركة نافارين سنة ١٨٢٧ ، ولم يتوقف بعد احتلال الفرنسيين للجزائر مطالبته بحقوقه النظرية فى تلك الولاية ، فلم يجد تشجيعا من الدول الأوربية كما شغلته حروب الشام مع محمد على ؛ ومع ذلك فان صمود والى قسنطينة كان من العوامل التى حثت حكومة الاستانة على اثبات وجودها فى شمال افريقيا باسقاط حكم القرامنليين فى طرابلس ومحاولة بسط النفوذ الفعلى على ولاية تونس ؛ واستكمالا لهذه الخطة

(1) Pelissier Vol. 3 P. 237 s. q.

أرسل مبعوث خاص سرا الى احمد باى سنة ١٨٣٦ وصـــادق السلطان على منحه لقب الباشوية الذى خلعه عليه الأهالى ، كما ضرب الحـــاج احمد باشا النقود فى هـــذه الحقبة باسم السلطان العثمانى ، وظلت الاتصالات تجرى عن طريق طاهر باشا وزير البحرية العثمانى ، الا ان المساعدات الجادة لم تكن متيسرة لحكومة اسطنبول سيما ان بايات تونس لم يتعاونوا معها ، كما تصدى الاسطول الفرنسى للسفن العثمانية التى اقتربت من تونس والجزائر سنة ١٨٣٦ ، وهكذا اضطر احمد باى الى الاكتفاء بامكاناته الذاتية المحدودة ، ومن هنـــا فهو يعد بصموده حتى عام ١٨٣٧ من ابطـــال المقاومة .

بدا حصار قسنطينة فى اكتوبر ١٨٣٧ ، ولكن المدينـــة صمدت للحصار ، فلجأ الفرنسيون الى استخدام احدث انواع الالغام المعـــروفة حينئذ لتهديم بعض اجزاء السور المحيط بالمدينة ، ولما نجحوا فى هدم السور واجهوا مقاومة عنيفة لم يشهدوا مثلها فى حرب الجزائر . فقد احتلوا المدينة بيتا بيتا ، وخسروا اكثر من الفى مقـــاتل وعلى راسهم دامريمون الحاكم العام نفسه ، اما احمد بك فقد تمكن من الفرار ولجـــا الى قبائل البربر فى الاوراس وظل مقيما هناك حتى لحق الغزو الفرنسى بتلك المناطق فسلم سنة ١٨٤٨ .

وفى هذه الاثناء ركز الأمير عبد القادر جهوده لتوسيع دائرة نفوذه وخاصـــة فى المناطق الجنوبية حيث لم يكن ملتزما امام الفرنســـيين باى شرط . ولقد اعترفت فعلا بعض الواحات جنوب وهران وتيطرى بسيادته حتى واحة توغرت فى الصحراء الكبرى ، وامتد نفوذه شرقـــا الى بسكرة . ولكن فى سنة ١٨٣٨ كادت هيبته تضيع أمام احدى الواحات الصغيرة جنوب تيطرى وهى واحة عين ماضى ، التى كان يحكمها احد ابناء التيجانى ، مؤسس اكبر طريقة صوفية فى شمال افريقيا . فقد قاومت هذه الواحة حصارا ضربه الأمير عليها لمدة ستة اشهر استنفذت منـــه ضحايا واموالا طائلة ، واضطرته الى الابتعاد عن مراكز حكمه . وحتى عندما اضطرت الواحة الى التسليم عرضت شروطا تحفظ للتيجانى كرامته: فقد بقى حاكما على الواحة وان اعترف بالسيادة للأمير .

---

(١) استخرج عبد الجليل التميمى دراسة قيمة عن احمد باى مستندا الى المصادر التركية . وهو يأسف لعدم اهتمام المؤرخين الوطنيين بهذه الشخصية انظر : السياسة العثمانية تجاه الاحتـــلال الفرنسى للجزائر . نقله عن التركية عبد الجليل التميمى طبع تونس ١٩٧٤ .

ورغم هذه الحوادث الثانوية فانه يمكن القول بان دولة عبد القادر قد بلغت ذروة قوتها فى هذه الفترة الواقعة ما بين عقد معاهدة التافنا وانقطاع الصلح مع فرنسا ؛ فقد ارسى خلالها قواعد دولة وطنية .

ولقد حفل تاريخ المقاومة الجزائرية بعدة شخصيات مثل بومزراق وبومعزة والمقرانى . ولكن الأمير عبد القادر تميز على هؤلاء جميعا بأنه لم يكن مجرد زعيم قبيلة يدافع عن استقلالها أو شيخ طريقة يتخذ من الخرافات الدينية سبيلا الى السلطة ، وانما حاول عبد القادر فى نفس الوقت تأسيس دولة حديثة ؛ ووضع نظاما اداريا للمناطق التى خضعت له .

بدأ تكوين دولة عبد القادر على شكل تجمع قبلى ، يضم القبائل الثلاث التى بايعته سنة ١٨٣٢ ، ولكنه اعتمد فى توسيع سلطته على الأساس الدينى قبل كل شىء ، فاتخذ لقب امير المؤمنين ودعا القبائل لطاعته بدافع الدين . وكان يسمى اتباعه فى مراسلاته مع فرنسا بالعرب احيانا وبالمسلمين فى غالب الأحيان وسمى القبائل الخارجة عليه بالمتنصرة . وفى فترة الجهاد ضد فرنسا أطلق على الأراضى المحتلة ، اسم دار الكفر . وعلى البلاد التابعة له دار الاسلام ، والزم المسلمين بوجوب الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام . وكلما عرضت له مشكلة سياسية كبيرة مثل وجوب دفع الزكاة أو الهجرة الى بلاد الاسلام بعث الى علماء فاس أو الى شيخ المالكية فى الجامع الازهر ليستفتيهم فى المسألة ، وبذا تصبح لديه الوسائل الشرعية لاقناع القبائل باتباعه . ولم يعلن عبد القادر نفسه رئيس دولة تسمى بالجزائر ، بل اعتبر حكومته من الناحية القانونية تابعة لسيادة سلطان مراكش الذى يتمتع بهيبة تقليدية فى شمال افريقيا . وفى مراسلاته التى كان يطلب فيها الأسلحة من البريطانيين بواسطة قنصلهم فى طنجة كان يذكر دائما هذه التبعية .

وقد كان على عبد القادر ان يواجه مشكلتين كبيرتين تعترضان سبيل الوحدة الوطنية ، وتتمثل الاولى فى استمرار النزعة القبلية وخاصة عند تحرج مركز عبد القادر فى السنوات الأخيرة ، فقد لوحظ ان قبيلة هاشم كانت اكثر ثباتا فى ولائها حتى النهاية ، والثانية فى الروح الانعزالية لدى بعض قبائل البربر . والحق ان المناطق البربرية لم تكن قد شعرت بخطر الغزو الأجنبى بعد . لذلك لم تجد مبررا للخضوع للأمير عبد القادر خاصة وانها لم تتعود الخضوع لأى حكومة مركزية . وبهذه

المناسبه نشير لى حادثه طريفه استهدفت اجتذاب بعض قطاعات من البربر للالتحاق بحكومة الأمير فهناك مجموعة قبلية مشهورة تسكن جبال جرجرة وشمال قسنطينة بصفة عامة ، وتعرف بالقبايل
قد نصـــح مصطفى تامى ، صهر الأمير واحد المستنيرين فى حكومته ، باستخدام الاقناع مع القبايل ، فذهب اليهم يشرح لهم خطورة الغزو الاجنبى، ويدعوهم لمشاركه الامير فى الجهاد باسم الدين فوجهه زعماء القبايل بهذه العبارة « لقد جئتنا حاجا ، فأعطيناك الدفة ــ المعونة ــ ولو كنت جئتنا ممثلا للمخزن لأعطيناك بدل الكسكسى الأبيض ، الكسكسى الأسود يقصدون البارود ،

اما من الناحية الادارية فقد اتخذ عبد القادر مجلس شورى يتكون من احد عشر عالما (١) ويعتبر هذا المجلس بالاضافة الى النظر فى شئون السياسة العليا ، بمثابة محكمة استئناف لمجالس الشورى التى الحقت بكل منطقة ادارية ، اما الوزراء فكانوا مجرد منفذين لأوامر الحـــاكم ، وقد اتخذ عبد القادر وزيرا للخارجية ، وشـــغل المنصب لمدة طويلة مولود بن عراش ، وكذلك اتخـــذ وزيرا للجباية وآخر للخزانة ورابعـا للأوقـــاف ،

وقد بلغت النيابات ، وهى الوحدات الادارية ، ثمانية ، وذلك عندما وصلت دولة عبد القادر اقصى اتســاع لها سنة ١٨٣٩ ، ويدير كل نيابة حاكم يسمى الخليفة ، واهم هذه المراكز تلمسان ومعسكر ومدية ومليانة ، وهذا يدل على أن عبد القادر حاول أن يلغى القبيلة كأساس للوحدات الادارية فى دولته ، ولكن لم يتح له الوقت لكى يتوسع فى هذا الاتجاه ، ولعل اهم ما ظهر تأثيره على القبائل فى ظل الحكم الجديد هو تعيين قاض لكـــل قبيلة لتطبيق نصوص الشريعة فى الأمور المدنية ، وحتى يواجه الأمير النفقات اللازمة لهذه الادارة كان مضطرا الى الزام القبائل بدفع الزكـــاة الشرعية ، ولكنه فى الغـــالب كان لا يكفيه هذا المورد فيضطر الى فرض ضريبة اضـــافية عرفت باسم المعونة ، ومما يجدر بالذكر أن أحدا من المؤرخين لم يتهم الأمير بحب جمع المال ، بل على العكس ، يذكر الفرنسيون انه لم يكن يملك شيئا ملكا خـــاصا ،

ويتميز الأمير عبد القادر عن غيره من زعماء المقاومة الجزائرية باتخاذ جيش ثابت منظم على احدث النظم الممكنة لديه ، بل ربما فاق فى تنظيمه

---

(١) تحفة ص ٢١١ ــ ص ٢٢٠ ،

(2) D'estailleur Chanteraine : L'émir Magnanim abd el Kader.

جيش سلطان مراكش الذى يعتبر رئيس دولة عريقة . وقد بلغ هـــذا الجيش أقصى قوته حين وصل عدده الى ثمانية آلاف من المشاة والفين من الفرســـان .

استعان عبد القادر بالاوربيين من مختلف الجنسيات لتدريب الجيش ولاقامة مصانع الذخيرة . ومن بينها مصنع لصب البنادق فى معسكر . وقد اشتهر من بين هؤلاء الاجانب الذين عاونوا الأمير : المستشرق الفرنسى ليون روش ، واتخذه الأمير مستشارا بعد ان اعتنق الاسلام واقـــام عنده نحو اربع سنوات (١) . وعندما انقطع الصلح سنة ١٨٣٩ ، رفض روش اتباع الأمير فى استئناف القتـــال .

واعترف روش للأمير بأنه تظاهر باعتناق الاسلام ، ومع ذلك فقد اخلى سبيله وتبين بعد انـــه كان جاسوسا .

ولم يهتم الامير باقامة حاميات خارج المدن الرئيسية ، ويستثنى من هذا اهتمام كبير ببناء الحصون والحاميات على حافة الصحراء الكبرى ووراء جبال الأطلس ، مثل حصن تقدمت وسعيدة وبسكرة . وهذا يدل على ان اساس الاختيار كان استراتيجية للحرب ضـــد الفرنسيين وليس الغرض منه تقوية السلطة الادارية داخل الجزائر ، لأن هدف هذه الحصون كان ايجاد مخازن للاسلحة ومعاقل بعيدة يستند اليها الامير فى حـــالة قيام حرب بينه وبين الفرنسيين . وقد اشتهر عبد القادر بحسن معاملته للأسرى الى حد أدهش الفرنسيين انفسهم .

وقد ذهب الأمير عبد القادر الى حد انه كان يطلق الأسرى دون طلب فدية أو تبادل اذا لم يكن لديه ما يطعمهم به ، وكثيرا ما كان يعرض تبادل الأسرى على الفرنسيين ، ولكنهم كانوا اثناء الحقبة الأخيرة من كفـــاح الامير ، يرفضون العرض فى غطرسة ، حتى لا يتضمن ذلك اعترافا قانونيا به ، ومع ذلك فقد رضى عبد القادر سنة ١٨٤١ أن يطلق عددا من الأسرى تلبية لرجاء أحد الاساقفة ، ولعله كان يأمل أن يستميل الفرنسيين الى الصلح ، ولم يتخل عبـــد القـــادر عن هذه السياسة حتى بعد أن أدخل بيجو وسائله الجديدة فى حرب الابادة ، ولم يحدث أن قتل اسرى فرنسيون عند الأمير الا مرة واحدة ، وكان ذلك اثناء غيابه ، وفى ظروف دقيقة اذ أراد سلطان مراكش ان ينتزع الاسرى من ايدى عمال الأمير بالقوة ، وقد عنف الأمير المسئولين عن هذا الحادث فيما بعد .

---

(١) انظر كتابه المشهور

Trente Deux à Travers L'islam

لم يسع الوقت لعبد القادر حتى يجني ثمار تنظيماته الحديثة . ولعله كان يتمنى خطا محمد على في مصر الا ان الظروف اختلفت من حيث وجود الاحتلال واعتماده على حماس الشعب الجزائري بخلاف الشعب المصري . وتدل رسائله على قدرة فائقة في تبصر الحوادث . ويجدر بنا ان نورد بعض العبارات من رسالة وجهها الى بيجو تنبأ فيها بمستقبل الفرنسيين في الجزائر ، وان لم تتحقق النبوءة الا بعد قرن من الزمان . قال « ان هذه القارة هي بلاد العرب ومهما مكثتم فيها . فلستم فيها معشر الفرنسيين سوى عابري سبيل . ولو مكثتم فيها ثلاثمائة عام مثل الترك فسينتهي الامر بخروجكم منها » .

٣

القضاء على عبد القادر

حرب الابادة من ١٨٣٩ ــ ١٨٤٧

اشرنا فيما سبق ان فرنسا عقدت معاهدة التافنا بقصد كسب الوقت . ولم يخف بعض الساسة هناك هذه الحقيقة . وعندما طرح مشروع المعاهدة للمناقشة في البرلمان سنة ١٨٣٨ . صرح بيجو صاحب المعاهدة والعضو في المجلس « بأن الدول تلتزم بمعاهداتها طالما أن تلك المعاهدات تخدم مصلحتها » وقد ادلى بهذا التصريح ليتغلب على معارضة النواب الشديدة للمعاهدة . وكان فاليه الذي تولى منصب الحاكم العام خلفا لدامريمون سنة ١٨٣٧ . واستقر فيه على خلاف العادة ثلاث سنوات ، من انصار الاحتلال الشامل (١) . وقد شعر بتصاعد قوة الامير المستمرة . وراى فيه تهديدا لبقاء فرنسا . كذلك نبه قنصل فرنسا في «معسكر» حكومته الى هذه الحقيقة مشيرا الى توسع الامير في تعمير المدن وصناعة الاسلحة .

اخذ فاليه يتعمد اثارة المشاكل مع عبد القادر ، فقد رفض أولا تعيين احد الرعايا الأمريكيين مندوبا لعبد القادر في مدينة الجزائر . ثم اخذ يطالب ببعض مناطق قسنطينة الخارجة عن دائرة نفوذ الفرنسيين طبقا لمعاهدة تافنا . وحين عارض الأمير في ذلك اجاب فاليه بقوله « ان فرنسا قد منحتك وهران وتيطري وليست مستعدة للتنازل عن قسنطينة » واعتبر عبد القادر هذا الجواب اهانة كبرى . وشعر أن فاليه يبحث عن وسيلة يتعلل

---

(١) تعاقب على حكومة الجزائر سبعة اشخاص في المدة من سنة ١٨٣٠ــ سنة ١٨٣٧ حتى نبه بعض الساسة الى خطورة كثرة تغيير الحكام وقالوا « ان منصب حكام المستعمرات يجب الا يرتبط بالخلافات الحزبية لأنه يتعلق بالمسائل القومية العليا » وعلى ذلك ابقى على فاليه ٣ سنوات ثم بيجو ٧ سنوات .

بها لنقض المعاهدة • فأسرع بارسال وفد الى باريس حاملا معه هدايا ثمينة الى لوى فيليب ، وفى هذا ما يدل على تمسك الأمير بمعاهدة الصلح •

ورغم أن الحكومة الفرنسية كرمت وفد الأمير من حيث المظاهر الرسمية ، الا أنها رفضت التفاوض معه فى أى شأن من الشئون السياسية ، وذلك استجابة لرغبة فاليه الذى اعتبر هذه المسألة من اختصاص حاكم عام الجزائر • وعندئذ اضطر الوفد الى الرجوع الى الجزائر • وفى العاصمة واجهه فاليه بمشروع معاهدة جديدة تعطى الفرنسيين امتيازات اوسع مما تمنحهم معاهدة التافنا ومن اهم المسائل التى طلب فاليه تعديلها :

اولا : تمتد الحدود الشرقية للمنطقة المحتلة بحيث تشمل خط المواصلات بين الجزائر وقسنطينة ولم تكن المواصلات بين المدينتين متيسرة للفرنسيين الا عن طريق البحر •

ثانيا : أن يباح المرور للجيوش الفرنسية فى أراضى الأمير الواقعة بين ارزيو ومستغانم •

ثالثا : أن يقيد استيراد الأسلحة فيوضع تحت مراقبة الحكومة الفرنسية •

ويقول صاحب التحفة ان الحاكم أجبر ابن عراش على توقيع هذه التعديلات فاضطر وزير الخارجية الى اضافة تحفظ يشترط موافقة الأمير اولا • وفى هذه الأثناء كان عبد القادر منهمكا فى حصار عين ماضى • وعندما وصلته الأنباء اضطر الى رفع الحصار كما رأينا وظل يلح على الحكومة الفرنسية حتى تتوسط فيما بينه وبين الحاكم فاليه • وهكذا أرسل ستة خطابات الى فيليب عدا الرسائل التى بعث بها الى رئيس الوزراء ووزير الحربية ، ولكن دون جدوى ، وسنورد هنا بعض فقرات من خطاب أرسله الأمير الى لوى فيليب فى فبراير ١٨٣٩ وهو يدل على مدى ادراكه لتفاوت القوى العسكرية بينه وبين خصومه •

« منذ جاء الاسلام والمسلمون فى حرب مع النصارى ، ولكن بما أن النصارى قد انحرفوا عن دينهم فقد أصبح غرضهم من الحرب هو تملك الدنيا ، أما نحن فلا نبغى سوى الذود عن ديننا •• وما زلت أرغب فى الصلح ، ولكن لا يمكننى التخلى عن قبائل طلبت حمايتى لتتجنب حكم النصارى •• أعلم أننى أضعف منكم بكثير ولذلك فان وسائلى ستكون الكر والفر • أما اذا اردتم الصلح فانه سيتيح نشر المدنية فى الجزائر • والا فلن يكون أمان للفرنسيين المهاجرين فى بلادنا (١)

كان الأمير يطلع على الصحف الفرنسية ويسمع انباء المعارضة فى البرلمان الفرنسى التى احتجت على النفقات للتوسع فى الجزائر ، وظن انه

Piquet p. 79.

يستفيد منها ومن الأزمات الوزارية كما انـــه عول على مساعدة بريطانيا وقتا ما . ومع ذلك فقد ظل حتى آخر لحظة يهيب بملك فرنسا حتى يمنع حكومته من نقض الصلح حتى قيل ان مجلس شوراه هو الذى اجبره على الحرب . ولو انه سيصرح فيما بعد بانه اقتنع فى نهاية الأمر بان الحرب حتميـــة .

ولمـــا ادرك عبد القادر ان الحكومة الفرنسية مصممة على خـــرق المعاهدة ، جمع مجلسا فى تقدمت فى يوليو ١٨٣٩ وقرر هذا المجلس اعلان الحرب عند القيام بأى عمل يكون من شأنه مخالفة شروط الصلح . ظهر الامير اثناء المناقشات التى دارت فى المجلس أميل الى سياسة الصـــلح بأى ثمن ، الى حد أنه فكر فى قبول التعديلات التى عرضها فاليه باستثناء التخلى عن اقليم قسنطينة ، بينما كان فاليه مهتما بهذا الاقليم بالذات ، فقد بنى فيه مدينة حديثة فى مكان يعرف بسكيكدة واعطاها اسما فرنسيا كما حدث فى غيرها من مدن الجزائر هو فيليب فيل ، كما نقل عدة افواج من المستوطنين الزراعيين حول هذه المدينة . وحتى يثبت للأمير ان فرنسا هى صاحبة الأمر فى الاقليم قرر أن يقوم فيـــه بجولة عسكرية وان يعود الى الجزائر بطريق يمر فى الأراضى التابعة للأمير ليكون ذلك أشد تحديا لـــه . ويعرف هذا الطريق باسم الأبواب الحديدية .

كان عبد القادر ما زال بتقدمت حين وصلته هذه الأنباء فى ٢٣ اكتوبر ١٨٣٩ فقرر فى الحال اعلان الحرب وبعث بذلك الاعلان الى الحـــاكم العام فلم يكترث بـــه ظنا بان عبد القادر عـــاجز عن الاقتراب من الحاميات الفرنسية . فكانت النتيجة ان قضى على جميع الافواج الأولى من المستوطنين التى كـــانت قد استقرت فى سهل المتيجة وسقطت بعض الحـــاميات الداخلية . وعـــاد الفرنسيون الى الوضع الذى كـــانوا عليه سنة ١٨٣٣ محصورين فى المنطقة الساحلية . بل ان ضواحى مدينـــة الجزائر نفسها اخليت من السكان الأوربيين . ولم يستطع فاليه الرد على هذا الهجوم الجارف الا بعد ان اتته الامدادات من فرنسا .

وفى ابريل سنة ١٨٤٠ تمكن فاليه من احتلال مدينتى ميدية ومليانة . ولكن سرعان ما عادت قوات الأمير لحصارها . ولما كانت هذه الخـــطة من اقامة الحاميات الداخلية تستدعى السيطرة على الطريق لضمان تموينها فقد ثبت فشل هذه الخطة لأن قوافل التموين كانت تتعرض دائما لهجمات الجزائريين مما جعل الفرنسيين يتكبدون خسائر فادحة فى السنة الأولى من الحرب وقد ادى هذا الى عزل فاليه وتعيين توما بيجو .

وقد راينا ان بيجو كان من معارضى سياسة التوسع فى الجزائر، بل

ويروى عنه أنه قد صرح بأن الجزائر قد تكون قبر ملكية يوليو الفرنسية كما كانت اسبانيا بالنسبة لامبراطورية نابليون . فلما تحول الى فكرة الاحتلال الشامل أصبح من أشد أنصارها في مجلس النواب ولذلك اختاره الماريشال سولت ، رئيس الحكومة في ذلك الوقت لأنه كان ايضا من أنصار هذه السياسة ووضعت الحكومة الفرنسية تحت يد بيجو من الامكانيات ما لم تسمح به لحاكم عام من قبل ، فقد بلغ عدد الجيش المقاتل سنة ١٨٤٧ في الجزائر ١٠٨ الف اي ما يوازي ثلث مجموع الجيش الفرنسي . وبلغت النفقات ٥٠٠ مليون فرنك .

وقد تميزت الحرب التي شنها بيجو بالوحشية والعنف ، الى حد أن سكان الجزائر تناقصوا حسب تقرير احد الضباط الفرنسيين من ٤ الى ٣ مليون في مدى سبع سنوات (١) . أما اذا صدقنا تقرير أحد الجزائريين الذين عاشوا في ذلك الوقت ، وهو حمدان بن خوجة ، يكون السكان قد تناقصوا من عشرة الى ثلاثة ملايين (٢) . ذلك أن بيجو كان يعتقد أن نظم الحرب الأوربية لا تفيد في افريقيا ، لأن العدو لا يواجه الغزاة في ميدان مكشوف ، لذلك استبدل نظام الحاميات الثابتة بنظام الطوابير الخفيفة السريعة الحركة والتي تحمل أسلحة صغيرة . وحتى يهيىء لها جميع أسباب السرعة تخلى بيجو عن الملابس العسكرية الرسمية وهي الضيقة السميكة واستبدلها بملابس تلائم جو الجزائر . وباختصار كان بيجو يرى انه كي يتغلب على الجزائريين لابد ان يتبع نفس نظمهم في الحرب وفي المعيشة . ولكنه حاول أن يموه على الفرنسيين حين أفهمهم أن طريقة السلب وابادة السكان هي من بين النظم المتبعة في حرب شمال افريقيا . لأنه وان صح هذا بين بعض القبائل المتأخرة ؛ الا ان خصمه الرئيسي وهو الأمير عبد القادر كان قد شرع في بناء دولة حديثة ومنع هذه الأساليب الوحشية وعمل على محوها . ومما يلفت النظر ان بيجو نفسه هو الذي اضطر الأمير عبد القادر الى اتباع هذه الوسائل غير الانسانية حين راى ان القبائل قد تأثرت فعلا بأعمال النهب واضطرت الى الخضوع لبيجو محافظة على اغنامها ومخازن الحبوب التي تعيش عليها ، ذلك ان بيجو اعتبر النهب من وسائل الحرب اللازمة في بلاد مثل الجزائر وسماه سياسة تموين الحرب بالحرب . وكانت النتيجة أن جيوش الأمير عبد القادر أصبحت تعاقب هذه القبائل بالاستيلاء على ثروتها . وهكذا تحمل المدنيون العبء الأكبر في هذه الحرب

---

(١) Yacono p. 115.

(٢) كان حمدان خوجة هو أول من حاول الدفاع عن الجزائر بالطرق الدبلوماسية ، وألف لذلك كتابا سماه مرآة الاحوال ، ترجم الى الفرنسية ونشر سنة ١٨٨١ ؛ وكان قد ذهب الى باريس سنة ١٨٣٢ لاقناع الفرنسيين بالجلاء عن الجزائر على شروط معينة .

الطويلة المريرة . ويصف أحد معاونى بيجو وهو سنت ارنو بعض الأعمال الوحشية مع كثير من الاعجاب والسخرية فى نفس الوقت فى مذكراته فيقول فى خطاب بتاريخ ٤ مايو ١٨٤٢ .

« لقد كانت حملتنا تدميرا منظما اكثر منها عملا عسكريا . ونحن اليوم فى وسط جبال مليانة ، لا نطلق الا قليلا من الرصاص ، وانما نمضى وقتنا فى حرق جميع القرى والاكواخ . ان العدو يفر امامنا سائقا امامه قطعان غنمـــه » .

وفى خطاب آخر يقول « ان بلاد بن مناصر بديعة جدا : لقد احرقناها كلها . آه أيتها الحرب كم من نساء واطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطاة بالثلوج فماتوا هناك من الجوع والبرد . وليس فى جيشنا سوى خمسة من القتلى واربعين جريحا (١) .

وقد اثار بعض النواب فى البرلمان الفرنسى مسألة هذه الحرب الوحشية ، وذلك على اثر حادثة ولد رياح التى ذهب ضحيتها الف من الأنفس . وكانوا قد التجأوا الى بعض الكهوف فرارا من جند الغزو فاتفض بلسيبه واوقد النار على افواه الكهوف فمات جميع من فيها اختناقا . وكان جواب رئيس الحكومة المارشال سولت على هذا النقد هو ان هذه الأعمال قد تكون وحشية لو ان الحرب كانت فى اوروبا ، أما فى افريقيا فهذه هى الحرب بعينها . ويبدو ان بيجو لم يقتنع بالنقد الذى وجهه اليه النواب : لذلك بدل أن يناقشهم اتخذ الاحتياطات فأرسل تعليمات الى ضباطه بأن ينفذوا عمليات الابادة بدقة فيما بعد ، بحيث لا ينجو أحد من المعتدى عليهم فيذهب ويخبر مراسلى الصحف .

اما مجرى الحرب النظامية فانه لم يكن طويلا فقد سقطت جميع المراكز والمدن التى تتبع الامير : وسقط آخرها وهى حامية تقدمت فى اوائل سنة ١٨٤٢ . لذلك جمع الأمير انصاره فى شبه مدينة متنقلة واصبحوا يتنقلون فى كثير من التكتم بين جبال الأطلس وحافة الصحراء . وان كان الامير قد استطاع فى بعض الاحيان ان يرسل فرقا خفيفة للغارة وصـــل بعضها الى سهل المتيجة ، لذلك كان هم الفرنسيين منذ سنة ١٨٤٢ حتى سنة ١٨٤٧ هو العثور على مدينة الأمير المتنقلة . او الزمالة كما كانت تعرف حينذاك . وكانت تتألف من اثنتى عشرة قبيلة رئيسية عدا من انضم اليها من رؤساء العائلات والمتدينين الذين رفضوا أن يتبعوا قبائلهم فى الخضوع

(١) Saint-Arnaud-Souvenir de L'armèe d'afrique

الفرنسيين . وبلغ عدد افرادها فى بداية الامر مائتى الف (١) . وقد حاول الأمير قدر المستطاع أن يحافظ على الحياة المدنية العادية فى هذه الظروف الشاقة . فكان كلما ضربت الخيام للراحة يقيم الأسواق ويجلس القضاة لسماع شكاوى الناس والبت فيها وتحرير العقود . بل انه لم يهمل المحافظة على بقاء الكتاتيب لتعليم الاطفال ، ولكن لم يتحمل كثير من الناس وخاصة النساء والأطفال هذا النوع من الحياة . فارتفعت نسبة الوفيات . ولذلك كانت تقام المقابر فى كل مكان حلت به القافلة (٢) .

وكان متوقعا فى مثل هذه الظروف ان ينتهز الأمير كل الفرص كى يضع حدا لهذه الحرب المدمرة . فمنذ أن وصل بيجو الى الجزائر فى فبراير ١٨٤١ وهو يعرض عليه الصلح بشرط أن يحتفظ كل طرف بما بيده من اقاليم . وهذا يعنى ان فرنسا تحصل على أكثر مما طالب به غاليه . ولكن بيجو كان مصمما على تنفيذ سياسة الاحتلال الشامل . وفى سنة ١٨٤١ جدد الأمير مكاتبة الملك بمناسبة اطلاق عدد من الأسرى اكراما لأسقف الجزائر . ويدل هذا الخطاب على شدة حرصه على السلم ، فهو يقول للملك مثلا « يمكنك أن تدعنى عشرين سنة أخرى لانه لم يمض على فى الملك سوى عشر سنين . فلو تغلبت على الآن لما كان لك مجد تفخر به كما لو قهرتنى وقد صار لى فى الملك ثلاثون سنة (٣) » .

ولم يحظ هذا الخطاب كسابقه بأى جواب من الحكومة الفرنسية .

ويمكن أن نجعل من حادثة الزمالة فى مايو ١٨٤٣ نهاية المرحلة الاولى من حرب الابادة ففى هذا التاريخ وقع الدوق دومال صدفة على مدينة الأمير قرب بوغاز أحدى الواحات جنوبى وهران ، وكاد عبد القادر نفسه يقع فى يده لولا أن انقذه فرسه السريع ، ولكن وقع فى الأسر معظم المدنيين بما فى ذلك بعض أفراد أسرته ، علاوة على ثلاثة آلاف من جنوده النظاميين. وهكذا أصبح البقاء فى الجزائر مستحيلا . وأراد بيجو ان يستغل هذه الظروف فأرسل الى الامير عرضا بأن يسلم نفسه واعدا اياه بمعاش محترم وحرية الاقامة بالآستانة ان اراد بيد ان عبد القادر رفض التسليم وآثر الالتجاء الى مراكش فى أكتوبر ١٨٤٣ . وكان الأمير قد فكر من قبل حادثة الزمالة فى الهجرة الى المشرق الاسلامى مع قومه ومن شاء من الجزائريين ، ولكن اختياره لمراكش يدل على انه اراد ان ينتظر مؤقتا لاستئناف المقاومة عندما تتاح له الفرصة . والدليل على ذلك انه كاتب حينئذ كلا من الحكومة البريطانية والتركية مستنجدا بهما ضد الفرنسيين ، وظن أن وصفه لوسائل الحرب الوحشية قد يؤثر فى بريطانيا .

---

(١) هكذا قدرها صاحب التحفة مع شىء من المبالغة .

(٢) تحفة ص ٢٩٢ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع ص ٢٥٥ ــ ٢٥٩ .

وفى مراكش حاول ان يستثير الراى العام وان كان يدرك حرج مركز السلطان اذا ما اضطر الى اعلان حرب رسمية على الفرنسيين • والحق ان موقف السلطان كان مترددا بين دافعين : اولا : ارضاء الراى العام وكرم الضيافة العربية وكانت تقتضى قبول حماية الأمير على الأقل • وثانيا : ضغط الحكومة الفرنسية وتهديدها له باستخدام القوة • ولكن الراى العام جرف مولاى عبد الرحمن وخاصة ان لاموريسيير الذى كان يتتبع الأمير ، اعتدى على الحدود المراكشية واحتل نقطة استراتيجية فى اقليم وجدة تعرف بلالا مغنية • وادى ذلك الى اشتباك مع قبائل بنى سناسن ومطير ثم الى حرب واسعة النطاق مع الحكومة المراكشية •

وسنعود الى تفصيل هذا الموضوع عند الكلام عن مراكش ، ولكن يكفى ان نذكر هنا انها انتهت بكارثة للجيوش المراكشية • واضطر السلطان الى عقد معاهدة تخطيط حدود مع فرنسا وفيما يخص الأمير ، (١) نصت المادة الرابعة من المعاهدة على أن عبد القادر خارج على القانون فى ارض المغرب او الجزائر ، وعليه فان الفرنسيين سيتتبعونه فى الجزائر ، بينما يتتبعه السلطان فى بلاده حتى يطرد أو يسقط فى يد احد الطرفين ، فاذا سقط بيد الفرنسيين ، تتعهد حكومة باريس بأن تعامله بكرم واحترام • وأذا سقط بيد السلطان فانه يتعهد باحتجازه فى احدى مدن المغرب •

كما ان السلطان تخلى عن مناصرة عبد القادر وحاول اخراجه من البلاد فلم يتم له ذلك بسهولة ، اذ يبدو أن الأمير قد كسب نفوذا كبيرا وخاصة فى منطقة الريف الى حد ان مولاى عبد الرحمن بعث الى بيجو يشكو خروج منطقة الريف من يده • ولا ندرى الى اى حد كان السلطان جادا حين تعهد للفرنسيين بتسليم عبد القادر لهم اذا وقع فى يده ، ولكن من المؤكد انه ضيق الخناق عليه حتى اضطر الى الخروج من مراكش •

ولا نستبعد ان يكون عبد القادر قرر مغادرة مراكش واستئناف القتال فى الجزائر فى سبتمبر ١٨٤٥ بمحض اختياره ، وذلك عندما لاحظ ان الظروف قد تمهدت له من جديد • والواقع ان عبد القادر باعتراف بيجو ظل محتفظا بنفوذه الادبى رغم تحطم قوته المادية منذ حادثة الزمالة • ومن مظاهر ذلك مثلا فتح بلاد القبايل لنائبه ابن سالم ، وظهور زعماء جدد لقيادة المقاومة الوطنية •

وكان بيجو قد أعلن فى هذا العام انه لا يمكن ان يحدث قتال على نطاق واسع بعد ان تم الاتفاق مع مراكش ، ولكن يبدو ان القسوة التى عامل

Emerite, L'algerie à l'époque d'Abdel Kader.

بها الفرنسيون الاهالى جعلتهم مستعدين لقبول اى زعيم يظهر فيهم يحاول تخليصهم من الغزاة ٠

وقد ظهر فى جنوب الجزائر وغربها اثناء غياب الأمير بضعه زعماء محليين اشهرهم بومعزة ؛ الا انهم كانوا جميعا يختلفون كثيرا عن عبد القادر ؛ فهم يعتمدون على الشعوذة اكثر مما يعتمدون على الحركات المنظمة ٠ وقد ظهر بومعزة فى وادى الشلف فى اواخر سنة ١٨٤٥ ، وظل يقاوم الفرنسيين حتى ابريل ١٨٤٦ ، ومع ذلك فانه لم يقم تعاون كبير بينه وبين الأمير بعد عودة الأخير من مراكش ، وقد حارب الفرنسيون بو معزة بوحشية وعنف ٠ واذا تتبعنا الفترة التى قضاها عبد القادر فى الجزائر منذ عودته اليها فى سبتمبر ١٨٤٥ الى ان سلم فى ديسمبر ١٨٤٧ ، لا نستطيع الا ان ندهش لبقائه مع قلة قليلة من اتباعه اكثر من سنتين يدوخ الجيوش الفرنسية الجرارة ٠ وقد راينا ان بيجو حاول ان يجارى عبد القادر فى خفة حركته ؛ ولكن معرفة الأمير بدروب الجزائر ومسالكها ساعدته على التفوق على عدوه٠ وكذلك كان الأهالى يتطوعون باخبار الأمير عن تحركات الطوابير الفرنسية ٠ وقد عمد بيجو الى محاربة عبد القادر بسلاح آخر وهو ايجاد المنافسين له من بين الجزائريين ، فعين بعضهم فى مراكز ادارية ٠ ولكن هذه الخطة لم تنجح ايضا ٠

وقد بدأ الأمير هذه المرحلة باحراز نصر باهر ؛ اذ فاجأ الحامية الفرنسية المعسكرة فى جامع الغزوات (نيمور) قرب الحدود المراكشية ؛ والتى خاطر قائدها بالخروج للقاء الأمير حتى يكون له شرف اسره ٠ فكانت النتيجة ان وقع هو وجنده فى الأسر وتلا ذلك بقليل استيلاء الأمير على قافلة التموين التى كانت تقصد جامع الغزوات ؛ وهكذا بلغ عدد الأسرى نحو ٦٠٠ ٠

كان لعودة الامير هذه صدى بعيد فى الجزائر ، ففى خلال ثمانية ايام كانت الثورة قد انتشرت فى جميع انحاء وهران الجنوبية ؛ واعلن بومعزة عن تبعيته للأمير ٠ وكذلك وصل نفوذه الى اقليم قسنطينة حيث كان يقيم نائبه مصطفى بن سالم ٠ واصيب المستوطنون والقبائل العربية الموالية لفرنسا ، والمقيمة قرب المتيجة ، بذعر شديد ٠ ولكن هذا النجاح لم يستمر طويلا لان القبائل كانت قد انهكت من طول الحرب ٠ لذلك وجه عبد القادر كثيرا من جهده لانزال العقاب بالقبائل التى رفضت التعاون معه ٠ واضطر الى ابقاء قاعدته المعروفة بالدائرة فى الواحات الواقعة بين حدود مراكش والجزائر (١) ٠ وقد اصبح من الواضح ان عبد القادر يرتكز على تلك

(١) تشتهر هذه الواحات عند المغاربة باسم القصور ٠

الواحات البعيده . والتى كانت القبائل تجد شقة فى مغادرة المناطق الرعوية فى الهضاب للاقامه فيهـــا .

كذلك تأثرت قوة عبد القادر بالقضاء على أهم اعوانه ، أولا : بو معزة فى أبريل ١٨٤٦ ؛ ثانيا . مصطفى بن سالم الذى سلم فى مارس ١٨٤٧ « وتركت له حرية الرحيل الى مكة » .

ومرة أخرى يضطر عبد القادر الى عبور الحدود المراكشية والاقـــامة هناك مع بقايا القبائل التى ظلت موالية له . ويبدو أن مولاى عبد الرحمن الذى تردد سنه ١٨٤٤ فى مساعدة عبد القادر ، اصبح الآن مصمما ، بعد ان ساءت ظروفه ، على اخراجه من البلاد بالقوة . وبدأ بضرب قبيلة جزائرية كان عبد القادر قد انزلها بالغرب من فاس وهى قبيلة بنى عامر . ثم وجـــه جيشا كبيرا بقيادة اثنين من ابنائه لطرد عبد القادر او القبض عليه ، وذلك رغم احتجاج كثير من علماء فاس ، واطلق عليه اسم المشئوم (١) .

وقد خسر عبد القادر أول معركة دارت مـــــع الجيش المراكشى فى ١٥ ديسمبر ١٨٤٧ .

فكر عبد القادر لحظة قبل التسليم فى ان يجد وسيلة للهروب عبر الصحراء الى مكة ؛ الا انه حينما جمع مجلسه من بقية الخلفاء وناقش هذا الامر . طرح موضوع النساء والجرحى . وكيف انه من الصعب التنقل بهم فى هذه المسافات البعيدة (ولو كان ثمت اى امل من قتال فرنسا لفعلنا ؛ ولكنها هى ارادة الله) .

أبلغ لاموريسيير الضابط الفرنسى الذى صار خبيرا بالشئون الوطنيـة الجزائرية برغبة الأمير فى التسليم على ان يسمح له بالرحيل الى عكا أو الاسكندريه للاقامة بها . وقد وافق دوق دومال حاكم عام الجزائر الذى حل محل بيجو منذ اكتوبر ١٨٤٧ على هذا الطلب . وكـــان بيجو قد ترك منصبه لخلافه مع حكومته التى لم تؤيده فى تتبعه للأمير داخل الأراضى المراكشية . اما الدوق دومال وهو من اسرة لوى فيليب المالكة ، فكان يرغب فعلا فى احترام كلمته . غير ان المعارضـــة كـــانت قد بلغت ذروة قوتها قبيل سقوط الملكية . واحتجت المعارضة بأن عبد القادر فى مصر اخطر منـــه طليقا بالصحراء .

ومن جامع الغزوات حيث سلم الامير نفســه ، حمل الى سفينة لتنقله الى طولون مبتدئا لنقله الى عكا أو الاسكندرية . ومـــا لبث نظـــام ملكية

---

١. تحفـــة ص ٢١٨ .

يوليو ان سقط وحلت محله حكومة الجمهورية الثانية التى ارادت أن تمحو كل ما فعله النظام السابق ، ومن بينها الوعود لعبد القادر ، وهكذا اعتبر الامير ورفقاؤه (نحو ٧٦ شخصا) أسرى ، وأودعوا فى قلعة باو ، ثم نقلوا الى قصرٍ قديم اقل صلاحية للاقامة فى مدينة امبواز فى حوض نهر اللوار ، ومن حسن حظ الامير انتقال السلطة الى نابليون الثالث ثم مروره بمدينة امبواز ضمن جولة قام بها بمناسبة توليه السلطة . وهنـاك أعلن للامير اطلاق سراحه ، وأمر بنقله الى بروسة من أملاك الدولة العثمانية . واثنـاء مروره بباريس قدم تعهدا كتابيا بالا يفعل شيئا ضد فرنسا .

ومنذ ذلك الوقت اصبح يسوده شعور العرفان بالجميل نحو نابليون ونحو فرنسا بصفة عامة حتى انه طلب الاشتراك فى الاقتراع على الامبراطورية فى نوفمبر ١٨٥٢ (لأن الاخوة تجعلنا مواطنين فرنسيين) ومن الواضح انه لم يدرك مغزى هذه العبارة .

كذلك ساد الامير شعور بالتفاوت الحضارى وتفوق قوة فرنسـا المادية واصبح مقتنعا (بان الله هو الذى اراد هزيمة المسـلمين لأنهم انحرفوا عن دينهم ، وعليهم أن يقبلوا بالمصير الذى انتهو اليه) . وهذا الموقف هو الذى جعل كثيرا من الكتاب والمؤرخين يصفون عبد القادر بأنه قدرى . وقد التزم بالفعل طوال حياته فى المنفى بهذا الموقف ، بل انه اظهر فى مناسبات كثيرة تعاونه مع فرنسا ، كما اشتهر بانقاذه للمسيحيين فى احداث سنة ١٨٦٠ بدمشق .

فقد رفع العلم الفرنسى على بيته ونادى بان كل من يأتى بمسيحى حى فله خمسون فرنكان وفى اسطنبول استقبل عبد القادر عند وصوله اليها بحفاوة ، ولكنها تقل كثيرا عن الحفاوة التى حظى بها فى باريس حيث كان حب الاستطلاع يجذب اليه الجماهير . وقد عرضت عليه الحكومة العثمانية معاشا فرفض مكتفيا بالمعاش الذى يتسلمه من الحكومة الفرنسية . وقـد تجلت سياسة التعاون بين الامير وفرنسا فى مناسبة اخرى ، فقد منحته شركة قناة السويس ارضا فى منطقة امتيازها بالصحراء الشرقية ونشـأ نزاع بينه وبين الحكومة المصرية بشأن هذه الارض التى يسكنها البدو .

وفى اطار هذه الثقة المتبادلة فكرت الامبراطورة أوجينى فى الاستفادة من عبد القادر لتدعيم الوجود الفرنسى بالجزائر ، الا ان عدة صعاب حالت دون تنفيذ هذه الخطة واكتفت بزيادة معاشـه الذى كان يكفل له حياة رغدة . وقد ارسل بعض ابنائه للدراسة فى بريطانيا والمانيا . ولا شك انه استاء من سقوط الامبراطورية الا انه اعلن ولاءه للحكومة الجديدة ، واكد لها ابتعاده عن ثورة المقرانى .

المقاومة فى الواحات وبلاد القبـائل (١)

منذ شتاء ١٨٤١ وصلت الحاميات الفرنسية الى حافة الصحراء (١) ، وحل بعضها فى الحصـــــون التى كان عبد القادر قد بناها على أسس استراتيجية سليمة • وفى قسنطينة بلغ التوغل الى واحة بسكرة التى اقيمت فيها حامية سنة ١٨٤٣ • وقد منحت الحـــكومة بيجو امكانيات هائلة • لأن الساسة اتفقوا على ان القضاء على عبد القادر يعد شرطا اساسيا لبقاء فرنسا فى الجزائر • ولكن منذ أن تدهورت قوةعبدالقادرسنة١٨٤٣• شرع بيجو فى تنفيذ خطة شخصية له تقوم على مبدأ اخضاع جميع سكان الجزائر لسلطة فرنسا ولو ادى ذلك الى توسيع دائرة العمليات واقامة الحصون والحاميات فى الاقاليم التى ظلت طوال هذه الفترة بعيدة عن مسرح القتال • حينئذ اشتدت معارضة البرلمـان • فوجه بيجو خطابا الى النواب يحسن أن ننقل فقرات منه « ستقولون لقد قهرنا النمسا فى ايطاليا بثلاثين الف جندى • واخذنا مصر بمثل ذلك العدد • ولكن المسالة ههنا تختلف • فعلينا فى الجزائر ان نخضع قبيلة قبيلة ••• ولا يمكننا ترك بلاد القبايل • نعم ان اهلها لا يهاجموننا وانما يدافعون بقوة عن ديارهم اذا هوجمت • ولكن كيف نترك مثلا اهل القبايل وشأنهم بينما نطلب الى جيرانهم ان يؤدوا لنا الضريبة ؟ » •

وتنفيذا لخطته بدأ يرسل الحملات منذ سنة ١٨٤٣ على المناطق غير المحتلة فى قسنطينة مثل جبال اوراس حيث أعتصم احمد بك • وفى ربيع سنة ١٨٤٤ قرر اقتحام سلسلة جبال جرجرة • ومهد لذلك باحتلال ميناء قبايلى صغير هو دبلس • ولكن اقصى ما كانت تظفر به هذه الحملات هو الزام قبيلة بدفع اتاوة او اعلان تبعيتها لفرنسا ، حتى اذا ما انسحبت القوات الغازية عادت هذه القبايل الى سابق عهدها من الاستقلال وبعـــد تسليم الامير عبد القادر اصبحت مناطق المقاومة الرئيسية محصورة فى منطقتين اولا : بعض الواحات الواقعة فى الصحراء الكبرى • ثانيا : بلاد

---

(١) استخدمنا كلمة قبايل للدلالة على ذلك القسم الشمالى من قسنطينة الذى يعرف عند الاجانب بـ Kabylie وذلك بدل كلمة قبائل التى قد تختلط باسم جمع قبيلة •

(٢) يمكن الاشارة الى مرجعين هامين فى تاريخ الحرب الجزائرية •

١ ـ Gaffarel عن الفترة من سنة ١٨٣٠ ـ ١٨٣٧ •

٢ ـ Rc[illegible] عن الفترة من سنة ١٨٤١ ـ سنة ١٨٥٧•

القبايل فى الشمال الشرقى . هكذا كان الوضع عندما قامت الجمهورية الثانية في فرنسا سنة ١٨٤٨ فرسمت سياستها على اساس تركيز الجهد فى استثمار ما احتل فعلا من ارض الجزائر ، ولكن وجـــود الجماعات المستقلة فى الواحات وفى بلاد القبايل ، وتمتع زعمائها بسلطة واســعة وهيبة لدى الســـكان جر حكومة الجمهورية الى التورط فى عدة حملات عسكرية .

وقد ســـجلت واحة الزعاطشة صفحة مجيدة فى تاريخ المقاومة الجزائرية خلال هذه الحقبة . وتقع هذه الواحة على بعد ٢٠ كيلو مترا جنوب شرق بسكرة . وكان يحكمها احد رجال الطرق الصوفية ويدعى بوزيان وهو من اتباع عبد القادر القدامى ، وكان نائبه على بسكرة قبل ان يدخلها الفرنسيون ، وحينما قررت السلطات الفرنسية زيادة الضريبة على النخيل ؛ وهو مورد الواحات الرئيسى ؛ رفض بوزيان الرضوخ لهذه الاوامر . ثم اقفل الواحة فى وجه نواب السلطات المحتلة . وقد ردت الواحة الصغيرة الطوابير التى ارسلت لها حتى اضطرت السلطات الى حشد ٧ آلاف جندى فى حملة كبيرة تحت قيادة الجنرال دى هربيون لمحاصرة الواحة التى لا يزيد سكانها على ثلاثة آلاف ، وبعد حصار دام أربعة اشهر اســتطاع الفرنسيون اقتحام أسوارها الحصينة ، واستمات السكان فى الدفاع عن مساكنهم ، مما أثار القائد الفرنسى فامر باحراق المنازل بعد اقفالها على السكان . وبهذه الطريقة ، فقد ١٥٠٠ شخص حياتهم (٢٠ نوفمبر ١٨٤٩) .

وفى واحتى ورغلة والاغواط ، ظهر زعيم دينى آخر يدعى محمد بن عبد الله . أتى من طرابلس وطلب الى سكان الواحتين ان يتبعوه باعتباره احد الاشراف . ويبدو ان الفرنسيين لم يروا فى استقلال هاتين الواحتين خطرا يهدد حكمهم فى الجزائر . ولكن بدات سلطات الاحتلال تدرك اهمية الصحراء الكبرى من النـــاحية الاقتصادية باعتبارها طريق التجارة بين السودان والبحر المتوسط . فلما تحـــولت الادارة فى الجزائر الى يد العسكريين فى عهد نابليون الثالث ، اصبح التوسع واحراز النصر هدفا يقصد لذاته ، ولذلك اهتم المارشال راندون ، حاكم الجزائر من سنة ١٨٥١ ـ سنة ١٨٥٨ باخضاع هذه الواحات ، واقام فى الاغواط حامية مستديمة قام بزيارتها سنة ١٨٥٣ وهناك دعا اليه زعماء القبائل التى تسكن الصحراء ، واعطاهم مراســـيم التنصيب ، مانحا اياهم لقب اغا ، وذلك دلالة على اعترافهم بسيادة فرنسا . ومن اهم جماعات الصـــحراء التى ارتبطت بالفرنسيين فى هذه المناسبة . جماعة ولد سيدى شــيخ وهى مجموعة قبلية كبيرة كانت تتكتل حول احدى الطرق الصوفية المحلية التى تعـرف بالشيخية . ثم جماعة الاباضـــية ؛ وهى ايضا طائفة دينية تنسب الى

عبد الله بن اباض . وقد استقرت منذ القرن الخامس الهجرى بواحات الميزاب السبع الواقعة على ٢٠٠ كيلو متر جنوب الاغواط . وتعتمد حياة الطائفة اساسا على التجارة العابرة للصحراء . ويشرف على الجماعة مجلس من الرؤساء الروحيين يتالف من ١٢ عضوا يمثلون العشائر ويعـــرف بالعزابة . وقد وصل مندوبهم الى الاغواط ووقع مع راندون اتفاقا فى ابريل ١٨٥٣ ، يعترف فيه بالتبعية لفرنسا ، ويتعهد بدفع خراج الواحات ، على الا تتدخل السلطات الفرنسية فى شئونهم ، وأن تحدد الطائفة الطريقة التى يدفع بها الخراج .

اما بلاد القبايل التى تقع فى الشمال الشرقى ، فتنقسم الى كتلتين رئيسيتين : بلاد القبايل الكبرى التى تتكون من سلسلة جبال جرجرة ، وتعتبر بـــلاد القبايل الصغرى الامتداد الشرقى لهذه السلسلة ويفصلها عنها نهر وادى الساحل الذى يصب قرب بجاية . ويبلغ ارتفاع بعض قمم تلك الجبال فى بلاد القبايل الكبرى ٢٣٠٠ متر ويصل جبل بابور فى القبايل الصغرى الى ٥٩٠٠ متر . وتعتبر بلاد القبايل من اشد بلاد الجزائر كثافة بالسكان رغم وعورة مسالكها ، فتكاد القرى تلتصق فوق المنحدرات . ولا ينقطع اتصال العمران الا حين تفصلها وديان سحيقة ، لذلك قدر احد الرحالة الانجليز سكان هذه المنطقة سنة ١٨٥٤ بـ ٨٠٠ الف . ويشتهر سكانها بتمسكهم الشديد بأرضهم .

وكما أن وعورة مسالك هذه المنطقة قد جعلت منها الارض المختارة للثورة الجزائرية المعاصرة فى سنواتها الاولى ، فكذلك ســـاعدت البيئة الجغرافية تلك المنطقة على الاحتفاظ باستقلالها نحو سبع وعشرين ســـنة بعد استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر . وكان على السلطات الفرنسية أن تمهد الطرق قبل أن تفكر فى اقامة ثابتة ببلاد القبايل . ففى سنة ١٨٥١ قطع بلسيية المرحلة الاولى ، حين اقام حصنا على سفح جبال جرجرة فى تيزى أوزو . وعندما انتشر الدعاة الدينيون فى بلاد القبايل سنة ١٨٥٦ ، قرر الحاكم العام راندون احتلال المنطقة احتلالا ثابتا . وقد تكونت حملته على بلاد القبايل من عـــدد كبير من الجند الجزائريين الذين استخدمتهم فرنسا فى حرب القرم ، وذلك اثر انتهاء الحرب فى هـــذا العام ، فرأى الفرنسيون الفرصة مواتية كى يستخدموا الجزائريين بعضهم ضد بعض فى هذه العملية الشاقة . وقد استدعت حملة بلاد القبايل الكبرى حشـــد ٢٧ الف جندى سار بعضهم من حصن تيزى أوزو ، وسار البعض الآخـــر من جهة البحر . وفى ٢٥ مايو ١٨٥٧ سلمت أقوى الجماعات البربرية التى تسكن جرجرة ، وهى جماعة آيت راتن . وكانت شروط التسليم تنص على : أن يدفع الثـــوار غرامة قدرها مليون فرنك ، وأن تحتفظ القبايل بنظمها

الداخلية فى الادارة والقضاء • وانتهت مقاومة القبايل بتسليم احدى زعيمات المقاومة فى بلاد البربر وهى لالا فاطمة التى قادت قبيلة ايلتن فى ١١ يوليو ١٨٥٧ • وللمرة الاولى اقيمت الحصون الدائمة فى بلاد القبايل . وأهمها حصن نابليون (فور نابليون) الذى اصبح فور ناسيونال ، وحصن ذراع الميزان •

وبدخول بلاد القبايل اعتبر الفرنسيون ان عمليات الاخضاع قد انتهت ، بعد سبع وعشرين سنة من حروب مضنية ،ولكنها لم تكن نهاية المقاومة المسلحة •

٥

ثورة ١٨٧١

تم اخضاع الجنوب وبلاد القبايل دون احتلالها احتلالا عسكريا شاملا ، وكذلك ابقت فرنسا فى هذه المناطق على أجهزة الادارة الوطنية مع ادخال تغييرات طفيفة ، لذلك كان وجود سلطة الاحتلال متوقفا على ولاء الحكام الوطنيين • ومن الملاحظ ان الجزائر لم تخضع الا نتيجة القهر العسكرى . ولذلك تعرضت المناطق التى كان وجود فرنسا فيها ضئيلا لعدة قلاقل بعد سنة ١٨٥٧ • ومن أهم تلك الحركات ثورة ولد سيدى شيخ فى سنة ١٨٦٤ ثم ثورة المقرانى سنة ١٨٧١ اثر هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية • وقد قامت بتلك الثورة عناصر مختلفة بدأتها فرق السباهية ، وهى تتألف من جند جزائريين يعملون فى خدمة الجيش الفرنسى للمحافظة على امن البلاد الداخلى ، وذلك عندما رفضت احدى الفرق فى يناير ١٨٧١ النزول الى المراكب حيث تقرر استخدامها فى الحرب البروسية • وكانت انباء هزيمة فرنسا قد اخذت تتردد فى اوساط الجند • وسرعان ما ظهر صدى تلك الحركة بقوة فى بلاد القبايل ، حيث وجدت الثورة لها زعيما فى شخص محمد بن أحمد المقرانى • كما وجدت لها انصارا من بين اتباع الطريقة الرحمانية • وقد انتشرت هذه الطريقة فى بلاد القبايل فى الخمسينات من القرن ١٩ على يد الشيخ على الحداد ويعزى انتشارها الى انها كانت رد فعل لنشاط المبشرين الذين ركزوا جهودهم فى بلاد القبايل ظنا منهم ان اسلام البربر مازال سطحيا ، وانهم بالتالى بيئة اصلح للتبشير من البيئة العربية • وقد نجح الحداد فى التأثير على اتباعه الذين عرفوا بالاخوان الى حد ان

رابطة الطريقة اصبحت مقدمة على رابطة القبيلة واذن فقد كان الدين من بين عناصر الثورة الاولى (١) .

اما السبب المباشر للثورة فهو سقوط نابليون الثالث والاجراءات التى اتخذتها الحكومة المؤقتة بالنسبة للجزائر ، وما شاهده الوطنيون ابان هذه الأزمة من وقوع خلاف بين المستوطنين وحكومة باريس واستئثار المستوطنين بالسلطة فترة من الزمن .

وسنري فى الفصل التالى كيف ان نابليون الثالث حاول أن يرضى العناصر الوطنية ، لكن المستوطنين ضغطوا على حكومته عندما ضعفت فى السنوات الاخيرة والزموها باصدار تشريع فى سنة ١٨٧٠ ، يوسع دائرة المناطق الخاضعة للادارة المدنية . ومعنى ذلك الغاء أجهزة الادارة الوطنية . ولذلك كان اول من تأثر بهـــذا التشريع هم أبناء الاسر (الارستقراطية) والذين كانت الادارة العثمانية تعتمد عليهم ، ثم استمر الفرنسيون فى استخدامهم فى المناطق الخاضعة لنظام الادارة غير المباشرة . ويعد محمد بن احمد مقراني مثلا لهذه الطبقة من الحكام الوطنيين ، فقد عمل أبوه كخليفة لمنطقة المجانة قرب سطيف ، تحت الادارة الفرنسية .ثم خلفه ابنه محمد فى هذا المنصب بلقب باش اغا سنة ١٨٥٣ ، ومما زاد هذه الطبقة اسـ ءا ، تلك القرارات التى اصدرتها الحكومة المؤقتة فى ٢٤ اكتوبر ١٨٧٠ ، و لتى تحمل اسم واضعها كرميو ؛ لاسيما ذلك القرار الذى يمنح اليهود فى الجزائر صفة المواطن الفرنسى بكل ما يترتب عليها من حقوق ، حتى ان المستوطنين انفسهم استاءوا لمساواتهم باليهود ولكن الوطنيين كانوا أشد تأثرا ، وخاصة فى بلاد القبايل حيث يوجد بعض اليهود المنحدرين من أصل بربرى .

وعلاوة على ذلك صدر قرار آخر بادخال نظام المحاكم الفرنسية التى تأخذ بنظام المحلفين . ولما كان اليهود قد جنسوا فقد اصبح لهم نصيب بين مقاعد المحلفين وقد عبر المقرانى عن هذا الوضع قائلا « أفضل أن يحكمنى رجل سيف استخدم القوة ضدى وقهرنى . على ان يحكمنى هذا اليهودى » .

وكان محمد مقرانى قد قرر الاستقالة من خدمة فرنسا منذ أن صدر التشريع الخاص بتطبيق النظام المدنى . ولكن الحاكم العام مكماهون طلب اليه أن ينتظر حتى يطبق القانون . وكان ان سقط نابليون الثالث الذى يتمتع ببعض الشعبية فى الجزائر ، ثم اعلان الحكومة الجديدة عن سياستها .

---

(١) أصبح كتاب RINN عن ثورة سنة ١٨٧١ مرجعا تقليديا . ويمكن الاشـــارة الى كتاب لأحد الضباط الذين اشـــتركوا فى قمع الثورة . انظر Robin .

وفى هذه الاثناء توطدت صلة المقرانى بالشيخ الحداد . فقد زار الشيخ بمقره فى فبراير ١٨٧١ . وقيل انه اتفق معه حينذاك على الثورة ولكنه لم يعلنها الا فى اوائل مارس .

عمت الثورة أولا اقليم قسنطينة حيث تقع جبال القبايل ؛ ثم امتدت حتى اطراف سهل المتيجة غربا ؛ وبسكرة جنوبا . واصبحت تسيطر على ثلث اراضى الجزائر وعزلت جميع الحاميات الفرنسية فى المنطقة . وقدر عدد الذين اشتركوا فى هذه الثورة بنحو ١٥٠ الفا ، منهم ١٢٠ الفا من الاخوان الرحمانية .

ومع ان هذه الثورة صادفت ظروفا سيئة فى فرنسا ؛ الا ان عمرها كان قصيرا ، ذلك ان بسمارك ؛ لسياسة عليا اوربية ، راى ان يخفف وطاة الهزيمة عن فرنسا فاطلق عددا كبيرا من الأسرى ليساعدها على قمع ثورة الجزائر . ولسوء حظ الثورة وقع مقرانى صريعا فى المعارك الاولى ٢ مايو ١٨٧١ ولم ينته هذا الشهر حتى كان زعماء القبايل يفاوضون فى التسليم . وتبعهم الشيخ الحداد على راس طائفة الاخوان فى يوليو .

اما بومزراق المقرانى الذى خلف اخاه فى زعامة الثورة . فقد كان اشد مراسا . ظل يناضل حتى يناير ١٨٧٢ ، فبعد ان تم اخضاع القبايل انتقل الى الواحات الجنوبية فلما تتبعه الفرنسيون اليها خرج الى الصحراء مع من بقى من اتباعه واستمروا يتجولون فيها الى ان اهلكهم الجوع والعطش حتى التقطتهم دوريه فرنسية .

وقد كان لهذه الثورة نتائج بعيدة للجزائر عامة وبلاد القبايل خاصة . فقد شهدت اكبر محاكمة من نوعها فى ظل الاحتلال . وقد نظرت امام المحاكم الجديدة التى لعب فيها المستوطنون دور المحلفين مما ابرز صفتها الانتقامية . وقد هدفت الاحكام لضرب مثل رادع للوطنيين حتى لا تحدثهم انفسهم بأى ثورة اخرى . فصدرت احكام الاعدام على ستة آلاف من الثائرين ،ثم خفف الحكم عن معظمهم بالنفى الى جزيرة كاليدونيا الجديدة (وهى مستعمرة فرنسية فى جنوب المحيط الهادى) ومن بين هؤلاء بومزراق واسرة الشيخ الحداد .

ومن النتائج الهامة التى ترتبت على هذه الثورة فتح بلاد القبايل للاستعمار الاوربى وكان رؤساء القبايل قد سلموا فى مايو على عدة شروط ؛ من بينها نزع السلاح وتسليم المسئولين ودفع غرامة للذين اصابهم ضرر من الثورة . علاوة على غرامة الحرب (وحجز وضع جزء من املاك القبايل

الثائرة تحت الحراسة الى ان تسوفى تلك الغرامات) . ولكن وضع الاملاك تحت الحراسة كان بالنسبة للفرنسيين مقدمة لمصادرتها . وسنرى ان مصادرة املاك الثوار ليست مبدأ مستحدثا فى الجزائر .

وتختلف حالة بلاد القبايل عن الحالات التى طبقت فيها المصادرة من قبل ، لأن اهل المنطقة لم يتركوها اثر الثورة . بل على العكس سارعوا بالتسليم ، والى جمع الغرامة بالرغم من انها كانت باهظة حيث بلغت ٣٦ر٥ مليون فرنك ، وذلك حتى يتجنبوا المصادرة .

غير انه قد خاب أملهم . فقد قررت السلطات الفرنسية الاستيلاء على ٥٠٠ الف هكتار من اراضى القبايل دون تمييز ، وذلك توطئة لمنحها للمستوطنين الجدد .

تعتبر ثورة المقرانى نهاية المقاومة الوطنية المسلحة . فان الوسائل الوحشية التى اتبعت فى قمع الثورة . زادت من اليأس الذى اخذ يخيم على نفوس الوطنيين نحو نصف قرن . واذا استثنينا المناوشات فى الصحراء ، يمكن القول بان الحكم الفرنسى فى الجزائر قد شهد فترة من الهدوء حتى الحرب العالمية الاولى ؛ وانفسح امامه المجال لتنمية حركة الهجرة والاستيطان الاوربى .

وقد استكمل فى هذه الفترة اخضاع منطقة الصحراء عندما قام اولاد سيدى شيخ بانتفاضتهم الأخيرة سنة ١٨٨١ تحت قيادة زعيم يدعى بوعمامة ، فقد استغلت الادارة هذه الفرصة واقامت حاميات جديدة فى توغرت وورقلة . كما غيرت نظام الحماية المفروض على واحات الميزاب واعلنت ضمها فى سنة ١٨٨٢ . وعقدت السلطات الفرنسية اتفاقات مع قبائل الطوارق لتامين طرق التجارة .

ولم ينته القرن حتى كانت فرنسا قد احاطت بالصحراء من جهة الجزائر ومن جهة حوض النيجر .

واعتمدت السلطات الفرنسية على صداقة بعض زعماء الطرق ذوى النفوذ فى الصحراء . ولم يبق امام الذين يريدون الاستقلال عن الحكم الاوربى الا اللجوء الى الواحات الواقعة جنوب شرق مراكش . فكان ذلك من اسباب الصدام الاول بين فرنسا وبين الدولة المستقلة الباقية فى شمال افريقيا .

الفصل السابع

نظم الادارة والاستعمار

- ١ -

لقد تعرضت جميع البلدان العربية تقريبا لانواع مختلفة من سياسة التسلط (الامبريالية) الاوربية،ولكن المغرب شهد صورة عنيفة من صور التوسع الاستعماري الا وهي فتحه لحركة الهجرة والاستيطان الاوربية . فلم يكن الاوربيون في المغرب ممثلين في تلك الفئات المعروفة في المشرق العربي : جند الاحتلال او الموظفين الفنيين في الحكومة الوطنية أو رجال الاعمال ، بل مثلوا هناك بجميع طبقات المجتمع من ملاك اراضي وفلاحين يزرعونها بأيديهم وعمال . ومن هنا كانت كلمة استعمار تنطبق على المغرب بمعناها الفني الضيق . وقد ترك ذلك النوع من الاستعمار مشاكل معقدة في حياة المغرب المعاصرة ، وكان اكثرها تعقيدا مشكلة الجزائر ، حيث كان الاستيطان الاوربي اكثر عددا واوسع انتشارا . ذلك ان ظروف الجزائر اختلفت عن جارتيها في امرين هامين ، الاول : تقدم عهدها بالاحتلال ، والثاني : هو القضاء على كيان الجزائر كدولة منذ البداية .

اعتبرت الجزائر ارض أعداء محتلة تخضع للحكم العسكري ، ولم يوضع لها نظام ثابت الا في سنة ١٨٣٤ ، حين صدر مرسوم ملكي بتاريخ ٢٢ يوليو يعلن ان الجزائر (ممتلكات فرنسا الافريقية) وينظم حكمها على النحو التالي :

يمثل السلطة الفرنسية الحاكم العام . وهو يتبع وزير الحربية ويعاونه مجلس من كبار الشخصيات المدنية والعسكرية كل في دائرة اختصاصه ، ولهذا المجلس صفة استشارية ، فالحاكم العام هو الذي يقترح القوانين ويقدمها لوزير الحربية ثم تصدر بها مراسيم من السلطة التنفيذية في باريس . ويجوز في حالة الطوارىء ان يصدر الحاكم العام القوانين اللازمة لمواجهة الظروف . وله ايضا حق اصدار اللوائح . وقد توسع الحكام كثيرا في استخدام هذه الرخصة ومهما يكن من التغييرات والتعديلات التي ادخلت على نظام الحكم منذ ذلك الوقت وحتى قبل الثورة بقليل فانها لم تمكونها

تغييرا في الشكل · وبقيت روح هذا المرسوم سائدة في ادارة فرنسا للجزائر · وهي تنم عن طابع السياسة الفرنسية بصفة عامة ازاء المستعمرات · الا وهي النزعة الى تركيز السلطات بيد حكومة باريس ·

وفي بداية عهد الاحتلال لجأت السلطات الفرنسية الى الاستعانة بالشخصيات ذات النفوذ من العنصر الوطني ، سيما وان سياسة الاحتلال المحدود كانت تحتم عليها ذلك · ويدل على هذا الاتجاه مشروع كلوزيل الذي كان يقضي باستخدام اثنين من افراد الاسرة الحاكمة في تونس ، أحدهما لتولى منصب حاكم قسنطينة وآخر لوهران ، وقد حاول بورمون الاستفادة من النظم السائدة في العهد العثماني · فأبقى على منصب اغا العرب الذي كان له اهمية كبرى في ذلك العهد · فهو الذي كان يعتبر قائدا للقوات المحلية التابعة للحكومة · والتي كانت تستخدم لتثبيت السلطة العثمانية داخل الاقاليم · وقد اختار الفرنسيون لهذا المنصب احد سكان المدينة من طبقة التجار وهو حمدان امين السكة الذي اثبت عجزه تماما عن تأدية مهام منصبه · ومع أن الفرنسيين أدركوا هذا الخطأ وحاولوا تلافيه ، الا انهم لم يوفقوا في اخضاع القبائل بهذه الطريقة · ويمكن ارجاع ذلك الى سببين : ففي بعض الاحوال رفض الزعماء الوطنيون أن يؤدوا لدولة مسيحية نفس الدور الذي كانوا يؤدونه لدولة اسلامية كالدولة العثمانية · وفي احوال اخرى لم يتحمل الزعماء الوطنيون الادارة الاوروبية الدقيقة التي تختلف اختلافا بينا عن الادارة العثمانية المتميزة بعدم التدخل في حياة السكان الخاصة · ولذلك قل التعاون بين الزعماء الوطنيين وبين الادارة الجديدة · حتى نفذ الاحتلال الشامل وتم اخضاع الجزائر بقوة السلاح ·

غير ان الاحتلال الشامل لم يلغ حاجة الادارة الفرنسية الى الاستعانة بأجهزة الادارة القديمة في هذه الفترة الاولى من الاحتكاك ، حيث كان الحاكم يجهل نواحي الحياة المختلفة لدى المحكومين كما يجهل لغتهم حتى استخدم اليهود غالبا كحلقة اتصال لمعرفتهم باللغتين · ومنذ ان استقر الفرنسيون في الجزائر ظهر تياران متصارعان حول السياسة التي يجب اتباعها : التيار الاول يدعو الى اتباع نظام الادارة غير المباشرة ، والثاني يدعو الى سياسة الادماج · وقد استكمل نظام الادارة غير المباشرة نظمه في عهد نابليون الثالث · ولكن بعد أن تغيرت صورته عن ايام سياسة الاحتلال المحدود ، ففي هذه الايام كان الفرنسيون يرجون من وراء استخدام الوطنيين أن يستمدوا شيئا من نفوذهم · اما بعد اخضاع الجزائر فقد كان الهدف من الادارة غير المباشرة هو استخدام الرؤساء التقليديين من العنصر الوطني كمجرد اداة لتسهيل الادارة ·

فلما مضت اربعون سنة على احتلال الجزائر وانتشر الاستيطان الأوربى بها وسهل الاتصال بين الحاكمين والمحكومين . تغلب التيار الثانى : تيــار الادماج الذى يهدف الى محو شخصية الجزائر وطبعها بالطابع الفرنسى ، وهذه هى السياسة التى بدىء فى تنفيذها فى عهد الجمهورية الثالثة .

ظهرت فكرة الاستعمار منذ التفكير فى الحملة نفسها ، وبالرغم ممــا تعرضت لــــه من نقد ، فقد عمدت الحكومة الى تشجيع الهجرة الأوربية والاستيلاء على الأراضى الزراعية والأملاك العقارية ، بعد الاستيلاءعلىمدينة الجزائر بوقت قصير ، :

وكــــان كلوزيل من أكثر الحــــكام فى هــــذا العهد الأول تحمسـا لسياسة الاستيطان فقد بدأ حياته العملية فى الولايات المتحدة حيث رأى ما حققه الجنس الانجلو سكسونى فى هذه الاقاليم الشاسعة من مشروعات هائلة . فتوهم أن الجزائر وهى المأهولة بالسكان ذوى الحضارة العريقة يمكن ان تشبه بالقارة الجديدة التى كانت تسكنها اجنـــاس متاخرة مثل الهنود الحمر .

لذلك مهد لخططه باتخاذ عدة اجراءات . ففى ٨ سبتمبر ١٨٣٠ أصدر الاوامر بالاستيلاء على املاك الدولـــة (الدومين) ، وامــــلاك الحبوس (الأوقاف) المخصصة لاغراض دينية ، مثل تلك الموقوفــــة على الحج ، او لصيانة المساجد . كما حول امر الحراسة على أموال الأتراك الى مصادرة صريحـــة .

وهكذا انفسح المجال امام المهاجرين الاوربيين لاستغلال موارد البـلاد المقهورة ولكن المهاجرين الأوائل لم يشاءوا بذل الجهد للقيام باعمال الاستغلال النافع ، بالرغم من ان الأهالى اقبلوا على بيع املاكهم فى مدينة الجزائر ، حينما قرروا مغادرتها فرارا من حكم دولة مسيحية . فــكان المهاجرون يأتون لشراء هذه الأملاك للمضاربة عليها . ثم يعودون الى اوطانهم بعد ان يكونوا قد حققوا بعض المكاسب . ولذلك اقتصر نشاط المهاجرين على القيام بالأعمال المدنية فى مدينة الجزائر ، وخاصة وان جيش الاحتلال قد تطلب وجود خدمات جديدة مثل اقامة الفنادق والمشارب ووسطاء التموين .

ولما كان نصف الأهالى تقريبا قد غادروا مدينة الجزائر ، فقد تغيرت صورة عاصمة النيابة العتيدة بعد زمن قصير من احتلالها . وقد وصفها احد الرحالة الانجليز سير جرانفيل تمبل سنة ١٨٣٢ فقال « ان الجزائر لا تختلف

عن اى مدينة فرنسية فى كثره معاهيها وحاناتها وميادينها التى تعزف فيها الفرق الموسيقية (١) ٠

اما فى خارج المدينة حيث الأراضى الزراعية التى تمتلكها الادارة ، فقد ادرك كلوزيل أنه من الضرورى تدخل الحكومة اذا أرادت توطين الاوربيين فيها ٠ وفرنسا بلد زراعى لا يميل اهله الى الهجرة ثم انه لا يشكو من كثافة السكان مثل المانيا وبريطانيا التى اخرجت اعدادا ضخمة من المهاجرين لتعمير الولايات المتحدة ٠

لذلك لجأت الحكومة الفرنسية لوسائل غير طبيعية لارسال المستوطنين الى الجزائر ٠ وحدث فى سنة ١٨٣١ ان عددا من المهاجرين السويسريين والالمان كانوا بميناء الهافر ينتظرون السفن التى تقلهم الى الولايات المتحدة، فانزلتهم السلطات الفرنسية فى احدى السفن التى حملتهم قسرا الى الجزائر ٠ وانشأ لهم كلوزيل قريتين قرب العاصمة ولكنهما اندثرتا سريعا بوفاة معظم المهاجرين ٠

وقد اتيح لكلوزيل فرصة افضل لتنفيذ سياسته اثناء ولايته الثانية ١٨٣٥ ـ ١٨٣٦ ، ففى هذه الفترة انشأ اول مستعمرة زراعية أوربية فى بوفريك ، وهى أول محاولة لتطبيق ما يعرف بالاستعمار الرسمى ، ومعناه ان تتولى الدولة توزيع الأراضى على المهاجرين مجانا ، ومدهم بالمعونة المالية والفنية ، كتقديم الآلات الزراعية والحيوان حتى يتمكنوا من اعداد الأرض للزراعة ثم تصبح ملكا للمهاجرين بعد نجاحهم فى العملية ٠ ولما كان هذا النوع من الاستعمار يستدعى نفقات باهظة فقد كان دائما محل اعتراض مجالس النواب ٠ الا ان الحكومة الفرنسية التى ناصرت مبدأ الاستيطان رأت نفسها مضطرة لصرف الأموال الطائلة ، لأنها لاحظت ان (الاستيطان الحر) لم يأت بنتيجة ما ٠ ذلك أن المهاجرين الأوائل الذين ذهبوا الى الجزائر : بقصد استغلال اراضيها لحسابهم ، واجهوا صعوبات عديدة لتنفيذ اغراضهم ٠ مثل ملاءمة وسائل الزراعة المعروفة لديهم لجو الجزائر ، كما انهم كانوا يجهلون كل شىء عن طبيعة البلاد الى حد انهم ظنوا ان كل مستعمرة لابد ان تكون استوائية مثل المستعمرات الفرنسية فى البحر الكاريبى ، فتنتج لهم قصب السكر والبن ، اى المنتجات الزراعية التى لا تنمو فى فرنسا ٠ لذلك خاب املهم فى استعمار الجزائر ٠

ورغم ان سكان سهل المتيجة الخصيب ؛ كانوا يبيعون أرضهم بثمن

Blunt P. 37.

بخس حتى يتخلصوا من الاقامة فى المنطقة المحتلة ، فانه لم يزد عـــدد المستوطنين الاوربيين بهذا السهل على ثلاثة آلاف سنة ١٨٣٩ . وقد راينا ان الامير عبد القادر استاصل شأفتهم عندما استأنف الحرب مع فرنسا . فكان على بيجو ان يرسم سياسة استعمارية جديدة .

٢

وســـائل بيجو

لم يكن بيجو قائدا عسكريا استطاع كسب الجزائر لفرنسا فحسب ، بل كـــان ايضا صاحب منهج فى نظم الادارة والاستعمار ومن اشد انصار الاستعمار الرسمى . فما كـــاد يعيد الأمن الى جزء من البلاد حتى اقـام سنة ١٨٤٢ سبع قرى نموذجية . وقد اشتهر عنه قوله : « ان الفتح عملية مؤقتة لا تكسب صـــفة الدوام الا بالاستعمار واقرار العنصر الفرنسى فى البلاد المفتوحة » وكـان يرى ان الجندى هو أقدر الناس على تنفيذ سياسة الاستعمار الرسمى ، وذلك لسببين : أولا أن هذا النوع من الاستعمار تلائمة القرى الجماعية التى يشترك زراعوه فى الافادة من منتجاتها دون تحـديد للمساحة التى يملكها كل منهم ، والجندى بحكم طبيعة الحياة فى الجيش اطوع للحياة الجماعية . والسبب الثانى هو أن الجندى أقـدر على الدفاع عن مستعمراته خاصة فى هذا الوقت الذى لم يكن الحـــكم الفرنسى قد استتب بعد فى البلاد . ومع أن الاستعمار الرسمى ظل سائدا فى عهد بيجو واستمر بعده حتى تحققت معظم اهدافه ، الا ان فـكرة بيجو فى الاعتماد على العسكريين بالذات انتهت بالفشل الذريع . فمن بين ٨٠٠ جندى اغراهم بيجو بالعمل فى القرى الزراعية الجديدة لم يبق منهم سوى ٦٠ ، ورحل الباقى الى فرنسا بمجرد انتهاء خدمتهم .

ولكن بفضل الامتيازات الواسعة التى منحت للمهاجرين ، اخذ يعد على الجزائر عدد كبير من المدنيين الاوربيين ، فقفز عدد المستوطنين من ٢٨ الفا سنة ١٨٤٠ الى ١٠٩ آلاف سنة ١٨٤٨ . ومن بين هؤلاء ٥٢ الفا من الفرنسيين ، اى أن معظم المستوطنين كـــانوا ينتمون الى جنسيات أخرى ، وقد أتوا فى الغـــالب من الطبقـــات الدنيا فى بلدان البحـــر المتوسط مثل ايطاليا ومالطة واسبانيا . ويبدو أن نسبة الوفيات كـــانت مرتفعة بين الفرنسيين بالذات . وقد احتفظ الاسبان الذين كـانوا اغلبية

(١) V. Dementés la — colonisation Militaire Sous Bugeaud

ساحقة في وهران بكيانهم ولم يندمجوا في العنصر الفرنسي . ولم يكن هذا ليسوء الحكومة الفرنسية لأن الجنسيات الأوربية وان اختلفت في أوطانها ، الا انها تتضامن في مثل هذه الظروف حيث تقوى المصالح المشتركة الرابطة فيما بينها ، كما انها اعتبرت الدين المسيحي مقوما من مقوماتها داخل الجزائر .

ومهما كانت الهجرة كبيرة في ظل حكومة بيجو ، فهل كان عدد المستوطنين يبرر الاجراءات التي اتخذها للاستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية وحرمان اصحابها الشرعيين منها ؟ لم يكتف بيجو بأراضي الدومين والأوقاف التي صودرت من قبل . بل أصدر قوانين جديدة بالاستيلاء والمصادرة ، اهمها قانون سنة ١٨٤٥ الذي ينص على حق الدولة في مصادرة اراضي القبائل (العاصية) مثل تلك التي انضمت الى الأمير عبد القادر وقاومت الفرنسيين يوما ما . وبهذه الطريقة تم الاستيلاء على معظم الأراضي الزراعية (نصف مليون هكتار) .

وينص هذا القانون ايضا على الاستيلاء على اراضي العرش ، وهذه العبارة في مصطلح شمال أفريقيا ، تعني مراعي القبائل التي تستغلها على سبيل الانتفاع .

وفعلا كان لكل قبيلة مساحة من الأرض اعتادت الرعي فيها ، وقد لا تكون محددة بوضوح . وهي على كل حال ليست ملكا خاصا للقبائل .

ولا يميل الاوربيون الى الاعتراف بهذا النوع من الملكية الجماعية بالنسبة للجزائريين ، فاعتبروها من اراضي الدومين ، اى الأراضي الأميرية التي تملكها الدولة ، ولها حق الاستيلاء عليها ما لم تبرز القبيلة حججملكيتها بشرط ان تعود هذه الحجج الى ما قبل سنة ١٨٣٠ .

ووجد المستشرقون في الشريعة الاسلامية مبررا شرعيا لتأييد هذا القانون ففي الفقه الاسلامي أحكام تعرف باسم (أحياء الموات) وبمقتضى هذه الاحكام يجوز للسلطان وضع يده على الأراضي التي لا تستغل استغلالا كافيا ، رعاية لمصلحة الجماعة . وبما ان القبائل لا تستغلها استغلالا كافيا ، فللدولة التي حلت محل السلطان وضع يدها عليها .

واهتمام المشرعين الفرنسيين بالتوفيق بين قوانينهم وبين الشريعة الاسلامية أمر يستدعي التساؤل ، لماذا ابرزوا هذه الاحكام ؟ وتناسوا

ان الشريعة تضم احكاما اخرى تهدم اساس الحكم الفرنسي في الجزائر .

ويرجع ايضا الى حكومة بيجو تنظيم الادارة الفرنسية ، فقسمت الجزائر الى ثلاث مناطق تختلف في نوع ادارتها .

الاولى : تخضع لادارة مدنية تتبع نفس النظم السائدة في فرنسا . وتطبق في المناطق التي يكون فيها الاوربيون اغلبية : اي في المدن والمناطق الزراعية المجاورة لها .

والثانية : مناطق الادارة المختلطة وهي التي يسكنها اوربيون ويكونون فيها اقلية ضئيلة . وفيها تخضع الجالية الأوربية للادارة المدنية ، والجزائريون للادارة العسكرية .

والثالثة : المناطق العسكرية . التي لا يسكنها سوى العنصر الوطني وهي تمثل آنذاك الجزء الاكبر من البلاد . وفي هذا النوع الاخير ابقى الفرنسيون على انظمة العهد العثماني فكان يعاون الحاكم في كل وحدة ادارية من الوحدات الست التي قسمت اليها المنطقة العسكرية باش اغا . وهو الذي يتبعه القواد ، وتنقسم القيادة بدورها الى شياخات . وهذا ما يعرف بنظام الحكم غير المباشر .

ولكي تسهل الادارة وسائل الاتصال بين الحاكمين والمحكومين . اوجدت نظاما جديدا عرف بالمكاتب العربية ليكون حلقة اتصال بين الادارة الفرنسية وبين الجزائريين . وكان كلوزيل قد انشأ قسما خاصا الحقه بحكومته عرف باسم ادارة الشئون العربية . غير انه بعد ان اتسعت المنطقة المحتلة في عهد بيجو صار من المستحيل تركيز هذا القسم في العاصمة فقط ، فانشئت عدة مكاتب عربية في المراكز الداخلية حتى بلغ عددها ٢١ سنة ١٨٤٤ .

وفي فبراير من هذا العام صدر قنون بتنظيمها . فيتالف المكتب من ضابط برتبة ملازم ، وقاض عارف بتقاليد البلاد ، واثنين من الكتبة احدهما فرنسي والآخر جزائري . وقد بلغ عدد هذه المكاتب نحو ٤٠ بحيث اصبح تقريبا في كل قيادة مكتب عربي يشرف على تحصيل الضرائب وفض المنازعات بين السكان (١) .

---

(١) انظر موضوع المكاتب العربية في بحث مستقل لـ

Germain, Rouger : la politique indigéne de Bugeaud

تردد بيجو فى اختيار نوعية الوطنيين الذين يعاونون الادارة الفرنسية فمال اولا الى اجتذاب شخصيات كبيرة من رجال الطرق الصوفية او اقارب الخلفاء الذين عينهم الأمير عبد القادر : تشجيعا لروح الخيانة بين الأسر ، ولما ضعفت مقاومة الأمير استغنى بيجو عن بعض هؤلاء القادة وفضل استخدام شخصيات عادية ترضى بتولى ادارة عدد محدود من الدوارات « فروع القبائل » ثم استقر الراى فى نهاية عهد بيجو ولفترة طويلة على استخدام ابناء الاسر التقليدية التى خدمت فى العهد العثمانى وهى التى سميت على سبيل التجاوز ـ بالارستقراطية الوطنية • وخلاصة القول انه مهما اختلف فى اختيار نوعية الوطنيين للمكاتب العربية او للادارة غير المباشرة ، فقد كان هناك اتفاق على أن الجزائريين الذين يختلفون عن الفرنسيين فى كل شىء لا يمكن ان يتبعوا الادارة المدنية بمحاكمها ذات الاجراءات المعقدة التى تتبعها المحاكم الفرنسية • وحتى فى المدن الساحلية التى دمغت بالطابع الفرنسى ، استبعد السكان الأصليون من التبعية للقضاء الفرنسى فأخضعوا لمحاكم خاصة يديرها عسكريون فرنسيون والواقع ان هؤلاء العسكريين لم يكن بينهم الا القليل الذى أهتم بالتعرف على أحوال البلاد الاجتماعية • ومن ابرز هذه القلة الضابط المشهور لاموريسيير •

وقد كانت المكاتب العربية محل هجوم عنيف من المستوطنين الذين اتهموا الضباط سوء استعمال السلطة وبتآمرهم مع القواد الجزائريين الذين اشتهروا بالادارة الفاسدة • واذا كان صحيحا ان هؤلاء الجزائريين الذين تعاونوا مع الادارة الفرنسية قد اتصفوا بسوء الادارة ، فليس هذا دليلا على عجز الجزائريين عن ادارة أنفسهم كما ادعى المستوطنون وانما يرجع السبب فى هذا الى سوء اختيار الفرنسيين للقواد والمشايخ وتركهم دون مرتبات ، بينما اباحوا لهم ان يأخذوا بدلا عنها نسبة معينة على الضريبة التى يجبونها وعلى الغرامات التى من حقهم فرضها على السكان •

كما ان الدافع الحقيقى الذى (1) جعل المستوطنين يهاجمون المكاتب العربية ليس هو تعسفها بالسلطات المطلقة التى منحت لها ، بل لأن هذه المكاتب كانت تحول دون تغلغل الاستعمار الى المناطق العسكرية ، لا حماية للسكان ولكن لأن الضباط كانوا يخشون على ضياع السلطات المطلقة التى يتمتعون بها ؛ فادعوا انهم يفعلون ذلك حماية لصالح السكان الاصليين •

ويمكن اعتبار هذا النزاع بين المستوطنين وبين المكاتب العربية مظهرا آخر من مظاهر التنافس بين السلطات المدنية والعسكرية الذى لازم الحكم الفرنسى فى الجزائر واحتدم فى عهد الامبراطورية الثانية •

---

(1) Yacono : Les bureaux arabes ...

٣

سياسة الجمهورية الثانية

تمثل الجمهورية الثانية فى فرنسا ١٨٤٨ ـ ١٨٥١ مرحلة هـــامة فى تاريخ استعمار الجزائر • فبعد قيامها بشهر اى فى مارس سنة ١٨٤٨(١) صدر قانون الضم ، الذى يجعل من الجزائر جزءا من الأراضى الفرنسية ويقسمها الى مديريات ثلاث مكملة للوحدات الادارية فى فرنسا • وقد ترتب على هذا المرسوم نتائج هـــامة فصار للمستوطنين حق التمثيل فى برلمان باريس باعتبارهم يعيشون فى أرض فرنسية • وباتت المصالح المختلفةتتبع الوزارات المختصة بها فى باريس • وقد استمر هذا المرسوم معمولا به ، ويمثل شبه عقيدة للحكومات الفرنسية المتوالية حتى بعد ان طرأت تغيرات هامة على العـــالم بعد الحرب العالمية الثانية ورسخت أقدام الحـــركة الوطنية الجزائرية • وبذا صار يمثل عقبة كأداء فى سبيل التوصل الى اتفاق بالطرق السياسية •

اما من حيث الهجرة والاستيطان فقد رسمت الجمهورية خـــطة لنقل ٢٠٠ الف مستوطن الى الجزائر واعتمدت مبلغ ٥٠ مليون فرنك لتنفيذ المرحلة الاولى من عمليات الهجرة • ولا شك ان الأوضاع الداخلية فى فرنـــا هى التى حفزت الحـــكومة على اتخـــاذ هذه الخـــطوة غير مأمونة العواقب . ذلك أن الجمهورية كانت قد وعدت العمال عند قيامها بانشاء مصانع اشتراكية طبقـــا للنظم التى دعـــا اليها الزعيم الاشتراكى لوى بلان ولكن سرعان ما تبين استحالة تطبيق النظم الاشتراكية فى ذلك الوقت لأنها لم تكن مذهبا متكاملا . وتحولت هذه المصانع الى تكايا ، وحاول العمال أن يقلبوا النظـــام الجديد بعد قيام الجمهورية بخمسة أشهر فلم تجد الحكومة وسيلة للتخلص منهم أفضل من ترحيلهم الى الجزائر •

وهذه الدوافع فى حد ذاتها تعتبر من أسباب فشل الخطة ، فلم يكن العمال بقادرين على أن ينتقلوا دفعة واحدة من المدن الفرنسية الى الريف الجزائرى • ولم تستطع الحكومة أن تدبر لهـــذه الهجرات الكبيرة وسائل المعيشة والانتاج كما وعدتهم - كما انها اتخذت من الجزائر حقلا لتجـــارب المذاهب السياسية والاجتماعية التى انتشرت فى ذلك الوقت فشرعت فى انشاء المزارع الجماعية مجاراة لأدىء الاشتراكيين • ولكن مثل هذا النوع من المزارع يستدعى رعـــاية شاملة •

---

(١) Julien ; Ch. Histoire de l'Algérie contemporaine (1827 — 1871)

وهكذا بلغ مجموع المهاجرين الزراعيين الذين نقلتهم الجمهورية خلال السنوات الاربع ٨٠ الفا ، ولكن لم يستقر من هؤلاء سوى ١٥ الف . ولم تحقق الجمهورية هدفها الرامي الى نشر الاستيطان الزراعي فى الريف فلم يزد عدد المستوطنين الزراعيين على ٣٠ الفا من بين ١٣١ الفا سنة ١٨٥١ .

٤

موقف نابليون الثالث

اتسمت السياسة الجزائرية لنابليون الثالث بالتقلب . فقد مال في الغالب الى تأييد فريق العسكريين ، وبالتالى الى تحديد المناطق التابعة للادارة المدنية ، ثم اتجه فترة قصيرة الى سياسة الادماج حين انشأ وزارة خاصة بالجزائر وعين عليها اخاه جيروم والغى وظيفة الحاكم العام ، الا ان هذه السياسة لم تستمر سوى سنتين من سنة ١٨٥٩ ــ سنة ١٨٦٠ ، فالغيت الوزارة واعيد منصب الحاكم العام . وافتتح نابليون الثالث فى الستينات سياسة جديدة تهدف الى حماية اراضى السكان الأصليين ، وانتهى منها الى فكرة المملكة العربية على نحو ما سنرى .

ويصف الكتاب الفرنسيون نابليون الثالث بشعور العداء نحو المستوطنين ويعزون ذلك الى معارضتهم له فى استفتاء التعديل على الدستور الذى جرى سنة ١٨٥٢ . ومع ذلك لم توقف حكومة نابليون الثالث حركة الاستيطان الأوربى . وانما حاولت أن تنظمها تنظيما جديدا بعد أن ثبت فشل سياسة الجمهورية الثانية . فشجع الاستيطان ومنح الامتيازات للجمعيات الراسمالية الكبيرة التى نمت فى عهد الامبراطورية الثانية .

وفى ٢٦ ابريل سنة ١٨٥١ صدر قانون هام لتنظيم تملك الاراضى وهو يعتبر حلا وسطا بين فكرة الاستعمار الرسمى والحر ، اى الذى يترك للأفراد مسئولية تملك الأراضى بالشراء والاستغلال . فلا يلغى القانون مبدأ منح المستوطن الارض مجانا ، ولكن يشترط تملكه لمبلغ معين يستطيع به المساهمة مع الحكومة فى نفقات اصلاح الاراضى . ولا تثبت ملكية الأرض الممنوحة نهائيا الا بعد الاقامة فيها ثلاث سنوات وبعد أن يثبت المستوطن قدرته على البقاء والاستغلال . وتتراوح القطع التى تمنح للمهاجرين فى ظل هذا القانون من ٢٠ الى ١٥٠ هكتارا (١) وظل هذا القانون سائدا

(1) Piquet : La colonisation d'Algérie

حتى سنة ١٨٦١ ، اذ اتجهت الحكومة الى منح الاراضي المستولى عليها الى جمعيات رأسمالية كبيرة في نظير تعهد هذه الجمعيات بتنفيذ مشروعات هامة كانشاء السدود أو تعبيد الطرق ، كما ان بعض هذه الجمعيات اخذ عليها تعهد لنقل عدد من المستوطنين الأوربيين .

ومن اكبر الجمعيات التي استفادت من سياسة الامبراطورية الثانية، جمعية جنيف التي منحت امتيازا لاستغلال ٢٠ الف هكتار ، والجمعية الجزائرية العامة التي منحت ١٠٠ الف هكتار ، كما حصلت جمعية الغابات على امتياز لاستغلال الغابات الجزائرية مدة ٩٠ سنة في مساحة قدرها ١٦٠ الف هكتار . ولم تستطع معظم هذه الجمعيات تنفيذ شروطها ، فبالنسبة لترحيل السكان كانت تفضل اليد العاملة المحلية في الزراعة لانخفاض أجورها وكانت تتبع معهم نظام المخامسة ، اي يترك للعامل خمس المحصول أو ما يساويه نقدا ويئول الباقي الى الجمعية صاحبة الامتياز .

واذا كانت هذه الجمعيات قد ساعدت في هجرة عدد آخر من المستوطنين فان ذلك كان من اجل تنفيذ المشروعات الانشائية التي استدعت وجود عمال فنيين . ومن جهة اخرى لم تستطع هذه الجمعيات أن تستغل جميع الأراضي الممنوحة لها ، فلم تستغل الجمعية الجزائرية العامة سوى ٣٥ الف هكتار . كما ان جمعية الغابات باعت امتيازها إلى ثلاثين مستوطنا مما ترتب عليه تحويل منفعة عامة كالغابات الى ملكيات فردية وظهور الملكيات الزراعية الكبيرة في الجزائر .

وبينما استولت الجمعيات الرأسمالية على هذه المساحات الشاسعة ، انتفع نحو ١٣ الف من صغار ومتوسطي المستوطنين الأوربيين بقانون سنة ١٨٦١ فآلت اليهم ملكية نصف مليون هكتار في مدى عشر سنوات . وكان من نتيجة الامتلاك المفاجيء لهذه الاراضي الشاسعة أن عجز الاستعمار الأوربي بالرغم من التسهيلات التي منحت له عن استغلال اكثر من سبع هذه المساحة كما جاء في تقرير لجنة التحقيق التي ارسلها مجلس الشيوخ للجزائر سنة ١٨٦٢ (١) . وعلاوة على هذا لاحظت اللجنة وجود ٩٠٠ الف

---

(١) ويلاحظ من الارقام المذكورة ان الاراضي الزراعية في شمال افريقيا شاسعة جدا ، ولكن يجب ان يؤخذ في الاعتبار قدرة الهكتار على الانتاج عند مقارنتها بالمساحات المزروعة في مصر مثلا .

هكتار اخرى تملكها الحكومة آلت اليها اما عن طريق المصادرة أو انتقال ملك الدومين اليها سنه ١٨٣٠ ولم تمنحها لاحد من المستوطنين • هذا عدا الأراضي التي انتقلت الى يد المستوطنين عن طريق الشراء الحر • وتحتل هذه الملكيات الفرنسية أخصب بقاع الجزائر • ولذلك ترى اللجنة انه يمكن الاستمرار في منح الأراضي او بيعها دون الحاجة الى مصادرة جديدة من السكان الأصليين •

وكذلك أوصى التقرير بضرورة اصدار تشريع جديد لحماية ملكية القبائل • واستجاب مجلس الشيوخ لهذا التقرير ، واصدر تشريعا سنة ١٨٦٣ يقضي بتثبيت ملكية القبائل وذلك بتحويلها من ملكية جماعية الى ملكية فردية على مرحلتين : اولا تحديد مساحة القطعة الخاصة بكل دوار ، وهو القسم الأصغر من القبيلة ، وثانيا توزيع هذه المساحة على الأسر التي تكون الدوار •

وقد اتم نابليون الثالث هذا التشريع بمرسوم صدر في ديسمبر ١٨٦٤ يحرم نظام المنح الحكومية للمستوطنين ، ويجعل الشراء الحر هو الوسيلة لانتقال الملكية في الجزائر (١) وبذا وضع نابليون حدا لسياسة الاستعمار الرسمي •

٥

قام نابليون بزيارتين للجزائر خلال عامي ١٨٦٠ ، ١٨٦١ ، واتصل هناك ببقايا الأسر الوطنية العريقة • وقيل انه اعجب بروح الفروسية العربية التي كانت ما تزال تصارع من اجل بقائها • وقد عبر نابليون الثالث عن آرائه في كتيب صغير أصدره عن الجزائر ، خرج فيه بفكرة جديدة : الا وهي أن الجزائر بجانب كونها ارضا تحتلها فرنسا ، فهي مستعمرة أوربية ومملكة عربية • والمقصود بفكرة المملكة العربية أن الجنس العربي جنس نبيل له مميزاته الخاصة وانه يستحق الرعاية من الامبراطور مثل الفرنسيين • وهو يمكن ان يكون نواة مملكة عربية ترتبط بفرنسا في شخص الامبراطور •

---

(١) تناولت كثير من المراجع الفرنسية موضوع استعمار الجزائر ونشير فيما يلي الى أهمها :

(1) Piquet (2) Baudicourt (3) Roberts

بالاضافة الى الجزء الثاني من مجموعة هانوتو عن تاريخ المستعمرات الفرنسية • (انظر ثبت المراجع) •

وتمشيا مع هذه الفكرة شجعت حكومة نابليون الثالث الادارة غير المباشرة في المناطق العسكرية وبلاد القبايل . وقاومت الحاح المستوطنين في الغاء المناطق العسكرية واخضاع الجزائر كلها للنظام المدني وبالتالي لحرية الاستيطان والتملك . وقد لوحظ ان الادارة غير المباشرة انتهت الى تقوية نظام القبيلة عند البربر ، لأنها عمدت الى تنظيم مجلس القبيلة ويعرف بالجماعة وجعلته بديلا عن المجالس البلدية في المناطق المدنية فوضعت شروط انتخاب الأمين او رئيس الجماعة بواسطة جميع الذين يدفعون ضريبة الراس ، ويجدد انتخابه كل ثلاث سنوات ، كما انشىء منصب أمين الأمناء ليمثل مجموعة من القرى وينتخبه الأمناء انفسهم .

وتنظر الجماعة او مجلس القبيلة في تحديد ضريبة الراس ، والفصل في القضايا المدنية التي تأخذ بالعرف عند البربر . وفي تحديد الغرامات عن المخالفات الخلقية او الجنح ؛ لأن الجرائم من اختصاص المكاتب العربية . واذا اختلفت جماعتان ، كانت السلطات الفرنسية تعين شخصا من ذوي الهيبة يتولى مهمة التوفيق في المكتب العربي .

وبجانب المحافظة على شخصية الجزائر في هذه المناطق اراد نابليون الثالث أن يفتح امام الجزائريين باب المواطنة الفرنسية . وبالتالي الحصول على الحقوق وتحمل الواجبات التي تفرضها عليهم هذه المواطنة . وفي يونيو ١٨٦٥ صدر تشريع يحدد الوضع الجديد للجزائريين . فهم يعتبرون جميعا رعايا فرنسيين يخضعون في الخارج لحماية قناصل فرنسا ، ولكن لا يستمتعون بنفس حقوق المواطنين الا بمقتضى شروط اهمها أن يتبع الجزائري ، سواء كان مسلما ام يهوديا ، في الاحوال المدنية ، القانون الفرنسي . ويتنازل بذلك عن قانون الأحوال الشخصية الاسلامي . قيل لأنه يسمح بتعدد الزوجات . والمواطنة الفرنسية اسمى من أن تمنح لمن يمارس تلك العادات (المتأخرة) وبمقتضى هذا التشريع تفتح جميع الوظائف بما في ذلك سلك الجيش أمام الجزائريين المتجنسين .

وظن نابليون خطأ انه اسدى للعنصر الوطني خيرا ، والوقع أن اليهود وحدهم هم الذين استفادوا من هذا التشريع ، لأنه من السهل عليهم اعلان انفسهم تابعين للقانون المدني الفرنسي . اما المسلمون فلم يطلب منهم الا عدد ضئيل جدا التحول اليه (٦٠٠ حتى سنة ١٨٩٠) (١) . كذلك لم يستفد الجزائريون من قانون سنة ١٨٦٣ الخاص بحماية ملكيتهم ، ولم يفهموا توزيع الملكية على الأفراد على انه تثبيت لها . وعلى كل فقد تلكات الادارة الفرنسية في تطبيق هذا التشريع .

---

(١) Roberts Vol. P. 204.

على أن غضب المستوطنين على سياسة نابليون الجزائرية كان اظهر ، لأن هؤلاء استطاعوا ان يسجلوا أفكارهم بمجرد أن انتهى حكم الامبراطور . ورغم عدم قدرتهم على استغلال ما لديهم حينئذ من أملاك واسعة ، فان الجشع جعل المستوطنين ينظرون بعين القلق الى تثبيت ملكية الجزائريين ، وقالوا ان العرب ليسوا فى حاجة الى الأرض لأنهم لا يعرفون كيف يستغلونها ، فان العربى ينتج سدس ما ينتجه الأوربى فى نفس المساحة . وطالبوا بأن تضع الدولة يدها على جميع أراضى العرش التى لا يستطيع أصحابها ابراز حجة ملكية لها ترجع الى ما قبل سنة ١٨٣٠ . وكذلك سخط المستوطنون على تغلب العسكريين على الادارة فى الجزائر ، وكان هذا طبيعيا لأن حكومة نابليون نفسها كانت تعتمد على الجيش . لهذا تولى الرجال العسكريون الحكومة العامة فى الجزائر مثل الجنرال بلسيبه من سنة ١٨٦٠ – ١٨٦٤ ، ومكماهون من سنة ١٨٦٤ – ١٨٧٠ . وقد استجابت السلطات الفرنسية رغم هذا لرغبة المستوطنين فتباطأت فى عملية احصاء الملكيات الجزائرية تمهيدا لتثبيتها . وكان عليها ان توزع مليون و ٣٣٦ الف هكتار على الدوارات (١) . واحتجت بأن العملية شاقة وتستدعى وقتا طويلا .

كانت نتائج الاستعمار فى الجزائر حتى سنة ١٨٧٠ تافهة . ويؤكد هذا ان الجزائر لم تصدر الى فرنسا سوى كميات ضئيلة من القمح والحبوب مع أن الوحدة الجمركية قد تقررت بين الجزائر وفرنسا منذ سنة ١٨٥١ لكى تسهل للمستوطنين بيع منتجاتهم . ولكن نظرا للتكاليف التى اقتضاها الاستعمار لم تستطع منتجات الجزائر أن تنافس مثيلاتها فى فرنسا وقد ظلت الجزائر وعملية استيطانها عبئا على الميزانية الفرنسية حتى اضطرت فرنسا الى منح الاستقلال المالى للبلاد سنة ١٨٩٦ تخلصا من هذه النفقات . وحتى الدخل الضئيل الذى كانت تقدمه الجزائر للادارة الفرنسية كان يرد معظمه من السكان الأصليين ، وحسب تقدير الرحالة الانجليزى كوك (٢) سنة ١٨٥٤ بلغت نفقات جيش الاحتلال ٢٫٥ مليون جنيه بالاضافة الى ٧٠٠ الف تكلفتها الادارة المدنية وعمليات الاستيطان ، وهذا المبلغ يوازى ٦٠ مليون فرنك فى حين بلغت ايرادات الجزائر ٣٠ مليون فرنك ، أدت القبائل منها ١٥ مليون كضرائب عادية ، أما الباقى فقد حصل اما من المبالغ التى كانت تدفعها الشركات فى نظير امتيازاتها او من الغرامات التى كانت تفرض على القبائل الثائرة .

---

(١) Cooke

(٢) Piquet. P. 82

اما من حيث هجرة السكان فان عدد الاوربيين ازداد اثنــاء عهـد الامبراطورية الثانية من ١٣١ الف سنة ١٨٥١ الى ٢٩٥ الف سنة ١٨٧٠ ، الا انها اعتبرت ضئيلة فى نظر المتحمسين لاستعمار الجزائر . كذلك لوحظ ان التفاوت بين عدد الفرنسيين والاوربيين من الاجناس الاخرى أخذ يتسع ، فمن بين الـــ ٢٩٥ الف مستوطن اوربى لم يزد عـــدد الفرنسيين على ١٣٠ الفا . وقد ظل عدد الوفيات مرتفعا بالنسبة للمواليد بين الاوربيين حتى سنة ١٨٥٦ . ويقدر عدد من لقى حتفه من المستوطنين بـ ١٥٠ الفا فيما بين سنة ١٨٣٠ ، ١٨٧٠ . وهو عدد مماثل للذين قتلوا من الفرنسيين فى الاشتباكات العسكرية فى نفس المدة (١) .

وهكذا نتبين الى اى حد عاندت الادارة الفرنسية الحقائق الطبيعية ومصلحة فرنسا الاقتصادية نفسها من اجل تحويل الجزائر الى مستعمرة استيطان ، وطرد سكانها الأصليين نحو اقليم الصحراء . وقد لاحظ أحد الرحاله الانجليز الذين زاروا الجزائر سنة ١٨٥٤ أن السلطات الفرنسية بعد أن صادرت المساحات الشاسعة من الأرض وعجزت عن استغلالها ، دعت أصحابها لكى يعودوا للعمل فيها كأجراء ولكنهم كانوا يرفضون . فأضاف ذلك عاملا جديدا لاضعاف الانتاج (٢) .

ولم يكتف المستوطنون الاوربيون بعرقلة تنفيذ التشريعات التى كانت تهدف الى اقرار ملكية الجزائريين . بل انهم عارضوا أيضا محاولات بعض المكاتب العربية تعليم الاهالى الوسائل الحديثة للزراعة . واذن فان الوسائل التى اتبعت لتحويل الجزائر الى مستعمرة استيطان كـــانت الى حد كبير مسئولة عن وقوع مجـــاعه كبرى خلال عامى ١٨٦٨ ، ١٨٦٩ ، والتى راح ضحيتها ٣٠٠ الف شخص حسب التقدير الرسمى الفرنسى وهو اقل بكثير من الحقيقة . ومما يثبت صحة استنتاجنا هو ان معظم الذين ماتوا جوعـــا لقوا حتفهم اثناء محاولة العودة من الاقـــاليم المجدبة الى السهول الشمالية الخصيبة التى طردوا منها . وكان قد سبق هذه المجاعة بضع سنين انتشار وباء الكوليرا الذى اصاب عددا كبيرا من الســكان الاصليين وهم المنتجون الحقيقيون فى البلاد . ويرتبط بهذا الحــادث المؤسف ازدياد نشاط الحركة التبشيرية التى تحمس لها الأب لافيجرى اسقف الجزائر فى ذلك الوقت . فقد انتهز هذه الفرصة وجمع الأطفال الذين فقدوا عائليهم وجعلهم يشبون على دين آخر غير الدين الذى كـان على آباؤهم . ومن هؤلاء الجزائريين الكاثوليك كون الاب لافيجرى طبقة جديدة من المبشرين عرفت بالآبا البيض وانتشرت فى بلاد البربر .

---

(١) Roberts Vol. I. P. 77.

(٢) Cooke P. 44

اما الحكومة الفرنسية فانها بدل أن تقوم بعمل حاسم كارسال المؤن فتجنب البلاد الكارثة بعثت بلجنة من مجلس الشيوخ للتحقيق في اسباب المجاعة . وقد انتهت هذه اللجنة الى اقرار المستوطنين على رأيهم من ان عجز العرب عن استغلال الاراضي اسى يملكونها هو الذى تسبب فى وقوع المجاعة ، ومن ثم فان التشريعات التى سبق اصدارها سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٥ تعد ضارة بمصالح الجـــزائر .

وبنـــاء على هذا التقرير الغت نفس حكومة الامبراطور نابليون الثالث التشريعات التى سنتها قبل ذلك بسبع سنين لحماية ملكية الجزائريين . ولكنها لم تعش بعد هذا الالغاء سوى عدة أشهر وتمهد السبيل امـــام الجمهورية الثالثة لتمارس السياسة الاستعمارية الجديدة على أوســـع نطـــاق .

٦

سياسة الجمهورية الثالثة . ذروة الاستعمار ١٨٧٠ ـ ١٩١٤

كـــان طبيعيا ان يرحب المستوطنون بسقوط الامبراطورية ، فراحوا يتخلصون من ممثلى السلطة العسكرية الذين اعتبروهم حماة العنصر الوطنى ، فطرد الحـــاكم العسكرى استرهازى . ودلت بعض تصرفاتهم على وجود فكرة الاستقلال الذاتى ان لم يكن الانفصال عن فرنسا او طلب الحماية من بريطـــانيا والولايات المتحدة . اذا عجزت فرنسا عن صد الغزو البروسى المحتمل (١) ثم عمدوا الى تأليف مجلس دفـــاع وطنى واختاروا أحدهم وهو فلبرموز لتولى السلطة العليا فى البلاد . بيد أن هذا الاتجاه الانفصالى لم يستمر طويلا بسبب وقوع ثورة المقرانى سنة ١٨٧١ وشعر المستوطنون بحاجتهم الى مساعدة فرنسا . ثم مسارعة الحكومة المؤقتة فى باريس الى اصدار التشريعات التى ترضى المستوطنين . وقد عهدت الى كرميو اليهودى بسن هذه التشريعات ؛ وباستثناء قانون تجنيس اليهود جاءت قوانين كرميو الاخرى ملتقية مع رغباتهم . ومن اهمها اعادة تشـــكيل المديريات الثلاث وتبعيتها للحـــكم المدنى ، وفصل القيادة العسكرية عن وظيفة الحـــاكم العام وحكام المديريات (Prefet) . وانشاء مجـــالس العمالات او المديريات على نمط المجالس المعروفة فى فرنسا . ومن هذه الاجراءات ايضا انتخاب المستوطنين لممثلين عنهم فى الجمعية الوطنية . وانشـــاء مجلس استشارى للنظر فى الشئون الخـــاصة بهم .

---

(١) Robin P. 51

وتنم هذه الاجراءات عن اتجاه الجمهورية الثالثة نحو سياسة الادماج، وهي التي سادت من سنة ١٨٧١ ـ ١٨٩١ . فلما استنفذت اغراضها عادت الجمهورية الى تطبيق سياسة الاستقلال الادارى . ومن اهم أهداف سياسة الادماج فتح اراضي الجزائر كلها للاستعمار الأوربى بعد انكماش المناطق العسكرية وجعلها مقصورة على الصحراء والواحات . ففى السنوات الأولى التى تلت قيام الجمهورية ، انصرف هم الحكومة الى نقل اعداد كبيرة من المهاجرين ولا سيما من الفرنسيين لتحقيق التوازن بين العنصر الفرنسى وبقية العناصر الاوربية الاخرى ، ثم الى الاستيلاء ومصادرة الأراضي الجديدة لاغراء هؤلاء المهاجرين بالثروة التى لا تتوفر لهم فى اوربا .

ولا شك ان نظام الاستعمار الرسمى كان ملائما لسياسة التوسع فى الهجرة ، وجعل الهجرة ذات طابع ديمقراطى ، اى تفضيل صغار الملاك الذين يعملون بأيديهم فى ملكياتهم على الملاك الاقطاعيين . وقد رأينا كيف ان مثل هؤلاء المهاجرين يحتاجون الى معونة دائمة من الحكومة . ومما يذكر أن فرنسا خصصت جزءا كبيرا من الغرامة الحربية التى دفعها الثوار فى حركة المقرانى للانفاق على عمليات الهجرة والاستيطان التى نشطت منذ سنة ١٨٧١ .

وتعد الفترة ما بين سنتى ١٨٧١ـ١٨٨١ أنشط فترات الهجرة، فقد ارتفع عدد المستوطنين من ٢٤٦ ألفا ، الى ٣٧٦ ألفا ، اى بمعدل ١٣ الفا سنويا . ولم ينجح الفرنسيون فى هذه الفترة فى تغليب عنصرهم على العناصر الأوربية الأخرى بالرغم من سنوح فرصة للهجرة الفرنسية لم يوجد لها نظير من قبل، فانه بعد ضم الألزاس واللورين الى المانيا فى معاهدة فرانكفورت ترك عدد من سكان هاتين المقاطعتين ديارهم ، لانهم فضلوا ان يعيشوا فى ظل النظم الديمقراطية الفرنسية ، ووجدت الحكومة الفرنسية فى الجزائر المهجر الطبيعى الذى تستطيع ان تعوض به أهل الألزاس واللورين عما فقدوه من أملاك ، فنظمت لهم مراكز زراعية ، ورحلت على نفقتها ١٠٨٣ أسرة منهم ، ولكن لوحظ فيما بعد أن ثلث هؤلاء المهاجرين فقط استقروا فى الجزائر بينما عاد الباقون الى فرنسا .

وقد سبق ان أشرنا الى الظاهرة الاجتماعية التى تسود فرنسا والتى تصرف أهلها عن الهجرة الى الخارج كما هى الحال بالنسبة لكل مجتمع زراعى ، خاصة وان فرنسا بلد مخصب ولا تحدث به مجاعات كتلك التى تعرض لها سكان ايرلندا عند وقوع ازمة فى زراعة البطاطس . بل لوحظ أن كثيرا من الفرنسيين الذين هاجروا آثروا الاستقرار بكندا وأمريكا الجنوبية ، ومعظم الذين اتجهوا الى الجزائر كانوا من سكان الجنوب

ولم تعـــان فرنسا أزمة من تكاثف السكان . بل على العكس لم يزد سكانها منذ ١٨٧١ الا بقدر مليونين على مدى ٧٤ سنة فقد كان فى سنة ١٨٧١ (٣٩ مليون) وبلغ سنة ١٩٤٥ ، ٤١ مليون ، .

وهكذا احتفظ الاوربيون من الاجناس الاخرى بأغلبية فى الجزائر الى ان تدخلت فرنسا بواسطة التشريع سنة ١٨٨٩ ، فحاولت ادماج الأوربيين فى الجنسية الفرنسيه من جهه . والحد من هجرة العناصر غير الفرنسية من جهة اخرى . ويقضى مرسوم ســـنة ١٨٨٩ بأن كل مولود أوربى فى الجزائر يحمل اصلا الجنسية الفرنسية ما لم يطلب عند بلوغه سن الرشد الاحتفاظ بجنسيته الاصلية .

ويتبين من الجدول الآتى (١) ، كيف ان الميزان تحول فعلا الى جانب العنصر الفرنسى بعد سريان هذا المرسوم بعدة سنوات ؛ مع مـــلاحظة ان هذا الاحصاء يعتمد على البيانات الرسمية الفرنسية . وهى مغرضة اذ انها قد تقلل من عـــدد الجزائريين ، .

Roberts Vol. 1, P. 230 S.q

السنة	الجزائريون	الفرنسيون	الاوربيون ويدخل ضمنهم	اسبان	ايطليون
١٨٨١	٥/٢مليون	١٢٩ر٦٠١ منهم ٣٣٠٠٠ يهودى جزائرى	١١٥ر٥١٦ منهم	٧١ر٣٦٦	١٨ر٣٥١
١٨٩١	٢ر٩٠٠٠٠٠	١٩٥ر٤١٨ منهم نحو ٣٥الف يهودى جزائرى	١٨١ر٣٥٤ منهم	١١٤ر٣٢٠	٣٣ر٦٩٣
١٩٠١	٤ر٤٧٧ر٧٨٨	٤٤٩ر٤٢٠ منهم ٦٤ر٦٤٥ يهودى	١٩٢ر١٩٨ منهم	١٤٤ر٣٢٨	٣١ر٩٢٧
١٩١١	٤ر٧١١ر٢٧٦	٥٦٢ر٩٣١ منهم ٧٠ر٢٧١ يهودى	١٨٩ر١١٢ منهم	١٣٥ر١٥٠	٣٦ر٧٩٥

هذا ولم نشأ ان نعتبر اليهود من بين الجالية الفرنسية لانهم ظلوا اقرب فى معاشهم وتقاليدهم الى الجزائريين ، ولم ينجح التجنيس القانونى فى ادماجهم اجتماعيا فى البيئة الفرنسية ، كذلك احتفظ الاسبان والطليان بتقاليدهم الخاصة . بل ان تركز الطليان فى قسنطينة قرب تونس جعلهم يشعرون بتضامن مع مواطنيهم خارج الجزائر ، وبذا لوحظت عليهم نزعة سياسية انفصالية لم يوجد نظيرها لدى اسبان وهران . الا أنه لما كان التعليم فى المدارس الحكومية باللغة الفرنسية ، فقد اخذ الاوربيون ينسون تدريجيا لغاتهم الأصلية ويشكلون مع العنصر الفرنسى جماعة لها طابع خاص ، لا هو بالجزائرى ولا بالفرنسى . واصبحت هذه الجماعة تعتقد بأن الجزائر هى وطنها الطبيعى فسموا انفسهم احيانا بالجزائريين . ولم يظهر المستوطنون تعصبهم للقومية الفرنسية الا عندما شعروا بتزايد قوة العنصر الوطنى .

أما السكان الأصليون فعرفوا عند المستوطنين بدينهم أى بالمسلمين واطلق عليهم فى ذلك العهد وصف المسلم الفرنسى وذلك تثبيتا للخطأ القائل بانه ليس للجزائريين صفات مميزة .

ومع أن قوانين الهجرة كانت تشترط امتلاك المهاجر لمبلغ معين من المال الا ان هذا الشرط لم تكن ينفذ فعلا ، ولذلك عاد مرسوم سنة ١٨٧٨ فتشدد فى الشروط اللازمة لحصول المستوطن على الملكية الزراعية ، ومن بينها انفاق المستوطن لـ ١٩٠ فرنك على الاقل لكل هكتار ، وبقاؤه فى الارض لمدة خمس سنوات . وقد رفعت هذه المدة الى عشر ثم الى عشرين سنة ١٩٢٤ . ويقدر متوسط ما تكلفته الاسرة من مهاجرى الالزاس واللورين

بـ ٢٦٨ جيها سريبي . كمـــ قدرت اللجنة البرلمانية التى ارسلت سنة ١٨٩٢ تتحقيق في شئون الاستعمار - أن متوسط ما تكلفه المستوطن الأوربي هو ١٥ الف فرنك . ولذلك نصحت بالعدول عن نظام الاستعمار الرسمي (١) .

وكما ان قسما كبيرا من الراى العام الفرنسى لم يقر حكومته عـــلى الأموال الطائلة التى انفقتها في حرب الجزائر ، علما منهم بأن ذلك انمـا يخدم مصلحة المستوطنين الخـــاصة - فكذلك فعلت الأحزاب اليسارية في فرنسا ابان الفترة التى ندرسها - فتزعمت حركة معارضة قوية في البرلمان ضد سياسة الاستعمار الرسمي التى يقع عبؤها على دافعي الضرائب دون أن تتحقق من وراء ذلك مصلحة عامة - ويدل على ذلك أن البرلمان رفض سنة ١٨٨١ مشروعا باعتماد ٥٠ مليون فرنك للتوسع في استعمار الجزائر .

ولم يكن شراء الأراضي في الجزائر هو الذى رفع نفقات الاستعمار . فان الاستعمار الحر الذى يقوم على الشراء الفردى من السكان الاصليين . لم يمارس الا على نطاق ضيق حتى بعد أن وضعت جميع التسهيلات للشراء الحر سنة ١٩٠٤ - من ذلك طرح الاراضي التى يراد بيعها للمزاد العلنى . والقيـــام بجميع وسائل الاعلان الممكنة عنها - وانما تحولت ملكية معظم الاراضي الزراعية الى أيدى المستوطنين اما عن طريق ما استولت عليه الادارة الفرنسية من اراض مصادرة ، أو متخلفة عن حصر القبائل . واما عن طريق استخدام الحيل القانونية لاغتصاب املاك الأسر الوطنية - وفي سنة ١٨٧١ كان لـــدى الادارة الفرنســـية ٢٠٠ الف هكتار ، اضيف اليها الـ ٥٠٠ الف التى صودرت بعد ثورة المقرانى سنة ١٨٧١ ؛ ومع ذلك لم تكتف فرنسا بهذه المساحة الشاسعة ؛ بل أصدرت مرسوما في يونيو ١٨٧٣ ينص على تطبيق نظام الملكية العقارية السارى في فرنسا على الجزائر - وكـان واضحا ان الغرض من هذا هو استغلال احدى مواد قـــانون الملكية التى تنص على آنـــه للشريك في ملكية عقارية الحق في ان يطالب شركاءه بتحديد ملكيته والا الزمهم ببيعها - وكان مفهوما أن تطبيق هذه المادة سيتيح للمستوطنين والمضاربين على الاراضي وسائل التحايل لسلب الجزائريين املاكهم ، فمن السهل أن يغرى هؤلاء واحدا فقط من افراد عشيرة ما ببيع نصيبه ولو بثمن مرتفع . ثم يأتى الشريك الجديد فيطالب بتحديد ملكية كل فرد من افراد العشيرة . وهذا يقتضى تسجيلها في المحاكم الفرنسية .

ولما كانت مصاريف التسجيل باهظة . مع ضآلة مساحة انصبة الافراد في الغالب . فقد كان الأمر ينتهى دائما باستيلاء المضارب الاوربي على قطعة

---

(1) Jaurnal oficiel, doc. Senatorial 1893 Rapport Bardeau

الأرض . ويضرب لنا تـاريخ الاستعمار مثلا حيا على هذه الحيل ، ففى وهران اشترى احد المضاربين نصيب جزائرى فى قطعة ارض تبلغ مساحتها ٢٩٢ هكتارا ، ويشترك فى ملكيتها ٥١٣ شخصا . وحتى يسجل جميع هؤلاء ملكياتهم كان عليهم ان يدفعوا ١١٠٠٠ فرنك للادارة الفرنسية ، وهو مبلغ يتجاوز قيمة الأرض فى ذلك الوقت ، وانتهى الأمر باستيلاء المضارب على القطعة كلها بمبلغ ٨٠ فرنك (١) .

وحتى يوسع الفرنسيون المنطقة التى يطبق فيها مرسوم سنة ١٨٧٣ ، مدوا الاراضى المدنية حتى شملت جبال الاطلس . واقتصرت المناطق العسكرية على الواحات الجنوبية . ومن المعروف ان أهم ما تمتاز به الأراضى المدنية عن العسكرية ، هو حرية التعامل على الأراضى دون قيد ، بتلك الطريقة انتقل نحو ٤٠٪ من ملكيات الجزائريين الى أيدى الأوربيين . وانتشرت المراكز الاستعمارية فى مناطق لم تشهدها من قبل مثل وادى الشلف فى وهران والصمان وسطيف ، وبلغ مجموع ما أنشىء من قرى أوربية ٢٦٤ فى مدى عشر سنوات .

ولم تنج مراعى الأطلس الجنوبية من استغلال المستعمرين ، أما الغابات فقد اعلنت ملكا للدولة ، واصبحت الادارة الفرنسية تستغل منتجاتها واهمها اعشاب الحلفاء لحسابها الخاص . وقد استنكر بعض الفرنسيين انفسهم تحايل المضاربين على سلب الاراضى ، فبعد أن نشر تقرير اللجنة البرلمانية المشار اليه استطاعت الجمعية الوطنية أن تسن تشريعا جديدا بتحريم بيع قطعة من الارض بناء على طلب فرد واحد من ملاكها ، وانما يباح ذلك فقط اذا كانت القطعة مسجلة من قبل ، ولا ينكر ان بعض الجزائريين قد استفادوا من تسجيل ملكياتهم وخاصة فى قسنطينة حيث يشتهر بتمسكهم الشديد بارضهم .

أما من حيث الوضع الادارى فقد طالب المستوطنون بالادماج بشرط أن يطبق عليهم وحدهم وعلى الجزائرين حين يكون ذلك فى مصلحتهم . فبالاضافة الى انتخاب ممثلين عن المستوطنيين بواقع ثلاثة نواب عن كل اقليم من اقاليم الجزائر ونائب فى مجلس الشيوخ انشئت لهم مجالس اقليمية فى من المديريات الثلاث كانوا ينتخبون فيها ممثليهم حسب قوانين المجالس المماثلة فى فرنسا . كذلك تأسست المجالس البلدية والقروية فى الجزائر على نمط نظيراتها فى فرنسا ونظمت بقانون سنة ١٨٨٤ وقد ميز القانون بين منطقتين .

---

(١) I bid Rapport Burdeau P. 262 S.Q.

فى الشمال حيث اقيمت هذه المجالس تبعا لتوزيع السكان الاوربيين بحيث يمكن تبرير قصرها على العنصر الأوربى او اعطائه اغلبية ساحقةفيها، وتمارس المجالس فى هذه المناطق نفس الاختصاصات التى تمارسها فى فرنســـا . وقد وصفت فى الجـــزائر بأنها البـــلديات كـــاملة السلطه Commune de Pleine Exercice وتتولى هذه المجالس انتخاب رئيس البلدية او القرية ، وتقوم بالاشراف على شئون الأسرة والخدمات الاجتماعية وتسجيل الأطفال بالمدارس .

ورغم هذا التحيز فى اختيارتوزيع المجالس ، فقد لوحظ أن ١٧مجلسا فقط من بين ٤٤ فى وهران كـــانت تمثل مناطق اغلبية أوربية (١) .

اما فى الجنوب حيث يقل العنصر الاوربى ، وفى معظم المناطق لا يمثل وجوده سوى موظفى الادارة الفرنسية ، فقد تقرر ان يكون نصف اعضاء المجالس البلدية والقروية من الاوربيين ونصفهم الآخر من السكان الاصليين ، ولا ينتخب هؤلاء رئيس البلدة ، بل يعين الحـــاكم العام الرئيس من بين الأوربيين ووكيله من بين الســـكان الاصليين لينظر كل منهما فى شئون ابناء جنسه . وتعرف هذه المجالس باسم Commune mixte

بلغت سياسة الادماج اقوى مراحلها منذ ان صدر مرسوم الحاق الجزائر اداريا بفرنسا سنة ١٨٨١ ، وهو المرسوم الذى ظل معمولا بـــه حتى سنة ١٨٩٦ . وبمقتضاه اصبحت كل ادارة فى الجزائر تابعة للوزارة المختصة بباريس ، وكـــان الحاكم العام يركز جميع الادارات فى يده قبل سنة ١٨٨١ ، كذلك كف الحـــاكم العام عن جمع السلطة المدنية والعسكرية باستثناء مناطق الجنوب الصحراوية التى احتفظت بنظامها فلم يتغير عما كان عليـــه فى عهد الامبراطورية الثانية .

الا ان هذه المركزية الكاملة فى نظام الادارة كـــانت محل نقد شديد من المتخصصين فى شئون الاستعمار . لانهم رأوا ان تصريف شـــئون الجزائر فى باريس يعرض مصالح الاستعمار للروتين الحكومى ، ولذلك كان من اهم التوصيات التى قدمتها اللجنة البرلمانية المذكورة آنفا ، العودة الى نظـــام اللامركزية ، وهو يعنى عند هؤلاء اعطاء الحاكم العام والمستوطنين سلطات أوسع ، فهى بالتـــالى خطوة رجعية من وجهة نظرا الجزائريين . وقد اخذت الحكومة بهذه التوصيات فاتخذت عدة اجراءات متوالية لاعطاء

(١) Piquet P. 242.

الادارة الفرنسية في الجزائر نوعا من الاستقلال الذاتي ، وتشتمل هذه الاجراءات على (١) :

اولا : مرسوم سنة ١٨٩٦ الخاص باعادة الادارات المختلفه الى سلطة الحاكم العام ، وقد استثنى من هذه الادارات ، الخزانة والجمارك العامة ، التي تعتبر امرا مشتركا بين فرنسا والجزائر ، وكذلك القضاء والشئون الدينية بالنسبة للاوربيين فقط وذلك ضمانا لفصل السلطة القضائية عن الادارة من جهة ، وانفصال الكنيسة عن الدولة من جهةاخرى. اما بالنسبة للمسلمين فقد اصبح من المستحيل فصل مؤسساتهم الدينية بعد ان صادرت الدولة الحبوس الموقوفة عليها فظلت تحت اشراف الحاكم العام . فمن المفارقات اذن ان تستقل الكنيسة عن الدولة الفرنسية بينما تبقى المؤسسات الدينية الاسلامية تابعة لهذه الدولة ، ومن بينها المحاكم الشرعية في حين ان المحاكم الفرنسية تمتعت بمبدا استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية .

ثانيا : انشاء مجلس الوفود المالية التي تمثل المصالح الاقتصادية في الجزائر سنة ١٨٩٨ Les—delegations financiéres ويتالف هذا المجلس من ٢٤ عضوا عن المستوطنين الزراعيين و ٢٤ عن الاوربيين من اصحاب الحرف والصنائع ، ويمثل السكان الأصليين ٢١ بينهم ٩ عن البربر ، وينتخب الأوربيون ممثليهم كل ٦ سنوات بالاقتراع العام ، اما السكان الأصليون فيتولى اعضاء المجالس البلدية انتخاب ممثليهم . ولسنا في حاجة لان ننوه بالتعسف الناتج عن اعطاء الاغلبية الساحقة في هذا المجلس للأقلية الأوربية ، لان ممثلي السكان الاصليين كانوا على كل حال من أتباع الادارة الفرنسية وممن تتفق مصالحهم معها . وعلاوة على كل هذا فان سلطات المجلس كانت محدودة ، فهو يستطيع أن يبدى اقتراحات في ميزانية الجزائر ، ولكن الجمعية الوطنية في باريس هي التي تصدرها . أما اختصاصاته الاخرى فهي عقد القروض ، ومنح امتيازات الأشغال العامة . وتعتبر موافقته ضرورية لفرض الضرائب . وطبيعي ان يكون هذا المجلس هو الاداة القوية في يد الراسمالية الاستعمارية . وهو الذي عرقل زمنا طويلا ادخال الضرائب العقارية وضريبة الدخل الى الجزائر .

وقد اعترض المستوطنون على تضييق اختصاصات المجلس . ولذا صدر اجراء ثالث لارضائهم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٠٠ ، وهو الخاص

(١) Hanotaux Vol. II. P. 434 5. 9.

بفصل ميزانية الجزائر عن فرنسا ، وبمقتضاه تخصص الايرادات المحلية للصرف على الجزائر نفسها · وقد قسمت هذه المصروفات الى نفقات اجبارية تشمل الادارة وتسديد القروض والمرتبات والحرس الوطنى والمؤسسات الاسلامية · فلا يجوز انقاصها او زيادتها الا بعد موافقة مجلس الوفود · اما نفقات الدفاع ومشروعات السكك الحديدية فقد بقيت عبئا على الحكومة الفرنسية · ولما كانت الطبقة صاحبة الثروة العظمى فى الجزائر من بين الاوربيين معفاة من معظم الضرائب كما رأينا ، فقد ترتب على فصل ميزانية الجزائر عن فرنسا ان اصبحت الاولى محتاجة دائما الى قروض · وقد توسع الحاكم العام جونار فى عقد القروض مع الحكومة الفرنسية لانه كان مهتما بالمشروعات الانشائية · وكان متوسط ما تكلفه الجزائر لفرنسا سنويا ٤١ مليون فرنك منذ سنة ١٨٨١ · ولكن بعد فصل ميزانية الجزائر اصبحت القروض تفى بالقسط الأكبر من هذه التكاليف ، بل انها مكنت حكومة الجزائر من تكوين اموال احتياطية هامة · وهكذا ارتبطت مصالح الاستعمار بالراسمال الخاص الذى قدم القروض بفوائد ·

ويتضح مما سبق أن المستوطنين تطلعوا ــ بعد أن اكتملت سيطرتهم على البلاد ــ الى الاستقلال الذاتى · وقد حدث أن ظهرت تلميحات بالانفصال حينما كانت مصالحهم تتعارض ومصلحة الوطن الام · ففى سنة ١٩٣٠ وقعت ازمة توزيع النبيذ فطالب النواب بعدم دخول النبيذ الجزائرى الى فرنسا ، فذكر المستوطنون بأن انفصال الولايات المتحدة عن بريطانيا تم لعوامل اقتصادية تتمثل فى ضريبة الشاى ·

٧

احوال السكان الوطنيين

بلغ الاستعمار الأوربى ذروته فى الفترة ما بين ١٨٧٠ ــ ١٩١٤ فتمت سيطرة المستوطنين خلالها على ثروات البلاد وعلى ادارتها · وتحطمت اركان المجتمع الجزائرى سواء كانت القبيلة ام الهيئات القيادية فى المجتمع التى تعتمد على الاصل او المال او الزعامة الدينية ، وتحول معظمهم الى عمال لخدمة الراسمالية الاستعمارية · ومن الطبيعى أن يقترن بهذا البؤس المادى انتشار الجهل · فأوشكت الثقافة العربية على الاندثار · ويلاحظ ان بقية

حملة هذه الثقافة لم يظهروا الا فى المدن الجنوبيه حيث تخف وطـــأة الاستعمار (١).

وقد انتهى هذا الوضع الى اعتقاد المستوطنين بتفوقهم العنصرى ، وايجــاد تبرير فلسفى لاحتفاظهم بامتيازاتهم السياسية والاجتمـــاعية والاقتصادية . فوصفوا العرب بانهم جنس غير قابل للتعليم
L'arbe est Une Raceın éduquable

واعترف *هانوتو احـــد المؤرخين المتخصصين فى شئون الاستعمـــار بان الادماج قد طبق لصالح المستوطنين . وانــــه من المستحيل ادماج عنصر السكان الأصلى فى البيئة الفرنســـية اجتماعيا وثقافيا لأسباب تاريخية وروحية . وقال ان تطبيق نظـــام الادارة والقضاء الفرنسى عليهم لا يدل ابدا على ان هذه الحواجز قد تخطيت .

واذن فقد شهدت الجزائر نوعا من سياسة التفرقة العنصريه . يدل على ذلك ان القليل من الجزائريين الذين تجنسوا حسب تشريع سنة١٨٦٥. بل حتى الذين اعتنقوا الكاثوليكية ، لم تتغير نظرة المستوطنين اليهم فسموهم بالمسلمين الكاثوليك ، ورفضوا أن يكونوا اغلبية فى المجالس المحلية المشتركة ، وهذا يدل على أن كلمة مسلم فى ذهنهم لا تعنى دينا معينا . بل تعنى ذلك الجنس المحتقر ، جنس السكان الاصليين .

وقد ظهرت آثـــار السياسة العنصرية فى جميع نواحى الحياة ، فمن حيث المشاركة فى الادارة المحلية ، كـــان تمثيل العنصر الوطنى ضئيلا ، ففى مجالس المديريات كـــان يتم اختيار ممثلى الجزائريين بواسطـــة التعيين . وحين اخذ بمبدأ انتخاب المسلمين لمجالس المديريات سنة ١٩٠٨، نص على أن يتم الانتخاب بواسطة المجـــالس البلدية بشرط الا يزيد عن ٦ اشخاص ، أو عن الربع بعد اصلاح سنة ١٩١٩ . وبالنسبة للمجالس البلـــدية كان الجزائريون ينتخبون واحـــدا عن كل الف شخص وبشرط الا يزيد ممثلوهم ابدا عن ٦ اشخاص أو الربع . وبعد اصلاح سنة ١٩١٩ زيد الى ١٢ وبحيث لا يتجـــاوز الثلث (٢) ولا يجـــوز انتخاب رئيس البلدية Le-mere او نائبه من بين الجزائريين حتى وان كان

---

(١) يعد كتاب توفيق المدنى عن الجزائر من افضل المراجع لوصف احوال الوطنيين فى هذه الفترة .

(٢) وهذا التمثيل على ضـــآلته لم يكن له قيمة تذكر فقد كانت الادارة تختار اشخاصا من المعروفين بولائهم حتى سماهم زملاؤهم الاوربيون سخرية بينى وى وى ـ اى أصحاب كلمة نعم دائما .

متجسا • اما فى المجالس المختلطة محدودة السلطة فيمكن أن يصل عدد الجزائريين الى النصف • وان يكون من بينهم نائب الرئيس • وقد ابقى الفرنسيون الى جانب المجالس البلدية نظام الجماعة فى بعض المناطق • ولكنه اندثر خلال هذه الفترة باضمحلال القبيلة كوحدة (١) •

وفى القضاء انتزع الفرنسيون تدريجيا اختصاصات المحاكم الشرعية وحولوها الى محاكمهم المدنية • ففى سنة ١٨٤١ نزع منها اختصاص الجنح والجنايات ، ثم نزع حق النظر فى شئون الملكية فى عهد الجمهورية الثالثة • واصبح من حق المتخاصمين فى جميع الأحوال أن يرفعوا شكاواهم الى محاكم المصالحات التى تنظر فى الشئون المدنية والتى تأسست فى الجزائر سنه ١٨٥٤ • وفى بلاد البربر اعترفت السلطات الفرنسية بمجلس الجماعة على أن يطبق العرف البربرى ، ثم انتزعت منه هذا الاختصاص ايضا سنة ١٨٧٤ وكان الفرنسيون يعتقدون أن البربر سيكونون أطوع من العرب للقوانين المدنية الفرنسية لأنهم يطبقون فى حياتهم المدنية العرف القبائلى ويتغاضون احيانا عن نص الشريعة • والحقيقة أن كل مجتمع فى العالم الاسلامى حاول ان يلائم نفسه مع الشريعة الاسلامية ما امكن ، ولم يكن فى اعتقاد اى منها أن عرفه اسمى من الشريعة المقدسة •

وبعد صدور قانون الحاق الجزائر بفرنسا اداريا أخضعت جميع المحاكم الشرعية لوزارة العدل فى باريس ، ثم للحاكم العام منذ سنة ١٨٩٦ • وليس ادخال القوانين الحديثة فى الشئون المدنية امرا غريبا فى ذاته ، لان كثيرا من الدول الاسلامية المستقلة استعانت بهذه القوانين بمحض اختيارها • ولكن الظاهرة الشاذة فى الجزائر هى أن الأشخاص الذين نيط بهم القضاء بين الجزائريين كانوا ينتمون الى جنس لا يؤمن بتساويهم فى الحقوق مع الجنس الذى قهرهم وساكنهم • وكان يختار للقضاء فى الجزائر بعض خريجى الحقوق المحدثين الذين لم تؤهلهم كفاءتهم للخدمة فى فرنسا •

ويعترف المشرع الفرنسى بأن الاجراءات المعقدة فى القوانين المستحدثة قد عرضت الجزائريين لاستغلال المحامين ،ولكن الادارة حين طالبت بتغيير نظام القضاء واستبداله بقضاء خاص بالسكان الاصليين تتوفر فيه سرعة الفصل ، انما كانت تريد من وراء ذلك استخدام القضاء كوسيلة رادعة فى يد الادارة • وقد استجابت الحكومة الفرنسية الى هذه المطالب فانشأت محاكم سمتها بالمحاكم الردعية Tribunal Repressif لتقوم مقام

---

(١) المدنى ٢٧٧ وما بعدها •

محاكم الدرجة الاولى بالنسبة للجزائريين . كما انها احلت المحاكم الجنائية محل محاكم الجنح في جميع ما يختص بمخالفات الجزائريين ، وكاد هذا التعسف يحدث ثورة وطنية حيث هاجم الجزائريون مزرعة فرنسية وقتلوا سكانها سنة ١٩٠١ ؛ لولا ان الاستعمار كان فى عنفوان قوته فى ذلك الوقت . فلم يتجاوز الامر هذا الحادث الفردى .

اما من حيث الضرائب فقد راينا كيف ان الحكومة الفرنسية قد أعفت المستوطنين من ضرائب الدخل والتركات التى كانت قائمة حينئذ بعرنسا ، ولم يكن من المعقول ان تفرض عليهم اى نوع من الضرائب وهى ما زالت تقدم لهم المساعدات المالية . اما بالنسبة للجزائريين فقد استبقت الادارة الفرنسية النظام العثمانى وهو جمع زكاة العشور من الاراضى الزراعية وهى تقدر بعشر المحصول او ٥٪ منه حسب نظام الرى طبقا للشريعة الاسلامية . كما يشمل هذا النظام ضريبة الثروة الحيوانية وضريبة الرءوس التى طبقت بصفة خاصة فى بلاد القبايل . ولم يعف الفرنسيون سكان الواحات من الضريبة التى تؤخذ على النخيل رغم فقرهم ، وعلى فرض وجود هذه الضرائب أثناء الحكم العثمانى كزكاة شرعية ، فان حلول حكومة اجنبية فى البلاد يعفى السكان شرعا من دفع هذه الضريبة اذا طبقنا نفس المنطق .

ومما يدل على فداحة هذه الضرائب بالنسبة للقيم المتعارف عليها فى ذلك الوقت ، انه عندما تقرر الغاء ضرائب العشور سنة ١٩١٨ وفرض ضريبة موحدة على المستوطنين والجزائريين هبطت قيمة ما كان يدفعه الجزائريون من ٩ مليون الى ٢ر٥ مليون فرنك سنويا .

وقد اصطلحت الادارة الفرنسية على تسمية مجموعة القوانين التى تسرى على الجزائريين بصفة خاصة Code de L'indiginat وهى عبارة عن عدة استثناءات تتحول بمقتضاها اختصاصات السلطات القضائية الى السلطة الادارية ورفع بعض الضمانات عن حرية الافراد . واهم هذه الاستثناءات هى (١) :

سلطة الحاكم العام فى توقيع العقوبات دون محاكمة من اجل المحافظة على الامن العام .

والاخذ بمبدأ المسئولية عند وقوع جناية فى حى من الاحياء اوقبيلة من القبائل .

---

(١) Piquet P. 299 S.Q.

والسماح للادارة بحبس الأشخاص أو مصادرة أملاكهم دون حكم قضائى . وكذلك وجوب حمل الجزائريين لترخيص خاص اذا ارادوا التنقل بين أقاليم الجزائر المختلفة .

ثم اخيرا توسيع سلطة قاضى المصالحات ، ومنحها لمدير البلدية فى حالة عدم وجود قاض ، فيجوز له الحكم بالغرامة على السكان الأصليين . وقد عدد القانون الاستثنائى أسبابها فذكر منها على سبيل المثال التلفظ بعبارات معادية لفرنسا ، ورفض السخرة أو العمل فى المزارع الأوربية اثناء الحصاد ، او احداث اى نوع من انواع الشغب او مخالفة التقاليد المهذبة كالبصق فى الطريق العام . وبعض المخالفات الاخرى مثل عدم الاذعان لأوامر القواد (العمد) ، والتأخر فى دفع الضرائب ، وعدم تسجيل المواليد والوفيات وفتح المدارس الدينية بدون اذن . وقد استكملت هذه التشريعات شكلها النهائى سنة ١٨٩٧ ثم أخذت تسقط تدريجيا بعد الحرب العالمية الأولى حتى انمحت فى الثلاثينات .

اما بالنسبة للتعليم فتروى بعض المصادر الفرنسية الحديثة تلك التى وضعها مؤلفون (١) يساريون كيف ان نسبة التعليم بين الوطنيين هبطت فى ظل الاستعمار الفرنسى هبوطا شديدا ، وكانت بورجوازية المدينة قبل سنة ١٨٣٠ تهتم بتعليم ابنائها حتى بلغت نسبة المتعلمين بينهم ما يضارع النسبة فى فرنسا أو تزيد . ولم يستفد الوطنيون من قوانين التعليم الاجبارى والمجانى التى صدرت فى فرنسا سنة ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ ، اذ طبقت على ابناء المستوطنين وحدهم . كذلك اعتبرت جامعة الجزائر التى تأسست فى أوائل القرن جامعة فرنسية بحتة ، تكاد تقتصر على ابناء المستوطنين .

هذا فضلا عن محو معالم الثقافة العربية وجعل اللغة العربية لغة أجنبية تختار من بين اللغات الاخرى كلغة ثانية فى المدارس الثانوية .

وبينما كان الفرنسيون يفرقون هذه التفرقة الصارخة فى الحقوق بين الاوربيين والجزائريين ، اذ ببعضهم يشكو من أن الادارة لا تسوى بين الجنسين فى الالتزامات ، ويعنون بذلك الخدمة العسكرية الاجبارية . وحتى سنة ١٩١٢ كان انخراط الجزائريين فى الجيش الفرنسى يتم بناء على عقد عمل فردى ، وبهذه الطريقة تكونت فرقة القناصة للجزائريين التى استخدمت فى الحروب الاستعمارية فى افريقيا .

---

(١) A. Nouchi : L'Algérie passé et present

وفي هذا التــاريخ سنة ١٩١٢ قررت الجمعية الوطنية الخــدمة العسكرية الاجبارية على الجزائريين بصفتهم رعايا فرنسيين · ومع أنهـا اخذت بمبدأ البدل المالي الا انــه لم ينتفع سوى عدد قليل جــدا من الجزائريين بهذا المبدأ لانتشار الفقر بينهم · وكان لهذا القرار صــدى عنيف بين الجزائريين الى حد ان هاجرت على اثره جماعات متلاحقة من وهران الى الشام · ولما كــان هذا القرار قد صدر قبيل اعلان الحرب العالمية الأولى بزمن قصير ، فقد دفعت الجزائر ثمنه غاليا · واستطاع الفرنسيون تجنيد عدد كبير منهم وحملهم الى أوروبا للقتال في ميادينها · ولم يكن من المعقول أن تستمر قوانين التفرقة العنصرية على تعسفها بعــد أن بات الجزائريون متساوين في التزاماتهم مع الفرنسيين ·

وهكذا اضطرت الجمعية الوطنية الى البدء بسن بعض التشريعات للتخفيف من وطأة التفرقة ·

أسفرت سياسة الجمهورية الثالثة عن انتشار الاستيطان الاوربي · وقد ظل المستوطنون متمركزين في المــدن حتى كونوا اغلبية السكان في مدينتي الجزائر ووهران وذلك حيث توجــد دوائر الحكومــة وهي مقصــورة على الاوربيين ، ولقيام الغالبية منهم بالعمل في مجال الصناعات والحرف · ومع ذلك فقد تغلغلوا أيضا في القطاع الزراعي وقدر عــدد المشتغلين بــه في العقد الرابع من القرن العشرين بنحو ٣٧٠ الفا من بين ٩٠٠ الف ، وهــو أعلى رقم وصله الاستيطان الاوربي قبل الحرب الثانية · وبلغ مجموع الملكيات الزراعية التي بيد المستوطنين خمس الاراضي الصالحة للزراعة · ولكنهــا تزيد على تلك النسبة من حيث الانتاج ، فقد قــدر انتاج الهكتار الــذي يستغله المستوطن بأضعاف نظيره في يــد الجزائري ، مما يجعلنا نعتقــد أن الاوربيين كانوا يمتلكون نحو ٦٥٪ من الثروة الزراعية سنة ١٩١٨ ·

ويقابل هــذا التوسع في الاستيطان هجرة الجزائريين الى الخارج والتي بدأت تظهر سنة ١٩١٢ · وقد ظهر نوعان من المهاجرين : النوع الاول يتمثل في هؤلاء الذين استنكروا الخضوع لقانون الخدمة العسكرية الاجبــارية ، أو ضاقوا بطراز الحياة الفرنسية التي فرضت عليهم · ففي هــذه الســنة خرجت ٨٠٠ عائلة من تلمسان ورحلت الى الشام حيث قدمت لهم السلطات العثمانية بعض المساعدات المــادية · وليست هجرة الجزائريين الى الاقطار الاسلامية فرارا من الحكم الفرنسي بظاهرة جديدة ترجع الى هــذا التاريخ ، وانما الجديد فيها أنها أصبحت واسعة النطاق · والنوع الثــاني من الهجرة

يتعلق بأسباب اقتصادية وهــذا النوع من المهاجرين اتجه الى فرنسا بحثا عن العمل وقــد سبق أهـل القبائل الى مثـل هــذه الهجرة . فخرج منهم سنة ١٩١٢ ٥٠٠٠ . وتزايدت الهجرة بشكل ملحوظ أثنــاء الحرب وحتى سنة ١٩٢٤ حين كانت فرنسا في حاجة الى الايدي العاملة . وعلى ارض فرنسا كون هؤلاء المهاجرون ـ نواة طبقة عاملــة جزائرية كبيرة (١) . وكان من الممكن أن تؤدي هــذه الحالة الى تهديد كيان العنصر الوطني لولا انه أثبت قدرة على الازدهار في وجــه جميع المحن . واعترض المستوطنون انفسهم على فتح باب الهجرة الى فرنسا دون قيــد لأنه يحرمهم من الأيدي العاملة الرخيصة.

وقد ازدهرت أحوال المستوطنين خلال الحرب ، اذ استطاعوا أن يبيعوا جميع منتجاتهم الزراعية الى فرنسا بأســعار مرتفعة لســد حاجات (الوطن الأم) . لذلك يغالط بعض الكتاب الفرنسيين حين يحاول أن يظهر الجزائر بمظهر البلد الذي استفاد من الحرب مستشهدا بأن الميزان التجاري تحــول الى صــالح الجزائر . واذا كانت الصادرات قــد رجحت فعلا على الواردات فان هذه الزيادة تمثـل في الحقيقـة جزءا من أرباح كبــار المستوطنين ، وعلى العكس لم يكن تناقص الواردات في مصلحة الســكان الاصليين ، لأن الجزائر التي حرمت من الصناعات كانت محتاجة الى المصنوعات الفرنســية وبعض المــواد الغذائية التي لا تزرع في الجزائر للاستهلاك المحلي أثنــاء الحرب .

ومن الملاحظ أن جزءا كبيرا من الاراضي الزراعية التي يستغلها المستوطنون قــد حولت لانتــاج المواد اللازمه لفرنسا ، فعندما أصابت الآفات زراعــة الكروم فيها سنة ١٨٧٨ حول المستوطنون أراضيهم الى مزارع كروم وأنتجوا النبيذ اللازم لاســتهلاك فرنســا . وقد أصبحت هــذه الزراعة تغطي في الجزائر ما يقرب من ٤٠٠ر٠٠٠ هكتار حتى انه بعــد انتهــاء الحرب شــكا زراع الكروم في فرنســا من منافســة مواطنيهم مســتعمري الجزائر لأن نبيذهم كان أرخص نظرا لرخص وسائل الانتــاج لــديهم . وكان نظــام الوحدة الجمركية قــد أصبح في بعض الاحوال ضارا بفرنسا .

أما بالنسبة للمنتجين الجزائريين ، فاذا كان بعضهم قــد استفاد أيضــا من ظروف الحرب ، فمن المعروف أن الــذي يتولى عمليات نقــل البضــائع شركات فرنسية تحتكر تجارة الجزائر الخارجية .

---

(١) انظر البحث الخاص بهجرة الجزائريين في Roger P. 42-59.

على أن ظاهرة هامة قد بدأت تحول مجرى الاستعمار الاوربي بعد هذا التاريخ . فقد لوحظ ان الجزائريين يستردون من الاوربيين مساحات تزيد على ما يشتريه هؤلاء منهم رغم وجود المساعدات الحكومية . ففى سنة ١٩١٨ اشترى الجزائريون من الاوربيين ٢٠٣١٦ هكتار مقابل ١٦٨٤٠ هكتارا آلت للاوربيين . وفى سنة ١٩١٩ اشترى الجزائريون ٤٠٤٤٠ هكتارا مقابل ١٩٠٨٠ هكتارا للاوربيين . ولكن النسبة عادت وتقاربت فى الاعوام التالية وان كان استرداد الجزائريين للاراضى قد استمر بصورة مطردة فى اقليم قسنطينة .

وثمة ظواهر اخرى تدل على توقف الاستعمار او تراجعه بعد الحرب ، فقد خصص نصف مساعدات صندوق الاستعمار لابناء المستوطنين مما يدل على أن فرنسا . قد اصيبت فى امكانياتها البشرية من جراء الحرب . الا أن تزايد عدد المستوطنين استمر عن طريق زيادة المواليد بعد أن تأقلم العنصر الاوربي خلال جيلين . فما هى الاسباب التى يمكن أن نعلل بها هذه الظواهر ؟ ؟

اولا : الوعى القومى الذى بدأ ينتشر بين الجزائريين .

ثانيا : ظهور فئة جديدة من الجزائريين استطاعت بفضل كدها أن تحسن أحوالها الاقتصادية بالنسبة لمواطنيهم . واعنى بهذه الفئة طبقة العمال والمجندين الذين رحلوا الى فرنسا واستطاعوا ان يوفروا جزءا من اجورهم رغم ضآلتها ، كى يعودوا الى الجزائر حيث يشترون قطعة أرض تضمن لهم حياة هادئة شريفة . وقد دفع هؤلاء ثمن ممتلكاتهم الجديدة غاليا ، اذ لوحظ أن الاوربيين الذين هم أحسن حالا من الناحية المادية يبيعون املاكهم بقيمة تزيد ٤٠٪ على ما يبيع به الجزائريون للاوربيين . وسنرى أن هذه الطبقة من العمال قد لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الحركة الوطنية .

الفصل الثامن

تونس من احتلال الجزائر حتى مؤتمر برلين
١٨٣٠ — ١٨٧٨

— ١ —

موقف البايات من الاحتلال

شاركت نيابة تونس جارتها في معظم الازمات التي تعرضت لها منذ سنة ١٨١٥ • ذلك ان المؤتمرات الأوربية عندما قررت مكافحة القرصنة اشتملت خططها في هذا الشأن على توجيه الضربات الى نيابات المغرب الثلاث معا • ولهذا لم تقتصر اعمال الاسطول البريطاني في حملته التاديبية سنة ١٨١٦ على الجزائر • بل عرج على تونس حيث وجه اليها نفس التهديدات — كذلك تلقت تونس انذارا من الحملة الانجليزية الفرنسية المشتركة التي أتت تنفيذا لقرارات مؤتمر اكس لا شابل ١٨١٩ •

ولكن موقف الباي محمود اختلف عن الداي من حيث سرعة رضوخه للتهديدات الاوربية ، فأعطى جميع التعهدات اللازمة بالغاء الاتاوات او استرقاق المسيحيين ، حتى قيل بأن النيابة قد تدهورت في عهده نتيجة هذا الاستسلام ومن المؤكد ان المصادر الأوربية بالغت في الربط بين تدهور النيابات الغربية في أوائل القرن التاسع عشر ، وبين توقف المغامرات البحرية • وحقيقة الامر هو ان تفوق اوربا في نظم الملاحة الحديثة واستخدام البخار ، قلل الى حد كبير من قدرة الملاحة المغربية على التجارة ونقل البضائع عبر البحر المتوسط •

وترتب على ذلك وقوع اضطرابات بين حاميات الجند •
وقد استمر الباي حسين (١٨٢٤ — ١٨٣٥) على اتباع سياسة المهادنة مع اوربا • وتعزو المراجع الاوربية التمادي في الاستسلام الى الهزيمة المنكرة التي لحقت بالاساطيل الاسلامية في نفارين مما جعل حكام شمال افريقيا يدركون مدى تفوق اوربا البحري • وبناء عليه وقف حسين باي موقف الحياد المبال الى فرنسا اثناء حملة ١٨٣٠ فرد دعاة الجهاد الذين اتوا من الجزائر ورحب بمبعوث بولينياك وهو الترجمان دوبنيسك الذي وصل الى تونس قبيل الحملة في ابريل ١٨٣٠ •

ويدل التقرير (١) ، الذى كتبه دوبنيسك عن مهمته ؛ على ان باى تونس قبل اسس المعاهدة التى اقترحتها فرنسا . واكثر من هذا وعد بمساعدة الحملة الفرنسية ضد الجزائر ، وذلك بارسال بعض مواد التموين لها . وقد تأكد موقف الباى المتحيز للفرنسيين حين اسرع بارسال وفد لتهنئة المارشال بورمون بانتصاره على جيرانه الجزائريين . ويبدو انه كان متلهفا على هذه التهنئة فوصل الوفد التونسى قبل ان يتم المارشال انتصاره فى ٥ يوليو . هذا مع ملاحظة ان فرنسا قامت بالحملة باسم اوربا المسيحية ؛ وان اهدافها كانت ترمى الى تأكيد النفوذ الفرنسى فى النيابات الثلاث ، بدليل ان القيادة الفرنسية بعد الاستيلاء على الجزائر ارسلت جزءا من الاسطول الى كل من طرابلس وتونس للتظاهر امامهما .

وبينما اسرع الباى الى توقيع المعاهدة كما عرضت عليه ، حاول يوسف باشا القرامنلى المقاومة حتى تعرض ميناء طرابلس للتدمير . وحينئذ فقط امضى المعاهدة التى تحتوى تقريبا على نفس الامتيازات المنصوص عليها فى المعاهدة المعقودة مع تونس .

وتنص المعاهدة التى عقدت مع الباى فى ٨ اغسطس على تعهده بنبذ وسائل القرصنة الى الأبد بما فى ذلك اخذ الاتاوات . وعليه حماية السفن الاوربية فى سواحل تونس . وكذلك يتعهد بالغاء رق المسيحيين ويعوض ملاكهم بعد تحريرهم وعليه ان يطبق مبادىء اسرى الحرب المتعارف عليها دوليا ، اذا وقعت حرب فى المستقبل . وتنص المعاهدة على حق الدول الاوربية فى انشاء القنصليات بأى مكان شاءت فى تونس . وكذلك اى حرية التجارة بين الاجانب والتونسيين دون تدخل الحكومة بفرض اى احتكار . وتسجل المعاهدة ان فرنسا لا تطلب امتيازا خاصا فى تونس ، وانما تتمتع بحق الدولة الاكثر رعاية (٢) .

ويمكن التساؤل عن الأسباب التى دعت الباى الى اتخاذ هذا الموقف المعادى لمصلحة العالم الاسلامى عامة وشمال افريقيا خاصة ! فهل كان الباى حسين مازال يحقد على دايات الجزائر لانهم فرضوا على تونس دفع جزية فى بعض الاحايين ؟ ان هذا السبب ينتفى لما ذكرناه من ان تسوية عامة قد تمت بين تونس والجزائر سنة ١٨٢١ بتوسط الباب العالى . ولا نستطيع ان نبرز هذا الموقف ، كما فعل معظم المؤرخين

(1) Gauthereau P. 148.
(2) Flaux P. 359 S. Q.

الفرنسيين بأن الباى قد رحب (1) بالحكم الفرنسي في للجزائر ليتخذه وسيلة للاحتماء من الاطماع العثمانية التى كانت تهدف الى تحويل تونس الى ولاية تخضع مباشرة لحكومة استانبول · وهذا يخالف الحقيقة من جهتين :

اولا : ان الدولة العثمانية لم تكن تطلب من تونس اكثر من الاعتراف الأسمى بسيادتها · وهذا الإعتراف كان يقره الرأى العام التونسي لعدم وجود فكرة قومية محلية تعارض فكرة التضامن الديني ·

ثانيا : عدم وجود حدود مشتركة بين اى من الولايات العثمانية وبين تونس اذ من المعروف ان طرابلس كانت تحكمها اسرة مستقلة هى اسرة القرامنلي وأن القوات العثمانية لم تنزل بهـــذا الاقليم الا سنة ١٨٣٥ · وانما الأقرب الى الصحة ان يقال ان تدخل العثمانيين المباشر فى شئون شمال افريقيا انما كان رد فعل لسقوط الجزائر ·

وقد صار من المعروف ان احمد باى حاكم قسنطينة طلب مساعدة الباب العالى اثناء تضييق انخناق عليه · وفكرت الحكومة العثمانية لخطة فى ان ترسل مساعدات جدية ؛ لكنها استشارت بريطانيا ؛ فذكرت حكومة لندن انها لن تساندها فى حالة خوض حرب مع الفرنسيين بخصوص الجزائر · اما فيما عدا ذلك فانها ستؤيد الباب العالى فى منع امتداد السيطرة الفرنسية الى اقطار اخرى فى شمال افريقية · ومهما يكن فان مساعدات ضئيلة وصلت الى حاكم قسنطينة عن طريق تونس ، الا ان حاكم تونس رضخ لأول تهديد فرنسى ووضـــــع العراقيل أمام مرور المساعدات العثمانية فى بلاده ·

كان مصطفى باى هو الذى يحكم تونس منذ سنة ١٨٣٥ ، وعنـــد ارتقائه السلطة طلب كالعادة فرمان التنصيب من الباب العالى ، فحذرته فرنسا من نوايا الآستانة خاصة وان العثمانيين كانوا قد ارسلوا حملة فى هذا العام الى طرابلس واسقطوا حكم الاسرة القرامنلية وحولوا البلاد الى ولاية تحت الحـــكم العثمانى المباشر · ولم يكن فى نية مصطفى باى حينما طلب فرمان التنصيب سوى احترام التقاليد ، ولثقته بأن هـــــذا الفرمان يكســـه نفوذا ادبيا داخل البلاد ·

على ان الحكومة الفرنسية لم تقتنع بموقف الباى ؛ وأرسلت فى

(1) Jean Serre : La Politique Turque en afrique du Nord.

يونيو ١٨٣٦ مظاهرة بحرية امام تونس كرد فعل على احتلال العثمانيين لطرابلس .

كانت التعليمات التى حملها قائد الاسطول الفرنسى تعنى بتتبع طاهر باشا قائد الحملة العثمانية حتى طرابلس وتستوضحه عن نواياه . فاذا وجد الاسطول العثمانى يقترب من تونس ، فعليه ان يخبر طاهر باشا بان اى تغيير فى وضع النيابة سيكون موجها ضد فرنسا ، كما حمل القائد الفرنسى اقتراحا بوضع الباى تحت الحماية الفرنسية ، الا ان مصطفى باى رد على ذلك بقوله « انه لا يعتقد بوجود نوايا عثمانية لضم البلاد ، ومع ذلك فهو يوجه الشكر الى الحكومة الفرنسية » .

كانت السياسة الفرنسية فى ذلك الوقت تقوم على اساس ابقاء تونس باعتباره جارة ضعيفة للجزائر ، ومع انها اطمانت الى ان العثمانيين لن يتجاوزوا طرابلس ، الا ان القلق ظل يساورهم طالما ان احمد باى وحاميته التركية ما تزال صامدة فى قسنطينة ، وقد فرحت الحامية بدخول العثمانيين الى طرابلس ، وحينما قطع طريق الامدادات من تونس ، وجدت المساعدات العثمانية طريقها عبر الصحراء الجنوبية عن طريق واحة غدامس باقليم فزان . كما ارسلت الحكومة العثمانية بمناسبة تزايد نشاط الفرنسيين وضرب الحصار الاول على قسنطينة رسالة جاء فيها انها لا تستطيع ان تقف جامدة امام دماء المسلمين التى تسيل هنا وهناك فى شمال افريقية . فلا غرو بعد ذلك ان يرسل الحاج احمد باى بشارة النصر الى طرابلس يوم ان اخفق الفرنسيون فى حصارهم الاول لقسنطينة سنة ١٨٣٦ .

فى سنة ١٨٣٧ عاودت الدولة العثمانية ارسال اسطولها الى طرابلس وعرضت مشروعا فريدا من نوعه ، وهو ان يتولى باى تونس حكم طرابلس فى نفس الوقت ؛ وربما استهدفت من ذلك تقوية مركز الباى فى مواجهة الفرنسيين ، الا ان هذا الاخير كان يريد ان يتجنب غضب فرنسا اكثر من ارضاء الباب العالى ، لذلك اعتذر عن عدم قبول هذا الاقتراح بحجة كثرة النفقات وقلة موارد الولاية .

بادرت فرنسا مرة ثانية الى مسابقة العثمانيين نحو تونس فارسلت حملة بحرية اخرى فى سبتمبر ١٨٣٧ والتقى قائدها بالباى ، وحاول استصدار تصريح منه يعلن عن رغبته فى الاستقلال (عن الدولة العثمانية) او وضع بلاده تحت حماية فرنسا الا ان الباى ظل يذكر السلطان بالتعظيم ، وفى تلك الاثناء قتل شاكر افندى صاحب الطابع (حامل الاختام

ومستشار الباي الأول ، وحسب الرواية الفرنسية ، دبر الباي مقتله لما علم بتآمره مع الباب العالي وحاكم قسنطينة لخلع مصطفى باي وتولية احد ابناء الباي السابق حسين · وليس هناك ما يدل على وجود مؤامرة ، غاية الامر ان شاكر افندي زار الاستانة سنة ١٨٢٥ وبات مقتنعا بأن مصلحة تونس تقتضي توثيق الروابط مع حكومة الأستانة بعد سقوط الجزائر في أيدي الفرنسيين · ومهما يكن فان اختفاء مصطفى باي وتولية الباي احمد ، اعتبر كسبا للسياسة الفرنسية ·

حكم احمد باي البلاد ما بين عامي (١٨٣٧ — ١٨٥٥) وعلى خلاف سلفه كان يعتقد بأن تأكيد شخصيته يتمثل في اضعاف حالة التبعية للأستانة ·

وقد عرف الفرنسيون هذه النزعة في نفس الباي فاخذوا يرضون كبرياءه فيقدم قنصلهم أوراق اعتماده له مباشرة · بينما كانت الدول الأوربية الأخرى وخاصة بريطانيا تعتبر قنصليتها بتونس تابعة لسفارتها بالأستانة · واتضح لاحمد باي الفرق بين معاملة الانجليز والفرنسيين له حين قرر زيارة أوربا سنة ١٨٤٦ ، فقد استقبله الملك لوي فيليب في باريس بنفس مظاهر الحفاوة التي يستقبل بها الملوك المستقلون · اما الحكومة البريطانية فقد اشترطت قبل زيارته أن يقدمه السفير العثماني باعتبار أنه تابع للسيادة العثمانية العليا · ولذلك عدل الباي عن زيارة انجلترا · وقد نبه القنصل الانجليزي وود الى ضعف نفوذه بالنسبة لزميله الفرنسي لدى الباي ، وعلل ذلك بأن هذا الأخير يعتمد اوراقه لدى الباي مباشرة ·

ومن مظاهر سياسة التعاون بين أحمد باي وفرنسا ، السماح بانشاء كتدرائية في مواجهة مدينة تونس ؛ اي في المكان الذي قيل بأن لويس التقي مات فيه اثناء الحروب الصليبية ·

واهم من ذلك اعتمد احمد باي على الفرنسيين اساسا حينما قرر ادخال مظاهر الحضارة الحديثة الى تونس فعهد اليهم بانشاء المدارس وتدريب الجيش · بيد أن احمد باي مثل كثير من اقرانه حكام الشرق المعاصرين ؛ لم يعرف كيف يستفيد من اقتباس المدنية الأوربية ، فكان اهتمامه منصبا على المظهر الخارجي · ففيما يتعلق بالجيش اهتم بتغيير

---

(١) انظر دراسة قيمة عن السياسة العثمانية في شمال افريقية للمؤلف الفرنسي
Jean Serret

ملبسه وجمله يتخذ الزى الاوربى واشترى له الاسلحة . بل انه اقام مصنعا للذخيرة ولكن الجيش لم يستفد من المدربين الأوربيين الذين استقدمهم للتدريب على وسائل الحرب الحديثة ، اما بسبب عدم وجود فئة مستنيرة بين ضباط الجيش أو عدم شعور هؤلاء المدربين بالمسئولية ؛ وما قيل فى الجيش البرى ينطبق على البحرية ، فقد انفق احمد باى اموالا طائلة لشراء ثلاث سفن بخارية لا ليستعملها للدفاع عن سواحل بلاده بل ليتركها راسية فى الميناء الحديث الذى أعده لها فى بورتوفارينا ، حتى تلفت اخشابها من قلة الاستعمال .

وليس معنى ذلك ان احمد باى قطع صلاته باستانبول ؛ فعندما وقعت حرب القرم اسهم بـ ١٤ الف جندى تونسى ليحاربوا تحت لواء الجيوش العثمانية . لكن يجب ملاحظة ان فرنسا كانت حليفا للباب العالى فى هذه الحرب وعلى كل فان اسهام تونس بهذا العدد قد حمل ميزانيتها عبئا ثقيلا بين الاعباء الكبيرة الاخرى التى ترتبت على سياسة التجديد . واذا كان احمد باى قد استطاع ان يتم هذه الاعمال دون الاستدانة من الخارج ، فانه اضطر الى زيادة الضرائب الى حد ارهق معه السكان ارهاقا شديدا .

- ٢ -
مشكلة التجديد والأزمة المالية

لم تظهر لاصلاحات احمد باى آثار ملموسة ، وما لبثت أن توقفت فى عهد خلفه محمد باى من سنة ١٨٥٥ – ١٨٥٩ الذى تذرع بأن التجديد يكلف الميزانية نفقات باهظة . ولكن لا نعتقد انه استطاع توفير شيء يذكر ، لأن حريمه الذى كان يضم ١٢٠٠ امرأة والقصور الفاخرة التى اهتم بتشييدها كانت سببا آخر فى الاسراف . ولم يكن متوقعا من محمد باى ان يكون صلبا امام ضغط الدول الأوربية . فمثل هذا الرجل المنهمك فى ملذاته لا يمكن ان يكون من انصار الحرية الدستورية . ومع ذلك فقد صدر فى عهده شبه دستور عرف بعهد الأمان ، فلا شك ان الباى قد فعل ذلك استجابة لرغبة القناصل الاوربيين . والمناسبة التى احاطت باصدار العهد تدل على هذه الحقيقة . فقد حدث ان سب احد اليهود مسلما فى دينه فحكم عليه بالاعدام ، وانزعجت الجالية الأوربية من هذا الحكم الذى ترتب على مجرد كلمة تفوه بها انسان ووصفوه بالتعصب . وطالبوا بأن تكون لهم ضمانات شخصية ، فكان أن صدر القانون الاساسى لتونس فى سبتمبر سنة ١٨٥٧ . وقد صيغ على نمط خط جلخانة العثمانى ، فهو يتعلق بضمان حريات الأفراد الاساسية .

وقد حاول محمد الصادق من سنة ١٨٥٩ ــ ١٨٨٢ فكرة عهد الامان وتقبل مبدأ قيام شبه دستور لتنظيم الحكم . فصدرت وثيقة دستورية أكثر تفصيلا في سنة ١٨٦١ . وتنص المواد الثلاث الاولى منها على الحريات الشخصية . فتعلن المساواة أمام القانون والادارة والضرائب دون تمييز بين الاجناس والاديان . وينظم الدستور كذلك الخدمة العسكرية . كما ينص على انشاء مجلس استشارى للشئون الادارية يشترك فيه التونسيون والجالية الاجنبية . ولكنه لا يبين كيفية تكوين هذا المجلس ، ولذلك اخطأ بعض المؤرخين حين قرروا بأن دستور سنة ١٨٦١ يقيم مجلسا نيابيا وينص على المسئولية الوزارية (١) . وقد خصصت المواد ٩ ، ١٠ ، ١١ لتأكيد حقوق الاجانب كالنص على حرية التجارة وعدم احتكار الدولة التونسية لأى نوع منها ، وحرية امتلاك العقارات والأراضى بداخل تونس .

ان الملابسات التى احاطت باصدار الدستور تدل ايضا على أن ارضاء الأجانب كان هو الرائد الاول للباى . فقد كان يعلم ان الامبراطور نابليون الثالث يهتم بنشر مظاهر الحضارة الأوربية فى العالم الاسلامى ، ورأى فى اصدار الدستور فرصة يحوز بها اعجاب الامبراطور . ولذلك حرص على أن يقدم لنابليون الثالث مشروع الدستور اثناء زيارته للجزائر . فلما حصل على موافقته ، اعلن الباى وسط احتفالات باهرة الدستور التونسى فى ٢٨ ابريل سنة ١٨٦١ .

وقد ترتب على اصدار هذا النظام ورود عدد كبير من الأجانب الى تونس ، وازدياد ضغطهم على الإدارة المحلية خاصة بعد ان اصبحوا دائنين لها . أما التونسيون انفسهم فلم يروا فى هذه القوانين الا انها وسيلة لرفع مركز اليهود الى مستوى عال فى البلاد ، لذلك اعتبروه خطوة الى الوراء . والواقع ان ضرر هذه الدساتير التى صدرت قبل اوانها فى الشرق كان نفوق نفعها بكثير . ولا شك ان الثورة الداخلية التى نشبت سنة ١٨٦٤ والتى كادت تطيح بعرش الباى قد عبرت عن غضب الشعب التونسى على هذا التحول فى سياسة البايات الداخلية والخارجية . ويمكن استخلاص اسباب هذه الاضطرابات فيما يلى :

ازدياد نفوذ الأجانب والتلاعب بالقوانين الحديثة لكى تخدم مصلحة

---

(١) انظر نص القانون فى كتاب تونس ــ ٦٧ عاما تحت الاحتلال ص ٩ .

الحكام ، ثم ارهاق السكان بالضرائب بالرغم من قلة موارد البلاد . فالثروة المعدنية التي تشتهر بها تونس لم تكن مستغلة باستثناء قليل من مناجم الحديد في الشمال ومناجم الرصاص في الشرق ؛ كما أن كثيرا من الأراضي الصالحة للزراعة قد أهملت ؛ واخذ عدد السكان يتضاءل . ولذلك عندما دخل الفرنسيون الى البلاد لم يكن القسم المأهول منها يتجاوز المناطق الساحلية .

بدأت ثورة ١٨٦٤ كأي ثورة محلية اعتادت عليها تونس عند طواف جباة الضرائب بالبلاد وذلك في اقليم الكاف المتاخم لحدود الجزائر . ولهذا لا يستبعد ان تكون فرنسا قد ساهمت في التحريض عليها ، ولكن نظرا للاحساس العام بالسخط امتدت هذه الثورة بسرعة الى اقليم الماجردة وأصبحت تهدد موانئ سوسة وسفاقص . واشتركت في زعامة هذه الثورة العناصر الدينية والبدوية ، ومع انها تمثل اتجاه المحافظين الا ان هذا الاتجاه كان أقوى تعبير في ذلك الوقت عن معارضة النفوذ الاوربي (١) . واشد ميلا لدولة الخلافة . ولذلك عندما دخل الثوار مدينة سفاقص رفعوا عليها العلم السلطاني .

ولا شك ان اتجاها سياسيا كهذا لا بد ان يكون قد اقلق الفرنسيين في الجزائر وجعلهم يفكرون في تحقيق اطماعهم في غزو تونس . ولكن الموقف الدولي في ذلك الوقت لم يسمح لهم بهذا التدخل ، فقد كانت كل من بريطانيا وايطاليا تشارك فرنسا اطماعها . لذلك وقفت اساطيل الدول الثلاث على الشواطئ التونسية لتهدد الثورة ، غير انها لم تحاول انزال جنودها الى البر . وقد حاولت الدولة العثمانية ايضا ان تتخذ من هذه الثورة مبررا لتستعيد نفوذها في تونس . فأرسلت حيدر افندي مبعوثا الى الباي مع بعض السفن الحربية . الا ان الاساطيل الأوربية وقفت في طريق السفن العثمانية وان كان المبعوث قد وصل الى عاصمة البلاد .

ونجح حيدر افندي في الوساطة بين على بن قدامة زعيم الثورة وبين الباي . فذكرهم بأن هذه القلاقل تعرض البلاد للغزو الأجنبي ، واستمع ابن قدامة لهذه الحجة احتراما لممثل الخليفة .

كشفت هذه الأزمة للباي حقائق سياسية هامة ، منها قيمة التعاون مع الدولة العثمانية . ولهذا اسرع محمد الصادق بارسال خير الدين باشا

---

(1) Broadleyp. 125 - 140.

لشكر الباب العالي على تدخله لتهدئة الثورة . كما أدرك عدم جدوى القوانين التي اصدرها والضرر الذي ترتب عليها ولذلك الغى الدستور سنة ١٨٦٥ بعد اصداره بأربع سنوات . كذلك عرف حقيقة نوايا الأوربيين وخاصة الفرنسيين نحو بلاده ، فقد استعمل دي بوفال قنصل فرنسا اقذع العبارات امام الباي أثناء حوادث سنة ١٨٦٤ . وأخذ يتدخل في شئون البلاد الخاصة ويطالب بالغاء الدستور الذي كان سببا في الثورة كما انه اتهم الانجليز والأتراك بالتحريض عليها .

وبينما اخذ الباي يعدل في سياسته الخارجية ، اذ به يواجه مشكلة مالية ليست اقل خطورة من المشكلة السياسية . وليست تونس الا مثلا واحدا من بين دول عديدة شرقية وقعت في حبائل الاستدانة من جراء النفقات التي تكلفتها مشروعات التجديد . وقد زاد مشكلتها تعقدا ان يدا غير امينة سيطرت على الادارة مدة طويلة ، وأعني بذلك شخصية مصطفى الخزنةدار الذي ظل يشغل منصب الوزير الأعظم منذ سنة ١٨٣٧ — ١٨٧٣ .

فقدرت المبالغ التي ضاعت على الخزانة في عهده بـ ٤٠ مليون فرنك . وقد استطاع ان يحتفظ بمنصبه هذه المدة الطويلة بفضل تملقه للبايات ، وتقديم ما يحتاجون اليه من اموال ، بصرف النظر عن مصلحة البلاد أو امكانياتها .

ولم يشأ الباي أن يستمع الى الاتهامات التي وجهت الى شخص الوزير الأعظم ؛ حتى تدخل صهره مصطفى بن اسماعيل واثبت له الحقيقة بعد فوات الأوان . وكان الدائنون وقنصل فرنسا من أشد الناس تعريضا بالخزنة دار ، لا غيرة على المصلحة التونسية وانما لأن اسرافه في وجهات الصرف الأخرى لم يكن في مصلحة الدائنين .

ويرجع تاريخ استدانة الحكومة التونسية الى سنة ١٨٦٢ حين وقعت قرضا داخليا بمبلغ ٢٨ مليون فرنك بفائدة قدرها ١٢٪ ، ولا تعني بعبارة دينا داخليا أن مواطنين تونسيين هم الذين اقرضوا الحكومة ، لعدم نمو الراسمالية الوطنية في ذلك الوقت ، وانما قام بذلك التجار الأجانب المقيمون بالبلاد . وكان نصيب الانجليز في هذا الدين أكبر من غيرهم نظرا لوجود عدد كبير من الرعايا المالطيين في تونس ، ولكي يتخلص الخزنةدار من هذه الاستدانة الداخلية تمخضت عبقريته عن فكرة استدانة اخرى من الخارج بفائدة اقل ، وبذا يستطيع ان يغطي الدين الأول . وقد نجح فعلا في عقد قرض سنة ١٨٦٣ بمبلغ ٣٥ مليون فرنك

بفائدة ٦٪ ، ولم يصل اليه من مجموع هــذا المبلغ سوى خمسه ملايين و ٢٠٠ الف فرنك وادعى المقرضون أن باقى المبلغ صرف كعموله للبنوك واتعاب الوسطاء وخصم فائده السنة الاولى وهكذا بدل أن يســـدد الخزنة دار الدين الداخلى ازداد العبء على الميزانية التونسيه

وجاءت ثورة سنه ١٨٦٤ لتكمل الكارثة ، ولكن الخزنة دار اندفع فى نفس التيار الذى اندفع فيه الخديو اسماعيل ، فراح يعقد قروضــا جديدة لكى يدفع بها فوائد القروض القـــديمة (٢٥ مليون فرنك سنة ١٨٦٥ - ٤٠ مليون فرنك سنة ١٨٦٨) وزاد الطين بلة انه عقد معظم هذه القروض الدولية فى باريس ، أي فى عاصـــمة الدولة التى لها اطماع سياسية فى تونس • وانتهى به الأمر الى اخضاع المـالية التونســـية للرقابة الاجنبية •

اضطر الخزنةدار أولا الى تحويل الدين الى سندات اسمية لتكون اكثر خضوعا للرقابة ، ومع ذلك عجزت الميزانية عن دفع فروق السندات • فتالفت لجنة دولية فى مارس ١٨٧٠ للاشراف على المـالية التونســية ، وقسمت عملها بين هيئتين : الهيئة التنفيذية للاشراف على تحصــــيل الايرادات • ولجنة اخرى ينتخبها الدائنون للاشراف على نفقات الحكومة وحسن سير عملية سداد الدين • وتتالف لجنة المراقبة من ٦ اعضـاء موزعين بالتساوى بين الانجليز والطليان والفرنسيين ؛ اما اللجنة التنفيذية فتقتصر على التونسيين • وقد خصصت اللجنة المصادر الثابتة للايرادات التونسية لخدمة الدين ، مثل ايرادات الجمارك ورسوم انتاج المعادن • وقدرت حدا ادنى تدفعه تونس سنويا للدائنين هو ٧ مليون فرنك ؛ مع ملاحظة أن مجموع ايرادات الحكومة التونسية قدرت بـ ١٣ مليون • فاذا لم تف الجهات المخصصة للدين بهذا المبلغ كان للجنة حق الاستيلاء على موارد اخرى ؛ اما اذا زادت الموارد التونسية على ١٣ مليون فتضـــاف الزيادة الى السعة ملايين المخصصة لسداد الدين (١) • وعندما صفت اللجنة الديون التونسية ووحدتها بلغت ١٢٥ مليون فرنك سنة ١٨٧١ • واصبحت ثروة البلاد مسخرة لدفع فوائد الدين الى حد ان الحـكومة التونسية عجزت أخيرا عن دفع مرتبات موظفيها • وفى هـذه الأثناء تولى رئاسة الحكومة احد مشاهير المصلحين فى العالم الاسلامى ، وهـــو خير الدين باشا التونسى ، فحاول انقاذ البــلاد من تلك الورطة ؛ ولكن الظروف الداخلية والخارجية لم تمكنه من ذلك •

---

(1) D' estournelles chap. 2

نشـــأ خير الدين ، فى فرق الجيش الحديثة التى حاول احمد باى تأسيسها . وترقى فى عهده حتى صار قائدا للبحرية التونسية . وقد ظهرت نزعته الاصلاحية منذ ذلك الوقت ، فاليه يرجع الفضل فى رد الباى عن فكرة الاقتراض من فرنسا . ولكن مجهوداته تحطمت امام سيطرة الخزنه دار على سياسة البلاد فى عهد الباى محمد وفى سنة ١٨٦١ تحمس خير الدين لفترة مجلس الشورى وأصبح من أبرز أعضائه ولذا اعتبرت حركة سنة ١٨٦٤ موجهة ضده وضد آرائه فاعتزل السياسة مدة من الزمن . وألف أثناءها كتاب (اقوم المسالك فى معرفة احـوال الممالك) شرح فيه آراءه فى التجديد : محـــاولا المقارنة بين المجتمعين الاسلامى والأوربى وبيان أسباب تفوق أوربا . ثم عاد الى ممارسة نشاطه فى الحياة العامة عندما وكلت اليه رئاسة لجنة الديون سنة ١٨٧٠ .

وفى سنة ١٨٧٣ اختير خير الدين رئيسا للوزارة بعد اقالة مصطفى الخزنةدار وافتضاح أمره . وكانت المشكلة المالية هى اهم ما واجهه خلال فترة رئاسته التى استمرت اربع سنوات . فحاول أن يوفق بين مبدأ العدالة فى جمع الضرائب وبين ضمان موارد الميزانية . فالغى نظام حملات الاقاليم المخصصة لجمع الأموال بالاكراه . وحاول ان ينظم جمع الضرائب على أساس عادل فلا يعفى منها ذوو النفوذ . ولكنه فى نفس الوقت لم يحى مجلس الشورى واصبح يروج للمبدأ القائل : بأن النظام الشورى لا بد وأن يستند الى راى عام متنور ، أو الى امير مقتنع بهذا النظام ، وهو مالا يتوفر حينذاك فى تونس .

ولم يكن خير الدين معارضا لفكرة منح الامتيازات للشركات الاجنبية بقصد تنفيذ المشروعات العمرانية . ولكنه كان فى نفس الوقت حريصا على ألا تؤدى هذه الامتيازات الى تسلل النفوذ السياسى الأجنبى : فمثلا عندما طلبت شركة فرنسية امتياز خط حديدى يصل بين الجزائر وتونس ، رفض خير الدين منح الامتياز بحجة أن الخط يعبر الحدود التونسية ولذا فهو من اختصاص الدولة صاحبة السيادة . وفى نفس الوقت لم يعارض فى منح امتياز بخط آخر يصل بين تونس واقليم الكاف لشركة فرنسية وذلك بعد ان تخلت شركة انجليزية عن تنفيذ المشروع النافع بالنسبة لتونس والذى لم تكن ارباحه مضمونة .

وقد حاول خير الدين (١) ، ان يوجد توازنا بين هـذه الامتيازات

(1) Gagnage : Origines du Protectorat Francais en Tunisie.

حتى لا تستأثر دولة واحدة بالنفوذ الاقتصادي . ففي ٩ يوليو ١٨٧٥ وقع معاهدة مع بريطانيا . تنص على حرية استخدام رؤوس الأموال الانجليزية ، وعلى تسهيلات عدة لهجرة المالطيين ، كما تلغي الرق نهائيا .

كذلك قبل خير الدين منح امتيازات للاجانب لاستغلال الاراضي الزراعية ولكنه لم يوفق في هذا الاختيار ، لأن هذه الامتيازات كانت تتخذ ذريعة للمطالبة بملكيات جديدة دون أن يقوم صاحبها باستغلالها فعلا . ثم تبين ان الحكومة الفرنسية كانت تعطي لشركات الخطوط الحديدية مساعدات مالية لمواصلة أعمالها بالرغم من عدم جدواها اقتصاديا ، وذلك لتستخدمها اداة لنفوذها فيما بعد .

واتخذ خصوم خير الدين من هذه السياسة وسيلة للطعن عليه ، فاتهموه بممالاة الفرنسيين . وفي نفس الوقت تعرض لغضب الفرنسيين لان سياسته الخارجية الرامية الى توثيق الصلات مع الدولة العثمانية لم تكن تتفق وهواهم . وبذا اجتمعت العناصر المختلفة على محاربته . ولقيت صدى في نفس الباي لأن خير الدين كان يحاسب القصر على مصروفاته ، فقرر اخراجه من الحكومة سنة ١٨٧٧ . بل انه ضيق عليه الخناق في حياته الخاصة حتى اضطر الى السفر الى استانبول ، حيث تولى هناك منصب الصدر الأعظم واستأنف نضاله من اجل سياسة التجديد . ولكن تاريخه بعد ذلك يتعلق بالدولة العثمانية اكثر منه بولاية تونس .

- ٤ -

تردد البايات كما لاحظنا بين سياسة التقرب من فرنسا وبين مبدأ التضامن مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة ، وحاولوا أن يوجدوا توازنا بين العنصرين ليحتفظوا بمركزهم المستقل . بل ان بريطانيا لم تغب عن ذهن احمد باي عند تطبيق سياسة التوازن ، فمثلا عندما لاحظ ان فرنسا تستغل صداقته فتحول الكنيسة التي سمح بانشائها سنة ١٨٤١ الى حصن ، استعان بالحكومة البريطانية لكي تحول دون ذلك ولم تلبث ايطاليا ان ظهرت كعنصر جديد في المسالة التونسية ، بعد قيام المملكة الإيطالية سنة ١٨٦١ واصبحت تبدي اهتماما كبيرا بتلك البلاد المواجهة لجزيرة صقلية .

ولم يكن الانجليز اقل اهتماما بتونس . فهم يقيمون في مالطة المجاورة لها . ويدركون ان سيطرة ايطاليا او فرنسا على تلك البلاد تعني السيطرة على المضيق الموصل بين حوضي البحر المتوسط . ولذلك ظلت

بريطانيا مدة طويلة متمسكة بمبدأ المحافظة على الوضع الراهن فى تونس ٠ وعمل قنصلها وود الذى تولى منصبه سنة ١٨٥٧ على تنفيذ تلك السياسة٠ وكانت بريطانيا تستند على قرارات مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ ، الذى تعهدت فيه جميع الدول الأوربية باحترام سلامة اراضى الدولة العثمانية ٠ واتضحت هذه السياسة ابان ثورة سنة ١٨٦٤ ٠ فقد كتب بالمرستون الى سفيره فى باريس ينبه الى ضرورة لفت نظر الامبراطور الى أن انجلترا لن تقبل باى حال رجحان النفوذ الفرنسى على غيره فى تونس وفى نفس الوقت لم تذهب انجلترا فى تأييدها للتقرب التونسى العثمانى الى حد قبول تحويل تونس الى ولاية عثمانية تخضع مباشرة للأستانة ٠

وقد اظهرت اضطرابات سنة ١٨٦٤ مدى تصارع القوى الاستعمارية حول تونس ٠ مما اخر فى النهاية وقوعها فى برائن الفرنسيين وقد اشرنا الى ان ايطاليا ارسلت بعض سفنها تقف مع الأسطول الانجليزى الفرنسى لمنع انزال الجند العثمانيين فى تونس ؛ ذلك ان ايطاليا اظهرت اطماعها التوسعية حتى قبل اتمامها للوحدة الوطنية ٠ وقد اجمعت الأحزاب على تأييد تلك السياسة بدعوى تكاثف السكان فى ايطاليا وحاجتها الى الهجرة والتوسع ٠ نعم لقد كان فى امريكا الجنوبية ميدان فسيح للهجرة الايطالية ؛ ولكن تونس كانت اكثر اغراء للايطاليين نظرا لموقعها الجغرافى من جهة ؛ ولأسباب تاريخية من جهة اخرى ٠ اذ كانت تونس من أهم أقاليم الدولة الرومانية القديمة ٠ ومن المعروف ان الايطاليين يعتبرون انفسهم ورثة الرومان فى البحر المتوسط ٠ وربما كان نابليون الثالث مستعدا لقبول التوسع الايطالى فى تونس حتى يحول انظار الايطاليين عن ضم روما ، وهى مقر حليفه للبابا ولكن ايطاليا اكتفت فى ذلك الوقت بتوسيع نشاطها الاقتصادى فى تونس ٠

وقد اصبح قنصلها الجديد بينا يحتل مكانا رئيسيا بين زملائه القناصل الأوربيين واستطاع فى سنة ١٨٦٨ أن يعقد معاهدة تعطى لايطاليا نفس الامتيازات التى كانت تستمتع بها انجلترا وفرنسا وغيرها من الدول القديمة التى ارتبطت بمعاهدات سابقة مع العثمانيين ٠ ويلاحظ أن ايطاليا انتفعت اكثر من غيرها بهذه الامتيازات نظرا لأن رعاياها كانوا يكونون اكبر جالية أوربية ؛ يليهم المالطيون ثم الفرنسيون وبالاضافة الى هذا كان اتصال البحارة وصيادى الأصداف الايطاليين بتونس أسبق من غيرهم من الاوربيين وقد تأثرت تونس اجتماعيا بايطاليا فدخل لهجتها بعض الكلمات الايطالية كما ان معظم مستشارى الحكومة التونسية من الأوربيين فى أوائل القرن التاسع عشر كانوا من الطليان ٠

وعندما وقعت هزيمة فرنسا سنة ١٨٧١ ، ارادت ايطاليا أن تنتهز الفرصة وتحقق رغبتها فى ضم تونس • واعدت الحكومة الايطالية المبرر الذى تتذرع به لقيام الحملة ذلك ان خلافا نشأ بين الحكومة التونسية واحد الرعايا الطليان ، الذى حصل على امتياز لاستغلال قطعة ارض زراعية دون ان يقوم بتنفيذه فعلا ، فقررت الحكومة سحب امتيازه •

ولكن انجلترا التى عرقلت الغزو الفرنسى من قبل • وقفت ايضا فى وجه ايطاليا لأنها خشيت ان يسيطر الايطاليون باستيلائهم على تونس ، على شاطئى المتوسط المتقابلين عند الممر الضيق • ولا شك ان هناك علاقة بين هذه المحاولة الايطالية وبين التحول الذى طرأ على سياسة الباى سنة ١٨٧١ ، حينما قرر توثيق الروابط مع الدولة العثمانية • وكان لخير الدين باشا دخل كبير فى هذا التحول • فطلب الباى الى الباب العالى اصدار فرمان ينظم طبيعة العلاقات بين البلدين • فكان أن صدر فرمان فى ١٠ اكتوبر سنة ١٨٧١ ، وهو ينص على اعلان الباى حاكما عاما لولاية تونس ، ولكنه يترك للباى الاشراف على العلاقات الخارجية باستثناء الأمور المتعلقة بالسياسة الدولية والعسكرية وبتعديل الحدود « فهى من حقوق سيادتنا المقدسة » •

أثار هذا الفرمان غضب الدولتين الطامعتين فى تونس ، اى فرنسا وايطاليا الى حد انهما تناسيتا التنافس بينهما بعض الوقت ووحدتا سياستهما التى اصبحت تهدف الى التفرقة ما امكن بين تونس والدولة العثمانية ، وظهر ذلك بجلاء عندما وقعت الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٧ فقد تعاون القنصل الفرنسى والقنصل الايطالى على اغراء الباى باعلان استقلاله عن الباب العالى منتهزا هذه الظروف العصيبة التى تحيط به • وقد احتج ممثل الدائنين الفرنسيين بأن احوال تونس المالية لا تسمح لها بخوض تلك الحرب • وتصادف ذلك مع ابتعاد خير الدين عن الحكم ، وتجدد استياء الباى من السلطان لانه لم يوافق منذ عامين على منحه لقب خديو مع ضم ولاية طرابلس الى تونس • وهكذا لم تدم طويلا سياسة الوفاق مع الدولة العثمانية •

على أن التعاون الايطالى الفرنسى ازاء هذه المشكلة السياسية لم يكن ليدوم أمام التنافس على الامتيازات الاقتصادية • وقد احتدم هذا التنافس فى السنوات التى تلت مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ كما سنرى • ومن الثابت أن تنافس الشركات الرأسمالية على الامتيازات فى الدول المتخلفة كان وما يزال مرتبطا بفكرة النفوذ السياسى • ومنذ سنة ١٨٥٧ حصلت شركة فرنسية على امتياز البرق والمياه لمدينة تونس ، بينما حصل

وود لشركة انجليزية على اول امتياز لخط حديدى يصل بين العاصمة وبين الشاطىء عند ميناء حلق الوادى • وكان الفرنسيون يحرصون على أن يكون لهم النصيب الاوفى من المشروعات التونسية ، ولذلك حاولوا ان يعوضوا هذا الامتياز الانجليزى الهام بامتيازات أخـــرى فى استغلال الاراضى الزراعية ، والطرق الحديديه ، وبتوسيع تجارتهم مع تونس •

وقد راينا كيف ان خير الدين (١) شجع شركات الامتياز على العمل فى البلاد ، فوسع بذلك دائرة التنافس الدولى الذى احتدم فى السنوان التالية ، حتى أصبحت تونس من الموضوعات التى تدخل فى ســـياسة المساومات الأوروبية •

(1) Broadley : The Last Punic war.

الفصل التاسع

المسالة التونسيه ١٨٧٨ – ١٨٨١

– ١ –

مؤتمر برلين

اذا كانت ثلاث من الدول الكبرى هي بريطانيا وفرنسا وايطاليا قد تنافست على النفوذ الاقتصادى فى تونس ، فان الاخيرتين انفردتا بالاطماع السياسية . فرنسا بحكم وجودها فى الجزائر ، وايطاليا بحكم قرب اراضيها من تونس . وكان على كل من الدولتين ان تحصل على التأييد الدولى لتحقيق تلك الاطماع نظرا لاهمية موقع تونس .

وقد بدت كفة ايطاليا فى اوائل السبعينات راجحة من هذه الزاوية لان كلا من المانيا والنمسا اظهرتا تأييدهما لها ، لولا ان تشبث الحزب الوطنى الايطالى (الاريدنتيون) ببقايا الاقاليم الايطالية التابعة للنمسا فى التيرول . فتحولت الحليفتان الجرمانيتان الى تأييد فرنسا . ومع ذلك فقد سنحت فرصة اخيرة سنة ١٨٧٨ حينما عرضت النمسا فكرة تأييد ايطاليا لها فى البوسنة والهرسك مقابل طرابلس او تونس ولكن وزير الخارجية آنذاك كورتى كان ضد سياسة المساومات والتعويض . وتصادف ذلك مع ملابسات دولية اخرى اكدت فى النهاية رجحان كفة فرنسا من حيث التأييد الدولى وذلك بمناسبة انعقاد مؤتمر برلين الذى جرت فيه عدة مساومات على حساب الدولة العثمانية المنهزمة . ولذلك عد هذا المؤتمر نقطة تحول فى تاريخ المسالة التونسية .

ذلك انه بعد ان استقر الجمهوريون فى حكم فرنسا سنة ١٨٧٧ تمهد السبيل لتحسن العلاقات بين باريس وبرلين . وذلك لأنهم كانوا يختلفون عن خصومهم الملكيين فى عدم التحمس لفكرة الانتقام من المانيا . ورأى بسمارك أن يقابل هذه النزعة بتشجيع فرنسا فى سياسة التوسع الاستعمارى ليصرف أنظارها عن الالزاس واللورين . وبهذه المناسبة خرج بسمارك بفكره تعويض فرنسا بتونس فى حالة ما اذا قبل المؤتمر ترك بعض المكاسب الروسية فى البلقان ؛ وارضاء بريطانيا باحتلال مصر . كذلك كان الجمهوريون يناصبون روسيا القيصرية العداء لاسباب ايديولوجية على الاقل ، ومعنى ذلك هو اقتراب سياستهم من الانجليز

الذين اعتبروا ابان الأزمة الشرقية ١٨٧٧ — ١٨٧٨ أكثر الدول خصو
للسيطرة الروسية على الدولة العثمانية . ولذلك حرصت بريطانيا على دع
فرنسا الى مؤتمر برلين وقبل سالسبرى وزير الخارجية البريطان
تحفظات زميله الفرنسى وادنجتون التى قدمها كشرط للاشتراك فى المؤتم
وهى استبعاد مسألة مصر والشام وتونس من مؤتمر برلين باعتبار أن ها
يؤدى الى تجنب المساومة مع روسيا فى البلقان ورفض جميع مطالب
التوسعية . وهكذا لم يتح لمشروع سمارك الخروج الى حيز التنفيذ

ويبدو أن فرنسا لم تكن تعارض هذا المشروع بسبب التوسع
الروسى فى البلقان فحسب ، وانما لم تكن لتقبل ايضا فقدان نفوذها فى
مصر مقابل تونس وذلك لعدم تكافؤ البلدين من حيث أهمية المصالح
الاقتصادية ، خاصة وان بريطانيا كانت قد سلمت بمبدأ مساواة مركز
البلدين فى مصر (١) . ولكن بريطانيا استطاعت أن تثير على انفراد
المسألة التونسية مع فرنسا بمناسبة أخرى تتعلق بتنازل الدولة العثمانية
عن ادارة جزيرة قبرص لها نظير التأييد الذى لقيته منها اثناء الأزمة الروسية
العثمانية .

ومن المعروف ان المباحثات الانجليزية العثمانية بخصوص هذا
الموضوع قد احيطت بتكتم شديد ووقعت الاتفاقية الخاصة بقبرص فى
٢٦ مايو ١٨٧٨ دون أن تحاط اى من الدول الكبرى علما بأمرها . وكانت
بريطانيا تدرك ان هذه الاتفاقية ستثير ضجة بين الدول الكبرى عندما
يكشف امرها لأنها تؤدى الى تفوق مركزها فى شرق المتوسط
وفى آسيا الصغرى . ولذلك رات أن تحظى بتأييد احداها على الأقل
نوحت لفرنسا بتونس باعتبارها مطمعا من اطماعها الاستعمارية . وحتى
قبل توقيع اتفاقية قبرص رسميا بعث سالسبرى الى السفير البريطانى
فى باريس يخبره بأن تونس تعد امتدادا طبيعيا لممتلكات فرنسا فى
شمال افريقيا .

اتخذت المحادثات البريطانية الفرنسية خطوة أكثر جدية حينما
التقى سالسبرى بنظيره الفرنسى فى مؤتمر برلين ، فى ٧ يوليو واخبره

---

(١) استندنا فى هذا الفصل اساسا على رسالة المرحوم الدكتور
محمد مصطفى صفوت المنشورة بالانجليزية وعنوانها :
Tunis and the great Powers :

وانظر كذلك لنفس المؤلف . المحاضرات التى نشرها له معهد
الدراسات العربية عن مؤتمر برلين واثره فى البلاد العربية .

بمضمون الاتفاق حول قبرص - حينئذ ثارت ثائرة الوزير الفرنسى ووصف الاتفاقية بأنها صفعة لفرنسا من شأنها ان تضعف الجمهوريين ، وشنت الصحف الفرنسية على اختلاف نزعاتها حملة على بريطانيا ، فقد لاحظت أن معظم الدول الكبرى قد استغلت ظروف الهزيمة العثمانية فالنمسا قد استولت على البوسنة والهرسك ، وبريطانيا وضعت يدها على قبرص ضاربة عرض الحائط بمبدأ المحافظة على سلامة أراضى الدولة العثمانية ، فماذا كسبت فرنسا من هذا المؤتمر ؟ .

لقد كان كل من بسمارك وسالسبرى يتوقع مثل هذه الثورة فى فرنسا ولذلك استعدوا لمواجهة الموقف بفكرة التعويض التونسى . وقد عبر بسمارك عن موقفه بقوله لوزير خارجية فرنسا « ان الكمثرى التونسية ناضجة » ولكن وادنجتون لم يشأ ان يتلقى المنحة الاستعمارية من يد عدو فرنسا التقليدى حتى لا تتخذ المعارضة من هذا وسيلة للطعن على قيمة العرض ، بل انه كان يخشى ان يكون هدف المانيا من هذا السخاء هو ايجاد سوء تفاهم بين فرنسا وايطاليا .

وهكذا انفردت بريطانيا بالمهمة فاعطى سالسبرى الوعد المطلوب واتفق على ان يحفظ سرا لمدة مؤقتة حتى لا يثير مشاكل دولية . على ان تصريح ٢١ يوليو البريطانى لا ينص بصراحة على اطلاق يد فرنسا فى تونس ، بل هو ينوه بمهمتها الحضارية فيقول : « اذا كان للنمسا ان تقوم بمهمة حضارية فى البلقان ، وانجلترا فى آسيا الصغرى . فأمام فرنسا مهمة أعظم فى شمال افريقيا . افعلوا ما تشاءون فى تونس فستضطرون يوما للاستيلاء عليها لانكم لن تستطيعوا ترك قرطاجنة بيد البرابرة » (١) .

لم يكن هذا التصريح الشفوى ليرضى السياسة الفرنسية ارضاءا تاما . وطالب وادنجتون بان تقدم بريطانيا تأكيدا مكتوبا واكثر صراحة . وكان جواب سالسبرى على هذا المطلب ان اعطاء وعد كتابى يعنى ان بريطانيا تملك تونس ، ومع ذلك يمكن اعطاء وعد صريح بعدم معارضة احتلال فرنسا لتونس . بل ان وزير الخارجية البريطانية اضاف قائلا : انه فى حالة ما اذا نشب نزاع بين فرنسا وايطاليا بسبب المسألة التونسية ، فان بلاده ستلتزم الحياد .

---

(١) توجد هذه النصوص ضمن مجموعة الوثائق الدبلوماسية الفرنسية عن الفترة من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩١٤ . وقد نشرت لبيان أسباب الحرب العالمية الاولى .

Documents Diplomatiques Francais

صدر هذا التصريح البريطاني في ٧ اغسطس على اساس ان يكون سريا . الا انه لم يحط بالسرية المرجوة ، فقد نشرت احدى الصحف النمساوية مضمون الوعود البريطانية . وعرف النبأ في كل من ايطاليا وتونس وبناء عليه اسرع الباي بطلب تفسير من الحكومة البريطانية عن موقفها . فاجاب سالسبري بأن انجلترا مازالت متمسكة بسياستها التقليدية ، وهكذا لم يتورع وزير الخارجية البريطانية عن مخادعة الباي والقنصل الانجليزي نفسه ، لأن وود كان حريصا فعلا على تنفيذ مبدأ المحافظة على الوضع الراهن .

اما ايطاليا فقد شعرت بتحول انجلترا عن تأييدها عموما منذ ان رفضت الاشتراك معها في حلف للدفاع عن منطقة البحر المتوسط .

وبالنسبة لتونس خاصة فان ايطاليا عندما فقدت الأمل في احتلال البلاد عسكريا امام هذا انتضامن الانجليزي الفرنسي ، قلبت سياستها راسا على عقب . فبعد ان كانت اكثر الدول الأوربية معارضة لتوثيق الروابط العثمانية التونسية ، اصبحت من اشد الدول تمسكا باستقلال البلاد في نطاق السيادة العثمانية . بل ان احد المستشرقين الايطاليين اخذ يشرف على نشر جريدة عربية في سردينيا كانت تصدر باسم المستقبل للدفاع عن حقوق تونس وشمال افريقيا وتهاجم السياسة الاستعمارية الفرنسية بشدة .

ولعل هذا الموقف هو الذى دعا مصطفى بن اسماعيل الذى خلف خير الدين في رئاسة الوزارة التونسية الى توطيد علاقاته بايطاليا حتى يوازن بها تغلغل النفوذ الفرنسي . ومن الخطأ ان نساير بعض المؤرخين الفرنسيين الذين وصفوه بأنه كان خادما للمصالح الايطالية .

حاولت فرنسا ان تخفف من وطأة نصرها الدبلوماسي على ايطاليا . فلم يمض وقت طويل على اعلان تصريح ٧ اغسطس حتى ارسل وادنجتون يعلن الحكومة الايطالية بأن فرنسا لن تقوم بعمل حاسم في تونس قبل التشاور معها . وان كانقد نوه في نفس الوقت بأن تدخل دولة اجنبيةاخرى سيؤدى الى قيام نزاع مسلح مع فرنسا .

وفي هذه الاثناء ظهرت فكرة تعويض ايطاليا بطرابلس ، ولكن فرنسا لم تشأ ان تصارح ايطاليا بهذا العرض ، لان التفاوت بين طرابلس وتونس امر ظاهر ومن ثم خشيت ان تخدش كرامة (الدولة الكبرى الحديثة) .

على ان تصرفات فرنسا فى تونس لم تكن مطابقة لتأكيداتها لايطاليا ، فقد وقعت حوادث تثبت بجلاء نياتها التوسعية ، فبمجرد الحصول على الوعد البريطانى بعث وادنجتون الى قنصله فى تونس ، يستفسر منه عما اذا كان من الممكن ان يقبل الباى حماية فرنسا ومرابطة جيوشها بالمواقع الاستراتيجية . وقد اجاب روستان القنصل الفرنسى دون استشارة الباى ، فأكد احتمال قبول الباى الحماية ، ولكنه توقع عدم قبوله لاحتلال أى جزء من اراضيه . وقد تبين له خطؤه فيما بعد حين عرض فى صيف ١٨٧٩ مشروع الحماية فرفضه الباى رفضا باتا . بل انه أبى مجرد مشروع محالفة عرض عليه سنة ١٨٨٠ .

وثمة مظهر آخر لسياسة التدخل يتعلق بنزاع وقع بين الحكومة التونسية وبين احد الملاك الفرنسيين وهو المسيو سانسى الذى كان له امتياز استغلال مزرعة كبيرة فى سيدى ثابت . وهذا الحادث وان كان فرديا الا ان الحكومات الأوربية كانت تسارع بتحويله الى مشكلة دولية ، فقد ارادت الحكومة التونسية أن تسحب امتياز المالك الفرنسى لانه اخل بشروط الامتياز ولم يستغل قطعة الارض استغلالا زراعيا . ولكن روستان أرسل بعض حراس القنصلية فحالوا دون تنفيذ قرار الحكومة التونسية : ولم تكتف فرنسا بهذا الاعتداء الصريح على سلطة الباى ، بل ارسلت انذارا فى ٥ يناير ١٨٧٩ تهدد فيه باحتلال بعض المراكز الهامة اذا لم توافق الحكومة التونسية على حل مرض ، فلم يكن امام الباى سوى الرضوخ لهذا الانذار .

وقد كشف هذا الحادث عن حقائق دولية هامة ، فان وود القنصل البريطانى حاول أن يطمئن الباى أثناء الازمة جريا على السياسة الانجليزية التقليدية . فكانت النتيجة ان خذلته حكومته ، وعلاوة على هذا أرسلت اعتذارا الى الحكومة الفرنسية تخبرها فيه بأن وود تصرف بغير تعليمات رسمية . واخيرا استجابت لرغبة الحكومة الفرنسية فى عزل وود وعينت مكانه قنصلا آخر من بين الشخصيات الثانوية مؤكدة بذلك تحولها عن سياسة المحافظة على الوضع الراهن . كذلك اظهرت هذه الازمة رغبة بسمارك الاكيدة فى تأييد أطماع فرنسا ، فكتب الى السفير البريطانى فى برلين يقول « ان حاكما مستبدا غير متحضر مثل باى تونس ، لا يجوز أن يكون سببا فى تعكير صفو العلاقات بين انجلترا وفرنسا » :

وليس معنى ذلك ان احتلال تونس اصبح امرا يسيرا من الناحية الدولية بعد مؤتمر برلين ، وفضلا عن ذلك فقد قامت دونه معارضة داخلية اتفقت فيها أحزاب اليمين مع اليسار . لذا مالت فرنسا فى السنوات القليلة التى سبقت عام ١٨٨١ الى اتباع سياسة اخرى تمهد الى

الاحتلال ، وهي ما تعرف في لغة الاستعماريين بسياسة التغلغل السلمي وهي تعني بذل اقصى جهد للسيطرة على اقتصاد البلاد والحصول على الامتيازات الحيوية فيها دون تدخل عسكري. ووصفها فرسينيه بقوله « أن وجحان النفوذ الفرنسي في تونس يعني انها تحتكر المشروعات المتصلة بالمصالح العامة ، اما المشروعات الفردية فان فرنسا تترك للدول حرية التنافس عليها » .

وتصادف وجود قنصل ايطالي نشط في تونس في هذه الأثناء وهو ماشيو الذي كان يمثل بلاده منذ سنة ١٨٧٩ . واوشك هذا التنافس ان يتحول الى مسألة شخصية بينه وبين قنصل فرنسا روستان الذي لعب دورا كبيرا في التمهيد للاحتلال منذ ان تولى منصبه سنة ١٨٧٥ . وسعى كل من الرجلين سعيا حثيثا للتأثير على الشخصيات الحاكمة في تونس ، كما اصطدما في جميع المناسبات التي تتعلق بمنح الامتيازات الاقتصادية للشركات . فمثلا حينما حصلت شركة ايطالية على امتياز لمد خط للبرق بين صقلية وتونس تحت البحر ، اعترضت فرنسا بشدة محتجة بان امتياز سنة ١٨٧٥ الخاص بمد خطوط البرق في الأراضي التونسية يعطيها حق احتكار هذه المشروعات . كذلك احتدم الخلاف حول امتياز الخط الحديدي الموصل بين تونس وحلق الوادي : فقد رسا عطاء هذا الامتياز اولا على الشركة الفرنسية صاحبة الامتياز على خط تونس — الجزائر ، ولكن شركة روباتينو الايطالية اعترضت على شرعية هذا العطاء محتجة بان المزاد لم يعلن عنه بصورة كافية . فلما رفع الأمر الى هيئة تحكيم بلندن وتأيدت وجهة نظر الشركة الايطالية اعيدت المناقصة : واستطاعت روباتينو التغلب على منافستها الفرنسية بفضل العناية الزائدة التي أولاها اياها مجلس النواب الايطالي ؛ وذلك بتقديم الضمانات المالية للشركة الايطالية . وهكذا استطاعت ان ترتفع بالمزايدة من مليونين و٦٥٠ الف فرنك الى اربعة ملايين ونصف فرنك (١) .

انصب غضب الحكومة الفرنسية على اضعف الاطراف في تلك المشكلة وهو باي تونس . فعلى أثر هذا الحادث ارسلت اساطيلها لتهديد الشواطيء التونسية . ولم تتراجع الا بعد ان حصلت على وعد من الباي باعطاء اصحاب رؤوس الأموال الفرنسيين حق الاولوية في جميع الامتيازات فيما بعد ، كما حصلت في الحال على عدة امتيازات جديدة ؛ من أهمها خط حديدي بين بنزرت وسوسة ، وبناء ميناء جديد لمدينة تونس على القناة التي تصلها بالبحر . وقد بلغت اطماع الفرنسيين الى حد

(١) انظر موضوع الامتيازات في D'estournelles

ان أحد النواب ذهب الى تونس حاملا معه مشروعا باحتكار فرنسا لاصدار البنكنوت التونسى . ولكن الباى لم يتماد فى مسايرة الفرنسيين الى هذا الحد . بل على العكس بدأ يراجع نفسه ويتنبه الى خطورة التوسع فى منح الامتيازات . ومما يجدر بالملاحظة ان الباب العالى كان قد نصح الباى بأن يتنازل له عن حق منح الامتيازات للدول الأجنبية وذلك حتى يتجنب المآزق التى تترتب على تدخل الدول . ولكن الباى آثر التمسك بالاستقلال الزائف عن التنازل عن أى حق من حقوقه .

وتتبين سياسة الباى الجديدة نحو الامتيازات من موقفه ازاء حادث مشهور فى تاريخ تونس ، يعرف بحادث الانفيدا : وهو اسم المزرعة الكبيرة التى كان يملكها خير الدين فى اقليم الساحل ، فانه بعد ان رحل الى استانبول . اراد بيع هذه المزرعة فى مزاد علنى ، وبالطبع لم يكن هناك سوى الشركات الأجنبية التى لديها المال الكافى لشراء هذه المزرعة التى تبلغ مساحتها ٦٦ الف هكتار . ولسوء حظ تونس رسا العطاء على شركة مرسيليا الفرنسية بمبلغ مليون فرنك .

وحتى يعرقل الباى هذه العملية اوعز الى احد الرعايا الانجليز يوسف ليفى ، وهو يهودى مالطى ، بالادعاء بحق الشفعة ، وكان الباى يرجو من وراء اختيار هذا الشخص أن يمتحن مدى تأيد الحكومة البريطانية له . وفعلا رفع ليفى دعوى ضد الشركة الفرنسية ، وتولى الدفاع عنه صحفى انجليزى كان يعمل مراسلا بتونس منذ زمن طويل . وهو المستر برودلى (١) . وقد استطاع برودلى أن يملأ الصحف الانجليزية بأخبار تلك القضية : وأن يكسب الرأى العام البريطانى الى جانب المالطى . ولكن موقف الحكومة البريطانية لم يتأثر بهذه المسألة الفردية . كما اكد السفير الانجليزى فى باريس : بأن الصداقة الانجليزية الفرنسية لن يعكرها هذا الحادث . وعلى كل فان الحكم لم يصدر فى هذه القضية الا بعد الاحتلال. ومن ثم جاء مطابقا لوجهة النظر الفرنسية .

٢

سياسة جيل فرى والشروع فى الحملة

عندما تولى جيل فرى رئاسة الحكومة فى فرنسا رأى أن الظروف

---

(١) هذا الصحفى الذى اشتهر ايضا بدفاعه عن العرابيين امام المحكمة العسكرية بمصر : عاصر احداث هذه الفترة بتونس وكتب عنها المؤلف الهام الذى اشرنا اليه سابقا .

مهياة بدرجة كافية لاحتلال تونس . وذلك ان هذا الزعيم الجمهوري كان يمثل احزاب الوسط . وهي تعبر في الغالب عن الطبقة البرجوازية التي تحمست لسياسة التوسع الاستعماري على اسس جديدة .

فهدفها من وراء هذا التوسع هو الاستغلال الاقتصادي ، ومن ثم اصبحت السياسة الاستعمارية الفرنسية في عهد الجمهورية الثالثة شبيهة بالامبريالية البريطانية .

ويلاحظ ان الحقبة الممتدة من ١٨٧٠ — ١٩١٤ كانت من انشط فترات التوسع الاستعماري الفرنسي ، فقد تم اثناءها وضع الحماية على الهند الصينية ، ومدغشقر ومراكش وانشاء الامبراطورية الكبيرة في افريقيا الغربية والوسطى . وكانت تونس اول حلقات هذا التوسع .

ويرجع الفضل في ذلك الى جيل فري لانه علاوة على مشكلة المعارضة الايطالية كان عليه ان يتغلب اولا على المعارضة الداخلية . وقد اتفقت احزاب اليمين مع اليسار على الوقوف في وجه سياسة فري التوسعية . ولكن لكل منها اهداف مختلفة فاليمينيون من ملكيين وغيرهم ، وهم اصحاب نفوذ كبير في مجلس الشيوخ ، كانوا يرون في حركات التوسع الاستعماري بعثرة للجهود الفرنسية التي يجب أن تتركز لاسترداد الالزاس واللورين المقتطعتين من ارض الوطن . الا ان فري اجاب على هذا الاعتراض (١) ، بأن التغلب على المانيا امر مستحيل ، وبالتالي فان فرنسا لن تعوض هزيمتها في اوربا الا بواسطة التوسع في المستعمرات . اما مثار اعتراض اليساريين ، وكانوا يعرفون في ذلك الوقت باسم الراديكاليين ، فهو أن مشروع حماية تونس مجرد محاولة لخدمة المصالح الخاصة لبعض الراسماليين الذين يملكون أسهم الدين التونسي فارادوا بواسطة احتلال تونس رفع قيمة سندات الدين في سوق الاوراق المالية . ويبدو ان هذا الاتهام لم يكن بعيدا عن الصواب . فانه بعد اتمام الاحتلال بعدة اشهر عادت احدى الصحف الباريسية فكشفت بعض اسرار الحملة ، ومن بينها اتهام بهذا المعنى وجهته الى القنصل روستان . ولما رفع روستان دعوى ضد هذا الصحفي الذي فضح مغامراته المالية المريبة ، لم تأخذ المحكمة بدعواه وبرأت الصحفي .

وقد وجدت أوساط اخرى اشد تحمسا لاحتلال تونس من احزاب الوسط وان كانت هذه الاوساط مقصورة على العسكريين والمستوطنين

---

(١) جمعت خطب جيل فري وآراؤه في مجلدات خمس بعنوان .
Discours et opinions de jule ferry.

الاوروبيين فى الجزائر الذين كانوا يكرهون وجود دولة اسلامية مستقلة مجاورة ؛ ولكن لم يكن فى استطاعة فرى أن ينفذ سياسته دون أن يجد لها مبررات كافية أمام الرأى العام الفرنسى . وقد توصل فرى الى نوعين من المبررات :

الأول يتعلق بالأوضاع الدولية ؛ ويتمثل فى ازدياد النفوذ الايطالى :

والثانى هو تقرب التونسيين من حركة الجامعة الاسلامية التى كان يتزعمها السلطان عبد الحميد .

فبالنسبة للنشاط الايطالى لوحظ أن الملك امبرتو قام بزيارة رسمية لصقلية . حيث استقبل ممثلى الجالية الايطالية فى تونس وبعض الزعماء التونسيين انفسهم . وقد ذهب رئيس الوزراء مصطفى بن اسماعيل بهذه المناسبة الى صقلية حيث منح وساما ايطاليا رفيعا .

وقد التقت رسائل السفير الفرنسى بروما مع وجهة نظر روستان فى التعبير عن القلق الذى اصاب الاستعماريين الفرنسيين من جراء هذا النشاط الايطالى ، وطالب كلا الدبلوماسيين بضرورة عمل حاسم لوضع حد لهذا النشاط ولو على الأقل بجعل تصريح سالسبرى علنيا (١) . وقد بالغت الصحف فى تصوير الأزمة التى ترتبت على زيارة الملك لصقلية . وتحدثت عن وجود حشود على الحدود الايطالية الفرنسية . ويبدو أن فرى حاول اقناع ايطاليا بالطرق الدبلوماسية بالعدول عن سياستها . فأرسل وفدا لمفاوضة كل من الحكومة الايطالية والباى . ولكنه باء بالفشل فى تونس وروما معا .

أما فيما يخص الجامعة الاسلامية . فيلاحظ ان روستان اخذ يحذر حكومته من ازدياد نشاط العثمانيين فى ليبيا وكيف انه يكون خطرا حقيقيا ؛ لا بالنسبة لتونس فقط بل بالنسبة للجزائر ايضا ويلاحظ أن الكتاب الاوربيين بالغوا فى تصوير مدى تأثير حركة الجامعة الاسلامية التى تزعمها العثمانيون ، فنحن نعلم أن السلطان عبد الحميد أرسل وفودا الى الاقطار الاسلامية المختلفة كى يوثق الروابط بينها تحت زعامته كخليفة للمسلمين . ولكننا لا نعتقد انه كان فى استطاعته عمليا ايجاد وحدة سياسية من العالم الاسلامى بأسره (٢) . ومن الراجح ان يكون رجال

---

(١) انظر رسالة دى نواى السفير الفرنسى فى روما بتاريخ ١٨٨٠/١٠/١٣
D. D. F. TOM 3 No. 347.

(2) Safwat p. 294 — 305.

الطرق الصوفية فى شمال افريقيا ، وخاصة السنوسية من أكثر البيئات التى تأثرت بفكرة الجامعة الاسلامية وروجت لها فى المنطقة • وقد حمل الفرنسيون تلك الدعاية السنوسية مسؤلية مقتل أعضاء بعثة فلاترز الاستكشافية فى الصحراء الكبرى اوائل سنة ١٨٨١ • فكان هـذا الحادث من بين الحجج التى قدمها المستوطنون للمطالبة بتعجيل احتلال تونس •

ولكن الحجة القوية التى استند اليها جيل فرى والتى استطاع بواسطتها اقناع مجلس النواب باعتماد المبالغ اللازمة لحملة تأديبية كانت تتعلق ببعض حوادث الحدود ، وليست هذه الحوادث بالجديدة فهى قديمة قدم احتلال الفرنسيين الجزائر • وقد أشرنا الى هجرة عدد كبير من أهل الجزائر بعد احتلالها الى تونس (١) ومن الطبيعى أن تبقى بعض العشائر المهاجرة مقيمة عند الحدود تمنى نفسها بأمل العودة • والظاهر أن السلطات الفرنسية كانت تخشى من وجودهم على الحدود فطالبت الباى بتسليم بعض زعمائهم •

وقد وقع اختيار فرى على قبائل الكرميين لينسب اليهم حوادث العدوان فى أوائل سنة ١٨٨١ ، فنشر رسالة تلقاها من حاكم عنابة تشير الى اجتياز ٣٠٠ من افراد هذه القبائل للحدود الجزائرية وقتلهم اربعة افراد وسرقة بعض المواشى • ثم ملأ الصحف بأنباء الكرميين ، أو (الكرومير) كما سماهم الفرنسيون وهم الذين يسكنون الركن الشمالى الغربى من تونس ، وهى منطقة جبلية مغطاة بالغابات • واهتم باظهار عجز الباى عن السيطرة على هذه القبائل • وهو وان صدق فى هذا الادعاء الا انه يقصد من ورائه أن يثبت للرأى العام أن فرنسا اذ قررت التدخل فى تونس ، انما تفعل ذلك مضطرة لحماية مستعمرتها الجزائرية •

ومما يثبت صحة استنتاجنا ان فرى كان قد بيت النية على احتلال تونس منذ يناير ١٨٨١ ، بينما لم يقع حادث الكرميين الا فى أواخر مارس ، ويدل على ذلك تلك الرسالة التى كتبها الى جريفى حاكم الجزائر فى أوائل يناير ١٨٨١ ، وفيها تعليمات باتخاذ الاستعدادات العسكرية اللازمة لغزو تونس ، ومن بينها الاسراع فى انشاء الخط الحديدى الموصل الى تونس •

---

(١) نشرت الحكومة الفرنسية كتابا ضمن مجموعة وثائقها الدبلوماسية خصصت لحوادث الحدود بين تونس والجزائر •
Livre jaune affaires de Tunisie, Paris 1881.

تلك هي المبررات التي تذرع بها فري امام الراى العام • ولكن ربما كانت الرسالة (١) التي كتبها ريد القنصل الانجليزى فى تونس مارس ١٨٨١ اصدق تعبيرا عن نيات التوسعيين • فقد نقل الحجج التي سمعها من الجالية الفرنسية على النحو التالي : وجود ٣٠٠ كم من الحدود المشتركة بين تونس والجزائر ، امتلاك الفرنسيين لمائة مليون فرنك من مجموع الدين التونسي البالغ ١٢٥ مليون ، امتياز ٢٠٠ كيلو متر من الخطوط الحديدية ، استغلال مصايد الأصداف على الشواطىء التونسية منذ قرنين ؛ امتياز جميع مشروعات البرق والبريد ، بناء ميناء تونس الجديد ، كون فرنسا أكبر عميل فى تجارة تونس الخارجية ، ممتلكات عقارية قيمتها ٥٠ مليون فرنك •

وعلى اثر الضجة التي احدثها فرى حول حادث اعتداء الكرميين ، قدم مشروعا الى مجلس النواب باعتماد ٥ مليون و ٦٠٠ الف فرنك للقيام (بحملته التأديبية) على القبائل التونسية المعتدية ، واستطاع ان يظفر بتصويت الاغلبية الساحقة • ولانعتقد إن كثيرا من النواب كانوا يجهلون الغرض الحقيقى لهـذه الحملة بدليل ان مليونا و ٦٠٠ الف فرنك قد خصصت للبحرية ، مع ملاحظة ان تأديب قبائل الكرميين عبر الحدود لا يحتمل اشتراك هذا السلاح • ولعلهم تظاهروا بتصديق ان الحملة تأديبية ، وانها لا تقصد احتلال تونس ووضعها تحت الحماية ، حتى يسهلوا على جيل فرى الخطة التي وضعها لتخدير الدول الاجنبية وخاصة ايطاليا (٢) • ولو كانت اغلبية مجلس النواب معارضة حقا لسياسة الحماية التونسية ، لما سارع المجلس بتوقيع معاهدة الحماية فى ٢٣ مايو وباغلبية ساحقة • وسنرى كيف ان المعارضة قد وجهت نقدها فيما بعد ضد شخص جيل فرى • لا ضد السياسة الاستعمارية التي اتبعها فى تونس •

٣

الاحتلال وموقف الدول

بمجرد ان اعتمد مجلس النواب المبالغ اللازمة (للحملة التأديبية) فى ٤ ابريل ١٨٨١ • قام روستان بابلاغ الباى بأن الحكومة الفرنسية

---

(١) انظر هذه الرسالة بتاريخ ١٨٨١/٣/١٢ فى الوثائق الانجليزية المنشورة « المسألة التونسية : Correspondence Relating to Tunis :

(2) Cambon p. 154.

قررت التدخل لتأديب القبائل التونسية ؛ وعلى ذلك فلا بد أن تعتبر القوات الفرنسية القائمة بهذه العملية قوات صديقة ، بل ذهب الى حد المطالبة بأن تتعاون القوات التونسية مع الفرنسية فى أداء مهمتها .

وعبثا حاول الباى ان يقطع على الفرنسيين حجتهم للتدخل . فأرسل أخاه على بك على راس قوة ، وهى اقصى ما استطاع حشده فى مثل هذه الظروف ، ووجهها الى بلاد الكرميين حتى يثبت للفرنسيين انه قادر على اداء المهمة وحده . والظاهر ان الكرميين ادركوا مغبة موقفهم ، فأرادوا ان يفوتوا على الفرنسيين حجتهم وعرضوا على الباى تسليم بعض الرهائن منهم دليلا على خضوعهم لسلطته . ولكن شيئا من هذا لم يحول الفرنسيين عن خطتهم ، وبحثوا فى نفس الوقت عن اتهامات جديدة ، فادعوا ان التونسيين اعتدوا على العمال الاوربيين الذين يعملون فى انشاء الخط الحديدى الذى يصل تونس بالجزائر . وحتى ان صح هذا فمن الطبيعى ان توقف الحكومة التونسية عملية انشاء هـذا الخط كعمل من اعمال الدفاع المشروع بعد توجيه الانذار الفرنسى .

وقد علق الباى آمالا عريضة على معارضة الدول الأوربية والباب العالى ، وظن انها ستتدخل للمحافظة على استقلال بلاده . بل انه ظل يناشد الحكومة البريطانية رغم موقفها الصريح فى تأييد فرنسا ، حتى بعد ان نزل الفرنسيون فى ميناء بنزرت واتجهوا نحو مدينة تونس فى أوائل مايو . نعم كان هناك تأييد ادبى من كل من ايطاليا والباب العالى للأسباب المعروفة لدينا اما بالنسبة للدولة العثمانية فلم يكن فى استطاعتها عمل شىء حاسم للوقوف امام الغزو الفرنسى ؛ وهى التى وقفت جامدة امام غزو الجزائر سنة ١٨٣٠ . والآن وبعد مضى نصف قرن ازدادت فيه الدولة العثمانية ضعفا اصبح تدخلها أبعد عن التحقيق .

اما ايطاليا فلم تكن مستعدة وحدها للاشتباك مع فرنسا ، وشعر الراى العام الايطالى بمرارة شديدة وهو يرى قرب ضياع تونس ، وراح يصب غضبه على رئيس الوزراء كيرولى ؛ فأسقطه مجلس النواب بعد توجيه انذار فرنسا للباى بيومين . وقد حاول كيرولى محاولة يائسة لكى يحصل على تأييد بريطانى ينقذ به وزارته . ومع ان السفير الايطالى بلندن افهم الحكومة البريطانية بأن بقاء وزارة كيرولى متوقف على ردها فقد أجاب جرانفيل بأن فرنسا لا تنوى ضم تونس ، بل مجرد حملة تاديبية ضد القبائل المعتدية (١) . ويدل هذا التجاهل لحقيقة الموقف فى تونس على ان بريطانيا قد ذهبت فى تأييد فرنسا الى آخر الشوط .

---

(١) انظر رسالة جرانفيل بتاريخ ١٨٨١/٤/٣ الى السفير الايطالى بلندن ضمن الوثائق البريطانية ... correspondence

ولم يكن جلادستون رئيس الوزراء البريطانى بأقل تأييدا من وزير خارجيته • فان جلادستون الذى نشأ قسيسا ، كان معروفا بعدائه الشخصى للدولة العثمانية والعالم الاسلامى ، ولذلك اجاب على نداء الحكومة الإيطالية بقوله « ان مجاورة امة متمدينة لدولة متأخرة لا بد أن يؤدى الى مثل هذا التدخل » • ولنفس هذا السبب لم يصغ الى نداءات الدولة العثمانية ، ومما يثبت ان الحكومة البريطانية كانت على علم بنية فرنسا الحقيقية ، تلك الرسالة التى بعث بها ليونز السفير البريطانى بباريس منذ ٨ أبريل ١٨٨١ الى حكومته ، وفيها ينقل عن لسان فرى أن غاية فرنسا من احتلال تونس هو وضعها تحت الحماية وليس ضمها كمستعمرة مباشرة مثل الجزائر • والقصد الظاهر من هذه الرسالة هو طمانة الحكومة البريطانية بأن فرنسا ليست مسرفة فى سياستها الاستعمارية • ولكنها تثبت على كل حال علم الحكومة البريطانية بأن الهدف لم يكن مجرد حملة تأديبية • وفضلا عن هذا ، فقد اعلنت بريطانيا موقفها صراحة حين سمحت لجريدة التايمز بنشر تصريح سالسبرى فى نفس هذا اليوم •

وفى هذه الأثناء تولى احد اليساريين وهو دبرتى رئاسة الحكومة فى ايطاليا • وقد عرف عن اليساريين هناك ميلهم الى فرنسا ذات النظام الجمهورى الديمقراطى • ولذا لم يلح الرئيس الجديد فى التشدد ازاء الحملة الفرنسية ، بالرغم من ان السبب الظاهر لسقوط سلفه كيرولى كان تهاونه فى تلك المسألة • ومع ذلك فقد أراد دبرتى فعل شىء يعبر به عن احتجاج ايطاليا ، فطلب الى بريطانيا الاشتراك مع بلاده فى القيام بمظاهرة بحرية امام الشواطىء التونسية • وقد وافقت انجلترا ولكنها اشترطت أن يحدد هدف هذه المظاهرة البحرية بأنه حماية للرعايا الاوربيين (من تعصب المسلمين) الذى قد يحتدم اثناء تقدم القوات الفرنسية •

وكانت المشكلة الجوهرية التى واجهت فرى هى كيفية حشد الجند اللازم لهذه الحملة دون اللجوء الى دعوة الاحتياطى ، نظرا لانه حرص على أن يعطى للحملة مظهر العملية البوليسية المحدودة الهدف • فتغلب على المشكلة بأن ضم الى فرق الحدود بعض الجنود الذين يقومون بالخدمة العسكرية الاجبارية ووضعهم تحت قيادة ضباط من جيش الاحتلال فى الجزائر • وبهذه الطريقة امكن حشد ٣٠٠٠٠ جندى تحت قيادة قائد قسنطينة فور جمول •

وفى ٢٤ أبريل اجتازت القوات الفرنسية حدود تونس فى اتجاهين • الأول نحو شمال تونس ، وكان هدفه الأول الكرميين • اما الثانى فقد اتجه الى اقليم الكاف • ومع بعد هذا الاقليم عن الكرميين فقد

ظل الفرنسيون يتظاهرون بانها عملية التفاف وانهم لم يخرجوا عن الهدف الذى اعلنوه رسميا . ومن هذه الجبهة الثانية كان تقدم الفرنسيين أسرع لعدم وجود مقاومة مثل تلك التي ابداها الكرميون فى بلادهم . وقد انسحب على بك على اثر مقابلة تمت بينه وبين الجنرال الفرنسي ، وترك أعمال المقاومة للقبائل غير المنظمة بالقدر الذى تملكه . وكانت تعليمات الباى تقضى بان لا ينسحب التونسيون الا بعد وقوع الاعتداء عليهم ولعله كان يتوهم ان اظهار العدوان قد يثير عطف الدول الاوربية على تونس . وقد حاول حاكم طبرقه ، وهى ميناء صغير قرب ساحل الجزائر ، تنفيذ هذه التعليمات فلم يستطع المقاومة اكثر من بضع ساعات .

وعندما نزلت القوات الفرنسية بميناء بنزرت اول مايو اتضحت اهداف الحملة البعيدة ، وانها تقصد مدينة تونس لاملاء شروطها على الباى . وفى ١١ مايو وصلت هذه القوات امام قصر الباى المعروف بقصر الباردو على بعد ٢٠كم من تونس . وهناك لحق القنصل روستان بالقائد بريار ، ولم يكن القنصل قد غادر البلاد باعتبار ان تلك الاعمال ليست حربا رسمية . وكان الجنرال بريار يحمل معه نص المعاهدة التى وضعها جيل فرى لتنظيم العلاقات بين تونس وفرنسا تحت الاحتلال . فقدمت الى الباى لتوقيعها بعد أن اعطى مهلة ٥ ساعات فقط ، فلم يكن امامه سوى الرضوخ ، ومن جهة اخرى هدده الفرنسيون بالخلع عن العرش وتنصيب اخيه الطيب باى الذى اتفق معهم على توقيع المعاهدة فى حالة ما اذا رفض محمد الصادق توقيعها . وتحت هذا الضغط وقع الصادق باى معاهدة الحماية فى ١٢ مايو ١٨٨١ .

الفصل العاشر

الحماية

١

كانت تونس اول تجربة لنظام الحماية فى تاريخ الاستعمار الفرنسى . وقد استهدف فرى مبتدع هذا النظــام امرين : اولا اسكات المعارضة الدولية بحجة ان فرنســـا لم تقض على كيان الدولة المحمية بالضم . ثانيا اقناع المعارضة الداخلية بأن الحكومة لن تتورط فى اعباء مالية جديدة ، لأن من مميزات الحماية انها تحمل الدولة المحمية نفقات الاحتلال وجميع ما يترتب على الاصلاحات الادارية والاقتصادية المفروض ادخالها بواسطة الدولة الحامية . ومن الواضح ان هذا النظام يتمشى مع أهداف فرى العامة من الاستعمار ، اذ يقدم الاستغلال الاقتصادى على مســألة المجد القومى ويبدو ان فرنسا ارتاحت الى هذا النظام فاتبعته بعد ذلك فى عدة مستعمرات : الهند الصينية فمدغشقر لمدة ما ، ثم فى مراكش .

وتدل معاهدة الباردو على ان فكرة الحماية عند نشأتها كانت تقوم فعلا على مبدأ ان الدولة الحــامية تشرف فقط اشرافا فنيا على الادارة الوطنية وتوجهها دون ان تحل محلها بل ان تلك المعاهدة نصت على أن الاحتلال العسكرى يكون مؤقتا . ولعل أبرز النتائج المترتبة على نظام الحماية هو تولى الدولة الحامية شئون الخارجية والدفاع . وسنورد فيما يلى أهم نصوص المعاهدة (١) .

البند الأول : ان معاهدة الصلح والصداقة والتجارة ، وجميــع المعاهدات الأخرى القائمة الآن بين الجمهورية الفرنسية وسمو باى تونس قد وقع تأكيدها وتجديدها .

البند الثانى : لأجل تسهيل القيــام بالاجراءات التى يتحتم على دولة الجمهورية الفرنسية اتخاذها للوصول للغرض الذى يقصده الجانبان الساميان المتعاقدان ، فقــد رضى سمو باى تونس بأن تحــتل القوات

---

(١) النص منشور فى اماكن عــدة ، ويمكن الرجوع بسهولة الى : الحبيب ثامر ــ هذه تونس ــ ص ١١٥ - ١١٦ .

الفرنسية العسكرية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والأمن بالحدود والسواحل . ويزول هذا الاختلال عندما تتفق السلطتان الحربيتان ـ الفرنسية والتونسية ـ وتقرران معا بأن الادارة المحلية قد اصبحت قادرة على المحافظة على استتباب الأمن والنظام .

البند الثالث : تتعهد فرنسا ببذل مساعدتها المستمرة لسمو الباي وحمايته من كل خطر يمكن أن يهدد ذاته او عائلته ، أو يعبث بأمن مملكته .

البند الرابع : تضمن الدولة الفرنسية تنفيذ جميع المعاهدات المعقودة بين الدولة التونسية ومختلف الدول الأوربية .

البند الخامس : يمثل فرنسا لدى سمو الباي وزير مقيم عام ، تكون وظيفته السهر على تنفيذ احكام هذه المعاهدة ، ويكون هو الواسطة بين فرنسا والسلطات التونسية في جميع القضايا التي تهم الجانبين .

البند السادس : يكلف الدبلوماسيون والقنصليون لفرنسا في البلاد الأجنبية بحماية رعايا المملكة التونسية ومصالحها ، وفي مقابل ذلك يلتزم سمو الباي بأن لا يعقد اي عقد ذي صبغة دولية دون اعلام الدولة الفرنسية بذلك والحصول على موافقتها مقدما .

البند السابع : تحتفظ دولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو الباي لنفسهما بحق الاتفاق على وضع نظام مالي بالمملكة التونسية ، من شأنه الوفاء بواجبات الدين العام وضمان حقوق دائني المملكة .

البند الثامن : تفرض غرامة حربية على القبائل العاصية بالحدود والسواحل ، وتحدد قيمة هذه الغرامة وطرق جبايتها باتفاق يعقد فيما بعد ، وتكون حكومة الباي هي المسئولة عن تنفيذ هذا الاتفاق .

البند التاسع : لاجل صيانة ممتلكات الجمهورية الفرنسية بالقطر الجزائري من تهريب الأسلحة والذخائر ، فان دولة سمو الباي تتعهد بأن تمنع قطعا ادخال السلاح والذخائر الحربية جربة ومرسى قابس والمراسي الاخرى بالمملكة التونسية .

البند العاشر : خاص بالتوقيع

على أن فرنسا لم تكتف بالقيود التي فرضتها معاهدة الباردو . فالحقت بها معاهدة اخرى سنة ١٨٨٣ تؤكد سيطرتها التامة على البلاد . وكانت اهم حجة لادخال هذا التعديل هو قيام ثورة وطنية مسلحة

ضد قوات الاحتـــلال ، بمجرد ان افاق التونسيون من غفوتهم · ولذلك سنتوقف قليلا لتتبع حوادث تلك الثورة ·

والظاهر ان احتلال تونس بدون مقاومة تقريبا قد جعل الفرنسيين يعتقدون بأن امرهم قد استقر ، ولذلك قبل بريار رجاء الباى بعدم دخول القوات الفرنسية الى العاصمة · ومن جهة اخرى أسرع جيل فرى بسحب جزء كبير من قوات الحملة لكى يظهر للمعارضة براعته فى تنفيذ خطة الاحتلال بأقل عدد من الجنود والنفقات ، سيما وأن البلاد كانت مقبلة على انتخابات نيابية · وكـــان فرى بحاجة الى استرضاء أسر الجند ، ولكن سرعان ما خاب تقديره حين اندلعت فى البلاد ثورة عامة ·

ولقد شجع التونسيين على القيام بهذه الثورة عاملان : الاول قيـام ثورة فى الجزائر ، هى ثورة بو عمامة فى جنوب وهران فى صيف ١٨٨١· وثانيا احســاس التونسيين بأن القوات العثمانية المرابطة فى طرابلس الغرب ستؤيدهم أو على الأقل ستأويهم اذا فشلوا فى حركتهم · ولذلك كـان القسم الجنوبى من تونس هو المسرح الرئيسى للثورة ، وخاصة فى مدينـــة القيروان المشهورة فى شمال افريقيا كلها بمكانتها الدينية والتاريخية العظيمة · فهى أول مدينة اسلامية بناها عقبة بن نافع عندما فتح المسلمون البلاد ، وهذا يدل على اهمية الباعث الدينى فى حركـة المقاومة · ومن القيروان امتدت الثورة الى الساحل الجنوبى ، فاحتل الثوار ميناء سفاقص وطردوا منه نائب الباى ، الذى أصبح فى نظرهم خائنا بقبوله التوقيع على معاهدة الحماية · ونادوا بأحد رؤساء القبائل ، على بن خليفة اميرا عليهم · وفى شـــهر يونيو أصبحوا يسيطرون على الساحل الجنوبى الممتد من سفاقص حتى حـــدود طرابلس بما فى ذلك جزيرة جربة وخليج قابس (١) ·

احرجت هذه الحـــركة موقف جيل فرى ، فهو الذى اراد ان يتم عملية الاحتلال بأقل عدد ممكن من الجند · وقد اصبح الآن بين امرين : اما أن يترك الثورة وشأنها مخاطرا بالمكاسب السهلة التى احرزها منـــذ قليل ، وأما أن يعزز الحملة بقوات كبيرة ، وهذا لا يتأتى الا باعلان التعبئة وباعتماد نفقـــات كبيرة قد لا يوافق عليها مجلس النواب · وقد تغلب السياسى الاستعمارى البارع على هذه المشكلة ، اذ قرر قمع الثورة التونسية على مرحلتين : مرحلة اولية عاجلة وتهدف الى ابعاد الثوار عن المنطقة الساحلية حتى تقطع عليهم سبل الاتصال بالخارج ، ويمكن الاكتفاء بالأسطول

(1) Cambon p. 157 — 158.

الفرنسى لاتمـــام هده المهمة • والمرحلة الثانية وتهدف الى الزحف على الثوار فى الداخل ؛ وقد اجل تنفيذها الى ما بعد الانتخابات العامة فى اغسطس •

بدات الأعمال الحربية ضد مراكز المقاومة التونسية الساحلية عندما وجه الاسطول ضرباته الى ميناء سفاقص فى أوائل يوليو • وكان الثوار قد اعتنوا بتحصينه ؛ فارتدت البحرية الفرنسية عنه خائبة • واحتـاج الفرنسيون الى حشد ست مدرعات بحرية حتى يتغلبوا على هذا الميناء الصغير فى ١٦ يوليو • ومع ذلك لم يتمكن الفرنسيون من انزال قواتهم الا بعد ان دمرت المدينة تدميرا كاملا • واتجه الاسطول بعد ذلك الى مراكز المقاومة الاخرى فى قابس وجربة حيث ترك حاميات صغيرة •

وقد استطـــاع الثوار ان يستردوا قابس ، الى ان بدات المرحلة الثانية فى سبتمبر • ويبدو أن جيل فرى حرص على أن يتم القضــاء على المقاومة التونسية قبل ان يبدأ البرلمان الجديد اجتماعه فى أواخر اكتوبر • وشجعه على ذلك نجـــاح عدد اكبر من النواب الجمهوريين فى المجلس الجديد فبلغ عددهم ٣٧٠ الى جانب ٨٥ من اليمنيين المتطرفين و ٣٨ من اليساريين الراديكاليين • وقد راينا ان جيل فرى كان يعتمد على احزاب الوسط الجمهورية فى تنفيذ سياسته التوسعية • وحتى يهيىء الاذهـــان لقبول التعبئة الجزئية لمواجهة الحالة فى تونس ، اخذ يشيع فى الصحف ان استقرار الجمهورية فى فرنسا متوقف على بقاء الحماية فى تونس وبهذه الطريقة استطاع حشد ٥٠ الفا من الجند ، ارسلوا الى تونس فى اواخر سبتمبر تحت قيادة الجنرال سوسييه •

وقد ركزت جميع الجهود للاستيلاء على القيروان عاصمة الثوار ، فسيرت اليهـــا ثلاثة طوابير من جهات مختلفة • وعندما رأى الثوار ان الفرنسيين يحيطون بهم من كل جانب ؛ تفرقوا فى الواحات الجنوبية ورحل بعضهم الى طرابلس • وعندما وصلت طلائع الغزاة الى المدينة وجدتها خالية من المحاربين ، وسلم من بقى من اهلها بدون مقاومة فى ٢٧ اكتوبر ١٨٨١ •

واذا كـــان الفرنسيون قد قرروا فيما بعد اخلاء مدينة القيروان نفسها لعدم ملاءمتها صحيا ، فان هذا لا يعنى انهم تخلوا عن سياسة التغلغل فى تونس • وحتى يمنعوا قيام حركة اخــرى للمقاومة اهتموا بالمنطقة الجنوبية خاصة • فأقاموا مركزا للقيادة العامة فى سوسة ونشروا طوابيرهم فى الواحـــات الجنوبية • كما اقاموا حاميات فى جميع المدن الهامة وتجاوزوا عن وعدهم السابق للباى • فعسكرت حامية فرنسية فى العاصمة • وقد ظن جيل فرى انه سيجوز على تأييد مجلس النواب عند

اجتماعه اذا ما واجهه بهذه الانتصارات الجديدة • ولكن الذى كان يعنى النواب ليس هو مصير تونس ، بل سياسة جيل فرى العامة وحسد كثير من الجمهوريين له • ولذلك وجهوا نقدهم الى مسائل لا تمس المسألة التونسية الا من زاوية سياسة فرنسا الداخلية ، مثل كيفية تمويل الحملة دون اذن البرلمان ، او سوء قيادة العمليات الحربية وبطء بعضها أو *المداولات التى اثارتها المسألة التونسية بين فرنسا وايطاليا* •

ومع ان مجلس النواب لم يتخذ قرارا ضد سياسة جيل فرى فى تونس الا ان رئيس الوزراء آثر الاستقالة والتخلى عن الحكم لزعيم جمهورى آخر هو جمبتا •

ولم يتحول الرئيس الجديد قيد انملة عن سياسة سلفه بالنسبة لتونس • فمضى فى تدعيم السيطرة الفرنسية على ادارتها ، الى حد أنه عندما مات محمد الصادق سنة ١٨٨٢ تدخل المقيم العام فى اختيار خليفة الباى وقام بتنصيبه مستغلا تقاليد الأسرة الحسينية التى لم تاخذ بنظام وراثة الأبناء للعرش • وقد وقع اختيار المقيم على ، على باى شقيق الصادق ، الذى صار من اطوع البايات للسياسة الاستعمارية التى اتبعها خلفاء جيل فرى •

ففى ٨ يونيو ١٨٨٣ قبل على باى توقيع معاهدة جديدة تعرف بالمرسى ، اعتبرها الفرنسيون حسب النص مكملة لمعاهدة باردو • والواقع أن هدف هذه المعاهدة هو توسيع اختصاصات الدولة صاحبة الحماية فهى تشمل (١) :

أولا : ادخال الاصلاحات الادارية والعدلية والمالية ، التى ترى الحكومة الفرنسية فائدة فيها •

ثانيا : ضمان الحكومة الفرنسية لقرض يعقده الباى ، لتحويل أو لدفع الدين الموحد البالغ ١٢٥ مليون فرنك ، والدين السائر الذى لا يمكن أن يتجاوز ١٧٫٥٥٠٫٠٠٠ فرنك • ولكنها هى التى تختار الزمن والشروط الموافقة لذلك • وقد تعهد الباى بان لا يعقد قرضا فى المستقبل لحساب تونس دون اذن سابق من الحكومة الفرنسية •

ثالثا : يخصص الباى من مداخيل تونس اولا : المبالغ اللازمة للقيام

---

(١) الحبيب ثامر — هذه تونس — ص ١١٧ ؛ ١١٨

بواجبات القرض الذى ضمنته فرنسا . ثانيا : مخصصات سمو الباى وقدرهـــا مليونان من الريالات التونسية (اى ۱۲۰۰٫۰۰۰ فرنك) ، وما فضل بعد ذلك يعين لمصاريف ادارة المملكة ودفع مصاريف الحماية .

٢

تنظيم الحـــكم

كـــــان روستان هو اول من تولى منصب الاقامة العامة ثم خلفه بول كامبون ، الذى ينتمى الى عائلة دبلوماسية معروفة . وكان مفروضا أن تكون اختصاصات المقيم ، حتى بعد توقيع معاهدة المرسى ، مقصورة على التوجيه والارشاد الفنى فى ادارة البلاد الداخلية . ولكن لم تلبث الحكومة الفرنسية أن اصـــدرت مرسوما فى نوفمبر ١٨٨٤ يوسع من اختصاصات المقيم العـــام . فتقرر تكوين مجلس لمعاونة المقيم يتألف من مديرى المصالح الفرنسيين الذين كان مفروضا أن يلحقوا بالوزارات التونسية كخبراء ، بيد ان معظم الوزارات الوطنية الغيت ، ولم يبق سوى منصب رئيس الوزراء ووزير آخر وطنى يعرف بوزير القلم . وفى سنة ١٩٢١ انشىء منصب ثالث ، هو وزير العدل . أما الدوائر الأخرى كالمالية والمعارف والصحة والأشغال فيتولاهـــا هؤلاء المديرون الفرنسيون الذين لهم حق اصدار الأوامر الوزارية ، وينضم الى مجلس المقيم العام قائد الجيش البرى ، ثم اضيف اليـــه قائد قاعدة بنزرت البحرية الذى أصبح بمثابة وزير دفاع المملكة بعد أن صـــارت تلك القاعدة من أكبر القواعد البحرية فى شمال أفريقيا .

ويشكل سكرتير الاقامة حلقة الاتصال بين الوزراء التونسيين وبين المديرين الفرنسيين : أو بعبارة أخرى كان هو المسئول عن تسيير شئون الوزارات التى بقيت بيد التونسيين . وحسب مرسوم سنة ١٨٨٤ تتولى حكومة الجمهورية اصدار المراسيم التشريعية للجالية الفرنسية . وهذا هو أساس المبدأ الذى تمسك بـــه المستوطنون الفرنسيون فيما بعد وسموه بالسيادة المزدوجـــة Co. Souveraintè.

هذا من حيث نظام الحكم . اما من حيث التشريع فقد تحايل الفقهاء الفرنسيون حتى تقلوا سلطته الى المقيم العام ، فادعوا بأن الباى هـــو صاحب السلطة المطلقة فى التشريع . وبالتالى له حق تفويضها لمن يشاء . وقد فوض الباى ؛ المقيم العـــام لهذا الغرض . ولذلك فهو يضع المراسيم التشريعية ، ثم يصدرها بعد توقيع الباى . وقد وجدت الحماية فى أول عهدها من على باى ١٨٨٢ ــ ١٩٠١ منفذا طيعا لسياستها .

أما من الناحية الادارية ، فقد كانت تونس مقسمة الى ١٩ قيادة فالحق بكل قائد مشرف مدنى فرنسى • بينما تولت السلطات العسكرية ادارة المناطق الجنوبية بصورة مباشرة الى أن هدأت الأحوال فقسمت هى الأخرى الى قيادات مدنية سنة ١٨٩٤ • وعلاوة على ذلك كله احتل الفرنسيون جميع وظائف الدولة الكبيرة وتغلغلوا الى أصغر الوظائف غير مراعين اختلاف طبيعة نظام الحماية عن المستعمرة وسيكون لهذا النظام اثره البعيد فى حرمان البلاد من الموظفين المدربين ومواجهة مشكلات عويصة عند الاستقلال •

ولما حلت الاقامة العامة محل الحكومة التونسية فى ممارسة مطلق السلطات بات من العسير عليها تحمل القيود الدولية التى كانت مفروضة على تونس قبل الحماية واهمها وجود لجنة الدين ثم القضاء القنصلى ، فعملت على الغائهما • فأما لجنة المراقبة الدولية ، فقد أصبح وجودها غير ضرورى بعد أن ضمنت الحكومة الفرنسية الدين التونسى فى معاهدة المرسى ، ولكن هذا الضمان بالذات جعل الجمعية الوطنية تتردد طويلا قبل توقيع المعاهدة • وأشار بعض النواب أن ذلك يثبت صحة الاتهام القائل بأن الحملة التونسية انما قصد بها خدمة مصالح المساهمين فى الدين • ولما استقر المجلس أخيرا على توقيع المعاهدة فى ابريل ١٨٨٤ حلت اللجنة نفسها دون معارضة •

وبالنسبة للقضاء القنصلى ، كانت خطة الحماية هى تحويل تبعية الجاليات الأجنبية المختلفة الى المحاكم الخاصة التى تأسست لتطبق قوانين فرنسا • وتمهيدا لقبول الدول الأجنبية الغاء هذا القضاء ، أصدر الباى مرسوما بجواز تحول الأجانب المقيمين فى تونس الى المحاكم الفرنسية فى حالة ما اذا انعدم القضاء القنصلى الذى يتبعونه • وقد نجحت فرنسا فى اقناع انجلترا أولا بالتخلى عن هذه الامتيازات فى يناير ١٨٨٥ • أما ايطاليا فقد ظلت تماطل حتى سويت مشاكلها العامة تدريجيا • ومن جهة أخرى فتحت فرنسا باب التجنس أمام المستوطنين الاوربيين من الجنسيات الأخرى ، بل شجعت التونسيين انفسهم على التجنس ، الا انه لم يستفد من هذا سوى الطائفة اليهودية •

ان المؤرخ للتطور الداخلى فى تونس لفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى لا يستطيع ان يتناول تطور الحياة السياسية لهذا السبب البسيط ، وهو ان الحماية حالت دون مشاركة التونسيين فى أى نشاط سياسى • والمظهر الوحيد لاشراك التونسيين فى الحياة العامة يتمثل فى قيام المجالس البلدية فى المدن • والمجالس الاقليمية فى المديريات الخمس الرئيسية •

وقد اخذ منذ تأسيس هذه المجالس بقاعدة مناصفة المقاعد بين الجالية الاوربية والتونسيين .

وفي نفس هذا التاريخ اي في عـــام ١٨٩٦ ، تأسس مجلس شورى يؤخذ رايه على سبيل الاستشارة في سياسة البلاد الاقتصادية . وظل هذا المجلس مقصورا على المستوطنين ، فيختارون ممثليهم من بين اعضاء الغرف التجارية والصناعية ، وأعضــــاء المجالس البلدية . وحين سمح للتونسيين بدخول هـــذا المجلس للمرة الاولى سنة ١٩٠٧ جعل تمثيلهم بالتعيين ، فيختار المقيم العام ١٦ من أهل البلاد . ورغم انهم كانوا لا يكونون سوى أقلية في المجلس ، فقد لوحظ ارتفاع بعض اصوات المعارضة في وجه الممثلين الاوربيين . لذلك تقرر جعل هذا المجلس قسمين يجتمع كل منهما على حده ، وظل الفصل بين الاعضاء التونسيين والأوربيين هو القاعدة التي سارت عليها المجالس البلدية والتشريعية (١) . واستمر هذا الوضع قائما الى ان ظهر ضغط الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الاولى فادخلت بعض التعديلات على هذا المجلس ولكنها كانت بعيدة عن الاستجابة للرغبـــات الوطنية .

٣

الاستعمار واســـتغلال الاراضي

بمجرد ان احتل الفرنسيون تونس اخذوا يفكرون في احسن الوسائل لهجرة العنصر الاوروبي اليها واستيطانها ، دون مراعاة اختلاف الوضع القانوني بين المحمية والمستعمرة . غير أنه لم يكن من المعقول أن تلجــأ الحماية الى سياسة الاستعمار الرسمي بينما هي تريد أن تثبت للرأي العام الفرنسي ان تونس لا تكلف حكومتهم شيئا . ولذلك اكتفت في الفترة الأولى بتشجيع الاستعمار الحر . وكانت المشكلة هي ايجاد الوسيلة التي تطمئن الراغبين في استغلال الاراضي على ثبوت ملكيتهم وحريتهم في التعامل عليهـــا .

وفي سنة ١٨٨٥ تقرر تطبيق نظام تورنز الخاص بتنظيم المـــلكية العقارية ، وهو النظام السارى في استراليا حيث لا يوجد سكان اصليون متحضرون قد استقروا على الأرض ونظموا ملكيتها . وبمقتضى هذا القانون يستطيع المالك الجديد لقطعة الأرض أن يضمن ملكيته لها بواسطة تسجيلها

(1) Cambon p. 196.

فى محكمة مختلطة ، انشئت خصيصا لهذا الغرض وذلك بعد بيان حدودها ثم الاعلان عنها . ويحتفظ بصورة من حجة الملكية فى سجل خاص بالمحكمة للرجوع اليه فى حالة ما اذا أراد المالك التصرف فى قطعة الأرض بالبيع . وبذا يطمئن المشترى الجديد الى عدم امكان ادعاء شخص آخر بملكية العقار .

وبالرغم من هذه التسهيلات فقد لوحظ أن نظام الاستعمار الحر لم يشجع سوى عدد ضئيل من الفرنسيين على الهجرة ، فضلا عن أن هذا العدد القليل كان ينتمى الى كبـــار الراسماليين الذين يشترون مساحات واسعة ويؤجرونها للسكان الاصليين أو للأوربيين من الجنسيات الاخرى ، فظل الايطاليون محتفظين بالأغلبيـــة بين طوائف المستوطنين رغم اغرائهم بالتجنس بالجنسية الفرنسية لأن الحكومة الايطالية تدخلت فى الامر ، الى أن أتاحت هزيمة أيطاليا فى الحرب العـــالمية الثانية لفرنسا تنفيذ سياستها .

ويتبين من الجدول الآتى كيفية تزايد الأوربيين بمختلف جنسياتهم(1).

سنة	فرنسيون	ايطاليون	مالطيون
١٨٨١	٧٠٠	١١٢٠٠	٧٠٠٠
١٨٨٦	٣٥٠٠	١٦٧٥٠	٩٠٠٠
١٨٩١	١٠٠٠٠	٣١٠٠٠	١١٧٠٠
١٨٩٦	١٦٠٠٠	٥٥٠٠٠	١٠٢٠٠
١٩٠١	٢٤٠٠٠	٧١٠٠٠	١٢٠٠٠
١٩٠٦	٣٤٦٠٠	٨١١٥٦	١٠٠٠٠
١٩١١	٤٦٠٠٠	٨٨٠٨٢	١١٣٠٠
١٩٢١	٥٤٤٤٧	٨٤٨١٩	—
١٩٢٦	٧١٠٢٠	٨٩٢١٥	٨٣٩٥
١٩٣٧	١٠٨٠٠٠	٩٧٠٠٠	—
١٩٤٦	١٤٣٠٠٠	٨٩٠٠٠	—

على أن الاحصاءات الايطالية تختلف كثيرا عن هذه الأرقام ، فطبقا لهذه الأخيرة بلغ عـــدد الايطاليين سنة ١٩١١ مثلا ١٣٠ الفا والفرنسيين ٣٠ الفـــا .

مثل التوسع فى سياسة الهجرة الاوربية خطورة شديدة ، نظرا لان

(1) Afrique francàise Mars 1921.

تونس كانت ضئيلة الكثافة بالسكان عند وضع الحماية عليها ، فلم يزد عدد التونسيين حينئذ على مليون ونصف يتركز معظمهم فى الاقاليم الساحلية بينما كان الداخل مقفرا من السكان . ولم يسر تزايد التونسيين بنفس السرعة التى زاد بها سكان الجزائر مثلا . اذ بلغ عددهم فى احصاء سنة ١٩٤٦ نحو ثلاثة ملايين نسمة وسنرى ان استيلاء الاوربيين على قسم كبير من الثروة الزراعية ومعظم الصناعة ؛ ثم الثروة المعدنية باكملها ، قد حال دون تقدم التونسيين المادى .وقد تكرر حدوث المجاعات الى عهد قريب من حصول البلاد على استقلالها .

وبحجة وجود هذا الفراغ العمرانى ، ومن اجل موازنة تدفق العنصر الايطالى عليها ، تحولت الحماية تدريجيا الى سياسة الاستعمار الرسمى . واول خطوة اتخذتها فى هذا السبيل هى اصدار مرسوم فى فبراير ١٨٩٢ (١) ، يقضى بضم الاراضى البور الى ملكية الدولة . وقد ادى ذلك الى الاستيلاء على مساحات شاسعة فى الجنوب حول سفاقص حيث استطاع الاوربيون ان يشاركوا فى انتاج الزيتون ، وهو من اهم موارد السكان الاصليين قبل الحماية .

والخطوة الثانية هى الاستيلاء على الاوقاف الخيرية . وحتى تخفف الحماية من وقع الصدمة التى سيتلقاها عدد كبير من التونسيين الذين يعيشون من ريع هذه الاوقاف تجنبت مؤقتا الاستيلاء على الاوقاف الاهلية، ولما كانت اراضى الاوقاف غير قابلة للبيع فقد بحث الفرنسيون فى الفقه الاسلامى عن الحل الذى يسهل على المستوطنين الاستيلاء على هذه الاراضى بالوسائل الملتوية ، فتشبثوا برأى ضعيف فى مذهب مالك يبيح الاجارة المستديمة للاراضى الموقوفة ، وبرأى آخر فى مذهب ابى حنيفة يبيح جواز استبدال العقار الموقوف بعين اخرى ؛ اذا كان فى مصلحة الواقف .

وهكذا كان المستوطنون يمنحون نحو ١٠٠٠ هكتار سنويا من اراضى الاوقاف الشاسعة التى تغطى ١/٤ الاراضى المزروعة فى شمال تونس ، وذلك فى نظير ايجار سنوى ضئيل ولكن المستوطنين بما لهم من نفوذ على الادارة لم يحترموا شروط الاستغلال فكفوا عن دفع الايجار منذ سنة ١٩٠٥ (٢) وفى سنة ١٩٠٤ قدم المستوطنون اقتراحا بانتزاع الاوقاف الاهلية ايضا . ولكن تبين ان المنتفعين بهذه الاوقاف ومعظمهم من

---

(١) الحبيب ثامر — ص ٤٢ وما بعدها .

(1) Terras, essai sur les biens habous en Algerie et en Tunisie Journal oficiel. Vol., 11 p. 386 s. q.

الأعيان التونسيين سيتحولون بعد حرمانهم من ثروتهم الى أعداء الداء لفرنسا مما يقوى صفوف الحركة القومية ·

والخطوة الثالثة هي التوسع في تفسير الأملاك الاميرية أو الدومين· فعندماوضعت الحمايةسنة١٨٨١ ، كانتأملاك الدولةلاتتجاوز ١٠٠ الفهكتار وسرعان ما ابتلعها الاستعمار الأوربي وبحث عن مصادر جديدة · فصدرت مراسيم بضم المراعي والعيون الى الأملاك الأميرية · وادى هذا الىاصطدام الادارة بالقبائل التي تنتفع بالمراعي في شمال تونس · وحتى تقطع على القبائل اى دعوى في ملكية هذه المراعي صدر حكم من محكمة العقارات بأنه ليس للقبيلة شخصية معنوية يمكن أن تستند اليها في ادعاء الملكية ·

وقد استمرت الحماية على اتباع سياسة اغتصاب الاراضي حتى بلغ مجموع ما يمتلكه الاوروبيون بعد الحرب الثانية ٧٧٠٥٠٠ هكتار ·

ويتسم الاستعمار الزراعي في تونس بالملكيات الكبيرة اذ انشئت اربع جمعيات راسمالية تمتلك من هذه المساحة ٣٤٠٠٠٠ هكتار ، اى ما يعادل ٢٣٪ من مجموع الملكيات الاوربية · ويهتم بعض الكتاب الفرنسيين بابراز الفرق بين هذا الاستعمار الاقطاعي والاستعمار الديمقراطي في الجزائر حيث تنتشر الملكيات الصغيرة · وتؤيد الارقام هذا الادعاء ، ففي سنة ١٨٩٧ مثلا كان هناك ٢٧٥ مالكا اوربيا فيتونس لمساحة قدرها ٤٧٦٠٠٠ هكتار ، بينما لوحظ ان مساحة قدرها ٤٣٥٠٠٠ هكتار في الجزائر يملكها ٣٩٠٠٠ مستوطن (١) ومغزى هذه المقارنة عندالفرنسيين هي استدرار العطف على مستوطني الجزائر وعدم تشبيههم بكبارالاقطاعيين الأثرياء في تونس · وهي حجة ابرزها الاشتراكيون الفرنسيون حينما وافقوا على استقلال تونس سنة ١٩٥٦ · وعارضوا في نفس الوقت بشدة في استقلال الجزائر ·

وطبيعي ان تؤدي سياسة الاستعمار الرسمي في النهاية الى ضرورة معاونة الدولة ماليا لاستعمار تونس · ففي سنة ١٨٩٧ انشىء صندوق لمساعدةصغار المهاجرين ، ثم اعتمدت الجمعية الوطنيةمبلغ٥ر٧مليون فرنك لتغطية نفقات الهجرة والاستغلال ومع ذلك فان نتائج الاستعمار الزراعي في تونس كانت ضئيلة حتى الحرب العالمية الاولى اذ بلغ عدد المستغلين الزراعيين ١٧٠٨ سنة ١٩١١ · ولما كان المقصود من هذه الهجرة الرسمية موازنة العنصر الايطالي ، فقد روعي توزيعها على اكبر عدد ممكن من

(1) Roberts, Vol, 1. p. 274.

المراكز مما حال دون قيام قرى أوربية خالصة كما كان الحال فى الجزائر.

وعلى العكس تمكن الاستعمار الاقطاعى الذى كان يستخدم الأيدى العاملة التونسية ، من استغلال ممتلكاته الكبيرة الى ابعد مدى ، فقد رأينا أن مجموع الملكيات الاوربية فى تونس بلغ ٥٠٠ر٧٧٠ هكتار ، وهو ما يعادل تقريبا ⅕ الاراضى المزروعة التى تقدر مساحتها بـ ٠٠٠ر٨٦٦ر٣ هكتار ومع ذلك فان نصيب الأوربيين فى المنتجات الزراعية بلغ نحو ٣٥٪ من مجموع الثروة الزراعية ، اذ وصلت قيمة الانتاج الأوربى سنة ١٩٤٦ الى ٦ مليار و ٧٠٧ مليون فرنك مع ملاحظة ان المنتفعين بهذه القيمة لا يزيدون عن خمسة آلاف شخص ، بينما يعتمد معظم الشعب التونسى فى معاشه على ثروة بلاده الزراعية (١) .

واذا كان الاستعمار الاوربى قد استولى على قسط كبير من الثروة الزراعية ، فهو قد احتكر الثروة المعدنية بأكملها للراسماليين الفرنسيين . ذلك ان الأراضى التى عثر فيها على مناجم للفوسفات او الحديد أو غيره من المعادن ضمت كلها الى الأملاك الأميرية ، ثم تنازلت عنها الدولة لشركات الاستغلال الفرنسية نظير عوائد بسيطة .

ويعتبر الفوسفات اهم المعادن التونسية ، وقد اكتشف سنة ١٨٨٥ قرب قفصة ، ثم فى مناطق اخرى حتى اصبحت تونس من اكبر الدول المصدرة للفوسفات قبيل الحرب العالمية الأولى . وبلغت قيمة ما صدرته ٣٤٨ مليون فرنك سنة ١٩١٤ ، وقد أصبحت تونس فيما بعد ثانية دول العالم المنتجة للفوسفات .

٤

الحماية ونتائجها الدولية

أدى احتلال تونس الى اغضاب دولتين من الدول الكبرى ، هما ايطاليا والدولة العثمانية . اما حكومة الآستانة فقد شعرت بأن فقدان تونس كان ضربة قاصمة لسياسة السلطان الرامية الى دعم حركة الجامعة الاسلامية . ولكن فرنسا لم تأبه كثيرا بمعارضة الباب العالى ، بل على العكس راحت تنتقد السلطات العثمانية فى ولاية طرابلس ، مدعية انها

---

(١) من الدراسات القيمة فى هذا الموضوع كتاب .
Sebag : La Tunisie

تقدم المعونة للثوار التونسيين الفارين اليها • وقد اضطرت الآستانة أخيرا الى الاعتراف ضمنا بالحماية الفرنسية على تونس سنة ١٨٨٨ ، وذلك بقبولها مفاوضة فرنسا بشأن تخطيط الحدود بين تونس وطرابلس ، غير انها لم تعترف بالحماية رسميا الا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى فى معاهدة سيفر • ومن المؤكد ان احتلال تونس كان من بين الأسباب التى ادت الى تقرب تركيا من المانيا •

اما ايطاليا فقد كان لديها وسائل اكثر تهديدا لفرنسا من الدولة العثمانية المتداعية لذلك ظلت فرنسا منذ البداية تعمل على استرضائها ، فعرضت عليها تعويضا آخر على حساب الدولة العثمانية فى ليبيا ، ولكن ايطاليا لم تكن لترضى بتلك القسمة غير المتكافئة حيث ان ولايتى طرابلس وبرقة لا تضمان سوى صحارى شاسعة • ولذلك فهى لم ترفض العرض الفرنسى فحسب ، بل اكدت للآستانة انها لن تشترك فى عمل عدوانى ضد الولايتين العثمانيتين يكون من شأنه خرق القانون الدولى •

وظلت ايطاليا ترفض الاعتراف بالحماية الفرنسية على تونس وما تستلزمه هذه الحماية من اتخاذ المقيم العام الفرنسى واسطة بين القنصل الايطالى والباى • ثم كانت المسألة التونسية من بين الأسباب التى دفعت ايطاليا الى الانضمام للحلف الثلاثى مع المانيا والنمسا • وصارت فرنسا وقتا ما الخصم الأول لهذا الحلف • فعند تجديده سنة ١٨٨٧ نصت احدى مواده السرية « على انه اذا زادت فرنسا من ممتلكاتها فى شمال افريقيا ، ورات ايطاليا ان ذلك يخل بالتوازن فى المتوسط ، ثم اضطرت للتدخل فى الأراضى التابعة لفرنسا او فى الأراضى الفرنسية نفسها ، فان ذلك يعنى قيام حالة مماثلة بالنسبة لألمانيا » • وقد جاء انضمام ايطاليا للحلف الثلاثى حجة قوية فى يد الجبهة الفرنسية التى عارضت سياسة التوسع فى تونس •

ولم تكن المشاكل التى ترتبت على الحماية التونسية مقصورة على ميدان السياسة الدولية ، اذ واجهت فرنسا بعض العقبات الاقتصادية والقانونية داخل البلاد وترجع هذه العقبات الى ان الحماية لا تلغى المعاهدات السابقة التى تربط تونس بالدول الاوربية الاخرى • وكانت هذه المعاهدات تعطى لانجلترا وايطاليا بصفة خاصة حق الدولة الاكثر رعاية » فلم يكن فى وسع فرنسا ان تفرض على البلاد امتيازات جمركية خاصة لبضائعها او ترفع من الضرائب الجمركية على بضائع الدول الاخرى كما كان متبعا فى ذلك الوقت بالنسبة لجميع المستعمرات الفرنسية •

كذلك لم تستطع فرنسا ان تمنح الصادرات التونسية الى اراضيها

اعفاءات جمركية لعدم وجود المعاملة بالمثل ، وهذا ما ضايق المستوطنين الزراعيين الذين عجزوا عن تصريف منتجاتهم (في الوطن الأم) مثل زملائهم في الجزائر . لذلك سعت فرنسا لدى كل من بريطانيا وايطاليا كي تتنازلا عن بعض امتيازاتهما السابقة . فأما بريطانيا فلم تعارض طويلا ، وخاصة بعد أن أمنت لنفسها احتلال مصر ، وبعد أن اشترطت أن تستمر منتجاتها القطنية متمتعة بالحد الأدنى للضريبة الجمركية وهي ٥٪ .

أما ايطاليا فقد ظلت تعارض حتى سنة ١٨٩٦ ، أى الى حين تعرضها للهزيمة الكبرى في عدوة . وفى هذا العام وقعت معاهدة مع فرنسا حصلت بمقتضاها على عدة ضمانات في نظير تنازلها عن معاهدتها السابقة مع تونس . ومن هذه الضمانات استمرار الرعايا الايطاليين في الانتفاع بالمصايد التونسية طبقا للمعاهدات السابقة ، ومنهـا مساواة الرعايا الايطاليين بغيرهم من الأوربيين . كما تنص المعاهدة على حرية الايطاليين في بناء المدارس الخاصة ، وبقاء المدارس الحكومية على ما هي عليه دون زيادة .

وعلاوة على المشكلات الاقتصادية فقد كانت هنـاك الجالية الايطالية الكبيرة العدد التى احتفظت بجنسيتها ، ومن ثم فان ارتباطها بدولة أوربية اخرى كبيرة قد اعتبر تهديدا لبقاء الفرنسيين فى تونس ، وخاصة بعد احتلال ايطاليا لليبيا سنة ١٩١١ . وطالبت الحكومة الايطالية اعتبار الرعايا الليبيين فى تونس وهم يبلغون نحو ٥٠٫٠٠٠ ، رعايا ايطاليين ، وازداد شعور الفرنسيين بهذا الخطر عندما اهتمت الحكومة الفاشية ببث الدعاية القومية بين الطليان المقيمين فى تونس ، لذلك قامت الحماية بعدة محاولات عن طريق التشريع لاغراء الرعايا الايطاليين بالتحول الى الجنسية الفرنسية .

وفى يوليو ١٨٩٧ صدر مرسوم بمد قوانين الجنسية الخـاصة بالمقيمين الاجانب ، والسارية فى فرنسـا ، على تونس حتى يباح للرعايا الأوربيين طلب التجنس بالجنسية الفرنسية بعد اقامة فترة معينة فى تونس . وهذا المرسوم وأن لم يؤد الى نتائج هامة نحو تحقيق الهـدف الذى صدر من أجله الا انه أعتبر ماسا بالسيادة التونسية لأنه حين جعل اقامة الاجـانب فى تونس من الأمور التى تكسب الجنسية الفرنسية ، فكأنه اعتبر الاراضى التونسية جزءا من الاراضى الفرنسـية وهو اعتداء صارخ على حقوق السيادة التونسية التى اعترفت بها الحماية (١) .

ويعتبر مرسوم نوفمبر ١٩٢١ أشد عدوانا على هذه السيادة اذ انه

---

(١) الحبيب ثامر ــ هذه تونس ــ ص ١١٧ ، ١١٨ .

يضفي الجنسية الفرنسية اجبارا على جميع الاجانب الذين قضى اسلافهم في تونس ثلاثة اجيال - وقد اصاب هـــذا المرسوم بصفة خاصة الرعايا المالطيين ، مما أثار ازمة قانونية بين انجلترا وفرنسا • ولكن هذا المرسوم يستثنى الرعايا الايطاليين لعلم فرنسا بأن تطبيقه عليهم سيؤدى الى رد فعل عنيف في ايطاليا - وسنرى ان الفرنسيين قد فتحوا باب التجنس لاهل تونس انفسهم وكان هذا من بين العوامل التى بعثت الحركة الوطنية ، وحين تولى لافال الحكم في فرنسا سنة ١٩٣٥ وكان من اهداف سياسته تخفيف حدة التوتر بين بلاده وحكومة ايطاليا الفاشية توصـــل الى عقد تسوية عامة للمشاكل المعلقة مع موسولينى •

كانت مسالة الرعايا الايطاليين في تونس من بين الموضـــوعات التى شملتها هذه التسوية ، وخصص لها الجزء الثالث منها ، فافترضت هذه الاتفاقية مرور فترة من الزمن قبل ان يتحول الايطاليون المقيمون بتونس تدريجيا الى الجنسية الفرنسية • ونصت على أن المواليد الايطاليين فيما قبل سنة ١٩٣٥ يحتفظون بجنسيتهم ، اما الذين يولدون بعد هذا فلهم حرية اختيار الجنسية الفرنسية عند بلوغ سن الرشد ابتداء من سنة ١٩٥٦ • كذلك نص الاتفاق على اخضاع المدارس الايطالية للتشريع الفرنسى ابتداء من سنة ١٩٥٧ •

ولم يقدر لهذه الاتفاقية ان ترى التنفيذ ، فعندما خرجت ايطاليـــا مهزومة من الحرب العالمية الثانية استطاعت فرنسا أن تلغى هذه الاتفاقية كما الغت معاهدة سنة ١٨٩٦ المشار اليها • وعلى اثر هذا اسرع كثير من الايطاليين الى التجنس بالجنسية الفرنسية لأن القاعدة العامة هى أن المستوطنين الأوربيين في شمال افريقيا لا يتمسكون بقومياتهم الخاصة ، وانما يتغلب احساسهم بالتضامن في وجه السكان الأصليين • وما دام الايطاليون يستمتعون بمشاركة الفرنسيين في استغلال الشعب التونسى فلا بأس من الانتماء الى جنسية الدولة التى تحمى مصالحهم •

الفصل الحادي عشر

مقدمات انهيار الامبراطورية الشريفية

نهاية العزلة

١

بلغت سياسة العزلة ذروتها في عهد مولاي سليمان ، وهدف السلاطين من وراء تلك السياسة هو تجنيب البلاد أطماع الدول الاستعمارية . ولكن منذ ان وطئت اقدام الفرنسيين ارض الجزائر اصبحت سياسة العزلة امرا عسيرا . وقد رأينا كيف اجتذب مولاي عبد الرحمن الى المشكلة الجزائرية على غير هواه عندما طلب اهل تلمسان حماية مراكش ، وذلك باعتبار ان سلطان تلك البلاد يعد من أكبر الشخصيات الروحية والسياسية في شمال افريقيا . ولذلك اضطر الى الخروج على مبدأ الحياد الذي كان يتمشى مع سياسة العزلة . وعلى وجه العموم كان موقف السلاطين مختلفا الى حد كبير عن موقف بايات تونس ، غير ان ضعف امكاناتهم اضطرهم في النهاية الى الاستسلام لتهديدات فرنسا حتى يجنبوا البلاد شر الغزو .

وقد احتجت فرنسا على وجود السلطة المراكشية (١) في تلمسان وارسلت بعثة خاصة الى فاس للاحتجاج في أوائل سنة ١٨٣٢ فسارع مولاي عبد الرحمن بسحب ممثليه من الجزائر ثم تجدد النزاع بسبب حركة الأمير عبد القادر وما كانت تلقاه من تأييد لدى القبائل المراكشية المجاورة لحدود الجزائر ؛ فتوالت احتجاجات فرنسا بواسطة قنصلها في طنجة منذ سنة ١٨٣٥ .

وبلغت تلك الخصومة ذورتها عندما التجأ عبد القادر الى مراكش ، وذهبت القوات الفرنسية تقيم الحصون على الحدود . ولم تحترم هذه القوات حدود الدولة الاسلامية المجاورة ، بحجة ان الحدود ليست موضحة بصورة دقيقة . وراح لامورسيير يبني حصنا في لالا مغنية التي تقع داخل مراكش على بعد بضعة كيلو مترات من مدينة وجدة . وفي اثناء ذلك وقعت عدة اشتباكات : انتقل على اثرها بيجو الى منطقة الحدود حيث اجرى مفاوضات مع حاكم وجدة . ولم تنتظر قبائل مطير وبني سناسن . نهاية

(1) Hanotau : Histoire des Colonies Francaises Vol. 3.

تلك المفاوضات الطويلة المعقدة ، فهى لا تلمس سوى وجود قوات الغزو فوق أراضيها • ولذلك استمرت الاشتباكات المتفرقة حتى استطاع بيجو أن يقنع حكومته فى باريس بالتخلى عن الطـــرق الدبلوماسية واتخـــاذ اجراءاته حاسمة لاملاء رغبات فرنســا كاملة على حكومة فاس •

ومن الراجح انه كانت لبيجو اهداف خاصة ترمى الى ضم مراكش أو جزء منها عنـــدما تتحطم قوتها فتواجه بريطانيا والدول الاخـــرى بالامر الواقع •

بدأ بيجو باحتلال مدينة وجدة فاصبح مولاى عبد الرحمن مضطرا لخوض الحرب دفاعا عن كيان السلطنة ، فالتأمت جيوشه الرسمية مـــع أنصار الامير عبد القادر والقبائل الشرقية • وتكون من كل ذلك جيش كبير العدد قدر بنحو ٦٠ الفا • ولكن العدد لم يكن ليجدى كثيرا ، فعندما التقى مع القوات الفرنسية فى معركة وادى اسلى فى ١٤ اغسطس ١٨٤٤ لحقت به هزيمة ساحقة • وكان من السهل على الفرنسيين ان يواصلوا تقدمهم داخل البلاد • وليس بعيدا أن تكون الحكومة الفرنسية قد فكرت فى اقتطاع جزء من مراكش ، بدليل انها لم تكتف بالقتال على الحدود المراكشـــية الجزائرية بل ارسلت أساطيلها تحت قيادة أحد افراد العائلة المـالكة ، أمير جوانفيل لضرب مدينة طنجة ، وانزلت بعض قواتها فى ميناء موجادور على الساحل الاطلسى • ولكن الذى حدث هو أنها تخلت عن جميع ما احرزته من مكاسب ، وليس لهذا من تفسير سوى أن فرنســا لم تكن فى ذلك الوقت مستعدة لمجابهة المعارضة البريطانية •

أسفرت معركة وادى اسلى عن قبول مراكش للشروط التى كانت فرنسا قد قدمتها على شـــكل انذار فى يونيو • فنصت اتفاقية اكتوبر ١٨٤٤ (١) على تسريح جيش مراكش من منطقة الحدود ومعاقبة المسئولين عن حوادث يونيو ، واعلان عبد القادر خارجا على القانون • وذلك اما بتتبعه والقبض عليه أو طرده من البـــلاد • وقبول مراكش مبدئيا الارتباط مع فرنسا باتفاقيتين ، احداهما لتخطيط الحـــدود بدقة ، والأخرى تتعلق بالتجارة ، وتنص على حق الدولة الاولى بالرعاية بالنسبة لفرنسا •

---

(١) يمكن الرجوع الى مجموعات المعاهدات الفرنسية المشهورة مثل
Marten's Albin

وبخصوص العلاقات الفرنسية المراكشية فى تلك الفترة عموما انظر :
Combon : Histoire du Maroc.

وبناء عليه جرت المفاوضـات من اجل هاتين الاتفاقيتين . وعندما اوشك الطرفان على الوصول الى حل كان عبد القادر قد استأنف كفاحه في الجزائر ، فعاد بيجو يدعو حكومته الى استخدام القوة باعتبارها افضل وسيلة لحل النزاع مع مراكش ولكن قنصل فرنسا في طنجة ومستشار الشئون الاسلامية ليون روش اعترضا على تلك السياسة ونصحا بتوقيع اتفاقية للحدود ، يكون لفرنسا بمقتضاها حق تتبع القبائل المشاغبة لحماية امنها .

واذا كان مولاى عبد الرحمن قد استسلم منـذ ذلك الوقت لمطالب فرنسا ، فان هذه الحوادث زادت من سخط الرأى العام في مراكش على أوروبا والمسيحية ، واشتد الحذر من مخالطة الأجانب أو السماح لهم بالتغلغل داخل البلاد .

وفي يونيو ١٨٤٥ وقعت اتفاقية بمقتضاها قسمت الحـدود الى قطاعات ثلاثة : القطاع الأول يمتد من البحر الى ١٥٠كم . في الداخـل فينتهى عند ثنية الساسى . وقد رسمت الحدود في هذه المنطقة على شكل مستقيم تقريبا ، يساير خط الحدود القديم على عهد النيابة الجزائرية . ويمتد القطاع الثاني جنوب ثنية الساسى حتى الصحراء الكبرى . وقـد روعى في تلك المنطقة تخطيط الحدود على اساس توزيع القبائل لا الأرض ومن ثم صارت أكثر المناطق اثارة للمنازعات ؛ لان بعض القبائل النازلة فيها تتألف من جماعات كبيرة ، تحتل مساحات شاسعة للرعى ، مثل ولد سيدى شيخ ، وبنى سناسن . ونتج عن ذلك أن بطون القبائل أصبحت موزعة بين المنطقة الفرنسية والمنطقة المراكشية . وادعت كل من السلطتين دخـول القبيلة بأجمعها تحت سيادتها .

أما الصحراء الكبرى فقد اعتبرت ارضا مشاعا ليست تابعة لاحد . واعتقدت فرنسا في بداية الأمر انه من الأفضل اعادة تخطيط الحدود على طول تلك المناطق ولكن بعد التجربة رات ان الافضل ترك المسالة غامضة ، لأن التحديد قد يؤدى الى تقوية نفوذ السلطان في مناطق ليس له فيها سوى سلطة اسمية . ثم انه يمكن استغلال الغموض دائما لصالح الطرف الأقوى . وعند توقيع هذه الاتفاقية لم يتصور الفرنسيون وجود أى فائدة للصحراء ، واعتبروها كالبحر . الا انه بعد التوغل في السودان ، وظهور مشروع خط حديدى يصل بين الجزائر وتمبكتو ، وقيام ثورة بوعمامة في جنوب وهران ، والتجاء بعض الثوار الى مراكش . كل ذلك اظهر اهمية واحات الجنوب الواقعة في الصحراء الكبرى . واخذت فرنسا تتسلل الى تلك المنطقة ، أولا عن طريق منح حمايتها لزعيم من اكبر زعمائها الدينيين

هو عبد السلام الوزاني ، ثم ارسال الحاميات الصغيرة للمرابطة فى بعض تلك الواحات مثل فجيج سنة ١٨٧٠ وعين صلاح ١٨٩٩ وتوات ١٩٠٠ .

والحق ان مشكلة الحدود كانت اهم عنصر استخدمه الفرنسيون فى الضغط على مراكش حتى انتهوا باحتلالها . ففى المعاهدة التى عقدت سنة ١٨٦٣ ، استغلت فرنسا فرصة الهزيمة المراكشية فى الحرب مع اسبانيا واكدت حقوقها فى تتبع القبائل الجزائرية (العاصية) داخل الاراضى المراكشية ونظمت كيفية تتبعها . ومع أن هذا الحق كان من الناحية النظرية متبادلا بين الطرفين ، الا ان فرنسا هى التى استفادت وحدها من هذا المبدأ . واكتسبت فرنسا فى هذه المعاهدة حق منح حمايتها للمغاربة الذين يقومون بخدمة التجار الفرنسيين ، ولكل وكالة تجارية ان تستخدم شخصين .

وكانت بريطانيا قد سبقت الى الحصول على هذا الحق فى معاهدة سنة ١٨٥٦ وتلتها اسبانيا سنة ١٨٦١ . ولكن فرنسا توسعت فى استخدام ذلك الحق دون غيرها فكان تهديدها لسيادة مراكش اشد خطورة . ولذلك كان موضوع الحمايات هو اهم ما شغل مولاى الحسن فى محاولته تدعيم استقلال البلاد . ومع ان مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ قد حدد حق الدول الأجنبية فى منح الحمايات . الا ان فرنسا لم تحترم قراراته وراحت تعطيها لشخصيات من ذات النفوذ فتحرضهم بذلك على العصيان ، فكان ذلك عنصر الضغط الثانى .

وبالاضافة الى مسالتى الحدود والحمايات ، سعت فرنسا لكى تتولى تدريب الجيش المراكشى . ونجحت فى اقناع مولاى الحسن بقبول بعثة عسكرية فرنسية ١٨٧٧ . ومع ذلك فقد بقيت الى نهاية القرن فى الدرجة الثانية بعد بريطانيا من حيث اهمية التعامل التجارى مع مراكش .

لقد توطدت علاقات الانجليز بمراكش حينما شعر مولاى عبد الرحمن بأن بريطانيا تقف فى وجه الأطماع الفرنسية . ففى سنة ١٨٣٧ اعلنت الحكومة البريطانية انها قبلت الوضع الراهن فى الجزائر ، ولكن بشرط الا تتخذ قاعدة لغزو تونس أو مراكش . وحينما كان بالمرستون يتولى وزارة الخارجية ابدى اهتماما خاصا بتلك السياسة . وعين دبلوماسيا قديرا هو جون دريموند هاى قنصلا فى طنجة سنة ١٨٤٠ . وقد احتل منصبه فترة طويلة حتى خلفه ابنه فى نفس وظيفته . وعندما اشتدت الازمة المراكشية الفرنسية سنة ١٨٤٤ . لمح ابردين ان احتلال مراكش قد يشكل حالة حرب مع بريطانيا . ولذلك يعزى تراجع فرنسا فى هذا الموضوع الى التهديد البريطانى .

استغل هاي بعوذ بلاده فعقد مع السلطان معاهدة تجارية فصلت الامتيازات الاقتصادية والقنصلية تفصيلا كاملا ، ومما يذكر أن مراكش التى لم تدخل يوما ما ضمن السيادة العثمانية لم تكن مجبرة على تطبيق نظام الامتيازات المعمول به فى تلك الدولة حتى اتت المعاهدة البريطانية ففتحت الباب أمام الدول لمطالبة بنفس الامتيازات . وقد نصت معاهدة سنة ١٨٥٦ على توسيع اختصاصات القضاء القنصلى ، فلا يشمل المنازعات بين الاجانب فحسب . بل المنازعات بين المراكشين والاجانب . ونصت على حق القنصل البريطانى فى طنجة فى تعيين نواب لـــه فى جميع الموانى واستخدام التراجمة والخدم .

اما الامتيازات الاقتصادية . فتشمل رفع جميع انواع الاحتكار التى تفرضها الحكومة المراكشيه . الا بالنسبة لتجـــارة الاسلحة ، وجعل الحد الأقصى للضرائب الجمركيه ١٠٪ ومعاملة بريطانيا على اساس الدولة الأولى بالرعايه . وبات التعامل مع بريطانيا يمثل ثلثى تجارة مراكش الخارجية .

وكما عارض الانجليز امتداد السيطرة الفرنسية على مراكش ؛ فكذلك وقفوا امام الاطماع الاسبانية التى تجددت فى منتصف القرن ١٩ . وذلك حتى لا تتحكم اسبانيا فى مضيق جبل طارق . فمن المعروف ان سبتة تقع على اقرب نقطة مواجهة لهـــذا الجبل ولذلك صرح ادونيل رئيس الوزراء الاسبانى . عندما قرر توجيه حملة على مراكش بأن غرضها ليس هو الفتح. وانما ضمان حقوق الرعايا الاسبان وتأمين امتيازاتهم .

ويمكن القول بأن احتلال جزر شافارين المواجهة للساحل المراكشى . كانت أول خطوة نحو السياسة التوسعية الاسبانية . وفى سنة ١٨٥٩ انتهز الاسبان فرصة نزاع على الحدود المراكشية الجزائرية . فأخذوا يبنون الحصون على مشارف سبتة . وكـــان طبيعيا أن يثير هذا العمل القبائل المكلفة بحراسة المنطقة . فلما قامت بمهاجمة احد تلك الحصون الجديدة ، بعث الاسبان الى فاس يطالبون بمعاقبة هذه القبائل . وتصادف وصول الطلب الاسبانى مع تولى محمد بن عبد الرحمن العرش فأراد أن يفتتح حكمه بعمل يرضى بـــه رغبات اهل البلاد . ولم يكن هناك افضل من اعـــلان الحرب على اسبانيا الخصم التقليدى .

رحبت اسبانيا بنشوب القتال ، لأن اودونيل كـــان يريد أن يشغل البلاد عن مشاكلها الداخلية بحرب خارجية . وايدته جميع الأوساط . فالضباط رأوا فيه مجـــالا لاحراز النصر على خصم ضعيف . والقسس اعتبروه استمرارا لحرب الاسترداد . وتولى اودونيل قيادة الحملة بنفسه . واستطاعت بسهولة الاستيلاء على تطوان فى ٥ فبراير ١٨٦٠ . وقد عرض

رئيس الوزراء الاسباني على السلطان انهاء القتال على اساس التنازل عن تطوان ؛ ولكنه رفض • لذلك استعد الاسبان للسير الى طنجة حتى توسط الانجليز فى النزاع • فتم عقد الصلح على الأسس الآتية •

توسيع المنطقة المحتلة حول مدينة سبتة المستعمرة الاسبانية • تدفع مراكش غرامة حرب لاسبانيا قدرها ٢٠ مليون دولار • تبقى الجيوش الاسبانية فى تطوان • وتشرف اسبانيا على الجمارك فى الموانى الشمالية الى أن تدفع مراكش الغرامة المفروضة عليها • وتمضى المواد الأخرى فتمنح اسبانيا الامتيازات الاقتصادية والقضائية التى سبق للانجليز ان حصلوا عليها سنة ١٨٥٦ • وعلاوة على هذا حصلت اسبانيا على حق الصيد فيما أسمته ممتلكاتها القديمة فى سانتا كروز (١) • وهى تشير بذلك الى احتلال مؤقت لأجزاء من شواطىء المغرب الجنوبية فى القرن السادس عشر • ولم تكن هـــذه الأجزاء معروفة الحدود ، لذلك صار هذا النص يفتح الباب لادعاءات اسبانية كثيرة ، ومن ثم سيسعى مولاى الحسن الى تعديله بعرض تعويض مالى •

وقد بقى الاسبان نحو سنتين فى تطوان حتى اخلوها سنة ١٨٦٢ بعد دفع مراكش للغرامة • ومما يذكر ان بريطانيا اعطت بعض التسهيلات المالية لحكومة مراكش حتى تتمكن من دفع الغرامة فى اسرع وقت •

- ٢ -

مولاى الحسن ومحاولة الاصلاح

كانت هذه هى أحوال مراكش ؛ عندما تولى الحكم سلطان مصلح هو مولاى الحسن ١٨٧٦ ــ ١٨٩٤ • فحاول ان ينقذ البلاد من كبوتها • وقد عزا أســباب التدهور الى ضعف الجيش الذى تلقى هزيمتين ماحقتين فى وادى أسلى سنة ١٨٤٤ ؛ وفى تطوان ١٨٦٠ • وايقن ان خير الوسائل لتلافى اسباب الضعف هى الاستفادة من التقدم الفنى الأوربى والاستعانة بالمدربين الأجانب لاصلاح الجيش • بل انـــه ارسل البعثات العسكرية لتلقى التدريب فى جبل طارق ، وانشأ مصنعا للذخيرة فى فاس • بيد انه اعتمد على بعثة عسكرية فرنسية لتدريب جيشه فى الداخل •

---

(١) أنظـــر للمؤلف بحثا بعنوان « الجيوب الاسبانيـــة فى المملكة المغربية » • مســـتخرج من مجلة معهد البحوث والدراســـات العربية مارس ١٩٦٩ •

وكانت الثمرة التي لابد ان يجنيها من وراء تأسيس جيش منظم ثابت هي تقليص ما يعرف ببلاد السيبة ، وبسط نفوذ الحكومة المركزية في جميع المناطق التي تعترف للسلطان بالسيادة الاسمية فتعددت حركاته (حملاته) وتوغلت في الجنوب ـ حتى انه توفي بينما كان يقود احدى هذه الحركات سنة ١٨٩٤ ـ في التافيلالت ٠

ولم تكن سياسته قائمة على العنف وحده لبسط سلطته على البلاد ، بل على العكس كان أكثر السلاطين رحابة صدر في معاملة الحكام المنشقين ، ومحاولة الوصول معهم الى حل وسط ٠ وكثيرا ما ثبت القواد والباشوات الذين حصلوا على مراكزهم بقوة نفوذهم في بلادهم أو بقوة قبائلهم ، كما حدث مثلا لأسرة الجلاوي صاحب النفوذ في الأطلس الكبير ، فمالاها السلطان حتى يساعد على قبول السلطة المركزية في هذه المنطقة ٠ واهتم مولاي الحسن بصفة خاصة بتدعيم سلطته في المناطق التي ظهرت فيها الأطماع الأجنبية ٠ ومن بينها اقليم وجدة المجاور للفرنسيين في الجزائر ، واقليم السوس في الجنوب لمواجهة الاسبان الذين شرعوا في احتلال ريو دورو (الصحراء الاسبانية فيما بعد) سنة ١٨٨٤ كذلك أسرع مولاي الحسن الى تهديد أحد الأشراف في التازورلت ، عندما سمع باتفاقه مع بعض التجار الانجليز على اقامة مراكز محصنة لهم على ساحل السوس ، وحصل منه على تعهد بعدم الاتصال في المستقبل باي دولة اجنبية ٠

ويعزى اهتمام مولاي الحسن بالواحات الجنوبية ـ او القصور بلغة أهل البلاد الى رغبته في مواجهة تسلل الفرنسيين في الصحراء الكبرى ٠ ومع ذلك يحاول الكتاب الفرنسيون التقليل من النتائج التي حصل عليها مولاي الحسن ـ فيقدرون مساحة الاراضي التي دخلت تحت سلطته الفعلية بثلث مراكش كما حددت في ظل الحماية ٠ ويذكر هؤلاء الكتاب ان هدف معظم الحركات انما كان مجرد تحصيل الضريبة التي تؤخذ على أساس الزكاة الشرعية ٠ وكثيرا ما كانت تحدث مساومات على قيمة تلك الضرائب ٠ ولذلك بقيت الجمارك أهم مورد من موارد الحكومة الثابتة في عهد مولاي الحسن ، فقدرت في احدى السنوات بعشرة ملايين بيزته سلطانية من مجموع الموارد البالغة ٢٠ مليونا ٠

ومهما يكن من مدى خضوع بلاد السيبة للحكومة المركزية في عهد مولاي الحسن فان سلطتها كانت اكثر فاعلية على معظم المناطق المأهولة بالسكان ٠ وكانت تشمل في أواخر القرن ١٩ السهول الشرقية ٠ والمنطقة المحيطة بجبال الريف وتازة وفاس وما حولهما ٠ ثم منطقة الساحل الأطلسي الممتدة من طنجة حتى جبال الأطلس الكبير وهي أخصب اقاليم مراكش ٠ وامتدت في الجنوب الشرقي الى اقليم التافيلالت ٠

شملت اصلاحات مولاى الحسن القضاء • ولما كان القضاء يعتبر من الأمور الدينية • فقد سلمت جميع القبائل ؛ التى تعترف بسيادة السلطان الاسمية بحقه فى تعيين القضاة • ولكن مولاى الحسن لم يقتصر على نشر القضاء المنظم بين القبائل فأدخل نظـــام القضاء المدنى فى المدن التجارية حتى يقطع على الأوربيين حجتهم فى المطالبة بامتيازات قضائية واسعة •

واخذ المخزن يستكمل اجهزته الاداريـــة • فوزعت الاختصاصات وحددت ، وانشئت دوائر الخارجية والبحرية اشبه بالوزارات • وعين امناء تخصص كل منهم فى تحصيل نوع من انواع الضريبة • وصـــار للمخزن رئيس يشبه رئيس الوزراء • واكتسب بعضهم نفوذا كبيرا فى البلاد مثل باموسى وابنه باأحمد الذى خلفه فى منصبه ، وصـــار وصيا على مولاى عبد العزيز فى سنى حكمه الأولى من ١٨٩٤ ــ ١٩٠٠ •

كان هدف مولاى الحسن تدعيم سلطته فى الداخل ، ووضع حـد للأطماع الأجنبية فى الخارج • واعتقد ان خير وسيلة لتحقيق هذا الغرض هو ايجـــاد توازن بين مصـــالح الدول • ولذلك رأى فى مؤتمر مدريد نجاحا كبيرا لسياسته • ولقد جاء انعقاد هذا المؤتمر اثر حوادث اصطدام السكان مع الجالية اليهودية فى مراكش • وقد اخذ الانجليز على عاتقهم الدفاع عن تلك الطائفة ؛ وذلك بالرغم من ان سياستهم العامة مالت الى المحافظة على كيان مراكش •

والظاهر ان روتشيلد المالى اليهودى المعروف قد اثر على الحكومة البريطانية للتدخل فى هذا الموضوع ، فطالبت باعطاء يهود مراكش نفس الضـــمانات التى يستمتعون بها فى مصر • واصـــدر السلطان ظهيرا (مرسوما) (١) مطابقا لمطالب الانجليز ؛ ولكن اثار سخطا فى الراى العام المراكشى مما اضطره الى الغـــاء الظهير بعد قليل • ومع ذلك لا يمكن القول بأن اليهود كانوا يعيشون تحت نير الاضطهاد او البؤس ، فقد كانت لهم احياء خـــاصة فى المدن ويخضعون فى حياتهم الاجتماعية والدينية لحاخاماتهم • وكثير منهم كـــان على حظ كبير من الثراء ولا سيما اليهود المهاجرون من اسبانيا ، كما اشتغل بعضهم فى خدمة القصر وابيح لهم بناء المدارس الطائفية وقد لا يضيرهم كثيرا ان الجزية ظلت مفروضة عليهم حتى أوائل القرن العشرين •

---

(١) أنظر للمؤلف : اليهود فى المغرب العربى مـــستخرج من مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١ •

واذا كان المراكشيون قد كرهوا شيئا فى التشريعات الخاصة باليهود فليس هو التسامح معهم . بل تسويتهم بالمسلمين من الناحية الادبية.

لذلك لم يتقبلوا بسهولة قرار مولاى الحسن بجعلهم رعايا مراكشيين .
ولعل مقتل احد اليهود فى فاس اثناء احدى الاحتفالات الدينية كان تعبيرا عن هذا السخط وقد اهتم القنصل الانجليزى بهذا الحادث فجمع على اثره مؤتمرا من الممثلين الأجانب فى طنجة سنة ١٨٧٩ للنظر فى وضع نظام خاص لحماية الاجانب .

ونظرا لأهمية الموضوع ، اقترحت الحكومة البريطانية توسيع المؤتمر ودعوة مراكش لحضوره على قدم المساواة مع الدول الاخرى ، ولذا اعتقد فيه الحسن تدعيما لمركز مراكش الدولى . مع انه يوحى بمرحلة جديدة فى التدخل الاوربى فى الشئون المحلية .

انعقد هذا المؤتمر الدولى فى مدريد واشتركت فيه ١٥ دولة واصدر المؤتمر قراراته فى مايو ١٨٨٠ ، وهى تعالج موضوعين اساسيين (١) .

فتتعلق المواد الأولى من ١ ــ ٧ بمسألة امتيازات الاجانب الشخصية وبسط هذه الامتيازات على من يدخل فى خدمتهم من الرعايا المراكشيين ، وكما هو الحال بالنسبة للدولة العثمانية ، اشتملت هذه الامتيازات على مبدأ القضاء القنصلى والاعفاء من الضرائب باستثناء الرعايا المراكشيين المشمولين بالحماية الأجنبية ، فانهم يدفعون ضريبة لا تتجاوز ٤٪ وعلاوة على ذلك لا يدفع المراكشيون هذه الضرائب الا عن طريق القنصليات التى تشملهم بحمايتها ، كما تستمتع عائلات الأفراد المشمولين بالحماية بنفس الامتيازات . واذا كان المؤتمر قد قرر تحديد عدد الأشخاص الذين يجوز لبيوت التجارة استخدامهم بشخصين على الاكثر . فانه ترك الباب مفتوحا للهيئات الدبلوماسية تبسط حمايتها على اى عدد من اهل البلاد .

وتنص المادة ١١ على جواز تملك الاجانب للعقارات . وكان حق التملك ، مثل مبدأ الحمايات يستمد من المعاهدات الثنائية بين مراكش وبعض الدول الكبرى . فجاء هذا المؤتمر وفتح الباب امام جميع الدول المشتركة فيه تطبيقا لمبدأ المساواة فى الامتيازات .

ومن بين هذه الدول الولايات المتحدة والمانيا وايطاليا لبرتغال وهولندا ودول اسكندناوة .

---

(1) Documents Diplomatiques, affaires de Protection diplomatiques et Consulaire au Maroc.

واذا كـــان الحسن قد اعتقد في بداية الأمر ان هذا المؤتمر يحفظ البلاد من اطماع كل من فرنسا واسبانيا ٠ لأنه يوازن بين مصالح الدول بحيث لا تستأثر هاتان الدولتان بالنفوذ ، فقد ادرك بعد التجربة أن فتح باب الحمايات لجميع الدول ليس اقل خطورة ولعل هذا هو ما دفعه الى التفكير في توثيق علاقاته مع كبرى الدول الاسلامية حينئذ ، وهي الدولة العثمانية ٠ فارسل سفارة خاصة الى الآستانة طلبت الى الباب العالي تبادل التمثيل السياسي ٠ واستجابت حكومة استانبول لهذا المطلب واختارت احد احفاد الامير عبد القادر ليكون اول سفير لها بطنجة ٠ ولعل هذا الاختيار هو الذي جعل الفرنسيين أشد سخطا على سياسة التقرب من الدولة العثمانية التي افتتحهـــا مولاي الحسن ٠ وهي التي حرضت المبعوثين السياسيين الأوربيين على عدم الاعتراف بالصفة الرسمية للمبعوث العثماني ٠ ولم يلح السلطان عبد الحميد على استمرار العلاقات السياسية حتى لا يزيد من مشاكله مع أوربا ، لأن مراكش لم تحتل مكانا في سياسته الخاصة بالجامعة الاسلامية ٠

وعندما مات مولاي الحسن سنة ١٨٩٤ ، كان ابنـــــه عبد العزيز ما زال صبيا ، فتولى مقاليد الامور باأحمد بن موسى الذي تمسك بسياسة مولاي الحسن في الخارج وحافظ على اســــتتباب الأمن في الداخل ٠ فلما مات هذا الوزير سنة ١٩٠٠ ، وبدأ مولاي عبد العزيز يمارس السلطة بنفسه ، عجز عن مواجهة اعباء الحكم ، ففي ميدان السياسة الخارجية زال عهد التوازن بين الدول نتيجة لضغط فرنسا المتزايد ٠ وفي ميدان السياسة الداخلية تعثر في اقرار الأمن وتميز عهده بالثورات المحلية ٠

- ٣ -

عجز المخزن

حاول عبد العزيز ان يواصل سياسة التجديد التي افتتحها والده مولاي الحسن فلم تمكنه شخصيته ولا الظروف الدولية التي أحـــاطت به من متابعة تلك الخطة ٠ فقد تولى الحكم في سن مبكرة وفي الوقت الذي كـــان البلاط المراكشي قد فتح ابوابــــه للمغامرين من جميع الجنسيات الأوربية الذين أتوا لتدبير المؤامرات او انتهاز الفرص للاثراء ٠ وقد عرفوا في السلطان نواحي الضعف ، فاخذوا يغرونه بمستحدثات اللهو الأوربية مثل الدراجات وآلات التصوير والمرايا والات الموسيقية ٠ فيبيعونه تلك الاشـــياء بأثمان باهظة ٠ وقد بلغ به الحمق انه البس حريم قصـــوره القبعات المزينة بريش النعام تقليدا للأزياء الاوربية فجلب على نفسه سخطا شديدا من أهل البلاد ٠

ولا شك ان هذا البذخ كان من الاسباب التى اوقعت مراكش بدورها فى حبائل الاستدانة . فان مولاى الحسن قد استطاع ان يقوم باصلاحاته المحدودة دون اللجوء الى الاقتراض . أما عبد العزيز فرغم استجابته لدعاة الاصلاح فى بداية حكمه . فانه لم يعرف كيف يستفيد من هذه السياسة . وكـان على راس المنادين بالتجديد مهدى المنبهى وزير الحربية ، الذى أقنع السلطان باتخاذ رئيس المخزن من بين انصار هذا الاتجاه .

ان سياسة التجديد اقترنت فى مراكش . كمـا حدث فى الدول الشرقية الاخرى . بتغلغل النفوذ الاوربى . مما اعطى للمحافظين والرجعيين مطعنا حقيقيا عليها . فمثلا حدث أن اغتـال احد الوطنيين المتحمسين مسيحيا فى فاس . بحجة انه دنس ضريح مولاى ادريس ، والتجأ الى الضريح فرارا من العقوبة . فتجاوز السلطان عن تقاليد البلاد وقبض عليه وأعدمه ، وهو يعتقد بأن ذلك خير وسيلة لتجنب انتقام اوربا القوية .

ولعل نظام الترتيب الذى ادخله عبد العزيز لاصلاح احوال البـلاد المـالية ، يزيدنا ادراكا للمشاكل التى ترتبت على سياسة التجديد ، فقد قام هـذا النظام على اساس الغاء الزكاة الشرعية والاعفاءات التى كانت تتمتع بها بعض القبـائل او الطبقـات الممتازة كالاشراف نظير خدماتها للدولة ، واخضاع السكان جميعا لضريبة موحدة يتساوى فيها الأجانب والمغاربة . ولكن المحافظين ــ وهم عادة من اصحاب الامتيازات ــ استنكروا الغـاء الزكاة الشرعية . وعزوا هذا الاصلاح الى ان عبدالعزيز قد بـاع نفسه للكفار . فكانت فرصة للجميع للتهرب من دفـع الضرائب . ومن الواضح أن تؤيد الجالية الأجنبية معارضة هذا الاصلاح ، حتى الفقراء اعلنوا سخطهم على تلك السياسة . فقالوا « لقد فقدنا مواردنا من الزكاة . ولم يعوضنا عنها النظام الجديد » والنتيجة الحتمية لهذا : هى افلاس المخزن واضطراره الى الاستدانة منذ سنة ١٩٠٢ .

ومن المشاكل الخطيرة التى ترتبت ايضـا على سياسة التجديد . افسـاح المجال للمشاغبين كى يعلنوا الثورة على السلطان بحجة انه فقد حقه فى الطـاعة . فيستقلون بهذا الاقليم او ذاك من البلاد . ففى المنطقة الشرقية ظهر احد المشاغبين المدعو بوحمارة سنة ١٩٠٢ . واستولى على تازة ووصل نفوذه قرب فاس سنة ١٩٠٦ . وظلت الحكومة المركزية عاجزة عن قمع تلك الثورة حتى دخول الفرنسيين البلاد . وخطورة هذه الثورة ترجع الى انها ليست مجرد حركة قبلية تمتنع عن دفع الضريبة . وهو أمر عادى فى مراكش . بل انها تجمع للعناصر المختلفة التى ابدت سخطها على سياسة عبد العزيز وخضوعه للأجانب .

وكانت فرنسا تتظاهر باستيائها من وقوع تلك الاضطرابات قرب حدود الجزائر ، ولكن السلطات الفرنسية على الحدود سرت فى الحقيقة سرورا شديدا لتلك الاضطرابات . وقد عبر ليوتى قائد منطقة الحدود آنذاك عن شعور الغبطة فى رسائله لحكومة باريس (١) كذلك تدخلت فرنسا لدى الحكومة البريطانية للامتناع عن مساعدة السلطان بحجة أن ثورة بو حمارة مسألة داخلية . كما وجدت أسلحة فرنسية لدى الثوار .

وفى الشمال تزعم احمد بن محمد الرسولى ، وهو أحد الأشراف ، حركة انفصالية اخرى . والظاهر انـه كان مولعا بمغامرات العصابات ؛ ولكن مركزه الاجتماعى حفزه للمطالبة بحكم اقليم مراكش . وقد توسطت الدول فعـلا لدى السلطان لارضائه ولعلها فعلت ذلك لكى يطلق بعض الاوربيين الذين وقعوا فى أسره ، ومن بينهم مراسل التايمز هاريس الذى اشتهر بمؤلفاته عن مراكش . وبلغت قوة الرسولى ذروتها سنة ١٩٠٤ ، حين اصبح يهدد مدينة طنجة ، مما دفع الولايات المتحدة الى ارسال بعض قطعها البحرية للاحتجاج ، واضطر السلطان الى الاعتراف بادارته لبعض مناطق الريف حتى سنة ١٩٠٧ ؛ حين أعلن خروجه على السلطة الشرعية. ولما بدأ الغزو الاسبانى سنة ١٩١١ . تعاون الرسولى مع الغزاة .

وكانت فرنسا تعارض سياسة الاصلاح اعتقادا منها بأن السلطان سيعتمد على الرأسمال البريطانى ، أو على الفنيين البريطانيين ، سيما وأن هارى ماكلين الضابط الانجليزى قد اكتسب شهرة واسعة فى البلاد ، منذ ان اخذ على عاتقه تدريب الفرق الحديثة فى جيش مراكش .

وكان هدف عبد العزيز فعلا هو عدم استئثار دولة واحدة بالقروض التى ستستخدم فى مشروعات الاصـلاح أو غيرها . ولكن الدبلوماسية الفرنسية نجحت فى صرف الانجليز عن المخـاطرة بأموالهم فى مراكش (غير المستقرة) . ثم اتت ثورة بوحمارة لتزيد الرأسماليين خوفا من استثمار أموالهم فى تلك البلاد وفى نفس الوقت كان ديلكاسيه يشجع بنك فرنسا على تقديم الأموال اللازمة . فلم يجد السلطان عبد العزيز بدا من توقيع قرضه الأول فى يناير ١٩٠٣ مع فرنسا ، وقيمته ٧٫٥ مليون فرنك، ورئى أن المبلغ لا يستدعى تخصيص الموارد التى تضمنه ؛ كما أن فرنسا لم تحصل على حق الأولوية فى مشروعات مراكش حسبما توخاه دلكاسيه .

لم يكن هذا القرض سوى بداية لسلسلة قروض اخرى فقد احتاج

---

(١) جمعت هذه الرسائل ونشرت بعنوان .Lettre du sud Oranais 1903 - 6
وهو مرجع هام لمشكلة الحدود .

عبد العزيز فى نهاية نفس العام الى مبالغ جديدة . ومرة ثانية حاول ان يجتذب عدة دول اوربيه لتقديم العروض وسعى ماكلين لدى حكومة لندن لهذا القرض دون جدوى . والظاهر ان بريطانيا كانت تعانى فى هذا العام من عواقب حرب البوير . بينما كانت رءوس الأموال الخاصة فى فرنسا جاهزة للتصدير . ولما عرف دلكاسيه هذه الحقائق ، استطاع ان يفرض شروطا جديدة قاسية عند توقيع القرض الثانى بمبلغه ر٦٢ مليون فرنك فى يونيو ١٩٠٤ وقد اتفق على ان يستخدم هذا القرض لتغطية الديون السابقة ، وتحصل فوائده على اقساط من ايراد الجمارك القائمة فى جميع الموانى الحالية او ما يفتح منها فى المستقبل . فاذا لم تكف ، توضع بعض الموارد الاخرى تحت اشراف ممثلى الكونسرسيوم لجنة مراقبة الدين وتعهد المخزن بالاقتصار على البنوك التى ساهمت فى الديون السابقة .

وكان ديلكاسيه يأمل ايضا فى ان تستأثر فرنسا بمشروعات السكك الحديدية بين الجزائر ومراكش الا أن مؤتمر الجزيرة جاء ليؤكد من جديد سياسة الباب المفتوح .

وربما كانت مشكلة الحدود التى تجددت فى مطلع القرن الحالى ، وسيلة اكثر فعالية لضغط فرنسا على مراكش ، وعندما احتلت القوات الفرنسية مجموعة الواحات المعروفة بتوات والواقعة فى الصحراء المراكشية سنة ١٩٠٠ . استندت الى امرين .

الأول : الادعاء بأنه لا توجد سلطة فعلية لحكومة فاس فى تلك المنطقة .

والثانى : عقد اتفاقية لتقسيم غرب افريقيا مع بريطانيا سنة ١٨٩٩ تركت بمقتضاها الصحراء الكبرى بأكملها كمنطقة نفوذ فرنسية .

وانزعج عبد العزيز لهذا التوغل فى جزء لا يشك فى وقوعه داخل الاراضى المراكشية . فبعث بخطاب شخصى الى الملكة فكتوريا طالبا فيه ان تتوسط الحكومة البريطانية لتخطيط الحدود نهائيا بين البلدين . واتبع ذلك بسفارتين . احداهما برئاسة مهدى المنبهى وزير الحربية الى لندن وبرلين . وعادت تلك السفارة بدون تحقيق شىء من أهدافها . ولم يتسح لها المجال فى بريطانيا . المنشغلة بحرب البوير . سوى التفاوض فى بعض الشئون التجارية . ونصح الوفد بأن خير وسيلة للتغلب على مشكلة الحدود هى تطبيق الاصلاحات الادارية الحديثة .

أما السفارة الاخرى فقد رأسها عبد الكريم بن سليمان وزير الخارجية وكان مفروضا ان تزور فرنسا وحليفتها روسيا . ولكن زيارة الوفد

اقتصرت على باريس . حيث استطاع ديلكاسيه بدهائه تارة وبالتهديد تارة أخرى ، ان يظفر منـــه بمعاهدة جديدة تسوى مشكلة الحدود على أساس وجهة النظر الفرنســية فى يوليو ۱۹۰۱ . ومن الملاحظ انه قبل عقد هذه الاتفاقية ، إرسل ديلكاسيه مظاهرة بحرية لتخويف المخزن (۱) .

وتعترف الاتفاقية الجديدة باستمرار العمل بمعاهدة سنة ١٨٤٥ . وبذا قطع السبيل على رغبة ابن سليمان فى تخطيط الحدود جنوب ثنية الساسى . فاستمرت الاتفاقية الجديدة على الاخذ بمبدأ توزيع القبائل بين الدولتين . وحولت تبعية ولد جرير وذوى منية الى سلطة فرنسا ، مع تخيير القبائل النازلة قرب الحدود من ناحية مراكش لاعلان تبعيتها لأى من الطرفين ؛ وانشاء لجنة مشتركة لتسوية مشاكل الحدود على الطبيعة بدل المرور بالاجراءات المعقدة فى طنجة وباريس واطلق الفرنسيون على التنظيمات الجديدة اسم سياسة التعاون ، ولكنها فى الحقيقة هى سياسة الضغط والتدخل .

والحقت هذه الاتفاقية بمعاهدة تجارية لتنظيم التبادل التجارى عبر الحدود المراكشية الجزائرية .

وعندما تولى جونار منصب الحـــاكم العام فى الجزائر ، كشف القنـــاع عن مغزى (سياسة التعاون) ، فهو ينتمى الى الحزب الكاثوليكى الذى يؤمن بأن لفرنسا مهمة روحية تبرر لها استخدام القوة فى تلك البلاد (الاسلامية المتاخرة) . وهو الذى اختـــار بيبرليوتى ، المنتمى لنفس المدرسة ، لتولى قيادة منطقة الحدود سنة ۱۹۰۳ . وكـــان ليوتى قد اشتهر بالعنف ابان خدمته فى مدغشقر . فشرع فى اقامة المراكز العسكرية على طول الحدود فى منطقة كولومب بيشار . وعلى الطرق المؤدية الى واحة فجيج . وعمد الى الاكثار من المستشفيات واسواق التجارة حول تلك المراكز لتكون على حد تعبيره « اداة اجتذاب واغراء وليست فقط وسيلة ضغط وتنفير » .

وهكذا تقـــع مراكش بعد تونس تحت السيطرة الفرنسية نتيجة مناخمتها للجزائر .

---

(۱) انظر مفاوضات الحدود — D. D. F. Serie 2 T. I.

الفصل الثاني عشر

المسالة المراكشية ١٩٠٠ ـ ١٩١٢

ـ ١ ـ

تجاذبت السياسة الفرنسية في مراكش ثلاثة مؤثرات مختلفة . ويمكن تسمية الاتجاه الأول منها بمدرسة الجزائر . ويمثل هذا الفريق ، العسكريون والمستوطنون ولا سيما مستوطني وهران وعلى رأسهم نائبهم اوجين اتين . ويرى هؤلاء ضرورة العمل العاجل للاستيلاء على مراكش وذلك بالضغط العسكري من جهة الحدود المشتركة . والاتجاه الثاني تمثله مفوضية طنجة وكان يديرها من سنة ١٩٠١ ـ ١٩٠٦ وزير نشط هو سان رينيه تاينديه (١) وكان ينتقد جهود (الجزائريين) في المنطقة الشرقية المعزولة ، ويرى انه من الافضل ان تتخذ طنجة او منطقة الأطلس الخصبة المأهولة بالسكان ، نقطة انطلاق للتوسع مستقبلا .

ويمثل ديلكاسيه الذى تولى وزارة الخارجية ١٨٩٩ ـ ١٩٠٥ اتجاها ثالثا في سياسة فرنسا المراكشية . فهو يحاول أن يستفيد من جميع الاتجاهات السابقة ؛ ولكن مع مراعاة الأناة والصبر وتمهيد الطريق دوليا ، بواسطة اتفاقات ثنائية يعقدها مع الدول التي لها مصالح في مراكش او المعروفة بسياستها التوسعية .

وقد بدأ ديلكاسيه بأقل الأطراف اهتماما بمراكش وهو ايطاليا ، ففي سنة ١٩٠٠ استغل ازمتها الاقتصادية وحاجتها الى الرأسمال الفرنسي ، ووقع معها اتفاقية تعتبر بداية لاخراجها من الحلف الثلاثي . وبمقتضى هذه الاتفاقية تعهدت الحكومة الفرنسية باعتبار طرابلس وبرقة خارجة عن منطقة نفوذها ، واذا حدث تغيير في وضع مراكش امكن لايطاليا التصرف بحرية في تلك المنطقة . وتعهدت ايطاليا بعدم اتخاذ موقف معاد لفرنسا عند تجديد الحلف الثلاثي ، ومن المعروف أن ايطاليا كانت اضعف المشتركين في هذا الحلف ؛ وكانت تسعى للأكل على مائدتي الحلف الثلاثي والحلف الفرنسي الروسي . على حد تعبير ساسة أوربا ، ولذلك لم تلبث أن اعطت وعدا لفرنسا بالتزام الحياد في الحرب التي قد تنشب بين المعسكرين ، وذلك نظير اطلاق يدها في ليبيا دون ارتباط بمسالة مراكش . وبذا ازال ديلكاسيه أول عقبة دولية اذ ان ايطاليا كانت تستطيع التدخل في المسألة المراكشية ؛ إما بواسطة الحلف الثلاثي ، او بواسطة اتفاقاتها مع بريطانيا واسبانيه التي قامت على مبدأ المحافظة على الوضع الراهن في المتوسط .

---

(١) محمد خير فارس : المسألة المغربية من ١٩٠٠ ـ ١٩١٢ .

كان طبيعيا أن يكون الاتفاق مع ايطاليا سريا : واضحت السرية هي القاعدة التي سارت عليها فرنسا في كثير من اتفاقاتها بشأن مراكش .

لا شك أن المرحلة التالية قد واجهت ديلكاسيه بصعوبة اكبر ، فمن ١٩٠٢–١٩٠٤ وهو يجرى محادثات مع كل من اسبانيا (١) وبريطانيا . وكلتا الدولتين ذات مصالح وصلات قديمة بمراكش . وقد اثير موضوع مراكش مع اسبانيا ، اولا بمناسبة تخطيط حدود ريودورو سنة ١٩٠٠ .

ولمح في تلك المفاوضات الى فكرة التقسيم ، الا ان هذا الموضوع لم يثر بصورة جدية قبل سنة ١٩٠٢ حين قدم ديلكاسيه بشأنه مشروعا مفصلا . وقد ركز في هذا العام على مفاوضاته مع اسبانيا ، ومع انها لم تكن تحتل مركزا دونيا تستطيع بواسطته ان تعرقل اعمال فرنسا ، الا أن تمسكها بالسيطرة على مراكش كان أمرا تقليديا ومن الممكن ان تتفق مع بريطانيا او غيرها من الدول الكبيرة في معارضة فرنسا .

وقد تأسست في مدريد سنة ١٨٨١ ، جمعية الدراسات الأفريقية التي قامت بالدعاية للسياسة الاستعمارية ؛ واوحت الى بعض النواب في الكورتيز ، بأن يعلنوا ان اى اعتداء من الخارج على ارض مراكش ، يعتبر تهديدا لاسبانيا ذاتها . وقد انتشرت الجالية الاسبانية في بعض الموانى المراكشية كما شاع استخدام الدورو اى العملة الاسبانية . وحسب اتفاقية سنة ١٨٦٠ فتحت البلاد للمبشرين الاسبان ، ومع ذلك فان اسبانيا كانت تأتي من حيث المعاملات التجارية في الدرجه الرابعة : وذلك لأن علاقات اسبانيا مع مراكش قامت اساسا على فكرة القهر والصليبية : مما أورث روح الكراهية بين الشعبين :

ويعتبر المشروع الذى اقترحه ديلكاسيه على حكومة مدريد سنة١٩٠٢ كسبا كبيرا لاسبانيا ، بالرغم من أن تلك الحكومة لم تفهمه على هذا النحو لاعتقادها بتفوق مركزها على الدول الأخرى في مراكش ؛ ويقوم المشروع

---

(١) نشرت معظم الوثائق الخاصة بهذه المفاوضات :

اولا : من طرف الحكومة الفرنسية في مجموع الوثائق الدبلوماسية المشار اليها اختزالا (D. D. F.) . كما نشرت وثائق متعلقة بمراكش على حدة بعنوان .

Affaires du Maroc 1901 — 12,

ثانيا : مجموعة الوثائق البريطانية المعروفة . بـ

British documents for the origin of the war 1898 — 1914.

على مبدا انفراد فرنسا واسبانيا بالمسألة المراكشية . وفى حالة وقوع تغيير لوضع السلطنة . تقتسم الدولتان البلاد على اساس النفوذ الاقتصادى . او الحماية . او الاحتلال العسكرى حسب الظروف .

ويمنح مشروع التقسيم اسبانيا منطقتين كبيرتين : المنطقةالشمالية ، وتمتد من و دى سبو على الأطلسى حتى الملوية . وتضم فاس وتازة . والثانية في الجنوب وتمتد من ريودورو (الصحراء) الى خط ٣٦ شمالا في جبال الأطلس . ويدخل فيها ميناء اغادير ووادى نون ودرعة . وعلاوة على ذلك تعترف مقدمة المشروع بالعوامل الصحيحة التى تبرر ادعاءات اسبانيا فى مراكش وهى الجوار والجيوب القديمة . وحق اسبانيا فى أن تعوض مستعمراتها الأمريكية التى فقدتها فى الحرب مع الولايات المتحدة بأخرى فى افريقيا . واخيرا يقر المشروع مبدأ حياد طنجة وسرية الاتفاق (١) .

وفى هذه الأثناء تولى سيلفلا رئاسة الحكومة في اسبانيا . وكان شديد التحمس للتفاهم مع فرنسا على تلك المسألة ، فلم يكتف بما ورد فى المشروع من وعد بالتأييد الدبلوماسى . انما كان يريد ان يحصل على تعهد من الحلف الروسى الفرنسى بالتأييد الى حد خوض الحرب اذا لزم الأمر . وهكذا فوت الاسبان على انفسهم فرصة لن تتكرر ؛ فبمرور الوقت زالت عقبات أخرى امام فرنسا وتقوى مركزها بالنسبة لمراكش بعد الاتفاق الودى ، فلم يجد دلكاسيه ضرورة فى اعطاء اسبانيا جميع تلك الامتيازات بل قيل ان مشروع سنة ١٩٠٢ لم يكن جديا . وانما كان هدف ديلكاسيه فقط هو ان يكون لديه سند قوى اذا فشل فى التفاهم مع بريطانيا .

وفى اسبانيا ذاتها دعا فريق كبير من الساسة الى ضرورة التفاهم مع بريطانيا ايضا . ومن الأفضل التأكد من الحصول على الغنيمة ، حتى ولو كان ذلك فى جزء اصغر من البلاد المراكشية .

- ٢ -

الاتفاق الودى ١٩٠٤

بينما كان ديلكاسيه يتفاوض مع الحكومة الاسبانية ؛ بدا كامبون فى صيف ١٩٠٢ بمفاتحة الحكومة البريطانية بخصوص المسألة

(1) D. D. F: serie 2 Tom. I. N. 333.

المراكشية . ولم يكن الاتفاق معها امـــرا سهلا ، سيما وان التنـــافس الاستعماری ادی الی وقوع عدة ازمـــات بين البلدين ، كان اقربها ازمة فاشودة سنة ١٨٩٨ ، ثم تلك الشماتة التى ابداها الفرنسيون تجاه كوارث الانجليز فى حرب البوير .

وكـــانت بريطانيا ما تزال تحتل المكـــان الاول فى تجارة مراكش الخارجية . ففى سنة ١٩٠٠ بلغت قيمة المبـــادلات التجارية بينها وبين مراكش ٣٤ مليون فرنك مقـــابل ٢٠ مليون لفرنسا . ولم ترجـــح كفة الفرنسيين الا بعد سنة ١٩٠٦ ومـــع ذلك فقد ظلت انجلترا ثانية الدول الأوربية من حيث قيمة التبادل التجاری مع مراكش . ففى سنة ١٩٠٨ بلغ نصيبها من تجارة مراكش الخارجية ٣٢٪ ، بينما قفزت فرنسا الى ٤٥٪ ، مع ملاحظة التجاوز عن المعاملات التى تتم عبر الجزائر فان جـــزءا كبيرا منها لا يدخل تحت الاحصاء لاعفائه من الضرائب الجمركية .

والأساس الثانى لاهتمام بريطانيا ، استراتيجى ، يتمثل فى محافظتها على وضع طنجة حتى ان ممثلها فى تلك المدينة هيى : كان يسمى نفسه حارس بوابة المتوسط . اذن فان فكرة اعطاء طنجة وضعا دوليا نبتت منذ بدء تلك المحادثات الانجليزية الفرنسية وهذا علاوة على ان السلاطين اعتادوا أن يلجأوا الى بريطانيا فى أزماتهم الســـياسية فكانوا يرغبون فى توطيد الصلات معها . وقد اشرنا الى اختيارهم لهاری ماكلين البريطانى ليكون مدربا للجيش المراكشى . لذلك شكا كامبون عندما بدأ يطرق المشكلة ، من تسرب النفوذ الانجليزی فى البلاط المراكشى وقال ، ان مصالح بريطانيا فى مراكش تقتصر على أمرين : الميدان الاقتصادی ، والاستراتيجى الذی يتمثل فى المحافظة على حياد طنجة . أما مصـــالح فرنسا فسياسية واقتصادية معـــا .

واذا كانت بريطانيا لا تقبل استيلاء ای دولة اوربية على طنجة ، فان استيلاءها هى عليها سيؤدی الى تكتل جميع الدول المهتمة بمراكش ضدها ، وعليـــه فان حياد طنجة هو خير حل . وفى نظير ذلك الحياد يجب على بريطانيا أن تعترف بتفوق مصالح فرنسا فى مراكش ضمن مبدأ المحافظة على الوضع الراهن - أجـــاب لانزدون بأن ماكلين مجرد مدرب يمكن طرده ، وسلم بحق فرنسا فى الاهتمام بمراكش نتيجة المجاورة ، ولكنه اعتذر عن التقيد بشىء نظرا لانشغال البرلمان .

وعندما استؤنفت المحادثات فى نهاية عام ١٩٠٢ وبداية ١٩٠٣ كانت الأوضـــاع الدولية قد تحولت لصالح بريطانيا . فانتهت حرب البوير وتم

التحالف البريطاني اليابانى . وانصرفت روسيا الى الاهتمام بالشرق الأقصى . ويبدو أن اعجاب أدوارد السابع بمجتمع باريس ، وزيارته للعاصمة الفرنسية فى مارس ١٩٠٣ . قدمت مناسبة طيبة للتوصل الى تفاهم . وقد شعر الانجليز بأنه رغم تحسن مركزهم الدولى فان فرنسا تتمتع بوضع ممتاز فى مراكش باعتبارها دولة قوية تستطيع ضبط الأمن فى تلك البلاد المضطربةسيما بعدوقوع ثورة بو حمارة الخطيرة ، هذا بجانب انفراد فرنسا بتقديم القروض . فمن الخير لبريطانيا أن تتفق على المسألة المراكشية اذا كان ذلك يحقق لها فائدة فى منطقة أخرى .

وحسب الوثائق الانجليزية بدأ لانزدون فى صيف ١٩٠٣ يفاتح الحكومة الفرنسية فى امكان ربط المسألة المصرية بموضوع مراكش فى الميدانين السياسى والاقتصادى . ولكن الوثائق الفرسية تنفى ان يكون ديلكاسيه قد قبل بحث المسألة المصرية من حيث اوضاعها السياسية . وفى هذه الأثناء تدخل كرومر المعتمد البريطانى فى مصر كعنصر جديد فى تلك المحادثات ، فحث لانزدون على اهمية تسوية المسألة المصرية مهما كلف ذلك من تنازلات فى مراكش .

وحتى ذلك الوقت كانت نظرية ديلكاسيه هى أن فرنسا لا ترغب فى جعل مراكش مستعمرة على الاقل فى الجيل الحاضر ولا سيما انها اسست أمبراطورية استعمارية كبرى لم تستوعبها بعد . اذن فتدخل كرومر هو الذى حول وجهة المفاوضات من فكرة تقسيم نفوذ الى مبدا احتمال تغيير الوضع الراهن . او بعبارة أخرى التمهيد لفكرة وضع الحماية على كل من مصر ومراكش . وقد برهن كرومر على نظريته على النحو التالى (١) .

أن مراكش تهوى بسرعة ومصيرها هو الوقوع فى يد دولة أوربية . ولا يؤخر ذلك سوى تنافس تلك الدول . ولا شك انه اذا انهارت حكومة مراكش فجأة فان فرنسا لن تدع الفرصة تفلت منها . ولما لم يكن فى نية الحكومة البريطانية أن تستولى على مراكش ، ولما كانت هذه الحكومة تعترف بأن اسبانيا ليست قادرة على القيام باستعمار مراكش وحدها .

اذن فمن الأفضل أن تعترف لفرنسا بجميع مطالبها بمقابل عده شروط وهى : حياد طنجة ، وحرية التجارة البريطانية فى مراكش ، وتخصيص منطقة من البلاد لاسبانيا . وفوق ذلك كله انهاء العراقيل التى يقيمها الحلف الفرنسى الروسى فى وجه الادارة البريطانية فى مصر .

---

(1) B. D. W. Vol. 2 N 359.

قبلت فرنسا على كل حال ربط المسألة المصرية بمسألة استعمار أفريقيا · وحينئذ عرضت الحكومة البريطانية مطالبها فى مصر وهى : الاشراف على المشروعات الاقتصادية ، والغاء الرقابة المالية الدولية · وتعترف بريطانيا لفرنسا فى نظير ذلك بالانفراد بالاصلاحات اللازمة فى مراكش ·

اجاب ديلكاسيه على هذه العروض بقوله « انكم تعدوننا بميزة قد تقوم دونها عقبات دولية ، أما فى مصر فان بريطانيا ستستفيد مباشرة من تنازلاتنا » · ورد الوفد البريطانى بأن الدول حقوقا تقليدية فى مصر كالامتيازات وهى فى ذاتها معرقل للادارة البريطانية ·

اما نقطة الخلاف الثانية فتتعلق بحدود المنطقة الساحلية المحايدة · فطالب الانجليز بأن تمتد من الجزائر حتى مزغان ، بينما رأى الفرنسيون أن تقتصر على المنطقة المتاخمة لمضيق جبل طارق · وسنرى أن هذه المسألة قد حلت حلا وسطا بتخصيص منطقة محايدة فى طنجة ، وتحديد منطقة النفوذ الاسبانية · كذلك اصر الفرنسيون على تحديد المدة التى تستمتع خلالها بريطانيا بحرية التجارة · وعلى العموم كان الانجليز يعتقدون بأنهم تساهلوا كثيرا نظرا لان مصر بايديهم فعلا · بينما ان مراكش تشكل كسبا جديدا لفرنسا · ولكنهم لم يأسفوا اذ سويت المسألة المصرية وكفت فرنسا عن معارضة الاحتلال ·

وقع الاتفاق الودى فى ٨ ابريل ١٩٠٤ وهو يشمل تسوية خلافات استعمارية فى مناطق أخرى · وسنتناول هنا البنود الخاصة بمراكش(١)· ويلاحظ ان بعض البنود قد ورد فى القسم العلنى من الاتفاق وبقى بعضها الآخر سرا حتى سنة ١٩١١ ·

· وتشير البنود العلنية الى أن الاتفاق يتعلق فقط بمسألة الاصلاحات الادارية والاقتصادية وغير ذلك ، فيكون لبريطانيا مطلق الحرية فى مصر بهذا الصدد ، ولفرنسا نفس الحرية فى مراكش · ولكن تتعهد الدولتان بعدم تغيير الوضع السياسى الراهن فى البلدين ·
وبعد أن تتعهد فرنسا فى المادة الأولى بعدم المطالبة بتحديد موعد لانهاء احتلال مصر ، تعلن فى المادة الثانية انها لا تنوى تغيير الوضع فى

---

(١) نشر هذا الاتفاق فى أماكن عدة وكان موريل من أسبق الذين جمعوا الاتفاقات السرية الخاصة بمراكش ونشرها سنة ١٩٢١ ·
Morel. Morocco in Diplomacy Appendix 3-4.

مراكش . وتعترف بريطانيا بأن هذا الأمر يعنى فرنسا بصفة خاصة باعتبارها الدولة المجاورة . على أن تحافظ على النظام فى تلك البلاد وأن تقدم المساعدات لجميع الاصلاحات الادارية والمالية والاقتصادية والعسكرية اللازمة . وتعلن بريطانيا انها لن تعرقل هذه الاجراءات بشرط الا يمس ذلك بحقوقها الناجمة عن المعاهدات والعرف بما فى ذلك التجارة والملاحة فى الساحل على ما كانت عليه سنة ١٩٠١ .

وتؤكد المادة ٤ تمسك الدولتين بمبدأ حرية التجارة فى مصر ومراكش وعدم فرض رسوم استثنائية فيهما لمدة ٣٠ سنة وانما تستأثر كل دولة بامتيازات المشروعات ذات المنافع العامة ، بينما يكون لموظفى الدولتين حق المساواة فى المعاملة بمصر ومراكش .

وتتعهد الحكومتان فى المادة ٧ بمراعاة حياد مضيق جبل طارق فلا تسمحان باقامة تحصينات على الساحل الممتد من مليلة حتى المرتفعات الواقعة على الفرع الجنوبى لنهر سيبو ، باستثناء مدينة مليلة ذاتها والحصون الاسبانية القائمة حاليا .

وتفصل المادة ٨ وضع اسبانيا على النحو الآتى : نظرا لشعور الصداقة التى تكنها الدولتان نحو اسبانيا فانهما تراعيان مصالحها فى مراكش المترتبة على الجوار والجيوب ، ولذا ستقوم فرنسا بالتفاهم معها بهذا الشأن ، ثم تبلغ ما تصل اليه من اتفاق الى الحكومة البريطانية . واخيرا تعهدت الدولتان بتبادل التأييد فى المجال الدولى عند نظر المسألتين المصرية او المراكشية .

اما القسم السرى فيصرح بالاحتمالات التى قد تنشأ عن تغيير الأوضاع الراهنة ففى حالة اضطرار احدى الحكومتين لتغيير سياستها فى مصر أو مراكش ، تبقى بعض المبادىء التى اتفق عليها قائمة مثل حرية التجارة وحياد طنجة . كما تعهدت الدولتان انه فى حالة تغيير نظام الامتيازات فى مصر لفرنسا اتباع نفس الاجراءات فى مراكش .

وتحدد المادة ٣ من الاتفاق السرى المنطقة الساحلية التى يمكن أن تئول الى الادارة الاسبانية فى حالة ما اذا كف السلطان عن ممارسة سلطاته فيها . وفى هذه الحالة لابد أن تلتزم اسبانيا بمبدأ حرية التجارة وعدم اقامة التحصينات حسب المادة ٧ ، وعدم التنازل عنها لطرف ثالث . واخيرا فى حالة عدم موافقة اسبانيا على هذا التصريح فان الاتفاق يظل ساريا .

نقد ازال الاتفاق الودى اخطر عقبة دوبيه امام فرنسا ومهد لها كى تفرض رغباتها على اسبانيا ، وظهر تماسك الدولتان تماما اثناء مؤتمر الجزيرة وخلال ازمة اغادير ، مما مكن فرنسا من التغلب على المعارضة الالمانية • ومما يسترعى الانتباه انه بينما سلمت الدولتان الاستعماريتان بارتباط مشكلتيهما ، اغفل كل من الوطنيين فى مصر ومراكش فكرة التعاون فيما بينهما ، واخذ كل فريق يحتج على الاتفاق الودى داخل محيطه الخاص •

واذا كانت تسوية المنافسات الاستعمارية هى منبت فكرة الاتفاق الودى : فقد صار له بعد ذلك مغزى بعيد فى تاريخ كل من بريطانيا وفرنسا • فيعتبر هذا الاتفاق نواة للكتلة الانجليزية الفرنسية الروسية التى حاربت المانيا فى الحرب العالمية الأولى •

- ٣ -

التقسيم الفرنسى الاسبانى سنة ١٩٠٤

كانت الخطوة التالية بعد الاتفاق الودى هى التفاهم مع اسبانيا حول مناطق النفوذ • وبدأت المفاوضات بهذا الشأن منذ ١٨ ابريل ١٩٠٤ وصادفت عدة صعوبات فاحتجت اسبانيا أولا على صغر منطقة النفوذ التى تعرضها فرنسا بالقياس الى مشروع ١٩٠٢ خاصة وان التقسيم الجديد يخرج فاس وتازة من منطقتهم • واجاب ديلكاسيه بأن فرنسا قد ضحت بمصالح اخرى للوصول الى مراكش ، ومن حقها ان تحصل على نصيب اكبر • ثم ان الاتفاق الودى لا يشير الى حقوق اسبانيا فى المنطقة الجنوبية وفرنسا مستعدة مع ذلك لاعطاء اسبانيا جزءا صغيرا فى الجنوب ، ولكن بدون اقليم السوس الكبير • ثم تساهل ديلكاسيه قليلا فى توسيع منطقة الريف رغم احتجاجات العسكريين الفرنسيين • واصبحت منطقة النفوذ المبدئية حسب اتفاقية سنة ١٩٠٤ توازى تقريبا $\frac{1}{5}$ المنطقة الفرنسية •

اما نقطة الخلاف الثانية بالاصلاحات ، وحسب الاتفاق الودى تأخذ فرنسا منذ التوقيع على عاتقها الاصلاحات المالية والادارية ... الخ • فمن المفروض أن تترك لاسبانيا تولى هذه الشؤون فى منطقتها • غير أن الاسبان فضلوا على ذلك المشاركة مع فرنسا فى كوندمنيوم اقتصادى او (سيطرة ثنائية) على اقتصاد البلاد كلها • فابدى الوفد الفرنسى استعدادا للتساهل فى هذه المسألة • ولكن الخلاف احتدم حول نقطة اخرى وهى اصرار فرنسا على سرية الاتفاق ، فتساءل الوفد الاسبانى : كيف تستطيع

الحكومة مواجهة الكورتيز المتحمس للتوسع فى مراكش ؟ واعترض دبلكاسيه بأن اعلان الاتفاق سيثير مشاكل دولية ، وفضلا عن ذلك لا يمكن التصريح بتقسيم بلد ، ما زال مستقلا رسميا ، الى مناطق احتلال . واقترح ان يطلع رؤساء الاحزاب بصورة ودية على الاتفاق . واخيرا حل الخلاف بتجزئة الاتفاقية بين تصريح علنى وبنود سرية .

وقعت الاتفاقية فى ٣ اكتوبر ١٩٠٤ وجاء القسم العلنى مقتضبا (١). فهو يشير الى اتفاق الحكومتين على تحديد مدى حقوق كل من الدولتين فى مراكش ، تلك الحقوق الناجمة عن ممتلكات فرنسا فى الجزائر واسبانيا فى الساحل . واعلنت اسبانيا تأييدها للاتفاق الودى بما فى ذلك البند الخاص باحترام سيادة السلطان وسلامة اراضيه .

اما القسم السرى فيفصل معنى تلك الحقوق ، وذلك بتقسيم مراكش الى منطقتى نفوذ وتخطيط حدود كل منطقة . وتعهد اسبانيا بعدم التصرف فى منطقتها خلال ١٥ سنة الا بموافقة فرنسا . وبذا اصبحت المحافظة على الوضع الراهن فى مراكش امرا مستحيلا امكن لاسبانيا استعمال حقها فى العمل طبقا لهذا الاتفاق (مادة ٣) . وتعيد بنود الاتفاق الاخرى كثيرا من مبادىء الاتفاق الودى . كتعهد اسبانيا بعدم التنازل عن جزء من منطقتها لطرف ثالث ، والاعتراف بوضع طنجة الخاص وتحديد المنطقة المحايدة فتمتد عند نقطة تقع على بعد ٢٠ ك . م جنوب شرق مليلة .

كما نص الاتفاق على اشتراك البلدين فى المشاريع الاقتصادية ، وعلى حرية انشاء المدارس وتداول العملة الفرنسية والاسبانية فى كلتا المنطقتين ، واكدت المادة ١٦ صفة الاتفاق السرية ، فلا يجوز نشرها الا بعد التشاور او انقضاء ١٥ عاما .

كان هذا الاتفاق نقطة ثالثة احرزها دلكاسيه فى سياسته الرامية الى احاطة مراكش بالاتفاقات الثنائية مع الدول الاستعمارية . وقد استعد بعد ذلك للضغط على حكومة فاس حتى ترضخ لسياسة التدخل ، لولا ان ظهر عنصر دولى جديد وهو تدخل المانيا فى المشكلة ، ورغم ان الاهداف الحقيقية لسياسة كل من فرنسا واسبانيا ظلت سرا فى الاتفاقات السابقة الا ان التصريحات العلنية قد اثارت الشكوك فى المجال الدولى ، وفى مراكش ذاتها شعر الوطنيون بوجود مؤامرة لا يعرفون مداها بالضبط ، ولذلك رحبوا بظهور المانيا فى الميدان .

---

(1) Morel Appendix 8-9.

تدخل المانيا

ظهرت المانيا متأخرة بين الدول الأوربية الاخرى التى كانت على علاقات اقتصادية بمراكش خلال القرن التاسع عشر ، ولذلك كان مرقفها سلبيا فى مؤتمر مدريد فكانت تعليمات بسمارك بأن يساير الوفد الالمانى وجهة النظر الفرنسية . ومنذ سنة ١٨٨٦ لوحظ تردد السفن الالمانية على موانى مراكش الجنوبية مما يدل على أن هذا التردد انما جاء نتيجة تحول بسمارك الى السياسة الاستعمارية ، وحصول المانيا على التوجو والكاميرون فى غرب افريقيا ، فاصبح شاطىء مراكش الغربى واقعا فى طريق الملاحة البحرية الى هاتين المستعمرتين ، ومن جهة اخرى اسست المانيا مفوضية فى طنجة سنة ١٨٧٣ .

وعندما تولى ولهلم الثانى الحكم ، ارسل مولاى الحسن سفارة للتهنئة بهذه المناسبة ومن الواضح انها تتمشى مع سياسته الرامية الى الموازنة بين القوى الطامعة . وقد رحب الامبراطور بالبعثة ، وارسل الى السلطان يخبره بانه يستطيع الاعتماد عليه . واعقب ذلك توقيع معاهدة تجارية سنة ١٨٩٠ منحت المانيا الامتيازات التى تتمتع بها الدول الاخرى ، ومن بينها حرية اقامة البيوت التجارية فى جميع الموانى .

ومع ان الالمان كانوا مبتدئين فى تجارة مراكش ، الا انهم اظهروا براعة فى التعرف على الذوق الوطنى ، ولذلك نمت تجارتهم بسرعة . ففى سنة ١٩٠١ بلغت قيمة صادرات المانيا الى مراكش ٥ر٢ مليون مارك ، ووارداتها ٥ر٤ مليون وفى سنة ١٩١١ وصلت الى ٢٥ مليون مارك . وهو ما يعادل ١٣٪ من تجارة مراكش الخارجية . وعلى ذلك فقد ظلت المانيا متأخرة بكثير عن فرنسا وانجلترا فى هذا الميدان ، ولكنها على كل حال كانت فى المرتبة الثالثة (١) . وقد اثار هذا النشاط اهتمام الحزب الاستعمارى واصبح الاعتقاد السائد بين الصناعين الالمان هو أن مراكش تضم كثيرا من المواد الخام اللازمة لهم . ولا شك ان الانجليز قد راعوا تزايد تجارة المانيا فى موانى الجنوب حينما اقترحوا اثناء محاولة التقارب مع المانيا ، وضع بعض تلك الموانى المراكشية تحت تصرفهم فلما تبدلت الاتجاهات الدولية سنة ١٩٠٤ ادرك الحزب الاستعمارى الالمانى قرب وقوع

---

(١) اهتمت كاتبة امريكية بالجانب الاقتصادى فى رسالتها عن أزمة اغادير انظر :

Barlow-the Agadir Crisis.

مراكش في يد دولة او اكثر من الدول الاستعمارية الاخـــرى • ونبها حكومتهم الى ان هذا الوضع سيؤدى الى القضاء على مبدأ حرية التجارة القائم في مراكش • وتصادف ذلك مع وصول وفد مراكشي الى برلين يستحث حكومتها على مساعدة السلطان ازاء الدول الطامعة ، اثر تردد انبـــاء الاتفاقات • ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يفكر فيها السلطان في الاستعانة بالمانيا ، فقد اشرنا الى سفارة من هذا النوع جاءت الى برلين سنة ١٨٩٠ •

وفي اثناء المفاوضات الفرنسية الاسبانية حاولت المانيا عرقلة التوصل الى اتفاق دون أن تحقق هدفها وفي نفس الوقت لم تستجب لرغبة السلطان حينما وصل وفد مراكش الى برلين سنة ١٩٠٤ ؛ بل انتظرت حتى لاحت الفرصة المناسبة ، وكانت هذه الفرصة هي هزيمة روسيا ، اكبر حليف لفرنسا ، في الحرب مع اليابان أوائل سنة ١٩٠٥ •

كان الامبراطور في هذه الاثنـــاء يقوم برحلة في البحر المتوسط ، فحثه المستشار بيلوف على التوقف في طنجة للاعلان عن سياسة المانيا الجـــديدة •

وفي العاصـــمة الدبلوماسية لمراكش ، القى ولهلم الثـــاني في ٣١ مارس ١٩٠٥ خطابا أمـــام مندوب السلطان الذى جاء لاستقباله ؛ اعتبرته الحكومة الفرنسية تهديدا خطيرا للمكاسب التى احرزتها • فقد جاء في الخطاب « أن هذه الزيارة موجهة الى السلطان صاحب السيادة والاستقلال التام في بلاده ، واني آمل أن تفتح مراكش ، في ظل سيادته الكاملة ، للمنافسة التجـــارية السلمية الحرة لجميع الأمم دون احتكار أو استثناء ثم اعلن ان المانيا مصممة على ان تحمى مصالحها » •

كان خطاب طنجة مؤذنا بتحول جوهرى في السياسة الالمانية ولكن ديلكاسية رأى المضى في سياسته دون التأثر بتصلب المـانيا ، فاخذ يعد لارسال الاساطيل الى سواحل مراكش ، حتى يجبر السلطان على قبول الاصلاحات التى اصبح من حق فرنسا الاشراف عليها حسب الاتفاق الودى• بيد أن السلطان قاوم ، ولقى تشجيعا من المانيا على هذه المقاومة بحجة الدفاع عن مبدأ الباب المفتوح لجميع الدول كي تتنافس على المشروعات الانشائية • وهنا وقع خلاف بين ديلكاسيه ورئيس الوزرا روفييه الذى خشى من ان يؤدى التشدد في المسألة المراكشية الى الحـــرب • ولكن ديلكاسيه كان يعتقد بأن الحـــلف البريطاني سيكون رادعـــا لالمانيا ، والا فلا باس من المخاطرة ولذلك تعرض لهجوم من النواب اليساريين الذين احتجوا على توريط فرنســا في الحرب ، من اجل مصـــالح استعمارية •

ولما كان اصحاب هذه المصالح انفسهم قد انتقدوا ديلكاسيه من قبل بسبب اشراكه اسبانيا فى الاصلاحات ؛ فقد تحرج مركز وزير الخارجية وقدم استقالته فى أوائل مايو . وقبل روفييه هذه الاستقالة ، فقيل بأنه ضحى بوزير الخارجية ارضاء لالمانيا .

وعندما اخذ روفييه على عاتقه الشئون الخارجية اضطر الى الاستمرار على سياسة سلفه . فقد لاحظ من جهة ، ان استقالة وزير خارجيته نتيجة التهديد الالمانى بشكل هزيمة ادبية لفرنسا . ومن جهة اخرى اعتقد بأن حكومة مراكش ستصبح اكثر جراة على المعارضة . وفعلا لم ينقض شهر مايو حتى ابلغت حكومة مراكش فرنسا رفضها وضع جميع الاصلاحات المقترحة تحت اشرافها ، معتذرة بان مجلس الأعيان لم يعط السلطان الحق فى منح هذه الامتيازات ، ولا يستطيع السلطان مخالفة رغبات المجلس واتبعت ذلك باقتراح بعقد مؤتمر دولى للنظر فى وسائل تنفيذ الاصلاحات وتوفير النفقات اللازمة لها (1) .

وسرعان ما أعلنت المانيا عن تأييدها لفكرة عقد المؤتمر . وتحير روفييه بين التنازل عن المكاسب التى احرزها فى الاتفاقات السابقة ؛ وبين المخاطرة بالحرب مع المانيا . ولذلك حاول ان يوسط تيودور روزفلت فى النزاع دون جدوى . وجس نبض بريطانيا فوجدها مستعدة لتأييد فرنسا الى أبعد الحدود . ولكنه كان يعلم ان خوض الحرب من اجل المسألة المراكشية لن يكون مقبولا لدى الرأى العام الفرنسى ، فان لسان حاله سيقول « اذا كنا قد تجنبنا الحرب مع المانيا من اجل الالزاس واللورين أفليس من باب اولى أن نتجنبها من أجل مراكش ؟ كذلك مال روفييه الى محاولة التفاوض مع المانيا بخصوص هذه المشكلة .

عرض روفييه أولا على الحكومة الالمانية بعض الامتيازات المالية فى الدولة العثمانية ليصرف نظرها عن تلك المسألة ، ولكن رادولين السفير الالمانى فى باريس أصر على تأييد مراكش فى ضرورة عقد مؤتمر دولى ينظر فى الامتيازات الاقتصادية ؛ واذا لزم الامر فى اشراف دولى على قوات الامن المراكشية . وبعد ذلك يمكن ارضاء فرنسا فى المطالب الاخرى .

انصب الخلاف حول مبدأ عقد المؤتمر . فحاول روفييه أن يقنع المانيا بانه اذا كانت قد قبلت مبدئيا الاتفاق على جدول أعمال المؤتمر ، أفليس من الأفضل الاتفاق على المشكلة برمتها بواسطة محادثات ثنائية ؟

---

(1) Morel Appendix 5-6.

رفض رادولين هذه الفكرة وقال انــــه لابد من قبول مبدأ المؤتمر اولا . ثم بعد ذلك يمكن التسليم بمصالح فرنسا فتستطيع القيام بالاصلاحات التي ترغب في ادخالها او اخذ مسئولية لامن في المنطقة الشرقية وفيما عدا ذلك لابد من مساواة الدول .

سلم روفييه اخيرا بمطالب المانيا ، وذلك باعلان قبوله عقد مؤتمر في ٨ يوليو . وقرن الاعلان بنشر المذكرة الالمانية التي تعترف بمصالح فرنسا الخاصة في مراكش واعلن عن انسحاب البعثتين الالمانية والفرنسية من فاس حتى تتوقفــــا عن الضغط على السلطان بخصــــوص الامتيازات الاقتصادية الى ان ينعقد المؤتمر .

- ٥ -

مؤتمر الجزيرة

اعتبرت المانيا انعقادالمؤتمر نجاحا كبيرا لسياستها ، لانما يعنيهاليس هو المحافظة على استقلال مراكش ، بل توطيد مركزها الدبلوماسي في اوروبا . وليس جديدا على السياسة الالمانية اتخاذها المشاكل الاستعمارية ، مجرد اداة للضغط على الدول في ميدان العلاقات الاوربية . وسيتضح هذا الاتجاه في مناسبات عدة خلال تطورات المشكلة المراكشية . فعندما ابدى السلطان انزعاجه للاتفاق الالماني الفرنسي طمانه تاتنباخ المفوض الالماني في طنجة ، الى ان المانيا ترضى فرنسا مؤقتا الى ان ينعقد المؤتمر .

وبالرغم من ان بريطانيا واسبانيا كانتا اشد من فرنسا معارضة لفكرة المؤتمر ، الا ان معارضتهما انتهت بانتهاء المعارضة الفرنسية ، وذلك على اساس الفكرة السائدة وهي ان فرنسا هي الطرف المعنى الاول في المسالة المراكشية : وطبقا لمذكرة ٨ يوليو كان لابد من تفاهم المانيا وفرنسا اولا على جدول اعمال المؤتمر ، فبحثت مسائل الخلاف الرئيسية وهي :

اولا : موضوع المحافظة على الامن وبهذا الشان اصرت فرنسا على اخراج مسالة الحدود الجزائرية المراكشية باعتبارها مسالة خاصة انتهت تسويتها مع مراكش . اما امن الموانى التي تحتاج شواطئها الى اشراف اوربي فقد قبلت فرنسا تحديد الموانى التي تخضع لهذا المبدا بطنجة والعرائش والدار البيضاء والرباط . وهي تنوى ان تحصل على مركز ممتاز في هذا الاشراف . ويتعلق بهذا الموضوع حظر تهريب الاسلحة الى مراكش وضرورة اخضاعه لرقابة الدول .

ثانيا : موضوع المصرف المكلف بمنح القروض والاصلاح النقدى فاتفق على أن يكون دوليا . وطال الجدل حول امتيازات المشروعات الانشائية الأخرى التى كان كل من تاتنباخ وتايندييه يتسابقان فى فاس للحصول عليها ، ولا سيما مشروع بناء مرسى طنجة ، فادعى كلا الفريقين أن السلطان قد منحه له .

ثالثا : مكان عقد المؤتمر وقد اقترح السلطان طنجة وايدته المانيا ، واعترضت كل من فرنسا واسبانيا بحجة عدم توفر الأمن . واستقر الرأى على الجزيرة الخضراء ، وهى مدينة صغيرة على ساحل اسبانيا الجنوبى .

يرى الكتاب الالمان انهم قد تساهلوا اثناء هذه المحادثات التمهيدية لانها تصادفت مع محاولة من جانب ولهلم الثانى لانشاء حلف قارى من المانيا وفرنسا وروسيا . وكان فى نيته اجتذاب فرنسا بواسطة التنازلات فى مراكش ، الا ان فكرة هذا التحالف لم تستمر طويلا .

حرصت فرنسا على ان تدعم مركزها فى المؤتمر قبل انعقاده وذلك بالاتفاق مع حلفائها ، فجرت مشاورات مبدئية مع بريطانيا (1) لتنسيق التعاون العسكرى لمواجهة شتى الاحتمالات . وبالنسبة لاسبانيا رؤى التفاهم مقدما على بعض الامور التفصيلية التى ستبحث فى المؤتمر حتى يكون التضامن تاما بين البلدين . من ذلك مثلا اشراك الاموال الاسبانية فى القروض والمشروعات . وكذلك اسهامها فى الاشراف الدولى على امن الموانى وخاصة فى منطقة نفوذها ، وفى الرقابة البحرية المفروضة على تهريب الاسلحة . كما اتفق على ان تستأثر فرنسا بمكافحة تهريب الاسلحة على الحدود الجزائرية بينما تقوم اسبانيا بهذه المهمة على الحدود المشتركة مع الصحراء .

وكانت اهم مشكلة واجهت تلك المحادثات هى شرطة طنجة ، فهى تقع وسط منطقة النفوذ الاسبانية ، ولكن ضباطا فرنسيين قد استقدموا من زمن للاشراف على شرطة هذه المدينة . واخيرا اتفق على مساهمة اسبانيا فى امن ذلك الميناء . وتقسيم الاشراف على الموانى الاخرى بين الدولتين العرائش لاسبانيا . والدار البيضاء والرباط لفرنسا . وتم التوقيع على معاهدة بهذا المعنى فى ٣ سبتمبر ١٩٠٥ (2) .

---

(1) D.D.F. Scrie 2 T. 7

(2) Morel Appendix 11

انعقد المؤتمر فى يناير ١٩٠٦ ومثلت فيه معظم دول مؤتمر مدريد • بالاضافة الى روسيا التى دعيت بناء على اقتراح خليفتها فرنسا • وكانت الدول ما بين ملتزم للحياد وهى غالبا الدول الصغيرة ، وبين مؤيد أو ميال لفرنســـــا • فمثلا حاولت الولايات المتحدة ان تلعب دور الوسيط ولكنها كـــانت اميل الى فرنسا ، والذى يعنيها من المؤتمر هو مبدأ الباب المفتوح • وكـــان هدف الانجليز هو المحافظة على الاتفاق الودى ولكن دون استثارة المانيا الى الحرب ، ومع ذلك فقد اتهمهم الوفد الالمانى بأنهم فرنسيون اكثر من الفرنسيين • والدولة الوحيدة التى ايدت المانيا على طول الخط هى النمسا ومع ذلك لم تكن مراكش تعنيها مباشرة •

وتراس وفد مراكش فى هـــذا المؤتمر • المقرى ومحمد الطريس • وكـــانت تعليمات الوفد تقضى بأن يتخذ موقف المعارضة من اى قرار يمس استقلال مراكش ، وخـــاصة الزامها بضباط فرنسيين لتدويب الجيش • وكـــان عليه ان يطالب الدول بألا تعرقل حق مراكش فى فرض الرســـوم الجمركية فى بعض المواني على الاقل لانها المورد الرئيسى الذى تستعين به الحـــكومة للانفاق على قوات الامن •

وظهر خلال المؤتمر كيف ان موقف المـــانيا يختلف تماما عن الوفد المراكشى الذى عول على تأييدها • كـــانت خطة المانيا هى عدم المطالبة بامتيازات خـــاصة لنفسها حتى تقنع الدول بمبدأ المساواة الاقتصادية • ولهم من ذلك منع فرنسا من الاشراف على الشرطة الوطنية لأن ذلك يعنى (تسليم مراكش لها) • ولكن المانيا لم توفق فى تحقيق خطتها •

اما تعليمات المندوب الفرنسى فكانت تقضى باستبعاد مسألة الحدود من المؤتمر ومعارضة إى محاولة لتدويل شرطة الموانى سواء بفكرة اعطائها لدول صغيرة او محايدة، وانما تتولاها فرنسا باعتبارها (دولة اسلامية(٢))• ومن تعليمات المندوب الفرنسى ايضـــا معارضة تدويل مكافحة تهريب الاسلحة فيقتصر على بلاده مع اسبانيا •

وبخصوص مصرف الدولة المقترح انشاؤه تقبل فرنسا اسهـــام الدول فيه ، على ان تحتفظ بالاغلبية فى مجلس الادارة وبرئاسة هـذا

---

(٢) قد يبدو هذا التعبير غريبا ، ومعناه فى أذهان الفرنسيين أن فرنسا تحكم عددا كبيرا من الشعوب الاسلامية فى مستعمراتها • والاغرب منـــه أنى سمعت سنة ١٩٥٤ أثناء المناقشـــــات فى الجمعية الوطنية الفرنسية ، احد النواب يقول ان فرنسا ثانى دولة اسلامية وتأتى قبل مصر ، على أساس تعداد رعاياها من المسلمين • المؤلف •

المجلس باعتبارها مالكة لاغلبية اسهم الدين المراكشي . وبقدر الامكان يقتصر الباب المفتوح على التجارة دون المشروعات الانشائية .

اصطدم وفد المانيا وفرنسا في معظم الموضوعات التي بحثها المؤتمر ، ولا سيما في موضوعي المصرف والشرطة . فتمسك الالمان بمبدأ المساواة في مصرف مراكش المقترح واخضاعه لرقابة القناصل .

وسنرى أن فرنسا قد تساهلت في هذه النقطة بالذات . اما بالنسبة للشرطة فقد تشبثت بموقفها ورفضت جميع المشروعات الالمانية ، ومن اهمها اقتراح بجعل الشرطة خاضعة للسلطان على أن يتخذ ضباطا لتدريبه وقيادته من الدول الكبرى ، كل في منطقة محدودة ، أو ضباطا من الدول المحايدة لقوات الشرطة عموما .

واوشك المؤتمر ان يتوقف بسبب هذه المشكلة ، فعرضت النمسا حلا وسطا ، قائلة بان مسالة مراكش ثانوية ولا تستحق ان يتحطم من اجلها الانسجام الاوربي . وبدعو المشروع النمسوي الى توزيع الاشراف على شرطة الموانى بين فرنسا واسبانيا على ان يعين مفتش عام للشرطة من بين الدول الصغيرة المحايدة وهو الذى يشرف على التنظيم الادارى ويقدم تقارير عن الأمن للسلك الدبلوماسي في طنجة .

حاول مندوب مراكش ان يوقف هذا التيار الذى يتعارض واستقلال بلاده ؛ فطالب بالنص على ان يكون ضباط الشرطة تابعين للسلطان وأن تكون التجربة محدودة في بعض الموانى لاكلها . حتى الولايات المتحدة اعترضت بان المشروع يؤدى الى التقسيم الذى ينافي المبدأ العام المسلم به في المؤتمر ، الا وهو المحافظة على استقلال مراكش . وقال الوفد الأمريكي انه في حالة عدم الأخذ بمبدأ الدولية ، فمن الافضل أن تتشكل هيئة مختلطة من الاسبان والفرنسيين للاشراف على شرطة الموانى . وقد أخذ بهذه الفكرة جزئيا .

أصدر المؤتمر قراراته في ابريل ١٩٠٦ ، وهي وثيقة مطولة وتتالف من ١٢٣ مادة وتعرف بميثاق الجزيرة (1) . وجاء في مقدمة الميثاق ان هدف الدول المجتمعة هو المحافظة على الأمن ورخاء مراكش في ظل سيادة السلطان وسلامة اراضيه . ثم تعالج مواد الميثاق بعد ذلك الموضوعات الرئيسية الآتية :

---

(1) Morel Appendix

اولا : امن الموانى . فتقرر تاليف قوة وطنية تتراوح من ٢٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ جندى يشترك فى تدريبها وقيادتها ضباط فرنسيون واسبان بحيث لا يزيد عددهم عن ٥٠ وتكون هذه القوة خاضعة للسلطان . ويتولى ضباط من الاسبان الاشراف فى تطوان والعرائش . وفرنسيون فى ثلاثة موان اخرى على الأطلسى ، ومختلطون من الجنسيتين فى الدار البيضاء وطنجة . ويوافق السلطان على تعيين هؤلاء الضباط ويتولى رئاستهم من الناحية الادارية مفتش عام سويسرى ، وهو الذى يقدم التقارير ، للمخزن وللسلك السياسى فى طنجة ، عن مدى تقدم الأمن .

ثانيا : تهريب الأسلحة : فيحظر على اهل مراكش استيراد الأسلحة بدون ترخيص الحكومة . ولذلك يجب على المخزن ان يقدم بيانا الى الدول بما يحتاجه من تلك الأسلحة حتى تستطيع الدول ان تقوم بمكافحة التهريب برا وبحرا . وتتولى فرنسا وحدها الاشراف على المكافحة عبر الحدود الجزائرية . واسبانيا فى منطقة الريف والجنوب . ويتبين من هذه القرارات كيف ان ميثاق الجزيرة يتمشى واتفاقيات التقسيم .

ثالثا : تاسيس مصرف دولة لمراكش يكون له امتياز اصدار سندات الحكومة التى تستخدم لتغطية نفقات الأشغال العامة ، وذلك بجانب القروض المالية . وللحكومة المراكشية ان تقترض من المؤسسات الأخرى علاوة على هذا المصرف . ولكن اذا تساوت شروطه مع المؤسسات فله الافضلية . ويمثل مجلس ادارة المصرف المساهمين حسب نسبة الحصص ، ولا يقل راس المال عن ١٥ مليون فرنك ويتبع القانون الفرنسى فى اعماله . ويعين المخزن مندوبا لمراقبة اعمال المصرف .

رابعا : الضرائب ، يجوز للحكومة المراكشية ان تفرض رسوما على البضائع المستوردة بما لا يزيد على ٢٫٥٪ من قيمتها ، وتحصيل رسوم اخرى بسيطة عن الأرصفة ورسوم بلدية بقصد تحسين المدن . وتسرى هذه الضرائب على المراكشيين والأجانب على السواء . وفى نظير اخضاع الأجانب لتلك الرسوم يجوز لهم تملك العقارات فى الموانى وعلى مسافة ١٠ ك . م حولها ، بدون اذن السلطان . اما فيما عدا ذلك فتشترط موافقته .

خامسا : الجمارك ، وقد فصلها الميثاق تفصيلا دقيقا بحيث عين الرسوم بالنسبة لمختلف السلع مؤكدا مبدا المساواة بين الدول فى الاستيراد والتصدير . ولكنه اخضع مراكش فى هذا الموضوع . كما فى الموضوعات الأخرى ، للاشراف الدولى ، فقرر تاليف لجنة للاشراف على الجمارك من ٣ اعضاء يختار احدهم مصرف مراكش والآخر يختاره

السلك السياسي من بين احد القناصل الاجانب ، والثالث تعينه حكومة المخزن .

سادسا : المشروعات الانشائية والمنافع العامة ، وقد وضح الميثاق الاجراءات التي تضمن المساواة التامة بين الدول فيطرح كل مشروع في مناقصة عامة ويصدر قرار بالشروط ويقدم للسلك الدبلوماسي في طنجة . على ان يمارس السلطان السيادة الكاملة على المرافق العامة مثل السكك الحديدية والطرق .

يتضح من هذه القرارات ان فرنسا قد خرجت ظافرة بقسط كبير من أهدافها وان لم تكن قد حققتها كلها ، ولا سيما بالوضع الذي كانت تريد فرضه على اقتصاديات مراكش . وحتى في المجال الدولي قوى المؤتمر التضامن الانجليزي الفرنسي ومهد لاتفاق سنة ١٩٠٧ مع روسيا . والسبب في ذلك هو انه كان لفرنسا هدف واضح تسعى وراءه بخلاف المانيا .

ومع ذلك فقد أعلن بيلوف المستشار الالماني امام الرايخ ، أن المؤتمر كان نجاحا كبيرا لالمانيا . والسبب في هذا الاعتقاد كما يلوح لنا هو أن مراكش كانت مجرد اداة في نظر السياسة الألمانية . واذا كان المؤتمر قد اقر تدخل الدول في عدة امور تنتقص من سيادة السلطان ، فان ذلك لم يعن المانيا في شيء .

والواقع أن مراكش كانت اكبر خاسر من وراء هذا المؤتمر على خلاف ما كانت تتوقع ، ولم يستطع مندوبها أن يتتبع المناورات السياسية التي وجهت المناقشات . ولذلك سرعان ما ظهر رد الفعل عنيفا في الأوساط الوطنية .

- ٦ -

صدى الحوادث في مراكش

راينا كيف كانت حكومة فاس تعاني منذ بداية القرن الحالي من الاضطرابات الداخلية فجاء التدخل الأجنبي ممثلا في الاتفاقات ومؤتمر الجزيرة مشجعا لتلك الاضطرابات ومعطيا اياها الصفة الوطنية احيانا . وكانت الثورات الداخلية في حد ذاتها معطلا لتنفيذ قرارات الجزيرة . فقد اصبح من المستحيل اصلاح مالية المخزن لان الضرائب التي قررها المؤتمر لم تنفذ ، كما أن رسوم الجمارك حجزت لتغطية الدين .

ومن شواهد هذا السخط الذى عم أنحاء البلاد ، اتساع قوة الرسولى فى الشمال وكان السلطان قد ولاه اقليم الفحص ، فاصبح يطالب بطنجة مما دعا الحكومة الفرنسية الى التفكير فى ارسال قوات لحماية المدينه ، ولكن المانيا اعترضت قائلة بانه يجب موافقة السلك الدبلوماسى أولا . وعلاوة على ذلك ظهرت ثورات اخرى جديدة اهمها تلك الحركة الدينية التى قام بها ماء العينين فى الجنوب . والتى هدفت الى تخليص مراكش من الضغط الأجنبى وايقاف التوغل الفرنسى فى موريتانيا .

شاهد آخر يتمثل فى مقتل الدكتور موشـــان بمدينة مراكش فى مارس ١٩٠٧ . وقد اثار الفرنسيون ضجة كبيرة حول مقتل هذا الطبيب بحجة ان الاهالى قد تنكروا لرسول من رسل الانسانية لديهم . والظاهر ان المراكشيين قد أدركوا حقيقة ملموسة فى ذلك العصر وهى اتصـــال الطب بالسياسة . وفضلا عن ذلك فان موشان عند ما عاد من اجازته الى مراكش أوائل سنة ١٩٠٧ ، اصطحب معه احد الجيولوجيين ، فأثار ريبة السكان بكثرة تجواله حول المدينة . واتهمت فرنســا احد المستشرقين الألمـان بالتحريض على هذا الحادث .

ولم يكن هذا الاغتيال اول حادث من نوعه ؛ والجديد فيه أن فرنسا لم تكتف كما كانت تفعل فى السابق بتقديم الاحتجاجات وطلب التعويض ، وانما سارعت فى تلك المرة الى احتلال مدينة وجدة متظاهرة بأن ذلك اجراء مؤقت ريثما تجاب مطالبها . وهى مطالب تتجاوز حد المعقول . فمنها عزل باشا مراكش وسجنه بطنجة حتى يشرف المفوض الفرنسى على التحقيق ، ثم تنفيذ اتفاقية الحدود لسنة ١٩٠١ باشراك الفرنسيين فى لجنة مراقبة القسم المراكشى من الحدود . ومن بين المطالب ايضا عزل الادريسى حاكم اقليم الأدرار لأنه يساعد ماء العينين ؛ هذا علاوة على تعويض كبير لأسرة القتيل . ولما كانت حالة السلطان فى تدهور مستمر . وليس بوسعه مقاومة تلك المطالب ، فقد سلم بها جميعا .

وكما استغل حادث مقتل موشان لاحتلال الاقليم الشرقى ؛ تذرعت فرنسا بحادث آخر فى الدار البيضاء لتنزل قواتها فى الميناء ، وتضــع مراكش بين شقى الرحى التى اخذت تطبق عليها شيئا فشيئا حتى انتهت بالحماية . وكان سخط أهل الدار البيضاء شديدا على الفرنسيين بسبب تصرفات المراقب الفرنسى للجمرك . وبينما كانت احدى السفن تنزل عددا من العمال الأوربيين الذين يعملون فى انشاء سكة حديد الشاوية ، هاجمهم الســـكان وقتلوا ثمانية منهم فى يوليو ١٩٠٧ . وعلى اثر ذلك احتلت فرنسا الميناء وادعت كما فعلت فى وجدة ان الاحتلال مؤقت ريثما تنفذ قرارات مؤتمر الجزيرة بخصوص شرطة الموانى . واشرك الفرنسيون عـدة

مئات من الاسبان فى قوات الاحتلال التى اخـــذت تتوافد دون مقاومة طوال شهر اغسطس ، ولكن كان من الواضح ان الاسبان انما جيء بهم لمجرد التغطية فقط .

ومما يسترعى الانتباه ان المانيا لم تعارض فى هذه العمليات ، بل علق عليها بيلوف مستشار الدولة قائلا « بأن تلك الاجراءات انما اتخذت لصالح جميع الدول المتحضرة » .

وشعر الوطنيون بأن الدول الاوربية تضـــامنت ضدهم . ووجدت مدينة مراكش فى عبد الحفيظ اخى السلطان عبد العزيز زعيما مناسبا للثورة . وكان عبد الحفيظ على خلاف مع أخيه منذ سنة ١٩٠٥ ، وهو يتخذ من مدينة مراكش مقرا له . فتوطدت صلته بماء العينين زعيم الجنوب ، واعتمد عليه فى ثورته . ومن ثم اهتمام الحركة الوطنية بمشاكل الجنوب ، فكان من بين المطالب التى قدمتها استرجاع واحة توات .

ولما كان عبد العزيز قد عـــزل حاكم مدينة مراكش تنفيذا لرغبات فرنسا ، فقد ساعد بذلك على تصاعد تلك الحركة المعارضة التى انتهت باعلان عبد الحفيظ سلطانا فى اغسطس ١٩٠٧ فقد انعقد مؤتمر وطنى فى تلك المدينه وقرر المطالبة بطرد الاوربيين من البلاد . وتحديد المناطق التى يجـــوز لهم الاقامة فيها كما طالب بالغاء نظام الحمايات والمكوس ومصرف الدولة ، وشرطة الموانى الموضوعة تحت القيادة الأجنبية ، وعدم الاعتراف بالمعاهدات التى تمت بعد مولاى الحسن . وهى فى مجموعها من مقررات مؤتمر الجزيرة .

اعلن المؤتمر الجهاد وخلع عبد العزيز بعد ان ثبت عجزه ، ولجـــأ السلطان الى علماء القرويين باعتبار ان تقاليد مراكش تقضى باخذ موافقتهم على تولية السلاطين وخلعهم . واستصدر منهم فتوى بان الوقت ليس وقت جهاد ، وانه وحده هو السلطان الشرعى . ثم راى ان يقوى مركزه بالتقارب من فرنســا فسمح لها بالاشراف على شرطة طنجة بل طلب اليها ارســـال المدربين للجيش ، والتقدم فى الشاوية بما وراء موانى الأطلسى اى فى اتجاه فاس . فمنح لذلك وسام فرنسا الرفيع (الليجون دونير) فكان ذلك بمثابة (تعميد السلطان) .

كان محتم ان تسقط هيـبة السلطان عبد العزيز ، حتى لدى العلماء الذين ايدوه عن غير اقتناع ولذلك أعلنوا خلعه فى ٣ يناير ١٩٠٨ . وكان السلطان قد غادر فاس الى الرباط فرارا من السخط الذى عم ضـــده

فى المدينة العتيدة . وقدم اعيان فاس مطالب تشبه الى حد كبير مطالب مدينة مراكش ، وتضيف اليها امرين هامين :

الاول : المطالبة بالاعتماد على دول المشرق الاسلامى المتقدمة .

والثانى : هو عـــدم التنازل عن شىء . او توقيع اتفاق مع الاوربيين بدون الرجوع الى الامة .

ونلمس فى هذه الحركة لمحات من الفكرة الدستورية حيث انها دعت الى تكوين مجلس شورى من الأعيان ، لأن الحركة كانت تقوم على اكتاف كثير منهم من أمثال الجلاوى والجندافى .

وأصدر الوطنيون مجلة مخطوطة حيث لم تكن (١) الطباعة قد وصلت الى فاس بعد ، وذلك لترد على جريدة السعادة التى كانت تصدر فى طنجة وتؤيد السلطان عبد العزيز .

نودى بعبد الحفيظ سلطانا عند دخوله فاس فى يونيو ١٩٠٨ . ولكن عبد العزيز لم يستسلم . فحاول أن يسترد عرشه مستندا الى تأييد فرنسا . واستعد للتقدم فى الشاوية التى تفصل فاس عن قواعد عبد الحفيظ فى الجنوب ، فالاشتراكيون وعلى راسهم جان جورس طالبوا بمساعدة عبد الحفيظ على تثبيت مركزه لانه رمز الوطنية والديموقراطية . بينما طالب ممثلا فرنسا فى مراكش وهما رينيو ، وسانت اولير ، باستغلال تلك الظروف وتقديم المساعدة لعبد العزيز الذى وضع بلاده تحت سيطرة فرنســـا . .

أما بيشون وزير الخارجية فقد وقف موقفا وسطا مؤداه تشـــجيع عبد العزيز بالمـال فقط وتقــوية حامية الدار البيضاء ، لكن دون تدخل عسكرى لمناصرته . ومن ثم يئس عبد العزيز فأعلن تنازله عن العرش فى اغسطس ١٩٠٨ .

حاول عبد الحفيظ فى بداية الامر ان يلتزم بأهداف الوطنيين فوجه فى يناير ١٩٠٩ طلبا الى حكومة باريس بالانسحاب من الأماكن التى احتلتها ، وهو متأكد من ان الحكومة الفرنسية (المجيدة) لن تحول دون رغبات الامة المراكشية ، لان حق الامم ليس مقررا فى اوروبا فقط ، بل عند المسلمين ايضا . الا ان عبد الحفيظ لم يقم بشىء فى ســـبيل التقرب من العالم

---

(١) ابن كانون : احاديث عن الادب المغربى .

الاسلامى . ويبدو ان فكرة الجامعة الاسلامية لم تحد صدى كبيرا عند المراكشيين لانقطاع الصلة بينهم وبين المشرق الاسلامى بسبب احتلال الجزائر منذ زمن طويل . ولم يلبث عبد الحفيظ ان تحول تحت ضغط فرنسا وفى سبيل الاعتراف بحكومته من الدول الاوربية . الى حالة الخضوع تدريجيا .

- ٧ -

التغلغل الاقتصادى والعسكرى

عندما احتلت فرنسا وجدة والدار البيضاء وتقدمت فى اقليم الشاوية عامى ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ادعت بأن هذه الاجراءات تتمشى مع مؤتمر الجزيرة باعتبار انه قد وكل اليها مع اسبانيا الاشراف على امن الموانى . ومع أن فى هذا الادعاء مغالطة ، فقد أغمضت الدول الكبرى بما فى ذلك المانيا العين . ورات فيه ضرورة لحماية الجاليات الاوربية على اختلافها . ولكن ظهرت مشاكل جديده بمناسبة تولى عبد الحفيظ السلطة فقد اعتقدت بعض الأوساط فى فرنسا بأن المانيا شجعته وتأيد هذا الاعتقاد عندما سبقت ألمانيا الدول الأخرى الى الاعتراف بـه .

وكانت الحكومة الفرنسية ترى بعد تنازل عبد العزيز الا تعترف الدول بالسلطان الجديد الا بعد تقديم الضمانات الكافية . واتفقت مع اسبانيا على تقديم مذكرة الى السلطان فى سبتمبر ١٩٠٨ تحتوى على عدة مطالب كشروط للاعتراف وهى :

أن يعلن السلطان التخلى عن فكرة الجهاد ، وان يتعهد بقبول جميع المعاهدات والمواثيق الدولية الخاصة بمراكش بما فى ذلك قرارات الجزيرة . وان يتحمل نفقات الاحتلال . ودفع الغرامات التى فرضتها فرنسا على قبائل الشاوية نتيجة حوادث الدار البيضاء .

وبعد تردد آثر السلطان التسليم بهذه المطالب اعتقادا بأن اعتراف فرنسا واسبانيا سيوطد مركزه . وسنرى كيف انه اخطأ التقدير ؛ لأنه وهو الذى وصل الى العرش على اكتاف الوطنيين ، كان لابد ان يفقد دعائم حكمه نتيجة هذا الاستسلام .

وفى هذه الأثناء وقع حادث ادى الى زيادة التوتر الفرنسى الالمانى . وذلك حين ضبطت القوات الفرنسية احد موظفى القنصلية الالمانية

بالدار البيضاء وهو يساعد بعض جند الفرقة الاجنبية على الهرب فقبض عليه ورفعت شكوى الى محكمة العدل الدولية .

لاحظ الالمان اذن ان سياسة التهديد ادت فى المجال الدولى الى عزلتهم . وفى داخل مراكش الى تحسن مركز فرنسا باطراد . ولذلك حاولت الحكومة الالمانية اتباع خطط جديدة تقوم على الملاينة . وجرت المفاوضات بين ممثلى الدولتين فى طنجة . واتفق مبدئيا على ان تعترف المانيا لفرنسا بالتفوق السياسى فى مراكش . ونتيجة لذلك تقتصر وظائف مدربى الجيش ورؤساء المصالح الفنية على الرعايا الفرنسيين . وفى حالة الخلاف مع مراكش . تلتزم المانيا الحياد اما فى الميدان الاقتصادى فتتالف اتحادات صناعية (كارتلات) تمثل الراسماليين من البلدين . وتنسق فيها بينها الاشغال العامة .

بيد أن بعض شركات الامتياز الالمانية ذات النفوذ فى الجنوب ، مثل شركة مانسمان احتجت على هذا الاتفاق وايدها بعض انصار حزب الوحدة الجرمانية ، الا أن الاتحادات الصناعية الكبرى القائمة فى اوربا والتى كان يشترك فيها راسماليون من الجنسيتين الالمانية والفرنسية ، تغلبت فى النهاية ومهدت لتوقيع اتفاقية فبراير ١٩٠٩ وتضمن هذه الاتفاقية(1)، المبادىء التى سبق أن تفاهم عليها الطرفان فى طنجة ومع ذلك فهى لم تضع حدا للمنافسات بين الراسماليين على امتيازات المشروعات فى مراكش كل ما فى الامر انها دعت الى تنسيق العمل بين الشركات الفرنسية والالمانية. وهذا معناه التحول عن مبدأ الباب المفتوح والميل الى سياسة الاحتكار . وفعلا تطور هذا الوضع الى الاتفاق فى العام التالى على توزيع المشروعات بين الدول بنسب محددة مما يخالف مبدا المساواة المقررة . وبناء عليه تكونت اول جمعية دولية للأشغال العامة . ظفرت فرنسا بالقسط الاكبر من اسهمها ، ٥٠٪ وبستة مقاعد فى مجلس ادارتها . واتت المانيا فى الدرجة الثانية بـ ٢٦٪ واربعة مقاعد فى مجلس الادارة . بينما منح الراسمال البريطانى ٥ر٦٪ ووزع الباقى بين اسبانيا وايطاليا والسويد بنسب ضئيلة (2) .

وبينما احرزت فرنسا هذا التفوق الاقتصادى فى مجال المنافسات الدولية اذ بها تحرز كسبا آخر عسكريا واقتصاديا معا على حساب السلطان الجديد خلال عامى ١٩٠٨ – ١٩١٠ . وقد اشرنا الى ان عبد الحفيظ تردد بين عاملين . ارتباطه بالحركة الوطنية التى اتت به الى الحكم . وواقع

(1) Morel Appendix 14
(2) Barlow P. 105 S. q.

مركز مراكش وتزايد نفوذ فرنسا المستمر وقد حاول التوفيق بين الأمرين وذلك باظهار النشاط للقضاء على الثورات الداخلية فتمكن من أسر بو حمارة وقتله . واضعف شوكة الرسولي . وقدم طلبا الى فرنسا بسحب القوات المحتلة ، من الشاوية على أن يتعهد بضمان سلامة الجالية الأوربية، ثم استقدم بعض المدربين من الدولة العثمانية تلبية لرغبات الوطنيين .

ولكن فرنسا اشترطت قبل الانسحاب ان تطمئن الى فاعلية القوى المراكشية التى ستحل محلها ؛ والابقاء على الجند الوطنيين الذين دربوا تحت قيادتها اثناء احتلال الشاوية وكذلك الإبقاء على قواد هذا الاقليم الذين تعاونوا مع الاحتلال . كما انها اشترطت بالنسبة للمنطقة الشرقية الاحتفاظ ببعض مراكز الحدود داخل الأراضى المراكشية بعد اخلاء وجدة وان يبدا السلطان فعلا فى تهدئة الجنوب للقضاء على حركة ماء العينين .

كذلك استغلت فرنسا ظروف السلطان المالية ، فقد اتى عبد الحفيظ الى الحكم والخزانة خاوية وديون مراكش تقدر بنحو ٧٠ مليون فرنك ، هذا علاوة على التعويضات التى كانت تطالب بها فرنسا ، ونفقات الاحتلال التى بلغت ٨٠ مليون فرنك . وقد عرضت فرنسا تقديم القروض اللازمة لمواجهة هذه الاعباء كلها ، ولكن فى مقابل ضمانات جديدة . منها الاشراف على الجمارك ووضع ٥٠٪ من الضرائب العقارية بالمدن . وايراد الأملاك الأميرية ورسوم الشاى والأفيون . تحت تصرفها لاستيفاء الديون .

ومضى عبد الحفيظ فى سياسة الاستسلام فوقع الاتفاقية وفقا لرغبات فرنسا فى مارس ١٩١٠ (١) تنص على مبدا الانسحاب ، ولكن بالقيود التى اشرنا اليها . فتحتفظ فرنسا بمركزين اماميين فى الشاوية وفى الحدود الشرقية ، وبدون تحديد مدة للجلاء . كذلك تعهد السلطان بطرد جميع المدربين غير الفرنسيين من البلاد ومع ذلك فقد استاء العسكريون من فكرة الانسحاب . وعلق ليوتى قائلا « نعم سننسحب : ولكن فى اتجاه فاس » . وكانت النتيجة أن العسكريين لم ينفذوا شيئا من الاتفاقية . كما ان الجنرال موانييه قائد منطقة الشاوية أخذ يتدخل فى منازعات القبائل ويجعل من نفسه حكما لفضها .

والواقع أن السياسة الفرنسية النشطة قد وجهها طائفتان : العسكريون والراسماليون . وهؤلاء الاخيرون هم الذين اسسوا لجنة الدراسات المراكشية منذ سنة ١٩٠٠ ؛ التى وان افادت التاريخ بنشر كثير من الابحاث . الا انها كانت تهدف اصلا لخدمة مصالح الراسمالية

---

(١) انظر نص الاتفاقية A. M. serie 2 — N - 423

الاستعمارية . وقد استفاد الراسماليون دون غيرهم من اتفاقية سنة ١٩١٠ باعتبار ان الضمانات العديدة التي نصت عليها كان من شانها ان ترفع قيمة اسهم القرض الذي قدموه بعد ذلك بمبلغ ٩٠ مليون فرنك . ومن هنا اصبح لدى جان جورس زعيم الفرع اليساري من الاشتراكيين دليل قوى بأن الراسماليين يستخدمون ابناء فرنسا في مراكش لخدمة مصالحهم الخاصة . غير ان هؤلاء الراسماليين من أمثال تارديه وكايو كان لهم نفوذ قوى في مجلس النواب ، وقد صار كايو رئيسا للوزارة سنة ١٩١١ (١) .

خشيت اسبانيا ان يفوتها القطار . ففرنسا هي التي تستفيد وحدها من سياسة التدخل منذ سنة ١٩٠٧ . ولذا سعت اسبانيا لايجاد مبرر يسمح لها بتطبيق نفس السياسة في منطقة نفوذها . ولم يكن من العسير التعلل بأبسط حوادث الشعب فتحتل اسبانيا بعض النقاط خارج سبتة . وتطالب بامتيازات اقتصادية في منطقة الريف وباقامة بعثة دائمة للفرنسسكان في فاس ودفع تعويض . واخيرا أجبرت عبد الحفيظ على توقيع اتفاقية على نمط اتفاقية مارس الفرنسية . فهي تنص على دفع غرامات مالية عن حوادث الريف . والمشاركة في الاشراف على جمارك مراكش في الشمال . واحتكار مناجم الريف ، وتولى ضباط من الاسبان تدريب قوات الامن في هذا الاقليم وانشاء منطقة مجردة من السلاح حول سبتة . وتسليم منطقة سانتا كروز في الجنوب .

فقد عبد الحفيظ هيبته مثل سلفه بسبب الاستسلام لأوربا سنة ١٩١٠ وتحول انصاره القدامى عنه . فالجلاوى زعيم الاطلس يشجع قبائل بني مطير البربرية على الثورة حتى دخلت مكناس واعلنت فيها البيعة للسلطان زين ، بل امتدت الثورة الى قبيلة الشراردة حول العاصمة . وبات عبد الحفيظ منساقا في تيار الاعتماد على الفرنسيين لمواجهة تلك الثورات . فضباطهم هم الذين يقودون الحملات التي تجوب البلاد لجمع الضرائب : واصبح مانجان رئيس البعثة العسكرية الفرنسية ، قائدا لجيش مراكش الرسمي وهو الذي أرسل بيرمون نائبا عنه لقمع ثورة الشراردة .

ومن اهم الاسباب التي ادت الى اندلاع الثورات في سنة ١٩١٠ واوائل سنة ١٩١١ تسريح عدد كبير من جند المخزن بحجة عدم صلاحيتهم لنظام الجندية الحديث . ولكن بقصد توفير النفقات ايضا لدفع مرتبات

---

(١) لمعظم هؤلاء الساسة المهتمين بالحركة الاستعمارية مقالات ومؤلفات دافعوا فيها عن سياستهم ازاء مراكش . انظر مثلا :

1 — Caillaux : Agadir

2 — Tardieu : le maroc

البعثة الفرنسية . وانطلق هؤلاء الجند بين القبائل يذيعون بأن السلطان قد بـــاع بلادهم وسنحت الفرصة لانفاذ الضربة النهـــائية . وبدات الامدادات تصل الى الدار البيضاء منذ فبراير ١٩١١ .

- ٨ -

ازمة اغـــادير

عجزت قوات السلطان ، رغم المساعدات الفرنسية ، عن مواجهة تيار الثورة المتصاعد . وغدا الثوار منذ ابريل ١٩١١ يهددون العاصمة نفسها . واخذ جايار قنصل فرنسا فى فاس يبعث بنداءات متكررة لكى تتدخل حكومته لحماية الجالية الأوربية المهددة بالموت . فكانت هذه فرصة لاستكمال السيطرة على مراكش ولم تصرح باريس بنيتها فى احتلال فاس . فعندما ارسلت دول تستفسر عن ارسال التعزيزات الى الدار البيضاء اجـــاب كروبى وزير الخارجية بمذكرة للدول بأن فرنسا لا تنوى احتلال البلاد ، ولكن قصدها فقط هو حماية مراكزها الامامية فى الشاوية (١)وما لبثت القوات الفرنسية ان دخلت الرباط بحجة منع قبيلة زاير المشاغبة من التزود بالمؤن والذخيرة من هذا الميناء . وكانت هذه القبيلة مثل معظم قبائل الشاوية قد انضمت الى صفوف الثوار واصطدمت مع المراكـــز الفرنسية فى الاقليم . ولذا تحولت الحكومة الفرنسية فى اوائل ابريل صراحة الى فكرة احتلال فاس . وقد مهدت لذلك فى كل من مراكش والعواصم الأوربية .

ففى فاس عمل جايار على اقناع السلطان بطلب التدخل رسميا . ولكن عبد الحفيظ عارض فى البداية ، وهو يأمل فى احراز انتصـــار على الثوار بمساعدة بريمون ، الا انـــه بعد اعلان زين سلطانا فى مكناس على نفس المبادئ التى اقترنت بتوليته سنة ١٩٠٧ ، وبعد أن ضيقت القبائل الخناق على فاس ،قبل أن يوجه النداء الى القائد الفرنسى باعانته على قمع الثورة . واشتمل النداء على مجيء رينيو مندوب فرنسا فى مراكش ليكون وسيطا للسلطان فى الشئون السياسية . وفى نهاية أبريل كـان موانييه قد وجه نداء للقبائل كى تعلن ولاءها للسلطان حتى يوقف زحفه ؛ فلم يلق الثوار بالا لهذا النداء .

وفى ١٤ مايو ارسلت اليه التعليمات من باريس بالتقدم الى فاس .

---

(١) انظر مذكرة كروبى بتاريخ ٢٤ مارس A.M. : N. 110

جـــاء فى هذه التعليمات التى ارسلها كروبى . ان يتجنب القائد كل ما من شأنه انقاص هيبة السلطان ويحافظ على نظام الترتيب . ويسعى لتعيين مراقب مالى فرنسى . وتأكيد مركز بعثة تدريب الجيش ، وادخال نظـــام قضائى للأجـــانب يحد من تدخل الدول . وزيادة الأشغـــال العامة . وبالجملة ادخال جميع الاصلاحات اللازمة فى المخزن . وقد اقترح موانييه ان يطلب علاوة على ذلك الى القبائل الثائرة اصدار تصريح بالولاء للسلطان والسلطات الفرنسيه معا . غير أن كروبى لم يوافق قائلا « اننـا لا نريد اظهار تدخلنا على انه حماية او كندمنيوم » (١) ، وقـد وافق السلطان على تلك التعليمات فدخلت القوات الفرنسية فاس فى ٢١ مايو .

اما فى المجال الدولى فقد لقيت فرنسا صعوبات . حتى من الدول التى كـــانت تؤيدها فى السابق . وذلك بالرغم من انها اعلنت ان احتلال فاس سيكون مؤقتا ، فأعلن جراى وزير الخارجية البريطانية « انه ماض فى سياسة التايد لفرنسا . ولكن اذا فهم بأن التدخل يهدف الى حماية العرش فمعنى ذلك أن فرنسا لن تستطيع الانسحاب ، وهذا من شانه ان يخلق المتـــاعب » ثم نصحت الحـــكومة البريطانية حليفتها بالتخلى عن عبد الحفيظ لان الثورة موجهة ضـــده . فاذا اتصلت فرنسا بالقبائل وتفاهمت معها على الحـــل المرضى ، سواء باحداث تغيير فى المخزن او استبدال السلطان بآخر ، فان ذلك سيكون افضل .

اما اسبانيا فقد كـــانت مستعدة لقبول التدخل . بل للترحيب بـه لو أن فرنسا اعترفت بأن احتلالها لفاس من الحالات التى تنطبق عليها المادة الثالثة من معاهدة سنة ١٩٠٤ اى التى تسمح لاسبانيا بالعمل فى منطقتها . ولكن فرنسا لم تعترف بأن احتلال فاس (يغير الوضع الراهن ، وكـــان هدفها من معارضة اسبانيا : هو عدم اظهار مبدأ التقسيم أمام المانيا لانه يظهر بجـــلاء مدى تجاهل الاتفاقات الدولية .

على ان اسبانيا لم تستطع الوقوف متفرجة بعد احتلال الفرنسيين لفاس . فشرعت خـــلال شهر يونيو فى انزال قواتها فى العرائش وفى القصر . وذلك رغم معارضة فرنسا واشتراكها مع مراكش فى توجيـــه الاحتجاج . وقد وسطت بريطانيا لكى تمارس ضغطا اقوى على اسبانيا . ولكن الاسبان اصروا على موقفهم . ولمحوا الى انـــه فى حالة تشدد فرنسا فانهم سيضطرون الى تأييد المانيا اذا اثارت المشكلة . ولذا رؤى تسوية الخلاف بسرعة والتسليم لاسبانيا بحق التدخل بعد اعلانها ان احتلالها ايضـــا مؤقت .

---

(١) لعله يقصد حكما ثنائيا من فرنسا والسلطان .

وبديهى ان يكون اقناع المانيا هو المشكلة الرئيسية امام الدبلوماسية الفرنسية ومع ذلك فقد قبلت حكومة برلين فى البداية احتلال فاس على ، اساس ان يتم ذلك عند الضرورة القصوى . ولم يقتنع الساسة الالمان بأن ذلك الإحتلال سيكون مؤقتا . وقال كدرلين وزير الخارجية : « الم يكن احتلال مصر مؤقتا ايضا ؟ » وكان هناك اعتقاد سائد بين الساسة الالمان بوجود معاهدة سرية بين عبد الحفيظ وفرنسا ، تعطى للأخيرة حق الاشراف على الاصلاحات والأمن فى البلاد نظير حمايته ، فهى بعبارة اخرى معاهدة حماية (١) ولذا وطنت حكومة برلين نفسها على اعتبار مؤتمر الجزيرة قد انتهى ، وان تبحث كيفية مواجهة الموقف على اسس جديدة .

فاذا كانت العوامل الداخلية والخارجية تساعد فرنسا على السير قدما نحو السيطرة الكاملة على مراكش ، أفليس من الأفضل الاعتراف بالوضع الجديد مع المطالبة بتعويض ؟ اى ان المانيا نظرت الى المسألة بمنطق بريطانيا سنة ١٩٠٤ عندما عقد الاتفاق الودى . وبناء عليه سمح كدرلين لنفسه بتقديم التهنئة الى كامبون السفير الفرنسى على توفيق بلاده فى احتلال فاس فى مدة وجيزة ، ثم طرق موضوع التعويض وجرت المفاوضة بين الطرفين خلال شهر يونيو ١٩١١ على هذا الأساس . وعند مغادرة كامبون لبرلين قال له كدرلين « هات لنا شيئا من باريس » .

وكان معروفا ان للألمان مصالح هامة فى المنطقة الجنوبية من مراكش فرات الحكومة الالمانية ان تسند موقفها بارسال سفينة حربية للتظاهر امام سواحل تلك المنطقة وفى أول يوليو ١٩١١ ابلغت الدول بارسال سفينتها الحربية بانثر الى اغادير . وذلك بقصد حماية رعاياها من تحركات القبائل ؛ ولكن اغادير ميناء مقفل وليس بـه اوربيون ولذلك يعزى هذا الاختيار الى تدخل الاخوة مانسمان ووعود عبد الحفيظ السابقة للألمان فى منطقة السوس .

الا ان هذا الاختيار لا يعنى بالضرورة ان المانيا كانت مصرة على ان يكون التعويض فى مراكش ذاتها ؛ فحسب الخطاب الذى وجهه كدرلين الى الامبراطور بهذه المناسبة قال « ان امتلاكنا لمثل هذه الرهينة (اغادير) يمكننا من مراقبة الأحداث والتأثير عليها ؛ وسننتظر لنرى ما اذا كانت فرنسا ستقدم لنا تعويضات فى المستعمرات . وحينئذ نترك موانى مراكش » (٢) .

---

(١) انظر Barlow p. 220. نقلا عن الوثائق الالمانية .

(٢) نقلا عن خير فارس ص ٥٥٧ : ٥٥٨ .

تصادف هذه الحوادث مع تولى كايو رئاسة الحكومة الفرنسية وهو من الراسماليين الذين كانوا يسعون لتاليف اتحادات اوربية تستثمر اموالها بالتضامن فى المستعمرات . ولذلك تقبل بسهولة فكرة تعويض المانيا . ولكن وزير خارجيته دى سلف كان اشد تصلبا ويعتقد بأن التهديد سينهى المشكلة . فاقترح ارسال سفينة حربية الى موجادور او اغادير كرد على المظاهرة الالمانية معتقدا بأن المانيا لن تحارب من اجل تلك المشكلة . ولم يشاركه الراى كثير من الساسة فى فرنسا وبريطانيا . وتغلب دعاة التهدئة . فنصح جراى بالمفاوضات على اساس مبدأ التعويض وكان يرجو الاشتراك فى تلك المفاوضات دون ان يلح فى مطلبه ، فجرت المفاوضات الثنائية بين المانيا وفرنسا

وكان أمام الأخيرة أن تقدم احد تعويضين . اما معظم الكونغو فى افريقيا الاستوائية ، أو التنازل عن ميناء او اكثر فى جنوب مراكش . واعترض كثير من الاستعماريين وعلى راسهم نواب الجزائر بشدة على الفكرة الثانية . وقالوا يجب المحافظة (على تمامية شمال افريقيا الفرنسية) ومالت بريطانيا الى هذا الراى . فبالرغم من أن فرنسا كانت تشترط ، فى حالة التنازل عن ميناء فى مراكش ، أن يجرد هذا الميناء من السلاح ؛ فلم يكن من الممكن ضمان ان المانيا لن تحوله الى ميناء حربى ، ومسألة التنافس على التفوق البحرى مع المانيا اهم ما يعنى بريطانيا آنذاك . ثم ان اتفاق سنة ١٩٠٤ لا يسمح لدولة اخرى باقتسام مراكش . ولذا نصح الانجليز حلفاءهم باظهار شىء من (الكرم) فى الكونغو .

ولكن الحكومة الفرنسية لم تطلع حليفتها على حقيقة المطالب الالمانية . فتركتها تعتقد بأن المانيا تريد الاستيلاء على نحو ٢٠٠ الف ميل مربع من الكونغو الفرنسى . وبذا تؤسس امبراطورية كبيرة فى غرب افريقيا لأنها ستكون متصلة بمستعمرتها فى الكمرون . وتقطع سبل الاتصال بين افريقيا الاستوائية والساحل .

وهذا لم يكن وحده السبب فى توجيه خطاب لويد جورج وزير الخزانة البريطانى فى اجتماع عقده رجال الأعمال ببلدية لندن . فان بريطانيا كانت تخشى ان يتم مع المانيا اتفاق على حسابها . وهى من جهة اخرى توجه اهتماما بمسألة التوازن البحرى . ومن ثم اهتمام بريطانيا الشديد بالأزمة . فتضمن هذا الخطاب التلميح بالحرب لو أن بريطانيا اجبرت على قبول حل يتعارض مع مصالحها الحيوية وامن تجارتها الدولية فى العالم . فمما قاله لويد جورج « واذا كان سيفرض علينا وقف لا يمكن ان نحتفظ بالسلام فيه الا بالتخلى عن المكاسب التى حصلت عليها

بريطانيا على مر السنين بالتضحيات والجهد . واذا وصل الأمر الى حد معاملة بريطانيا فى مشاكل ترتبط بمصالحها الحيوية وتعرضها للخطر وكأنها لا يعتد بها فى مجلس الأمم ؛ فانى اعلن رسميا ان سلاما بهذا الثمن سيكون اذلالا لا يمكن التهاون فيه بالنسبة لبلد كبلدنا (١) .

بلغت ازمة اغادير ذروتها على اثر هذا الخطاب وقربت أوربا من حافة الحرب ولكن الامبراطور لم يشأ ان يخوض الحرب من اجل المسألة المراكشية ، ونصح كدرلين بالتساهل قليلا . هذا فضلا عن ابلاغ بريطانيا بحقيقة المطالب الألمانية . وعرض الألمان فكرة التنازل عن التوجو وجزء من الكاميرون مقابل الكونغو . وقبل كايو هذه الفكرة مبينا ان فرنسا موجودة فى الكونغو سياسا اما اقتصاديا فان معظم الشركات التى تستغله تنتمى الى بلجيكا والمانيا وهولندا . وليس لدى فرنسا حاليا امكانات لاستعمار تلك البلاد الشاسعة ، ولم يجد كايو تجاوبا من بعض وزرائه ، امثال دى سلف وزير الخارجية .

وفى نفس الوقت اخذت الصحف الالمانية تبرز التوجو على أنه شيء مقدس ، وزميلاتها الفرنسية تقف نفس الموقف من الكونغو ، لذلك رأى كايو أنه لابد من سرية المفاوضات اذا اريد التوصل الى تفاهم . وقد ادار هذه المحادثات بلباقة ، واستخدم بصفته احد كبار الماليين وسائل الضغط الاقتصادى لاقناع المانيا ببعض وجهات النظر الفرنسية فعندما انقطعت المفاوضات مثلا فى سبتمبر ١٩١١ اتفق مع كبار الراسماليين الفرنسيين على الامتناع عن شراء الأسهم الالمانية مما ادى الى هبوط اسعارها فى سوق الأوراق المالية . وادرك الراسماليون الالمان انهم لن يستطيعوا تمويل الحرب المنتظرة وكان من نتيجة ذلك ان المانيا قبلت فى هذه المرحلة من المفاوضات التنازل عن التوجو بأكمله مع انقاص مساحة الأراضى التى تطالب بها فى الكونغو ؛ وذلك لأنها تريد اساسا المنطقة الساحلية . ثم جدت مشكلة اخرى وهى مستقبل مراكش بعد حصول المانيا على التعويض . فهل يترك لفرنسا مطلق الحرية فى اعلان الحماية والغاء جميع الامتيازات الأجنبية فى ميادين الاقتصاد والقضاء ؟ وهو ما كانت ترجوه فرنسا . وبهذا الصدد طالبوا ببقاء مصرف الدولة وحقوق شركات التعدين التابعة لهم فى جنوب مراكش وبقاء المساواة فى رسوم المواصلات والأشغال العامة .. الخ .

---

(١) انظر الوثائق البريطانية المتعلقة بأزمة اغادير متفرقة فى
B. D. W. Vol. 7 :

وقد جـــاء اتفاق ٤ نوفمبر ١٩١١ حلا وسطا لجميع تلك المشاكل . وفيما يتعلق بالمسألة المراكشية (١) . تعهدت المانيا بعـــدم عرقلة احتلال اى جزء من البلاد . ولن تعارض كذلك فى تولى فرنسا شئون مراكش الخارجية وقيامها بجميع الاصلاحات اللازمة . ولكن ضمن مبدأ المساواة الاقتصادية والاحتفاظ بمصرف الدولة الذى أســسته قرارات الجزيرة ، وكذلك الاستمرار على نظام المناقصة فى مشروعات الاشغال العامة . وتضمن الاتفاقية عدة امتيازات لأصحاب المناجم ، وذلك مراعاة لشركات التعدين الالمانية فى الجنوب . وقبلت المانيا مبدئيا وضع نظـــام جديد يحل محل القضـــاء القنصلى وتغيير نظام الحمايات الذى تقرر فى مدريد .

وفى مذكرة تفسيرية اعترفت المانيا صراحة بامكان وضع الحماية على مراكش ولم تحصل المانيا بعد ذلك على المنطقة الساحلية فى الكونغو الا بعد التنازل عن التوجو وقد تعرض الاتفاق . مثل كل حل وسط لهجوم المتطرفين فى البـــلدين ؛ الا ان مجريات الحوادث اثبتت أن فرنسا هى وحدها التى استفادت منه . فقد ازال هذا الاتفاق اعقد مشكلة دبلوماسية امامها ؛ ومكنها من اعلان الحماية فى ٣٠ مارس ١٩١٢ ولم تلبث الحرب العالمية الأولى أن قامت فأتاحت لها الغـــاء القيود التى تعهدت بها ازاء المانيـــا .

---

(١) انظـــر Morel Appendix

الفصل الثالث عشر

المقاومة فى مراكش

- ١ -

لم يكن دخول الفرنسيين فاس سنة ١٩١١ او اعلان الحماية بعد ذلك ليعنى ان البلاد قد اخضعت للاحتلال الأجنبى · وقد هيأت طبيعة البلاد من جهة ، واوضاع السكان من جهة اخرى ، فرص النجاح امام عناصر المقاومة · ففى مراكش تنتشر الجبال وعرة المسالك والتى اعتاد اهلها من البربر الاحتفاظ باستقلالهم الداخلى امام جميع الحكومات المركزية · ومن ثم لم يتم اخضاع البلاد الا بعد مضى اكثر من ٢٠ عاما · وتلعب شخصية الأمير عبد الكريم الخطابى الدور الرئيسى فى تاريخ المقاومة ·

وقد وصف جيوم ، وكان ضابطا صغيرا تحت قيادة ليوتى والذى اصبح مقيما عاما فيما بعد ، كفاح المراكشيين بقوله « لم تستسلم اية قبيلة دون مقاومة ؛ بل ان بعضها لم يلق سلاحه حتى استنفد كل وسائل المقاومة · ولم تقدم اية قبيلة ولاءها الا بعد ان هزمناها بأسلحتنا · واتسمت كل مرحلة من مراحل تقدمنا بالقتال · وكلما توقفنا انشأ المراكشيون جبهة جديدة احتفظوا بها بواسطة سلسلة من التحصينات ارغمت قواتنا سنوات طويلة ان تقف موقف اليقظة والحذر معرضة للأخطار فى موقف عسكرى مشين » ·

وتعتبر ثورة فاس فى ابريل ١٩١٢ ، بعد فرض الحماية بعدة ايام ، اول مظهر يعكس شدة روح النضال وقد اشتعلت الشرارة الاولى لتلك الثورة بين صفوف الجند وذلك عندما ارادت السلطات الفرنسية تخفيض مرتباتهم الى الثلث ، واخضاعهم للقيادة الجديدة وانظمتها · ولم يستمع مولاى عبد الحفيظ الى شكاوى الجند فما كان منهم الا ان اعلنوا الخروج على سلطة حكومة المخزن الخاضعة للنفوذ الأجنبى ·

وسرعان ما لقيت الثورة حماسا من السكان المدنيين ، ومن الموقع فى

مثل هذه الظروف ان تكون الجالية الأوربية والطـــائفة الاسرائيلية التى تعاونت مع سلطات الاحتلال ؛ هدفا لانتقام الثوار .

ورغم ان ثورة فاس بدأت بين صفوف الجند ولأغراض محدودة . فان المؤرخين الفرنسيين يعترفون بأنها كانت ذات طابع عسكرى قومى (1) ولا ادل على ذلك من سرعة انتشار روح الثورة فى المناطق المحيطة بفاس وعدم تأثرها بنجاح الفرنسيين السريع فى قمع ثورة العاصمة ذلك أنه بعد قيام الثورة بثلاثة ايام أى فى ١٩ أبريل ١٩١٢ استطاع الجنرال موانييه بعد وصول الامدادات اليه ان يدخل مدينة فاس ويضطر حاميتها الوطنية الى التسليم .

ونتج عن هذه الثورة ان قررت سلطات الاحتلال اقامة حامية كبيرة فى فاس ، وعدم الاقتصار على المدربين كما كان الحال منذ سنة ١٩١١ ؛ كما اصر موانييه على تشديد العقوبة باعدام عدد من الثوار وفرض غرامة على المدينة ، بالرغم من اعتراض رينيو بأن هذه الغرامة ستقع على الطبقة البورجوازية الوطنية ، فتحولها عن سياسة التعاون مع فرنسا التى اتبعتها خلال الأزمة واذا كان قد قضى على الثورة بسرعة داخل المدينة ؛ فان انباءها ترامت الى جميع الأقاليم فاحتشدت عدة قبائل من الأطلس واتحدت مع سكان الشاوية المزارعين لضرب حصار شديد حول فاس حيث تقيم الحامية الفرنسية . ومن ثم يلاحظ ان رجال القبائل فى مراكش كما فى الجزائر كونوا العنصر الرئيسى للمقاومة ؛ وقد بلغ هذا الحصار أشده فى أواخر مايو . حتى استطاعت القــوات المراكشـــــية ان تخترق اسوار المدينة مرتين فى ١٥ و ١٨ مايو ولكنها لم تتمكن من اجتياح التحصينات الفرنسية . ولم ينقذ الموقف ســـوى مجىء الجنرال بيبرليوتى ليتولى قيادة جيش الاحتلال بجانب منصبه كمقيم عام .

ذلك ان حوادث فاس نبهت الحكومة الفرنسية الى ضرورة تعيين احد العسكريين كمقيم عام فى هذه البلاد شديدة المراس ؛ فوقع اختيارها على بيبرليوتى الذى يعتبر من ادهى ساسة فرنسا الاستعماريين ؛ فهو قد اكتسب خبرة كبيرة بشئون المستعمرات اثناء خدماته الطويلة بالهند الصينية ومدغشقر ؛ ثم فى خـــلال عمله قائدا عاما لمنطقة الحـــدود الجزائرية المراكشية من ١٩٠٣ ــ ١٩٠٧ حين تولى بعض المهام العسكرية فى موانى مراكش بعد احتلال الدار البيضاء .

وقد ادرك ليوتى ان اى تعاون بين قوات الحصار المراكشية وبين اهل

---

(1) Hanotaux Vol 3 P. 240.

فاس سيؤدى حتما الى عجز الفرنسيين عن الاستمرار فى الدفاع ، وان قتال الازقة اذا وقع فى فاس فسيكون بلا شك فى مصلحة الوطنيين الذين هم أعرف بمسالك المدينة ، ولذلك عمل ليوتى منذ وصوله يوم ٢٤ مايو على استرضاء اهل فاس ، فألغى الغرامة التى فرضت عليهم وتقرب من علماء القرويين ، وسنرى كيف انه التزم هذه السياسة وتوسع فيها مدة بقائه فى مراكش (١) .

نجح ليوتى خلال شهر يونيو ١٩١٢ فى فك الحصار عن مدينة فاس . ولكن هذه الحوادث دفعت بالسلطان الى الانتقال الى الرباط واتخاذها مقرا دائما ، بعد ان اصبحت مصالح عبد الحفيظ مرتبطة بالفرنسيين .

ان السلطان عبد الحفيظ الذى عاش فترة كممثل للوطنيين لم يكن بوسعه ان يلعب دور سلطان الحماية حتى الفرنسيين الذين تعاون معهم فى السنوات الأخيرة لم يحرصوا على بقائه . وذكرت بعض المصادر الفرنسية انه تنازل عن العرش مقابل مبلغ كبير من المال . ووجدت الحماية فى خلفه السلطان يوسف (١٩١٢ — ١٩٢٧) اداة اطوع .

والنتيجة الهامة لنقل مقر السلطنة هو الانقسام فى موقف مراكش من الاحتلال بين السلطات الرسمية الموالية التى ترتكز على الاقليم الساحلى ، وبين غالبية السكان فى الداخل وهى تتألف عادة من قبائل عربية وبربرية .

وفى بداية عهد الحماية تركزت المقاومة فى منطقتين فى جبال الأطلس الوسيط وفى الجنوب حيث حمل هبة الله بن ماء العينين دعوة أبيه فى الجهاد والتف حوله اهل السوس بما فى ذلك كثير من القواد الذين كانوا فى السابق يمثلون حكومة فاس . وفى اغسطس ١٩١٢ تمكن هبة الله من دخول مدينة مراكش عاصمة الجنوب حيث اعترف له الأعيان برئاسته .

وكانت خطة ليوتى منذ توليه الاقامة . هى الاكتفاء مؤقتا بالمراكز الحيوية ، وهو ما اسماه (بمراكش النافعة) التى تمتد فى السهل الخصب الموازى لساحل المحيط وتقع فيها اهم المدن . وترك جبال الأطلس مؤقتا الى أن يتثبت مركز الفرنسيين فى القسم الأول . ولم تكن مدينة مراكش تدخل فى هذا القسم ، الا أن ظهور شخصية مهيبة كهبة الله فى تلك المدينة العريقة كان يهدد بقاء الفرنسيين ذاته . ولذلك ارسل ليوتى احد

---

(1) Catroux - Lyautey Le Marocain.

اعوانه الرئيسيين وهو الجنرال مانجان على راس قوة كبيرة استطاعت الاستيلاء على المدينة فى سبتمبر واحتلال موانى الجنوب مثل اغادير ليسهل الاتصال بمدينة مراكش • ولما استولت القوات الفرنسية على قلعة تارودن سنة ١٩١٣ اتخذتها قاعدة للجبهة الجنوبية • واضطر هبة الله الى الانسحاب الى موريتانيا حيث قواعده الاصلية ومع ذلك ظل بقاء الفرنسيين فى الجنوب منحصرا بين الموانى والحصون ولم يتم الاستيلاء على السوس بصورة كاملة الا فى سنة ١٩٣٤ • فأمكن حينذاك وصل محمية مراكش بمستعمرة موريتانيا فى غرب افريقيا •

وبمرور الزمن اخذ زعماء الجنوب فى الأطلس الكبير يتحولون الى موالاة الحماية واشتهر من هؤلاء الجلاوى والجندافى • ورحب ليوتى بهذا التحول لأنه يجنب السلطات الفرنسية تحمل أعباء لا طاقة لها بها • وغدا الجنوب يعرف عند الفرنسيين ببلاد القواد الكبار ، اذ أصبح هؤلاء القواد الاداة التى تضمن البقاء فى منطقة الأطلس الكبير •

اما جبال الأطلس الوسيط وهى تقع بين الأطلس الكبير وبين نقاط الارتكاز فى فاس والرباط ، فقد كانت اشد صمودا فى المقاومة وساعدها على ذلك قسوة مناخها • وهى وان كانت اقل ارتفاعا من جبال الاطلس الكبير الا انها تتلقى الأمطار الآتية من ساحل المحيط بغزارة مما يساعد على تكوين الثلوج بصفة مستديمة فى اعاليها • وتسكن هذه الجبال قبائل بربرية مشهورة فى تاريخ المغرب بتمسكها باستقلالها مثل بنى صنهاجة وزناتة وزاير • وقد استمرت بعض هذه القبائل ممتنعة على السلطات الفرنسية حتى سنة ١٩٣٣ •

وتمشيا مع خطة ليوتى لم يغامر الفرنسيون كثيرا فى منطقة الاطلس الوسيط الا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ولكن كان معنى هذا هو انفصال منطقة الملوية المحتلة فى الشرق تماما عن المنطقة الغربية • لذلك حرص ليوتى ، رغم ما واجهه من صعاب ، على احتلال مدينة تازة التى تشرف على الطريق بين الملوية وبين الغرب ، وقد تمكن من دخول المدينة فى يونيو ١٩١٤ ، ولكنه تحمل صعوبات شديدة فى تامين الطرق اليها •

ويبدو ان زعماء المقاومة لم يعرفوا جيدا كيف يستغلون فرصة الحرب العالمية الأولى • فقد اضطرت فرنسا خلال الحرب الى سحب جزء كبير من قواتها من مراكش وقد ارسلت التعليمات الى ليوتى بالانسحاب الى الساحل ليتمكن من ارسال الجند • وذكر فى تلك التعليمات بأن معركة مراكش ستقرر فى اللورين • ولم يعارض ليوتى فى تلك الفكرة ولكنه حاول التوفيق بين الهدفين : الاحتفاظ بجميع المكاسب الرئيسية فى الداخل

مع ارسال جميع القوات المطلوبة . ذلك ان ليوتى قرر التغلب على هذه المشكلة بفتح باب التطوع للمراكشيين للخدمة فى جيش السلطان الرسمى ، كما استقدم عددا كبيرا من الجزائريين ليسد النقص . ومن جهة اخرى عمد الى التظاهر بالقوة موهما قوات المقاومة بأن الجيش الفرنسى مازال محتفظا بقدرته كاملة .

كذلك لم يستطع زعماء المقاومة ان يستفيدوا من المساعدات الألمانية . ورغم ضآلة تلك المساعدات فقد حاول الالمان على كل حال مديد المعونة الى زعماء مراكش عن طريقين : اولا موانى الجنوب البعيدة عن النفوذ الفرنسى ، والتى استطاعت بعض الغواصات الألمانية الوصول اليها . ثانيا : عن طريق منطقة النفوذ الاسبانية حيث ظهر ان السلطات الاسبانية كانت تتغاضى عن نشاط المبعوثين الألمان الذين لم يكتفوا بارسال الاسلحة ، بل سهلوا على بعض زعماء شمال افريقيا العبور الى هذه المنطقة كى يساهموا فى حركة المقاومة . ومن اشهر هؤلاء الزعماء عبد الملك بن محيى الدين ، احد احفاد الأمير عبد القادر الجزائرى الذى كاد يستولى على مدينة تازة سنة ١٩١٧ وحينما تفرغ الفرنسيون للحرب فى مراكش بعد انتصارهم فى اوربا اضطر الى اللجوء الى الاسبان وعرض خدماته عليهم . ثم أصبح موقفه حرجا بعد أن تحالف الاسبان مع الفرنسيين فى الحرب ضد الأمير الخطابى .

وقد واجه الفرنسيون بعد الحرب المقاومة فى منطقتين رئيسيتين . القسم الشرقى من جبال الأطلس الوسيط الذى يعرف بتادلة ، وكان وجود الفرنسيين فيه مقصورا على قلعة خنيفره . واقترنت اعمال المقاومة فى هذه المنطقة بالحصار الشديد الذى ضربه الوطنيون حول هذه القلعة اثناء الحرب . وكثيرا ما كانت قبائل هذا الاقليم تشن الغارات على مراكز الاحتلال فى الشاوية . ولذلك كان أول عمل قام به الفرنسيون بعد انتهاء الحرب هو القضاء على حركة المقاومة فى تادلة حتى اضطر كثير من اهلها الى هجرتها واللجوء الى جبال الأطلس . والمنطقة الأخرى كانت اقليم التافيلالت فى الجنوب الشرقى . وهو مجموعة واحات تنفصل عن الاراضى المحتلة بمنطقة صحراوية واسعة . وقد تزعم حركة المقاومة فى التافيلالت السيد السملالى ، وهو احد الأشراف الذين اعتمدوا على تايد قبيلة بربرية هى قبيلة آيت عطا . ولم يحاول الفرنسيون التوغل فى هذه المنطقة الثانية الا بعد ان ادخلت الوحدات الميكانيكية فى جيش الاحتلال ، ما سهل على قوات الغزو عبور الصحراء ومصادمة سكان الواحات سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ وذلك بعد وفاة زعيمهم السملالى .

ولا شك أن عدم التنسيق بين حركات المقاومة المختلفة . واتصاف

كثير منها بالنزعة القبلية أو الاقليمية كان من اهم عوامل ضعفها . ومن هنا كانت حركاتهم تختلف تماما عن حركة المقاومة الكبرى التى تزعمها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى من ١٩٢١ – ١٩٢٦ « فهى رغم تركزها فى منطقة الريف المراكشى ، الا انها بلغت بأهدافها ، ومثلها مستوى حركة قومية عامة . ولا نبالغ اذا قلنا انها تجاوزت ذلك الى مستوى فكرة الدفاع عن شمال أفريقيا خاصة ، والعالم الاسلامى عامة ضد التوسع الأوربى ، كما يتبين ذلك من الصدى البعيد الذى أثاره الأمير عبد الكريم فى مختلف الدول الاسلامية . وكما يتبين أيضا من المبادىء الواضحة التى ظل ينادى بها الامير بعد استقراره بالقاهرة ورياسته للجنة تحرير المغرب العربى . ولما كانت حركة الأمير الخطابى اكثر اتصالا بتاريخ الكفاح المراكشى ضد الاحتلال الاسبانى ، فمن المستحسن أن نستعرض اولا تاريخ هذا الكفاح فى منطقة النفوذ الاسبانية منذ بدأ الاسبان فى غزو الريف سنة ١٩١١ .

- ٢ -

الكفاح ضد الاسبان

كانت منطقة النفوذ الاسبانية حسب اتفاقية سنة ١٩٠٤ تشمل القسم الشمالى من مراكش الذى تحتل الجزء الاكبر منه سلسلة جبلية يفصلها من الجنوب الى الشمال وادى غمارة ، وبذا تنقسم الى كتلتين : شرقية وتعرف بالريف . وغربية وتعرف بالجبالة . وتكاد بعض تلال الريف تكون متصلة بالساحل . وهى وان لم تكن اشد ارتفاعا من الأطلس الكبير ، اذ تبلغ اعلى قمة فيها ٧ آلاف قدم الا انها اصعب مسلكا من جميع مناطق مراكش الجبلية نظرا لشدة انحدارها ، وهى علاوة على ذلك اقل خصبا من القسم الغربى أو الجبالة حيث ان كمية الأمطار الآتية من الاطلسى يسقط معظمها على القسم الغربى .

واذن فكلمة ريف ليس لها اى صلة بالمعنى الشائع فى المشرق العربى والذى يدل على الأماكن الزراعية . ويبدو ان الكلمة مستمدة من المعنى الشائع لها فى المغرب وهو يدل على طرف الشىء أو نطاقه الخارجى . ولما كانت هذه المنطقة الجبلية هى النطاق الخارجى الذى يقع فى مواجهة دول اوربا والعالم غير الاسلامى فقد بدأت كلمة الريف تخصص للدلالة على هذا الاقليم بالذات منذ القرن السادس عشر اى منذ بدأ الاوربيون يغزون مراكش . وتظهر ميزة السلسلة الجبلية كخط امامى لحماية داخل البلاد . وبلاد الريف بالمعنى المحدود الآن تمتد بمحاذاة البحر على مسافة طولها ١٢٠ ميلا وعرضها ٢٥ ميلا . والقبائل التى تسكن الريف مثل اهل الجبالة

تنتمى الى اصل بربرى . اما سكان المدن . فهم عرب فى لغتهم ولكنهم مثل اى مدينة من مدن شـــــمال افريقيا قد اختلط فيهم العنصران العربى والبربرى ، ولا يهتم السكان كثيرا بمعرفة اصلهم من الناحية العرقية ، ويقدر عدد سكان المنطقة بنحو ٨٠٠ الف ، منهم نحو ٢٥٠ الف من القبائل البربرية الخالصة التى تسكن جبال الريف . ومنها قبيلة ورياغل التى ينتمى اليها الأمير الخطابى .

وعندما بدأ الاسبان ينفذون السياسة التوسعية فى مراكش مسايرة للفرنسيين ، صادفوا معارضة قوية فى داخل اسبانيا نفسها . فان الكوارث التى تلقتها اسبانيا فى الفلبين وكوبا على يد الولايات المتحدة الأمريكية جعلت الرأى العام الاسبانى معاديا لما اسماه بالمغامرات الاستعمارية . الا ان انصار التوسع احتجوا بأن وضع مراكش يختلف تماما عن كوبا والفلبين ، فهو قريب جدا من الوطن ، ويعتبر احتلاله ضروريا لأمن الموانى الاسبانية الجنوبية ، خاصة وانه من المحتمل ان تقع تلك البـــلاد فى حوزة دولة أوربية اخرى اذا لم تسرع اسبانيا باحتلالها . وقد ضم رجال الدين صوتهم الى العسكريين لتأييد سياسة التوسع ، اذ انهم لم يكونوا قد تخلصوا بعد من الروح الصليبية . ومنذ المحاولات الأولى للتوغل فيما وراء ســـبتة ومليلة . وهما المركزان الاسبانيان القديمان على الساحل المراكشى ، خبر الاسبان شدة مقاومة اهل الريف فلم يحاولوا التقدم الى الداخل من جهة مليلة ، بل اتجهوا الى احتلال معظم الموانى الســـــاحلية المحيطة بمنطقة نفوذهم ، ومن اهمها ميناء العرائش والقصر على الساحل الأطلسى .

وكانت الخطة هى أن تتقدم القوات الاســـبانية عبر منطقة الجبالة لاحتلال مدينة تطوان على حافتها الشرقية . وهى المدينة التى اتفق على ان تكون عاصمة للمنطقة الاسبانية ، ولكن ظهر فى الجبالة زعيم مغربى هو احمد بن محمد الرسولى الذى حمل لواء المقاومة منذ سنة ١٩١١ حتى انتقلت زعامة المقاومة الى الأمير الخطابى سنة ١٩٢١ . وقد أشرنا الى مواقف الرسولى المعادية لحـــكومة المخزن بسبب استسلامها للضغط الأجنبى . وكيف انها اضـــطرت ألى الاعتراف به حاكما على الفحص بالقـــرب من طنجة . ثم تعاون مع مولاى عبد الحفيظ فعينه حاكمـــا على الجبالة .

على ان دوره فى تاريخ المقاومة لم يبرز الا بعد ان اقترب الغـــزو الاسبانى من موطنه الأصلى وهو اقليم الجبالة . ويبدو ان الرسولى كان مستعدا بادىء الأمر للتفاهم مع الاسبان على شرط أن يعترفوا له باستقلاله بادارة الجبالة كما كان الحال بالنسبة لسلطان مراكش . بل انه كان يطمع

فى ان يتولى منصب خليفة السلطان فى منطقه النفوذ الاسبانية . ولكن حاب امله من هذه الناحية حين عين السلطان أحد اقربائه خليفة فى تطوان سنة ١٩١٣ . ثم ازداد استياء الرسولى من الاسبان حينما احتلوا ميناء اصيلة ؛ وهو ميناء صغير كان الزعيم المراكشي يعتمد عليه فى استيراد الاسلحة ، ويرى فيه منفذه الطبيعي . وقد اكمل الاسبان احاطتهم بالجبالة حين غيروا خطتهم وسيروا سنة ١٩١٣ من سبتة حملة احتلت تطوان فجاة . ومن ثم اصبح الصدام وشيكا بينهم وبين الرسولى .

واذا كنا لا نسمع فى الفترة التالية عن وقوع معارك هامة بين الطرفين فذلك لأن الحكومة الاسبانية قررت منذ قيام الحرب اتباع خطة ليوتى فى الاحتفاظ بالوضع الراهن وتشديد الدفاع عن المنطقة المحتلة . ولم يكن القواد العسكريون الاسبان وخاصة سلفستر قائد سبتة موافقا على هذه السياسة . بل اصر على الاشتباك مع الرسولى فكان ان عزلته حكومة مدريد ووقعت مع الزعيم المراكشي هدنة سنة ١٩١٥ اقرت الوضع الراهن لكلا الفريقين : فيبقى الرسولى حاكما على اقليم الجبالة . كما سمحت له بتلقى الأسلحة من الخارج . والواقع ان اسبانيا لم تكن تطمع فى اكثر من أعتراف الرسولى بسيادة خليفة السلطان بتطوان .

كان الرسولى (١) من بين الزعماء الذين اتصلوا بالالمان اثناء الحرب وتلقوا منهم المعونة ولذلك تحرج موقفه بعد انتهاء الصراع العالمى . وكان على اسبانيا ان ترضى فرنسا الدولة المنتصرة . وعلى ذلك غيرت سياستها ازاء الرسولى فقررت التوغل فى اقليم الجبالة وعينت سلفستر فى قيادة جيش الاحتلال دليلا على تغيير سياستها . وقد تكبدت اسبانيا فى هذا السبيل خسائر فادحة وامضت وقتا طويلا فى القتال مع اتباع الرسولى قبل أن تتمكن من احتلال شفشاون : اهم مدينة فى منطقة الجبالة فى اكتوبر ١٩٢٠ .

ولم يعن هذا القضاء على الرسولى . فقد اتخذ من حصن التازورت مقرا لقيادته ، وراح يكبد قوافل التموين الاسبانية أفدح الخسائر ، اذ ان بدأ نفوذ الامير عبد الكريم الخطابى يمتد الى الجبالة ، ففضل الرسولى التعاون مع الاسبان على ان يخضع لمنافسه القوى فى زعامة الريف . ومع ذلك فقد ظل مقيما بحصنه بتزورت حتى تمكن عبد الكريم من دخول الجبالة وطرد الاسبان منها ، وسقط الحصن فى أيدى انصار الامير . وحمل الرسولى اسيرا الى أجدير فى أوائل سنة ١٩٢٤ ولم يلبث ان توفى بسجنه بعد اشهر (١) .

1) Mellor : Moroca Wakes.

الامير محمد بن عبد الكريم الخطابى

ان سياسة المهادنة التى اتبعتها اسبانيا أثناء الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨ مع الجبالة . كانت خطة عامة شملت بلاد الريف ايضا ومن المعروف أن اسبانيا اتبعت الحياد فى تلك الحرب ، ولكن شعور الحسد نحو فرنسا التى خرجت بنصيب الأسد فى مراكش ، جعل حكومة مدريد تفتح منطقة نفوذها أمام المبعوثين الألمان وخاصة رجال التعدين ، وتوثقت الصلات بين هؤلاء المبعوثين ورؤساء القبائل المراكشية واستطاعوا ان يقنعوا البعض منهم بامكان التعاون مع اسبانيا التى لم تظهر بعد نيتها فى اخضاع الاقاليم الجبلية ، ومن بين هؤلاء الزعماء عبد الكريم الخطابى رئيس قبيلة ورياغل ٠

جمع محمد بن عبد الكريم الخطابى بين الثقافة الوطنية الاصلية وبين الثقافة الاوربية عن طريق اتصاله بالاسبان فقد تلقى دراسته الأولى بجامعة القرويين ، الجامعة الاسلامية العريقة فى المغرب ثم اتصل بالمدن الاسبانية فى شمال مراكش واطلع عن طريقها على بعض نواحى الثقافة الاوربية ، وعهدت اليه الادارة الاسبانية بترجمة احدى الصحف الاسبانية الى العربية والتحق بسلك الادارة الاسبانية حتى صار قاضى قضاة مليلة الجيب الاسبانى القديم ٠ وفى اثناء الحرب الاولى اعتقل نحو سنة عندما تشكك الاسبان فى نشاطه السياسى ثم أفرج عنه واعيد الى منصبه الى أن قرر الاسبان تعديل سياستهم باحتلال جميع بلاد الريف ٠ حينئذ لحق الأمير محمد بوالده فى أجدير ، مركز تجمع قبائل ورياغل ، وشرع يعد للمقاومة ٠ وفى نفس الوقت يحاول اقناع الاسبان بعدم احتلال مناطق الريف الداخلية ٠ وفى هذه الأثناء توفى الأب سنة ١٩٢٠ فانتقلت الزعامة الى بطل الريف ٠

ومن الواضح ان الامير عبد الكريم الخطابى والد بطل المقاومة لم يكن مجرد زعيم قبلى ، فقد سبق له ان عاون السلطان عبد الحفيظ فى قمع حركة بوحمارة باعتبار ان هذه الحركة دسيسة فرنسية ٠ وحسب أحد مترجمى (١) الأمير محمد بن عبد الكريم فقد عرض الاسبان على الخطابى الأب سنة ١٩١٥ ان يتولى منصب نائب السلطان فى تطوان تحت الحماية الاسبانية وان يقتصر الوجود العسكرى الاسبانى على المدن ٠ الا انه اشترط

---

(١) محمد سلام امزيان : عبد الكريم الخطابى ص ١٢٥ ٠

ان تكون مدة الحماية محددة فلم ينفذ هذا العرض • والارجح ان فرنسا كانت سترفض مثل هذا الاقتراح طالما حامت الشكوك حول صلات هذه الزعامة الريفية بالالمان •

بدات اسبانيا فى تنفيذ خطة الاحتلال فى منطقة الجبالة باعتبارها اضعف النقاط • وبعد سقوط شفشاون فى سنة ١٩٢٠ استطاعت ان تركز قواتها على بلاد الريف •

لم يمض زمن طويل على توغل الاسبان فى الريف حتى اكتسب الخطابى نفوذا واسعا بين اهل البلاد : وذلك لتوفيقه فى المعارك الأولى التى اشتبك فيها مع الاسبان وترجع أولى تلك المعارك الى شهر مايو ١٩٢١ حين انتصر الأمير على القوات الاسبانية عند ابران ــ احدى المراكز الاستراتيجية الجديدة التى اهتم الاسبان بانشائها داخل بلاد الريف • وشجع هذا الانتصار الخطابى على مهاجمة المراكز الاسبانية الأخرى • وفى شهر يوليو بينما كان الأمير يحاصر اجرين • وصل القائد العام سلفستر لنجدة الحامية المحصورة ، فلما وجد انها سقطت قرر الانسحاب فتتبعته القوات المراكشية وفى ١٨ يوليو التحمت معه فى معركة الانوال التى تعد من الوقائع المشهودة فى تاريخ شمال أفريقيا ، حيث اباد الامير الخطابى الحملة الاسبانية باسرها (١) بما فيها القائد سلفستر نفسه • ومنذ ذلك الوقت ذاعت شهرة الأمير • وسلمت له قبائل الريف الأخرى بالزعامة •

على اثر ذيوع انباء تلك المعركة ، هبت قبائل الريف لمحاصرة المراكز الاسبانية المبعثرة فى انحاء المنطقة • وفى مدى خمسة ايام كانت بلاد الريف قد طهرت تقريبا منها ووصلت طلائعهم الى ضواحى مليلة واسر المراكشيون عددا كبيرا من الاسبان مما اضطر حكومة مدريد الى دفع مبالغ ضخمة كفدية لهم • واصبح وجود الاسبان مقصورا على مدينة تطوان والموانى وبعض الحصون فى الجبالة • ويعزو الاسبان وقوع هذه الكارثة الى أمرين • طبيعة البلاد الصعبة ، والفساد الذى كان منتشرا فى صفوف جيشهم وادارته • ومع صحة هذا التعليل الى حد كبير فان الكتاب الاسبان يتجاهلون عاملا ثالثا وربما كان أهم فى توجيه تلك الحوادث ، وهو ان زعيم

---

(١) من خير المراجع واكثرها تفصيلا عن الحرب فى منطقة الريف ضد اسبانيا وفرنسا انظر : ــ

Walter B. Harris - France, Spain and the rif

اذ كان مؤلفه يعمل مراسلا للتايمز اثناء وقوع هذه الحوادث ، ولعب فيها دورا دبلوماسيا خاصا وله عن مراكش كتب اخرى من اهمها

Marocco that was

المقاومة الجديد كان يختلف عن سابقيه في أنه اتجه الى تأسيس ادارة منظمة والاستفادة من احدث وسائل الحرب فى مقاتلة العدو ، وحاول ان يعطى لدولته صفة وطنية عامة حتى اشتهرت عند الكتاب المغاربة باسم جمهورية الريف (١) .

على اثر هذه الحوادث ارسلت حكومة مدريد لجنة للتحقيق فى اسباب الكارثة فانتهت فى تقريرها (٢) الى ان خطة اقامة مراكز عديدة دون الاهتمام بتحصينها تحصينا قويا . وتعبيد الطرق التى تربط فيما بينها كانت خطأ كبيرا من الناحية العسكرية ويعترف التقرير بانه لم يكن امام المراكشيين الا ان يلتقطوا الأسلحة التى تركها الجند الاسبان الفارون . كما يشير التقرير الى فساد الضباط الذين كانوا يتغيبون فى المدن ويتركون الحاميات ، ثم كشف عن حالات بيع الضباط اسلحة الجيش . وكان طبيعيا بعد هذا أن يعدل الاسبان عن خطة الاحتلال الشامل للريف ولو مؤقتا .

وجد الأمير الخطابى بعد جلاء الاسبان عن الريف ، منطقة موحدة حاول ان يؤسس فيها دولة منظمة وصفها علال الفاسى بأنها جمهورية رئاسية . ولكن هذا الوضع اثار مسألة سياسية هامة أثرت فى حياة مراكش . وهى موقف الخطابى من العرش . فالفاسى ينسب للخطابى الاعتراف بمبدأ السيادة السلطانية ، ويستدل على ذلك بانه لم يعلن نفسه سلطانا . بيد ان السلاطين من الاسرة العلوية لم يقتنعوا بذلك واعتقدوا أن دولته تمثل انشاقا على العرش فاستمر سوء التفاهم بينهم وبين الخطابى حتى حينما كان محمد الخامس يساهم فى الحركة الوطنية .

اما عبد الكريم نفسه فينفى ان يكون تطلع الى عرش مراكش بدليل انه منع انصاره عن الخطبة باسمه فى صلاة الجمعة . وفى حديث جرى بين الامير وبين الكاتب لانداو ؛ صرح الخطابى بأنه كان مستعدا فعلا لقبول الاسرة الملكية الحاكمة على أن يبايع الوطنيون : بعد تحرير البلاد ، السلطان الذى يحقق اهدافهم (٣) .

وقد اعلن الخطابى عن اهداف حكومته بأنها : عدم الاعتراف بالحماية الفرنسية وجلاء الاسبان عن جميع ما احتلوه فيما عدا سبتة ومليلة ،

---

(١) علال الفاسى ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢) انظر هذا التقرير فى Harris P. 79—84

(٣) نقلا عن ترجمة لانداو العربية ـ ازمة المغرب الاقصى ـ ص ١٤١ ؛ ١٤٢ .

واقامة علاقات طيبة مع جميع الدول والاستفادة من الفنيين الاوربيين فى بناء الدولة واستغلال ثروتها ٠

وقد شجع الخطابى فعلا بعض شركات التعدين على العمل فى الريف حتى قيل بأن تأييد بعض الأوساط الراسمالية فى أوربا له ، انما كان سببه ارتباط مصالحهم بمشروعات الريف ٠

ولعل اطلاق وصف جمهورية على حكومة الخطابى انما جاء نتيجة اتباعه بعض مظاهر التمثيل النيابى فقد كون شبه مجلس نواب من رؤساء القبائل وعين ستة وزراء واعلن انهم مسئولون امام المجلس وحينما بلغت حكومته ذروة قوتها سنة ١٩٢٥ ، طلب الى بريطانيا وفرنسا والبابا الاعتراف به ٠

اثرت حوادث الريف على أوضاع أسبانيا الداخلية ذاتها ٠ فهى التى مهدت لوقوع الانقلاب العسكرى الذى قام به بريمودى ريفيرا فى سبتمبر ١٩٢٣ ٠ واعلن القائمون بالانقلاب بعد استيلائهم على السلطة بان هدفهم هو القضاء على الفساد الداخلى ومحو العار الذى اصاب اسبانيا فى مراكش ، مع مراعاة ظروفها الاقتصادية ٠ وكان دى ريفيرا اكثر واقعية فى مواجهة الأزمة المراكشية ٠ ويقال انه فكر فى التخلى عن السياسة الاستعمارية فى المغرب نهائيا ٠ وتضمنت خطته فكرة التنازل عن سبتة للانجليز مقابل جبل طارق ٠ ولكنه خشى من النتائج التى قد تترتب على عودة جيش جرار الى البلاد دون وجود ميدان آخر لنشاطه ، خاصة وان العودة ستكون بمثابة رمز مادى على الهزيمة ؛ فكانت خطة الرئيس الجديد هى أن يحكم الاسبان استعداداتهم الاقتصادية والحربية قبل ان يستأنفوا اى عمل عدائى ضد خصومهم الاقوياء ٠ ولم يكن هناك اذن ما يبرر للأمير الخطابى مهادنة الاسبان ، رما دام قد وثق بقدرته على طرد الغزاة ، ومادام الاسبان يرفضون قبول شرطه بانسحابهم الى سبتة ومليلة ، فلا بد من مواصلة القتال ٠

وفى صيف سنة ١٩٢٤ قرر الخطابى القيام بهجوم عام وكانت تطوان اول أهداف هذا الهجوم ٠ وقد نجحت قواته فعلا فى الوصول الى ضواحى المدينة وسقطت قنابل مدفعيتها فى شوارعها ولكنها عجزت على اجتياح اسوارها ٠ ومع ذلك لا يمكن القول بأن حملة ١٩٢٤ كانت غير مجدية ، لانها تمخضت عن احراز بعض الانتصارات فى الميادين الاخرى ، مما اضطر بريمودى ريفيرا الى ترك العاصمة الاسبانية والحضور الى تطوان للاشراف بنفسه على القتال ٠ وانتهى به الأمر الى الاقتناع بانه لا مناص من اخلاء ما تبقى فى اقليم الجبالة ولا سيما حصن شفشاون ٠ وكانت مهمة صعبة

حقا تلك التي قضت بسحب الحاميات الاسبانية من اقليم يسيطر عليه عدو متفوق في البسالة والتنظيم . فقد تبين بعد اتمام الانسحاب من شفشاون في نوفمبر ١٩٢٤ ان الاسبان فقدوا في هذه العملية عددا من الجند يفوق عدد هؤلاء الذين ذهبوا لانقاذهم من المراكز المحاصرة .

ثبت حينئذ عجز الاسبان الكامل عن النيل من دولة الريف الناشئة ، وقوبلت هذه النتيجة بدهشة عظيمة لدى الأوساط التي لم تكن مطمئنة منذ البداية الى حـــــركة الأمير الخطابي . ولكنها ظلت تتوقع ان يتمكن الاسبان من القضاء عليها يوما ما . اما امير الريف فكان يدرك تماما خطورة الاشتباك مع الفرنسيين وان لم يعن هذا انه كان راضيا بالحماية الفرنسية على مراكش ، ولذلك حرص على تجنب الاصطدام بالفرنسيين الى أن يئس هؤلاء من محاولات الاسبان ورأوا من الضروري ان يتدخلوا ضد دولة الريف حتى وان كانت هذه الدولة تقع خارج منطقة نفوذهم .

- ٤ -

الصدام مع فرنسا

في خلال الحرب العالمية الأولى ، تشككت فرنسا في دقة حيـــاد اسبانيا ، وكما سهل الاسبان تسلل عملاء الالمان الى مراكش لمســاعدة الثائر عبد الملك ، فكذلك سهل الفرنسيون عبور الاسلحة الى منطقة الريف من وهران عبر وجدة ، وكان تنافسا خفيا ظل يحــــكم العــلاقات بين السلطات الفرنسية الاسبانية في مراكش منذ الحرب الاولى وحتى استقلت البلاد سنة ١٩٥٦ ، واستفادت الحركة الوطنية من هذا التنافس كما سيتضح ذلك فيما بعد .

والواقع ان فرنسا منذ ان شاهدت قوة الخطابي سنة ١٩٢١ أضحت مترددة بين عاملين : الرغبة في وضع العراقيل امام الاسبان ، والخوف (١) من ان تكون حركة الخطابي عاملا مشجعا للثورات في شمال افريقية ، ويقال ان بعض المصالح الراسمالية التي اســـتثمرت اموالها في بناء مينـــاء الدار البيضاء الضخم وفي مشروعات اخرى في منطقة ساحل الأطلسي استحسنت بقاء منطقة الريف مضطربة حتى يصعب استخدام الطريق الموصل بين فاس وطنجة ، والذي يحول تجارة مراكش عن الدار البيضاء

---

(1) Fontaine : abdel karim origine de la rebelion Nord africaine

الى ذلك الميناء الدولى الذى تتردد عليه سفن اقطار البحر المتوسط ، وهو الطريق الاكثر استخداما حتى ذلك الوقت · ثم تدخلت ثلاثة عوامل رجحت خطة تدخل فرنسا ضد دولة الريف :

١ ــ لقد كانت فرنسا تغمض العين عن الأمير الخطابى طالما انه يعترف بالسيادة للسلطان · اما بعد ان قويت شوكته وثبت اتصاله ببعض الدول الاوربية ، وتردد وصف دولته بالجمهورية ، فان سيادة السلطان الموضوع تحت الحماية الفرنسية فى هذا الجزء من مراكش اصبحت امرا مشكوكا فيه ·

٢ ــ تخوف المصالح الراسمالية من المنافسات الدولية ، ولا سيما الراسمال البريطانى ، وكان الخطابى حريصا على دعوة الشركات الاجنبية لاستغلال موارد البلاد الطبيعية ولعله بالغ فى وصف الثروة المعدنية المدفونة فى اراضى الريف · وقد تسربت انباء عقد هام بين احـــــدى الشركات البريطانية الكبيرة وبين دولة الريف ، وقع فى ١١ يونيو ١٩٢٣ بواسطة جاردنر ، أحد كبار الراسماليين الانجليز · وبمقتضى هذا العقد تتولى الشركة امتياز استغلال مناجم الريف وتمهيد الطرق مقابل نسبة عالية من الارباح (ويبقى الاتفاق سرا الى ان يتم الاعتراف بجمهورية الريف · ولوحظ ان الأسلحة تدفقت على اثر هذا الاتفاق من جهات عدة على خليج الحسيمات الذى يسيطر عليه الأمير · ومن بين هذه الأسلحة طائرات مقاتلة وقاذفات قنابل لم تستخدم فى الحرب ، ولكنها رفعت معنويات جيش الريف ، ذلك ان الأمير وجد صعوبة فى استخدام طيارين رغم انه عرض مرتبات خيالية ·

٣ ــ وربما كان أقوى تلك العوامل هو خوف انتشار الروح الثورية فى المستعمرات الفرنسية اذا ما استقرت دولة وطنية فى الريف المغربى ·

على ان المؤرخين الفرنسيين يحاولون تحميل الأمير الخطابى مسئولية الاشتباك معهم فيقولون ان مبعوثى الريف تسللوا الى وادى ورغة الذى يقع فى منطقة النفوذ الفرنسية وحرضوا القبائل هناك على العصيان فى اوائل سنة ١٩٢٥ ·

ولكن هذا الادعاء يظل محل جدل ما دام تخطيط الحدود فى المعاهدة الاسبانية الفرنسية لسنة ١٩١٢ لم يوضح بصفة تفصيلية ، لانه رسم فى وقت لم تكن فيه لأى من الدولتين ادارة فعلية فى المنطقة ، وفضلا عن هذا لم يكن الامير الخطابى يعترف بهذا التقسيم لمناطق النفوذ · وعندما بدا الفرنسيون يقيمون مراكزهم الحربية فى هذا الوادى فى ابريل ١٩٢٤ : ظل الامير ملتزما لسياسة الحياد نحوهم واكتفى باعلان استنكاره للعدوان

على أرض تابعة له . هذا بالرغم من ان كثيرا من سكان الوادى استنجد بحكومة الريف المستقلة ، وأن بلاد الريف كانت تعتمد الى حد كبير فى تموينها على ما ينتجه هذا الوادى الخصب من القمح .

وعندنا ان العامل الجوهرى الذى حدا بفرنسا للتدخل ضد الأمير الخطابى ، انما هو كرهها لقيام دولة مغربية مستقلة . وكما صرح ليوتى نفسه فى خطاب وجهه الى الحكومة الفرنسية فى ١١ ديسمبر ١٩٢٤ « ان الحركة لا تلاقى الآن صدى بعيدا فى أوساط المثقفين ، ولكن من الممكن ان يتحول الرأى العام فى اية لحظة ، ولذا يجب ارسال التعزيزات للمحافظة على الجبهة الشمالية . وابتداء من أبريل القادم نستطيع القيام بدور ايجابى (١) » . اذن فان فرنسا كانت قد بيتت النية للتدخل وانتظرت الحوادث .

ولم يخف الأمير الخطابى انه يتجنب الاصطدام بفرنسا ادراكا منه بعدم قدرته على مواجهة دولتين كبيرتين فى وقت واحد ، كما صرح بذلك لمراسل التايمز فى أوائل سنة ١٩٢٥ (٢) . ولكن هذا الموقف لم يمنعه من اتخاذ جميع الاحتياطات الحربية اللازمة للدفاع عن بلاده . فأقام خطوطا للبرق والتليفون بين حدوده الجنوبية المتاخمة للفرنسيين وبين مقره فى أجدير ، كما عزز قواته على تلك الحدود فأصبح الجو مهيأ لوقوع الاشتباك عند أول مناسبة .

وفى ١٣ ابريل ١٩٢٥ وقع الحادث المنتظر الذى انذر ببدء القتال . ذلك أن الفرنسيين كانوا يعلمون بأن الامير على خصومة شديدة مع رجال الطرق ، فأخذوا يمدون زعماءها بالمال والأسلحة حتى يشجعوهم على اثارة الاضطرابات فى دولة الريف وقد أدى هذا الى مهاجمة الريفيين لاحدى الزوايا الدرقاوية قرب الحدود . ووجد الفرنسيون الفرصة سانحةللتدخل بحجة حماية أنصارهم . وعندما اخذ القتال يتسع فوجىء الفرنسيون بحسن تنظيم عدوهم الجديد الذى يختلف تماما عما صادفوه من حركات المقاومة فى شمال افريقيا . وكان ان اضطروا الى التزام موقف الدفاع مدى اربعة اشهر ؛ بل ان موقفهم تحرج فى شهر مايو اذ حوصر مركز قيادتهم فى عين عائشة ، وتسللت بعض قوات الريف الى مسافة ٢٠ ميلا من فاس كما هددت مدينة تازة .

ويبدو أن الفرنسيين قد تحملوا خسائر فادحة فى هذه الاصطدامات

(1) Catroux p. 164.
(2) Harris P. 210.

الاولى بالرغم من انهم لم يعترفوا رسميا الا ببضعة آلاف من الجرحى والقتلى ، وانما كشف أمر هذه الخسائر فيما بعد عندما سقطت دولة الريف واخذ الاسبان يجردون القبائل من السلاح فوجدوا لديهم كميات هائلة من الاسلحة الفرنسية .

والحق ان صمود دولة الريف الصغيرة سنة كاملة (مايو ١٩٢٥ الى مايو ١٩٢٦) امام دولتين اوربيتين يعتبر حالة نادرة فى تاريخ الحروب الاستعمارية ، لا فى شمال افريقيا وحدها . بل فى قارتى افريقيا وآسيا عموما . والفضل في ذلك لا يرجع الى طبيعة البلاد فقط ، كما يحب أن يردد الأوربيون ، ولكن الى قدرة رجال الريف وكفاءة زعمائهم فى ميدان الادارة والحرب . ونلاحظ مثلا عند تتبع التاريخ الحربى ، ان مقاتلى الريف استعملوا خطوط الخنادق المحصنة على نمط تلك الخطوط التى اقامتها فرنسا فى بلادها اثناء الحرب العالمية الاولى . ويكفى الريفيين فخرا انهم قادوا هذه الحرب فى وجه ثلاثة من الماريشالات وهم ليوتى ـ بيتان ـ بريمودى ريفيرا ، وأربعين جنرالا ، والقوات الأساسية لدولتين أوربيتين ، بل لقد استقدمت هاتان الدولتان بعض المرتزقة من الطيارين الامريكيين حتى تستخدم احدث انواع قاذفات القنابل فى الحرب ضد الدولة المغربية الصغيرة . واذن فلم تكن حرب الريف حملة استعمارية عادية بل كانت قتالا منظما بين جمهورية الريف وبين دولتى فرنسا واسبانيا ، ومما يؤكد هذه الصفة أن رؤساء حكومات تلك الدول حضروا الى مراكش للاشراف على القتال بانفسهم .

كان ضروريا اذن من ان يستقدم الفرنسيون امدادات هائلة قبل ان يتمكنوا من التحول من الموقف الدفاعى الى الهجوم فى سبتمبر ١٩٢٥ وقد اتخذوا من اجل تنفيذ خطتهم عدة اجراءات أخرى ، من بينها اغراء السلطان باعلان امير الريف احد العصاة الخارجين على السلطة الشرعية . وقام مولاى يوسف فعلا برحلة الى فاس خصيصا لتنفيذ هذا المطلب ، ولكى يستنفر القبائل للقتال « بجانب هؤلاء الأبطال الذين يدافعون عن سلامة امبراطوريتنا » (١) .

ومن بين هذه الاجراءات العمل على تنسيق الاعمال الحربية بين

---

(١) يختلف الكتاب حسب اهوائهم فى تحديد موقف الأمير الخطابى من السلطنة ، ولكن الوطنيين المغاربة عموما يرون انه لم يكن يطمع فى القضاء عليها والجلوس على عرش مراكش كما يدعى الكتاب الأجانب . وبالتالى فهم لا يجدون لموقف مولاى يوسف عذرا مقبولا .

الدولتين الاستعماريتين ، ولهذا الغرض عقد مؤتمر خاص في مدريد في يونيو ١٩٢٥ ، اتخذ عدة قرارات من بينها :

تنسيق العمليات الحربية بين القيادتين . ومكافحة تجارة الأسلحة بين الريف وأوروبا ، وذلك عن طريق الدوريات المنظمة على طول سواحل مراكش الشمالية . ومما نذكر ان الأسطول البريطاني اشترك في اعمال المراقبة في مياه طنجة الاقليمية .

ومنها السماح لجيوش الدولتين بتتبع قوات الأعداء في منطقة نفوذ الدولة الأخرى . وكان آخر هذه القرارات هو تعهد الطرفين بعدم القيام بعمل دبلوماسي أو توقيع صلح منفرد مع العدو دون الاتفاق مع الطرف الآخر :

ويعزى الى ليوتي أنه فكر لحظة اثناء القتال في الاعتراف باستقلال الريف الذاتي . على أن تحدد العلاقات بينه وبين كل من فرنسا وأسبانيا فيما بعد ، وقد جس نبض الأمير عن طريق مندوب الصليب الأحمر فصرح له عبد الكريم بان هدفه اسقاط هيبة الاسبان وأنه لا يريد كسبا على حساب فرنسا . ولكن سرعان ما تحول ليوتي عن فكرته ، فكتب الى حكومته في ٩ يوليو ١٩٢٥ «انه يخشى ان يكون قصد عبد الكريم هو التلاعب للايقاع بين باريس ومدريد ، ولذا يجب الاصرار على الاعتراف بسيادة السلطان مقدما قبل اجراء اية مفاوضات مع عبد الكريم والأفضل من ذلك هو استخدام القوة .

ويبدو ان المصاعب العسكرية التي واجهتها الدولتان الاستعماريتان ادت الى تجربة اسلوب التفاوض ومحاولة الوصول الى حل وسط . ذلك انه قبل القيام بالهجوم الكبير صدر بلاغ رسمي من الحكومتين في ١٢ اغسطس أبدتا فيه استعدادهما للتسليم باستقلال الريف اداريا على ان يعترف الأمير الخطابي للسلطان بالسيادة العليا الممثلة في شخص خليفة تطوان . ومن الراجح أن تكون حكومتا فرنسا واسبانيا انما فعلتا ذلك من قبيل المناورة السياسية كي تظهر للرأى العام في البلدين انهما لا تريدان الحرب . ذلك ان قسما كبيرا من الرأى العام العالمي وخاصة في انجلترا وفرنسا دهش لتمسك اهل الريف باستقلالهم وساده شعور الاعجاب ببطولتهم .

وقد تزعم الشيوعيون في فرنسا حملة صحفية ضد حرب الريف الى حد انهم ارسلوا برقيات التهنئة للأمير الخطابي بمناسبة بعض انتصاراته . وقد فطن الأمير الخطابي الى حقيقة هذه المناورة السياسية . كما يبدو من الخطاب الذي أرسله الى هاريس مراسل التيمز في مراكش في ٢٨

اغسطس . وقد احتج فى هذا الخطاب بأن المقترحات الفرنسية الاسبانية لم تبلغ له رسميا . وبالتالى فهو لا يستطيع اعطاء جواب عنها (١) . ،

هـل يعتبر الامير الخطابى اذن مسئولا عن استئناف الحرب التى قضت على استقلال الريف ؟ هذا ما يعتقده معظم الكتاب الاجانب ، ولكن فى رأينا أن عدم ثقته بحسن نية فرنسا واسبانيا قد دفعه الى اتخاذ هذا الموقف ؛ بدليل انه لم يفتأ فى نفس الفترة يوجه رسائله الى الحكومة البريطانية راجيا منها أن تتوسط فى النزاع بينه وبين أعدائه . وكان جواب الحكومة البريطانية دائما هو الرفض البات . كذلك فشلت محاولات الضابط الانجليزى جوردن كانتج لدى رئيس وزراء فرنسا كى يقبل حلا سلميا على أساس الحكم الذاتى لدولة الريف . تبدد كل امل فى الصلح بعد ان اخذ مجرى القتال يتحول لصالح الغزاة .

وفى ٥ سبتمبر ١٩٢٥ نجح الاسبان بمعاونة البحرية الفرنسية فى انزال جنودهم الى مكان قرب خليج الحسيمات الذى يمتد فى قلب بلاد الريف ، وكان الامير قد استعد لمواجهة مثل هذه المحاولة ولكنه توقع أن تنزل القوات الاسبانية على شواطىء الخليج نفسه . ولم يكن امام الريفيين سوى عرقلة تقدم الاسبان على البر ؛ ولكن هؤلاء نجحوا بعد صعوبات جمة فى الاستيلاء على أجدير عاصمة الامير الخطابى . وكان ذلك فى مستهل شتاء ١٩٢٥ ــ ١٩٢٦ أى فى الوقت الذى تستحيل فيه العمليات الحربية فى بلاد الريف .

وعندما أصبح استئناف الهجوم العام متوقعا مع حلول فصل الربيع ، لم يتردد الأمير الخطابى فى طلب عقد هدنة لانهاء النزاع عن طريق المفاوضات .

واذا كانت الدول الاستعمارية لم تخلص النية من اجل السلم فى صيف سنة ١٩٢٥ ، فمن باب أولى الا تصدق نيتها فى هذه المرة بعد ان تحسن موقفها العسكرى تحسنا كبيرا واصبح الاسبان على وشك تحقيق رغبتهم فى الانتقام لمحو عار هزيمتهم فى الانوال ؛ ومرة أخرى تظاهرت حكومتا اسبانيا وفرنسا بالرغبة فى السلام فأعلنتا قبولهما لمبدأ المفاوضة ؛ وما لبثت أن تكشفت نواياهما ففرضتا شروطا قاسية تظنان انها كفيلة بصرف الامير الخطابى عن قبولها ؛ وباظهاره مرة أخرى مسئولا عن الحرب ومن هذه الشروط :

---

(1) Harris. P. 271.

الاعتراف باستقلال الريف الاداري في حدود المعاهدات الدولية (اى قبول مبدأ الحماية . والاعتراف بسيادة السلطان . ومغادرة الأمير الخطابي للبلاد واخيرا تجريد قبائل الريف من السلاح .

ضرب الخطابي مثلا رائعا من امثلة انكار الذات بقبول هذه الشروط كأساس للمفاوضة ، وذلك على امل ان يحفظ لاهل الريف قدرا من الإستقلال الذاتي . وعلى هذا الأساس انعقد مؤتمر بين الأطراف الثلاثة في المكان الذي عينته فرنسا بمدينة وجدة في ١٨ ابريل ١٩٢٦ . وعندئذ راح المفاوضون الفرنسيون والاسبان يحاولون تعطيل المحادثات بطريقة اخرى . وذلك بتقديم بعض المطالب المتعسفة التي لم تشتمل عليها المذكرة المشار اليها . ومن اكثر هذه المطالب تعسفا وابعدها عن العرف . هو ما تعلق بتعديل خطوط الفرنسيين والاسبان خلال فترة الهدنة بشكل يؤمن لهم سلامة مواصلاتهم . فلما كشف وفد الريف هذا المطلب لمراسلي الصحف وعرفه الراى العام تراجع عنه الوفد الفرنسي الاسباني . ثم لجأ هؤلاء الى طريقة اخرى وذلك باقتراح وسائل غير مقبولة لتنفيذ الشروط المتفق عليها . من ذلك مثلا كيفية تجريد القبائل من السلاح ، فقد اصر الوفد الاوربي على ان تقوم طوابير فرنسية اسبانية بتنفيذ هذه المهمة . ولكن ممثلي الريف بينوا ما قد تؤدى اليه هذه الوسيلة من وقوع صدام بين السكان وبين القوات المحتلة . وقالوا أن الأمير الخطابي هو الذي وزع الاسلحة وهو الذي يستطيع وحده سحبها . وكانت هذه النقطة من اهم الأسباب التي ادت الى فشل المحادثات وتوقفها بعد اسبوعين (١) .

وعندما استؤنف القتال في مايو كانت القوات الاسبانية الفرنسية قد استعدت لخوض آخر جولة في هذه الحرب المدمرة . فاعدت ثلاث حملات اتجهت في نفس الوقت من طرق مختلفة الى حصن ترجست ، الذي اتخذه الأمير مقرا له بعد سقوط أجدير . واستطاعت الاستيلاء عليه في ٢٣ مايو . ولم تمض بضعة ايام حتى سلم الأمير نفسه للفرنسيين . وكان يشعر منذ انقطاع محادثات وجدة بأن قبائل الريف قد انهكت وأنها غير مستعدة للمضى في حرب العصابات . ولا شك أنه آثر تسليم نفسه للفرنسيين ، دون الاسبان لأنه اعتبره اهون الشرين ، فقد كان الاسبان يطالبون بمحاكمته كعاص يستحق الاعدام . اما الفرنسيون فقد اعتبروه أسير حرب واكتفوا بنفيه الى مستعمرة من مستعمراتهم النائية في المحيط الهندي وهي جزيرة ريونيون . وظل الأمير عبد الكريم الخطابي بمنفاه حتى سنة ١٩٤٧ ، حين تقرر السماح له بالاقامة في فرنسا .

---

(١) انظر تفاصيل هذه المفاوضات في Harris P. 273 s. q.

وعند وصول الباخرة التي تنقله الى بور سعيد التجأ الى السلطات المصرية التي رحبت باقامته في القاهرة حيث ساهم بنصيب وافر في توجيه لجنة المغرب العربي . لقد فوجيء الفرنسيون بهذا التحول في المرحلة الأخيرة من حيـــاة الخطابي ، ففي خلال منفاه توقف عن معارضة السياســـة الفرنسية . وكـــان الفرنسيون يعتقدون بأن عداءه موجه اصلا ضـــد الاسبان باعتباره زعيما محليا لمنطقة الريف . غير ان موقفة اثناء وجوده في مصر دل على ان حركته كانت وطنية بأوسع مفاهيم تلك الكلمة ولا غزو فقد اشادت بـــه الصحافة العربية اثناء نضاله في العشرينات ، كمـا انه اصبح زعيما راديكاليا في المرحلة الأخيرة من حياته في مصر ، فرفض الأساليب السياسية في تحرير شمال افريقيا ، ونبذ مبدأ الخضوع لسيادة السلطان ، ولذلك استحالت عودته الى المملكة المغربية بعد استقلالها فظل مقيما بالقاهرة حتى وفاته سنة ١٩٦٣ .

الفصل الرابع عشر

التقسيم والحماية

- ١ -

وضع الحماية

لم تكد فرنسا توقع اتفاق ٤ نوفمبر مع المانيا حتى شرعت تطالب السلطان بممارسة سلطات الدولة الحامية . وحاول عبد الحفيظ أن يستبقي لنفسه ما استطاع من السلطات ، فطالب بالاشراف على شئون الأوقاف وحق تعيين الوزراء وحرية اختيار وريث العرش . فاحتاج الأمر الى ارسال بعثه خاصة برئاسة رينيو الى فاس فى ٢٤ مارس ١٩١٢ ، وهناك استخدم الرعد تارة والوعيد تارة أخرى لاقناع السلطان بتوقيع معاهدة الحماية حتى تم لـه ذلك فى ٣٠ مارس ١٩١٢ . وقد صيغت بعض نصوصها فى عبارات غامضة حتى يمكن تأويلها لصالح الطرف الأقوى متى اقتضى الأمر .

هذه المعاهدة تشبه فى كثير من موادها معاهدة الحماية على تونس وهى تتألف من ٩ مواد (١) .

تنص المادة الأولى : على اتفاق الحكومتين على اقامة نظام جديد فى مراكش يحتوى على الاصلاحات الادارية والقضائية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى ترى فرنسا فائدة ادخالها الى مراكش ، على تراعى فرنسا عند ادخال هذه الاصلاحات احترام الأوضاع الدينية ، وهيبة السلطان التقليدية والمؤسسات الاسلامية ، وخاصة مؤسسات الأوقاف . وستتفاهم فرنسا مع اسبانيا بخصوص مصالحها الناجمة عن مركزها الجغرافى وممتلكاتها الاقليمية على الساحل المراكشى . وستحتفظ طنجة بصفتها الخاصة التى اعترف لها بها ، وسيحدد نظامها البلدى .

---

(1) Combon Annexe

وكذلك نصر حير فارس ٦١٥ .

مادة ٢ : يوافق السلطان منذ الآن على قيام فرنسا باحتلال اى جزء من مراكش تراه ضروريا للمحافظة على النظام وسلامة المعاملات التجاريه بعد اخطاره بذلك ، وأن تقوم كذلك بأعمال البوليس فى البر وفى المياه المراكشية .

مادة ٣ : تتعهد الحكومة الفرنسية بأن تساعد السلطان وخلفاءه من بعده ضد اى خطر يهدد شخصه او عرشه أو يعرضه للخطر هو وبلاده .

وحسب المادة ٤ : يكون للسلطان حق اتخاذ الاجراءات التى يتطلبها نظام الحماية بما فى ذلك تعديل المعاهدات بناء على اقتراح الحكومة الفرنسية . وسيتضح من التطبيق أن هذا الحق كان مظهرا اسميا فقط لأن المراسيم التشريعية كانت تقدم للسلاطين لمجرد التوقيع . وقد حدث مرتين أن فقد السلاطين عرشهم عندما عارضوا توقيع تلك المراسيم .

مادة ٥ : يمثل فرنسا لدى السلطان مقيم عام فى مراكش ، يسهر على تنفيذ هذه المعاهدة ويكون وسيط السلطان فى علاقاته مع ممثلى الدول الأجنبية ، ويكلف بصورة خاصة بكل المسائل المتعلقة بالأجانب ، وتكون لديه باسم الحكومة الفرنسية سلطة الموافقة ونشر كل المراسيم الصادرة عن السلطان .

وتنص المادة ٦ : على أن يقوم ممثلو فرنسا وقناصلها بتمثيل وحماية رعايا ومصالح مراكش فى الخارج . ويتعهد السلطان بالا يبرم اى اتفاق ذى صبغة دولية بدون موافقة سابقة من الحكومة الفرنسية .

مادة ٧ : تتفق الحكومتان فيما بعد على وضع الاسس لتنظيم مالى جديد يحترم الحقوق المخولة لحاملى أسهم الديون العامة المراكشية ، ويسمح بضمان التزامات الخزينة وجباية الضرائب بصورة منتظمة فى مراكش .

المادة ٨ : يتعهد السلطان بالامتناع عن عقد اى قرض عام او خاص فى المستقبل بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وبأية صورة كانت بدون اذن فرنسا .

مادة ٩ : خاصة بالتوقيع .

اتفق على كتمان امر المعاهدة عن الشعب حتى لا تتعرض البلاد للاضطرابات ولكن خبرها ذاع واعتبرها أهل فاس بمثابة صك بيع بلد

من دار الاسلام لدولة مسيحية . ومن ثم كانت ثورة المدينة العريقة التى تحدثنا عنها . وكان مفروضا ان يستقر عبد الحفيظ بالرباط بعد توقيع الحماية . وقد انتقل اليها فعلا فى يونيو ١٩١٢ ولكنه ما لبث ان اصطدم بليوتى عندما خبر القيود الفعلية التى احيط بها . ولعله كان يائسا من سخط الناس عليه . لذلك قال لليوتى « بأن الحماية كانت غلطة ، وان الانجليز يستمتعون فى مصر بجميع مزاياها دون اسمها » . فكأنه يعترض على الشكل الخارجى للحماية الذى يثير سخط السكان . وعلى كل فان فكرة التنازل عن العرش كانت تراود عبد الحفيظ حتى قبل ارسال رينيو الى فاس ثم ازداد اقتناعا عندما اخذت فرنسا تلح عليه فى انتزاع سلطاته الرئيسية . وطالب فرنسا فقط بأن تضمن له حرية مكان اقامته والاحتفاظ باملاكه فى مراكش .

والواقع انه باعتباره قد اختير ليكون سلطان الجهاد ، اصبح وجوده غير ذى موضوع بعد اعلان الحماية ، ثم بعد ثورة فاس . الا ان سياسة فرنسا كانت تهدف الى الانتفاع بهيبة السلطان . اولا : لتسهيل السيطرة على مراكش . ثانيا : لمواجهة الحكومات الأوربية الأخرى ، اذ ان مشاكل مراكش الدولية لم تنته تماما بتوقيع المعاهدة الفرنسية الالمانية ، ولما لاحظ ليوتى تصلب عبد الحفيظ فى امضاء المراسيم . نصح حكومته بقبول تنازله عن العرش . وفى ١٢ اغسطس ١٩١٢ اعلن عن هذا التنازل (لاسباب صحية) وكان الاتفاق قد تم بين الاقامة والمخزن على اختيار مولاى يوسف بن الحسن لاعتلاء العرش .

وقد سبق لمولاى يوسف ان تعاون مع كل من اخويه عبد العزيز ثم عبد الحفيظ . وكان حاكم فاس فى عهد السلطان الأخير . ووجدت فرنسا فى السلطان الجديد اداة طيعة للتعاون معها . وهكذا تغلبت على ازمة العرش . وهى أول مشكلة واجهت الحماية . ولكن بقيت امامها مشاكل اخرى اشد تعقيدا . وهى التوفيق بين مركزها وبين مصالح الدول الأخرى التى اكتسبت فى مراكش عن طريق المعاهدات الدولية .

- ٢ -

التقسيم

كانت اسبانيا تنظر بعين القلق الى تطورات الحوادث فى مراكش خلال عامى ١٩١١ و ١٩١٢ . فلم تعترف بالاتفاقية الالمانية الفرنسية ؛ ثم اعترضت على وضع الحماية من جانب فرنسا وحدها لان ذلك يعطيها حقوقا ولو شكلية فى المنطقة الشمالية باعتبارها ممثلة للسلطان . ولذلك كان رأى اسبانيا

أن يتم فصل المنطقة الشمالية عن بقية البـــلاد من الناحيتين القانونية والفعلية . ولكن فرنسا استندت الى ميثاق الجزيرة الذى ينص على وحدة أراضى مراكش .أما اسبانيا فكانت تستند الى اتفاقيـــة سنة ١٩٠٤ وهى التى كان يجهلها اعضـــاء مؤتمر الجزيرة .

ولهذا تعثرت المفاوضات التى جرت مع اسبانيا منذ أوائل سنه ١٩١٢ واستطاعت فرنسا فى النهـاية أن تغلب وجهة نظرها بفضـــل عاملين : أولهما ، الصعوبات العسكرية التى واجهتها اسبانيا فى المنطقة الشمالية . وثانيهما : توسط بريطانيا فى هذه المفاوضات وميلها الظاهر نحو فرنسا . وقد توصل الطرفان الى أيجاد مبدأ عـــام لفكرة التقسيم ، فيحتفظ السلطان بحق الســـيادة على المنطقة الشمالية ؛ ولكنه يمارسها بواسطة خليفة يقيم فى تطوان . وعلى ذلك تمهد السبيل للاتفاق على الموضوعات التفصيلية الأخرى ، وبنـــاء عليـــه وقعت اتفاقيـــة بين الدولتين فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ .

وتميز الاتفاقية بين قسمين فى منطقـــة النفوذ الاسبانية من حيث وضعها القانونى ، فيشمل الجزء الأول جيبى سبتة ومليلة ، اللذين تحتلهما اسبانيا منذ عـــدة قرون . ومنطقة سيدى افنى فى الجنوب التى تدعى فيها اسبانيا حقوقا تاريخية . وتعين الاتفاقية حدود تلك المنطقة ؛ فتمتد من وادى بوسدرة شمالا الى وادى نون جنوبا بمحاذاة الاطلسى وتمتد على مسافة ٢٥ ك . م داخل الأراضى المراكشية . وتمارس اسبانيا فى هذا القسم حقوق الســيادة بدون قيد . بيـد أن اسبانيا لم تتمكن من تولى سلطتها فى منطقة افنى الا بعد أن تم لفرنسا اخضـــاع اقليم السوس سنة ١٩٣٤ .

أما القسم الثانى فتستمد اسبانيا وجوها فيه من معاهدة الحماية بين فرنسا والسلطان ؛ ولذلك شبه وضعها بالمستأجر من الباطن ، اذ لم تعقـد معاهدة قط بين اسبانيا والسلطان ، وانما اكتفى باصدار ظهير يثبت موافقـــة السلطان على معاهدة سنة ١٩١٢ . الا ان الوطنيين المغاربة لم يعترفوا بهذا المرسوم كأساس شرعى لوجود اسبانيا .

ويبقى القسم الشمالى حسب الاتفاقية تابعـا لسيادة السلطـان ؛ ويمتد هذا القسم من حـدود الجزائر شرقا وينتهى الى نقطـة جنوب ميناء العرائش على الساحل الأطلسى ؛ وتقدر مساحته بنحو ٢٨ الف ك . م مربع .

وسيكون لهذا التمييز القانونى بين القسمين اثر كبير بعد اعـلان

استقلال مراكش . اذ ان اسبانيا تنازلت عن المنطقة المحمية بدون معارضة ، بينما تمسكت بالقسم الاول باعتبار انه ارض اسبانية .

وتنظم الاتفاقية ادارة المحمية في الشمال على النحو التالي : يعين خليفة للسلطان في تطوان يمثل حقوقه الشرعية ، ولكنه يخضع لاشراف الادارة الاسبانية ، كما يخضع السلطان نفسه في الرباط للاقامه الفرنسية . وتقدم الحكومة الاسبانية مرشحين اثنين للخلافة يختار السلطان واحدا منهما . ولا يجوز تعيين خليفة آخر أو عزله الا بموافقة اسبانيا . ويقيم هـذا الخليفة في منطقة النفوذ الاسبانية وبصورة عادية في تطوان ، ويقلد تفويضا عاما من السلطان يمارس بمقتضاه جميع سلطاته . وتستقل الادارة الاسبانية بادخال التنظيمات الادارية التي تراها ، وتتولى تحصيل الرسوم الجمركية في موانيها .

وقد فصلت الاتفاقية بين المنطقتين الفرنسية والاسبانية فصلا تاما، من حيث الضرائب والامور المالية . واخلت حكومة المخزن من مسئولية الحوادث التي تقع في الشمال . وجعلت لاسبانيا حق تمثيل سكان تلك المنطقة في الخارج .

واخيرا تؤكد الاتفاقية ما سبق أن اتفقت عليه الدولتان في اول مشروع للتقسيم سنة ١٩٠٢ ، من جعل طنجة منطقة محايدة . وكان مفهوما ان استثناء طنجة انما هو شرط موجه ضد اسبانيا لانها تقع داخل منطقة نفوذها . وبالاضافة الى ذلك تمثل الجالية الاسبانية العدد الأكبر من الاوربيين هناك . وتنتشر لغتها وعملتها فيها . وتقرير حياد هذا الجزء من مراكش كان يتمشى مع مبدا استقلال البلاد ، ولكن الآن وبعد أن اصبحت حكومة السلطان خاضعة لدولتين اجنبيتين ، فان الحياد يصبح امرا مستحيلا لان الميناء لا بد أن يدخل تحت اشراف اى من الدولتين . ومن هنا تطورت فكرة الحياد الى تدويل ادارة الميناء ، ولكن في ظل سيادة السلطان تمشيا مع مبدا وحدة أراضي مراكش .

وكانت بريطانيا بحكم اهتمامها بالمتوسط . ووجودها في جبل طارق من اكثر الدول اهتماما بهذا الموضوع ، فقد تضمن الاتفاق الودي نصا خاصا بطنجة . ولذلك نلاحظ انه بمجرد احتلال مراكش سنة ١٩١١ وجه ادوارد جراى ، وزير الخارجية البريطانية ، مذكرة للحكومة الفرنسية يؤكد فيها ضرورة الاتفاق على وضع خاص لهذا الميناء . غير ان كلا من فرنسا واسبانيا ظلت تعرقل المفاوضات بخصوص طنجة الى أن دعا اللورد كيرزن في سنة ١٩٢٣ الى عقد مؤتمر في لندن لتقرير وضع الميناء .

وكانت الدول قد اتفقت على مبدأ تدويل الادارة ، وللانظمة الدولية سابقة في طنجة : فمنذ سنة ١٨٧٢ تأسست أول هيئة دولية وهي المجلس الصحي باشراف القناصل ، وبناء على هذا الاتجاه صدرت اللائحة الأساسية الخاصة بنظام طنجة الدولي في ديسمبر ١٩٢٣ (١) وهي تنطبق على المدينة وما حولها في مساحة قدرها ٤٠٠ ميل مربع :

وصارت لائحة طنجة حقلا خصبا لدراسة نظام فريد من الأنظمة الدولية ، لأنها تمنح الصفة الدولية لشئون الادارة والقضاء ، وقوات حفظ الأمن والاقتصاد .

فالادارة الحقيقية تتولاها لجنة المراقبة التي تتألف من قناصل الدول الممثلة في مراكش : وهي التي تعين الموظفين ، ولها الاعتراض على قرارات المجلس التشريعي . ويتألف هذا المجلس حسب لائحة سنة ١٩٢٣ من ستة عشر عضوا أوربيا : منهم اربعة أعضاء لكل من فرنسا واسبانيا . وثلاثة لبريطانيا : وواحد لكل من ايطاليا وهولندا وبلجيكا والبرتغال . وتسعة أعضاء مراكشيين منهم ٦ عن المسلمين وثلاثة عن الجالية اليهودية . ويرأس المجلس مندوب السلطان الذي يصدر قراراته أيضا .

وقد زيد في عدد أعضاء المجلس بعد الحرب العالمية الثانية . واشركت فيه كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بجانب الدول التي كانت ممثلة فيه من قبل . ولكن الاتحاد السوفيتي لم يرسل مندوبيه قط للاشتراك في هذا المجلس ، كما انه لم يعين قنصلا في طنجة .

وفي القضاء حلت المحاكم المختلطة محل القضاء القنصلي . وتتألف المحاكم المختلطة من قضاة فرنسيين واسبان وانجليز ، وضم اليهم قاض ايطالي عندما عدلت اللائحة سنة ١٩٢٨ ارضاء لايطاليا : هذا بالنسبة للأجانب او للقضايا المعلقة بينهم وبين المراكشيين ، اما بالنسبة للرعايا الوطنيين فيشرف مندوب السلطان ، ولو من الناحية الشكلية على القضاء الخاص بهم .

وقد قررت اللائحة جعل ميناء طنجة ميناء حرا .

واذا كانت لائحة سنة ١٩٢٣ قد نصت على ان يتولى السلطة الادارية والشرطة احد الأشخاص الذين ينتمون الى الدول الصغرى الممثلة في طنجة ، فان اللائحة في مجموعها تعتبر نجاحا لفرنسا من عدة نواح .

---

(١) انظر بحثا خاصا بوضع طنجة في :
Stuart : The international city of Tangier.

اولا : ان المقيم العام الفرنسي هو الذي يشرف على العلاقات الخارجية للمنطقة بصفته وزير خارجية السلطان الذي تخضع طنجة لسيادته .

ثانيا : ان الاقامة العامة تتدخل بما لديها من نفوذ لدى السلطان في اختيار المندوب ثم هي ترسل موظفا فرنسيا باسم المراقب الشريفي، وهو يشرف في الواقع على القضاء الخاص بالمراكشيين ويتوسط بين المندوب وبين قناصل الدول الاخرى .

ثالثا : يستمتع القنصل الفرنسي بنفوذ خاص على لجنة القناصل ، وان كانت الرئاسة تتناوب بينهم سنويا : على أن نفوذ الولايات المتحدة بدأ يتسرب الى طنجة منذ الحرب العالمية الثانية ، فبينما نلاحظ ان الولايات المتحدة لم تشترك في توقيع لائحة سنة ١٩٢٣ بالرغم من انها من الدول المشتركة في ميثاق الجزيرة ، نجد أنها قد انضمت الى فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٤٥ لمطالبة فرانكو باخلاء طنجة . وكان رئيس الدولة الاسبانية قد أنتهز فرصة الحرب واحتل الميناء الدولي وأخضعه للادارة الاسبانية المباشرة تحقيقا للأطماع القديمة .

واستجاب فرانكو لانذار الدول الغربية الكبرى وسحب قواته في اكتوبر ١٩٤٥ واعيد تطبيق النظام الدولي الذي عدل كما راينا ليتمشى مع نفوذ الولايات المتحدة الصاعد . ويتمثل هذا النفوذ ، علاوة على الاشتراك في الادارة ، في هجرة عدد من رجال الأعمال الأمريكيين ، وبناء محطة كبيرة للارسال لتوجيه صوت أمريكا الى شمال افريقيا والشرق الأوسط .

وبالجملة اصبحت مراكش في عهد الحماية مقسمة الى اربع مناطق تختلف كل منها عن الأخرى من حيث الوضع القانوني .

كانت الحماية الفرنسية اذن مقيدة بامتيازات اسبانيا وبوضع طنجة الدولي : وفي داخل منطقة نفوذها ذاتها بقيت بعض الامتيازات الدولية التي لم يمكن تجاهلها بالرغم من أن سياسة فرنسا التقليدية هي عزل المحمية اقتصاديا وسياسيا عن العالم الخارجي . فقد كانت علاقات مراكش الدولية اكثر رسوخا واتساعا عما كانت عليه علاقات تونس مثلا عند فرض الحماية عليها . لذلك لم يكن في وسع فرنسا ان تتدخل لتعديل اوضاع مراكش الخارجية دفعة واحدة ، وانما خدمتها تطورات الأحداث العالمية للتخلص من امتيازات الدول الأوربية .

فألمانيا التي كانت تعتبر اخطر منافس اقتصادي لفرنسا ، اذ بلغ مجموع قيمة مبادلاتها التجارية مع مراكش ٣٧ مليون فرنك سنة ١٩١٣ ،

اضطرت للتنازل عن امتيازاتها بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى . وذلك في صلح فرساي سنة ١٩١٩ . وكانت فرنسا قد الغت من جانبها اتفاقياتها مع المانيا بشأن مراكش منذ اعلان الحرب وابعدت الرعايا الألمان من البلاد ، وحكمت على بعضهم بالاعدام حتى تسقط هيبة المانيا امام المراكشيين : فلا يستمعوا لمبعوثيها السياسيين الذين انتشروا سرا في البلاد .

اما بريطانيا فكانت باعتراف الاتفاق الودى تستمتع بحرية التجارة ومبدأ المساواة لمدة ٣٠ عاما على الأقل بعد وضع الحماية . ولكن حسب هذا الاتفاق نفسه يمكن تغيير هذا الوضع اذا تغير نظام الامتيازات في مصر . وبالتالى فقد ترتب على عقد معاهدة مونترو التى الغت الامتيازات بالنسبة لمصر سنة ١٩٣٧ ، ان طالبت فرنسا بانهاء الحقوق البريطانية في مراكش .

ولم يكن سحب الامتيازات الانجليزية هو الأمر الذى يهم فرنسا كثيرا ، لأن بريطانيا كفت عمليا عن اظهار أى نشاط اقتصادى في مراكش منذ وضع الحماية عليها ، وعلى العكس اخذ نشاط الولايات المتحدة الاقتصادى يتزايد. وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية . وكان رجال الأعمال الأمريكيون يرتكزون دائما على مبدأ المساواة الاقتصادية الذى اقره ميثاق الجزيرة . وكان الرأسماليون الفرنسيون يأملون في أن يراعى رجال الأعمال الأمريكيون تفوق فرنسا السياسى ، فلا يفتحون باب المنافسة الاقتصادية على مصراعيه . وحين حاولت الاقامة الفرنسية ارضاء مواطنيها بسن بعض التشريعات المقيدة لنشاط الاجانب الاقتصادى ، رفع نحو ٢٧ رجلا من رجال الأعمال الأمريكيين شكوى ضد الحكومة الفرنسية لدى محكمة العدل الدولية التى اصدرت حكمها لصالحهم سنة ١٩٥٢ (١) .وفى نفس الوقت ايد الحكم وجهة النظر الفرنسية بتقييد حرية القضاء القنصلى الذى تمسكت به الولايات المتحدة طوال عهد الحماية .

- ٣ -

ادارة فرنسا المحمية

شغل الماريشال ليوتى منصب الاقامة العامة بجانب القيادة العسكرية منذ وضع الحماية سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩٢٥ . ولم يشتهر ليوتى

---

(1) Residence General les Problemes des Protectorat

فقط بنجاحه فى التغلب على مقاومة مراكش العنيدة ، بل انه وضــع اسسا ومبادىء للادارة الفرنسية . اصبحت مقرونة باسمه . وقد كتب ليوتى عن رايه فى الحماية (١) قال : تتضمن فكرة الحماية ان الدولــة المحمية تحتفظ بأنظمتها وحكومتها الخاصة . وان تحكم نفسها بنفسها عن طريق هيئاتها المنظمة ... ومراكش دولة مستقلة تعهدت فرنسا بحمايتها على أن تظل تحت سيادة السلطان مع الاحتفاظ بنظـام الحكم الذى اتخذته. ومن الواجبات التى نيطت بى ضمان وحدة هذه الحكومة والمحافظة على نظام الحكم القائم بها » .

ويعزو الكتاب الفرنسيون سياسته الى ميوله الشخصية ، وانه كان ملكيا فى الأصل ؛ فوجد فى مراكش فرصة ليكون صانع الملك فيطبق آراءه فى مراكش متسترا وراء السلطان . كذلك يذكر هؤلاء الكتاب بشىء من الفخر أنه احترم روح الحماية فابقى على اجهزة الادارة الوطنية دون المساس بها . وهذا صحيح ، ولكن يمكن القول بانه ابقى عليها كتراث تاريخى يحافظ عليه كما يحافظ على الآثار . ويشبه هذا الاسلوب موقفه من تعمير المدن المراكشية فلم يكن يزيل الابنية القديمة ؛ بل كان يبنى مدنا حديثة لسكن الجالية الأوربية ويفصلها تماما عن المدينة القديمة حتى لا تضيع معالمها وطريقة الحياة الاجتماعية فيها ، فاصبحت هناك فاس جديدة بجــانب المدينة القديمة ، ودار بيضاء جديدة بجانب الاحياء الوطنية .. وهلم جرا .

ويسرى هذا المبدأ على تنظيم الحكومة ؛ فقد قسم ليوتى ادارة مراكش الى ثلاثة اجهزة ؛ كل منها منفصل عن الآخر .

الأول : هو ادارة المخزن التى احتفظت بطابعها القديم .

والثانى : هو الادارة الشريفية الجديدة التى يقوم بها مثقفون مراكشيين لادارة الشئون الفنية الخاصة بالوطنيين .

والثالث : هو الاقامة العامة التى تهيمن على سياسة البلاد العليا ، من شئون خارجية ودفاع ومالية وامن عام ، فضلا عن ممارسة جميع السلطات الادارية والتشريعية بالنسبة لأعضاء الجالية الأوربية .

---

(١) نشرت اقوال ليوتى وخطاباته فى مجموعات مختلفة أنظر منها :
Parole d'action
Dix ans du protectora 1912 — 1922

(٢)
انظر كذلك الفاسى ــ المغرب العربى ص ٤٧

وهكذا قادت سياسة ليوتي عمليا الى سحب اهم اختصاصات الادارة من حكومة المخزن او الادارة الشريفية ، مما ادى الى الاستغناء عن كثير من الوزراء المغاربة فلم يبق سوى :

١ ـ الصدر الأعظم : ولا يملك غير سلطة اسمية اذ انتقلت معظم اختصاصاته الى الكاتب العام للحماية ؛ أو رئيس الادارة الشريفية .

٢ ـ وزير العدل : وقد اقتصرت اختصاصاته على المحاكم الشرعية وشئون المعاهد الدينية ، ولكن سلطته الحقيقية حتى بالنسبة لهذه الأمور هي في يد رئيس مراقبة العدل بالادارةالشريفية ، اما ادارة العدل المراكشية فهي فرنسية محضة وترجع راسا للمقيم العام .

٣ ـ وزير الأوقاف : وسلطته الفعلية في يد موظف فرنسي لدى الادارة الشريفية .

وهذا النظام هو ما سمي بالادارة غير المباشرة ، وذلك أن الاقـامة العامة كانت تدير بعض الشئون الأخرى ادارة مباشرة : وهي ادارة الفلاحة والتجارة والغابات وادارة المالية وادارة الأشغال العمومية وادارة الانتاج الصناعي والمعادن ، وادارة البريد والتليفون والاذاعة .

وبحجة تطبيق مبدأ الادارة غير المباشرة ، ابقى ليوتي على ما للباشوات وقواد الأقاليم من سلطات قضائية ومالية ، بالرغم من علمه بالمظالم التي تقع على أيدي هؤلاء القواد . وكـان في استطاعة الحكومة الفرنسية أن تعاون المراكشيين على التخلص من هذا النظام العتيق الذي لا يميز بين السلطة القضائية والادارية . ولكن الاقامة العامة لم تهتم بمراقبة القواد والباشوات الا فيما يخدم مصالحها ، ولا سيما فيما يتعلق بشئون الأمن العام . ولهذا الفرض عينت مراقبين فرنسيين لمساعدة القواد في شئون الأمن . أما القواد الذين اظهروا ولاءا للادارة الفرنسية ، فقد مكنتهم الاقامة العامة من اظهـار نزعتهم الاستقلالية بالنسبة للسلطة المركزية ، وهو ما لا يتمشى مع روح الحماية ويمكن القول اذن بأن ليوتي غرس النظام الاقطاعي في مراكش بمعناه الحقيقي .

لم يشجع ليوتي الهجرة الأوربية ، ولا سيما الاستيطان الزراعي . ويعزى موقفه الى أنه خشي من مواجهة جماعـات ذات حقوق وتقاليد سياسية واسعة تعرقل سلطته المطلقة . ومع ذلك فقد كان تيار السياسة الاستعمارية أقوى من أن يقاومه ليوتي فدخل مراكش في عهده نحـو

الف مستوطن زراعى (١) . علاوة على عدد أكبر من أصحاب الحرف ورجال الاعمال والتجارة فى المدن . وقدر ليوتى نفسه مساحة الأراضى التى تملكوها فى عهده بـ ٤٠٠٠٠٠ر هكتار .

وفى سنة ١٩١٦ سمح باقامة مجلس استشارى تمثل فيه الغرف التجارية فى مراكش وذلك للاشراف على ميزانية الاقامة العامة . وفى سنة ١٩١٩ انشىء قسم ثان لممثلى المستوطنين الزراعيين ورجال الصناعة. وكان هؤلاء الأعضاء يختارون بالتعيين . وفى سنة ١٩٢٦ ، بعد استقالة ليوتى اسس مجلس جديد للجالية الأوربية عن طريق الانتخاب يعرف بمجلس الحكومة ؛ وقد الحق به قسم مراكشى سنة ١٩٤٨ .

ووجود مثل هذا المجلس يتعارض مع أفكار ليوتى عن الحماية ، فقد ذكر فى خطاب القاه فى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٩ فى اجتماع الغرف التجارية والزراعية الفرنسية « ان مراكش دولة مستقلة وهى بوصفها هذا تظل تحت سيادة السلطان ، ولا محل للنظم السياسية الفرنسية فى هذه البلاد . ولمواطنينا الفرنسيين أن ينشئوا لانفسهم هيئات فى هذه البلاد كما ان لهم ان يتمتعوا بالحقوق المهنية ولكن ليس من حقهم أن يتمتعوا فى مراكش بالحقوق السياسية » .

وقد تعرض ليوتى لهذا السبب لنقد كل من اليمين واليسار . اليمين لانه عارض التوسع فى الاستيطان . واليسار لما كان يتهم به من ميول ملكية . وعندما بدأ الاشتباك مع عبد الكريم الخطابى نزعت منه اختصاصات القائد العام . وما لبث أن استقال فى سبتمبر ١٩٢٥ .

ولم يحافظ خلفاء ليوتى دائما على المبادىء التى وضعها ؛ فانتهت مراكش الى وضع المحميات الأخرى من تغلب الموظفين الفرنسيين على ادارتها ودمغها بالطابع الفرنسى كما فتح باب الهجرة والاستيطان على مصراعيه .

وكان ليوتى يميل الى تركيز الاستغلال الاستعمارى على النواحى التجارية باعتبار ان مراكش سوق رائجة للبضائع الفرنسية . اما فى عهد خلفه تيودور ستيج فقد اخذ مستوطنو الجزائر فى استغلال اقليم الملوية فى شرق مراكش كما وفد عدد كبير من فرنسا على سهل الشاوية أخصب مناطقها . وامتلكوا فيه مساحات واسعة . وبدأت بعض المزارع

---

(١) محمد خير فارس : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب ١٩١٢ ــ ١٩٣٩ رسالة دكتوراه .

الأوربية تنتشر حول مدينتي فاس ومكناس ؛ ولكنها لم تجرؤ على التوغل وراء هذه المناطق الا بعد أن استتب فيها الامن ٠

وثمة عقبة اخرى صادفت الاستعمار الزراعى ، وهى أن معظم الاراضى كانت اما موقوفة او مملوكة ملكية جماعية للقبائل ٠ ولم يشأ الفرنسيون أن يثيروا الراى العام بانتزاع الأراضى الموقوفة ، فاتجه تفكيرهم الى أراضى القبائل واستصدرت الاقامة فى ابريل ١٩١٩ مرسوما بجواز استغلال اراضى القبائل غير المزروعة فى مقابل ايجار اسمى ٠ ولم يغر هذا النظام كثيرا من الراسماليين ٠ ولكن بعد القضاء على المقاومة العسكرية فى العقد الرابع ؛ نشطت حركة الاستعمار الحر حتى بلغت الملكيات الزراعية الأوربية فى أوج اتساعها نحو مليون هكتار ٠ وهى مساحة كبيرة نسبيا حيث ان مجموع الأراضى الزراعية فى مراكش لا يتجاوز ٥ مليون هكتار ٠

هذا مع ملاحظة أن قدرة المستوطن على الانتاج تفوق كثيرا قدرة المالك الوطنى ٠ ومما يزيد الاستيطان الأوربى جورا ٠ أن الزراعة فى مراكش تعتمد على تنظيم دقيق لتوزيع المياه ٠ وسنرى ان كثيرا من الاضطرابات وقعت نتيجة لتحيز الادارة للملاك الفرنسيين عند توزيع المياه٠ وينتشر نظام الملكيات المتوسطة فى اراضى المستوطنين الزراعية وان كان يوجد قليل من الملكيات الكبيرة ٠

ويبرر الفرنسيون وجودهم فى مراكش ، بأنهم خلقوه سياسيا واقتصاديا ٠ فهم فى رايهم ؛ الذين اوجدوا وحدته حين جمعوا شتاتا من القبائل المتنافرة ، والغوا ما كان يعرف بأراضى السيبة ٠ وهم الذين وسعوا رقعة الاراضى المزروعة ونقبوا عن المعادن الوفيرة فى البلاد ٠ ومع التسليم بأن مملكة المغرب صارت من أوفر البلاد العربية من حيث الثروة الزراعية ، الا أن الوطنيين المغاربة قدموا الأرقام التى تثبت أن الجزء الاكبر من هذه الثروة كان يذهب الى خزائن الفرنسيين من رجال الصناعة والزراعة ٠

– ٤ –

السياسة البربرية

يقصد بهذه العبارة السياسة التى اتبعتها فرنسا فى عهد الحماية لعزل البربر عن المجتمع المراكشى ٠ وقد بنت الحماية سياستها هذه على أساس فكرة خاطئة مؤداها أن البربر لم يعتنقوا الاسلام الا ظاهريا ؛ وبالتالى فمن الانسب لهم الاعتراف بعرفهم الخاص كقانون مدنى وتطبيقه رسميا

بواسطة محاكم خاصــة . وفعلا استصدرت الاقامة العامة ظهيرا فى سبتمبر ١٩١٤ يخرج البربر من دائرة القضاء الشرعى فى الامور المدنية ويجعل مجلس الجماعة او القبيلة مختصا بنظر تلك الشئون .

ذلك ان القضاء المراكشى كان ينقسم الى قسمين : قضاء شرعى يختص بالشئون المدنية . امـا الجنايات فكانت تنظر امـام الباشا فى عواصم الاقاليم أو القواد حــكام النواحى ، وكـان أجراء أى تعديل بخصوص القضاء المدنى يعد تدخلا فى الشئون الدينية ولذلك لم تتدخل سلطات الحماية فى هذا النوع من القضاء فى انحـــاء مراكش الأخرى ؛ وانما حاولت فقط تنظيمه ، فاسست له مجلسا اعلى لمراجعة احكام القضاة . ولكن تطبيق العرف كان لا بد أن يصطدم بصــعوبات جمة ، لان الأعراف تختلف من قبيلة الى أخرى ، فلا يمكن ضبط الأحــكام هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ليس من الســهل تمييز البربر عن العرب ومعرفة الجماعات التى ينطبق عليها الظهير البربرى بدقة .

لم يثر ظهير سنة ١٩١٤ فى حينه رد فعل يذكر ، اما لان مغزاه كان محدودا أو لعدم وجود وعى كاف آنذاك . ولكن السياسة البربرية غدت فيما بعد منهجا بعيد الأهداف . وكان المقيم العام لوسيان سان محاطا بجماعة من المستشارين عرفت بالكتلة البربرية ، أى التى تدعو الى فصل البربر عن حــكومة المخزن بحجة ان الاخيرة تمثل العرب ، وترى هذا الفصل مقدمة لادماج البربر فى البيئة الفرنسية . وقد تضمنت هـذه الخطة فكرة احياء اللغة البربرية عن طريق كتابتها بحروف لاتينية ، ووضع المستشرق جود فروى دى مونبين ، مستشار التعليم فى مراكش ، مشروعا مفصــلا لهذا الغرض . وفى نفس الوقت ركز المبشرون نشاطهم فى بلاد البربر حتى صار لهم نحو ١٣٨ مركزا فى سنة ١٩٣٢ (١) .

تلك هى الظروف التى احاطت بالظهير البربرى الشهير عند صدوره سنة ١٩٣٠ فى بداية عهد السلطان محمد بن يوسف ، فكان له دوى عظيم فى العــالم الاسلامى . اذ فهم المرسوم على أنه يهدف الى تنصير جماعة من المسلمين بقوة القانون .

اما الظهير نفسه فيشمل تعديلين بخصوص قضاء البربر . وبمقتضى التعديل الأول : تعطى مجلس الجمــاعة صــفة رسمية ، فيتحول الى محكمة مدنية وسجل عرف البربر ليصبح قانونا معترفا به لتلك المحاكم.

---

(١) انظر علال الفاسى : السياسة البربرية ، القاهرة سنة ١٩٥١ .

اما التعديل الثانى : فينزع بمقتضاه اختصاص النظر فى الجنايات من قضاء القواد والباشاوات الذين يمثلون السلطان · وتنشأ محاكم جديدة فى بلاد البربر من قضاة فرنسيين لتطبيق القانون الجنائى الفرنسى فيها·

وقد لوحظ ان بعض المبشرين ، عينوا قضاة فى تلك المحاكم ، فصار ذلك حجة لدى خصوم الظهير من البربر وفى العالم الخارجى على السواء ، تشهد بأن الهدف هو تنصير البربر · ومن ثم اصطدم الظهير بمعارضة شديدة من قبائل البربر ذاتها فضلا عن رد الفعل العنيف الذى ظهر فى العالم الاسلامى عامة ·

ذلك ان البربر اذا كانوا يتمسكون بالعرف فعلا ، وكان فى عرفهم ما يتعارض أحيانا والشريعة الاسلامية ، مثل عدم توريث المرأة ، الا أنهم كانوا يفعلون ذلك بدون وعى وتلبية لروح المحافظة القوية على التقاليد · ولوجوبه البربر بأن فى تصرفاتهم خروجا على الاسلام لاحتجوا أشد الاحتجاج ·

وكان من المفروض أن يطبق الظهير على نحو مليون ونصف من أهل مراكش · ولكن عددا من القبائل مثل ايت يوسى وزمور أرسلت مندوبيها الى فاس لتعلن امام علماء القرويين انها ترغب فى البقاء تابعة للقضاء الشرعى · وبالرغم من أن الاقامة العامة اعلنت ، عند اصدار الظهير ، انها تترك للقبائل حرية العمل به أو رفضه · فقد قبض على هؤلاء المندوبين مما زاد البربر انفسهم سخطا على الظهير ·

ثم جاءت الحملة العنيفة من العالم الاسلامى لتضيف عاملا جديدا يوقف تيار السياسة البربرية · ومع ذلك لم تكف فرنسا طوال عهد الحماية عن استغلال كل مناسبة لبعث السياسة البربرية كما حدث مثلا عند ازمة العرش الأولى سنة ١٩٥١ ·

القسم الثالث

الحركات الوطنية

الفصل الخامس عشر

نشأة الحركة الوطنية في الجزائر

- ١ -

خاضت الجزائر سلسلة طويلة من الحروب لمقاومة الغزو الفرنسي ، تحت الزعامة الدينية احيانا ، كما حدث في عهد الأمير عبد القادر . او بدافع المحافظة على تراث القبيلة احيانا اخرى . فلما جثم الاستعمار بكلكله في عهد الجمهورية الثالثة ، وتحطمت اركان المجتمع القديم ، سادت الجزائر فترة من الركود .

وخلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى لم تعدم الجزائر بعض دعاة الاصلاح الذين يمكن وصفهم بأنهم انصار نهضة للاصلاح الاجتماعي والسياسي دون أن تصل دعوتهم الى مستوى الحركة الوطنية المنظمة القائمة على الوعي السياسي . وقد تاثر هؤلاء الرواد بنوع ثقافتهم فالذين تعلموا في مدارس الدولة الرسمية اصطبغوا بالصبغة الفرنسية المحضة لانهم انقطعوا تماما عن بيئتهم العربية الاسلامية سيما وان الادارة الفرنسية نقلت البرامج المتبعة في مدارس فرنسا دون تعديل او تطوير يلائم الجزائر وهذا الفريق من الشبان الجزائريين الذين اطلق عليهم اسم النخبة ، تصور ان طريق الاصلاح الوحيد هو الأخذ بالأساليب الفرنسية في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، وهذا هو السبيل الوحيد في رايهم للتحضر . أما الفريق الثاني من الاصلاحيين فيمثل البقية الباقية من الذين استطاعوا المحافظة على الاتصال بالثقافة العربية الاسلامية . من هؤلاء ابن سماية الذي اتهمه الفرنسيون بالارتباط بصلات مريبة مع الشرق ، وهو الذي استضاف الشيخ محمد عبده عند مروره بالجزائر سنة ١٩٠٣ وابن موهوب مفتي قسنطينة الذي كان يحاضر ويكتب حاثا بني وطنه على الاستفادة من تقدم أوربا ، ويرجح ان يكون هو الذي اثر (١) في الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسس جماعة العلماء .

---

(١) يأسف د. ابو القاسم سعد الله لعدم اهتمام المؤرخين بهذه الفترة وتجاهل هذه الشخصيات بخلاف زعماء فترة ما بين الحربين .
انظر كتابه القيم (الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٠٠ – ١٩٣٠ .

ويختلف الرأى حول اتجاه هذا الفريق الاخير من دعاة الاصلاح على اسس عربية اسلامية ، فالبعض يرى بمقياس الأربعينات انهم متعاونون مع الاستعمار لانهم لم يطالبوا بالاستقلال بل بالاصلاح اولا مثل الشيخ محمد عبده فى مصر ، ولكن اذا نظر اليهم بمعيار عصرهم فانهم يعتبرون روادا وسط تيارات اخرى كانت تهدد تطور الحركة الوطنية الجزائرية مثل التيار الداعى الى الاندماج فى البيئة الفرنسية • يضاف الى ذلك ان الفرنسيين المعنيين بالشئون المحلية مثل المستشرق سيرفييه كتب فى سنة ١٩١٢ يهاجم هؤلاء المحافظين الذين يعتبرون اشد خصوم فرنسا : ولا يخضعون الا امام رؤيتهم للقوة العسكرية والحضارية المتفوقة •

اما فريق النخبة فيتكون من بضع مئات من الطبقة الوسطى غالبا يشتغلون بالطب والتعليم والمحاماة ؛ أو من الجزائريين الذين التحقوا بالجيش الفرنسى واتيحت لهم فرصة الترقى ، ويرى هؤلاء انه ينبغى التمييز بين فرنسا التقدمية وبين اساليب المستوطنين العتيقة • ومع ذلك فانهم لم يحظوا بتأييد عديد من التقدميين الفرنسيين ، كما تعرضوا لنقد بنى وطنهم لقبولهم مبدأ التجنيس • وقد وصفهم جان جوريس الاشتراكى بانهم ضائعون بين حضارتين •

وكانت نقطة الضعف التى واجهت النخبة دائما هى ان المتجنس الجزائرى لا يتساوى مع الأجانب الاخرين المتجنسين مثل اليهود او المستوطنين من اصل اسبانى •

وقد نشرت النخبة ملخص مطالبها سنة ١٩١٢ وهى لا ترقى الى حد المطالبة بالمساواة التامة دفعة واحدة ، بل تطالب بالحقوق السياسية المناسبة والمساواة فى الضرائب والغاء قانون الاهالى وتشجيع هجرة العمال الجزائريين الى فرنسا حتى تتاح لتلك الطبقة فرصة الاحتكاك بالمجتمعات المتقدمة ونقل عاداتها فضلا عن رفع المستوى المادى •

نشطت النخبة فى تقديم المذكرات لدى السلطات الفرنسية ، ولم تكن هى مبتدعة هذا الأسلوب فالمذكرات الاحتجاجية بدأت مع بداية الاحتلال تقريبا بالمذكرة الشهيرة التى تقدم بها حمدان خوجه الى البرلمان • وفى عهد نابليون الثالث قدمت عرائض ضد الحكم المدنى ونظام التجنيس • وبمناسبة طرح موضوع تجنيد الجزائريين للمرة الأولى امام البرلمان الفرنسى سنة ١٨٨٧ انهالت العرائض من مختلف قطاعات الشعب الجزائرى •

ومجمل القول ان كلا من النخبة والاصلاحيين الاسلاميين اقتصر تأثيرهم

على بيئات المتفقين المحدودة . اما مسألة التجنيد فقد مست جميع فئات الشعب ولذلك اعطت حركة المعارضة دفعة جديدة . وقد بحثت قوانين تجنيد الجزائريين بصورة جدية فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب العالمية الاولى . واتفق المحافظون والنخبة على معارضتها ، كل لسبب مختلف . فالمحافظون قالوا انها تتعارض مع المشاعر الدينية ومع تعهد فرنسا سنة ١٨٣٠ باحترام الاسلام .

اما النخبة فرات ان التجنيد يقتضى مبدا المساواة فى الحقوق طالما ان الجزائريين سيؤدون مثل المواطنين الآخرين نفس الواجبات . وحتى الأعضاء الجزائريين فى مجلس الوفود المالية ، والذين اشتهروا بخضوعهم التام للفرنسيين اعترضوا على التجنيد ، واكثر ما كان يخشاه الجزائريون هو ان يستخدموا فى حرب ضد دولة اسلامية . هكذا ورد فى عريضة رفعها اهل تلمسان سنة ١٩٠٨ .

ولما فشلت جميع الجهود لمنع صدور قانون تجنيد الجزائريين سنة ١٩١٢ . لجأ بعض أهل تلمسان الى الهجرة الجماعية شطر الولايات العثمانية فى الشام ، وطالب آخرون على الاقل بتخفيض مدة الخدمة ورفع سن التجنيد وقد وعد بوانكريه بالنظر فى هذه المطالب ووعد باعفاء المجندين من الخضوع لقانون الاهالى والمحاكم الردعية واعطائهم ميزات سياسية بعد تسريحهم ، غير ان ظروف الحرب اجلت النظر فى هذه الوعود ، وكان لا بد من انتظار سنة ١٩١٩ لتطبيق أول حلقة فى الاصلاحات ، وهى اصلاحات محدودة للغاية مما سيأتى ذكره بعد قليل .

وخلاصة القول ان وجود حركة وطنية بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة تأخرت فى الجزائر عنه فى تونس فضلا عن اقطار المشرق العربى ، ويرجع ذلك الى اسباب سياسية منها عزلة الجزائر وراء ستار حديدى ضربه الفرنسيون حول المستعمرة ، ومنها عدم معرفة الجزائريين حينذاك بالتنظيم السياسى والظن بأن فرنسا لا تقهر ؛ ومنها تحطم اركان المجتمع القديم وانزواء الثقافة العربية الاسلامية . وكل ما وقع قبل الحرب لم يتعد بعض المظاهرات المتناثرة احتجاجا على التجنيد : وستزيل ظروف الحرب بعض هذه العوائق .

- ٢ -

اثر الحرب العالمية الاولى

وقع الجزائريون فى المحظور . اذ خاضت فرنسا الحرب العالمية

الأولى . وكانت الدولة العثمانية فى المعسكر المعادى . فى حين أن بعض (١) الزعماء الجزائريين تأثر قبل الحرب بدعوى الجامعة الاسلامية ، وعلق الأمل على الباب العالى مثل بعض الوطنيين فى مصر وتونس لتخليصه من الاستعمار الأوربى ، ولم تفوت المانيا او حكومة اسطنبول استغلال المشاعر الاسلامية فضربت بارجتان المانيتان ميناثى سككدة وعنابة فى اكتوبر سنة ١٩١٤ ولعل من بين أهدافها ايقاظ المقاومة على غرار ثورة المقرانى سنة ١٨٧١ ، ومن المؤكد انها توقعت قيام ثورة عامة . وذكرت اجهزة الدعاية الالمانية أن القيصر ولهلم الثانى هو حامى الاسلام بدليل دفاعه عن استقلال سلطان مراكش .

اما العثمانيون فقد حاولوا التأثير على الجزائريين بوسائل شتى منها اصدار فتوى بعدم جواز الحرب ضد المسلمين ، منع الفرنسيون وصولها الى البلاد . ومنها ارسال سليمان باشا البارونى الى طرابلس لاثارة المسلمين فى شمال افريقيا ضد فرنسا ، كما استخدمت الطريقة السنوسية ذات الصلات الطيبة بالعثمانيين للتأثير على اهالى الصحراء الكبرى الذين وصلتهم الدعوة السنوسية . ومن هذه الوسائل تعيين المثقفين الجزائريين فى مناصب هامة . فالأمير على الجزائرى صار نائبا لرئيس المبعوثان ، وهو من نسل الأمير عبد القادر . وكانت عائلة الأمير قد اتسعت وقدر افرادها بثلاثة آلاف فتسابق المعسكران على كسب ودهم . وبينما استقطب الفرنسيون عمر باشا بالاضافة الى خالد محيى الدين الكولونيل بالجيش الفرنسى ، شجع الالمان عبد الملك على القيام بثورة فى شرق مراكش . وقد تكونت لجان فى برلين وجنيف واسطنبول وكلها تدعو الى تحرير شمال افريقيا . وقد ساعدت تلك اللجان على فرار بعض المجندين الجزائريين وسلحت الأسرى واستطاع بعضهم التسلل الى الجزائر والاشتراك فى الثورات التى وقعت احتجاجا على التجنيد .

لم تشكل هذه الثورات خطرا محسوسا ؛ وتركزت فى شمال الاوراس سنة ١٩١٦ ومع ذلك فان المصادر(٢) الفرنسية تقلل من شأنها وتتحدث على العكس غالبا عن ولاء الجزائريين وخدماتهم بالجيش وتبرع اغنيائهم بالأموال لفرنسا ، بيد انه ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار عوامل أخرى دفعت الجزائريين الى قبول الخدمة العسكرية : منها انخفاض مستوى المعيشة واحتراف الكثيرين من قبل العمل فى فرقة القناصة الجزائريين التى اشتهرت بحروبها فى افريقيا . يضاف الى ذلك تشجيع بعض رجال النخبة .

---

(١) علال الفاسى : الحركات الاستقلالية فى شمال افريقيا ص ٨١ .
(2) Hantaux V. 2.

اما حجم المحاربين في الجيش الفرنسي فتختلف حـــوله الارقام . فتقدر الاحصاءات الفرنسية المجندين بـ ١٨٣ الف والعاملين فى المصانع الحربية بـ ١١٩ الف بينما يذكر الكاتب الجزائرى (١) احمد توفيق المدنى ان عدد المجندين وصل الى اربعمائةالف وزاد عن ذلك عدد العاملين فى المصانع الحربية .

يتضح مما سبق ان الحرب افادت الحركة الوطنية الجزائرية من عدة وجوه ، فهى أخرجتها عن العزلة ووصل الى الجزائر صدى ثورة ١٩١٧ البلشفية من جهة ومبادىء ولسن من جهة اخرى . واتيح لمئات الالاف من الجنود والعمال ان يروا طرق الحياة الجديدة ، وان يشهدوا مظاهر الحرية فى فرنسا واضحى بوسع زعمائهم أن يطالبوا بالمكافاة على التضـــحيات الهائلة التى تتمثل فى ٥٦ الف قتيل . ٨٢ الف جريح من الجزائريين سقطوا اثناء القتال .

علق الضباط الجزائريون بعد الحرب الامل على مؤتمر فرساى ، كي يلزم فرنسا بتطبيق مبادىء المساواة . ولكن الحكومة احالت الامير خالد على التقاعد ، فرجع الى الجزائر ليكون ما اسماه ، كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين ؛ وهم اعضاء المجالس البلدية الذين استفادوا من التشريع الفرنسى الصادر سنة ١٩١٩ والذى وسع دائرة تمثيل الجزائريين فى هذه المجالس .

ولذلك ركزت الكتلة اهدافها فى اصلاح احوال الجزائريين الاجتماعية. ومن اهم وسائلها ، ايقاف هجرة المستوطنين . اما فى ميدان السياسة فهى تطالب بمساواة الجزائريين بالفرنسيين فى حق الانتخاب والتمثيل فى المجالس على مختلف المستويات مع الاحتفاظ بالشخصية الجزائرية واصدرت الكتلة جريدة الاقدام لتكون لسان حالها .

ورغم اعتدال هذه المطالب اعتدالا تاما من وجهة النظر الفرنسية ، الا ان المستوطنين لم يستسيغوا قط فكرة المساواة لانها تتعارض ومبدا التفوق العنصرى . والظاهر ان الفظائع التى لا بست حرب الاخضاع مدة ٤٠ عاما . قد تركت آثارا عميقة استمرت تباعد بين العنصرين من الناحية العاطفية . وكان مصير الامير خالد هو الطرد والهجرة الى مصر . فلما تولت الحكم فى فرنسا الوزارة اليسارية برئاسة هريو فى نهاية سنة ١٩٢٤ . سمح له بالعودة الى فرنسا . وهناك اتيح له الاتصال بالوطنيين

---

(١) المدنى : هذه هى الجزائر ص ١٦١ .

الجزائريين والمراكشيين ـ نفرس فكرة العمل المشترك بين اجزاء المغرب ٠ تلك الفكرة التي سيسير عليها مصالي الحاج في بداية نضاله ،

واشترك الأمير خالد في أول مؤتمر مغربي من نوعه انعقد في باريس للنظر في احوال المغرب السياسية والاقتصادية والنقابية ٠ وكان من بين اعماله ارسال برقية تايد الى الأمير الخطابي ومناضلي الريف المراكشي ٠ وعندما عاد الى مقره بالاسكندرية اتهمته السلطات الفرنسية بالتعاون مع الخطابي وطالبت بتسليمه ٠ وتدخل الانجليز حتى سلمته الحكومة المصرية الى قنصلية فرنسا ، وانتهى به الامر الى الاعتقال في سوريا الى أن توفى بها سنة ١٩٣٦ ٠

لم تعش حركة الأمير خالد طويلا حتى تحدد اهدافها ٠ وفي الفترة التالية انقسم الوطنيون الجزائريون الى فريقين : انصار الادماج ، والحركة العمالية في فرنسا ٠ وقد ايد اليسار المتطرف ، وحده فكرة الادماج ٠ ودعا نوابه في البرلمان الى ان الجزائريين بما بذلوه من تضحيات في الحرب يستحقون تسويتهم بالمستوطنين ٠ او بعبارة اخرى منحهم حق المواطنة الفرنسية ٠ الا انهم لم يكونوا سوى اقلية ٠

وكانت عدة مشروعات قد طرحت امام البرلمان الفرنسي اثناء الحرب وكلها تهدف الى تخفيف النظام الاستعماري القائم على التميز العنصري وتوسيع دائرة الحقوق السياسية لعدد اكبر من الجزائريين في اطار المؤسسات الفرنسية ٠ وظل البرلمان الفرنسي يسوف في المصادقة على هذه الاصلاحات حتى انتهت الحرب وقلت الحاجة الى المجندين الجزائريين فجاء أصلاح ٤ فبراير سنة ١٩١٩ متضمنا شروطا ادنى من المشروعات السابقة ٠ وهو ينطلق من المبدا الخاطىء القائل بأن الهدف النهائي للاصلاح هو تحقيق المساواة السياسية بين العنصرين ، وان توسيع دائرة الانتخاب هو مرحلة اولى في هذا السبيل ٠

وحسب هذا الاصلاح لم يعد التجنيس ، اى التخلي عن قانون الاحوال الشخصية الاسلامي هو السبيل الوحيد لاكتساب الحقوق السياسية ـ بل فتح الباب لفئات اخرى محدودة طبقا لشروط معينة كالمعرفة بالقراءة والكتابة والاقامة في فرنسا (١) ٠ مدة سنتين ٠ ولو طبق هذا الاصلاح بدقة لاكتسب نحو اربعمائة الف جزائري حق الانتخاب بدلا من خمسة عشر الفا ٠ الا ان المستوطنين وضعوا العراقيل في سبيل

---

(1) Piquet,les reforms en Algerie et le statut des indigenes 1919

تطبيقه . واحتجوا بصفة خاصـــة على امكانية تعيين رؤساء بلديات من الجزائريين حيث يشكل هؤلاء فى بعض الحالات اغلبية اعضاء المجالس . وسوف تستجيب الحكومة الفرنسية بالفعل لهذا الضغط فتحذف البند الخاص برؤساء البلديات فى سنة ١٩٢١ .

واخيرا فان اصلاح سنة ١٩١٩ خلا من أهم المقترحات التى طالب بها الجزائريون وهى الغاء قانون الأهالى . ذلك القانون الذى يضرب بمبـــدأ المساواة عرض الحائط . ولذلك لم يرض اصلاح سنة ١٩١٩ احدا بمـــا فى ذلك انصار الادماج . أو الذين طالبوا بالتطوير فى اطار الشـــخصية الجزائرية المنفصلة ، كما لم يرض المستوطنين .

- ٣ -

انصار الادماج

لقد دعت كتلة المنتخبين الجزائريين بزعامة الامير خالد محيى الدين الى تطور الجزائر نحو المساواة فى الأمور السياسية مع التسليم بأن للبلاد شخصية مستقلة فى المجال الثقافى والاجتماعى ويجب مراعاة ذلك عنـد ادخال الاصلاحات المنشودة . وهم يختلفون فى هذه النظرة عن فريق آخر من الجزائريين الذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية ، وراوا ان المثل الأعلى هو ذوبان الجزائر اجتماعيا وثقافيا فى الوطن الفرنسى ؛ وان هذا الاندماج هو السبيل الى تحقيق المساواة السياسية . واشتهر من هؤلاء فى فترة ما بين الحربين الصيدلى فرحات عباس ، والطبيبان ابن جلول والاخضرى .

وكان معظم هؤلاء اعضاء فى المجالس البلدية او مجلس الوفود المالية ، او موظفين لدى الادارة .

وقد الفوا اتحادا سموه اتحاد المنتخبين المسلمين سنة ١٩٣٠ بزعامة ابن جلول الذى كان يراس جماعة قسنطينة . وكان الهدف الأساسى لهذا الاتحاد المختلف الاشكال والصور : الادماج التدريجى تحت قيادة النخبة المختارة من المثقفين Les Evolués فى الحياة الفرنسية وتحسين احوال جميع الجزائريين . وقد اشتهر فرحات عباس بالمقالات التى كان ينشرها للتعبير عن هذا الاتحاد ، ويقارن فيها بين فرنسا الخيرة التى ارادت نشر التقدم والرخاء والحضارة بينما أراد المستوطنون البؤس والجهل (١) .

---

(١) جمعت هذه المقالات ونشرت سنة ١٩٣١ باسم Le jeune algerien

وفى سنة ١٩٣٥ القى فرحات عباس خطابا باسم الاتحاد . بحضور وزير الداخلية الفرنسى الذى كان يزور الجزائر آنذاك فقال : « لم يبق هناك شىء فى هذه البلاد الا الاتفاق على سياسة الادماج وذوبان العنصر المحلى فى المجتمع الفرنسى » . واوضح موقفه بصورة اكثر جلاء فى العام التالى عندما نشر مقالا شهيرا فى جريدة الانتنت L'éntente فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٦ حيث يقول : « نحن الاصدقاء السياسيين للدكتور ابن جلول . كان يمكننا ان نكون من القوميين . وهذا الاتهام ليس بالشىء الجديد ، فقد تحدثت الى شخصيات متعددة حول هذا الموضوع . اما رأيى فمعروف . فالاحساس القومى هو ذلك الشعور الذى يدفع بشعب الى العيش داخل حدوده الاقليمية ، بل هو الشعور الذى خلق هذا العدد من الأمم . ولو كنت قد اكتشفت الأمة الجزائرية لغدوت انسانا قوميا ، ولن اخجل آنذاك من الجريمة فالرجال الذين يموتون دفاعا عن فكرة وطنية يجلون ويحترمون ابلغ الاحترام . وليست حياتى باغلى واثمن من حياتهم . ولكننى مع ذلك لن اموت دفاعا عن الوطن الجزائرى لأن هــــذا الوطن غير موجود . ولم استطع ان اكتشفه . وقد سألت التاريخ وسألت الأحياء والأموات ، وزرت المقابر ، ولم يحدثنى احد عن هذا الوطن . وليس فى وسع انسان أن يقيم بناءا على الرياح (١) .

. وقد بددنا مرة والى الأبد : جميع الضباب والخيالات ، لنربط الى الأبد بين مستقبلنا وما تحققه فرنسا فى هذه البلاد .. ولا أرى انسان يؤمن ايمانا جديا بقوميتنا اما ما نريد ان نحارب من اجله ، فهو تحررن السياسى والاقتصادى .. فبدون هذا التحرر للمواطن الجزائرى لن تكون جزائر فرنسية ، تبقى الى الأبد » .

وقد ايدت جميع الشخصيات التى اشتركت فى تاليف هذا الاتحاد . مشروع الادماج وتوسيع باب التمثيل أمام الجزائريين . وحظيت بتشجيع كبير من الجبهة الشعبية الفرنسية (٢) فى عام ١٩٣٦ . وايدوا المشروع الذى وضعه رئيس الوزراء بلوم مع الوزير فيولت . وهو يقضى بمنح الجزائريين تدريجيا حق المواطنة الفرنسية . على ان تكون هناك احتياطات لمنع حصولهم على الأغلبية فى المجالس عندما يتم تحويل العدد الأكبر منهم . وذلك بقصر الحقوق السياسية على من تتوفر فيه شروط ثقافية واجتماعية معينة .

---

(1) Julien : L'afrique du nord en marche, P. 110.

(٢) اصطلح الساسة فى غرب اوروبا على تسمية ائتلاف الأحزاب اليسارية ، وخاصة بين الاشتراكيين والشيوعيين ، بالجبهة الشعبية . وقد تألفت حكومة الجبهة الشعبية فى فرنسا برئاسة الزعيم الاشتراكى ليون بلوم فى يونيو ١٩٣٦ .

ورغم هذا المشروع المحدود ، فقد رفضه البرلمان بعد سقوط حكومة بلوم ، ورأى فيه ساهلا كبيرا بالنسبة للجزائريين ، وكان لهذا الموقف رد فعل عنيف لدى انصار الادماج ، فهاجم الدكتور ابن جلول في سنه ١٩٣٧ الادارة الفرنسية هجوما عنيفا : ودعا جميع المنتخبين الجزائريين الى الاستقالة اذا لم يتم الاقتراع على مشروع بلوم ــ فيوليت ، ولبى نحو ثلاثة آلاف جزائرى فى منطقة قسنطينة النداء ، فغادروا مكاتبهم ، ولكن الاستجابة كانت ضعيفة فى المناطق الاخرى وعاد المنتخبون الجزائريون الى مراكزهم فى يناير ١٩٣٨ بعد أن تلقوا تاكيدات بان اقتراحات بلوم ــ فيوليت ستبحث فى البرلمان الفرنسى ، ولكن فرص النجاح زالت بتعاقب حكومات يمينية ، ومن هنا قام الادماجيون بمحاولة للتكتل مع الاتجاهات الأخرى ،

ذلك ان دعوة الادماج كانت محصورة فى بيئات محدودة ، ومنذ اواسط العشرينات التف الجزائريون حول الحركة الوطنية التى تزعمها مصالى الحاج ، وقبل ان نتتبع نشأة تلك الحركة لا بد وأن نشير الى هيئة اخرى كان لها اثر كبير على توجيه الفكرة القومية عند الجزائريين فى هذه المرحلة من تكوينها ،

- ٤ -

جماعة العلماء الجزائريين

لقد نشأت هذه الجماعة أصلا لأغراض دينية ، وبقصد المحافظة على الثقافة العربية ، ولكن نظرا لما أصاب بعض المثقفين من تشكك فى فكرة القومية الجزائرية كما رأينا ؛ فقد كان لظهور هذه الجماعة اثر هام فى ارساء القواعد النظرية السليمة لفكرة القومية ، ذلك أن محاولة القضاء على التعليم الوطنى فى الجزائر جعل الثقافة العربية مقصورة على رجال الدين وحدهم تقريبا ، لذلك كانوا أقدر من غيرهم على اثبات صفة الجزائر العربية الإسلامية ،

وفى سنة ١٩٢٦ أسس بعض العلماء نادى الترقى فى مدينة الجزائر ؛ لأغراض ثقافية محضة ، القصد منها احياء التراث العربى ، الا أن جهود العلماء انصبت على مسألة دينية هامة ، وهى المحافظة على طهر العقيدة الاسلامية من الشوائب والبدع الدخيلة (١) ،

---

(١) المصدر ص ١٦٥ ،

وكان الاسلام فى شمال افريقية يعانى بصفة خاصه من انتشار تلك البدع التى روجت لها الطرق الصوفية ذات النفوذ فى المنطقه · ومن هنا اعتبرت حركة العلماء الجزائريين حركة من حركات الاحياء السلفى التى انتشرت فى المشرق منذ قيام الحركة الوهابية فى بلاد العرب ·

وفعلا كان لكثير من اعضاء تلك الجماعة اتصالات بالحركات الاصلاحية فى المشرق · وبعضهم مثل الطيب العقبى تلقى تعليمه فى الحجاز ، فاتيح له الاتصال مباشرة بالحركة السلفية ، وعمل زمنا مع عبد العزيز آل سعود · كذلك تلقى الشيخ بشير الابراهيمى دراسته الدينية فى دمشق · وكان لكتابات الشيخ محمد عبده ورشيد رضا تاثير كبير فى توجيه افكارهم (١) ·

وقد اسس العلماء الجزائريون جمعية رسمية فى سنة ١٩٣١ لخدمة هذه الأغراض الدينية · وكان يراسها عبد الحميد بن باديس ، من خريجى جامع الزيتونة ومن اهالى قسنطينة ، ولذا كان هذا الاقليم هو حصن الجماعة ، بينما عمل الطيب العقبى على نشر افكارهم فى اقليم الجزائر · والشيخ بشير الابراهيمى فى وهران · واصبح هذا الأخير رئيسا للجماعة بعد وفاة مؤسسها ١٩٤٠ ·

على ان الجمعية ما ابثت ان وجدت نفسها ، بحكم السياسة الاستعمارية التى تدخلت فى كل شأن من شئون الجزائر ، مضطرة الى الخروج عن برنامجها الدينى البحث والخوض فى مسائل سياسية · ذلك أن السلطات الفرنسية قد اصيبت بالذعر حين لاحظت النفوذ المتزايد الذى تكسبه الجماعة بفضل انتشار مدارسها الحرة وخطبائها فى المساجد · فاصدرت منشورا سنة ١٩٣٣ عرف بمنشور ديميشيل يندد « بهؤلاء الوهابيين الخارجين عن الدين » ويطالب المؤمنين بعدم الاستماع اليهم الصلاة خلفهم ·

وقد اتى تدخل الفرنسيين فى ادق الشئون الدينية بعكس النتيجة المرجوة ، فازدادت هيبة العلماء فى نفوس الوطنيين · وحاولت الادارة الفرنسية أن تجابه نفوذهم بتأليف لجان استشارية فى كل مقاطعة · وصدرت مراسيم عدة تعطى للموظفين الدينيين ، الذين عينتهم الادارة ،

---

(١) يمكن التعرف على الاراء الدينية المحضة لهذه الجماعة من كتاب مبارك الميلى ــ مظاهر الشرك ــ الجزائر سنة ١٩٣٧ · وكان هذا المؤلف من اوائل الذين حاولوا كتابة تاريخ قومى للجزائر فى العصر الحديث . انظر كتاب « الجزائر فى القديم والحديث » ·

احتكار الوعظ والارشاد فى المساجد . كما صدر مرسوم بتعيين شخص فرنسى رئيسا لمجلس الاستشارى الاسلامى .

ومن ابرز المسائل التى ادت الى الاحتكاك بين جماعة العلماء والسلطات الادارية ، موقفها من سياسة الادماج ، وقد عرفت الجماعة كيف تصرف الجزائريين عن مناصرتها أو الخضوع لها ، وذلك باتباع وسيلتين :

اولا : اقناع الجزائريين بأن التخلى عن قانون الاحوال الشخصية الاسلامى الذى يستلزمه الحصول على حق المواطن الفرنسى يعنى الارتداد عن الدين الاسلامى نفسه . وبالتالى يجب أن يحرم المتجنس من الصلاة عليه أو دفنه فى مقابر المسلمين .

ثانيا : اهتم العلماء بابراز معالم القومية الجزائرية ، فللجزائر ثقافة متميزة هى الثقافة العربية الاسلامية ، وبالتالى فان الجزائر ترتبط روحيا وتاريخيا بالعالم العربى ولها تاريخ قومى ، ويتضح ذلك بصورة خاصة من الحقبة التى ظهرت فيها الجزائر ، كقوة بحرية هائلة فى البحر المتوسط . اى من القرن السادس عشر الى الثامن عشر ويسمى المؤرخون القوميون هذه الحقبة بعصر الجمهورية الجزائرية المستقلة ؛ حتى يثبتوا صفتها الدولية قبل الاحتلال الفرنسى .

واصدر العلماء مجلتين باللغة العربية : الشهاب ، ثم البصائر . وكانت الشهاب تصدر قبل تكوين الجماعة رسميا وانتشرت فى جميع انحاء المغرب . وفى ابريل ١٩٣٦ كتب ابن باديس فى الشهاب يرد على مقالة فرحات عباس التى نقلنا نصها آنفا (١) .

« اننا نرى ان الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر امم الارض ، وهى لا تزال حية ولم تزل . ولهذه الامة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقيمة كمثل سائر امم الدنيا . وهذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا ولا تريد ان تصبح هى فرنسا . ومن المستحيل أن تصبح هى فرنسا حتى ولو جنسوها » .

وهاجم فى سنة ١٩٣٨ سياسة التجنيس وكتب يقول :

« ان التجنيس الذى هو فى الحقيقة اختيار جنسية غير اسلامية

---

(١) العاشى ص ١٧ .

المسلمين ، ينطوى على التنكر للشرائع المقدســة التى تنظم شئون حياة المسلمين وتضع لهم قوانين دنيوية وبشرية » .. ثم انتهى الى القول .

« ستكون الثمرة لدعايتنا انهاء عهد سياسة الادماج التى يسير عليها بطريقة معيبة بعض الموظفين الذين يؤثرون الاضرار بالعروبة والاســلام ارضاء للسلطات الفرنسية . وستؤدى دعايتنا الى الانتهاء من ذلك الادماج الروحى ، الممثل فى بعض الاشخاص المتفرنسين الذين يجهلون مالمنصرهم من نبل وعراقة ... ويتزيون بأزياء الغرب ، بحيث يصعب التمييز بينهم وبين سادتهم المستعمرين » .

ولكى يتمكن العلماء من القيام باصــلاحاتهم ، اســسوا جمعيات وحلقات دراسية ، بعضها فى فرنسا ذاتها بين العمال ، كما انشاوا مساجد خاصة . ولعل اهم ما اقاموه ايضا مدارس ابتدائية لتعليم القرآن واعطاء الدروس فى مختلف المدن عن الشريعة الاسلامية والأحكام والتاريخ ، مع تدريس أصول العربية وقواعدها ، وشجعوا طلابهم على الارتحال فى طلب العــلم ، الى جامع الزيتونة والجامع الأزهر وغيرهما من الجامعات فى الوطن العربى طلبا للدراسات العليا .

وكان الأطفال فى المدارس الابتدائية التى اقامها العلماء ، يستهلون يومهم بنشيد :

شــعب الجــزائر مســـلم
والى العـــروبة ينتســب

وطلب العلماء أن يسمح لهم بالوعظ والارشاد أسوة بالمشايخ الذين عينتهم السلطات الفرنسية . وكان هدفهم الاساسى ، الفصل التام بين المؤسسات الاسلامية واشراف الدولة الفرنسية .

ولكن الجماعة كهيئة قائمة بذاتها اضمحلت بعد وفاة ابن باديس وان استمر اعضاؤها على اتصال بالأحــزاب الوطنية المختلفة بعد أن ابتعدت جميعا عن التفرنس وطرحت الادماج جانبا .

نجمة شمال افريقيا وحزب الشعب الجزائرى

قد يبدو غريبا ان تنشــأ اول حركة وطنية جزائرية مناضلة على ارض فرنسا ذاتها . وتفسير ذلك هو ان العيش قد ضـاق بكثير من الجزائريين فى بلادهم ، فراحوا يبحثون عن العمل فى مصانع فرنسا ومناجمها . وتكونت بذلك فى اوائل العشرينات ، طبقة عمالية كبيرة العدد فى مختلف المدن الفرنسية : فبلغ عدد النازحين فى سنة ١٩٢٤ وحدها مائة الف . وان كانت هذه الهجرة غير ثابتة ، لأن حركة العودة الى الجزائر كانت مستمرة ، ولكن عدد المهاجرين ظل فى تزايد مطرد .

وبالرغم من أن معظم هؤلاء كان يشتغل بأعمال غير فنية ، وتقـل اجورهم عن اجور اقرانهم من الفرنسيين ، فان احـوالهم المادية كانت افضل من مواطنيهم فى الجزائر : الذين يعانون من البطالة او يعملون فى مزارع المستوطنين . فأضاف هذا عاملا جديدا لمساعدة مصالى الحاج . اما العامل الثالث فهو سهولة التكتل فى الطبقة العمالية ، وسبب رابع هـو شعور الجزائريين بحريات أوسع فى الأراضى الفرنسية .

وكان بين هؤلاء المهاجرين شاب يدعى مصالى أحمد بن الحاج ، الذى أصبح فيما بعد يسمى (أبو الوطنية الجزائرية) ولد مصالى سنة ١٨٩٨ فى تلمسان : عن والد فقير كان صانعا للاحذية . فلم تتح له فرصة التعليم الا بصورة محدودة . قاتل فى الحرب العالمية الأولى فى صفوف الجيش الفرنسى ، ثم عاد الى الجزائر سنة ١٩٢١ .

ولما عجز عن أن يجد عملا له فى بلاده : عاد الى فرنسا سنة ١٩٢٣ حيث عمل فى عدد من مصانع باريس كما عمل بائعا متجولا . وواظب على تلقى الدروس فى معهد الدراسات الشرقية ؛ كما حضر محاضرات عدة فى جامعة بوردو . وعاش كغيره من العمال الجـزائريين حياة الكفاف وفى أوضاع شاقة ، واتصل بالطبقات العاملة الفرنسية . وسرعان ما انضم الى الحزب الشيوعى ، ثم تزوج من احدى اعضاء الحزب الشيوعى .

ومن العمل فى الخلايا الشيوعية عرف مصالى وسائل التنظيم الحزبى الدقيق الذى اشتهر به الشيوعيون . وقد افاده هذا عندما شرع فى تنظيم الحركة الوطنية .

---

(1) Rager : Les Muslmans Algeriens en France

وقام مصالى الحاج فى عام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ بتأسيس هيئة النجمة لشمال افريقيا وجعل غايته الدفاع عن مصالح مسلمى شمال افريقيا من النواحى المادية والمعنوية . واصبح فى سنة ١٩٢٧ رئيسا لهذه الهيئة . وشرع منذ ذلك التاريخ يضعف تدريجيا من ارتباطاته السابقة مع الحزب الشيوعى ، حتى انتهى به الأمر الى الدخول فى صراع معه . وقد ثبت أن الشيوعيين الفرنسيين فى ذلك الوقت لم يتخلصوا تماما من الروح العنصرية عند معاملتهم للجزائريين .

واراد مصالى الحاج أن يجعل من النجمة حركة للشمال الافريقى باكمله ، فطالب بالاستقلال لاقطاره الثلاثة . وقد قدر لهذه الفكرة أن تظهر اكثر من مرة فى سير الحركة الوطنية الجزائرية .

وسرعان ما سيطر العمال الجزائريون على النجمة ، واتجه اهتمام اخوانهم التونسيين المراكشيين الى الأحداث الداخلية فى بلادهم . وباستثناء الهدف العام فى الحصول على الاستقلال ، فقد كانت للمناضلين الأوائل فى النجمة عقائد يشوبها الغموض ، وصفت بأنها تجمع بين الشعارات الماركسية ، والوطنية الجزائرية العاطفية ، والتمسك بفكرة التضامن الاسلامى .

وحلت الحكومة الفرنسية النجمة سنة ١٩٢٩ وانتقل عدد كبير من أعضائها الى الحركة السرية ، معززين بذلك الجهاز التنظيمى الشيوعى الذى كانوا قد انقسموا اليه فى البداية . وفى نفس الوقت تأسس حزب جديد باسم النجم الثاقب ، كان أعضاؤه يصدرون جريدة الأمة فى اوقات غير منتظمة ، ولكنهم تعرضوا ، مثل النجمة ، دائما لاجراءات العنف .

وعادت النجمة الى الظهور من جديد سنة ١٩٣٣ . وعقدت مؤتمرا عاما وهاما فى فرنسا . وقد تمكن مصالى وانصاره من حمل المؤتمر على استصدار شبه ميثاق يتضمن الاجراءات التى يجب اتخاذها قبل الاستقلال وبعده . وقد طالب القسم الأول من البرنامج بالآتى :

١ ـ الغاء جميع القوانين الاستثنائية ، وفى مقدمتها قانون الأهالى .

٢ ـ العفو عن جميع المسجونين السياسيين .

٣ ـ حرية التنقل فى فرنسا وخارجها .

٤ ـ حرية الصحافة والاجتماع وتأليف الأحزاب ونقابات العمال .

٥ ـ الاستعاضة عن اللجان المالية ببرلمان جزائرى منتخب على أساس الاقتراع العام .

٦ ـ الغاء المجالس البلدية والقروية المختلطة والمناطق العسكرية المحظورة ٠
٧ ـ المساواة فى توظيف الجزائريين والمستوطنين ٠
٨ ـ فرض التعليم الالزامى باللغة العربية وافساح المجال للطلاب لدخول المدارس على جميع المستويات ٠ وجعل اللغة العربية رسمية فى الدوائر الحكومية ٠
٩ ـ تطبيق قوانين العمل على الجزائريين بما فى ذلك حق التعويض على البطالة ٠
١٠ ـ زيادة القروض الزراعية الى صغار المزارعين الجزائريين وتنظيم وسائل الرى وتحسين طرق المواصلات ٠

اما الشطر الثانى من القرارات فنص على المطالبة بالاستقلال الكامل وسحب القوات الفرنسية من البلاد ، وتأليف جيش وطنى ، وقيام حكومة ثورية وطنية تتولى تنفيذ الاجراءات التالية :

١ ـ ايجاد جمعية تاسيسية تنتخب على اساس الاقتراع العام ٠
٢ ـ الاقتراع العام على جميع المستويات لجميع المجالس ٠
٣ ـ استخدام اللغة العربية كلغة رسمية ٠
٤ ـ تملك الدولة الجزائرية لجميع الممتلكات بما فيها المصارف والمناجم والسكك الحديدية ، والموانى والمرافق العامة ٠
٥ ـ مصادرة الاملاك الكبيرة واعادتها الى الفلاحين ، مع اعادة املاك الدولة والغابات الى الجزائريين ٠
٦ ـ التعليم الالزامى المجانى باللغة العربية على جميع المستويات ٠
٧ ـ اعتراف الدولة الجزائرية بحق النقابات فى تأليف الاتحادات والأحزاب وابداء الآراء فى القوانين الاجتماعية ٠
٨ ـ مساعدة المزارعين فورا عن طريق تقديم القروض اليهم بلا فائدة لشراء الآلات والبذور والسماد ، وتنظيم وسائل الرى وتحسين طرق المواصلات (١) ٠

ومن هذه القرارات يتضح أن نجمة شمال افريقيا قد اتخذت منذ البداية مبادىء ثورية شاملة فى الميدانين السياسي والاجتماعى ، وانها بحكم نشاتها العمالية سبقت الحركات الوطنية فى البلاد العربية الأخرى فى ربط التحرر السياسى بالاصلاح الاجتماعى ٠

---

(١) وردت جميع هذه المطالب فى النشرة الصادرة فى ١١ مارس ١٩٥٠ لمجلة الجزائر الحرة ـ وهى لسان حال حركة انتصار الحريات الديمقراطية التى خلفت النجمة ٠

وبينما اقتصر نشاط النجمة بصورة رئيسية على فرنسا . فقد اقامت اتصالات لها مع تونس ومراكش وغيرهما من البلدان الاسلامية والعربية . وشهد مصالى الحاج فى سنة ١٩٢٧ مؤتمر مناهضة الاستعمار الذى عقد فى بلجيكا . وبعث فى سنة ١٩٣٠ بمذكرة الى عصبة الامم يناشدها عونها فى تحقيق مطالب النجمة .

وفى سنة ١٩٣٤ اعاد مصالى الحاج تكوين النجمة باسم جديد هو الاتحاد الوطنى لمسلمى شمال افريقيا . لكن هذا لم يغير من موقف السلطات الفرنسية ، التى اعتبرت هذه الهيئات غير مشروعة ، فحوكم مصالى وسجن . الا ان انصاره رفعوا قضية امام محكمة النقض والابرام . فقضت بالافراج عنه باعتبار ان منظمته هيئة نقابية ، وذلك فى العام التالى

ساهم مصالى الحاج مع اليساريين الفرنسيين فى الحملة ضد العدوان الايطالى على الحبشة . ولكن لكونه جزائريا هدد مرة اخرى بالاعتقال . فسارع بالخروج الى سويسرا حيث قضى ستة اشهر فى حالة نفى اختيارى .

وفى جنيف اتصل برائد من رواد الحركة العربية هو الامير شكيب ارسلان ، الذى كان له تاثير كبير على زعماء المغرب ، كما سنرى عند الحديث عن الحركة القومية فى مراكش . وادى هذا الاتصال الى تحول مصالى من صورته الشيوعية الفرنسية الى مظهره العربى الاسلامى . واثر الامير شكيب على مصالى فحمله على معارضة اقترحات بلوم ـ فيوليت ، وعلى نقل نشاطه الى داخل الجزائر .

وسمح قيام حكومة الجبهة الشعبية فى فرنسا بعودة مصالى الى باريس ، حيث استانف نشاطه السياسى .

ودخل مصالى والنجمة الى الجزائر نفسها لاول مرة فى اغسطس ١٩٣٦ . وعقد اجتماعا عاما فى الملعب البلدى بالعاصمة بحضور نحو من عشرة آلاف وطنى . وقام مصالى بعد ذلك بجولة فى انحاء البلاد ، وذكرت النجمة فى هذه الآونة أن عضويتها تضم ١١٠٠٠ شخص ، نظموا فى سبعة فروع فى فرنسا ، وفى نحو ثلاثين فرعا تم تاسيسها اخيرا فى الجزائر . واضيف ٣١ فرعا اخرى اثناء الجولة التى قام بها مصالى فى انحاء البلاد .

وادرك الحزب الشيوعى أن وجود النجمة ينتزع منه معظم اعضائه الجزائريين فتحول الى خصم الد . وانتهى الأمر الى ان حكومة الجبهة

الشعبية التى رحب بها كثير من الشباب الجزائرى ، جاء على يدها الحل النهائى للنجمة فى ٢ يناير ١٩٣٧ .

وفى كل مرة تحل فيها المنظمة التى براسها مصالى الحاج ، يعود الى تشكيلها باسم جديد ، مستندا الى مبدا حرية تكوين الاحزاب . وفى مارس ١٩٣٧ تاسس حزب الشعب الجزائرى فى فرنسا . ويتضح من الاسم الجديد كيف تحول مصالى عن فكرة النضال على مستوى مغربى عام ويبدو أن التونسيين والمراكشيين قد انصرفوا عن الانخراط فى سلك النجمة ، وفضلوا العمل على مستوى اقليمى خشية أن ترتبط بلادهم بمشكلة الجزائر الأكثر تعقيدا .

وخاض انصار حزب الشعب الانتخابات البلدية فى الجزائر سنة ١٩٣٧ . واظهروا اثناء الحملة الانتخابية روح النضال الشديد التى تميز بها الحزب . ومن ثم تقرر اعتقال زعمائه ومحاكمتهم ، وقضى على مصالى بالسجن سنتين . ولم يكد يفرج عنه سنة ١٩٣٩ حتى قامت الحرب ، فتعطل نشاط جميع المنظمات السياسية .

ظهرت فى الجزائر اذن فى فترة ما بين الحربين ثلاثة اتجاهات ، تتمثل فى الادماجيين ، وجماعة العلماء ، ثم نجمة شمال افريقيا التى أصبحت حزب الشعب . ويمكن وصف الاتجاه الثالث بانه حركة قومية . أما الادماجيون فقد كان نشاطهم يهدف الى تحرير الجزائر من النظام الاستعمارى باعتبارها جزءا من فرنسا .

وتعتبر جماعة العلماء ، هى الاتجاه المعاكس ، الذى رد على الادماجيين على الصعيد النظرى .

وبعد خيبة الأمل العامة التى الحقتها بالجزائريين حكومة الجبهة الشعبية ، قامت محاولة للتقارب بين تلك الاتجاهات المختلفة . ودعا الدكتور ابن جلول الى عقد مؤتمر فى يونيو ١٩٣٧ حضره جماعة العلماء التى كان افرادها يتعاونون بصفتهم الشخصية مع جميع الاتجاهات الوطنية . أما مصالى الحاج فقاطع المؤتمر ، ومن هنا جاءت قراراته معتدلة مثل :

١ ــ المطالبة بدائرة انتخابية موحدة للجزائريين والمستوطنين .

٢ ــ الغاء جميع أثار قانون الأهالى ، ولا سيما تقييد حرية التنقل للجزائريين فى فرنسا . والغاء الاجراءات الردعية التى وضعت ضد الذين يناقشون مسألة السيادة الفرنسية فى الجزائر .

٣ ـ الغاء الحكم العسكرى من اقاليم الجنوب ·

٤ ـ الاعتراف باللغة العربية كلغة قومية فى الجزائر ·

وهذه المطالب فى مجموعها باستثناء المطلب الاخير ، اقرب الى اهداف الادماجيين ·

ومما يسترعى الانتباه انه فى حين ان حزب الشعب امتنع عن المشاركة فى اعمال المؤتمر الاسلامى الجزائرى سنة ١٩٣٧ ، ساهم الحزب الشيوعى فى هذا المؤتمر · وكان الحزب الشيوعى الجزائرى فرعا من نظيره الفرنسى ، وهو من اوائل الاتجاهات السياسية التى نصت على مبدأ استقلال الجزائر ، كما ورد فى جريدة لومانيتيه فى ٢٠ يناير سنة ١٩٣٠ ، وفى سنة ١٩٣٥ راح الحزب يبحث عن انصار جدد ، وذلك بتقوية صفته المحلية ، واقامة حزب منفصل كان من بين مؤسسيه عمار مزغان وعلى بوخرت · واثناء تولى حكومة الجبهة الشعبية للسلطة ، تحول الحزب الى مبدأ الاصلاح بدلا من الاستقلال على اساس ان تشرف فرنسا الديمقراطية على هذا الاصلاح وهكذا اتسم موقفه بالتردد حسب تغيرات الظروف الدولية ·

ويرجع الصدام بين الشيوعيين وبين حزب الشعب الى التنافس على كسب الأصوات العمالية سواء فى الانتخابات النقابية او السياسية ، ومع ذلك فقد ظل الشيوعيون بحاجة الى الوطنيين ليتغلبوا على ضعفهم ، والوطنيون بحاجة اليهم ليتعلموا منهم اساليب التنظيم السياسى والعمل السرى والشعارات الخلابة ·

ـ ٦ ـ

اتجاهات جديدة فى الحركة الوطنية

كانت الحرب العالمية الثانية هى الفرصة الذهبية التى اتاحت للسلطات الادارية الفرنسية القبض على الزعماء الجزائريين وحل منظماتهم دون محاكمة · وما لبثت ان تولت حكومة الماريشال بيتان الحكم بعد توقيع الهدنة فى يونيو ١٩٤٠ · وقد جعلت اول مبرر لوجودها هو المحافظة على سلامة الامبراطورية ·

ويعتبر المستوطنون حكومة فيشى عصرهم الذهبى · فهى قد ابعدت

---

(١) الياس مرقص : الحزب الشيوعى الجزائرى ·

عنصرى السكان الأصليين سواء اكانوا عربا ام يهودا ، عن اى نشـــــاط سياسى . وذلك استجابة للافكار العنصرية التى قلدت فيها فيشى المانيا النازية . وهى التى حكمت على مصالى الحاج سنة ١٩٤١ بالسجن مدة ١٥ عاما ، ثم نفته الى احدى واحات الجزائر الجنوبية .

وكان طبيعيا بعد ذلك أن يعلق الوطنيون الجـــزائريون الآمال على معسكر الحلفاء الذى اصدر ميثاق الاطلسى . وما يحتويه من مبـــادىء بخصوص حق تقرير المصير . فلم يكد جند الحلفاء ينزلون فى الجزائر فى ١١ نوفمبر ١٩٤٢ ، حتى حاول الزعماء الوطنيون الاتصال بهم . ولكن مما يلفت النظر حقا ان الامريكيين وقفوا من عرب المغرب موقفا مختلفا تماما عن المشرق . فبينما سعوا فى المشرق الى استرضاء العرب لمواجهة الالمان ، كان همهم فى المغرب هو استرضاء السلطات الرسمية والمستوطنين لاعتقادهم بأن ذلك سيسهل التعاون عند غزو فرنسا . وتصرفوا فى الجزائر بالذات كما لو لم يكن العنصر الوطنى موجودا . فابقوا الادارة بدون اى تغيير ، ولم يتدخلوا الا من أجل الضغط على ادارة فيشى السابقة لكى تلغى القوانين التى اتخـــذت ضد اليهود . ومع ذلك ظلت تلك الادارة تماطل فى اعادة العمل بقانون كرميو ، حتى دخلت العناصر اليسارية فى الحكومة المؤقتة سنة ١٩٤٣ .

والذى يعنينا هاهنا هو ان الجنرال جيرو . الذى كان مسئولا عن الادارة المدنية فى الجزائر بعد نزول الحلفاء ، عارض السياسة الامريكية بحجة ان ٧٠٪ من المجندين فى جيش فرنسا الحرة آنذاك هم من المغاربة . وان اعادة امتيازات اليهود ستثير استياءهم .

ظهر فرحات عباس فى مقدمة الحركة الوطنية فى السنوات الباقية من الحرب ١٩٤٢ ــ ١٩٤٥ ، ربما لوجود مصالى الحاج فى المنفى فى تلك الأثناء ، ومن جهة أخرى كان قد بدأ مرحلة جديدة من مراحل تطـــــوره السياسى التى انتهت به الى جبهة التحرير ، فقد رأينا كيف انه بدأ بالدعوة للادماج . وقد يئس منها بعد موقف الجبهة الشعبية ، ثم ازداد يأسا بعد أن شعر بالتفرقة فى المعاملة بين الجزائريين واقرانهم الفرنسيين بالجيش . وكان هو نفسه (١) يعمل بالقسم الطبى اثناء فترة القتال ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ قبل تسليم فرنسا .

واذن فنظرية النخبة المختارة لم يكن لها اى صدى ، لإن تشـــيع

---

(١) أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٣٠ ــ ١٩٤٥ الجــزء الثانى .

الجزائرى بالثقافة الفرنسية ، بل وتزوجه من امراة فرنسية ، لم يكن يغير من نظرة المستوطنين الاستعلائية • ومن هنا تحول فرحات عباس اثناء الحرب وحتى قيام الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤ الى فكرة قيام حكومة جزائرية مستقلة مع امكان ارتباطها بفرنسا بروابط لم يحددها تحديدا دستوريا دقيقا •

وقد بدأ نشاط فرحات عباس عندما تقدم هو واثنان وعشرون من اعضاء مجالس الوفود المالية بعدد من المطالب الى القيادة الأمريكية والسلطات الادارية الفرنسية ، التى رفضت النظر فيها :

اولا : لانها قدمت لقيادة الحلفاء • وهى هيئة غير مختصة بمسالة داخلية •

وثانيا : لان تلك العريضة اعتبرت قبول هذه المطالب شرطا لتجنيد الجزائريين فى جيش فرنسا الحرة ، فنظرت اليها على انها نوع من المساومة •

ومع أن أصحاب العريضة ، حاولوا استرضاء السلطات بعد ذلك بتقديم مذكرة اخرى معدلة ، لمحوا فيها الى انهم يريدون المشاركة فى مجهود الحرب للحصول على الاستقلال فى (اطار فرنسى) فان السلطات رفضت • وقال جيرو الحاكم العام الجديد « انه اتى لتجنيد الرجال لا ليناقش مسائل سياسية » •

وكان أن اصدر فرحات عباس واصحابه فى ١٠ فبراير ١٩٤٣ بيانا شهيرا ، حتى اصبح انصاره يعرفون باصدقاء البيان • وهذا هو مضمونه :

بدأ البيان بسرد قائمة حساب عن الاحتلال الفرنسى فى مدى قرن • وكيف انه ادى الى تلك الحالة المحزنة من البؤس والجهل • وطالب بحياة قومية ديمقراطية للجزائر • وبالرغم من انه لم ينكر قيمة الثقافة الفرنسية والغربية ، الا انه رفض (العبودية) الناشئة عن نظام فرنسا الاستعمارى ، واستنكر سياسة الادماج مذكرا بالفوارق الروحية العميقة التى تفصل بين المستوطنين واهل البلاد • ثم اكد (ان الوقت قد فات على ان يقبل الجزائرى بأن يكون شيئا آخر غير ان يكون جزائريا)
ثم سرد بعض الاصلاحات المحددة مثل (1) :

(1) Julien P. 296 — 287.

١ ــ تطبيق مبدأ المساواة والحرية على جميع الجزائريين دون تمييز فى الجنس او الدين أو اللغة ٠

٢ ــ القضاء على النظام الاقطاعى بواسطه اصلاح زراعى ٠

٣ ــ الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية ٠

٤ ــ تطبيق التعليم الابتدائى الأجبارى على جميع الجزائريين ٠

٥ ــ فصل شئون الدين الاسلامى عن الادارة الفرنسية ، كما هو الحال بالنسبة للكنيسة ٠

٦ ــ اشتراك المسلمين مباشرة فى ادارة البلاد ٠

ويلاحظ ان معظم الذين وقعوا هذا البيان هم من الادماجيين القدامى ، وانهم لم يبينوا المستقبل السياسى للجزائر بصورة محددة ٠ بعكس المذكرة التى قدموها من قبل الى قيادة الحلفاء فى ديسمبر ١٩٤٢ ، والتى تضمنت فكرة دولة جزائرية بدستور خاص بها ٠

ولما وافق الحاكم العام مبدئيا على بحث مقترحات البيان ، والف لجنة لهذا الفرض اكمل أصحاب البيان تصريحهم الاول بمقترحات جديدة تتعلق بالشكل السياسى للجزائر فقد طالبوا بدولة جزائرية مستقلة استقلالا ذاتيا ، وانتخاب جمعية تأسيسية لوضع دستور هذه الدولة ، ولكن الملحق يميز بين مطالب عاجلة واخرى يمكن تأجيلها الى ما بعد الحرب مثل اعلان الدستور ٠ وكان من المطالب العاجلة : اشراك الجزائريين فورا فى حكومة تنشأ فى مدينة الجزائر على أساس المناصفة بين المستوطنين والجزائريين ٠

واشار واضعو الوثيقة الى ان (انشاء هذه الدولة الجزائرية لا يحول دون تنظيم اتحاد لشمال افريقيا مع مراكش وتونس) ويلاحظ ان فكرة النجمة من وحدة الشمال الأفريقى قد بعثت من جديد فى هذا الاقتراح ٠

وكان ملحق البيان ؛ أول وثيقة مهمة وضعها الجزائريون المعتدلون للحديث عن الدولة الجزائرية ذات السيادة ٠ وعن الشعب الجزائرى ؛ وهى عبارات لم تستعمل فى البيان نفسه ٠

وبعد ارسال الملحق الى السلطات الفرنسية ٠ تسلم ديجول السلطه فى الجزائر ؛ واختار الجنرال كاترو حاكما عاما لها ٠ فسارع الى رفضه البات لهذه المطالب ؛ واكد ان فرنسا لن توافق قط على استقلال الجزائر ٠

وقد ادى رفض فرنسا للمرة الثانية . قبول البيان كأساس للمحادثات الاصلاحيه الى رد فعل شديد عند الوطنيين . ورفض المندبون الجزائريون فى شهر سبتمبر الاشتراك فى دورة طارئة للجان المالية ، معربين بهذا عن تمسكهم بالبيان وولائهم له . وقد رد كاترو بحل الهيئات التى يشترك الجزائريون فيها ، وفرض الاقامة الجبرية على فرحات عباس وغيره من الزعماء .

ولم يعدل كاترو عن قرار الحل ، الا بعد أن ذهب اليه وفد من الممثلين اعتذر عن الاحداث الجارية ، واعلن رغبته فى تطور الجزائر ضمن نطاق انظمة الدولة الفرنسية . وكان مفهوما ان هؤلاء لا يمثلون اتجاه الرأى العام فحاول ديجول استرضاء الوطنيين فى تصريح قسنطينة فى ديسمبر ١٩٤٣ ، والذى اصبح اساسا لقانون مارس ١٩٤٤ كما سنرى .

غير ان هذه الاجراءات التى كان فى وسعها ان ترضى الادماجيين سنة ١٩٣٦ . لم تعد تناسبهم الآن ، فرفضوها ، واشترك معهم فى رفضها جماعة العلماء ومصالى الحاج أيضا ، ولم يتقبل القانون بالتأييد الا عدد قليل من الممثلين فى اللجان المالية والذين كانوا قد تخلوا عن البيان تحت ضغط الفرنسيين .

ومما يجدر بالملاحظة ان مبادىء فرحات عباس الاصلاحية التى ركزت على النواحى الاجتماعية قد التقت مع اهداف لحركات العمالية التى يمثلها حزب الشعب . وقد نجح فرحات عباس فى عقد مؤتمر شامل فى مارس ١٩٤٥ ومع وجود الرغبة فى توحيد الكفاح الوطنى ، فقد كشف المؤتمر عن وجود خلافات عقائدية بين انصار البيان الذين يمثلون الثقافة العليا الغربية ، وجماعة العلماء التقليدية ، وحزب الشعب ممثل الوطنية المتطرفة . وقد احتدم الخلاف ، خاصة بين حزب الشعب والعناصر الأخرى حول التمسك بزعامة مصالى الحاج للحركة الوطنية . ثم انتقد ممثلوه بشدة دعوة انصار البيان الى فكرة جمهورية متحدة اتحادا فدراليا مع فرنسا (١) .

وكان لانصار حزب الشعب فى النهاية السيطرة على المؤتمر رغم وجود زعيمهم مصالى تحت الاقامة الجبرية ، وادى ذلك الى بث الانزعاج فى نفوس المستوطنين ، والى رد فعل عنيف وسريع فى مذبحة قسنطينة .

---

(١) انظر عن فترة الحرب

Sarasin, La Crise Algerienne

مذبحة قسنطينة سنة ١٩٤٥

عندما كان العالم يحتفل بانتصار الحلفاء على المانيا النازية فى ٨ مايو ١٩٤٥ نظم الجزائريون مظاهرات خاصة بهذه المناسبة • فخرجت الجموع فى مختلف انحاء البلاد • وفى مدينة سطيف حمل المتظاهرون الأعلام الوطنية • فكان ذلك مثيرا لحفيظة المستوطنين ورجال الشرطة • وانطلقت الشرارة الأولى التى سرعان ما اشعلت معركة حامية تردد صداها فى جميع مدن قسنطينة • وشهدت الجزائر فى ذلك اليوم مذبحة مروعة لم يسبق لها مثيل منذ حرب الابادة •

وقد اشترك الطيران والبحرية فى دك القرى الجزائرية • ومما يجدر بالملاحظة أن وزراء شيوعيين فى حكومة فرنسا المؤقتة آنذاك ، كانوا مسئولين بصورة مباشرة عن اعمال القمع هذه وانتهز المستوطنون فرصة الاضطرابات التى اعدوا لها من قبل فكونوا جماعات مسلحة تنتقم من الجزائريين العزل • وفيما يلى وصف احد الجزائريين لتلك المذبحة (١) •

« واجتمع على المسلمين فى الجبهة الممتدة بين سطيف ، وخراطة وقالمة ، رجال الجند الفرنسى بين مشاة وطيارين وفرق مصفحة ، ورجال البحرية الفرنسية الذين كانوا مستعدين على السواحل ، ورجال الجالية الأوربية الذين كانوا قد تسلحوا واستعدوا لذلك اليوم الاحمر الرهيب •

« وفتح الجميع موسم الصيد الآدمى . وطورد المسلمون فى المدن والقرى والمداشر ، كما تطارد السباع فى الغابات . وعمت المذابح فذهبت ضحيتها القرى العديدة لم ينج منها رجل ولا امراة ولا صبى • وكانت المصفحات الفرنسية تسير صفا فتدمر القرى على راس من فيها من رجال ونساء واطفال حتى تسوى بها وبما فيها الأرض » • فكانت الدماء تجرى غزيرة ، وقد صبغت الارض بلونها الاحمر ؛ وبصفة ظاهرة مكنت المصورين من اخذ مناظرها من الطائرات •

« وهنالك قرى أخرى ؛ دمرت بالطائرات تدميرا فلم يبق منها شىء • اما بالمدن الكبيرة ؛ كسطيف . وقالمة ؛ فكان رجال الميليشيا من المتطوعين الأوربيين يهاجمون الديار ؛ ويقبضون على النخبة المثقفة الجزائرية ، ويذهبون بها خارج المدينة ويأمرونها تحت تهديد الرشاشات بحفر القبور الجماعية • ثم يقتلون الفوج اثر الفوج ؛ ويأمرون كل فوج بدفن الفوج السابق •

---

(١) المدنى ص ١٧٧ •

« اما النساء فقد امتهن شر امتهان • وانتهكت حرماتهن انتهاكا جديرا بأعمال وحوش الاحتلال الأولين • وقطعت آذانهن من اجل الأقراط • وايديهن من اجل الخواتم ، وارجلهن من أجل الخلاخل ، وكان الجند يتباهى بتلك الغنائم ويتفاخر بالاحراز على اكبر عدد منها » •

بلغ عدد الضحايا فى هذه المجزرة البشرية ٤٥ الفا حسب تقدير الكتاب الجزائريين • وفى هذا التقدير شيء من المبالغة ، كما اننا لا نعتمد الارقام الرسمية التى اعلنتها السلطات الفرنسية وهو ١٦٠٠ شخص ، لان الضباط الفرنسيين قدروا فى اعترافاتهم الخاصة عدد الضحايا من ثمانية الى عشرة آلاف ، ولا يسجل تاريخ الاستعمار الفرنسى فى العصر الحديث جريمة افظع من هذه سوى مذبحة مدغشقر ، التى وقعت عند اشتعال ثورة فى الجزيرة سنة ١٩٤٧ راح ضحيتها ثمانون الفا •

وكما يتضح من الوصف السابق : يوجد عند الجزائريين اعتقاد بان المذبحة كانت مدبرة من قبل بواسطة المستوطنين الذين ساءهم تكتل الوطنيين من جهة ، واجراءات ديجول من جهة اخرى • ويستدل على ذلك بكتابات الفرنسيين انفسهم الذين قرروا انهم سمعوا المستوطنين يقولون :

« اذا قامت الثورة فان حكومتنا ستكون مضطرة لحمايتنا » • كما ان اللجنة البرلمانية التى ارسلت للتحقيق فى سنة ١٩٤٧ اعترفت بأن الحكومة اخطأت فى مسايرتها لسياسة المستوطنين (١) •

ولقد حققت فعلا مذبحة قسنطينة بعض اغراضهم ، اذ اعلنت على اثرها الأحكام العرفية وقبض على اربعة آلاف وخمسمائة شخص ، هم عماد الحركة الوطنية وزعماؤها وقضت المحاكم الفرنسية على ٩٠ بالاعدام ونفذ فيهم الحكم ، كما حكم على ٦٤ شخصا بالأشغال الشاقة المؤبدة • ولم يحقق كل هذا سوى حزء من اهداف المستوطنين فطالبوا بأن يشمل الاعدام الرؤوس الكبيرة • وباقامة حرس وطنى منهم يتولى الاشراف على الأمن وتعيين الحاكم العام للجزائر من بينهم •

اما المستوطنون فيدعون بأن تلك الاضطرابات كانت مدبرة بين الزعماء الجزائريين منذ مقابلة فرحات عباس مع مصالى الحاج سنة ١٩٤٤ • ولكن مجريات الحوادث تدل على عدم تنسيق للخطة بين المتظاهرين •

واقصى ما يمكن تصديقه هو ان الملابسات التى احاطت بهذه الاشهر

---

(1) Jeanson P. 71.

الإخيرة من الحرب قد بعثت فى نفوس الجزائريين الهمة للعمل من اجل الاستقلال ، مثل :

١ ـ فقدان فرنسا لهيبتها بهزيمتها السريعة ٠

٢ ـ ظهور الأمم المتحدة التى روجت لمبدا حق تقرير المصير ٠

٣ ـ تكوين الجامعة العربية التى علق عليها الوطنيون فى شمال افريقيا آمالا عريضة فى ذلك الوقت ٠

ولقد كان دور اصحاب البيان بارزا حتى وقوع هذه المذبحة ، ولكنهم اخذوا يتخلون عن القيادة لحركة مصالى الحاج ، حينما انذرت تلك الاحداث بأن النضال السياسى لن يجدى كثيرا ٠

- ٨ -

الحلول الفرنسية

كانت الحكومات الفرنسية اقل ادراكا للتطور الذى شهده العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ٠ وقد انبنت جميع الاجراءات التى اتخذت لمواجهة الحركة الوطنية الجزائرية على مبدا السيادة الفرنسية ، ولم تخرج جميع الحلول عن هذا المبدا قبل مشروع ديجول سنة ١٩٥٩ ٠

وكانت السلطات الاستعمارية تعزو حوادث الشغب الى سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، لأنه لا توجد فى رايهم ، لدى الجزائريين مقومات القومية التى تبرر لهم المطالبة باستقلال ٠

وعلى هذا النحو صدر أول اجراء فى عهد حكومة ديجول المؤقتة فى ٧ مارس ١٩٤٤ وهو يعلن جميع الجزائريين مواطنين فرنسيين ، وبالتالى فلهم حقوق سياسية ويستمتعون نظريا بالمساواة فى تولى الوظائف العامة ٠ ولكن القانون اذ فرق بين طائفتين انتخابيتين ، انما دل على الاعتراف الضمنى بفكرة التفرقة العنصرية وكانه اعتبر الجزائريين مواطنين من الدرجة الثانية ٠

وتتالف الطائفة الانتخابية الأولى من المستوطنين وعدد من (المسلمين) الذين تتوفر فيهم شروط معينة ، اجتماعية وثقافية ٠ ولكن ليس منها كما فى السابق شرط التخلى عن قانون الأحوال الشخصية الاسلامى ، وقدر

عدد الجزائريين الذين تنطبق عليهم تلك الشروط بنحو ٦٠ الفا . اما الطائفة الانتخابيه الثانية . فتتألف من بقية الأهالى .

وتنتخب كل طائفة . على حدة ، ممثليها فى المجالس البلدية والقروية والاقليمية ويمكن ان يصل عدد (المسلمين) فى اى من تلك المجالس الى الـ $\frac{2}{5}$ الا اذا كان عدد الأوربيين فى الدائرة يزيد على النصف ، ولعل واضعى المرسوم كانوا يعتقدون بأن مجرد ممارسة الحق الانتخابى والذهاب الى صناديق الاقتراع كفيل بأن يرضى الوطنيين الجزائريين . وقد طبقت مبادىء المرسوم على انتخابات الجمعية التأسيسية للجزائر ، فخصص للطائفة الأولى ٧ مقاعد ؛ والثانية ٦ من مقاعد هذه الجمعية .

وعاد زعماء الحركة الوطنية لمقاطعة تلك الانتخابات ، فكان هناك رد فعل ظاهر ولكنه متفاوت . وفاز بالمقاعد المخصصة للجزائريين ابن جلول وانصاره الذين استمروا على المناداة بمبدأ الادماج حتى ذلك الوقت . ومن المعروف ان هذه الجمعية لم تنجح فى سن دستور للجمهورية الرابعة فتقرر اعادة الانتخابات لجمعية تأسيسية اخرى .

وفى هذه الأثناء صدر عفو شامل عن المعتقلين السياسيين وشمل هذا العفو مصالى الحاج وفرحات عباس . واكتسح انصار الأخير المقاعد المخصصة للجزائريين فى الجمعية الثانية . نظرا لمقاطعة العناصر الوطنية الاخرى للانتخابات .

وكان عباس فى هذه المرحلة من تطوره قد اعاد تكوين منظمته السياسية باسم الاتحاد الديمقراطى لانصار البيان الجزائرى . وقد تبين انها اقل شعبية من عهد جماعة اصدقاء البيان . والظاهر من تصريحات فرحات فى هذه الحقبة انه اصبح من انصار الجمهورية الجزائرية المستقلة . ولكن لم يتخلص بعد من احساس الاعجاب بالحضارة الغربية . ولذا اقر بأن لفرنسا أن تلعب دور المرشد لتلك الجمهورية . ففى نداء وجهه الى الشبيبة الجزائرية قال « لا نريد ادماجا ، ولا نريد سيدا جديدا ، ولا إنفصالا . وانما نريد شعبا فتيا يتولى تثقيف نفسه اجتماعيا وديمقراطيا . محققا للجزائر التطور الصناعى والعلمى . وحاملا رسالة بعثها خلقيا وفكريا ، مرتبطا بشعب عظيم متحرر الفكر . نريد ديموقراطية فتية فى نشأتها توجهها الديموقراطية الفرنسية العظيمة ، واذا لم تتمكن الشبيبة الجزائرية من التغلب على الفروق العنصرية القائمة بينها ؛ فانها ستنتهى الى انتحار اخلاقى بصورة حتمية مثقلة بالنتائج » . . . وانتهى الى القول :

« واذا لم يتخلص الاوربيون فى الجزائر من مركبـــات الاستعمارية والكبرياء التى تلازم الفـــاتح المحتل . فلن يكون فى الامكان تحقيق أى مجمتع جزائرى » .

وعندما جـــرت الانتخابات لأول مجلس نيابى فى عهد الجمهورية الرابعة ، قرر مصالى الحاج المساهمة فيها . وكان قد اعاد تشكيل حزب الشعب باسم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية . وهكذا نجد أن حركة الانتصار قد اتت بعد الاتحاد الديمقراطى لانصار البيان الجزائرى لتجرب مبدأ النضـــال عن طريق المشاركة فى انظمة الدولة الفرنسية ، سواء أكـــان البرلمـــان بمجلسيه : النواب والشيوخ ام كـــان مجلس الاتحاد الفرنسى الذى نيط بـــه الاشراف على الامبراطورية . او المجالس المحلية داخل الجزائر ، وعلى راسها المجلس الجزائرى الذى تأسس حسب قـــانون سنة ١٩٤٧ .

وكانت العقبة الاولى التى اصطدم بها الوطنيون ، هى تزييف الادارة للانتخابات فى الجزائر بالذات . ولذلك لم يطل العهد بهذه التجربة ، وعلى كل فقد دخل مصالى وبعض أنصاره الى مجلس النواب ، كما دخل عدد من انصار البيان الى مجلس الشيوخ فى باريس واسمعوا صوت الجـــزائر الوطنية داخل البرلمان ، ولكن دون جدوى لأنهم كانوا أقلية لا تذكر . فكان اهم اجراء اتخذه برلمان الجمهورية الرابعة بخصوص الجزائر . هو اصدار قانونها الأساسى فى ٢٠ سبتمبر ١٩٤٧ .

واعتبر هذا القانون حلا وسطا بين وجهة نظر اليمين المتطرف الذى كان يرغب فى ابقاء الوضع فى الجزائر دون تغيير . مع الغـــاء مرسوم مارس ١٩٤٤ أن أمكن . وبين اليســار (اشتراكيون وشيوعيون) الذى جعل الادماج أساسا لسياسته الجزائرية ، وصرح الشيوعيون بانهم مستعدون لقبول جميع النتائج المترتبة على الادماج الحقيقى . واهمها الغاء نظـــام الطائفتين الانتخابيين ، وتقسيم الجزائر الى دوائر انتخابية مثل فرنســا ، مما يسمح لها بانتخاب نحو ١٢٠ نائبا . باعتبار ان فرنسا التى يبلغ تعدادها ٤٠ مليون يمثلها ٦٠٠ نائب ، فللملايين الثمانية فى الجـــزائر الحق فى انتخاب $\frac{1}{5}$ هذا العدد .

وبما أن جميع الزعماء تقريبا . كانوا قد انصرفوا عن فكرة الادماج . فقد أصبحوا هدفا لهجوم الشيوعيين .

صدر اذن قانون سنة ١٩٤٧ بغلبية ضئيلة تمثل احزاب الوسط

بلغت ٣٢٢ صوتا ، مع تغيب الشيوعيين والنواب المسلمين . ومع ان الاشتراكيين تظاهروا بمعارضته ، الا ان حزبهم الحاكم في ذلك الوقت ساعد على اصدار القانون . وسنحاول فيما يلي تحليل مواد هذا القانون الذي استمر مدة ثمانية اعوام من ١٩٤٧ — ١٩٥٥ يعتبر القانون الأساسي للبلاد ، مع ملاحظة أن الحكومة الفرنسية لم تطبق المواد التي وضعت لارضاء الجزائريين تطبيقا حقيقيا يوما ما طوال هذه المدة (١) :

تقرر المادة الاولى : المبدا القديم الذي يرجع الى سنة ١٨٤٨ ، ويقضي بأن الجزائر جزء من الأراضي الفرنسية . وتقرر نفس المادة بأن للجزائر شخصية مدنية وادارية ومالية مستقلة ، ويترتب على القسم الاول من المادة أمران نص عليهما صراحة في المواد اللاحقة .

(أ) سريان المعاهدات الدولية التي ترتبط بها فرنسا على هذه المديريات . ومغزى النص على ذلك ، هو رغبة فرنسا في ان تثبت لحلفائها الغربيين أن الجزائر ستكون خاضعة للأحلاف العسكرية الغربية ، والا ما كان هناك حاجة للنص على هذا الامر ، ما دامت الجزائر معتبرة جزءا من الأراضي الفرنسية .

(ب) انسحاب المبادئ الدستورية المعمول بها في فرنسا على الجزائر (نص صراحة على هذا في المادة ١٢) . وترتب على هذا المبدأ ، أن برلمان باريس يصدر التشريعات الخاصة بالجزائر ، ما لم ينص صراحة على استثناء الجزائر منها . وفي راى المشرع الفرنسي ، ان هذا النص هو بمثابة ضمان للجزائريين ، ضد السلطات الادارية وان الجزائريين يستطيعون دائما ان يحتكموا لمبادئ الحريات العامة والخاصة السائدة في فرنسا .

ويحتوي القانون ، بعد هذه القواعد الرئيسية ، على عدة مبادئ خاصة ، قصد منها تطييب خاطر الجزائريين . فنصت احدى المواد على المساواة بين جميع السكان في الحقوق السياسية ، والاجتماعية وتولي الوظائف العامة . ولكن توجد مغالطة في مسالة مساواة الحقوق السياسية، فالفرنسيون اعتبروا أن حق الانتخاب الذي منح للجزائريين . يعني مساواة سياسية ؛ ولكن كيف تتحقق المساواة . ونسبة تمثيل المليون من المستوطنين سبعة نواب ، بينما يمثل ثمانية ملايين من الجزائريين نفس العدد .

---

(١) قمنا بترجمة هذا القانون الى العربية . محاضرات عن تطور السياسة الفرنسية بالجزائر ؛ نشرها معهد الدراسات العربية ص٨٧–١٠٢ .

ففكرة المناصفة بين الفريقين ، كانت مسيطرة على جميع التشريعات الخاصة بالجزائر دون اعتبار للأهمية العددية . أما المساواة فى تولى الوظائف فهى حبر على ورق . فجميع الوظائف العليا ، ظلت مقصورة على العنصر الفرنسى حتى أن جى موليه رئيس وزراء فرنسا سنة ١٩٥٦ اعترف صراحة بعدم تطبيق هذا المبدأ حين قرر أنه ابتداء من صدور تصريحه ، سيراعى مبدأ المناصفة فى احتلال الوظائف الادارية بالجزائر .

المبدأ التالى هو تقرير حق الانتخاب للمرأة المسلمة كما يقولون (مادة ٤) . ولكن بعد موافقة المجلس الجزائرى ، وذلك جريا على الفكرة الخاطئة : من أنه كلما كان للجزائريين أصوات أكثر فى الانتخابات ، تأكد السير قدما نحو تحقيق المساواة .

ومن هذه المبادىء أيضا ، الاعتراف باللغة العربية كلغة تعليم بجانب اللغة الفرنسية . ولكن نص القانون بأنه يعترف باللغة العربية كلغة من لغات الاتحاد الفرنسى (١) . ومغزى هـذا النص . أن الفرنسيين لا يريدون الاعتراف بأن اللغة العربية ، انما قررت فى الجزائر (٢) لأنها لغة قومية .

ومن تلك المبادىء أيضا ، فصل الشئون الاسلامية عن الادارة الرسمية وتحويلها ، مثل الكنيسة : الى هيئات خاصة يشرف عليها المهتمون بالأمر من المسلمين . وصعوبة تطبيق هذا المبدأ : هو أنه لا يوجد فى الاسلام هيئة دينية رسمية مثل الكهنوت .

واخيرا الغاء النظام العسكرى الخاص . الذى ظل سائدا فى الأقاليم الجنوبية من صحراء الجزائر ، واستمتاع هذه النواحى بالحريات المدنية بالمفهوم الذى وضعته السلطات الفرنسية .

أما المواد الخاصة بتقرير مبدأ استقلال الجزائر اداريا وماليا ، فقد وضعت فى الحقيقة لمصلحة فرنسا والمستوطنين . فوجود شخصية ادارية مستقلة فى الجزائر يترتب عليها النص على وجود حاكم عام للمديريات الثلاث . ولو كان الادماج كاملا لما كان هناك حاجة لوجود حاكم عام له سلطات خاصة لا يوجد نظيرها فى فرنسا .

---

(١) الاتحاد الفرنسى هو المصطلح الجديد الذى احله دستور الجمهورية الرابعة . محل كلمة الامبراطورية وقد انشىء له مجلس خاص عام ١٩٤٧ ؛ مثلت فيه جميع المستعمرات .

(2) Culmann : L'union francaise.

فقد نص على ان يكون للحاكم العام سلطات أوسع من سلطات مدير المديرية فهو يشرف مثلا على تعليم المسلمين ، لانه اذا اراد المسلمون أن ينهوا نوعا خاصا من التعليم ، فعليهم ان يخضعوا للحاكم العام ، رئيس المجلس التنفيذى فى الجزائر ، والا التزموا ببرامج وزارة التربية فى باريس .

ويعاون الحاكم العام مجلس تنفيذى من ٦ أعضاء ، يختار اثنان عن كل طائفة من الطائفتين المكونتين للمجلس الجزائرى ، واثنان بحكم وظائفهم . هما رئيس المجلس الجزائرى ونائبه ، وينتسب احدهما لطائفة انتخابية غير طائفة الآخر .

ومن اهم ما اشتمل عليه هـذا القانون الأساسى : من نظم مميزة للجزائر تؤكد وجود شخصية مدنية ومالية مستقلة ، هو انشاء :

المجلس الجزائرى : ويعتبر هذا المجلس امتدادا او الصورة الجديدة لمجلس الوفود المالية ، بعد ادخال تعديلات هامة تناسب ظروف العصر . فيتألف من ١٢٠ عضوا ، ٦٠ عن المستوطنين والمسلمين الخاضعين للقانون المدنى الفرنسى : ٦٠ عن بقية الأهالى (المسلمون) وذلك لمدة ٦ سنوات ، بالاقتراع العام ، على ان يجدد انتخاب نصف الأعضاء كل ٣ سنوات . ووظيفة المجلس الأساسية هى مناقشة ميزانية الجزائر ، واصدار اللوائح المحلية فى الشئون الاقتصادية والتجارية والزراعية وغير ذلك من الأمور المحلية البحتة .

وتنص المادة ٤٥ على ان اى قرار له صفة سياسية يعتبر لاغيا . ومع جميع هذه الاحتياطات وتضييق سلطات المجلس فقد نصت المادة ١٥ على ان قرارات المجلس لا تصبح نافذة ، الا اذا صدر بها مرسوم من حكومة الجمهورية . فاذا رفضت هذه الحكومة اصدار المرسوم : فان الجمعية الوطنية الفرنسية تحسم النزاع بقرار منها . فالمجلس الجزائرى اذن يكاد يكون مجلسا استشاريا .

وبخلاف ما كان عليه مجلس الوفود ، ينتخب (المسلمون) ممثليهم فى المجلس الجزائرى مثل المستوطنين . ورغم ان الجزائريين لم يحصلوا الا على نصف المقاعد ، فقد حرص واضعو قانون سنة ١٩٤٧ على تضييق سلطات المجلس . فالقرارات تصدر أصلا بالأغلبية (٦١ صوتا) ، ولكن اذا طلب الحاكم العام أو اللجنة المالية او ربع اعضاء المجلس الاستثناء من هذه القاعدة ؛ فلا بد من موافقة الثلثين على هذا القرار ، وذلك فى حالة عدم توافر الأغلبية بالنسبة لكل من المجموعتين الانتخابيتين فى

المجلس (مادة ٣٩) والمقصود من هذا الاستثناء ، هو تجنب احتمال ان يجمع النواب الجزائريون على قرار ما ويتفق معهم عضو او اثنان من المتقدمين الفرنسيين .

اما عن الشئون المالية : فنص القانون الأساسي ، على وجود ميزانية مستقلة للجزائر ، تستمد مواردها من الرسوم والضرائب المفروضة محليا وتستخدم في الانفاق فقط على المديريات الجزائرية ، باستثناء الدفاع الخارجي والأمن الداخلي فتبقى في اصول الميزانية الفرنسية . ويترتب على هذا الاستقلال المالي أن المنشآت العامة تصبح ملكا للخزانة الجزائرية ، وانه يجب موافقة المجلس الجزائري على جميع مشروعات القروض والضرائب . وكان استقلال الجزائر المالي خدمة للمستوطنين ومن اتفقت مصلحتهم معهم من بعض طبقات الجزائريين ، فاصبح وجود المجلس الجزائري عقبة في سبيل زيادة ضرائب الدخل ، التي ظلت ضئيلة جدا اذا ما قيست بفرنسا .

وحتى عام ١٩٥٦ : لم تزد ضريبة الدخل بالجزائر في اكبر شرائحها عن ١٦٪ . وهكذا لم تستطع ميزانية الجزائر مواجهة الكثير من المطالب الاجتماعية . ويلاحظ أن الخدمات الاجتماعية كانت تقدم في نطاق ضيق ، لا يقارن بمدى اتساعه في فرنسا ولا سيما علاوات الاسرة .

- ٩ -

تميزت الفترة التي انقضت منذ اصدار القانون الاساسي سنة ١٩٤٧ حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٤ بتزايد السيطرة الاستعمارية ، على عكس ما كان يرجى من القانون ؛ فتولى الحكومة العامة ادمون نيجلين الذى ابطل بعض الاجراءات التحررية التى ادخلها سلفه شاتينيو . ودل نيجلين عضو الحزب الاشتراكي على أنه مثل كثير من زملائه في الحزب ، يساري في فرنسا ، يميني في الجزائر .

وبينما اكتسح حزب الانتصار للحريات انتخابات المجالس البلدية سنة ١٩٤٧ جاءت انتخابات المجلس الجزائري التي جرت في عهد الحاكم نيجلين هزيمة ساحقة للحزبين الوطنيين الرئيسيين . فمن بين ٦٠ مقعدا المخصصة للجزائريين ؛ حصلت حركة الانتصار للحريات على ٩ مقاعد ، والاتحاد الديمقراطي لانصار البيان الجزائري على ٨ مقاعد . واصبح تدخل الادارة في الانتخابات الجزائرية مثلا يضرب على التزييف . فيقال (انتخابات على الطريقة الجزائرية) .

ولم يختلف الوضع عند اجراء الانتخابات البرلمانية للدورة التشريعية الثانية سنة ١٩٥١ فقد خسر الوطنيون جميع مقاعدهم فى البرلمان . وحل محلهم جزائريون ينتمون الى أحزاب سياسية فرنسية .

وبدا للمستوطنين وكأن الامور قد استقرت لهم . ولكن بعض المتبصرين منهم ، وعلى راسهم جاك شيفاليبه رئيس بلدية مدينة الجزائر ، أدرك مغبة تلك الاوضاع ، فدعا الى ضرورة تخفيف قبضة السلطات الادارية عن الافراد ، أو على الاقل تطبيق قانون سنة ١٩٤٧ بأمانة . وسمى سياسته بسياسة التعاون انفرنسى الاسلامى والف لذلك اتحادا يضم أعضاء المجالس البلدية .

اما رد الفعل عند الوطنيين فكان عنيفا . فاتفقت جميع الاحزاب على نبذ فكرة النضال عن طريق المؤسسات النيابية الفرنسية . وحاولت مرة اخرى تأسيس جبهة وطنية ، ونجحت فى عقد مؤتمر سنة ١٩٥١ ولكن الامر لم يتجاوز هذا الحد .

وظهرت الخلافات بين العناصر الاربعة الرئيسية التى اشتركت فى المؤتمر : الاتحاد الديمقراطى لانصار البيان الجزائرى وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية وجماعة العلماء ؛ والشيوعيون . وذلك بخصوص المفاهيم الاجتماعية وطريقة تنظيم العمل من أجل استقلال الجزائر .

وقد اهتم الحزب الشيوعى مثلا ببحث مشكلات دولية لا تعنى الجزائر فى هذه المرحلة من كفاحها ؛ مثل التنديد بحلف الأطلسى ومسألة القواعد العسكرية الأمريكية فى الخارج ؛ وغيرهما من المسائل التى تهم الشيوعية الدولية .

كذلك اصطدم الاتحاد الديمقراطى الذى يراسه فرحات عباس بحركة الانتصار للحريات ورغم اقتناع فرحات بعدم جدوى النضال السياسى . فقد كان لكل من الحزبين تقاليده القديمة التى ما زالت تؤثر عليه . فالاتحاد الديمقراطى لانصار البيان يرى امكان الاستقلال على مراحل . اما حركة الانتصار للحريات فقد أصبحت تؤمن بالكفاح المسلح ؛ وان لم تبين وسائل تنفيذه بعد .

وعلى كل فان قرارات المؤتمر لم تنم عن هذه الروح ؛ لانها طالبت بالغاء نتائج انتخابات سنة ١٩٥١ واحترام حرية الاقتراع فى الانتخابات المقبلة .

لقد ادى فشل قانون سنه ١٩٤٧ الى احراج (المعتدلين) وتحول كثير منهم الى جبهة المناصلين . اما رد الفعل بالنسبة لحركة الانتصار للحريات فكان اشد عنفا . فقد شرع بعض اعضائها منذ سنة ١٩٤٧ فى تشكيل قوة عسكرية اسموها المنظمة الخاصة . كان من بين اعضائها آيت احمد بن بلا وخيضر وغيرهم . ومع انها اخذت فى جمع الاسلحة وقامت ببعض حوادث العنف ، الا انها لم تستطع اقناع مصالى الحاج بأن الوقت قد حان للعمل الثورى الشامل .

واعتبر هذا الفريق أن الاشتراك فى المجالس الفرنسية خيانة . وادى كل هذا الى تتبع السلطات الادارية لأعضاء المنظمة السرية . وانتهى الأمر بتحديد اقامة مصالى الحاج نفسه فى سنة ١٩٥٢ .

ورغم هذا الخلاف فقد استمر تماسك الانتصار قويا . ولكن فريق الشباب الذى سيطر على اللجنة المركزية للحزب ، نجح فى دعوة مؤتمر فى صيف سنة ١٩٥٣ فى بلجيكا بدون اشتراك زعيمه مصالى (١) .

ومع أن المؤتمر لم يناقش رئاسة مصالى للحزب ، الا انه كشف عن وجود خلافات جوهرية بين اللجنة المركزية وبين مصالى . فقد دعت اللجنة الى تحديد العقائد السياسية للحزب ، بما فى ذلك موقفه من الصراع العالمى والاخذ بمبدأ الحياد ، وفى السياسة الداخلية يراعى الحزب الوسائل الديمقراطية ، فلا يستند اصلا الى الزعامة الفردية . ودعت اللجنة الى تنظيم دقيق لمراحل الكفاح من اجل الاستقلال التى ستنتهى بالثورة المسلحة .

ولما لم يوافق مصالى على تلك المبادىء . عمد الى اخراج هؤلاء الزعماء الشبان ، وبذا انتهت حياة حركة الانتصار للحريات . وكانت العناصر الجديدة التى خرجت منها هى عماد الثورة الجزائرية .

والواقع أن الصراع بين مصالى وبين اللجنة المركزية يمثل خلافا بين جيلين : جيل مصالى الذى كانت فيه الخطب المثيرة والمظاهرات الجماهيرية ، وتقدم المطالب والمذكرات الاحتجاجية . هى كل ما يمكن عمله وتحقيقه عن طريق حركة وطنية ناشئة تناهض سياسة استعمارية لدولة قوية كفرنسا .

(١) يرجع الى مجلة الجزائر الحرة الناطقة بلسان الحزب فى هذه الفترة .

اما العناصر الفتية في لجنة الحـــزب المركزية ، فقد تأثرت بحياة السرية والاختفاء التي عاشتها ، وبهزيمة فرنسا سنة ١٩٤٠ ، وبالثورات الناجحة في عدد من البلاد في الفترة التي اعقبت الحرب ، والتي حققت ، الاستقلال في وجه قوات متفوقة .

وعندما اندلع لهيب الثورة في الجزائر ليلة اول نوفمبر ١٩٥٤ ، لم يكن مصالي (والد الوطنية الجزائرية) على علم بها ؛ وهكذا تخطته الأحداث لأول مرة في حياته .

الفصل السادس عشر

فى تونس

- ١ -

اختلفت الحركات الوطنية من حيث نشأتها واتجاهاتها . فى كل من الجزائر وتونس ومراكش . حسب الظروف التى احاطت باحتلال كل منها ، والطريقة التى اتبعت فى ادارتها واستعمارها . فمثلا كان لتاخر احتلال تونس نحو نصف قرن عن الجزائر . ان اتيحت لها الفرصة لتجربة سياسة التجديد والاصلاح ، بل والنظام الدستورى المحـــدود فى عهد ما قبل الحماية (١) .

وتونس هى أكثر بلدان شمال افريقيا تاثرا بالتيارات الفكرية فى المشرق العربى ، ولذا كان لحركة جمال الدين الأفغانى ، والامام الشيخ محمد عبده فى مصر ، صدى فى النهضة الاصلاحية فى تونس . وكثير من رواد الحركة الوطنية فى تونس اتصلوا بالامام مباشرة ، كما انه زار تونس وحث اهل الفكر فيها على تاسيس مدرسة الخلدونية ، على نمط المدارس الوطنية فى مصر .

واذن فان مصادر الحـــركة الوطنية التونسية ترد فى الغالب الى اصول اسلامية بحتة ، وهى تتمثل :

اولا : فى حركة التجديد التى انتشرت فى المشرق ، سواء كان ذلك احياء العقيدة أم تجديد النظم السياسية .

ثانيا : فى المراكز الاسلامية العريقة القائمة فى تونس وعلى راسها جامع الزيتونة فيعزى الى احد ابناء هذه المدرسة الدينيه ويدعى محمد السنوسى ، انه قدم عريضة موقعة من اعيان البلاد يطالب فيها بالغـــاء الحـــكم المباشر واحياء الدستور .

---

(١) من خير ما كتب عن الحركات القومية فى المغرب انظر :

Julien : l'Afripue du Nord en Marche

كما اخرجت هذه الجامعة شخصية وطنية أخرى : الشيخ المكى بن عزوز ، الذى اهتم باحياء مبادىء خير الدين وسياسته الاصلاحية وكان له فضل تخريج الجيل الأول من المناضلين التونسيين ، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز الثعالبى .

على أن الحركة الوطنية فى هذا الطور الأول من حياتها قد اتسعت وازداد نشاطها على يد فريق من الشبان الذين اتيح لهم حظ من الثقافة الحديثة . وقد مهد خير الدين باشا التونسى لظهور الطبقة الأولى من هؤلاء المجددين ، حين أسس مدرسة الصادقية سنة ١٨٧٥ لتدرس العلوم الحديثة فى اطار عربى . وفيها تخرج رواد الحركة الوطنية من امثال بشير صفر وعلى باشحمبة . وكذلك أيد خير الدين حركة الجامعة الاسلامية بسياسته الرامية الى التقرب للدولة العثمانية ، والتى استمر هؤلاء الرواد فى الدعوة اليها ، فاشبهوا بذلك اتجاه الحزب الوطنى المصرى .

ولا شك ان وجود كل من مصر وتونس تحت حكم دولة مسيحية قد أثر على توجيه الفكرة القومية فى هذين البلدين ، فجعلها دولة الخلافة معقد الأمل لتخليصها من هذا الحكم . فلما زالت هذه الدولة بعد الحرب العالمية الأولى ، تحرك الاتجاه القومى مترددا بين القوميات المحلية وفكرة العروبة .

وقد أسس بشير صفر ، وكان مشرفا على الأوقاف ، مدرسة الخلدونية (أحياء لذكرى المؤرخ العربى الشهير ابن خلدون) ليستأنف المهمة التى توخاها خير الدين من الصادقية .

وفى سنة ١٩٠٥ كان جماعة من الطلبة ، خريجى المعهد الصادقى الذين سبق أن أوفدتهم الحكومة التونسية قبل الحماية لاتمام دراستهم فى الخارج واذنت لهم السلطة الفرنسية بالرجوع بعد ان استتبت لها الحال ، وقد عادوا يحملون من الأفكار التحريرية ما يخولهم حق التقدم لتنوير الرأى العام التونسى وقياداته . وكان ابرز هؤلاء الشبان هو السيد على أبو شوشة صاحب جريدة الحاضرة . فاستطاع ان يجمع من حول الجريدة كتلة قوية من اصدقائه وغيرهم من مثقفى الزيتونيين والمدرسين ، وقاموا بحركة قومية ودينية ترمى من جهة ، الى تقوية روابط القطر التونسى بحركة الجامعة الاسلامية . وتطالب من جهة ثانية ، بتنفيذ الدستور التونسى .

واصبحت الحاضرة نقطة تجمع لرجال الفكر والوطنية امثال بشير

صقر ـ الذى كان مديرا للحبوس . وقد وجه الجريدة نحو مشاكل المغرب عموما . وتصادف ذلك مع اشتداد الأزمة المراكشية . فكانت الجـريدة توجه النقد لسياسة السلطان عبد العزيز الموالية للدول الأوروبية . وتنبـه الى خطورة الأطماع الأوربية بعد الاتفاق الودى . ومن الذين اشتهروا بتحرير هذه الصحيفة ، حتى اصبحوا يعرفون باسـم جماعـة الحاضرة : عمر أبو حاجب وعلى البقلاتى ثم الشيخ عبد العزيز الثعالبى ، الذى سيعلب فيما بعد دورا أساسيا فى الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى .

ولد الثعالبى لأب جزائرى سنة ١٨٧٩ . ودرس فى جامع الزيتونـة ثم فى الخلدونية واتم دراسته العليا فى المشرق العربى ، ثم عاد الى تونس سنة ١٩٠٤ ليعمل فى الصحافة الوطنية . وكان يصدر مجـلة سـبيل الرشاد . ومع تأسيس حزب تونس الفتاة دخل الثعالبى فى طور جـديد من أطوار الحركة الوطنية التونسية .

ـ ٢ ـ

تونس الفتـاة

تأسس حزب تونس الفتاة سنة ١٩٠٨ وهو كما يبـدو من تاريـخ تأسيسه ومن الاسم الذى اختاره لنفسه ، متأثر بحركة تركيا الفتـاة التى رجت العناصر الوطنية ، وخاصة خارج الدولة العثمانية ، من ورائها خيرا عظيما . ومن هنا يمكن تشبيه تونس الفتاة بالحزب الوطنى المصرى من حيث الأهداف والمثل ومسايرة حركة الجامعة الاسلامية تحت لواء الدولة العثمانية طوال فترة الحرب العالمية الاولى . وقد اتصل زعماء الحزب فى استانبول وبرلين وغيرهما من مدن معسكر دول الوسط بأقرانهم المصريين والمغاربة ولا سيما عبد العزيز جاويش عضو الحزب الوطنى المصرى والـذى ينتمى لأصل تونسى .

والمناسـبة التى ادت الى تأسيس تونس الفتاة ترجع الى سياسة الحماية نفسها . وذلك حين قررت السلطات الفرنسية تجنيس اليهود فى تونس كما فعل كريميو فى الجزائر من قبل . ونشط الزعماء التونسـيون فى شن حملة على مبدأ تجنيس اليهود ودعوا الى مقاطعة المتاجر اليهودية
فى شن حملة على مبدأ تجنيس اليهود ودعوا الى مقاطعة المتاجر اليهودية .
فساعد ذلك على رواج التجارة الوطنية ؛ واهم من ذلك تكون حزب سياسى باسم حزب التقدم ؛ يدعو الى مشاركة الوطنيين مشاركة فعالة فى حـكم البلاد مع بقاء نظام الحماية . وهذا الحزب هو الذى تطور الى تونس الفتاة سنة ١٩٠٨ تحت زعامة شخصية نابهة ؛ وهو على باش حمبة المحامى .

تنوعت ثقافات علي باش حمبة ، فبـــدأ في الزيتونة ثم بالمدارس الفرنسية في تونس • واتم دراسته العليا في باريس حيث حصـــل على اجازة الحقوق • واشتغل بالمحاماة زمنا • وعمل مع جماعة الحاضرة ومع حزب التقدم • ولكنه كان أشد تمسكا بالفكرة الاستقلالية فأسس لهـــذا الغـــرض حزب تونس الفتاة • وصرح الزعيم التونسي منذ ذلك الوقت بالدعوة لربط تونس بدولة الخـــلافة • وكان يصـــدر جريدة التونسي بالفرنسية ، ثم اخذ ينشر منها طبعة عربية يدير تحريرها الشيخ الثعالبي •

وفي سنة ١٩١١ احتلت ايطاليا طرابلس الغرب فاحدث ذلك ضجة كبرى في العالم الاسلامي • ولعب باش حمبة دورا فعالا في المغرب ، فكان هو وانصاره همزة الوصل بين الســـفارة العثمانية في باريس والقيادة العثمانية في طرابلس • وبذلك صارت تونس بفضله ممرا سريا للضباط والمتطوعين العثمانيين القادمين من أوربا الى طرابلس •

وليس من قبيل المصادفة ان يقع اول صـــدام بين التونسيين وبين السلطات الفرنسية عقب العـــدوان الايطالي على طرابلس ، واعني بذلك حادثة الجلاز الشهيرة في تاريخ تونس القومي • وسبب هذا الحـــادث بسيط في حد ذاته ، فالجلاز مقبرة تقع في احدى ضواحي مدينة تونس • وفي اول نوفمبر ١٩١١ ، قرر مجلس بلدى المدينة مسح المقبرة لمعرفة حدودها كي يتيح بيع الأراضي المحيطة بها لملاك اوربيين جدد • وقد شعر التونسيون بأن هذه العملية تنطوى على تدنيس لحرمة الموتى • فاجتمعوا في مظاهرة كبيرة على أرض المقبرة في اليوم الذى تقرر فيه مسحها • ولمـا حاولوا التدخل لمنع الموظفين من اداء هذه العملية ، اطلق رجال الشرطة عليهم النار وقتل منهم بضع عشرات : وكان هذا الحادث فرصة كي تعلن السلطات الفرنسية الأحكام العرفية ، وتبقى عليها عشر سنوات •

أما مغزى هذا الحادث فهو بعيد الأثر ، اذ يعتبر بداية الصراع بين الشعب التونسي وبين المستوطنين الأوربيين ، وخاصة الطليان الذين كانوا ينافسون سكان البلاد في الأعمال البسيطة : كما انه لم تمض بضعة اشهر حتى ثار العمال التونسيون احتجاجا على تمييز الايطاليين عليهم في الأجور ، ودعا باش حمبة عمال التـــرام التونســـيين الى الاضراب والى مقاطعة المؤسسات التجارية الأوربية : وحين رفض باش حمبة انذار الاقامة العامة بضرورة انهاء الاضراب ، تررت طرده من البلاد هو والثعالبي وطائفة من زعماء تونس الفتاة ، فاختاروا الاقامة بالآستانة حيث استطاعوا أن يستمروا في مكافحة الحكم الفرنسي في شمال أفريقيا بمعونة الحكومة العثمانية •

وفي الآستانة اتصل باش حمبة بكثير من قادة العالم العربي والاسلامي

اللاجئين اليها ـ امثال شكيب ارسلان ومحمد فريد ؛ وعبد العزيز جاويش ؛ والبارونى واحمد اغايف ؛ من مسلمى روسيا • وكان هذا الوسط يمثل نزعة خاصة من حركة الانبعاث الاسلامى ، ويلقى تأييدا من حزب الاتحاد والترقى على سبيل فكرة التضامن الاسلامى احيانا ، وعلى اساس السياسة الانتهازية لمعاكسة خصوم الدولة العثمانية فى معظم الاحايين • يدل على ذلك هذا التشجيع الكبير الذى لقيه زعماء المغاربة اثناء الحرب العالمية الأولى ـ حينما كانت الدولة العثمانية فى معسكر دول الوسط ضد فرنسا وحلفائها •

وفى هذه الاثناء تأسست بالآستانة هيئة لتحرير شمال افريقيا بتعاون رجالها مع اللاجئين • وقد استطاعت هذه الهيئة أن تقوم بدور فعال فى طرابلس بصفة خاصة حيث لقيت من السنوسية عونا كبيرا ؛ كما امتدت آثارها الى رجال الطوارق فى الصحراء الكبرى ، حتى اضطرت فرنسا الى فتح جبهة على حدود الجزائر وتونس الجنوبية وكان البارونى مبعوث الدولة العثمانية فى طرابلس يبعث برسله لنشر الدعوة فى الجزائر وتونس •

وفى سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨ تشكلت فى الآستانة هيئة كانت تعمل لمحاولة جديدة هى جمع اسرى المغاربة فى المانيا وتركيا ؛ وتنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزود بالسلاح والذخيرة ، وارسالها عن طريق الغواصات الى طرابلس • وكان مقررا ان يرأسها على باش حمبة بنفسه ، ليكون مندوبا عن الخليفة العثمانى لتحرير مسلمى شمال افريقيا من (الاستعمار المسيحى) (١) ولكن لم يكن لهذه التحركات اثر كبير على مجريات الحرب ، ولم يلبث على باش حمبة ان قضى نحبه قبيل توقيع هدنة مدروس • ومغزى هذه المحاولات هو دلالتها على اهمية الاسلام فى هذا الطور الأول من حياة الوطنية التونسية •

ـ ٣ ـ

الدستوريون

بينما كان على باش حمبة يناضل بطريقته الخاصة فى الآستانة ، فضل عبد العزيز الثعالبى العودة الى تونس • وكانت السلطات الفرنسية قد حلت تونس الفتاة منذ حوادث سنة ١٩١١ • فاضطر من بقى من اعضائه فى البلاد الى العمل خفية مستعينين ببعض افراد الأسرة الحاكمة ، وقد اعتقل معظمهم اثناء الحرب •

---

(١) الفاسى ص ٥٤ •

فلما وضعت الحــــرب اوزارها واطلقت بعض الحريات . ذهب الثعالبي الى فرنسا معلقا ؛ مثل كثير من زعماء الشرق الوطنيين . امل على مبادىء ولســن . كما هو معروف ؛ خيب مؤتمر الصلح في باريس آمال الشعوب المستعمرة . ولذلك اتجه الثعالبي الى الرأى العام عاقدا بعض الرجاء على اليسار الفرنسى ، فنشر كتابا شهيرا فى تاريخ الحركة الوطنية بعنوان تونس الشهيدة . ويعزى الى المحامى احمد السقا ؛ رفيق الثعالبي آنذاك ، تحرير هذا الكتاب (١)

وقد دلل الكتاب على مدى تقدم تونس قبل عهد الحماية . وكيف ان الحكم الفرنسى ادى . بسياسة الاستيطان واغتصاب الأراضى ؛ الى حالة البؤس والفقر التى آل اليها الشعب التونسى بعد الحماية . وخلص من ذلك ؛ الى ان تونس قادرة على حكم نفســـها بنفسها والى تفنيد الحجة الشائعة ، بأن هذه البلاد ليست مؤهلة لأى نوع من الحــكم الوطنى .

والواقع ان الثعالبي اظهر حتى ذلك الوقت تمسكا بمبادىء تونس الفتاة المبنية على فكرة الاستقلال التام . ولكن ظهرت فى هذه الأثناء طبقة جديدة من الشباب الوطنى . ومعظمهم من الذين تربوا فى مدارس فرنسية ؛ ترى البدء بالاصلاحات الداخلية . وتشبه من هـــذه الناحية حزب الامة فى مصر .

وفى يونيو ١٩١٩ قدم هؤلاء مطالبهم الى كل من الباى والمقيم العام ؛ وهى تتركز حول منح البلاد نظاما دســـــتوريا . فوعدهم الباى باجابة مطالبهم ، وازاء هذا الوعد قرر رجال الحركة تأسيس حزب يقوم على أساس المطالبة بنظام دستورى واطلقوا عليه اسم حزب الدستور .

ومع ان الشيخ الثعالبي لم يوافق على خطة هذه الحركة ، لكنه اعتبر ان اهدافها يمكن ان تكون مرحلة أولى نحو الاستقلال ، وعلى ذلك قبل التعاون معهم ، بل وتراس الحزب الدســـتورى مدة من الزمن ، بيد ان عواطفه مالت دائما نحو فكرة الاستقلال ؛ ولذلك استمرت الخلافات تظهر بينه وبين اعضاء الحزب من حين لآخر .

وقد لوحظ ان فريق المعتدلين ازداد تساهلا فى مطالبه بمضى الوقت واهتم بمسألة الأوقاف الأهلية التى شرع فلاندان فى تحويلها للاستعمار الأوربى .

---

(1) La Tunisie Martyre-Ouvrage annonyme Paris 1920.

ويدل على ذلك البرنامج الذى قدمه الحزب فى سنة ١٩٢٠ ، فهو يتضمن المبادىء الآتية :

انشاء مجلس تشريعى . يشترك فيه الاوربيون الى جانب التونسيين : ولعل التونسيين ارادوا ان يتخلصوا بهذا من الوضع الشاذ الذى عودتهم عليه الحماية وهو تغليب العنصر الاوربى ، رغم اقليته العددية ، فى المجالس ، ولكن اذا نظرنا الى الامر بمقياس تطورات العصر ، نجد ان اشراك الأوربيين فى مجلس تشريعى ، يعنى خلق حق ثابت لهم فى البلاد ، بينما لا تكفل لهم معاهدة الحماية هذا الحق بصفتها لنتيجة الاعمال الفتح والتوسع .

ويمضى البرنامج فى تعداد مطالب الحزب الأخرى ، وهى قيام حكومة مسئولة أمام المجلس التشريعى : وانشاء جيش قومى ، واستعادة اراضى الاستيطان ، وفتح جميع الوظائف الادارية للتونسيين ، ويلاحظ ان الثعالبى نزل على راى الأغلبية فقبل هذا البرنامج الذى هو ادنى مما طالب به فى كتاب تونس الشهيدة ، ووافقة على هذا الموقف كثير من اعضاء الحزب فى سبيل قيام حكومة دستورية .

لم يقتأ الثعالبى فى العمل بصفته الشخصية ، للمبادىء التى اعتنقها : فسافر الى فرنسا فى نهاية سنة ١٩٢٠ ، ولكنه اتهم بالتآمر على سلامة الدولة واعتقل بضعة اشهر وبعد الافراج عنه عاد الى تونس ، عازما على تولى قيادة الحزب الدستورى بصورة مباشرة . ونشط فى تكوين تشكيلات الحزب فى مختلف انحاء البلاد : متجاهلا فريق المعتدلين واصبح رئيسا للحزب ، والأستاذ احمد الصافى امينا عاما له .

وبينما اظهر الباى محمد الناصر تقاربه من حركة الثعالبى ، ارادت فرنسا أن تواجه تلك القوة الناشئة بتعيين مقيم عام يستطيع مواجهة هذا الموقف بالشدة . ووقع اختيارها على لوسيان سان ، وفى عهد هذا المقيم وقعت ازمة العرش الأولى . وصدرت مراسيم سنة ١٩٢٢ التى وسعت من سلطات المستوطنين باسم الاصلاحات .

ذلك أن التوتر بين الاقامة العامة والحزب الدستورى كان قد بلغ ذروته بمناسبة زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لتونس ، وتصريحه هناك : « بأن تونس ستظل مرتبطة بفرنسا الى الأبد » فشن الدستوريون حملة عنيفة على هذا التصريح ، أيدهم فيها الباى محمد ناصر ، ورفض أن يوقع بعض المراسيم الخاصة بالاصلاحات لأنه رآها غير كافية . فدست الاقامة العامة احد الصحفيين لينقل عن لسان الباى سخطه على الوطنيين ويتهمهم بالشيوعية .

وما ان اطلع الباى على هذا التصريح حتى ثارت ثائرته : وامر رجال حكومته بتكذيبه رسميا ، ولكن كلا من رئيس الوزراء ووزير التشريفات خشى من مواجهة الفرنسيين ورفض ان يعلن التكذيب ، فدعا الباى الصحفيين بنفسه واعلن تكذيبه للخبر وعزمه على عزل رئيس الوزراء ووزير التشريفات . وتشددت الاقامة فى معارضة امر العزل وقابل الناصر هذا التحدى باعلان تنازله عن العرش . وكان لهذا الاعلان صدى بعيد فى اوساط الشعب ، الا أن موت البـاى المفاجىء : الذى أحيط بكثير من الغموض والريبة ؛ جعل ازمة العرش هذه تمردون عواقب بعيدة ، فلم يلبث ان تولى العرش احد البايات الموالين لفرنسا وهو محمد الحبيب - فصادق على الاجراءات الجديدة .

اثبتت تصرفات الاقامة العامة للدستوريين ، ان الحكومة الفرنسية لم تقدر رغبتهم الاكيدة فى التفاهم معها باظهار روح الاعتدال ، بل ان السلطات الفرنسية رفضت مبدئيا التحدث مع الدستوريين بحجة أن الحماية انما وقعت مع الباى ، فهو وحده المؤهل رسميا للتحدث معها . وبدل أن تقابل الحماية المعتدلين فى منتصف الطريق اتخذت منذ نهاية الحرب عدة اجراءات لصالح الاستعمار منها :

١ - قرار المقيم العام فلاندان سنة ١٩١٩ بمنح الموظفين الفرنسيين علاوة قدرها ٣٣٪ وهى ما عرف بالثلث الاستعمارى ، هذا مع ملاحظة ان الميزانية التونسية كانت تتحمل نفقات الحماية ، وكانت تعانى من تكاثر الموظفين الفرنسيين ، حتى فى الوظائف الصغيرة .

٢ - فتح باب التجنس بالجنسية الفرنسية للمواطنين التونسيين . وقد انتفعت بهـذا القانون الطائفة اليهودية ؛ فاكتسبت امتيازات المستوطنين ، ولم يزد عدد التونسيين الذين قبلوا التجنس ، على الفين -

٣ - توصية الجمعية الوطنية فى اغسطس ١٩٢٢ ، بالابقاء على الوضع الراهن فى تونس وتشجيع الاستيطان لصغار الملاك ومتوسطيهم .

واذا كانت الادارة الفرنسية قد ادخلت فى هذه الفترة بعض التعديلات على الأنظمة التونسية . فانها لا تعدو ان تكون اصلاحات شكلية ، ولا تحقق مطلبا واحدا من مطالب الدستوريين : ففى سنة ١٩٢١ ، انشات الاقامة العامة وزارة عدل تونسية للاشراف على المحاكم الاهلية ولكنها عادت فنزعت عدة اختصاصات من هـذه المحاكم اهمها القضايا السياسية فضلا عن قضـايا الملكية العقارية التى نيطت ، منذ ادخال نظام تورنز ، بمحاكم مختلطة ، وذلك تامينا للملكيات المستوطنين .

ومن اهم الاصلاحات التى اعتبرها الفرنسيون كفيلة بارضاء المعتدلين من الزعماء التونسيين ؛ انشاء عدة مجالس محلية ، وقد نص مرسوم ١٣ يوليه سنة ١٩٢٢ على انشاء أربعة أنواع من هذه المجالس وهى :

اولا ــ المجلس الكبير ٠ ويتالف من قسمين متميزين : القسم الفرنسى ويمثل فيه المستوطنون باثنين وخمسين عضوا ، منهم ٢٢ يمثلون المصالح الاقتصادية الكبرى و ٣٠ تنتخبهم عامة الجالية الأوربية حسب توزيعهم فى كل اقليم ٠ ويتكون القسم التونسى من ٢٦ عضوا ، منهم عشرة أعضاء يختارون من بين ممثلى المجالس الاقليمية ٠ بواقع اثنين عن كل من الأقاليم التونسية الخمسة ، ويختار الباقون من بين أعضاء الغرف التجارية والزراعية ، وذلك بواسطة الاقتراع العام على قوائم المرشحين ٠ وتنحصر اختصاصات هذا المجلس فى مناقشة الميزانية ٠ ولكل من قسميه حق تقديم الاقتراحات التى يرأها ٠

ثانيا ــ لجنتان فنيتان تتفرعان عن هذا المجلس وهما لجنة المالية والأشغال ، ولجنة التحكيم التى تختص بفض ما قد ينشأ من خلاف بين قسمى المجلس الكبير ٠ وتتالف هذه اللجنة من سبعة أعضاء فرنسيين وسبعة تونسيين وتجتمع تحت رئاسة المقيم العام ٠

ثالثا ــ المجالس الاقليمية ، وتتالف من قسمين ؛ أوربى وتونسى مثل المجلس الكبير على ان الممثلين الأوربيين لا يستمتعون فيه بالاغلبية ، ولكن يرأس كلا من هذه المجالس الخمسة مراقب الاقليم الفرنسى ٠ وتتالف هذه المجالس من واحد عن كل مركز ، واثنين عن كل مجلس بلدى ، وثلاثة عن كل غرفة تجارية زراعية بالاقليم : وتناقش فى هذه المجالس المسائل الاقتصادية الخاصة بالاقليم ، كما تستطيع أن تفرض رسوما اضافية ضئيلة لتغطية بعض النفقات المحلية ٠

رابعا ــ مجلس المركز ، أو كما يعرف فى تونس (مجلس القائد) وتمثل فيه جميع قرى القيادة بواقع اربعة عن كل شياخة (١) ٠

اعلن الحزب الدستورى رفضه البات لهذه الاصلاحات المبتورة ٠ ولكن المقيم العام لوسيان سان نجح فى اجتذاب بعض الساسة للموافقة على النظام الجديد ٠ وقد الف هؤلاء من بينهم ما عرف باسم حزب الاصلاح ٠ وهم الذين تقدموا لانتخابات المجلس الكبير ٠ اما الحزب الدستورى فقد

---

(١) أنظر نص هذا المرسوم فى
Cambon, Annexe P. 307.

احاطه لوســــيان سـان بسياج من العراقيل فعلاوة على التجاء رئيسه الثعالبى الى الخارج ، منعت الصحف الفرنســية الناطقة باسمه والمؤيدة لـه من الظهور . لذلك نلاحظ ان فترة من الركود اصابت نشاط هذا الحزب الوطنى وامتدت نحو تسع سنوات من ١٩٢٢ ــ ١٩٣١ .

ومما يستحق الملاحظة ان حمق السياسة الفرنسية فى تونس هو الذى أعاد الحياة الى الحزب الدستورى . فقد نمت تصرفات الاقامة العامة عن تحد صارخ لشعور التونسيين الدينى والقومى على السواء . ومن اعمال التحدى هذه نستطيع ان نذكر عدة وقائع :

اولا ــ اقامة تمثال سنة ١٩٢٥ فى مدينة تونس للأسقف لافحرى . ذلك الأسقف الذى اشتهر فى تاريخ الجزائر بتحمسه الشديد للتبشير واغراء ابناء المسلمين بالتحول عن دينهم .

ثانيا ــ وبمناسبة مرور خمسين عاما على احتلال البلاد ، اى فى سنة ١٩٣١ ، قررت السلطات الفرنسية اقامة احتفالات عظيمة ودعوة رئيس الجمهورية الفرنسية لزيارة تونس . وخصص جزء من الميزانية التونسية للانفاق على هذه الاحتفالات . ومما زاد الطين بلة ان الاقامة العامة اعتمدت لهــــذه المناسبة ٢ مليون جنيه لعقد مجمع كنسى وصفه احد الاساقفة بانه سيكون مظهرا للصليبية الجديدة المسالمة (١) .

لقد ادت هـــــذه الأعمال الى اتحــــاد الشباب المثقف ثقافة غربية والارستقراطية المحافظة معا . الا ان الشبان كانوا أقدر على اســـتخدام الصحافة لاظهار نشاطهم السياسى فمنذ اكتوبر سنة ١٩٣٠ عاد الدستوريون الى اصدار جريدة صوت التونسى ، ولكن ضير من المقالات التى نشرت فى هذه الصحيفة وجود اختلاف بين تفكير الفريقين . ولذلك آثر الشباب المشبع بالثقافة الغربية انشاء جريدة مستقلة للتعبير عن آرائهم وان ظلوا متماسكين مع الاعضاء القدامى داخل الحزب . وفى سنة ١٩٣٢ استقل هؤلاء الشبان باصدار جريدة العمل .

وكمحرر فى هذه الجريدة ، برزت شخصية الحبيب بورقيبة كزعيم للاتجـــاه الجديد الذى يـــريد بناء الوطن التونسى على اسس اجتماعية وسياسية حديثة . فنلاحظ ان جريدة العمل كانت تعالج موضـــوعات اجتماعية واقتصادية لم يهتم لها المحافظون القدامى . من ذلك مثلا الدعوة الى تشجيع الصناعة القومية والتنديد بفتح تونس لبضائع الأجنبية دون

---

(١) الفاسى ــ ص ٦٠ وما بعدها .

قيد . وكذلك التفرقه بين الموظفين التونسيين والفرنسيين فى الاجر ، وارهاق الميزانية التونسية الضئيلة من اجل احد عشر الفا من الموظفين الفرنسيين الذين يتمتعون بامتيازات عظيمة . وقد اهتمت الجريدة بصفة خاصة بموضوع تحرير المرأة من تقاليد الماضى . والمطالبة بفتح جميع ميادين العمل والتعليم امامها .

كذلك اثار الشبان فى صحيفتهم احتجاجات قوية على نظام المخامسة الذى يحرم الفلاح من ثمرة عمله : فلا يعطيه الحق الا فى خمس المحصول الذى ينتجه بينما يستولى مالك الأرض على الأربعة اخماس .

لم تكن السلطات الفرنسية لتسكت عن عودة الدستوريين الى نشاطهم القديم ، ففى ٦ مارس ١٩٣٣ استصدر المقيم العام منسرون مرسوما يجيز للاقامة مصادرة الصحف وتعطيلها والقبض اداريا على الأشخاص الذين يهددون الامن . ولم يفت هذا القرار فى عضد الدستوريين ، بل على العكس دعا اقطاب الحزب الى عقد مؤتمر عام فى ١٢ مايو ، أى فى نفس التاريخ الذى فرضت فيه الحماية . وأهم ما نتج عن هذا المؤتمر هو قبول هيئة تحرير جريدة العمل فى الهيئة التنفيذية للحزب ، مما أثبت تماسك الأعضاء رغم اختلاف نزعاتهم . ويلاحظ ان نزعة الشبان الجديدة فرضت نفسها على هذا المؤتمر . فانصبت مطالبهم على الاصلاحات الداخلية الأساسية ، مثل مبدأ فصل السلطات واقامة المجلس التشريعى محل المجلس الكبير ، والاهتمام بنشر التعليم . وأصبح الحزب الدستورى بذلك شبيها بكتلة العمل المراكشى كما سنرى .

وكان جواب الاقامة العامة على هذا الموقف هو حل الحزب الدستورى ، ومع ذلك فان المستوطنين كانوا غير راضين عن منسرون لانه لم يتخذ اجراءات رادعة ضد اعضاء الحزب ، واخذوا يطالبون بتعيين مقيم عام يستطيع أن يحكم البلاد بطريقة حازمة . وكما هى العادة نزلت الحكومة الفرنسية على رغبتهم . فأرسلت المقيم العام بيرتون ، الذى اشتهر فى تاريخ تونس بالرجل ذى القبضة الحديدية .

لم يجابه بيرتون الدستوريين بالعداء الصريح فى بداية الأمر ، وانما عمد الى التحايل ، حتى نجح فى النهاية فى احداث الفرقة بين فريق الشبان وبين الدستوريين القدامى . فصرح لهم بانه سيفتح وظائف جديدة امام التونسيين ويجب عليهم ان يكتموا هذا الامر حتى ينتهى من اختيار الموظفين . ورفض الشبان خطة الكتمان ؛ وقالوا « ليس بين الوطنيين والاقامة ما يخفونه عن الشعب » . فكان ذلك هو مبدأ القطيعة بين فريق الدستوريين

القدامى والجـدد ، ومبعثها كما يتضح مسائل شخصية ثانوية اكثر منها عقائدية (١) ٠

وقد استمر الدستوريون فى مجموعهم متفقين على مبدأ الاستقلال على مراحل ، حتى فترة الحرب العالمية الثانية ٠

- ٤ -

الحزب الدستورى الجديد

انتهت هذه الخلافات بين فريقى الحزب الدستورى الى قطيعة تامة سنة ١٩٣٤ فقد دعت هيئة تحرير جريدة العمل الى اجتماع عام فى بلدة قصر هلال بجنوب تونس فى مارس ١٩٣٤ ٠ ورفض المحافظون القدامى حضور هذا الاجتماع ، فكان ان قرر الشبان فصلهم من الحزب ، وانتخاب الدكتور الماطرى رئيسا لهم ، والحبيب بورقيبة امينا عاما للحزب ، والذى اصبح يعرف باسم الحزب الدستورى الجديد ، وسميت لجنته التنفيذية بالديوان السياسى ، تمييزا له عن الدستوريين القدامى ، الذين ظلوا يرون فى الثعالبى الزعيم الحقيقى لهم ٠

وكان أهم ما انتقده مؤتمر قصر هلال على الحزب الدستورى القديم : قلة الاهتمام بالدعاية بين الجماهير وقصر الحركة على الطبقات البرجوازية والمثقفة ٠ لذلك ستضمن وسائل العمل الشعبية للحزب الجديد تفوقه المطرد ٠

والحق انه منذ مؤتمر قصر هلال والحزب الدستورى الجديد هو الذى يلعب الدور الأكبر فى الحركة الوطنية ، ولذلك يعتبر انصار بورقيبة هذا المؤتمر بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الكفاح التونسى ٠ فانه رغم الاعتدال النسبى الذى ابداه بورقيبة وصحبه ، فان السياسة الرجعية التى اتبعتها فرنسا من سنة ١٩٣٤ حتى حصول تونس على الاستقلال ، جعلت هذا الحزب لا يستمتع بالصفة الشرعية الا لمدة قصيرة جدا كما قضى زعماؤه معظم الفترة التى تمتد الى عشرين عاما فى السجن أو المنفى ٠ ولكى نفهم الأسباب التى مكنت لبورقيبة وصحبه تولى الزعامة محل الدستوريين

---

(١) يمكن مقارنة ما كتبه الفاسى فى « الحركات الاستقلالية فى شمال افريقيا » من وجهة نظر الدستوريين القدامى بما كتبه الحبيب تامر ، أو جرس Garas من وجهة نظر الحزب الدستورى الجديد ٠

القدامى يجب ان نتوقف مليلا لدراسة تنظيم الحزب الدستورى الجديد واهدافه ٠

ولد الحبيب بورقيبة فى منستير فى جنوب تونس سنة ١٩٠٣ وتلقى دراسته الأولى فى احدى المدارس الفرنسية ٠ ولكى يتم بورقيبة تعليمه العالى كان طبيعيا ان يرحل الى باريس حيث حصل على اجازة الحقوق ودبلوم العلوم السياسية سنة ١٩٢٦ ؛ واتصل مثل كثير من الشبان المغاربة باحزاب اليسار ٠ ومنها عرف وسائل التنظيم الحزبى وطبعها بعد عودته فى تونس ٠ فكان ذلك من بين اسباب تفوقه على الدستوريين القدامى ٠ واتجه بورقيبة بعد عودته الى تونس لى المهن التى توجه بطبعها الى الاشتغال بالسياسة ، وهى الصحافة والمحاماه ٠ ولكن نشاطه تميز عن زملائه من المشتغلين بالسياسة بأنه لم يكن محصورا فى اوساط المثقفين الضيقة ، بل نزل الى الشعب مباشرة ٠

ولقد اشتهر بورقيبة بتلك الجولات التى كانت تحمله الى أصغر القرى التونسية النائية ٠ ولما كان بورقيبة مشبعا بفكرة الديمقراطية كما شاهدها فى الغرب ، فقد بنى حزبه على قاعدة انتخابية شعبية ٠ فعامة الأعضاء ينتخبون اللجان الفرعية فى القرى والأقاليم ، وهذه بدورها تنتخب اللجان المركزية ، وتقوم الأخيرة بانتخاب الديوان السياسى للحزب ، مما جعل بعض الكتاب المؤيدين يشبهون الحزب الدستورى بحزب العمال البريطانى (١) ٠

اقترنت فكرة التحرير السياسى عند الحزب الدستورى الجديد بفكرة التقدم الاجتماعى ، الى حد أن بورقيبة كان مستعدا لادماج الفرنسيين والتونسيين فى بيئة ديمقراطية واحدة ، لو أن الحكومة الفرنسية لم تتعصب لكبار الملاك والطبقة الممتازة من الموظفين الفرنسيين فى تونس ٠ ونستطيع ان نتبين خلاصة راى الزعيم التونسى من هذه العبارة التى صرح بها فى نوفمبر ١٩٣٧ على أثر فشل تجربة المفاوضات مع حكومة الجبهة الشعبية ٠ فلم يحوله قط هذا الفشل عن ايمانه بضرورة التعاون مع فرنسا او على الأصح مع الأوساط التقدمية الفرنسية « ان حزبنا يسعى لتحرير التونسيين بمساعدة فرنسا ضد الأقلية من الاقطاعيين الفرنسيين والرجعيين التونسيين المتمسكين بالخرافات القديمة ٠ فكلاهما متعصب مثل الآخر ، ولكى نحقق هذا يجب أن نوحى بالثقة لفرنسا ولاكبر عدد ممكن من الفرنسيين ، ومن جهة اخرى يمكن بفضل المقاومة عرقلة كل سياسة تهدف الى الظلم والاستغلال والدكتاتورية » (٢) ٠

---

(1) Garas, P. 90 s. q.

(2) Bourguiba. P. 251.

بل انه ذهب الى القول بأن وضع تونس الجغرافى يحتم عليها التعاون مع فرنسا للتغلب على مشاكلها الاقتصادية · وكان طبيعيا ان يتجه الحزب الى الطبقات العاملة وان تصبح الحركة النقابية التونسية جزءا من تاريخ الحزب الدستورى الجديد · ذلك انه كما لاحظنا ، عند دراسة الجزائر · تداخلت المشكلة الاجتماعية تداخلا تاما مع المشكلة السياسية لأن الاستعمار لا يتمثل فى شمال افريقيا بالسيطرة بقدر ما يمثل الاستغلال الراسمالى ·

ولما كان الاحتكاك بين شمال افريقيا والاستعمار الفرنسى اعمق منه فى المشرق فقد ولد هذا الاستعمار نقائضه بصورة اشمل · من ذلك تقدم الحركات العمالية النقابية مستفيدة بنظائرها فى فرنسا ، وقيام هــذه النقابات بدور فعال فى الحركة الوطنية لم يظهر له مثيل فى نضال الشرق العربى السياسى · ولقد مر العمال التونسيون بتجربة الانخــراط فى الحزب الشيوعى الفرنسى ونقابته الخاصة المعروفة C. G. T. وادركوا بدورهم غلبة العامل العنصرى على العامل المثالى فى الحــزب الشيوعى الفرنسى حينئذ ·

ولذلك فكر احد الوطنيين التونسيين وهو الدكتور محمد القابسى فى تأليف نقابة خاصة بالعمال منذ ١٩٢٤ · ولكن السلطات الفرنسية حلت هذه النقابة سنة ١٩٣٢ · فاضطر محمد القابسى الى اللجوء الى مصر · فكان من أهم المطالب التى قدمها بورقيبة الى حكومة الجبهة الشعبية ، هــو السماح للتونسيين بتأليف النقابات الخاصة بهم · ولكن العمال الاوربيين وخاصة الطليان كانوا فى ذلك الوقت يتنافسون تنافسا شديدا مع الأيدى العاملة المحلية · فلم يكن فى استطاعة اى حزب يســارى فى فرنســا اغضــابهم ·

وقد ظهرت الروح العنصرية بجــلاء فى اضرابات حمام لنف ، من ضواحى مدينة تونس فى أوائل سنة ١٩٢٥ · حيث اســتنكرت طبقات المستوطنين العليا مشاركة العمال الأوربيين الوطنيين فى هذه الاضرابات · واقنعتهم بالانفصال عن الحركة العمالية الوطنية وانهاء الاضراب · وهكذا ادرك العمال التونسيون ارتباط المشكلة الاجتماعية بالأوضاع السياسية · ووجدوا فى الحزب الدستورى بديلا عن الهيئات النقابية التى حرموا منها وسيتوثق هذا الارتباط بعد أن يكون فرحات حشاد ، الاتحاد العام للعمال التونسيين فى سنة ١٩٤٤ (١) ·

---

(١) انظر مذكرة الحبيب بورقيبة عن النقابات فى كتابه ·
La Tuisie et la France P. 378.

ادرك بيرتون مغزى انتشار نفوذ الحزب الدستورى الجديد وتهديده لمصالح المستوطنين ، فاختص زعماءه بالقسط الاكبر من اضطهاده • ففى ٢ سبتمبر ١٩٣٤ قبض على ٢٠ من زعماء الحـــزب واقصاهم الى برج القصيرة على حافة الصحراء ، حيث يسود المناخ القـــارى ، وقد تحمل المعتقلون علاوة على هذا ، آلام الحبس المنفرد نحو سنة ونصف • اذ لم يطلق سراحهم الا بعد عزل بيرتون عند تولى الجبهة الشعبية الحكم سنة ١٩٣٦ ، ولقد عمد هذا المقيم العام الى قمع جميع المظاهرات التى قامت احتجاجا على اعتقال الزعماء • ولم يقتصر تعسفه على الناحية السياسية ، فلقد اشتهر بيروتون بمحاربته للتعليم • وكان يرى فى انتشار التعليم العالى بين التونســـيين خطرا على الحماية • ولذلك حدد عدد الذين يجوز لهم الحصول على الشهادة الثانوية • وكان للصحافة حظها من تعسف هـــذا المقيم الرجعى ، فلم يسمح الا للذين ترضى عنهم الاقامة العامة بالتحرير فى الصحافة العربية او الفرنسية •

ولما كانت حكومة الجبهة الشعبية قد ابدت نيتها لتغيير السياسة الفرنسية فى شمال افريقيا عامة ، فقد كان اقصاء بيرتون عن تونس خطوة أولية لاثبات حسن النية وقد بدأ خلفه أرمان جيون بنقل الزعماء الدستوريين من القصيرة الى قابس ، والتقى بهم هنـــاك اثناء جولته ، وافهمهم أن الحكومة الفرنسية مستعدة لاطلاق سراحهم •

ولما ابدى الحبيب بورقيبة مخاوفه من ان يكون اطلاق سراحه ثمنا للتنازل عن بعض الاهـــداف القومية نفى جيون أن يكون هذا هو تفكير الحكومة الفرنسية ، مما جعل الدســـتوريين يعلقون املا كبيرا على تلك الحكومة اليسارية • ولذلك ما كاد يخلى سبيل الحبيب بورقيبة وصحبه حتى ذهبوا الى باريس لمقابلة بييرفينو الموكل بشئون البحر المتوسط فى وزارة بلوم •

وفى باريس اظهر الدستوريون استعدادهم لقبول مشروع الاصلاح الذى وضعه فينو لتونس ، مع ابداء بعض التحفظات ، وذلك بالرغم من ان المشروع اشتمل على مبدأ خطير بالنسبة للسيادة التونسية ، وهو مبـــدا السيادة المزدوجة ، وان كان بورقيبة قد صرح فيما بعد عند سقوط حكومة بلوم ، أنه لم يدر بخلده ان المقصود من هذا المشروع هو تحقيق هذا المبدأ •

وتظهر فكرة السيادة المزدوجة من الفقرة الأولى للمشروع ، فهى تنص على قيام مجلس تشريعى منتخب بواسطة الاقتراع العام . على اســـاس وجود دائرتين انتخابيتين منفصلتين :

الاولى : تمثل المستوطنين الفرنسيين . والثانيه : تمثل المواطنين التونسيين . ولكل منهما عدد متساو من النواب . ولهذا المجلس حق اقتراح الميزانية وتقريرها مع احتفاظ الحكومة الفرنسية بحق المصادقة عليها . فكأن المشروع الجديد قد زاد عدد الاعضاء التونسيين بالنسبة لمجلس سنة ١٩٢٢ . ووسع اختصاصات المجلس الجديد الذى اصبح شبه مجلس نيابي . ولكنه خطأ خطوة الى الوراء : اذ جعل للمستوطنين حقا ثابتا في الاشتراك فى ادارة البلاد . وهو ما يقصد من عبارة السيادة المزدوجة . وهذا الحق لم تكن تمنحه معاهدة الحماية او حتى اتفاقية المرسى (١) . اما نقاط المشروع الاخرى التى كان من الممكن للحبيب بورقيبة الارتكاز عليها ليبرر قبوله للمشروع فهى :

١ ـ انشاء مجالس بلدية منتخبة ذات سلطات واسعة .
٢ ـ الغاء نظام الحكومة العسكرية من الجنوب التونسى .
٣ ـ التسوية فى الأجور بين العمال التونسيين والأوربيين .
٤ ـ التوسع فى التسليف الزراعى للمزارعين التونسيين .

واذا كان بعض المستوطنين الفرنسيين قد نادى بعد الحرب العالمية الثانية بتطبيق مبدأ السيادة المزدوجة فى تونس . فان مستوطنى ١٩٣٦ ما كانوا ليرضوا باشتراك التونسيين معهم فى حكم وطنهم الاصلى ، وكانت وسائلهم عادة لاحباط تنفيذ مشروعات الاصلاح هى اثارة الاضطرابات بين العمال التونسيين لافهام الحكومات بأن الشعب التونسى غير جدير بعطفها . ففى اوائل سنة ١٩٣٧ استثير عمال مناجم الفوسفات فى ملتوى بحيث استدعى الأمر مجيء قوات الجيش واطلاق النار عليهم ، بعد أن تحصنوا بمراكز بوليس الناحية . واعقب ذلك اضرابات اخرى فى بنزرت بسبب احتجاج عمال الشحن التونسيين على تمييز زملائهم الطليان فى الاجور .

اصبح من الواضح ان مشروع فينو لن يحظى بتأييد برلمان باريس . وخشى الحزب الدستورى الجديد أن تهبط سمعته لدى الرأى العام التونسى بعد ان تساهل هذا التساهل الكبير دون نتيجة . وتصادف ذلك مع السماح لعبد العزيز الثعالبى بالعودة الى تونس فى يوليو ١٩٣٧ . وحاول الدستوريون القدامى اعادة تشكيل الحزب رغم قرار الحل الذى فرض عليه ١٩٣٣ ، ولم تنقطع صلتهم خلال هذه الفترة بالثعالبى الذى ظل المرشد الروحى . دون أن يحتل منصبا رسميا فى تشكيلات الحزب .

واضحى فريق الشبان مهددا بفقدان الزعامة . ولذلك عمد الى تغيير سياسة الحزب الجديد تغييرا شاملا فى المؤتمر الذى عقد فى نوفمبر ١٩٣٧ . فأعلنوا تأييد الاضرابات العمالية . بل سعوا لقيادتها . وشجعوا

---

(1) Julien. P. 85.

انفصال النقابات التونسية عن النقابة الشيوعية الفرنسية . وانزوى الأعضاء الذين ارادوا الاستمرار على سياسة الاعتدال مثل الماطرى . وتأكدت زعامة بورقيبة للحزب الدستورى الجديد .

وفى هذه المرحلة من التنافس بين الدستوريين القدامى والجدد ، دار الجدل حول تحديد هوية تونس القومية . فكان بورقيبة يرى أن لتونس شخصية متميزة فهى بحكم الموقع الجغرافى حلقة اتصال بين العالم العربى الاسلامى ، وبين الحضارة الأوربية وهذا المزج بين الحضارتين يؤدى الى نزعة تشبه اصحاب فكرة المتوسطية التى اشتهر بها الدكتور طه حسين فى مصر خلال نفس تلك الحقبة حين أصدر كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » أما بالنسبة لبورقيبة فقد ترتب على هذه الدعوة نتائج عملية وهى الرغبة فى حصر الكفاح التونسى فى إطار اقليمى . وسيضطر الى الخروج عن هذا النطاق عندما تشتد به الأزمات .

اما الدستوريون القدامى فلم تنقطع صلاتهم بالشرق ذلك ان الثعالبى منذ اختلف مع الحبيب باى سنة ١٩٢٣ ، واضطر الى مغادرة البلاد . استمر فى دعوته الى تحرير تونس بالتعاون مع مختلف الهيئات الوطنية العربية . ومثل تونس فى مؤتمر القدس سنة ١٩٣١ بخصوص فلسطين . مذكرا بذلك بوجود تونس فى العائلة العربية . وقد جرت محاولات عند عودته سنة ١٩٣٧ للتوفيق بين انصاره وبين الحزب الدستورى الجديد ، ولكن دون جدوى . وظل الانشقاق قائما بين الطرفين حتى عقد الميثاق الوطنى سنة ١٩٤٦ .

تصدى الحزب الدستورى الجديد لقيادة الاضرابات التى عمت تونس سنة ١٩٣٨ مستفيدا بوسائله التنظيمية المتفوقة على الدستوريين القدامى وكان أشهر هذه الاضرابات وأكثرها تأثيرا فى مجرى الحوادث . هو اضراب الطلبة فى مدينة تونس فى ٩ ابريل ١٩٣٨ . فقد بدأ هذا الاضراب بالتفاف الطلبة حول دار المحافظة لتخليص استاذ اعتقلته السلطات الفرنسية ، وسرعان ما انتهى بمجزرة بشرية راح ضحيتها حسب تقدير التونسيين مائتان من القتلى وعدة مئات من الجرحى وان كانت السلطات الفرنسية لم تعترف الا بـ ٢٢ قتيلا ونحو ١٠٠ جريح .

وكانت هذه فرصة للتخلص من الدستوريين (المناوئين ، فبلغ عدد المقبوض عليهم من شباب الحزب نحو ثلاثة آلاف على رأسهم الحبيب بورقيبة . وصدر مرسوم بحل الحزب واعلان الأحكام العرفية . ولم يلبث أن ضيق الخناق على النشاط الوطنى مدة طويلة بسبب وقوع الحرب

العالمية الثانيه . وعندما اعلنت هذه الحرب كان بورقيبة ورفقاؤه مازالوا ينتظرون المحاكمة في احدى سجون تونس ، فتقرر نقلهم الى سجن قرب مرسيليا زيادة في الاحتياط .

- ٥ -

المساومات اثناء الحرب

اظهرت حوادث سنة ١٩٣٨ ان الخلاف بين فرعى الحزب الدستورى قد دخلته احقاد شخصية ، حيث ابدى القدامى ابتهاجهم باعتقال زعماء الحزب الدستورى الجديد ومحاكمتهم . وحاولوا ان يستردوا زعامة الحركة الوطنية اثناء فترة الحرب . ومن المعروف أن تونس كانت ، بخلاف الجزائر ومراكش التى احتلها الحلفاء دون مقاومة . مسرحا للقتال بين قوات الحلفاء والمحور مدة سبعة اشهر من نوفمبر ١٩٤٢ الى مايو ١٩٤٣ . وقد اختار (١) الالمان تونس لصد هجوم الحلفاء الآتى من الشرق عبر طرابلس ومن الغرب عبر الجزائر . وفى هذه الاثناء كانت القوات الالمانية هي السلطة الحقيقية فى البلاد .

وكان الباى محمد المنصف قد تولى العرش فى يونيو ١٩٤٢ . وقد تعرض الباى فى هذه الفترة لمساومة الفريقين المتحاربين ولكن دون الحاح . فذكر بأن السلطات الالمانيه عرضت عليه اسقاط الحماية نظير اعلان التعاون معها . كما أن روزفلت كاتبه لينضم الى صفوف الحلفاء .

الا ان الباى لم يشأ ان يرتبط بتلك المساومات المؤقتة ، وانما رأى الاستفادة منها لاسترداد مركزه . فرفض تلك العروض السخية التى تقدم بها الالمان ، والتى اشتملت على انهاء الحماية الفرنسية على البلاد ؛ وضم اقليم قسنطينة الى مملكة تونس . وكان جوابه على هذه العروض هو انه لا يريد من السلطات القائمة سوى الغاء مرسوم سنة ١٨٩٢ الخاص بانتزاع أراضى الاوقاف لمصلحة الاستيطان . وبتطبيق مبدأ المساواة فى الاجور بين الموظفين التونسيين والفرنسيين . واحترام الحريات العامة (٢)

---

(١) انظر للمؤلف : العرب والحرب العالمية الثانية .

(2) Garas. P. 142.

Kirk : middle east in the war

ومن الواضح ان الباى رفض التعاون مع المحور لعدم ثقته به من جهة . ولتدهور مركزه العسكرى فى ذلك الوقت من جهة اخرى .

وكان الباى يشعر بعداء نحو السلطات الفرنسية ؛ منذ ان عزلت والده محمد الناصر سنة ١٩٢٢ . فساءت علاقته بالمقيم العام ستيفا ، وهو اميرال عرف بروح الصلف . وقد أخرج الباى حين فاجأة بفقرة لم يكن قد اطلع عليها فى خطاب العرش . ورد فيها « واليوم أريد التحدث عن عزمى على متابعة التعاون لتوطيد الأواصر التى تربط دائما وابدا بلدينا وتضمن فى المستقبل . مثل ما عمل أسلافى فى الماضى ؛ سيادة فرنسا والعائلة الحسينية اللتين ما انفكتا سائدتين على القطر التونسى باتفاق كامل » (١) .

وكدليل على رغبة الباى فى استرداد سلطته اختار وزارة وطنية برئاسة محمد شنيق دون استشارة الاقامة العامة كما جرت العادة . ومثل فيها الحزب الدستورى بفرعيه مع تغليب جانب الدستوريين القدامى . فدخل الوزارة صالح فرحات أمين عام الحزب .

وكان الحزب الدستورى القديم اقرب الى المحور مثل كثير من الأحزاب اليمينية فى العالم العربى . فأصبح هذا أول دليل قدمه الفرنسيون بعد استيلاء الحلفاء على تونس لكى يتخلصوا من الباى والحركة الوطنية معا . ومن الادلة التى ذكرها الفرنسيون ايضا . منح الباى الأوسمة لكبار الضباط فى الجيش الألمانى . وعدم رده على خطاب روزفلت . ويبدو ان ما كان مباحا لسلطات فيشى من معاداة الحلفاء . لم يكن ليقبل من التونسيين حتى ولو كان تعاونهم مع الألمان اخف بكثير من تعاون سلطات فيشى .

وعلى كل فقد كذب الباى واقعة عدم الرد . وقال « انه كاتب روزفلت طالبا احترام حياد تونس ؛ ولكن المقيم العام هو الذى منع وصول الخطاب الى الرئيس الأمريكى .

وقد وقف الحزب الدستورى الجديد موقفا مشابها تقريبا من موقف الباى وان كان بطبيعة تفكير زعمائه اقرب لمعسكر الحلفاء . وبات موقف هذا الفريق محل جدل . فالسلطات الفرنسية قد لفقت التهم التى تثبت دخوله فى مساومات مع الألمان ولما كانت الوثائق الألمانية خالية ؛ على حد علمنا . من هذا الموضوع . فاننا نعتمد على رواية أعضاء الحزب الدستورى الجديد . فحسب رواية الحبيب تامر . وهو طبيب انضم الى الحزب اثناء اعتقال بورقيبة وكان من القلائل الذين اتيح لهم حرية العمل

---

(١) مأساة عرش ص ٣٦ .

اثناء الحرب . انه تلقى تعليمات سرية من الحبيب بورقيبة فى اوائل سنه ١٩٤٢ ، يحثه فيها على الاتصال بحركة المقاومة الفرنسية وسلطات الحلفاء .

ولما انتقل مسرح القتال الى تونس وادرك المحور قرب انسحابه من البلاد ، حاول ان يتخذ من بورقيبة اداة لمعاكسة الحلفاء فى المستقبل بخصوص وضع تونس السياسى . فاطلق سراحه من سجنه فى فرنسا . ودعته الحكومة الايطالية الى روما حيث احسنت استقباله . وطلبت اليه ان يستخدم نفوذه لدعوة الشعب التونسى الى التعاون مع المحور فى نظير اطلاقه . ولكن بورقيبة اشترط مقدما اعلان استقلال تونس ودعوة مؤتمر دولى للاعتراف به . وهو مالم تقبله ايطاليا . فاكتفت منه بتوجيه بيان فى ٦ ابريل ١٩٤٣ . شن فيه حملة على الاستعمار الفرنسى . ثم اضاف « وعلى الشعب التونسى ان يتنبه للأطماع الأجنبية الاخرى » . وعلى اثر ذلك سمح له بالعودة الى تونس بعد خمس سنوات على وجه التحديد من يوم اعتقاله سنة ١٩٣٨ وقد رفض بعد ذلك العودة الى اوربا برفقة قوات المحور المنسحبة .

كانت السلطات الفرنسية مصممة على استغلال اى منفذ للقضاء على النزعات الاستقلالية . فدبرت المؤامرات لكى تظهر لقيادة الحلفاء ان كلا من الباى والزعماء الوطنيين اعوان للمحور . والبستهم تهمة التجسس لحسابه . واغمضت القيادة البريطانية العين ، واعتبرت الباى اسير حرب وسلمته للقيادة الفرنسية .

وبناء عليه تركت للجنرال جيرو بعد اعادة احتلال تونس : الحرية المطلقة لاتخاذ جميع الاجراءات التى ادعى انها لازمة لحفظ الأمن . واتجه او[illegible] للانتقام من منصف باى لخروجه عن طاعة الاقامة العامة ، فاستصدر إمر[illegible] عسكريا فى ١٢ مايو بخلعه وتولية محمد الأمين باى على العرش خلفا له ، وهو آخر من تولى حكم البلاد من العائلة الحسينية .

واستند جيرو فى هذا الاجراء الى معاهدة الحماية : التى تنص على مسئولية فرنسا فى المحافظة على الأمن . ولكن الباى رفض توقيع التنازل عن العرش ، فنفى الى واحة الأغواط ليذوق فيها عذاب الحبس الانفرادى فى ظروف مناخية سيئة . وقد أوجد هذا الحادث بطلا شهيدا تتجمع حوله العناصر الوطنية . وكان الثعالبى وانصاره هم الذين ابرزوا مشكلة العرش ، وظلوا يطالبون بعودة الحاكم الشرعى . حتى قضى المنصف نحبه بمنفاه فى فرنسا سنة ١٩٤٨ .

ومما يجدر بالملاحظة أن الثعالبى حاول فى هذه الأثناء بعث سياسة

التضامن العربي فأرسل الى الحكومة المصرية مرحبا بقيام الجامعة العربية . طالبا اليها التدخل في هذه الأزمة . وقد لمح في بعض خطاباته ، الى ان فرنسا بعد ان عجزت عن الدفاع عن تونس أصبحت حمايتها غير ذات موضوع . ولكن مشكلة لعرش في تونس لم تترتب عليها آثار بعيدة ، مثل تلك التي ترتبت على أزمة العرش في مراكش سنة ١٩٥٣ . وذلك لاختلاف مركز الأسرتين الحاكمتين من جهة ، وفرق الزمن من جهة اخرى .

اتبع الجنرال جوان نفس السياسية العدائية نحو الحبيب بورقيبة . وحال دون نشر النداء الذى وجهه عند دخول الحلفاء تونس ، ودعا فيه الشعب التونسي الى التعاون معهم ضد العدو المشترك . وبدا برز القائد الفرنسي امام حلفائه . الاجراءات التي اتخذها ضد الدستوريين ، كتحديد اقامة بورقيبة . وحظر النشاط السياسي على اعضاء الحزب .

- ٦ -

سياسة جديدة

اذا كان الحبيب بورقيبة قد اظهر بعض الميول نحو الحلفاء اثناء الحرب على اساس المثل الديمقراطية والأهداف التحريرية التي ادعوها ، فان سلوك السلطات الفرنسية منذ نهاية الحرب قد دفع برئيس الحزب الدستورى الجديد الى تجربة سياسة جديدة .

وقد سبق ان اشرنا الى الصدى البعيد الذى احدثه تأسيس الجامعة العربية في شمال افريقيا . ولم يستثن بورقيبة من هذا التأثر رغم مواقفه من الفكرة العربية . وقام بمغامرة للفرار من تونس لينفذ عمليا السياسة التي عقد عليها الآمال ، وهى الاستعانة بالدول العربية المستقلة في المشرق لتحرير تونس . ويروى انصاره بكثير من التفصيل ، المخاطر التي تعرض لها فوق القارب الصغير الذى حمله بمحاذاة الشواطىء التونسية الى ان وصل طرابلس وكيف انه اكمل رحلته على ظهور الجمال حتى الحدود المصرية .

ويعتبر انتقال الزعيم التونسي الى القاهرة وانضمامه الى لجنة المغرب العربي تحولا هاما في اتجاه الحزب الدستورى الجديد . فمن المعروف أن هذه اللجنة كان يراسها الامير الخطابي . اشد الزعماء المغاربة خصومة للفرنسيين ، ويسيطر عليها حزب الاستقلال المغربي الذى يؤمن بأن وجهة

المغرب القومية وجهة عربية اسلامية واذا تتبعنا رسائل الحبيب بورقيبة في خلال هذه الفترة ، نلاحظ فعلا ميله الى فكرة التضامن العربي (١) .

وفي تونس حيث تولى صالح بن يوسف قيادة الحزب نيابة عن بورقيبة اثناء غيابه ، تمكن الحزب الدستوري الجديد من عقد مؤتمر وطني كبير في ٢٣ اغسطس ١٩٤٦ ، اشترك فيه ممثلون عن اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري القديم واتحاد نقابات العمال التونسية ، كما ارسل أبناء الزيتونة واتحاد الموظفين مندوبين عنهم الى المؤتمر . وفي هذا ما يدل على مدى نفوذ الحزب الدستوري الجديد ، وخاصة في المرحلة التي اتفق فيها تماما مع اللجنة التنفيذية للحزب القديم سواء في السياسة العربية ام في نبذ فكرة العمل ضمن اطار الحماية ، والمطالبة بالاستقلال التام .

ونظرا لاتخاذ جميع هذه العناصر صدرت قرارات المؤتمر على هيئة ميثاق وطني . اعلن هذا الميثاق سقوط نظام الحماية بعد أن بينوا الحيثيات القانونية والسياسية التي تجعله نظاما باليا . واهمية هذا القرار هو انه أول مطلب من نوعه في تاريخ الحركة الوطنية ينبذ مبدأ الحماية كلية . كما أكد الميثاق صفة تونس العربية ، وضرورة انضمامها الى الجامعة العربية بعد حصونها على الاستقلال (٢) .

ويبدو ان الظروف السيئة التي احاطت بالجامعة العربية حينئذ لم تعمل على تثبيت الاتجاه الجديد في نفس الزعيم التونسي . وهذا ما قد يفسر لنا عدم تنفيذه للمبادىء التي دعا اليها سنة ١٩٤٦ ، بعد أن آلت اليه السلطة الفعلية في تونس في عهد استقلالها .

ففي الفترة التي قضاها الحبيب بورقيبة بالقاهرة لم تكن مشاكل شمال افريقيا تشغل المشرق العربي بنفس الأهمية التي حظيت بها قضية فلسطين . فلم تول المسألة التونسية الاهتمام الذي أمله منها بورقيبة ، بل انها تركته يعيش في ظروف مادية سيئة . واصبح يحس بهوانه على الرأى العام العالمي . فهو حين يسافر الى الولايات المتحدة للدعوة لقضية تونس ، لا يستطيع مقابلة وزير الخارجية الامريكي الا بتوسط السفير السعودي .

فكل هذه العوامل جعلته يفكر في محاولة الاتصال بفرنسا مرة اخرى، فيجري محادثات غير رسمية مع الملحق العسكري بالسفارة الفرنسية

---

(1) Bourguiba P. 180 S. q.

(٢) الحبيب ثامر ص ١١٩ ـ ١٢١ .

بالقاهرة . ويظهر استعداده لعقد معاهدة مع فرنسا تضمن لها امتيازات استراتيجية واقتصادية واسعة . ولكن عقلية الساسة الفرنسيين لم يطرا عليها اى تطور . كما يتضح ذلك من مشروعات الاصلاح التى قبلوا ادخالها فى تونس فى السنوات التى تلت الحرب .

ففى سنة ١٩٤٥ تقرر رفع عدد الاعضاء التونسيين فى المجلس الاستشارى بحيث اصبحوا متساوين مع عدد الفرنسيين (٥٣ عضوا من كل فريق) وتشكيل لجنة عليا من سبعة أعضاء عن كل قسم لوضع الميزانية . كما تقرر زيادة عدد الوزراء التونسيين فى مجلس الوزراء . ومن الواضح أن هذه الاصلاحات ليس لها اية علاقة بمشكلة تونس السياسية ؛ وهى احترام السيادة التونسية ؛ بل على العكس تؤكد مبدا السيادة المزدوجة ، لأنها اباحت للفرنسيين الاشتراك فى المجالس المحلية . وعلاوة على هذا كان تمثيل هذه الجالية الأجنبية بصورة اقوى ، لأنه يقوم على أساس الاقتراع العام أما انتخاب الأعضاء التونسيين فيتم على درجتين.

وبالاضافة الى هذه النقائض . ثبت ان هذه المجالس الاستشارية ليس لها اثر يذكر على ادارة البلاد ، فلم يكن للمجلس حق مناقشة ميزانية الاستعمار الأوربى ؛ وحين رفض القسم التونسى مناقشة الميزانية ١٩٤٧ احتجاجا على محاباة المستوطنين . لم تعبا الاقامة العامة به واستصدرت مرسوما يبيح لمجلس الوزراء اقرار الميزانية فى حالة امتناع المجلس الاستشارى عن مناقشتها . ويظهر مدى اعتداء الدولة صاحبة الحماية على سيادة تونس ، من تخصيص بعض المقاعد فى مجلس الشيوخ الفرنسى للمستوطنين الفرنسيين فى الدولة المحمية .

تولى صالح بن يوسف رئاسة الحزب الدستورى اثناء غياب بورقيبة فى مصر ولكن السلطات الفرنسية لم تكف عن عرقلة نشاطه ؛ وخاصة بعد انعقاد المؤتمر الوطنى العام فى صيف سنة ١٩٤٧ الذى اشترك فيه الوطنيون التونسيون على اختلاف نزعاتهم . فقد هاجم البوليس المؤتمر اثناء الانعقاد وقبض على زعمائه ونكل بممثلى النقابات العمالية ، لأن العمال يجمعون الى اهدافهم السياسية ؛ مطالب اجتماعية هى اشد اضرارا بمصالح المستوطنين .

وليس من قبيل المصادفة ان تثار قبيل انعقاد الاجتماع اضطرابات بين عمال الشحن فى ميناء صفاقص ، مما اتاح لقوات الأمن تدخل والايقاع بالعمال ؛ وما يعقب ذلك من ازهاق للأرواح . والهدف المقصود هو اقناع سلطات الحماية بالتشدد ازاء العناصر الوطنية . وفعلا ظل نشاطها مكبوتا بضع سنوات بعد انتهاء المؤتمر .

وفى سنة ١٩٤٩ ادرك بورقيبة اليأس من تجربة الاعتماد على الجامعة العربية • فقرر العودة الى تونس مقتنعا بأن النضال الحقيقى يجب ان يكون على ارض الوطن • وعاود الكرة لتحقيق امنيته القديمة ؛ وهى التفاهم مع الفرنسيين مباشرة • وفى ابريل ١٩٥٠ ذهب الى باريس لهذا الغرض • ولكن الصعوبة التى كان يصطدم بها دائما هى استمرار السياسة الفرنسية على عدم الاعتراف بشرعية الحزب الدستورى الجديد منذ ان حل سنة ١٩٣٨ واعتقادهم ان من المخاطرة التفاهم مع ممثلى الشعب • ولذلك تمسكوا بالفكرة القائلة بأن الحكومة الفرنسية لا تعرف مفاوضا شرعيا سوى الباى الذى عقدت معه معاهدة الحماية ؛ بل ان بعض هؤلاء الساسة راح يشيع التهم الباطلة حول الدستوريين فاتهموهم بالانتماء الى الشيوعية الدولية •

وحتى يبطل الوطنيون التونسيون هذه التهمة • جعلوا الاتحاد العام للعمال التونسيين ينضم الى الاتحاد الدولى للعمال الاحرار ، وهو الاتحاد الذى تشترك فيه النقابات الامريكية ويعتبر معاديا للنقابات الشيوعية •

وقد اشرنا من قبل الى الصلة الوثيقة التى كانت تربط هذه النقابة ؛ التونسية القومية التى انشأها فرحات حشاد ؛ وبين الحزب الدستورى الجديد • بل ان انشاء هذه النقابة كان موجها بصفة خاصة ضد النقابة الشيوعية الفرنسية •

رأى روبير شومان وزير خارجية فرنسا ، ان تبادر حكومته برسم سياسة اصلاحية فى تونس متجاهلة الزعماء الوطنيين حتى تحتفظ بهيبتها وتخرج من المأزق فى نفس الوقت • وفى ١٠ يونيو ١٩٥٠ أصدر تصريحا مؤداه « ان الاستقلال الداخلى هو الغاية السياسية التى تسعى فرنسا لتحقيقها بالنسبة لجميع الدول التى تؤلف الاتحاد الفرنسى ومن بينها تونس » •

ذلك ان المشرعين الفرنسيين حين وضعوا اسس هذا الاتحاد ؛ ادخلوا فيه جميع البلاد الخاضعة للسيطرة الفرنسية بصرف النظر عن مركزها الدولى • وهذا يعنى بالنسبة للمحميات خطوة الى الوراء ، لان الروابط التى تجمع بين اعضاء الإتحاد ، حسب دستور سنة ١٩٤٦ ، تعتبر اشد تقييدا من معاهدة الحماية وادعى منها للبقاء ، فالاتحاد الفرنسى ليس مثل الكومنولث البريطانى ، فهو يتضمن وجود تفوق لدولة الاصل ؛ ويشترط الدخول فى هيئة دفاعية مشتركة بين اعضائه (١) •

(1) Henri Culman L. Union Francaise. Paris 1950.

ورغم هذه القيود التى ستلحق بتونس اذا ما قدر لها الانضمام الى الاتحاد الفرنسى اسرع بورقيبة الى اعلان اغتباطه بهذا التصريح ، وكذلك حاول روبير شومان اثبات صدقه فى تنفيذ السياسة الجديدة . بتعيين مقيم عام جديد من غير الرجال العسكريين . وتألفت وزارة تونسية اشترك فيهـا بعض الدستوريين من أجـل المفاوضة . الا أن المستوطنين الذين لا يمكن لاية حكومة فرنسية اغضابهم . ثاروا على سياسة روبير شومان ، واستطاع كولونا ممثلهم فى مجلس الشيوخ . التأثير على زملائه من احزاب اليمين والوسط . وقد ظهر من خلال الأزمة . التضامن الوثيق بين نواب شمال افريقيا ، فصرح الجنرال جوان ، وهو المقيم العام فى مراكش حينئذ ، بأن سياسة نهاون فى أى مستعمرة تنتقل عدواها الى البلاد المجاورة . وقدم مستوطنو تونس مطالبهم ، وهى تأكيد السيادة الفرنسية على تونس ، وانذار الباى بضرورة احترام المعاهدات ، واقالة الموظفين الذين ينتمون الى الحزب الدستورى من وظائفهم . وهى مطالب لا تقارن فى شدتها مع اعتدال النقاط السبع التى قدمها الحبيب بورقيبة عند سفره الى باريس واعتبرها اساسا للمفاوضات مع فرنسا . فهى تعد تراجعا عن الموقف الذى اتخذه الحزب سنة ١٩٤٦ . فان برنامج الزعيم التونسى لم يمس مبدأ الحماية نفســه ، وانما طالب بالغاء جميع مظاهر الادارة المباشرة ، مثل موافقة سكرتير الاقامة العامة على المراسيم والغاء وظائف المراقبين المدنيين الذين يشرفون على الأمن فى الأقاليم التونسية ، وتحويل الاشراف على الأمن الى سلطات محلية (١) .

ويلاحظ ان النقاط السبع لم تذكر عبارة الاستقلال ، بل دار محورها حول فكرة السيادة التونسية وضرورة احترامها . وتتمثل هذه السيادة فى تقوية السلطة التنفيذية التى تتألف من وزراء تونسيين فقط ، غير انها لا تمنع من اشتراك الفرنسيين فى المجالس البلدية . واخيرا طالب بورقيبة بانتخاب مجلس نواب بالاقتراع العام لوضع دستور لتونس وتحديد العلاقات المستقبلة مع فرنسا على أساس احترام المصالح الفرنسية .

* * *

كان طبيعيا أن تتغلب رغبات المستوطنين فى النهاية ، فقد صـور زعماؤهم حالتهم بشكل يستدر عطف الراى العام ، فهم ليسوا كبار ملاك زراعيين مثل المستوطنين القدامى ، وانما يوجد من بينهم عدد كبير من صغار الموظفين والعمال . وفى ١٧ أكتوبر اعلن المقيم العام ان المشكلة السياسية ليست ملحة فى تونس ، وأن الحكومة الفرنسية توجه اهتمامها من الآن الى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية . وذلك هو الأسلوب المتعارف

---

(1) Bourguiba Page 220. 230.

عليه لدى ساسة الاستعمار فى فرنسا ، حين يريدون قطع وسائل التفاهم مع الوطنيين بطريقة مؤدبة .

ومرة اخرى تتحمل انطبقات العاملة مهمة الرد على تعسف السياسة الفرنسية ؛ ويقوم العمال الزراعيون بمظاهرات فى انفيدافيل مركز من مراكز الاستيطان الاوربى ؛ ويقدمون عددا آخر من الضحايا . وتجد الادارة الفرنسية الفرصة سانحة لاعلان الأحكام العرفية والقبض على بعض الزعماء الوطنيين ؛ ثم تحاول التخفيف من وطأة العنف . فتصدر عدة مراسيم باصلاحات جديدة فى فبراير سنة ١٩٥١ ؛ الا ان هذه الاصلاحات تقوم على نفس المنهج والمبدا . فللمستوطنين الفرنسيين حق مشروع فى ادارة البلاد مثل التونسيين تماما ؛ وعلى ذلك يبقى تمثيلهم فى المجالس التشريعية والبلدية . ولكن ــ وهذا هو موضوع الاصلاح ــ لا يراس المقيم العام المجلس الاستشارى الكبير . وكذلك يحتفظ سكرتير الاقامة العامة بالاشراف على جميع المصالح . ولكن لا تشترط موافقته على قرارات مجلس الوزراء . اما الوظائف العامة فيمكن توزيعها بطريقة اعدل !! فالوظائف تقسم مناصفة بين التونسيين والفرنسيين ؛ والوظائف المتوسطة يترك ثلثاها للتونسيين ؛ وكذلك ثلاثة ارباع الوظائف الصغيرة . ورغم كل هذا فقد اعلن بورقيبة موافقته على هذه المراسيم جريا على مبدئه القائل ، خذ كل ما تستطيع لتستعين به على تنفيذ المرحلة التالية (١).وهاهم الفرنسيون انفسهم يصرحون بأن هذه المراسيم ليست الا دفعة اولى من الاصلاحات ؛ فعلى التونسيين الآن أن يسرعوا باستصدار المراسيم التالية . ولكن تمضى شهور وتتعثر المفاوضات امام تهرب الحكومة الفرنسية .

واخيرا يقدم محمد شنيق رئيس الوزراء مذكرة فى ٣ نوفمبر يضمنها الحد الادنى للمطالب التونسية ، وترد عليها الحكومة الفرنسية بالجواب الحاسم فى ١٥ ديسمبر الذى اعتبر رفضا باتا لهذه المذكرة . فهو يبدأ بتمجيد عمل فرنسا الحضارى فى تونس ويؤكد الصلات الأبدية التى لابد وان تربط مصير تونس بفرنسا ؛ وان اى اصلاح تقبله الحكومة الفرنسية لابد وان يكون مبنيا على ضرورة اشتراك المستوطنين فى اى نظام سياسى يتقرر اقامته فى تونس .

(1) Ibid. p. 250.

تجربة القوة

كانت مذكرة ١٥ ديسمبر ١٩٥١ حدا فاصلا : اثبت لانصار التفاهم مع فرنسا الا جدوى من اتباع الطرق الدبلوماسية · الا انه قبل ان ينفذ هؤلاء اجراء ما استعدت الحكومة الفرنسية لمواجهة الثورة المحتملة ، فعينت مقيما عاما جديدا من بين العسكريين هو الجنرال دى هوت كلوك · ووصل المقيم الجديد الى تونس على ظهر سفينة حربية فى يناير ١٩٥٢ ، ليفهم التونسيين انه عازم على استخدام القوة · وبدأ اعماله فى تونس بان طلب من الباى اقالة وزارة محمد شنيق ·

وقابل الدستوريون هذا التشدد بتشدد مثله ، فعقدوا مؤتمرا فى الخفاء فى ١٧ يناير اعلنوا فيه سقوط نظام الحماية · وصرحوا للمرة الاولى عن رايهم فى مستقبل المستوطنين فبعد ان كانوا يظهرون دائما الاستعداد للتسليم بامتيازاتهم ، قالوا بأنهم سيصبحون جالية اجنبية فى ظل الدولة التونسية المستقلة : لهم حقوق الاجانب العادية · وفى اليوم التالى قبض على جميع الزعماء الدستوريين · وابعد الحبيب بورقيبة الى طبرقة ثم الى جزيرة صغيرة قرب ساحل تونس خالية من السكان وسيئة المناخ ، تعرضت فيها صحته للتدهور · ولم يطلق سراحه الا بعد سنتين ونصف حين بدأ منديس فرانس يتبع سياسة جديدة نحو تونس ·

وركز دى هوت كلوك أعمال القمع فى المناطق التى اشتهرت بتمردها على السلطات الادارية : وكانت دائما مركزا لنشاط الوطنيين الخفى ، واعنى بها الساحل الجنوبى الشرقى حول راس بونا · فاطلق ذئاب الفرقة الأجنبية للتنكيل بقرى الصيادين التى تنتشر فى المنطقة · وفى مدى اربعة أيام (من ٢٨ الى ٣١ يناير) ارتكب جنود هذه الفرقة من الفظائع ما سجل صفحة سوداء فى تاريخ الاستعمار الفرنسى بتونس · ونرى من المناسب ان نسجل هنا بعض الوقائع التى وردت فى تقرير لجنة التحقيق التونسية مكتفين بذكر ما اعترفت به لجنة التحقيق الفرنسية نفسها ، وما شاهده دافيدسن مراسل أسوشييتدبرس !

١ — فى قرية بنى خبار ، دمرت ١٠ منازل وسلبت ١٠ اخرى ·

٢ — فى قرية معمورة ، دمرت ٦ منازل وكتاب · وقتل ثلاثة من بينهم امرأة حامل ·

٣ — فى تزرقة · دمر ١٥ منزلا وسجلت حوادث انتهاك عرض : قتل اثناءها غلامان واربعة من الاطفال الرضع لأن امهاتهم حاولن الاحتماء بهم ·

٤ ـ فى قرية كليبية ، قتل خمسة افراد ودمرت عدة منازل . وغرم الاهالى ٢٨٠ الف فرنك (١) .

وازاء هذا الاسراف فى سياسة العنف تحول الباى نفسه الى معارضة المقيم العام فرفض اقالة وزارة محمد شنيق ؛ وبعث برسالة استنكار الى رئيس الجمهورية الفرنسية ولكن الرئيس الفرنسى اتخذ موقفا سلبيا مما اياس الباى وجعله يخضع اخيرا لتهديد المقيم العام ويقيل الوزارة ؛ بعد ان كان دى هوت كلوك قد اعتقل معظم اعضائها لانها جرؤت على رفع شكوى ضد فرنسا الى مجلس الامن . واختار دى هوت كلوك لرئاسة الوزارة التونسية صلاح الدين بن باكوش ؛ احد الاقطاعيين الذى الف وزارة كل اعضائها من طبقة الملاك الزراعيين . ذلك أن جميع المثقفين ، حتى المعتدلين منهم ، انفوا من التعاون معه . وشعر دى هوت كلوك بضرورة عمل شيء يقوى به مركز ابن باكوش ، فوضع بدوره مشروع اصلاح جديد ، والفكرة الجديدة التى ادخلها فى مشروعه ؛ هى احلال مبدأ سيادة الباى محل مبدأ السيادة التونسيه الذى يتمسك به الوطنيون غير أن مشروعه لا يختلف فى لبه عما رايناه فى المشروعات الفرنسية السابقة .

عادت الحالة فى تونس سنة ١٩٥٢ الى نفس الوضع الذى كانت عليه ايام بيرتون سنة ١٩٣٤ . ويبدو ان الظروف الخارجية ساعدت دى هوت كلوك على المضى فى سياسة العنف ؛ فقد قبل مجلس الامن وجهة النظر الفرنسية بعدم اختصاصه ورفض المجلس فى ابريل ادراج المسالة التونسية فى جدول اعماله . وفى فرنسا تعاقبت حكومات يمينية ، من انطوان بينيه سنة ١٩٥٢ ، الى جوزيف لانيل سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ ، ويشتد المستوطنون فى مطالبهم معترضين على تحويل بعض الوظائف الى التونسيين . ويؤيدهم دى هوت كلوك مستدرا عطف الراى العام عليهم حين يصرح بأن عائلات المستوطنين كثيرة العدد ، وان عدد الوظائف المحدود فى تونس لا يحل مشكلة الشباب التونسى المتعطل (٢) .

وفى هذه الاثناء تقوم ثورة ٢٣ يوليو فى مصر .

ويشعر الباى أن العروش لا تستقر تحت اصحابها الا لم يسايروا رغبات الشعوب ويحاول أن يمحو الذكرى اللاصقة به ، منذ قبل ارتقاء

---

(١) نشر تقرير لجنة التحقيق التونسية فى ٨ مارس سنة ١٩٥٢ ونقله Garras فى كتاب :
Bourguiba et la naissance d, une nation
(2) Julien, p. 217 s. q.

العرش على اكتاف الفرنسيين . وفي غداة الرد على مشروع دي هوت كلوك يجمع سيدي محمد الأمين باي مجلسا يضم اربعين من أعيان تونس ، ويبرق الى رئيس الجمهورية الفرنسية بما اتخذه المجلس من قرارات : وهي ضرورة احترام سيادة الحاكم الشرعي لتونس طبقا لمعاهدة الحماية ، ورغبه الباي في اشراك شعبه معه في الحكم . ولا شك ان دي هوت كلوك قد استشاط غضبا لهذا التصرف وفكر في خلع الباي . لولا أن الحكومة الفرنسية كانت تعلم انها هي التي اختارته بنفسها . ولذلك اكتفت بالرد على الباي قائلة : بان مجلس الاعيان لا يمثل احدا في تونس .

كان متوقعا ان تكون حكومة جوزيف لانييل اكمل تأييدا للمقيم دي هوت كلوك . فان جورج بيدو المعروف بعدائه للحركات الاستقلالية في شمال افريقيا كان وزير الخارجية في هذه الحكومة . ولكن الوزير الفرنسي كان قد بيت النية على أن يضرب ضربته القاصمة في مراكش ، بخلع السلطان محمد بن يوسف . فلم يشأ ان يوسع دائرة المشاكل الاستعمارية بالاضافة الى اشتداد القتال في الهند الصينية في ذلك الوقت .

ورأى الوزير الفرنسي أن خير وسيلة لتهدئة الاحوال في تونس هي ابعاد المقيم العام الذي اثار سخط الوطنيين دون أن يرضى المستوطنين ، واختار احد المدنيين وهو فوازار خلفا لدي هوت كلوك ، وكان المفروض ان مغزى هذا التبديل في الاقامة العامة ، هو ادخال اصلاحات جدية في هذه المرة لحل الأزمة التونسية . وفي ٤ مارس ١٩٥٤ صدرت مراسيم الاصلاحات ، ولكنها فاجأت التونسيين بخيبة الأمل فنظام مناصفة المقاعد في المجالس التشريعية بين المستوطنين والتونسيين ظل قائما ، بل ان هذه الاصلاحات ، كما علق عليها الحبيب بورقيبة : قد اختصت المستوطنين بتمثيل اقوى في هذه المجالس . لأن انتخابهم يتم بطريقة مباشرة ، أما التونسيون فينتخبون على درجتين (١) . ومن الاصلاحات الأخرى التي تضمنها مشروع فوازار :

زيادة عدد الوزراء التونسيين في مجلس الوزراء .

تطبيق مبدا الانتخاب بالنسبة للقواد بواسطة المجالس المحلية .

---

(١) حتى ذلك الوقت كان الحبيب بورقيبة يقر مبدا اشتراك المستوطنين مع التونسيين في المجالس النيابية والبلدية . ولكن ليس على اساس انتخابي او منحهم نصف المقاعد . وانما على اساس ان تختار الحكومة التونسية بعض أصحاب المصالح من الفرنسيين وتعينهم في هذه المجالس .

ولم تمض بضعة ايام على صدور هذه الاصلاحات . حتى لوحظ ان حركـــة المقاومة المسلحة . او الفلاجة كما يسميها الفرنسيون . قد بدات تتخذ شكلا منظما واسع النطاق . ولسنا نعتقد كما يذكر بعض الكتاب انها كانت رد فعل لخيبة الأمل التى احدثتها اصلاحات ٤ مارس . وانما كانت هى التطور الطبيعى لحركة النضال التى بدات سنة ١٩٥٢ . والتى اتخذت فى مرحلتها الأولى شكل اغتيالات فردية . ومن العوامل الهامة التى جمعت الشعب التونسى حول حركة المقاومة ، هو تنظيم المستوطنين لفرق انتقامية من بينهم باسم الارهاب المضاد Contre-Terrorisme لاغتيال المعروفين بوطنيتهم . وقد زاد من هذه التنظيمات خطورة وتهديدا لأمن التونسيين . ان البوليس الفرنسى كان يتستر عليها . ولا ادل على هذا من حادث اغتيال الزعيم النقـــابى الكبير فرحات حشاد على ايدى هذه العصـــابات فى فى ديسمبر سنة ١٩٥٢ . فقد ارتكبت الحادثة فى احدى ضواحى تونس فى وضح النهار وقيدت ضد مجهول .

ويمكن ذكر عاملين آخرين ساعدا على نمو حركة المقاومة المسلحة سنة ١٩٥٤ ، وهى :

اولا : ايجاد صلة وثيقة منظمة بين فرق التحرير التونسية وبين اكبر منضمة سياسية فى تونس . الا وهى حزب الدستور الجديد . وكان بعض الفرنسيين يحاول انكار هذه الصلة كى يثبت ان حركة الفلاحة ليست الا تجمعا لبعض المجرمين العاديين .

ثانيا : تولى بعض المجاهدين التونسيين . الذين تدربوا فى حرب فلسطين . قيادة « فرق جيش التحرير التونسى » .

بدات هذه المقاومة المنظمة فى الجنوب حول مدينة سوسة ، ومنها انتشرت الى الغرب حتى حدود الجزائر . ولكن لم يقدر لجيش التحرير التونسى أن يبلغ نفس النضج واتساع النفوذ الذى بلغه جيش التحـــرير الجزائرى فيما بعد . وذلك لقصر المدة التى استغرقها الكفاح التونسى المسلح. من مارس ــ ديسمبر سنة ١٩٥٤ . فعندما سلم المقاتلون التونســـيون السلاح فى ٩ ديسمبر لم يكن عددهم قد تجاوز ٢٥١٤ رجلا وان كان يجب اضافة عدد مماثل تقريبا . كان يشتغل لتموين جيش التحرير . كما ان خمسة عشر الف تونسى كانوا قد سجلوا اسماءهم فى فرق المقاومة دون ان ينخرطوا فيها نظرا لنقص السلاح (١) وتزايد ضـــغط الوطنيين فى المدن . وشملت اغتيالاتهم الخونة من التونسيين فضلا عن المستوطنين .

---

(1) Garas P. 229, s. q.

وشعر هؤلاء بأن حياتهم فى تونس اصبحت غير محتملة . ولذلك اقترح بعض التقدميين من المستوطنين فى مايو سنة ١٩٥٤ بأن تقبل الحكومة الفرنسية اى حل من شأنه انهاء الأزمة التونسية .

وإذن فحركة المقاومة قد بدأت تؤتى ثمارها منذ صيف سنة ١٩٥٤ . ومن شواهد ذلك نقل الحبيب بورقيبة من معتقله المنعزل الى الاراضى الفرنسية . فلما تقدم منديس فرانس الى الجمعية الوطنية يطلب الثقة بوزارته . كان مما اشتمل عليه خطابه . الوعد بحل الأزمة التونسية على اساس ديمقراطى . وبدأ المستوطنون يحسون بأن الحكومة الفرنسية الجديدة لا تنوى الخضوع لهم مثل سابقتها . لأن منديس فرانس كان من بين الساسة الفرنسيين القلائل الذين يدركون تغيرات العصر فأخذ المستوطنون يضعون العراقيل فى وجهه وقاموا بمظاهرات لاقالة فوازار المقيم العام .

وشعر منديس فرانس بضرورة اتخاذ عمل سريع يقطع على المستوطنين خط الرجعة . فما كاد ينهى مشكلة الهند الصينية بتوقيع اتفاقية جنيف فى ٢٠ يوليو ١٩٥٤ . حتى قام برحلة خاطفة الى تونس فى ٣١ من نفس الشهر . وهناك أعلن قبول حكومته لمبدأ الحكم الذاتى لتونس ، على أن يتم تحديد العلاقات بينها وبين فرنسا بواسطة المفاوضات بين الطرفين .

رحب بورقيبة من مكان اقامته الجبرية بهذه الخطوة . ولكن هذا لم ينه حالة اعتقاله ، فبقيت مشكلة اختيار المفاوض التونسى . وكان من العبث أن يبعد الحزب الدستورى . وهو اكبر منظمة سياسية فى البلاد ، عن هذه المفاوضات ، فاتفقت فرنسا وديا مع الدستوريين على تأليف وزارة جديدة برئاسة احد المستقلين . واختير لهذا المنصب . طاهر بن عمار ، وهو من كبار الملاك الزراعيين . على أن يشترك معه ثلاثة من الدستوريين ليتولوا مهمة المفاوضات . ووقع الاختيار على المنجى سليم ، ومحمد المصمودى ، وجلولى ، ليكونوا وزراء دولة فى حكومة ابن عمار . واشترطت فرنسا أن تكون بقية الوزارة من المحايدين فى هذه المرحلة .

كان منديس يأمل من وراء هذه الاجراءات انهاء حركة المقاومة المسلحة وفعلا وجه المقيم العام الجديد الجنرال بوييه دى لاتور نداءا الى جميع المقاتلين بتسليم اسلحتهم الى السلطات الفرنسية ، واعدا اياهم بعدم تعريضهم لأية مؤاخذة الا فى حالة ثبوت مخالفة للقانون العام . ولم يكن جيش التحرير التونسى غرا بحيث يطمئن الى هذا الوعد ، بل لوحظ أن القتال عاد فاشتد فى شهر سبتمبر ، واراد المستوطنون أن يتخذوا من ذلك حجة كى تتراجع حكومتهم عن سياستها ازاء تونس .

وربما كانت الحكومة الفرنسية مستعدة للتراجع لولا ان ثورة الجزائر هبت فى هذه الأثناء واصبح انهاء القتال فى تونس امرا ضروريا - ولذلك اضطرت الاقامة العامة الى وضع شروط جديدة لانهاء القتال فى تونس ، واصدرت بذلك بلاغا مشتركا مع الحكومة التونسية فى ٦ نوفمبر ١٩٥٤ وبمقتضى هذه الشروط لم تصبح سلامة المقاتلين التونسيين رهنا بوعد فرنسى فقط ـ بل بناءا على اتفاق بين الحكومة التونسية والاقامة العامة ٠

وينص هذا الاتفاق على ان تسلم السلطات التونسية تعهدا فرديا لكل مقاتل عند تسليمه لسلاحه ، وللمجاهد الحرية فى ان يسلم السلاح للسلطات الفرنسية او التونسية وحدد آخر موعد لقبول التسليم فى ٩ ديسمبر ٠ واعلن الحبيب بورقيبة والزعماء الدستوريون الذين تبعوه موافقتهم على هذه الشروط ٠

- ٨ -

الاستقلال على مراحل

ابرز موقف الحبيب بورقيبة من مسالة المقاتلين التونسيين ، الخلاف الذى كان قائما بصورة خفية بينه وبين سكرتير عام الحزب ، صالح بن يوسف الذى اعترض على مبدأ التسليم قبل الاتفاق على مسألة الاستقلال ٠

وكادت الحوادث تؤيد وجهة نظره ـ خاصة عندما اسقطت الجمعية الوطنية حكومة منديس فرانس فى ٥ فبراير سنة ١٩٥٥ ، بسبب سياستها فى شمال افريقيا ، واعاد المستوطنون المحاولة كى تقلب الحكومة الجديدة سياسة سابقتها مستغلين الظروف الجديدة التى ترتبت على تسليم جيش التحرير ، لولا ان خليفة منديس فرانس وهو ادجار فور - كان يعتبر نفسه زعيما لتجمع من الاحزاب عرف نفسه بأنه التجمع اليسارى الجمهورى ٠ فاتخذ خطوة حاسمة كى يقطع بها خط الرجعة على المستوطنين ٠ فدعا اليه الحبيب بورقيبة واصدر معه تصريحا مشتركا يقيد كلا الطرفين بحل وسط ، وهو تاكيد تصريح ٣١ يوليو بخصوص الحكم الذاتى ٠ مع النص على احتفاظ فرنسا بشئون الخارجية والدفاع ٠

ولا شك أن هذا التصريح ساعد على الاسراع بوضع التفصيلات التى اشتملت عليها اتفاقيات ٣ يونيو ١٩٥٥ بخصوص وضع تونس فى ظل الاستقلال الذاتى ٠

وكما سترى بعد قليل كانت هذه الاتفاقيات نجاحا لفرنسا أكثر منها لتونس ، ولا ادل على ذلك من أن بورقيبة نفسه ، راى فيها مجرد مرحلة نحو الاستقلال . ولو استمر العمل بهذه الاتفاقيات باكملها لتأيدت وجهة نظر صالح بن يوسف مرة اخرى فى معارضته لبورقيبة ، الذى وافق على وقف الكفاح المسلح ، وبذا فقد عنصرا من عناصر المساومة عند توقيع هذه الاتفاقيات ، لولا ان عدة ظروف طرات فساعدت الزعيم التونسى على التخلص من قيود تلك الاتفاقية فى وقت اقصر بكثير مما كان يتوقعه . وذلك حين اعلن فى ٢٠ مارس ١٩٥٦ . أن تونس دولة مستقلة ذات سيادة تتولى شئونها الخارجية وشئون دفاعها بنفسها ، مع الاحتفاظ ببعض الامتيازات لفرنسا .

ويمكن رد هذه الظروف الى عاملين اساسيين هما :

اولا : اشتداد الخصومة بين بورقيبة وصالح بن يوسف وانقسام الحزب الدستورى الجديد على نفسه .

ثانيا : تطور الثورة الجزائرية وازدياد وطأتها على الجيش الفرنسى .

وتفسير ذلك أن بورقيبة دعا زميله القديم صالح بن يوسف ، وحاول استرضاءه بجميع الوسائل حتى لا يضعف مركز الحزب فى هذه المرحلة الخطيرة التى تمر بها البلاد . ولكن صالحا اصر على موقفه ورفض حضور المؤتمر العام الذى دعا اليه رئيس الحزب فى اكتوبر ١٩٥٥ . ومع أن المؤتمر اعلن موافقته على سياسة بورقيبة الا ان هذا لم يمنع التفاف عدد كبير من التونسيين حول صالح بن يوسف . وكان معنى هذا انه سيتزعم حركة سياسية جديدة قبيل اجراء الانتخابات التى كان لا بد منها لاختيار جمعية تأسيسية تضع دستورا للبلاد فى ظل النظام الجديد .

وكان من الممكن ان يسوء مركز بورقيبة فى هذه الانتخابات لو بقيت الاتفاقيات مع فرنسا على حالها . ومعنى انتصار صالح بن يوسف ، هو زوال ما بقى من نفوذ لفرنسا فى تونس . وبهذا المنطق استطاع بورقيبة ان يقنع الحكومة الفرنسية بضرورة التخلص من الشروط القاسية فى الاتفاقية ، حتى لا يترك المجال لانتصار ابن يوسف ، وهكذا ظفر بورقيبة باعلان ٢٠ مارس ١٩٥٦ .

وفيما يلى تحليل لاتفاقيات ٣ يونيو ١٩٥٥ :

تتضمن هذه الاتفاقيات وثيقة اساسية تحتوى على المبادىء العامة التى تحكم العلاقات الفرنسية التونسية . فهى تنص فى مقدمتها على

ضرورة التعاون بين البلدين في جميع الميادين ، وتؤكد استمرار العمل بالمعاهدات المعقودة سابقا بين تونس وفرنسا ، اي انها تثبت وضـــع الحماية باستثناء المـادة الاولى في معاهدة المرسى ، التي اتخذت اساسا للادارة المباشرة . وعلاوة على هذا تؤكد في بند خاص ، استمرار فرنسا في تولي شئون الدفاع والخارجية (مادة ٢ ، ٥) وتقرر المـادة ٦ : مبدأ الامتيازات الخاصة التي يستمتع بها رعايا كل دولة في اراضي الدولة الأخرى ، مع ملاحظة ان مبدأ المعاملة بالمثل ليس له اهمية كبرى في مثل هذه الاتفاقيات المعقودة بين دولة كبرى واخرى صغيرة .

وتعترف المـادة السابعة : بأن اللغة الرسمية هي اللغة العربية ، ولكنها تضيف بأن الفرنسية لا تعتبر لغة اجنبيه . وتعتبر المـادة العاشرة متعارضة مع مبدأ السيادة القومية فهي تقـــول : « يعترف الطـــرفان بتضامنهما الكامل للدفاع عن امنهما . ولتحقيق هذه الغاية لا يجوز اتخاذ اي اجراء تشريعي بخصوص الدفاع او الأمن الداخلي او الاحصاء والتجنيد في تونس الا بموافقة الطرف الاخر » وتتعهد الحكومة التونسية بتنفيذ جميع الاجراءات اللازمة لمصالح فرنسا ومسئولياتها امام (العالم الحر) . ولتطبيق هذه الاجراءات داخل تونس تتكون لجنة مشتركة برئاسة القائد العام الفرنسي ، والذي هو في نفس الوقت وزير الدفاع التونسي .

والحق بهذه الاتفاقيه عدة ملاحق يختص احدها بكيفية التحكيم عند وقوع نزاع على تفسير هذه الاتفاقية . فقد حرصت فرنسا ان تبعد عن مثل هذا التحكيم اي هيئة دولية . ومن اهم هذه الملاحق . الملحق الثاني الذي ينص على ان فرنسا تشرف على جميع انواع المواصـــلات والمناجم والموانى ، بصفتها المسئولة عن الدفاع عن البلاد . وعلى اعفاء القوات الفرنسية المعسكرة في تونس من الضرائب الجمركية . وخصص الملحق الرابع لكيفية تحويل الشرطة الى الأيدي التونسية تدريجيا ، فنص على ان يتم ذلك في خلال ١٨ شهرا بالنسبة للريف ، وسنتين للمـــدن الكبرى . على أن يبقى رئيس الشرطة فرنسيا مدة عشر سنين .

والى جانب هـــــذه الاتفاقية العامة وقعت في نفس الوقت اربع اتفاقيات :

الاولى خاصة بوضع المستوطنين الفرنسيين ، وقد نصت على ان يحتفظ هؤلاء بقوانينهم المدنية . وان يشرف المندوب السامي الفرنسي على تطبيق هذه القوانين عليهم بواسطة موظفين تابعين له . كما اباحت لهم استعمال لغتهم الاصلية والتعلم بها دون التقيد بلغة البلاد الرسمية . وتحرم الاتفاقية على الحكومة التونسية التدخل بواسطة التشريع في

جنسية هؤلاء المستوطنين او حقهم فى التنقل بين فرنسا وتونس أو حتى فى اقامتهم فى البلاد ٠

اما بخصوص اشتراكهم فى المجالس النيابية وهو موضوع الخلاف القديم فقد حل حلا وسطا ؛ مؤداه ان يشترك المستوطنون فى المجالس البلدية دون التشريعية ، وان تكون نسبتهم فى جميع الاحوال اقل من النصف ٠ ومع ذلك فقد منحوا عددا من المقاعد يزيد على نسبتهم الحقيقية بين السكان ٠ اذ خصصت لهم ثلاثة اسباع المقاعد فى مدن تونس وبنزرت وفرى فيل ، وثلث المقاعد فى المدن الاخرى اذا كان عدد الفرنسيين ١٠٪ ، ومقعد واحد فيما عدا ذلك من الأماكن ٠

ثانيا : الاتفاقية القضائية : تنص هذه الاتفاقية على تبعية التونسيين لقضاء تونسى وطنى ٠ ولكنها تستثنى القضايا السياسية والمتعلقة بالأمن العام ؛ وكذلك حوادث اعتداء التونسيين على الموظفين أو رجال الجيش الفرنسيين ، فتحيل جميع هذه القضايا الى محاكم فرنسية (مادة٢و٦) ٠ وفى حالة وقوع النزاع بين رعايا تونسيين واجانب تحال القضايا الى محاكم مختلطة تقرر اقامتها تدريجيا بعد خمس سنوات ٠

ثالثا : الاتفاقية الثقافية : ويلفت النظر فى هذه الاتفاقية أمران :

(أ) النص على بقاء بعثة تعليمية فرنسية تحت اشراف المندوب السامى لادارة جميع المؤسسات التعليمية الفرنسية ٠

(ب) وهو الأهم ، النص على تعليم اللغة الفرنسية فى جميع مراحل الدراسة بالمدارس الرسمية التونسية ٠

رابعا : الاتفاقية الاقتصادية والمالية : لما كانت الشعوب المستعمرة ترنو قبل كل شىء الى التخلص من السيطرة السياسية الأجنبية ، فان كثيرا من زعماء هذه الشعوب يتساهلون فى منح الامتيازات الاقتصادية فى سبيل الحصول على الاستقلال السياسى ، ولا تتبين لهم مساوى هذه الامتيازات الأجنبية وعرقلتها لسياستهم القومية الا بعد ان يتولوا ادارة البلاد بانفسهم ٠ وهكذا جاءت الاتفاقية الاقتصادية محققة لجميع اهداف الفرنسيين فى تونس ٠ وتضع مقدمة الاتفاقية المبادىء العامة للعلاقات الاقتصادية بين البلدين على النحو الآتى :

تتوخى هذه الاتفاقية اقامة اتحاد اقتصادى كامل على قدر الامكان بين فرنسا وتونس داخل منطقة الفرنك ٠

وتعهدت الحكومة الفرنسية بغطاء النقد التونسى ، وضمان الدين العام وسد العجز فى الميزانية . وكذلك تعهدت فرنسا بمساعدة تونس لتصريف فائض انتاجها داخل منطقة الفرنك وخارجها . وفى مقابل هذا حصلت فرنسا على الامتيازات الآتية :

١ ـ الاشراف على اصدار الأوراق المالية فى تونس .

٢ ـ وضع نظم موحدة لتبادل النقد مع الخارج وتحويل العملة الأجنبية لدى الدولتين الى خزانة واحدة .

وتنص الاتفاقية على مبدأ الوحدة الجمركية ، وعلى أن يكون مدير الجمارك فرنسيا مدة سبع سنوات ، وتستثنى بعض الأحوال التى تتعارض فيها مصلحة احد الطرفين الاقتصادية مع اتحاد النظم الجمركية . (مادة ١١ و ١٢ و ٢٦) . وتعهدت تونس بأن تراعى الوحدة الجمركية مع فرنسا عندما تقوم بالعمليات التجارية مع الخارج .

ومن اهم الامتيازات ، هى حرية استثمار الأموال والمشروعات فى تونس بعد النص على ضمانات مشددة تمنع الحكومة التونسية من ممارسة حقوقها التشريعية ازاء الشركات ورءوس الأموال الأجنبية . وتنص المادة ٣٥ ، على أنه لا يجوز تغيير التشريع الخاص بالجمعيات والشركات ، القائم عند توقيع هذه الاتفاقية الا اذا كان المراد بهذا التعديل مطابقة القانون الفرنسى ، وكذلك تعهدت الحكومة التونسية بألا تتدخل فى نظام الملكية للأراضى الزراعية . وهو النظام الذى أتاح للمستوطنين امتلاك مساحات شاسعة ، هذا علاوة على حرية تنقل رءوس الأموال دون قيد .

ولما كانت الخزانة الفرنسية قد تعهدت بتقديم المساعدات والقروض ، فقد نص على انه لا يجوز للحكومة التونسية عقد قروض أجنبية دون موافقة الحكومة الفرنسية (مادة ٢) (١) .

---

(١) نصوص هذه الاتفاقيات منشورة على حدة بالعربية والفرنسية .

الفصل السابع عشر

فى مراكش

- ١ -

لم تكن مرحلة المقاومة المسلحة قد انتهت بعد ، حينما بدأ الوطنيون فى مراكش نضالهم على الصعيد السياسى . واذا كان الاسلام قد لعب دورا اساسيا فى بعث الحركة الوطنية التونسية ، فان اثره فى مراكش كان اقوى . ويدعى الكتاب الفرنسيون بأن الوطنية المراكشية نتاج لعهد الحماية ، لأن فكرة الارتباط باقليم معين لم تكن موجودة قبل ذلك العهد الذى جعل من مراكش وحدة سياسية واضحة المعالم .

واذا صح ذلك من بعض الوجوه ، فان ردنا على تلك الدعوة ، هو أن الاسلام كان بديلا لفكرة الاقليم عند نشأة الروح الوطنية المراكشية .

ولا يعنى هذا خلو الوطنية المراكشية تماما من فكرة الوطن الجغرافى والقارىء لكتابات الوطنيين يلمح احساسا بالأمجاد التاريخية الخاصة بمراكش . فهم يشيدون بذلك القطر الذى كان مركزا لدولة الموحدين وتزعمه للمغرب آنذاك . ويشيرون الى صمود دولة الاشراف السعديين امام التوسع العثمانى ونضالها فى وجه الأطماع الايبيرية . ثم ان كفاح عبد الكريم الخطابى ما يزال مثلا رائعا يشهد بمجد مراكش فى الحاضر مثلما كان فى الماضى .

دليل آخر على دحض الحجة الفرنسية ، وهو وجود حركة التجديد فى مراكش منذ أوائل القرن العشرين ؛ بل ظهور حركة دستورية عند تولى السلطان عبد الحفيظ للحكم سنة ١٩٠٧ ، وان لم تكن هذه الحركات فى الحقيقة قد بلغت نفس الدرجة من التقدم التى بلغتها فى تونس قبل عهد الحماية (١) .

---

(١) يروى الفاسى مشروعا مفصلا لدستور مراكشى سنة ١٩٠٧ انظر ص ١١٤ ، ١١٥ .

اما اهمية الباعث الاسلامى فتتمثل فى الأمور الآتية :

انتشار الطرق الصوفية ، ولكن هذه الطرق التى كانت فى القرن السادس عشر اداة بعث للجهاد ، اصبحت منذ تجديد الصراع مع اوربا فى القرن ١٩ ، اداة هدم وخيانة الا فيما ندر . فقد كان ماء العينين زعيم المقاومة فى الجنوب من رجال الطرق يتبع نفس اساليبهم القائمة على الخرافات للدعاية لنفسه . وهو على اتصال بالحركة السنوسية ، التى هى ايضا طريقة صوفية . غير ان معظم الطرق تعاونت آنذاك مع الاستعمار الأجنبى (١) .

فمثلا تعاونت الوزانية ذات النفوذ فى الجنوب الشرقى مع السلطات الفرنسية فى الجزائر . وكذلك قام عبد الحى الكتانى زعيم الطريقة الكتانية الحديثة ، بدور مخز خلال الأزمة المراكشية قبيل الحماية فقد تعاون مع ممثلى فرنسا ضد السلطان عبد الحفيظ . ونتج عن ذلك ان اهتم السلطان بتأييد حركة الانبعاث الاسلامى المضادة واعنى بذلك الحركة السلفية .

ولا يقتصر دور الحركة السلفية فى كفاح الاستعمار الاوربى على مراكش . فهى حركة متصله الحلقات مثلها جمال الدين الافغانى فى اقصى المشرق الاسلامى ، كما مثلها ابو شعيب الدكالى ومحمد بن العربى العلوى فى المغرب الاقصى . ويعتبر علال الفاسى زعيم حزب الاستقلال نفسه نتاجا لهذه الحركة ، فقد تلقى مبادئها على يد ابن العربى فى جامع القرويين ، بينما كان الدكالى ينشر نفس الدعوة فى الرباط . وقد كانت مهمة صعبة حقا ان تقتلع من اذهان الشعب الآثار العميقة التى تركتها التقاليد الصوفية على مر الأزمنة . ومما لا شك فيه أن موقف الصوفية من الاستعمار الأوروبى قد سهل عليه هذه المهمة .

ثم جاء الظهير البربرى فى سنة ١٩٣٠ ليؤكد الصفة الاسلامية للحركة الوطنية عند نشأتها . فان اول تشكيل منظم لتلك الحركة كان رد فعل مباشر لهذا الظهير . وقد اعتبر الظهير كما اشرنا من قبل ، سياسة تبشيرية تهدف الى تنصير البربر بالقوة . وتعاون شكيب ارسلان مع تلامذته المغاربة لاثبات هذه الحقيقة فى جميع اقطار العالم الاسلامى ، وحاول بنفسه دخول مراكش بهذه المناسبة ، ولكن السلطات الفرنسية ابعدته .

---

(١) انظر عن موضوع الطرق .

Odinot - le role politique des Confrèries Religieuses et Zaouias au Maroc.

ولما كـــان الامير أرسلان - الذي ينمى الى جبل لبنان ، من رواد فكرة العروبة فقد اتاح له الظهير الفرصة لكي يحث زعماء المغرب - وكلهم من حوارييه الذين اتصـلوا به فى مكتبه بجنيف على تطعيم الوطنيـــة الاسلامية بفكرة العروبة وان كان الاسلام ظـــل مقدما عند الوطنيين فى مراكش حتى بعد الاستقلال •

وقد عرف الظهير البربرى العالم الاسلامى بمشكلة مراكش قبـل غيرها من مشاكل الشمال الأفريقى • غير ان هـــذا الاهتمام ارتكز على المستوى الدينى ، فاهتمت به فى مصر جماعات مثل الشبان المسلمين وجمعية التوجيه الاسلامى ورجال الأزهر ، ومجلة المنار ، التى كـــان يصدرها رشيد رضا •

٢

كتلة العمل المراكشى

وفى مراكش بدأ الشباب حركتهم السياسية على هيئة جمعيات خاصة ذات أهداف تعليمية واجتماعية ، فيعزى الى عدد من صغار الشبان الذين تخرجوا فى المدارس الفرنسية تاليف جمعية من هذا النوع تعرف بجماعة انصار الحق • وكـــان أبرز شخصية فيها هو أحمد بلافريج الذى جمع الى دراسته الفرنسية الاولى ثقافة عربية تلقاها فى جـــامعة القاهرة • وكانت الرباط مثل الـــدار البيضاء من المدن المراكشية التى تأثرت اجتماعيا بالاستعمار الفرنسى • أما فاس التى عاشت بعيدة عن هذا التأثر ، فقد شهدت قيـام الجمعيات الدينية التى نشأت اصـــلا لمجابهة الطرق الصوفية وعقائدها ، ثم تحولت بحكم ظروف مراكش الى الاهتمام بالشئون السياسية •

وكان علال الفـــاسى من أبرز شباب القرويين الذين روجوا للدعوة السلفية • وعندما أصبح مدرسا بهذه الجامعة الدينية ، استطاع ان يحول دروسه الدينية الى محاضرات فى التربية القومية ، محرجا بذلك الاقامة العامة التى لم يكن من السهل عليها التدخل فى شئون الجامعة الدينية • وعندما علم شباب فاس بنشاط اخوانهم فى الرباط عمل كل فريق على التقرب من الآخر ، حتى كونوا نواة كتلة العمل المراكشى التى ستظهر كحركة سياسية واسعة النطاق بعد صدور الظهير البربرى •

ذلك أن نشاط تلك الجمعيات ظل محصورا داخل الفئات المستنيرة ؛

حتى اذا جاءت الاقامة ومست بالظهير البربرى العقائد الدينية . استطاع هؤلاء المستنيرون أن يقوموا بالدعاية الوطنية فيجدوا لها صدى بعيدا بين عامة الشعب . وبدأت مدن مراكش تشهد المظاهرات ، ويتعرض قادتها للاعتقالات . ولم تمر هـــذه الحوادث دون أن تترك أثرا فى السياسة الفرنسية ، فقد اعلنت الاقامة ان تطبيق الظهير البربرى امر اختيارى . وبناءا عليه اتت وفود من ايت زمور ، وآيت يوسى ؛ تعلن رفضها للظهير ثم لوحظ أن الاقامة العامة لم تكن جادة فى اعلانها .

وعلى ذلك استمر الشـــباب فى شن حملته حتى استطـــاع فى سنة ١٩٣٢ أن يصدر اول مجلة باسم الكتلة المراكشية للعمل . كـــانت تصدر فى باريس باسم مجلة المغرب وفى مراكش ، باللغة الفرنسية ايضا . باسم مجلة العمل المراكشى .

وحرصت الكتلة على توثيق صـــلتها بالمنطقة الخليفية . فتعاون علال الفاسى مع عبد الخالق الطريس وعبد السلام بنونة لانشاء فروع للكتلة فى الشـــمال . وذلك تثبيتا لفكرة وحدة الوطن التى سعت اليها الكتلة .

لم تكن الكتلة حتى ذلك الوقت حزبا ســـياسيا بالمعنى التنظيمى المعروف . وانمـــا هى تجمع للشباب المستنير على اختلاف ثقافاته . وفى سنة ١٩٣٤ نزلت الكتلة الى ميدان العمل الجماهيرى . وذلك بمناسبة زيـــارة السلطان لفاس فى مايو ١٩٣٤ وتدخل الاقامة العامة لمنع السلطان من الصلاة فى جامع القرويين ، احد معاقل الكتلة . والواقع أن زعماء الكتلة وخاصة علال الفاسى قـــد اجتذبوا محمد بن يوسف اجتذابا الى الحركة الوطنية بتكرار تصريحاتهم بالولاء للعرش ورغبتهم فى أن يتركوا للسلطان مطلق السلطات فى هذه المرحلة الاولى من تطور مراكش .

ولكن مشاركة السلطان للحركة الوطنية قد تمت تدريجيا . فبدأ حياته بالتعاون التـــام مع الاقامة وانتهى بتزعم الحركة الوطنية .

وبفضـــل كتلة العمل المراكشى (١) ذاق الســلطـــان للمرة الاولى سنة ١٩٣٤ طعم الشعبية ؛ لا كشخص مقدس يمنح البركة ، بل كزعيم للجماهير . ولم يغير الوطنيون موقفهم من السلطان حينما اصـــدر محمد الخامس بيانا يستنكر فيه هذه المظاهرات ، لانهم كـــانوا يدركون ظروفه الصعبة فى مواجهة الاقامة العامة .

---

(١) Le Tourne au L'afrique du Nord musulmane

كذلك يرجع الى هؤلاء الوطنيين الفضل فى اضفاء تقاليد الملكية العصرية على السلطنة العتيقة . فهم الذين استنوا الاحتفال بعيد الجلوس واطلقوا لقب الملك بدلا من السلطان ، وأعلنوا الحسن وليا للعهد ؛ ولم يكن للسلطنة نظام وراثى محدد . لذلك يرجح أن يكون السلطان قد تحول عاطفيا منذئذ الى جانب الحركة الوطنية ، وان لم يشأ ان يصرح بذلك .

وكان برنامج الكتلة الذى نشرته فى نوفمبر ١٩٣٤ متواضعا جدا ، يدل على أن واضعيه كانوا يريدون البدء بالاصلاحات الداخلية . ويشعرون بأن حالة مراكش تستدعى المرور بمرحلة طويلة تستعين خلالها بالحماية الفرنسية . فركزوا نقدهم على نظام الادارة المباشرة وطالبوا بتنفيذ روح الحماية ، أى اقتصارها على النصح والارشاد . وقد فصل هذا البرنامج الاصلاحات اللازمة فى مختلف الميادين (١) .

فبالنسبة للادارة طالب البرنامج بفتح باب الوظائف امام المستنيرين من المراكشيين حتى يتدربوا على شئون الحكم . وبضرورة فصل السلطات القضائية عن السلطات الادارية . ذلك أن ظهيرا صدر منذ سنة ١٩١٢ ، يمنح القواد والباشوات حق الفصل فى الشئون المدنية والجنائية ، بشرط الا يتجاوز ذلك حدا معينا من العقوبات ، وأساء الباشوات استخدام هذا الحق . فطالب البرنامج بفصل السلطات القضائية وتعيين الشباب المؤهل فى السلك القضائى مع توحيده بالنسبة لجميع انحاء البلاد . وهذا يعنى الغاء الظهير البربرى ..

كذلك طالبت الكتلة بتأسيس مجالس بلدية ومجالس للطوائف على غرار المجالس المخصصة للمستوطنين . على ان تكون هذه ، كما علق علال الفاسى مرحلة أولى نحو الحكم النيابى ؛ ولكن يبقى السلطان فى هذه المرحلة مالكا للسلطتين التشريعية والتنفيذية .

وفى ميدان الاقتصاد طالبت بتطبيق ميثاق الجزيرة ، أى احترام مبدأ الباب المفتوح ، نظرا لأن الصناعة الوطنية لم تكن قد تطورت بعد بحيث تحتاج الى حماية جمركية . وانما انتقد البرنامج سياسة فرنسا الاحتكارية . كذلك اهتم البرنامج بحق العمال المراكشيين فى تكوين النقابات أسوة بالاوربيين .

---

(١) Le mouvement national bureau de documentation et d'information du parti de L'istiqlal 1946.

اما فى ميدان التعليم ، فقد فترح البرنامج توحيد التعليم فى جميع انحاء البلاد . ومغزى ذلك ، الغاء المدارس البربرية التى انشئت اصلا لأغراض سياسية . وتعميم المدارس الابتدائية ، مع الاهتمام بصفةخاصة بالتعليم المهنى ، وارسال البعثات الى فرنسا ودول الشرق العربى . هذا علاوة على الاصلاحات الاجتماعية التى فصلها البرنامج .

ونظرا لاعتدال هذه المطالب ، فقد قبلت الاقامة العامة مبدأ مناقشته . ولكنها امضت فى ذلك وقتا طويلا ، حتى قام المستوطنون يحتجون على التفاوض مع الوطنيين سيما وان البرنامج احتوى على مبدأ حماية صغار الملاك الوطنيين من الاستعمار الرسمى . وتكاتف المستوطنون الزراعيون مع الموظفين الاداريين الذين كثروا تبعا لنظام الادارة المباشرة واصبحوا الصق بالمستوطنين منهم بالأداة الحكومية . وطالب الموظفون بتمثيلهم فى مجلس الحكومة الاستشارى أسوة بالغرف الزراعية والصناعية مع المطالبة بتوسيع سلطاته ، فلا يجوز للاقامة العامة اتخاذ اى اجراء ازاء المطالب الوطنية بدون موافقتهم ، وتلبية لهذه الرغبات ، عينت حكومة باريس مقيما عاما معروفا بتأييده لمستوطنى شمال افريقيا وهو بيرتون ، الذى سبق أن عرفنا سياسته فى تونس .

وكانت الكتلة ، مثل غيرها من الهيئات الوطنية فى شمال أفريقيا ، على اتصال باليسار الفرنسى . فأملت خيرا فى حكومة الجبهة الشعبية التى انتصرت فى انتخابات مايو ١٩٣٦ ولكنهم لم يكونوا أحسن حظا من اخوانهم فى تونس والجزائر . بل ان حكومة الجبهة ابقت على بيرتون مقيما الى ان وقع انقلاب فرانكو المعروف . فخشيت أن يقوم بيرتون بنفس المحاولة بالنسبة لفرنسا ، معتمدا على مركزه القوى فى شمال أفريقيا . ولذلك قررت عزله فى أكتوبر ١٩٣٦ . واختارت خلفا له الجنرال نوجيس ولم يكن اقل عنفا من سابقه فى محاربة الوطنيين .

٣

انشقاق الكتلة

اتبعت كتلة العمل المراكشى عدة وسائل للتعبير عن نشاطها السياسى فى هذه المرحلة الأولى ، منها اصدار المجلات والصحف ، ولم تكن الصحافة العربية قد نضجت سياسيا : لأن القليل منها الذى صدر فى البلاد كان يشرف عليه لنانيون . ومن بين هذه الوسائل انشاء المدارس الحرة تحت ستار التعليم الدينى ، والا تعرضت للاغلاق . وقد ضمت هذه المدارس نحو ١٥٠٠ تلميذ فى سنة ١٩٣٦ . ومنها أيضا

اشراك أصحاب الحرف والصنائع فى الحركة الوطنية ، اذ وجدوا فى هذه الفئة مجالا خصبا للاشتراك فى المعارضة ، لأنهم تأثروا بالصناعة الحديثة وكسدت تجارتهم وأخيرا حرصت الكتلة على اجتذاب السلطان للحركة الوطنية ٠

لم يكن نوجيس افضل كثيرا من سلفه ، وقد عرف بكثرة تقلباته ، فهو عندما تولى الاقامة العامة تظاهر باتباع سياسة جديدة واعلن عن نيته فى اطلاق الحريات ٠ وفعلا استطاعت الكتلة أن تعيد تحرير صحفها ، وخيل للقائمين بها أن الوقت قد حان لتشكيل حزب رسمى منظم ٠ وشرع علال الفاسى مع محمد الوزانى فى تنظيم الحزب على أساس أن يتكون من لجنة تنفيذية ، ومجلس وطنى ، ولجان فنية وفروع ، وتجتمع هذه الفروع فى مؤتمر وطنى لانتخاب لجنته التنفيذية ٠

قررت الكتلة انتخاب لجنة مؤقتة ، الى ان تسمح الظروف بعقد مؤتمرها الوطنى ، واسفرت الانتخابات عن الآتى :

علال الفاسى	رئيس
محمد الوزانى	امين عام
أحمد مكوار	امين صندوق
محمد اليزيدى	اعضاء
عمر عبد الجليل	
عبد العزيز بن ادريس	
محمد غازى	

وعلى أثر ذلك أعلن الوزانى انسحابه وتاسيس حزب مستقل باسم حزب الشعب ، ويستنتج من حديث الفاسى ، أن انسحاب الوزانى على اثر اعلان تكوين اللجنة انما كان مرده عدم رضاه عن تلك النتيجة (١) والحقيقة أن الانشقاق كان يخفى وراءه خلافات عقائدية ٠ فالوزانى ينتمى الى اسرة ارستقراطية ، درس مثل كثير من ابناء هذه الطبقة فى مدرسة العلوم السياسية فى باريس فهو متشبع بالثقافة الفرنسية ، ويرى الاهتمام بتطوير مراكش اجتماعيا وسياسيا فى أطار الحضارة الغربية ٠ ويركز اهتمامه على تطبيق الحكم النيابى ٠

واذا كان الفريق المحافظ من الكتلة يوافق مبدئيا على الحكم

---

(١) الفاسى ص ٢٢٤ ٠

الدستورى . فانهم يلحون فى ربطه بالنظام الملكى . وقد استمر هذا الخلاف فى التفكير الى أن بعث الحزبان ، بعد الحرب العالمية الثانية ، باسمين جديدين : حزب الاستقلال ، وحزب الشورى والاستقلال .

وقد تميز الحزب الوطنى عن منافسه بالاهتمام بربط مراكش بالعروبة والاسلام كما سيتضح ذلك عند بيان برنامجه . ومن ثم يمكن القول بأن الخلاف بين فرعى الكتلة ، يقابل الخلاف بين الدستوريين القدامى والمحدثين فى تونس ، مع هذا الفارق ، وهو أن الخلافات العقائدية لم تؤد بالزعماء الوطنيين فى مراكش الى الانقسام فى مواجهة السلطات الفرنسية .

استمرت اللجنة التنفيذية فى عملها باسم الكتلة ، بعد ان اختارت احمد بلافريج للأمانة العامة . ولكن السلطات الفرنسية راعها النشاط الجديد الذى دب فى الحزب ، فأعلنت حله فى ١٨ مارس ١٩٣٧ . ولم يلبث الفاسى وصحبه ان اعادوا تكوين منظمتهم تحت اسم جديد ، هو الحزب الوطنى لتحقيق المطالب المغربية ، بعد أن حذفوا من شروط عضويته يمين الولاء للكتلة ، باعتبار أن الاقامة قد تعللت بهذا القسم عند اصدار قرار الحل ، فادعت بأنه يتضمن فكرة الولاء لهيئة غير الهيئة الشرعية الوحيدة فى البلاد ، وهى السلطان . واستمر فى اصدار نفس الجرائد التى كانت تصدرها الكتلة منذ اواخر سنة ١٩٣٦ ، وهى الأطلس بالعربية والعمل الشعبى بالفرنسية .

وقد استطاع الحزب بعد جهود متواصلة ان يظفر باعتراف رسمى ، وأن ينشر مبادئه : التى توضح بجلاء نزعة اصحابه الدينية .

فهى تعلن ان المغرب بلاد متمسكة كامل التمسك بالاسلام . وان الاصلاحات فى جميع الميادين ، بما فى ذلك النظام النيابى والانتخابى ، لابد وأن تستمد من الشريعة الاسلامية . كذلك طالب الحزب بمكافحة التبشير فى بلاد البربر ، فكان يتتبع الحفلات الدينية التبشيرية ، ويقابلها باحياء الذكريات الاسلامية كالمولد النبوى وخلافه .

كذلك أسس الحزب لجانا خاصة بالتقويم الخلقى .

ومما يسترعى الانتباه أن الحزب خصص احدى لجانه للدفاع عن قضية فلسطين . وكل هذه امور تبرز الفرق بين اتجاه الحزب الوطنى وبين حزب الشعب . وتنم عن التربية الدينية التى طبعت زعيمه علال الفاسى .

ومن حيث نظام الحكم : اعلن الحزب صراحة تمسكه بالنظام الملكى كأساس للوحدة الوطنية ، مذكرا بأن البلاد لم تعرف مدة ١٤ قرنا شكلا للحكم غير الملكية وهذا لا يعنى أبدا ان الملكية لا تتطور الى شكل دستورى على غرار ما يجرى فى انجلترا او فى بعض البلاد الأسلامية اليوم (١) ٠

لم تطل حياة الحزب الوطنى ، فقد لاحقه الحل فى اكتوبر ١٩٣٧ وذلك على اثر الحوادث التى وقعت فى مكناس بسبب تحيز الادارة فى توزيع المياه لصالح بعض المستوطنين الزراعيين ، فعقد الحزب مؤتمرا فى ٢٣ اكتوبر ١٩٣٧ ، استنكر فيه التعدى على الحريات العامة وعلى ملكيات الوطنيين ٠ وأعلن تصميمه على مقاومة سياسة نوجيس ٠ وعلى اثر ذلك فى ٢٥ اكتوبر حل الحزب ، بل اعتقل زعماؤه وشردوا ٠ وكان مصير الفاسى هو النفى الى الجابون فى أفريقيا الاستوائية حيث استمر معتقلا مدة ٩ سنوات ١٩٣٧ ــ ١٩٤٦ ٠

توطدت الصلات بين الوطنيين فى المنطقة الخليفية وبين اخوانهم فى الجنوب وقد مارسوا نشاطهم باسم كتلة العمل ، وذلك قبل أن يتفرقوا الى حزبين سنة ١٩٣٦ كما حدث فى الجنوب ٠ وبالرغم من ان اسبانيا سارت على نفس طريقـــة الادارة المباشرة الا ان الوطنيين فى الشمال لم يصطدموا بروح الاستعلاء التى تميز بها المستوطنون الفرنسيون ،

اما اسبانيا فلم تحارب الثقـــافة العربية بنفس الشدة ، ولم تسع للتفريق بين عنصرى السكان ، بل ان التاثير كان متبادلا بين المراكشيين والاسبان ٠ ولم يستنكف هؤلاء من دعوة الجيش المرابط فى مراكش ، وهو يتالف من جند مغاربة يقودهم ضباط اسبان لاخماد ثورة العمال فى شمال اسبانيا سنة ١٩٣٥ ٠ كذلك اعتمد فرانكو فى الحرب الأهلية التى خاضها من سنة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ ، على عدد كبير من الجـــــند المغاربة ٠ ومن المعروف انه بدأ حركته انطلاقا من الحاميات الاسبانية فى مراكش (٢) ٠

وفى هذه الأثناء حاولت حكومة الجمهورية فى برشلونة ، المعـادية لفرانكو ٠ اغراء رجال الكتلة بالوعود ٠ ولكنهم رفضوا التعاون الا بعـــد حصولهم على شروط مقدمة ، من بينها استقلال المنطقة الخليفية ٠ ومع ان حكومة الجبهة الشعبية فى فرنسا كانت تميل الى حكومة الجمهورية الاسبانية ، التى تتالف مثلها من الاشتراكيين والشيوعيين ، الا انها رفضت

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٢ وما بعدها ٠

(٢) انظـر : Mellor p. 90 S. Q.

وهو يفصل الدور الهام الذى قام بـــه المغاربة فى حركة فرانكو ٠

تلك السياسة ، لأنها تهدد بانتشار الروح الاستقلالية · اما المستوطنون الفرنسيون فاظهروا ترحيبا شديدا بحركة فرانكو ·

ورأى الكوديلو الاسبانى (١) أن يسابق حكومة برشلونة ، فى استرضاء المراكشيين ، فاطلق حرية الصحافة وابدى استعدادا للتفاوض مع زعمائهم · وقد نتج عن هذا الوضع ظهور زعيمين من زعماء الكتلة ، هما عبد الخالق الطريس ، ومكي الناصرى ، فاسس الأول حزب الاصلاح، والثانى حزب الوحدة المغربية دون أن يكون بينهما خلاف على المبادىء فكلاهما متمسك بمبادىء الكتلة لا سيما ربط مراكش بالعروبة والاسلام · وعندما تحصل مراكش على استقلالها ، سيعود هؤلاء جميعا الى الانضواء تحت لواء حزب الاستقلال ·

وقد حاول حزب الاصلاح تشكيل منظمات عسكرية على غرار هيئة الفالانج الاسبانية ، فلم يسمح فرانكو باقامة مثل هذه التشكيلات · ومع ذلك فقد تفوق حزب الاصلاح على منافسه من حيث القدرة على اكتساب الأنصار ·

وتمشيا مع سياسته الجديدة ، اعلن فرانكو عن منح الوطنيين وزارتين : الاوقاف والمعارف ، على أن تكونا تابعتين للادارة الخليفية · وعلى هذا الأساس قبل الطريس تولى وزارة الحبوس ، وداود وزارة المعارف · وما لبثا ان تبينا ان الاقامة العامة مازالت تمارس اشرافها على الوزارتين بواسطة الصدر الأعظم ، فقررا الاستقالة · ومما يجدر بالملاحظة ان داود ، حاول أثناء الفترة القصيرة التى تولى فيها وزارة المعارف ، ان يوطد العلاقات الثقافية بين المنطقة الخليفية وبين مصر · ولم تعرقل اسبانيا ،مثل فرنسا حتى بعد الحرب العالمية الثانية ، تأكيد هذه الروابط العربية · ولكنها كانت مدفوعة فى سياستها بدافع الحسد نحو الشريك الذى فاز بالقسط الأكبر من الغنيمة ·

كما أن الخلاف المذهبى بين اسبانيا الفاشية وبين فرنسا ، في السياسة الأوربية العامة · قد ساعد على ايجاد الهوة بين البلدين فى سياستهما المغربية · وسيتبين هذا الوضع بصورة أوضح عند الحديث عن موقف اسبانيا من نفى السلطان محمد الخامس سنة ١٩٥٣ ·

---

(١) كلمة كوديلو بالاسبانية تعنى الزعيم ·

٤

الحرب ومولد حزب الاستقلال

اكتسب موضوع الصلة بالمحور ، بعض الأهمية فى المغرب فى فترة ما بعد الحرب . ويشبه المغرب فى ذلك كثيرا من بلاد الشرق الأوسط التى اثيرت امامها تلك المشكلة بمناسبة مطالبها بالتحرر من النظام الاستعمارى . فبرر الزعماء الوطنيون موقفهم بالمساعدات التى قدموها لقضية الحلفاء . بينما نفت الدول الاستعمارية هذه الحقيقة ، وحاولت ان تلصق بالوطنيين تهمة التعاون . او على الأقل الميل الى المحور .

ومما لا شك فيه ان مراكش الرسمية ممثلة فى شخص السلطان ، قد ابدت تأييدا صادقا لفرنسا . فأعلن السلطان فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ ، اى يوم قيام الحرب « من الآن والى اليوم الذى تكلل فيه جهود فرنسا وحلفائها بالنصر ، يجب علينا أن نقدم لها كل مساعدة دون أى تحفظ ، ولن نشح عليها بمواردنا ولن نتردد فى تقديم أى تضحية » ولما اضطرت فرنسا الى التسليم فى يونيو ١٩٤٠ ابدى السلطان تأثره الشديد . بيد أن سياسة حكومة فيشى نحو المستعمرات افقدت السلطان الثقة بفرنسا .

وبالرغم من أن الألمان ابدوا نشاطا فى مراكش فى فترة صعود نجمهم ، الا انهم لم يجدوا صدى لدى الوطنيين المغاربة . وكانوا يمارسون نشاطهم عن طريق منطقة النفوذ الاسبانية . ولعل الوطنيين فى مراكش كانوا يذكرون سياسة المانيا فى اوائل القرن ، وكيف انها تظاهرت بالدفاع عن استقلال البلاد . ثم تبين أن ذلك الموقف لم يكن سوى أداة لمساومات السياسة الألمانية . كما أن نزعة هتلر العنصرية ، وتعهده لفيشى باحترام الامبراطورية ، كان يتناقض وادعاءات بعض المبعوثين الألمان ، مع رغبتهم فى مساعدة الوطنيين .

وقد ترك الألمان حسب اتفاقية الهدنة لحكومة فيشى ، حق الاحتفاظ بقواتها الأساسية مع أسلحتها فى شمال أفريقيا . وسمحت بزيادتها الى ١٢٠ الف رجل ، رابط نصفهم فى مراكش . ولذلك اصبح موقف تلك القوات مشكلة بالنسبة للحلفاء حينما قرروا فتح جبهة فى شمال افريقيا قبل اوربا . وتكررت تصريحات فيشى قبل نزول الحلفاء عن نيتها فى الدفاع عن شمال افريقيا . وشارك المستوطنون حكومتهم هذا الشعور ، خاصة وانهم كانوا ساخطين على السياسة الانجلوامريكية، منذ تصريح الاطلسى الذى تضمن حق تقرير المصير .

ومع ذلك فقد بنى الامريكيون خططهم السياسية فى شمال افريقيا على اساس استرضاء السلطات الفرنسية . فابقوا العلاقات الدبلوماسية مع حكومة فيشي واكثروا من انشاء القنصليات فى شمال افريقيا . ووقعوا اتفاقا سريا مع الجنرال الفرنسى جيرو لكى يمهد الطريق للتعاون الفرنسى الامريكى ، دون اللجوء الى ديجول ، لانه اعتبر خصما للاوساط الاستعمارية فى شمال افريقيا .

ولم يدخل الامريكيون ، المغاربة فى حسابهم عند رسم تلك الخطط؛ بحجة ان انتشار الجهل والبؤس والقبلية ، يفقدهم التاثير على مجريات الحوادث . ولم ترد سوى اشارات عابرة الى احتمال الاستفادة من الامير عبد الكريم الخطابى ، او علال الفاسى ، وكلاهما بالمنفى .

ويقال بان انصار ديجول نصحوا الفاسى بالتفاهم مع زعيم فرنسا الحرة ، على سياسته المغربية فى المستقبل . ولكن ديجول بعد ان بلغته مساعى الولايات المتحدة وبريطانيا ، لاطلاق سراح الفاسى ، تراجع عن تلك الخطة حتى لا تتعرض سياسته المغربية لاى من انوع الضغط .

واوشكت الخطة الامريكية الرامية ، الى الاعتماد على الفرنسيين ان تفشل حينما شرعت فى تنفيذ غزو افريقيا فى ٨ نوفمبر ١٩٤٢ ، وكان من المقرر ان تبدأ القوات الامريكية بالنزول على سواحل مراكش المواجهة للاطلسى . وحسب تعليمات فيشى ؛ تصدى نوجيس فعلا لمقاومة القوات الامريكية لمدة ثلاثة ايام ، لولا ان تصادف وجود الاميرال درلان ، احد اقطاب فيشى فى الجزائر ، فاعلن استيلاءه على السلطة ، وقراره بايقاف القتال ضد الحلفاء . ولم تتدخل امريكا بعد ذلك لعزل نوجيس .

وعندما انعقد مؤتمر الدار البيضاء بين تشرشل ، وروزفلت فى يناير ١٩٤٣ انتهز الرئيس الامريكى الفرصة فقابل السلطان بدون وساطة المقيم العام ، كما تقضى معاهدة الحماية (١) ، واعتبر الفرنسيون ذلك دليلا على ان السياسة الامريكية ستؤيد فيما بعد مطالب مراكش الوطنية . ولا يستبعد ان يكون روزفلت قد تحول فعلا الى تلك الفكرة كما يبدو من تصريحه لابن سعود فيما بعد ، ولكن حتى لو عاش روزفلت ما كانت الولايات المتحدة تستطيع ان تناصب فرنسا العداء من اجل مراكش .

ويعزو الكتاب الفرنسيون تحول السلطان الى مشاركة الزعماء الوطنيين فى كفاحهم فى المرحلة التالية . الى تلك المقابلة التى اشعرته بانه

---

(١) Landau, part 5

شخصية دولية ذات شأن ، والى تجاهل الرئيس الأمريكى لهيبة المقيم العام ، وهـــذا التفسير يدل على مدى امتهانهم لشخصية السلطان ٠ والواقع ان هذا التحول قد اتى نتيجـــة لتطور تدريجى فى شخصية محمد الخامس وآرائه ٠

فقد كـان محمد هو الابن الثالث للسلطان يوسف ، فلم يعن والده بتدريبه على شئون الحـكم ٠ وعندما مات أبوه سنة ١٩٢٧ ، لم يكن قد تجاوز بعد الثامنة عشرة وخلافا للعادة المتبعة ، كان المخزن هو الذى اعلن بيعته بدون مشاركة علماء القرويين كما تقضى التقاليد ٠ ولذلك صـــار من الشائع ان للاقامة العامة يدا فى اختياره ٠ وقد شب محمد على رؤية ابيه يستـلم للاقامة ٠ وكل هذه العوامل تفسر لنا كيف ساير السلطان الجديد السياسة الفرنسية فى بداية حكمه ، الى حـــد اصدار الظهير البربرى فى سنة ١٩٣٠ ، ولكن السلطان لم يرض لنفسه بهذا الوضع ، فاقبل على الاطلاع وعلى دراسة الأوراق التى تقدم له ٠ ومنذ ظهور كتلة العمل وهو يحاول مقاومة الفرنسيين فى اتخاذه اداة للتنكيل بها ٠ فكان يترك للصدر الاعظم اصدار البيانات المعادية لها ، على انه لم ينتقل الى المساهمة فى الحركة الوطنية ايجابيا الا بعد سنة ١٩٤٣ ، وفى هـــذا العام آلت السلطة الفعلية فى شمال افريقيا الى ديجول ، وذلك حين اصبح رئيسا للجنة التحرير الوطنى الفرنسية فى الجزائر ، ولم يغير ديجـول شيئا من سياسة فيشى الاستبدادية نحو مراكش ، فهو قد عزل نوجيس ولكنه عين خلفا له جبريل بيبو ٠ وقد عمل بيبو مندوبا ساميا لفرنسا فى سوريا ولبنان قبيل الحرب ، وعلى يديه عطل دستور هذين البلدين فلم يرج الوطنيون من ورائه خيرا ٠ ومن جهة اخرى ادركوا أن الاعتماد على الولايات المتحدة وهم من الأوهـــام ، ولذلك قرروا الاعتماد على انفسهم ٠

فى يناير ١٩٤٤ ، وبينما كان زعماء البلاد فى المنفى ، اعـاد الوطنيون تشكيل حزب جديد باسم حـــزب الاستقلال ، يعتمد اساسا على بقايا الحزب الوطنى مع توسيع قاعدته ٠ فمثلت فى مؤتمر الحزب جمعيات المدرسين فى مدن مراكش المختلفة وكـــانت ممثلة رسميا فى مجلس شورى الحكومة ٠ وكذلك كبار الموظفين فى المخزن واساتذة القرويين ٠ وقد استعان المؤتمر بالطلبة الذين كـان الحزب الوطنى أوفدهم للدراسة فى القاهرة ٠ وظهر احمد بلا فريج كمحور لهذا النشاط أثناء غيـــاب الفاسى ٠

ويعتبر مؤتمر ١١ يناير ١٩٤٤ تحولا فى تاريخ الحركة الوطنية ، لا لأنه تمخض عن تأسيس حزب الاستقلال ، اكبر الاحزاب السياسية فى مراكش فحسب ، بل لانه قرر ايضا العدول عن سياسة الاستقلال على

مراحل . فطالب باسقاط الحماية مباشرة كشرط مقدم للتفاوض مع فرنسا . وشهدت مراكش فى الأيام التالية لتأسيس حزب الاستقلال المظاهرات الضخمة ، وما يعقب ذلك عادة من تدخل قوات الأمن وازهاق الأرواح ، واعتقال لمن بقى حرا من الزعماء الوطنيين . ومع ذلك لم يتوقف نمو الحزب المطرد ، فامتدت فروعه ، حتى الى المناطق البربرية . واصبحت كلمة (الحزب) وحدها ، تعنى عند المراكشيين حزب الاستقلال .

وهذه هى المبادىء التى أعلنها الحزب فى مؤتمر يناير ١٩٤٤ (١).

١ ــ المطالبة باستقلال المغرب ووحدة أراضيه ، والسعى لانضمامه الى هيئة الأمم المتحدة .

٢ ــ توثيق الروابط مع دول العالم عامة ؛ ومع الدول العربية والاسلامية خاصة .

٣ ــ وفيما يتعلق بنظام الحكم : يرى الحزب أن الأسرة الحاكمة، أسرة وطنية ويعلن ولاءه لها . وينادى فى نفس الوقت بتطبيق الملكية الدستورية ، ومنح الحريات الديمقراطية لجميع أفراد الشعب . ومنذ ذلك الوقت . استبدل الحزب لقب السلطان بالملك . واطلق عليه الملك محمد الخامس .

رفعت هذه المطالب الى السلطان فالف لجنة لدراستها ، واظهر منذ البداية عطفه على الحزب ومبادئه . وظل محافظا على هذا العطف حتى حصلت مراكش على استقلالها . فاختار معظم وزرائه من بين حزب الاستقلال ذلك ان مطلب الحزب الخاص باقامة ملكية دستورية لم ينطو قط على نقد للنظام الملكى القائم . بل على العكس كان السلطان نفسه يدعو الى الأخذ بالنظام الدستورى ، طالما ان سلطته المطلقة المزعومة لم تكن بيده بل بيد الاقامة العامة . كذلك التقى محمد الخامس مع حزب الاستقلال فى الايمان بأن وجهة مراكش عربية ، ويؤيد ذلك اشادته بالجامعة العربية فى خطاب شهير القاه بطنجة سنة ١٩٤٧ .

اما رد الفعل فى الاقامة العامة ، فقد كان عنيفا بالرغم من أن بيان حزب الاستقلال الموجه للحكومة الفرنسية صيغ فى عبارات معتدلة. وسرعان ما ارسلت حكومة باريس أحد مستشارى وزارة الخارجية ليهدد السلطان . كما أن الادارة الفرنسية فى مراكش بدأت تعتقل الزعماء ، مما ادى الى وقوع صدام بين البوليس الفرنسى وبين الوطنيين فى

(١) Parti L'istiqlal. Documents 1944 - 1046 N. I

الدار البيضاء . وكاد هذا الصدام يتحول الى ثورة عامة ، حين امتدت آثاره الى مدينة فاس .

فقد ظل السكان المدنيون فى هذه المدينة العريقة يناضلون قوات البوليس الفرنسي نحو عشرة أيام (من ١ — ١٠ فبراير) . وكذلك اتسعت حركة الاعتقالات حتى بلغت حسب تقدير المراكشيين خمسة آلاف شخص .

٥

تردد السياسة الفرنسية

تعتبر حوادث فبراير ١٩٤٤ ، بداية الأزمة التى لازمت العلاقات بين القصر الملكى وبين الاقامة العامة . وعندما انتهت الحرب العالمية ، أخذ السلطان يبعث باحتجاجاته العديدة الى الحكومة الفرنسية ، على تماديها فى حركة الاعتقالات وظنت حكومة باريس انها تستطيع التغلب على الأزمة بادخال بعض التغييرات الطفيفة فى ادارة مراكش . فعينت اريك لابون مقيما عاما فى أوائل سنة ١٩٤٦ وهو احد الاشتراكيين الذين عرفوا بدعوتهم الى الاصلاح فى شمال أفريقيا .

بدأ لابون اعماله فى مراكش باطلاق سراح معظم المعتقلين السياسيين ومن بينهم علال الفاسى . فماذا كانت حقيقة الاصلاحات التى دعا اليها؟. لقد اشتمل مشروع لابون على اقامة مجالس بلدية منتخبة فى المدن كمرحلة أولى نحو التنظيم النيابى ؛ ولكن نص على أن يشترك فى هذه المجالس المستوطنون الأوربيون على قدم المساواة مع المراكشيين ، فلم يرض مشروعه احدا من الوطنيين .

أما سياسته الاقتصادية فقد اغضبت المستوطنين ، لانها تقوم على فكرة اشراك رؤوس الأموال الوطنية مع الحكومة الفرنسية لتنفيذ المشروعات ، مثل شركة استخراج الفحم فى جرادة ، والشركة الجوية الفرنسية المغربية . وخيل اليه وهو الاشتراكى المذهب ، أن امتلاك الحكومة الفرنسية لجزء من هذه الشركات أو كلها ، يدل على اخلاصه للمبادىء الاشتراكية . الا أن هذا الأسلوب فى الحقيقة تأميم تراث وطنى لصالح دولة اجنبية .

ومثل كثير من دعاة الاصلاح ، ادعى لابون أن مراكش فى حاجة الى

تحسين احوال اهلها المعيشية قبـــل التفكير فى الاستقلال السياسى ٠ ولهذا الغرض شرع فى اقامة قرى جماعية يستغلها الفلاحون المراكشيون، على ان تمدهم الحكومة بالآلات الزراعية الحديثة ٠ واستاء المستوطنون الزراعيون ، لأن هذا سيحرمهم من الأيدى العـاملة الرخيصة ، واتهموا المقيم العام بانه يسعى الى ادخال نظـــام المزارع الجماعية على طريقة السوفييت الى مراكش ٠

اما رجال الصـــناعة ، وهم عـــادة اقل رجعية من المستوطنين الزراعيين ، فقد ايدوا اولا مشروع لابون لأنهم سيستفيدون منه ماديا ٠ ولما اثيرت مسالة شراء الآلات الزراعية من الولايات المتحدة ، لأنها ارخص ثمنا ، عادوا فهاجموا المقيم العام مع زملائهم الزراعيين ٠ وهكذا اصبح اقصاء لابون عن مراكش أمرا محتوما ٠ والواقع أن تجربة لابون القصيرة كان مقدرا لها الفشـــل ، لانه ورث جهازا اداريا ليس من المستطاع تغييره بالترقيع والاصلاحات الجزئية ٠

وكانت الحكومة التى استجابت لرغبات المستوطنين بعزل لابون فى ٤ مايو ١٩٤٧ هى حكومة اشتراكية يراسها رامادييه ٠ ذلك أن الاشتراكيين فى فرنسا كـــانوا يتعاونون حتى ذلك الوقت مع الشيوعيين ٠ ولكنهم شعروا بان تأييد الولايـــات المتحدة الزم لفرنسا فى مواجهة الظروف الدولية حينذاك ٠ فقرروا ان يكونوا حكومة ائتلافية مع احزاب اليمين ٠ وقد اختار رامادييه أحد اليمينيين المعروفين بعدائهم الشديد لحركات التحرير فى شمال افريقيا ، وهو جورج بيدو ، لتولى وزارة الخارجية ، واستغل الوزير الجديد خطاب السلطان فى طنجة ، الذى اظهر فيه ميوله العربية كى يقنع الحكومة الفرنسية بتعيين مقيم تتوافر فيـــه الشدة ، ويلبس الرداء العسكرى (الذى لا يرهب المراكشيون سواه ، شأنهم فى ذلك شأن جميع الشعوب البدائية) (١)

وهكذا وقع الاختيار على الجنرال جوان ٠ ولكى نفهم شعور المقيم الجديد نحو مراكش ، يكفى أن نذكر انه ابن أحد المستوطنين الفرنسيين بمدينة عنـــابة بالجـــزائر ، وشب على الأفكار الشـــائعة فى اذهان هؤلاء نحو الجنس العربى ، وفضلا عن هذا ، فان الجنرال نفسه يعد من كبار الملاك الزراعيين فى شمال افريقيا ، كما انه كان موضع ثقة حكومة فيشى والنازيين فى المنطقة ٠

امتد حكم جوان فى مراكش اربع سنوات ١٩٤٧ ــ ١٩٥١ ، قضى

---

(١) Julien 360 S. Q.

خلالها على جميع الحريات . واصبح من المستحيل على الوطنيين المراكشيين مزاولة نشاطهم داخل البلاد . ولذلك آثر علال الفاسى الفرار من طنجة الى القاهرة . حيث لعب دورا كبيرا فى لجنة تحرير المغرب . وتصادف ان لحق به بعد وصوله بقليل . الأمير عبد الكريم الخطابى ليتولى رئاسة هذه اللجنة . وقيل بهذه المناسبة : ان فرنسا اطلقت امير الريف على امل أن تضعه تحت الاقامة الجبرية فى فرنسا ، وتتخذ منه اداة لتهديد السلطان الذى انضم لصفوف الوطنيين . ولكنه فوت عليهم هذا الغرض حين قرر اللجوء الى مصر .

لم تمنع سياسة العنف الجنرال جوان من ان يقدم بدوره مشروع اصلاح للادارة المراكشية ، لأن التقاليد تقضى بأن يكون لكل مقيم عام جديد مشروعه الخاص . وكان مشروع جوان يهدف فى الظاهر الى زيادة عدد الوزراء المراكشيين . وكانت الوزارات التابعة للمخزن لا تتجاوز ثلاثا : وتختص بشئون القصر والأوقاف علاوة على الصدر الأعظم . فأراد جوان أن يؤسس خمس وزارات وطنية تتولى المالية والصحة والأشغال العامة والقضاء . ولكن على اساس وجود وزارات اخرى يتولاها فرنسيون . والنتيجة الحتمية للتشكيل الجديد ، هى خروج المخزن عن تبعية السلطان ووضعه تحت اشراف الاقامة العامة .

وكان المشروع الثانى يتعلق بتأسيس المجالس البلدية والقروية ، على اساس مناصفة المقاعد بين المستوطنين والوطنيين . وكذلك اعادة تشكيل مجلس الشورى الحكومى وكان يتألف من ثلاثة اقسام : قسمين فرنسيين يمثل أحدهما الهيئات الزراعية والصناعية ، ويمثل الآخر عامة المستوطنين . وقسم ثالث مراكشى بالتعيين . وحسب تعديل جوان يتألف مجلس الشورى من قسمين : فرنسى منتخب بالاقتراع العام ، ومراكشى منتخب على درجتين .

أما الاصلاح الثالث فيتعلق باللامركزية الادارية . وهو يهدف فى الحقيقة الى تحطيم ما بقى للسلطان من نفوذ على الباشوات والقواد . واعتبره الوطنيون محاولة لتفكيك وحدة البلاد . وكان المقيم العام مستعدا فوق هذا ، للنظر فى تغيير معاهدة الحماية . ولكن بشرط أن تقبل مراكش مقدما انضمامها الى الاتحاد الفرنسى .

وبالجملة كانت اصلاحات جوان تؤدى الى مبدأ السيادة المزدوجة ، وهو المبدأ الذى لم يسبق أن صرح به الفرنسيون بالنسبة لمراكش ، بعكس ما فعلوا فى تونس . ولم يخف جوان حقيقة هذه الفكرة فى خطاب

القاد فى اكاديمية العلوم ، فى نوفمبر ١٩٤٦ . وكرد فعل لهذه السياسة ظهرت فى مشروعات السلطان التى قدمت فيما بعد للحكومة الفرنسية فكرة التمسك بالسيادة الشريفية الكاملة .

لقد قاوم السلطان ما استطاع سياسة جوان ، ورفض توقيع الظهائر التى قدمت اليه ، فادعى المقيم العام بأن السلطان يعرقل تطوير بلاده نحو النظم الديمقراطية . وانه يريد الاحتفاظ لنفسه بالحكم المطلق . ولجأ جوان الى حيلة عتيقة ، وهى اثارة الطرق الصوفية ، وعلى رأسها عبد الحى الكتانى ، ضد القصر . ولكن هذه الطرق كانت قد اخذت تفقد هيبتها :

وفى صيف سنة ١٩٥٠ ، عادت بعض المحاولات لاحياء المقاومة الوطنية داخل مراكش ، وتمثلت المحاولة الأولى فى امتناع بعض الأعضاء المراكشيين بالمجلس الاستشارى ، او مجلس الحكومة عن حضور الجلسات . فكأن فرنسا خشيت أن يتسع نطاق هذه الحركة ، فدعت السلطان الى زيارة باريس علها ان تحوله عن موقف المعارضة ، وذلك ببذل اقصى ما تستطيع الحكومة الفرنسية بذله من مظاهر الحفاوة والتكريم . ولم يكن محمد الخامس غرا كما توقعت حكومة باريس ، فقد حدد السلطان مطالب بلاده فى مذكرتين قدمهما أثناء زيارته للعاصمة الفرنسية فى اكتوبر ١٩٥٠ . عبر فيهما ، عن رغبته فى اطلاق الحريات العامة ، وتغيير طبيعة العلاقات مع فرنسا . ومغزى هذا المطلب الأخير ، هو اسقاط الحماية مما جعل التفاهم مع حكومة باريس أمرا مستحيلا .

ويعود السلطان الى الرباط دون ان يحصل على شىء ، سوى وعد بتأليف لجنة لدراسة الموضوع . ويشعر الأعضاء المراكشيون الذين قاطعوا مجلس الحكومة بأن هذه المعارضة السلبية لن تجدى ، فيعودون الى حضور الجلسات فى ديسمبر ، ويوجه اثنان منهم : هما احمد اليزيدى ، ومحمد الأغزاوى ، نقدا لاذعا للإقامة العامة . وقد وضح الأغزاوى ، كيف تسخر الميزانية لصالح المستوطنين ، فعنفه جوان الذى كان يراس المجلس ، واصفا اياه بالوقاحة ، وطالبا اليه مغادرة المكان ؛ فخرج وتبعه بقية الاعضاء المنتخبين وهم ٩ ، كانوا جميعا من انصار حزب الاستقلال .

اما بقية الاعضاء المراكشيين وهم خمسون عضوا ، فقد بقوا فى المجلس لانهم اعضاء معينون تختارهم الاقامة العامة . وهكذا قضى على جميع محاولات التفاهم ، وبدات فترة جديدة من الصراع بين فرنسا وبين الوطنيين ، وعلى راسهم السلطان محمد بن يوسف :

دور محمد الخامس

اظهر محمد الخامس تأييده للحـــركة الوطنية منذ تاسيس حزب الاستقلال سنة ١٩٤٤ • ولكن هذا التأييد لم يصل الى حد الاصطدام مع الاقامة العامة • وكانت خطة حزب الاستقلال هى عدم توريط الملك فى المصادمات ، وترك الباب مفتوحا للتفاهم بينه وبين فرنسا ، اذا ارادت أن تغير يوما ما من سياستها (١) •

ويعتبر خطاب طنجة فى أبريل ١٩٤٧ ، اول موقف ايجابى يتخذه السلطان من الحركة الوطنية • وهـــو لذلك يعد بداية الصراع الذى استمر بين الاقامة والقصر وانتهى بعزل السلطان سنة ١٩٥٣ • وقد دفعت السياسة الفرنسية السلطان دفعا الى اتخاذ هذا الموقف • فمنذ سنة ١٩٤٦ وهو يسعى لزيارة طنجة • وعارضت فرنسا فى بداية الأمر ، ولكنها عادت فقبلت • ومن وراء هذا القبول فكرة اغاظة اسبانيا • والظاهر أن القبول كان موضع خلاف ، فظلت دوائر الاقامة معارضة له • ومن ثم يعزى اليها تدبير مذبحة الدار البيضاء ، التى كانت الحلقة الأولى فى سلسلة المذابح التى شهدتها المدينة العمالية • وسواء أكان الحادث مدبرا أم تصادف وقوعه ليلة سفر السلطان فى ٨ ابريل كما يدعى الفرنسيون ، فانه لم يثن السلطان عن انفاذ رحلته :

وكان محمد الخامس قد اتفق مقدما على برنامج الرحلة مع المقيم العام • غير أن الحوادث التى جدت ، جعلته يقـــوم بالرحلة فى حـــالة نفسية مختلفة • فبدل ان يشيد بدور فرنسا فى نشر الحضارة بمراكش ، ضمن خطابه الفقرة التالية :

« لا شك ان مراكش وهى بلد يربطه بالبلاد العربية الاخرى فى الشرق الأوسط اوثق الوشائج ، ترغب رغبة أكيدة فى تعزيز هـــذه الروابط ، وخاصـــــة بعد أن أصبحت الجامعة العربية عاملا هاما فى الشئون العالمية » (٢) •

وتأكيد صـــــفة مراكش العربية ليس بظاهرة جديدة فى تفكير السلطان ، الذى اتفق فى هذا الأمر مع حزب الاستقلال • انما مغزى هذه

(١ ، ٢) الفاسى ص ٣٩٠ •

الاشارة هو معارضة فكرة الفرنسيين من انهم ناشرو الحضارة فى مراكش ، باظهار حضارة وطنية عريقة متمثلة فى التراث العربى . والدليل على ذلك هو ان جوان الذى ارسل الى مراكش كرد فعل على هذا الخطاب ، اهتم بمناقشة وجهة مراكش الحضارية ، فادعى انها بحكم موقعها الجغرافى الصق بغرب اوربا منها بالمشرق العربى . وحرص على قطع جميع العلاقات بينها وبين بقية العالم العربى ، ومن شأن سياسة جوان عموما ان تزيد من سوء التفاهم بين القصر والاقامة على نحو ما رأينا .

وعندما عاد السلطان من رحلته فى باريس سنة ١٩٥٠ : وعرف المقيم العام انه قدم مذكرة تتضمن خطة تغيير الحماية ، حاك جوان المؤامرة الأولى التى اوشكت على خلع السلطان سنة ١٩٥١ . واعتمد — كما سيفعل بعد عامين — على تهامى الجلاوى صاحب النفوذ فى الجنوب . وكان الجلاوى قد صحب السلطان فى رحلته الى باريس ثم تخلف فى العاصمة الفرنسية ، ولا شك انه دبر هناك خطة المؤامرة . فبمجرد عودته قابل السلطان وعنفه على تاييده للحركة الوطنية قائلا « انت لست سلطان مراكش انما انت سلطان حزب الاستقلال » .

عاد الجلاوى الى مقره فى الجنوب واخذ يجمع القبائل الموالية له ، وبدأ فى الزحف نحو الرباط . فلا بد اذن من ان تؤدى الحماية واجبها بالدفاع عن القصر !! فتسرع القوات الفرنسية فى الاحاطة به . الا انه كان مفهوما أن الهدف من هذا الحصار ليس هو فى الحقيقة حماية القصر من ثورة داخلية ، بل اجبار السلطان على الخضوع لاوامر المقيم العام .

ويروى أحد الكتاب الأمريكيين المتصلين بالملك محمد الخامس الحوار الذى دار بين السلطان وجوان على النحو الآتى (٢) :

بدأ جوان بطلب اصدار بيان يستنكر فيه السلطان اعمال حزب الاستقلال ويصف رجاله بمخالفة الدين . فاجاب السلطان : بانه لا يمكن أن يعلن استنكاره لأى حزب ، لانه بصفته ملكا فهو فوق جميع الاحزاب . واضاف « اذا كان حزب الاستقلال قد ارتكب جرما فالمحكمة تحاسبه على ما اقترف » : ولكن الجنرال جوان القى ذلك الاقتراح جانبا ووجه للسلطان هذا الانذار « أن رد عظمتكم غير مقبول ، وأمامكم اما ان تدينوا حزب الاستقلال ، أو تتنازلوا عن العرش ، والا فساعزلكم بنفسى ، سأغادر البلاد الآن الى واشنطن ، ولديكم الوقت الكافى للتفكير مليا فيما طلبت اليكم تنفيذه وسنرى عند عودتى ما يجب عمله » .

---

(١) Bennouna our morocco p. 29.

(٢) Landau p 275

وعندما عاد جوان من واشنطن ، كان الجلاوى قد أعد الأمور لتنفيذ خطة خلـــع السلطان ، الذى رضـــخ فى النهــــاية بعد أن يئس من جميع المحاولات للتخلص من الموقف ، ومنها اســـــتنجاده برئيس الجمهورية الفرنسية الذى لم يشأ ان يتدخل فى الأمر محتجة حياد رئيس الدولة ، وهكذا اضطر السلطان اخيرا الى توقيع الاستنكار المطلوب فى ٢٥ فبراير ١٩٥١ ، بعد أن حصل على ترضية بسيطة ، وهى الا يذكر صراحة اسم حزب الاســـــتقلال فى تصريحه ، بل يترك ذلك لتصريح الوزير الأعظم .

كان لحوادث سنة ١٩٥١ صدى بعيد فى العالم العربى أدى الى رفع مسألة مراكش الى هيئة الامم المتحدة ، وهى أول مرة تثار فيها مسألة خاصة بالمحميات الفرنسية فى المغرب امام هذه المنظمة الدولية . أما فى داخل البلاد فقد استغلت الاقامة العامة تصريح السلطان لكى تلقى القبض على مئات آخرين من الوطنيين ، كما اجبرت الملك على ابعاد جميع المشتبة فى ميلهم الى حزب الاستقلال عن البلاد . ومع ذلك فإن فرنسا بدأت تدرك فشل سياسة العنف ؛ لان البربر سرعان ما شعروا بأنهم استغلوا لحسابها . وبعث بعض قواد الجنوب باحتجاج على الضغط الذى تعرضوا له من الجلاوى ومن المراقبين المدنيين الفرنسيين بالأقاليم كى يجمعوا الفرسان للمسير الى الرباط . كما أن بقاء جوان أصـــبح مستحيلا بعد فشل خطة الخلع . وفى ٢٨ اغسطس سنة ١٩٥١ تقرر تعيين مقيم جديد اختير أيضا من العسكريين وهو الجنرال جيوم .

لم تختلف سياسة جيوم عن سلفه سواء فى مشروعات الاصـــلاح التى وضعها ، أم فى استخدام وسائل القمع ضد الوطنيين : ولعله قد ظن أنه نجح فى سياسته ، بعد أن خذلت الأمم المتحدة المشروع العربى الآسيوى ، بخصوص تدخل المنظمة فى المسألة المراكشية .

تجمدت العلاقات بين فرنسا والســـلطان ، الى أن بعثت حوادث الدار البيضاء سنة ١٩٥٢ ، المشكلة المراكشية من جديد على الصـــعيد الدولى . وقد وقعت هذه الحوادث الدموية ، بمناسبة المظاهرات التى قام بها العمال احتجاجا على اغتيال الزعيم النقابى التونسى فرحات حشاد فى ٧ ديسمبر ١٩٥٢ . وكما هو مألوف فى هذه الاحوال تصرف البوليس الفرنسى تصرفا وحشيا . ولكن كثيرا من الصحف الفرنسية فى هـــذه المرة أخذت تعبر عن سخطها على السياسة الدموية التى تتبعها سلطات الحماية فى مراكش .

ولوحظ ان طبقة جديدة من الرأى العام فى فرنسا راحت تهتم بموضوع مراكش من الناحية الانسانية ، فتكونت جماعة فرنسا والمغرب وهى تتألف من بعض المفكرين الذين ينتمون الى الرابطة الكاثوليكية . ويشتهر من بينهم الكاتب فرانسوا موریاك والمستشرق لوى ماسينون ؛ ولكن نشاطها كان محصورا فى دوائر المثقفين . ويمكن تتبع آراء هذه الجماعة من خلال الجريدة المسيحية ، وهى تيموانياج كريتيان ، وهدف هذه الجماعة هو تحويل الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا عن صورته السياسية والاقتصادية البحتة ، الى صورة جديدة ؛ فلكى تكسب فرنسا ثقة شعوب شمال أفريقيا ، وتضمن ولاءها لها ، لا بد أن تتخلى عن سياسة العنف ، أو تظهر لهذه الشعوب قيمة المثل العليا التى تميز فرنسا المسيحية . على أن جماعة فرنسا والمغرب ليست اقل خصومة لكفاح الوطنيين المسلح لأنه هو ايضا فى رأيها نوع من العنف غير المشروع .

الا أن الحكومة التى تشكلت فى فرنسا منذ مايو ١٩٥٣ كانت بعيدة عن مثل هذه السياسة ، فهى حكومة جوزيف لانيل اليمينية . وكان جورج بيدو وزير الخارجية ، يرى أن الصراع القائم فى مراكش ، على حد تعبيره ، صورة جديدة للنزاع بين الصليب والهلال (١) . وبذلك اقتربت الوزارة الفرنسية من وجهة نظر نواب مستوطنى شمال افريقيا ، الذين يكونون كتلة متميزة فى برلمان باريس ؛ تلعب دورا فى سياسة التجمعات الحزبية : ومن البديهى أن تدعو هذه الكتلة الى استخدام القوة باعتبارها الوسيلة الوحيدة الرادعة لأية معارضة فى شمال افريقيا ، ويجب الا تقف أمام هيبة اية شخصية مهما علا شأنها .

تجددت اذن فكرة خلع السلطان ، عندما اصبح بيدو وزيرا للخارجية الفرنسية وهى الوزارة التى تتبعها المحميات . وكما حدث منذ عامين . اعتمدت خطة الخلع على معاونة الجلاوى وكبار القواد الموالين له فى الجنوب . ولذا يجدر بنا ان نتساءل عن البواعث التى دفعت بباشا مراكش الى اتخاذ هذا الموقف ؟

يمكن القول بأن حركة الجلاوى ضد القصر ، ليست الا استمرارا للنزعة الانفصالية التى تميز بها حكام الاقاليم ، باعتبار ان هؤلاء الحكام يستمتعون بسلطات واسعة ، ويشبهون الى حد ما أمراء الاقطاع فى أوربا خلال العصور الوسطى ، فقد كانت بعض قبائل البربر فى جنوب

---

(1) Barrat p. 281

مراكش تدين بالولاء للجلاوى . ولكن نفوذه لم يتسع الا بفضل تعاونه مع الحماية . وقد حصل فى ظلها على ثروة ضخمة فكان يحتكر تجارة الزيتون والنعناع وبالاضافة الى ذلك كانت لديه مصادر اخرى للثروة أشد خروجا على المألوف من الاحتكار .

فكتب بارات ، عضو الجمعية الوطنية الفرنسية وصاحب كتاب العدل لمراكش (١) يقول « كان الجلاوى من اكبر من وضعوا بيوت الدعارة فى مراكش تحت حمايتهم وكان كل عام يطالب القبائل التى تحت سلطته بعدد كبير من الفتيات ، ليزود بيوته ببضاعة جديدة من الرقيق الأبيض . وقد قدر عدد الساقطات المقيمات فى بيوته بأربعة آلاف ، وكان يحصل يوميا على مائة فرنك عن الرأس الواحدة » .

ادرك الجلاوى أن الفرصة قد سنحت من جديد لتنفيذ الخطة ، فقام بجولة فى الجنوب وراح يجمع العرائض المطالبة بعزل السلطان . واستطاع فيما بعد أن يبرز أكثر من ٢٥٠ عريضة وقعها قواد النواحى والنان من الباشوات ، الذين يحكمون بعض الأقاليم الصغيرة . وعاونه فى هذه الحملة عبد الحى الكتانى ، رئيس الطريقة الكتانية ، الذى عقد مؤتمرا للطرق الصوفية ، لاعلان سخطهم على سياسة السلطان وكان الكتانى قد عزل بفضل الحركة السلفية ، من جامعة القرويين فى العشرينات . ولذا رأى فى حزب الاستقلال خصما طبيعيا له ، وان كان نفوذ الطرق قد هبط كثيرا بعد الأربعينات .

وفى يونيو ١٩٥٣ حمل الجلاوى هذه العرائض الى باريس ، وظهرت عدة شواهد تدل على ميل الحكومة اليه ، فاستقبله الرجال الرسميون . وقد لا يكون من قبيل الصدفة أن يختار الجنرال جوان ، وهو زعيم مستوطنى شمال أفريقيا ، فى هذا الوقت بالذات ليكون عضوا بالأكاديمية أكبر الهيئات العلمية فى فرنسا ، ويمنح رتبة الماريشالية .

وتردد رجال الحكومة فى بداية الأمر فى تلبية طلب الجلاوى . ولم يشأ رئيس الوزراء أو وزير الخارجية أن يتحمل وحده مسئولية النتائج التى قد تترتب على خلع السلطان ، خاصة وأنهم يدركون جيدا مدى تزييف العرائض التى حملها الجلاوى ، لأن كثيرا من القواد احتج على انتزاع توقيعه بالاكراه . كما أن حكام الأقاليم الكبيرة وهم باشاوات ، الرباط والدار البيضاء وسفرو ، وفاس ، استنكروا حركة الجلاوى . فلما ضاق الجلاوى ذرعا بهذا التردد ارسل انذارا أخيرا فى ١٨ اغسطس

(١) Barrat, Justice pour le maroc

الى الحكومة الفرنسية ، قال فيه " ليس هناك من يعترف بشرعية السلطان الحالى الذى يعتبر قصره مقرا لحزب الاستقلال " . وحمل الحكومة الفرنسية مسئولية الحوادث التى ستقع اذا بقى السلطان فى البلاد ، وهدد بأن الدماء ستسيل ، وذكر بانه صديق لفرنسا منذ اربعين سنة ، فاذا تخلت عن أصدقائها فقد يضطرون الى التحول عنها .

فى الوقت الذى تلقت فيه حكومة باريس مذكرة الجلاوى ، كانت فرنسا تعانى من أخطر اضراب شهدته منذ الحرب الأخيرة ، شل جميع سبل المواصلات والبريد ولذلك كان اهتمام الرأى العام منصرف الى هذه المشكلة الداخلية ، فانتهز جورج بيدو هذه الفرصة كى يحقق هدف الاحزاب اليمينية بخلع محمد بن يوسف ، مادام هذا السلطان يرفض توقيع المراسيم التى تقدمها اليه الاقامة العامة فى سبيل (الاصلاحات الداخلية) . وفى ٢٠ اغسطس تلقى المقيم العام جيوم أمرا بأن يتوجه الى القصر ويطلب من محمد الخامس تنازله عن العرش ، فاذا ما رفض هذا التنازل فعليه أن يعلن خلعه طبقا لمطالب زعماء مراكش واهل الطرق . وقد رفض السلطان توقيع التنازل ، فاعلن المقيم خلعه ، وفى نفس اليوم حملته طائرة الى كورسيكا قبل أن ينقل الى منفاه فى جزيرة مدغشقر (١).

ولم تكن مشكلة ملء العرش المراكشى عويصة بالنسبة لمن دبروا خلع السلطان فان محمد بن عرفة كان معدا لهذا الغرض منذ أزمة سنة ١٩٥١ ، وكان ابن عرفة فى العقد السابع من عمره وهو عم السلطان المخلوع . وقد نصح الجلاوى والرجعيون باختياره لأنهم راوا فيه الرجل الذى يستطيع المحافظة على تقاليد مراكش فهو امى لا يقرا ولا يكتب ، وهو لا يقلد الغربيين فى حياتهم الاجتماعية مثل ابن يوسف الذى سمح لبناته بالسفور وتلقى العلم فى المدارس الأجنبية .

بدأ ابن عرفة حكمه باتخاذ عدة اجراءات تنم عن (روح ديمقراطية !) ففى ٤ سبتمبر تنازل عن سلطته التنفيذية لمجلس وزراء محدود العدد برئاسة الوزير الأعظم . وفى ١٠ سبتمبر تخلى عن سلطته التشريعية لمجلس معين يتألف من ١٦ فرنسيا ، هم رؤساء المصالح الفنية ، و١٤ مراكشيا يعينون جميعا بمعرفة الاقامة العامة . ولا ادل على هذه الروح الديمقراطية فى راى الفرنسيين ، من أن السلطان قد تنازل عن حق الاعتراض على ما تصدره الجمعية التشريعية من قوانين . واخيرا وقع السلطان الجديد فى ١٩ سبتمبر ، الظهير الخاص بانشاء المجالس البلدية المشتركة .

---

(١) انظر تفاصيل هذه الأزمة فى Barrat .

ومن الواضح أن هذه الاجراءات من شأنها أن تؤدى الى تطبيق مبدأ السيادة المزدوجه . ذلك المبدأ الذى يدعو اليه المستوطنون في تونس ومراكش : لانه يخلق لهم حقا ثابتا فى البلاد .

مضت بضعة اشهر بعد خلع السلطان دون ان يظهر رد فعل ملحوظ بين الاهالى . وظن أنصار المؤامرة ان الاستعمار قد انتصر ، واخذوا يسخرون من الفرنسيين الذين حذروا من خلع السلطان خشية اندلاع الثورة ؛ ولكن الأيام اظهرت خطأ نظرتهم .

- ٧ -

عامان من النضال

اوجد خلع السلطان للحركة الوطنية شهيدا من طراز عال . وساعد ذلك على بعث نشاط الحركة الوطنية . ولكن فى هذه المرة على صورة الكفاح المسلح بالرغم من أن معظم زعماء حزب الاستقلال كانوا ، اما في الاعتقال او فى خارج البلاد . ففى اوائل سنة ١٩٥٤ ، وبعد أن احكم الوطنيون تدابيرهم ، أخذت حوادث الاغتيال الفردى تتكرر ، وانصبت الاغتيالات على المراكشيين الذين يتعاونون مع الفرنسيين سياسيا او اقتصاديا .

وبهذه الطريقة امكن تنفيذ خطة مقاطعة البضائع الفرنسية بصورة اثرت تأثيرا كبيرا فى مصالح الفرنسيين . فيلاحظ مثلا ان استهلاك الدخان وهو تجارة تحتكرها شركات فرنسية . هبط بنسبة ٧٨٪ ، لأن الوطنيين انذروا التجار الذين يشترونه بالقتل . أما بالنسبة للمستوطنين ، فقد اتجه رجال المقاومة المراكشية الى احراق المزارع التى يملكونها ، واصبح من العسير على الملاك الأوروبيين المبيت فى مزارعهم . ولوحظ أن حركة العودة الى فرنسا اخذت تظهر بين البيئات الأوربية .

لم تحاول حكومة منديس فرانس تطبيق السياسة التى اتبعتها فى تونس على مراكش وذلك لسببين :

أولا : أنها خشيت ان تعطى فرصة لليمينيين كي يثبتوا للراى العام صحة اتهامهم بأن منديس فرانس يتبع (سياسة التنزلى) نحو المستعمرات .

ثانيا : وجود ابن عرفة والجلاوى واتباعهم من الخونة المراكشيين ، فلم يكن من المعقول اغضابهم بقبول التفاوض مع الوطنيين ، مما يؤدى الى فقدان فرنسا لجميع اصدقائها فى مراكش .

وهكذا اعترف رئيس الحكومة بأن ليس لديه حل سياسي لمشكلة مراكش في الوقت الحاضر • والواقع ان خلع السلطان جعل من المستحيل الاخذ بحل وسط على نمط الحـــل الذى اتبع فى اتفاقية يونيو سنة ١٩٥٥ مع تونس ، لأن زعماء المقاومة فى مراكش ، واكثرهم من انصار حزب الاستقلال اصروا على عودة ابن يوسف والغاء جميع المراسيم التى صدرت فى عهد ابن عرفة كشرط مقدم لاى اتفاق ، بينما اعتبرت فرنسا التراجع فى هذا الامر اضاعة لهيبتها فى شمال افريقيا عموما • ولذلك كان النزاع اكثر من مجرد خلاف على مشكلة العرش •

ولعل ادجار فور كان مستعدا لاتخاذ سياسة ايجابية لحل الأزمة حين ارسل مقيما عاما من نوع جديد وهو جرانفال الذى لم ير فى نفسه مجرد راع لمصالح المستوطنين ، فقبض على الأوربيين المســئولين عن الاشتراك فى اعمال (الارهاب المضاد) ومن بينهم عدد من رجال الشرطة وابعدهم الى فرنسا • ولذلك تربص به أصحاب النفوذ فى الاقامة العامة •

ففى احتفالات ١٤ يوليو سنة ١٩٥٥ القيت قنبلة على حشد من الأوربيين فى الدار البيضاء وقتلت عددا كبيرا منهم ، فانتهز رجـــال الشرطة هذه الفرصة وقادوا بانفسهم الأعمال الانتقامية التى قام بهـــا الاوربيون فى اليوم التالى ، فنهبوا المحـــال المراكشية وفتكوا بعدد من السكان المدنيين الذين افتقدوا جميع وسائل الدفاع عن النفس • فكان جرانفال قد فقد السيطرة على الأوربيين دون ان يكسب ثقة الوطنيين لانه لم يكن فى استطاعته تنفيذ السياسة التى دعا اليها (١) •

كان راى جرانفال ان الحل الوحيد لمشـــــكلة مراكش هو عودة ابن يوسف الى فرنسا على الاقل ، خلع محمد بن عرفة • ولم يكن فور يختلف عنه فى الراى ، الا ان الوزراء اليمينيين فى حـــكومته هددوا بالاستقالة اذا ما نفذ هذه السياسة •

كان على الوطنيين اذن ان يتولوا بانفسهم اقناع الساسة الفرنسيين بضرورة تغيير مبادئهم ، ذلك بتوسيع نطاق الكفاح المســـلح • وحتى صيف سنة ١٩٥٥ لم تكن عناصر المقاومة قد كونت جيشا منظما ، مثل الجيش الذى رايناه فى تونس سنة ١٩٥٤ ولكن جدت ظاهرة هامة فى مراكش ، وهى تحول قبائل البربر عن الجلاوى والتفافها حول الحركة •

ولمـا كانت القبائل البربرية تحتفظ باستقلال محلى ، فان تحولها

---

(١) Le Monde, 16. 7 - 1955

الى الحركة الوطنية كان له نتائج بعيدة الأثر · فاعتمادا على هذه القبائل أعد زعماء المقاومة يوم ٢٠ اغسطس ١٩٥٥ ، وهو الذكرى الثانية لخلع ابن يوسف ، ليكون يوما مشـــهودا فى تاريخ الكفاح المغربى ، فقرروا الزحف الشعبى الى المدن الصغيرة الواقعة داخل الأطلس الوسيط ، مثل خنيفرة ، وفى شرق مراكش مثل وجدة · وعجزت القوات الفرنسية عن حماية هذه المدن تماما · وكانت الجاليات الأوربية فى هذه المدن هى الهدف الرئيسى لهجوم القبائل فوقعت خســـائر فادحة فى الأرواح بين المستوطنين ، ولوحظ أن النساء اشــــتركن للمرة الأولى فى الثورة المراكشية مما ساعد على الهاب حماس الجماهير · ويبدو أن القـــادة المراكشيين نسقوا خططهم مع الثوار الجزائريين ، لأن الجزائر شهدت فى نفس هذا اليوم هجمات واسعة النطاق على الجاليات الأوربية · وكان لهذا التنسيق وقع شديد على الرأى العام الفرنسى (١) ·

تغلب فور بعد هذه الحوادث على معارضة اليمينيين ، واستطاع ان يدعو زعماء حزب الاستقلال الى مقره الصيفي فى اكس ليبان للتفاوض معهم · ومع ذلك راى رئيس الحكومة أن يضحى بالمقيم انمام جرانفال حتى لا يغضب اليمينيين · وهو لم يعزله من منصبه الا ليتمكن من تنفيذ نفس السياسة التى دعا اليها هذا المقيم · وفى المفاوضات التى جرت مع الزعماء المراكشيين اتفق على حل وســط ، وهو ابعاد ابن عرفة عن العرش وتأليف مجلس وصاية ، يمثل جميع الميول فى مراكش ويوافق عليه محمد الخامس · ولعل تغاضى المراكشيين عن التمســـك بعـودة ابن يوسف مباشرة الى العرش ، يرجع الى تيقنهم بأن هذا الحل الوسط لا يمكن أن يكون الا مؤقتا · وأن عودة ابن يوسف الى العرش ستصبح مسألة زمن · ومما يسترعى الانتباه ، أن تصلب بعض الفرنســـيين ، ومؤامرات النواب اليمينيين ضد المبادىء التى اتفق عليها ادجار فور ، خدمت فى النهاية القضية المراكشية وسهلت على البلاد قطع المراحل بسرعة·

وشعر رئيس الحكومة أن بعض النواب قـد تجاوز سلطته ، حين ذهب الى ابن عرفة ليقنعه بضرورة التمسك بعرشه ، ورأى أن يقطع على اليمينيين مؤامراتهم ، فقرر نقل ابن عرفة الى طنجة فى أول أكتوبر · وفى ١٥ منه كون مجلس الوصاية ، ولكنه لم يراع فى تكوينه الاتفاق الذى تم مع الزعماء المراكشيين ، فهو يتألف من أربعة أعضاء لا يمثل الوطنيين من بينهم سوى عضــو واحد هو مبارك البكاى ، وهو علاوة على ذلك ينتمى الى الفريق المتساهل منهم · أما الثلاثة الآخرون فهم : المقرى ، الوزير الأعظم وهو رجل مسن استسلم للاقامة العامة منذ توليه هـذا

---

(١) Le Monde, 11 - 9 - 1955

المنصب سنة ١٩١٧ . واختير العضوان الآخران من بين الشخصيات المغمورة .

ولم يكن هذا هو المجلس الذى يرضى عنه محمد الخامس . واذن فان رئيس الحكومة الفرنسية اذا كان قد بدأ فعلا باتخاذ بعض الاجراءات العملية التى اتفق بشأنها مع الوطنيين ، الا انه لم ينفذها بأمانة تامة . ومن ثم لم يكن هناك ما يلزم الوطنيين بايقاف عمليات جيش التحرير كما اصبح يسمى . وكما كان يقضى اتفاقهم مع فرنسا فى حالة تنفيذ مطالبهم . وعلى العكس اتسعت أعمال جيش التحرير فى الأشهر الأخيرة من عام ١٩٥٥ . وكان الفرنسيون يرسلون الامدادات المتلاحقة منذ حوادث ٢٠ اغسطس ، حتى اضطروا الى اطالة مدة الخدمة العسكرية العادية ، وتحويل العائدين من الهند الصينية دون سابق انذار الى شمال افريقيا ، وذلك حتى يتجنبوا اعلان التعبئة العامة .

وأدى ذلك الى وصول عدد القوات الفرنسية فى مراكش الى ٢٠٠ الف جندى وهو رقم لم تصل اليه أثناء عمليات الاخضاع . وقد اغضبت هذه الاجراءات كثيرا من العائلات الفرنسية ، واشتدت حركة المعارضة للقتال فى شمال افريقيا . وحتى بعض الاستعماريين راى انه من الأفضل انهاء ازمة مراكش كى تتفرغ فرنسا للقضاء على ثورة الجزائر ، فكأن ثورة الجزائر اصبحت عاملا مهما ، ساعد جارتيها تونس ومراكش مساعدة كبرى على نيل الاستقلال .

ازاء هذه التطورات شعر الجلاوى ايضا انه يدافع عن قضية خاسرة ، وراى ان يسبق سادته الفرنسيين الى التسليم بالأمر الواقع قبل الأوان . وفى ٢٦ اكتوبر فاجأ الجميع بتصريح علنى قال فيه « انه يشارك الأمة المراكشية فى المطالبة بعودة سلطانها الى العرش » ومهما كان الباعث على هذا التصريح ، فانه قد محا آخر حجة تذرع بها بعض الساسة الفرنسيين لمعارضة عودة ابن يوسف . وحتى هذا الوقت لم يجرؤ فور على التصريح بأنه سيسمح لابن يوسف بالعودة الى العرش ، بل قال انه سيترك منفاه ليقيم بنيس فى جنوب فرنسا . ولكن الحوادث جرفت الحكومة الفرنسية فلم تزد اقامة محمد الخامس فى نيس على يوم واحد ، فان جموع الشعب المراكشى توافدت الى فرنسا لاستقباله واصبحت الحكومة الفرنسية امام امر واقع فاستقبلته هى الاخرى استقبال رئيس دولة وطلبت حضوره الى العاصمة . وخف ابن يوسف الى باريس ، لا ليستأذن الحكومة الفرنسية فى ارتقاء عرشه ، فهذا امر قرره الشعب المراكشى بكفاحه ، بل ليفاوضها فى تغيير العلاقات القائمة بين البلدين .

لم تطل مفاوضات الملك فى باريس لانه ساير الحكومة الفرنسية ادراكا منه بأن معظم الشروط التى عرضتها لا تعدو أن تكون حفظا لماء الوجه • وعلى هـذا الأساس صـدر تصريح مشترك يعرف بتصريح لاسل سان كلو فى ٦ نوفمبر ١٩٥٥ • وفيه يعلن السلطان قبوله لقرارات مجلس الوزراء الفرنسى الصادرة فى يوم ٥ نوفمبر ، وهى تشمل المبادىء الآتية (١) :

١ ـ منح مجلس الوصـاية السـلطة الكاملة لادارة شـئون الامبراطورية الشريفية •

٢ ـ تأليف مجلس وزراء يمثل جميع الاتجاهات السـياسية والاجتماعية فى مراكش ، وكان مقصود فرنسا بهذه العبارة هـو أشراك الاقطاعيين والقواد الذين يسيرون فى ركابها فى مجلس الوزراء •

٣ ـ استئناف المفاوضات مع فرنسا لتحديد وضع مراكش كدولة مستقلة مرتبطة بفرنسا برباط دائم من التعاون المتبادل L'independence dans L'interdependence وذلك دون تدخل من طرف ثالث •

٤ ـ النص على اقامة ملكية دستورية ؛ طبقا لرغبة الملك •

عاد محمد الخامس اذن الى مراكش فى ظروف افضل بكثير من تلك التى تركها فيها • وشرع فى تغيير انظمة البلاد الداخلية ؛ على نحو ما سنرى • غير ان تصريح لاسل سان كلو . الذى ربما كان يعتبر ثورة فى الأربعينات • رفضه الوطنيون فى نشوة انتصارهم ولم يرضوا عن اسقاط الحماية بديلا • وعلى ذلك لم يتوقف جيش التحرير عن اعماله بعودة السلطان كما توقع الفرنسيون •

وهنا يجدر التساؤل : هل كان الملك بعد عودته الى العرش يساير جيش التحرير فى أهدافه ؟ أم انه كان يكتفى باتفاقية لاسل سان كلو كمرحلة انتقالية على الأقل ؟ وسواء اصح هذا الاحتمال ام ذاك ؛ فان جيش التحرير اعلن عن استمراره فى النضال مع الولاء للملك • ويذكرنا هذا بخطة حزب الاسـتقلال منذ سنة ١٩٤٤ ألتى اجتذبت القصر دائما من جانبها الى الحركة الوطنية ومبادئها •

ولهذه الخطة فضل اظهار البلاد صـفا واحدا امام المستعمرين • وظهرت نتيجة ذلك سريعة وحاسمة • ففى ٢ مارس ١٩٥٦ ، اعلنت الحكومة الفرنسية ان نظام الحماية فى مراكش اصبح غير متناسب مع الظروف الجديدة • وهكذا قطعت مراكش المراحل بسرعة نحو الاستقلال السياسى على الأقل •

---

(١) Landau : appendix p. 396.

القسم الرابع

المغرب المعاصر

الفصل الثامن عشر

الثورة الجزائرية

المرحلة الأولى ١٩٥٤ - ١٩٥٨

- ١ -

عندما نشبت الثورة فى اليوم الاول من نوفمبر سنة ١٩٥٤ لم تكن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية قد تغيرت عما كانت عليه فى نهاية الحرب العالمية الثانية : بل على العكس ازدادت سوءا فى بعض النواحى : فقدر عدد الجزائريين حينذاك بثمانية ملايين وسبعمائة الف نسمة ، والأوربيين يزيدون قليلا عن المليون مع ملاحظة ان الاحصاءات كانت تميل الى المبالغة فى زيادة عدد الاوربيين وذلك لتؤكد الصفة الفرنسية للجزائر ، فكانت تدخل فى الاحصاء اليهود المتجنسين ، وكذلك الموظفين ورجال الجيش ، لذا يعتقد الكتاب الجزائريون أن المستوطنين الأوربيين لم يزيدوا فى ذلك الوقت عن ستمائة ألف . والذى يعنينا من ذلك هو احتفاظ الاوربيين بمركزهم كاقلية ممتازة . فمن الناحية السياسية كان لهم ٥٠٪ من المقاعد فى مختلف الهيئات النيابية . ومن الناحية الاجتماعية كانت أحوال الجزائريين تسير من سوء الى اسوأ نتيجة تزايد السكان مع ضيق مجالات العمل .

وقد فكر بعض الفرنسيين فى حل هذه المشكلة بزيادة الاستثمارات الصناعية فى الجزائر ، غير أن النظام الاستعمارى الراسمالى كان يحرم الجزائريين من الاستفادة من هذه الاستثمارات : فلا يحصلون الا على فتات الاجور الزهيدة . بينما تذهب جل الارباح الى جيوب المستثمرين الفرنسيين .

وكانت المشكلة تزداد تعقيدا ، لان نسبة المواليد بين الجزائريين تزيد على مثيلتها عند الأوربيين فقدرت بنحو ٤٤ فى الألف ، مقابل ١٩ فى الألف ، وترتب على ذلك انتشار البطالة . وحسب الاحصاءات الفرنسية كان عدد العاطلين يتراوح ما بين ٩٠٠ الف الى مليون ونصف .

واذا كانت هجرة الأوربيين قد توقفت - بل لوحظ هبوط عدد المستوطنين الزراعيين منذ سنة ١٩٥٠ ، فان هذا لم يمنع من ان يبقى

ثلث الاراضى الزراعية ، وهى اخصبها ملكا للاوربيين ، وقدر عدد هؤلاء الملاك سنة ١٩٥١ بـ ٢١٫٥٦٩ يستغلون أكثر من مليونين وثلاثة أرباع مليون هكتارا ، بينما كان يعيش ٦٫٣٠٠٫٠٠٠ جزائرى على استغلال أربعة ملايين من الهكتارات (١) • هذا مع ملاحظة أن لفئة المستوطنين موارد أخرى ، فهم يحتكرون التجارة والصناعة • ثم يحتلون جميع وظائف الادارة الهامة (٢) •

وتدل الاحصاءات فى مختلف الميادين على وجود التفرقة الاجتماعية ، ففى التعليم مثلا ، كان عدد الأطفال الجزائريين سنة ١٩٥٧ فى المدارس نحو ٣١٧ الفا وهو يوازى ⅛ عدد الاطفال الذين فى سن التعليم • ولا يتمكن أكثر من ١٠٪ من هؤلاء من الوصول الى المرحلة الثانوية ، وفى الوظائف الادارية بالجزائر ، لم يترك لأهل البلاد سوى أربعة آلاف وظيفة من ٢٦ الفا ، منها ثمان وظائف كبرى فقط •

ولم نذكر هذه الاحصاءات لنستنتج — كما كان الفرنسيون يحبون أن يفعلوا فى ذلك الوقت — أن ثورة الجزائر انما قامت لأسباب اجتماعية ، فان غرضهم من هذا التفسير هو الرغبة فى اثبات عدم وجود دافع قومى وراء الثورة ، وبالتالى فان التغلب على المشكلة الاجتماعية من شأنه أن يزيل أسباب الاضطرابات • ولا داعى لفتح باب المناقشة فى موضوع الاستقلال ، وسنرى كيف أن المشروعات الأولى التى أرادت فرنسا أن تواجه بها الثورة كانت تنبنى على هذه النظرية • وظل مبدأ حق السيادة فى الجزائر هو العقيدة الرسمية فى الدولة ، حتى صدور مشروع ديجول لسنة ١٩٥٩ • ولا ننفى اهمية العامل الاقتصادى فى الثورة ، بل أن تحول الجزائريين فى مجموعهم الى شعب كادح ، سهل عليهم مهمة العمل الثورى ، فلا توجد لديهم ممتلكات يخشون عليها من التدمير • ولكن الخطأ هو انكار العامل القومى ، بناء على هذا الاعتقاد الخاطىء ، تركزت الدعاية الفرنسية المضادة للثورة ، فى اصدار الوعود الخاصة بتحسين أحوال السكان المعيشية ، كما حاولت تلك الدعاية أن تشوه عمل الثوار بأنه يهدف الى مشاركة الفلاح البائس فى كسرة الخبز •

---

(١) يجب أن يؤخذ فى الاعتبار عند ذكر هذه الأرقام الخاصة بالأراضى الزراعية أن الزراعة فى الجزائر ليست كثيفة ويجب الا تقارن بالأرض بمصر من حيث القدرة على الانتاج — لذا فان تملك خمسة هكتارات لا يكفى لاعاشة أسرة واحدة •

(٢) Barbour p. 241 S o

ذلك هو الاطار الخاص الذى ولدت فيه الثورة الجزائرية • والى جانب هذه الأسباب الداخلية توجد ظروف خارجية عامة ساعدت على بعث الحركة الثورية ومن اهمها تحول كل من تونس والمغرب الى اسلوب الكفاح المسلح سنة ١٩٥٤ • ويشير أول بيان للثورة الى تخلف الجزائر فى هذا المضمار عن جارتيها •

ويقول الجزائريون انه كان من المأمول تنسيق الحركات الثورية فى الاقطار الثلاثة ، ولكن الحزب الدستورى الجديد فى تونس فوت هذه الفرصة حينما قبل انهاء القتال فى نفس الوقت الذى قامت فيه الثورة الجزائرية ، وذلك على أساس قبول مشروع فرنسى بالاستقلال الذاتى •

كذلك كان لأحداث الهند الصينية تأثير بعيد المدى فى توجيه الحركة الثورية الجزائرية • وقد تأثرت بها من جهتين :

أولا : أن الهند الصينية ضربت اول مثل لمستعمرة فرنسية تظفر باستقلالها نتيجة للكفاح المسلح • ومن المعروف انه تم فى اعقاب موقعة ديان ـ بيان فو ، تسوية جنيف فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٤ وبمقتضاها اعترفت فرنسا بالاستقلال التام لأقطار الهند الصينية الثلاثة (فيتنام ـ لاوس ـ كمبوديا) •

ثانيا : أن كثيرا من الجزائريين ذهبوا الى القتال فى الهند الصينية كجنود مرتزقة فى الجيش الفرنسى (١) ، يدفعهم الى ذلك البؤس المخيم على بلادهم ، وكانت هذه الحرب فرصة طيبة لتدريب طبقة من الشبان الجزائريين على حرب العصابات • ويقال ان حكومة فيتنام الشيوعية عمدت الى تدريب الاسرى الجزائريين فازدادوا خبرة بأساليب حرب العصابات ، وقد عاد هؤلاء وهؤلاء الى بلادهم بعد وقوع الصلح فى الهند الصينية وانخرط كثير منهم فى جيش التحرير •

واذا كان الجزائريون قد استفادوا من تجربة الهند الصينية فان قادتهم لم يكونوا غافلين عن الفرق الشاسع بين أحوال بلادهم التى تجعل النضال فيها أشد صعوبة منه فى الهند الصينية ، وقد قارن أحدهم بين الوضعين على النحو التالى !

ان الهند الصينية تقع على بعد ١٣ الف ك•م من فرنسا بينما تقع الجزائر على ثلاث ساعات بالطائرة • وتجاور الهند الصينية دولة صديقة

---

(١) قدر عدد الجزائريين فى الجيش الفرنسى حينذاك بـ ١٦٠ الف •

قوية تمدها بالمساعدات السافرة ، وهى الصين الشعبية ، بينما لا يتوفر هذا بالنسبة للجزائر ٠

والآن لابد لنا أن نتناول التطورات الداخلية التى اخرجت الثورة الى حيز الوجود ، ويلاحظ أن اهم هذه التطورات تمت فى كنف حزب الشعب ، وتمخضت عن الأزمات والانقسامات التى تعرض لها ٠ ومنذ اعادة تشكيل هذا الحزب سنة ١٩٤٦ وهو يعد أكثر الأحزاب تهيئا لفكرة الكفاح المسلح ٠

وكان ينظر اليه على انه مناظر للحزب الدستورى الجديد فى تونس ، وحزب الاستقلال فى المغرب الأقصى ٠ واشترك مع هذين الحزبين فى تأسيس لجنة المغرب العربى بالقاهرة ٠ ومن المعروف أن عبد الكريم الخطابى كان يترأس هذه اللجنة ، فلا بد وأن يكون ممثلو حزب الشعب فى القاهرة قد تأثروا بآراء أمير الريف التى لا تؤمن بغير النضال المسلح وسيلة للتعامل مع الاستعمار الفرنسى فى المغرب العربى ٠

الا أن اهم خطوة حققتها حزب الشعب فى السير نحو الكفاح المسلح كانت بلا شك تأسيس التنظيم السرى الذى شرع فى الاعداد للقتال ٠

وكانت تشكيلاته العسكرية نواة لجيش التحرير ، فقد قسم الجزائر الى خمس ولايات ، تشتمل على ٢٣ دائرة ، وكل دائرة تضم عددا من الخلايا ٠ ولا يعرف اعضاء الخلايا بعضهم بعضا ، بل يتم الاتصال بينهم عن طريق رؤساء الخلايا فى الدائرة ٠ وحرصا على هذه الصفة السرية حدد عدد اعضاء الخلية بثلاثة افراد ٠ وقد نجح التنظيم السرى فى ذلك الى حد كبير ، فظلت السلطات الفرنسية تجهل وجوده حتى بعد أن بدأ التنظيم بشن الغارات الخاطفة سنة ١٩٤٩ (١) ٠

واذا تتبعنا تاريخ رواد الثورة الجزائرية نجد أن غالبيتهم العظمى قد بدأت حياتها العملية فى كنف هذا التنظيم مثل بن بللا وخيضر ورابح بيطاط ٠ أما كريم بلقاسم فقد مارس حياة العصابات فى بلاد القبايل بصورة فردية ٠ وفى سنة ١٩٤٩ نظم الجهاز السرى أول اعماله المسلحة وكانت تهدف الى مهاجمة مكتب بريد وهران والاستيلاء على ما فيه من أموال ٠ وعهدت بهذه العملية الى أحمد بن بللا ، فتمكن من القيام بها

---

(١) من خير المصادر الفرنسية المخصصة للثورة الجزائرية كتاب
La couriere : La guerre d'algerie
ويقع فى أربعة اجزاء ويحتوى على تفاصيل دقيقة ٠

على احسن وجه . غير ان التنظيم واجه صعوبة فى العام التالى حينما افتضح امر بن بللا وقبض عليه وقدم مع بضعة وعشرين شخصا من اعضاء التنظيم للمحاكمة ، وحكم عليهم بمدد متفاوتة من السجن ، وكانت بعض هذه الأحكام غيابية . والظاهر ان السلطات الفرنسية اعتقدت بوجود مؤامرة ، ولكنها لم تدرك بالضبط طبيعة التنظيم وتقسيماته الدقيقة . فوصف نجلين الحاكم العام هذه الأحداث بأنها أعمال صبيانية . ولذلك استطاع قادة هذا التنظيم الاعداد من جديد للعمل سنة ١٩٥٤ .

وفى خلال هذه المدة كان حزب الشعب قد تعرض لهزات عنيفة ، لذلك فقد سيطرته على الجهاز السرى . والراجح أن الجهاز افلت من رقابة الحزب منذ تأسيسه حتى أصبح الحزب مجرد واجهة تخفى هذا التنظيم . وترجع الهزة الأولى للحزب الى سنة ١٩٤٩ حينما اجتمع بعض أبناء القبايل فى فرنسا واحتجوا على نزعة الحزب العنصرية وقالوا : اننا جميعا مسلمون . غير ان هذه الحركة لم تؤثر كثيرا ، ولحسن حظ الجزائر لم تظهر مشكلة عنصرية بين العرب والبربر اثناء الثورة أو الاعداد لها ، بالرغم من محاولات الفرنسيين احداث هذه الفرقة .

اما الهزة الكبرى التى أطاحت بالحزب فقد اخذت بوادرها تظهر منذ سنة ١٩٥٢ ، اذ لوحظ ان مصالى الحاج اخذ يحيط نفسه بهالة من التقديس ، ويحرص على لقب الزعامة . وكانت السلطات الفرنسية قد حددت اقامته فى ذلك العام ، لكنها اذنت له بأداء فريضة الحج وقد عاد وهو اكثر حرصا على السيطرة الأبوية ويقال ان شعرات لحيته كانت تؤخذ وتوزع على انصاره ليتبركوا بها .

وفى نفس الوقت دخلت عناصر جديدة من الطلبة والموظفين والجنود الى فروع حزب الانتصار للحريات (الشعب) ، فلم يعد هذا الحزب مقصورا على عمال المصانع . وقد جعل هذا التشكيل الجديد قبول زعامة مصالى الحاج الأبوية أمرا مستبعدا .

وفى ابريل ١٩٥٣ عقد قادة الحزب فى الجزائر مؤتمرا فى غيبة الزعيم ، واتخذوا فيه قرارات ضد الزعامة الفردية وان لم يذكروا فيه مصالى بالاسم . ومما جاء فى هذه القرارات « ان الفرض ليس هو ان نقيم جزائر تكون اداة يتخذها فرد أو جماعة للاستحواذ على السلطة . وانما نريد اقامة جزائر حرة يستوى فيها جميع الناس دون تمييز فى الجنس أو الدين . اننا نريد دولة ديمقراطية ؛ ولا بد للرجل الثورى أن يهبط من علياء نظرياته ليخوض فى الواقع الملموس ، ويضع الخطط ويحدد

خطوات العمل » ومن الواضح ان هذه العبارة الأخيرة تشير الى مصالى الحاج . واختار المؤتمر لجنة جديدة لقيادة الحزب أبعدت عنها شخصيتين كبيرتين عرفتا باخلاصهما التام لمصالى ، وهما احمد ميزونه . ومولاى مرباح . واصبحت اللجنة الجديدة تعرف باسم المركزيين . واخذت بعض شخصيات الشباب تشق طريقها الى الشهرة عن طريق هذه اللجنة مثل حسين الاحول ، ويوسف بن خدة .

اجاب مصالى على هذا المؤتمر بأن طلب لنفسه سلطات مطلقة فى الحزب وحل اللجنة المركزية . فلم تلتفت اللجنة الى مطالبه . حينئذ اجتمع انصار مصالى الموالون له فى بلجيكا وقرروا اختياره رئيسا مدى الحياة ، وطرد المركزيين من الحزب . وهكذا تمت القطيعة داخل حزب الانتصار للحريات .

والحق ان انشقاق الحزب لم يؤد الى ظهور فرعين ، بل ثلاثة لأن أعضاء التنظيم السرى نظروا باستخفاف الى مشاحنات السياسيين ، وقرروا ان يستقلوا بالعمل عن كلا الفرعين . وأخذ تسعة من هؤلاء يشكلون اللجنة الثورية للاتحاد والعمل وهى اللجنة التى رتبت لقيام الثورة الكبرى . وكان ثلاثة من هؤلاء التسعة يقيمون بالقاهرة وهم محمد خيضر ، وحسين آيت احمد ، وانضم اليهما سنة ١٩٥٢ أحمد بن بللا الذى تمكن من الفرار من السجن . أما الستة الآخرون فكانوا يقيمون بالجزائر ، ويستطيعون التنقل بينها وبين فرنسا ومنها الى سويسرا التى أضحت ملتقى بين التنظيم الداخلى وممثلى اللجنة فى القاهرة وهؤلاء الستة هم : رابح بيطاط ، وكريم بلقاسم ، ومحمد العربى بن مهيدى ، ومحمد بوضياف ، ومراد ديدوش ، ومصطفى بو العيد .

ويلاحظ أن هؤلاء المؤسسين التسعة لم يكونوا من الساسة التقليديين ، ولم يحصلوا بعد على أية شهرة فى الداخل (١) أو الخارج . ومع ذلك فان شخصية بن بللا كانت قد بدأت تلفت الأنظار ، اذا صدقت الرواية القائلة ان زعماء حزب الانتصار طلبوا من مصالى الاحتفال بفراره من السجن سنة ١٩٥٢ ولكنه رفض .

ولد بن بللا سنة ١٩١٩ ببلدة « لا لا مغنية » على الحدود الجزائرية المغربية ، وكان ابوه تاجرا صغيرا ، وانخرط فى سلك الجيش المغربى برتبة ملازم ، وجندته فرنسا فى الحرب الثانية فاشترك فى حملة ايطاليا

---

(١) انظر كتاب FAVROD ص ٢٥٠ وما بعدها وفيه ترجمات وافية لهؤلاء الزعماء وغيرهم .

وحملة تحرير فرنسا بين عامى ١٩٤٣ — ١٩٤٥ وحينما التحق بالتنظيم السرى صار مسئولا عن احدى دوائر وهران ٠ وهو الذى قاد هجوما على مكتب بريد وهران سنة ١٩٤٩ وقد رأينا كيف تمكن من الفرار فى مارس ١٩٥٢ فرحل الى فرنسا متخفيا ، ومنها الى القاهرة وقد عرفت السلطات الفرنسية دوره الهام فى الثورة بمجرد قيامها ، لذلك دبرت مخابراتها خطة لاغتياله فى طرابلس وهو يقود قافلة محملة بالاسلحة كانت قد خرجت من مصر فى طريقها الى الجزائر سنة ١٩٥٥ ولكنه افلت باعجوبة ٠ وظلت المخابرات تتبعه حتى غدرت به وبعض اخوانه فى حادث الطائرة المشهور (اكتوبر ١٩٥٦) ٠ ٠٠٠٠

كانت اللجنة الثورية للاتحاد والعمل تعتقد اعتقادا راسخا بأن العمل الجدى لا بد وان يتم فى ارض الجزائر ٠ ولذلك تركت لقادة الولايات هناك مهمة تحديد موعد الثورة وطريقة البدء بها ، ولا يعنى هذا ضآلة الدور الذى قام به ممثلو اللجنة فى القاهرة ، بل على العكس فان الثورة فى سنواتها الأولى كانت أكثر اعتمادا على مؤازرة مصر نظرا لأن اعضاء اللجنة لم يكونوا معروفين فى ذلك الوقت ، فقد تردد مجلس قيادة الثورة المصرى اولا فى امدادها بحاجتها من المال والسلاح ٠ وصرح بن بللا فيما بعد أن الفضل يرجع الى الرئيس جمال عبد الناصر فى حسم هذا التردد حينما صمم على تقديم المساعدات اللازمة تمشيا مع مبدأ تاييد الثورات التحررية فى كل مكان بصرف النظر عن احتمالات النجاح ، وكان بعض الزعماء الجزائريين انفسهم يتشكك حينذاك فى هذه الاحتمالات ٠

ذلك ان لجنة المركزيين بعد أن تمت القطيعة بينها وبين مصالى الحاج اخذت تقترب سريعا من اللجنة الثورية للاتحاد والعمل ، وكانت أول هيئة وطنية تقبل اللجنة ضمها اليها ٠ ولذلك احيطت علما بموعد الثورة وعلى اثر ذلك قام حسين الأحول بزيارة القاهرة محاولا اقناع اللجنة بتأخير موعد الثورة ريثما تتم الاستعدادات ، ولكن مؤتمر العسكريين فى الجزائر كان قد قرر فى اجتماعه يوم ١٠ اكتوبر أن يكون اول نوفمبر هو الموعد المحدد لقيام الثورة ٠ وحسب رواية أحد الشيوعيين الفرنسيين (١) كان الموعد المقرر المتفق عليه هو سنة ١٩٥٦ لولا أن ممثلى اللجنة بالقاهرة أرسلوا تعليمات سرية بامكان تقديم الميعاد الى اول نوفمبر ١٩٥٤ ٠

واغرب ما فى هذه الرواية ، هى انها عزت هذا التقديم الى اتصالات سرية جرت مع ممثلى الولايات المتحدة فى القاهرة ، اغرى خلالها الامريكيون الزعماء الجزائريين ، بتقديم موعد الثورة حتى يتمكنوا

---

(1) Jeannson p. 125

من ممارسة الضغط على فرنسا لكى توقع اتفاقيات الدفاع الاوربى التى ترددت طويلا فى المصادقة عليها . وهذه الرواية تتفق مع شعور عام فى فرنسا ، مؤداه أن الولايات المتحدة تميل الى تأييد الحركات الاستقلالية فى شمال افريقيا ، وهو شعور خاطىء أضعفت منه تدريجيا المساعدات الأمريكية التى لم تنقطع عن فرنسا بل زادت ابان الثورة .

- ٢ -

جبهة التحرير الوطنى

ظلت قيادة الثورة تطلق على نفسها اسم « اللجنة الثورية للاتحاد والعمل » حتى نهاية ١٩٥٥ ثم وجدت بعد أن توالى انضمام فئات جديدة اليها أن اسم « الجبهة » اكثر ملاءمة . والذى يتبادر الى الذهن من وصف الجبهة هى أنها ائتلاف من عدة فئات سياسية ، غير أن قادة الثورة لم يفهموها على النحو الشائع فى الدول البرلمانية ، والذى يعنى ان الجبهة ائتلاف من عدة احزاب ، يحتفظ كل منها بكيانه . اما جبهة التحرير الوطنى الجزائرى فلم تكن تقبل اعضاء الأحزاب القديمة الا بعد أن يتحللوا من عضويتها . وهكذا صارت الجبهة تعتبر نفسها المنظمة الوطنية الوحيدة واحتفظت بتماسكها طوال عهد الثورة . والسؤال الذى يجدر طرحه فى هذه المناسبة هو : هل يعد الانقسام الذى حدث اثر الاستقلال تعبيرا عن الفئات السياسية السابقة فيكون بن خدة على سبيل المثال ممثلا للجنة المركزيين وأحمد بن بللا ممثلا للجنة الثورية للاتحاد والعمل التى اسست الجبهة ؟ اننا لا نعتقد ذلك لأن الخصومة دبت حتى بين من بقى حيا من الاعضاء التسعة المؤسسين للجنة .

كان المركزيون كما راينا اول من تعاون مع اللجنة الثورية حتى من قبل قيام الثورة . ولذلك احتلوا بعض المراكز القيادية بعد تكوين الجبهة . وفى عام ١٩٥٥ حل فرحات عباس واحمد فرنسيس الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى وتركا لأعضائه الحرية فى الانضمام الى جبهة التحرير . أما زعيما الحزب فقد تأخر انضمامهما الى الجبهة حتى ابريل ١٩٥٦ حينما غادرا فرنسا سرا ووصلا الى القاهرة .

ولم تكن ثمة مشكلة امام جماعة العلماء لكى ينضم اعضاؤها الى الجبهة ؛ لان الجماعة لم تعتبر نفسها يوما حزبا قائما بذاته . وعلى العكس ظهرت هذه المشكلة بالنسبة للشيوعيين الذين يمتازون بالتنظيم الحزبى الدقيق ؛ وبارتباطاتهم مع الاحزاب الشيوعية فى مختلف انحاء العالم . ومع ذلك فقد انتهى الحزب الشيوعى الجزائرى بالتعاون مع جبهة التحرير ،

ولفهم الظروف الدقيقة التى ادت الى قيام هذا التعاون لا بد أن نشير الى موقف الحزب الشيوعى الفرنسى من الثورة نظرا لاحتفاظه بصفة الموجه للحزب الشيوعى الجزائرى ٠

لقد كان الحزب الشيوعى اسبق لأحزاب الفرنسية الى اعلان تأييده لمبدأ تقرير المصير فى الجزائر ؛ فصرحت بذلك صحيفة لومانيتيه فى ٨ نوفمبر ١٩٥٤ غير انها قرنت الموافقة على هذا المبدأ بعدة تحفظات ٠ منها ان تشارك جميع العناصر المكونة للأمة الجزائرية فى بناء الجزائر المستقلة ، وهم يعنون بذلك أنه لا بد وان تكون للأوربيين كلمة فى أجراء المفاوضات ورسم مستقبل الجزائر ٠ كذلك كره الشيوعيون ارتباط جبهة التحرير بالشرق العربى ، وكانوا يفضلون التعاون مع حركة قومية جزائرية تكون متأثرة بمبادىء الفرنسيين التقدميين ٠ وحينما أعلن الحزب الشيوعى الجزائرى استعداده للانضواء تحت لواء الجبهة اضاف انه يفعل ذلك حتى لا يفوته القطار عند جنى ثمرات النصر كما حدث فى تونس ٠ وعلى اثر ذلك الاعلان تعرض الحزب الشيوعى الجزائرى للحل فى سبتمبر ١٩٥٥ ٠

واستمر الحزب الشيوعى فى باريس على موقف التأييد المتردد ، فهو ينادى فى المعركة الانتخابية بالسلام فى الجزائر والتفاوض مع الثوار ، والاعتراف بحقيقة القومية الجزائرية ، ولكنه يفعل ذلك بدون اثارة جماهيرية كما كان يفعل اثناء مطالبته بالسلام فى الهند الصينية ثم ان الحزب وقف موقفا معاديا للثورة الجزائرية يوم أن وافق على منح حكومة موليه ١٣ مارس ١٩٥٦ سلطات استثنائية لمواجهة الحرب الجزائرية ٠ وقد برر الشيوعيون ذلك الموقف بأنهم يريدون المحافظة على تكتل اليسار ، تلك الفكرة التى رفضها الزعيم الاشتراكى نفسه ، ولكنه هو دأب الحزب الشيوعى الذى يعطى الأولوية لمشكلات فرنسا الداخلية ٠ وهكذا قبل التضحية بمبادئه تجاه الجزائر من أجل مناورة سياسة من المؤكد اخفاقها ٠

لذلك كله لم تقبل جبهة التحرير انضمام الشيوعيين اليها الا بصفة فردية وكان من بينهم بعض الأوربيين الذين انخرطوا ايضا فى سلك الجبهة ، غير انها استمرت تفرض على هؤلاء وهؤلاء رقابة خاصة ، وكان الشيوعيون اسبق من غيرهم الى اظهار انتقاداتهم للجبهة ، فحينما لاحت بوادر النصر من بعيد أسرعوا الى اعلان انتقادهم لسياسة الجبهة التى تلغى وجود الاحزاب وذلك منذ يناير ١٩٦٠ ٠

ولم يشذ عن تأييد جبهة التحرير سوى مصالى الحاج ومن بقى

مواليا له . ورغم انه كان ما يزال محدد الاقامة فى فرنسا فقد اوعـز الى انصاره بتكوين هيئة تنافس جبهة التحرير ، اطلق عليها « الحـركة الوطنية الجـزائرية » وحاول أن يقلد الجبهة فى تكوين جيش خاص به لمحاربة الفرنسيين وجيش التحرير فى نفس الوقت . وكان طبيعيا أن يسر الفرنسيون لهذا الانقسام لولا أن حركة مصالى الحاج كانت من الضعف بحيث عجزت عن النيل من جيش التحرير ، وانتهى بها الأمر الى قبـول التعاون مع الجيش الفرنسى مؤقتا ، على أن تتفاهم على مسألة الاستقلال بعد التخلص من الجبهة . وخصصت القيادة الفرنسية احد القطاعات فى ميادين القتال لابن الونيس وهو من قواد حركة مصالى الذى منح نفسـه رتبة الجنرال ، وراح يقاتل ضد جيش التحرير ، ولما راى أتباعه حرج مركزه تركه كثيرون منهم الى جيش التحرير ولم يحل عام ١٩٥٨ حتى كانت حركة مصالى قد اندثرت كقوة عسكرية وسياسية وهكذا ختم من كان يدعى بأبى الوطنية الجزائرية حياته بالخيانة ، واستمر الزعيم العجوز حتى بعد ان فقد انصاره يراوده الأمل فى التحدث باسم الأمة الجزائرية وقبل سنة ١٩٦١ ان يلعب دور القوة الثالثة التى اراد ديجول أن يخلقها لتقف موقفا معتدلا بين فرنسا وجبهة التحرير . ولم تلبث آماله ان تبخرت حينما اضطرت الحكومة الفرنسـية الى أن تفاوض الجبهة وحدها فى محادثات افيان .

صرفت الجبهة معظم جهودها فى تنظيم القتال وان لم تغفل بيان الأهداف السياسية الكبرى منذ البداية وهى الاستقلال ، وتدويل القضـية الجزائرية وربط الجزائر بحركة النضال العربى . وبعد ان ثبتت اقدامها فى الميدان العسكرى صار من الضرورى تقوية الجبهة فى الميدان السياسى ، وذلك بأمرين ، اقامة تشكيلات سياسية وادارية ولو على الورق . وبيان عقيدة سياسية واضحة تشمل المسائل الداخلية والخارجية . ولهـذا الغرض انعقد مؤتمر شهير فى تاريخ جبهة التحرير فى وادى الصـمام داخل ارض الجزائر فى ٢٠ اغسطس ١٩٥٦ .

فمن ناحية التشكيلات السياسية اقام المؤتمر شبه مجلس حـرب للثورة أسماه « لجنة التنسيق والتنفيذ » ويتكون من خمسة أشخاص عرفت أسماؤهم فيما بعد ، وكانوا : كريم بلقاسم ، وابن يوسف بن خده ، وسعد دحلب ، وعربى بن المهيدى ، ورمضان عبانة . والظاهر ان هذا الأخير كان هو المسيطر على المؤتمر ، وانه حرص على اعطاء القادة العسـكريين الأولوية فى الجبهة ، ويقال انه استبعد أعضاء البعثة الخارجية وان ذكرت بعض الروايات الأخـرى انهم دعوا الى المؤتمر ، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول الى مكان الاجتماع ، وقرر المؤتمر ان تكون قادة الولايات مسئولين امام لجنة التنسيق هـذه ، وهى تقوم بتعيين اعضاء المجلس الوطنى .

ذلك انه من اهم مقررات مؤتمر وادى الصمام انشاء مجلس وطنى من ٣٤ عضوا نصفهم بصفة اصلية والنصف الآخر بصـــفة احتياطية . والمقصود من هذا المجلس هو اعطاء الجبهة صفة نيابية فى وقت لم يكن من المتيسر فيه اجـــراء انتخابات فى ارض الجزائر . وقد زيد عـدد النواب فى العام التالى الى ٥٤ ثم الى ٧٢ قبيل الاستقلال وبينما كانت الحكومة المؤقتة تنتقل بين تونس والقاهرة كان اكثر انعقاد هذا المجلس فى طرابلس . وللمجلس الرأى النهائى فى مسألة وقف اطلاق النار . ولا بد أن يصدر رأيه فى هذا الصدد بأغلبية اربعة اخماس الاصوات . ولا يجوز فى هذه الحالة الامتناع عن التصويت .

ونظم المؤتمر جيش التحرير وحـــدد الرتب والمرتبات . فميز بين نوعين من المقاتلين : أعضاء الجيش العامل الذين يرتدون الملابس الرسمية . والمسبلون او المساعدون وهم الذين ينقلون المؤن ويقومون بأعمال الاسعاف ويقطعون الطرق على العدو .

ورأى المؤتمر أن يخلع على الجبهة صفة ادارية الى جانب صـــفتها العسكرية والسياسية فقرر انشاء دوائر للفصل فى القضايا . ومن الطبيعى أن يكون الالتجاء الى هـــذه المحاكم اختياريا ، ومع ذلك فقد انصرف الوطنيون عن قضاة المصالحات الفرنسيين حتى أصبح هؤلاء (يعانون من البطالة) واقيمت وحدات لجمع الضرائب . وكانت تحصل من الاوربيين عن طريق استخدام القوة والتهديد .

وقد افادت هذه التنظيمات فى ايجاد قاعدة شعبية للجبهة ، لذلك توسعت حتى من قبل مؤتمر الصمام فى اثبات وجودها بمختلف الهيئات : ففى فبراير ١٩٥٦ اقامت الاتحـــاد العام للعمال الجزائريين الذى انتزع كثيرا من الجزائريين من النقابات الفرنسية .

واصبحت هذه النقابة تضم ١١٠ آلاف من العمال بعد مدة قصيرة ، وقبلت سنة ١٩٥٧ فى الاتحاد العالمى للنقابات الحرة (وهو الاتحاد الذى تنتمى اليه النقابات الأمريكية) وكان مصالى الحاج قد سبق الى تأسيس نقابة عمالية جزائرية أخرى ولكن نشاطها لم يتعد الاراضى الفرنسية .

كذلك كونت الجبهة اتحاد الطلاب الجزائريين ، ودعتهم الى مقاطعة الامتحانات فى الكليات الفرنسية فى دورة مايو ١٩٥٦ . ولقيت استجابة واسعة النطاق ، ولعل القصد من هذا الامر هو اجتذاب الطلاب الى العمل مع جيش التحرير وتقوية صفوفه بعناصر مثقفة . واخيرا اقامت الجبهة اتحادا يضم التجار وصغار رجال الأعمال الوطنيين الذين اشتركوا مع

العمال فى تمويل جبهة التحرير • وأصدرت الجبهة مجلة عربية أسبوعية للتحدث باسمها وهى مجلة « المجاهد الحر » •

اما فيما يتعلق ببيان العقيدة السياسية فقد شرح المؤتمر اهداف منذ ذلك الوقت بمبدأ وحدة التراب الجزائرى ، ليقطع على الفرنسيين جبهة التحرير فى السياسة الداخلية والخارجية معا • واظهر تمسكه خط الرجعة فى سياستهم ازاء الصحراء • وبين رايه فى وضع المستوطنين بعد الاستقلال وكيف أنهم سيخيرون بين الجنسية الجزائرية ، أو العيش كأجانب فى الجزائر المستقلة اذا ارادوا الاحتفاظ بجنسيتهم • واكد تمسك الجبهة بمبدأ القيادة الجماعية واعلن ان الجزائر المستقلة ستأخذ بالنظام الاشـــتراكى •

وفى السياسة الخارجية نادى المؤتمر بتدويل القضية الجزائرية ، واعلن ان الجزائر المستقلة ستعمل على تحقيق الوحدة المغربية ، وستسير على سياسة الحياد بين المعسكرين •

ويلاحظ من البرنامج كيف أن مبادىء جبهة التحرير ظلت ثابتة حتى نيل الجزائر للاستقلال ، بينما اخذت الحكومة الفرنسية تصدر المشروع تلو المشروع لمواجهة الثورة حتى انتهى بها الأمر الى الرضـــوخ لمطالب الجزائريين •

ويقال ان روح رمضان عبانة تجسدت فى كثير من قرارات مؤتمر وادى الصـــمام وكان معـــروفا بتأثره بالجدل المـاركسى وبنظريات ماوتسى تونج الاشتراكية • وانه لذلك لم يرد ذكر لربط الاشــــتراكية بالاسلام : كما قدمت فكرة الوحدة المغربية على فكرة الوحـــدة العربية الشاملة • ولو صح ذلك لقربنا من الروايات القائلة ان رمضان عبانة كان يمثل الجانب الاكثر تطرفا فى جبهة التحرير ، وان الانقسام صار خطيرا فى السنوات التالية حينما أعيد تشكيل لجنة التنسيق والتنفيذ ، وضم الى أعضائها عناصر معتدلة مثل فرحات عباس • وعلى كل فقد انتهت حياة رمضان عبانة فى أوائل سنة ١٩٥٨ فى ظروف غامضة • ومن الشـــائع أنه كان ضحية الخلافات التى ظهرت بين صفوف جيش التحرير فى بعض الاوقات ، تلك الخلافات التى لم تمنع من تماســك الجيش فى معركة التحرير • وتذكر بهذه المناسبة صور غريبة عن الثورة الجزائرية ، وكيف أنه كان يحدث احيانا ان يقف الجزائريون صفا واحدا لمقاتلة الفرنسيين ، حتى اذا انتهت المعركة اخذوا يصفون حساباتهم فيما بينهم • وربما اقتضت ظروف الحروب العصيبة تصفية المعارضة أولا بأول ضمانا لسلامة الجيش •

واما بخصوص الزعم القائل باختفاء الروح الاسلامية من الجبهة . فهناك شواهد تدل على عدم صحته : من ذلك مثلا اختيار كلمة «مجاهد» لوصف الجندى فى جيش التحرير . كما ان بعض افراد جماعة العلماء احتلوا مناصب قيادية فى الجبهة . واخيرا فان المادة الرابعة من دستور الجزائر تنص على ان الاسلام هو دين الدولة .

اعيد تشكيل لجنة التنسيق والتنفيذ فى سنة ١٩٥٧ وتم ذلك فى مؤتمر انعقد بالقاهرة ، وتقرر فيه زيادة اعضـــاء اللجنة الى تسعة . والمجلس الوطنى الى ٥٤ واصبحت اللجنة تضم ثلاثة قواد عســكريين بالاضافة الى ثلاثة من الأعضاء الخمسة السابقين ، كان من بينهم رمضان عبانة . كما ضم اليها ثلاثة من اعضاء البعثة الخارجية من بينهم فرحات عباس . والدكتور أمين دباغين . ويعد التشكيل الجديد نواة لما ستكون عليه الحكومة المؤقتة فى العام التالى . فقد وزعت الاختصاصات المختلفة على أعضاء اللجنة دون أن يحملوا لقب وزير .

وتدخل جبهة التحرير فى مرحلة جديدة عند ما تقـــرر فى مؤتمر طنجة فى ابريل ١٩٥٨ بالاتفاق مع تونس والمملكة المغربية تأسيس حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية حينما تسمح الظروف . وقبل أن يجـــرى ديجول الاستفتاء على دستور الجزائر ببضعة أيام أعلن عن تكوين الحكومة المؤقتة التى ضمت القادة العســـكريين بجانب الزعماء السياسيين (١٩ سبتمبر ١٩٥٨) ويبدو أن اختيار فرحات عباس لرئاستها كان يرمى الى تمهيد الجو التفاوض مع فرنسا ، ولكن أصبح وجوده غير ذى موضـــوع بعد أن تعثرت المفاوضات مدة طويلة .

- ٣ -

تصــاعد الثـورة

سنتناول باختصار الاحداث العسكرية للثورة ، مركزين اهتمامنا على الملابسات السياسية التى احاطت بها ، وخاصـــة المواقف المختلفة التى اتخذتها فرنسا . ولذا جعلنا سنة ١٩٥٨ حدا فاصـــلا بين مرحلتين : باعتبار ان هــــذا العام شهد الانقلاب التاريخى الذى أطاح بالجمهورية

---

(١) درس مؤلفان امريكيان تشكيلات جبهة التحرير وقرارات وادى الصمام معتمدين على اتصالات شخصية مع اعضاء الجبهة وهما الصحفى كلارك CLARK والمؤلفة جلسبى GILESSPI ـ انظر ثبت المراجع

(م ـ ٢٦ المغرب العربى)

الرابعة تحت تأثير ثورة الجزائر ، ومهد السبيل امام حكومة ديجـــول التى تبلورت سياستها فى اتجاه جديد .

فى ليلة أول نوفمبر نسق جيش التحرير حوالى ثلاثين هجوما فى مختلف انحاء الجزائر على المعسكرات الفرنسية ومراكز الشرطة . فدل ذلك على ان الأمر ليس حادثا فرديا . وقدرت المصـــادر الوطنية عدد المشتركين فى هذا الهجوم من الفين الى ثلاثة آلاف مقاتل ، مســتخدمين لأسلحة الخفيفة .

وكان هدف الثورة من اختيار المناطق المتباعدة هو تشتيت جهـود الفرنسيين فى مواجهتهم . غير ان الظروف الصعبة التى اعترضت طريق الثوار فى بداية الأمر اقتضت حصر النشاط أولا فى منطقة القبايل الواقعة شمال قسنطينة وجبال الأوراس المنيعة فى الجنوب الشرقى . وهـاتان المنطقتان كانتا دائما مهد الثورات . وفى صيف سنة ١٩٥٥ عاد الثوار فوسعوا دائرة اعمالهم من جديد فشملت ولاية وهران للمرة الأولى فى سبتمبر ، ثم امتدت أعمالهم الى الصحراء سنة ١٩٥٧ وأصبحت الولاية السادسة . وفى العام التالى نقلوا نشاطهم الى أرض فرنسا ذاتها .

ذلك أن جيش التحرير كان قد قسم الجزائر الى ست منـــاطق رئيسية يطلق عليها اسم الولايات . كما قسم الولاية الى نواحى ، والناحية الى دوائر . وكان للناحية اهمية خاصة لانها تعتبر فى نفس الوقت وحدة ادارية . وعينت الثورة لكل ولاية قائدا عسكريا ومديرا مدنيا . وكان مصطفى بو العيد يجمع بين السلطتين العسكرية والمدنية فى جبال الاوراس . ويبدو أنه كان مقدرا لهـــذا الرجل ان يلعب دورا كبيرا فى الثورة التى اتخذت من ولايته قاعدة رئيسية لها ، لولا انه كان من أوائل القادة الذين استشهدوا فى السنوات الأولى .

وظلت السلطات الفرنسية زمنا تحاول اخفاء الحقيقة فزعمت أن الثورة انما هى فعل عصابات من قطاع الطرق ، لا هدف لها سوى السلب والنهب . ثم تجد هذه الدعاوى اية استجابة لدى الوطنيين ، بدليل أن الاهالى فى جبال الأوراس رفضوا أن يذعنوا لانذار القوات الجوية باخلاء المنطقة تمهيدا لضربها من الجو .

ولم تلبث الثورة أن أثبتت قوتها وسطوتها بالاعمال التى قامت بهـا فى يوم ٢٠ اغسطس ١٩٥٥ . ويدل اختيار اليوم الذى يوافق الذكرى الثانية لخلع محمد الخامس على رغبة الثوار فى ربط نضال الجــزائر بالحركة الوطنية فى الشمال الافريقى . وركزوا هجومهم فى ذلك اليوم

على القرى المنعزلة فى منطقة القبايل - وخاصة مدينة سكيكدة «فليبفيل» وقدر عدد القتلى من الأوربيين بواحد وسبعين شخصا ولكن سرعان ما نظم المستوطنون أنفسهم على هيئة حرس غير نظامى وفتكوا بالاهالى العزل - فأعادوا الى الاذهان ذكرى مذبحة قسنطينة سنة ١٩٤٥ وقدر ضحايا ذلك اليوم بألف ومائتى نفس (١) ·

وكان للثوار من وراء توسيع أعمالهم عدة اهداف ، منها لفت نظر العالم قبل انعقاد دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وخاصة ان الكتلة الآسيوية الافريقية قررت لأول مرة عرض قضية الجزائر على هذه المنظمة الدولية · وربما تطلع الثوار الى احتلال جزء من الأراضى الجزائرية احتلالا ثابتا فى ذلك الاقليم الذى تنتشر فيه الجبال والغابات ، وفى هذه الحالة ربما يمكن تأسيس حكومة مؤقتة تسارع بتدويل القضية الجزائرية ، كذلك أراد الثوار اجتذاب أنصار جدد - سواء بتخويف المترددين او باستثارة قطاع من الرأى العام الفرنسى ذى الميول الانسانية وذلك باظهار وحشية القمع · ومما يذكر بهذه المناسبةأن شائعات راجت باحتمال نزول المصريين من البحر · وبالطبع كان القادة يعلمون استحالة هذا الامر ، ولكن رواج هذه الشائعات فى حد ذاته دليل على ما كان يعلقه الجزائريون من آمال على المساعدات المصرية · وقد أشرنا من قبل الى اهمية هذه المساعدات فى السنوات الأولى من الثورة · وكيف أنها كانت تنقل عبر طرابلس فجنوب الجزائر · والراجح أن منطقة الريف استخدمت ايضا فى نهاية سنة ١٩٥٥ لبعث الثورة فى وهران ، نظرا لتغاضى السلطات الاسبانية · وبعد استقلال تونس انفتح باب جديد سهل نقل المساعدات من مصر ، حتى اضطرت فرنسا الى انشاء خط مكهرب على طول الحدود التونسية الجزائرية · فعادت الى ولاية الصحراء أهميتها من جديد · بل زادت اهميتها فى هذا العام بالذات نظرا لبدء استغلال آبار النفط فيها ، ودخلت اعمال جيش التحرير اليها كما رأينا سنة ١٩٥٧ ·

ونظرا لاتساع عمليات النقل بين مصر والجزائر كان لا بد من عقد اتفاقية خاصة مع حكومة تونس تضع طرق المواصلات التى تمر بها تحت رقابة جيش التحرير ·

حققت احداث يوم ٢٠ أغسطس كثيرا من أهدافها · ومع أن الجمعية العامة رفضت مناقشة القضية الجزائرية فى دورة سنة ١٩٥٥ الا أن هذا الرفض تم بأغلبية صوت واحد · كذلك ازداد أنصار جبهة التحرير ازديادا ملحوظا وحتى هؤلاء الذين لم ينضموا اليها اضطروا الى تغيير موقفهم ·

---

(1) Le monde 23-8-1955.

ففي سبتمبر ١٩٥٥ نادى ابن جلول ولو متأخرا بضرورة الاعتراف بحقيقة القومية الجزائرية ، لكنه أضاف انه على فرنســـا أن تتفاوض معه ومع اقرانه من اعضـــاء المجـــالس النيابية ، لانهم هم الممثلون الشرعيون للجزائريين . واستنكر أعمال القمع ، وتضامن معه في دعوته هذه خمسة وعشرون من الأعضاء الجزائريين الستين في المجلس الجزائري ، مما اضطر الحاكم العام الى تعطيل انعقاد المجلس الى اجل غير مسمى . وهكذا بدأ انهيار انظمة الدولة الفرنسية بالجزائر إنهيارا متتابعا خدم في النهاية اهداف الثورة .

وكان المظهر الثاني لهذا الانهيار هو اخراج (المديريات الجزائرية) مؤقتا من اجراء الانتخابات البرلمانية أول عـــام ١٩٥٦ لعجز السلطات عن تامينها هناك .

— ٤ —

رد الفعل الفرنسي

يلاحظ أن الحكومات المتوالية بنت خطتها على الجمع بين نوعين من الإجراءات : تلك التى اتخذت على الصعيد العسكرى . اما النوع الثانى فيتمثل في الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على أن تكون في اطار السيادة الفرنسية .

ويتعلق بالنوع الأول تلك السلطات الاستثنائية التى منحت الحاكم العام : فوافقت الجمعية بناء على اقتراح الحـــكومة على اعلان حالة الطوارىء في الجزائر شريطة ان تحدد المراسيم المناطق التى يطبق فيهـا القانون . وبمقتضى هـذا القانون منحت السلطة الادارية صلاحيات واسعة لتحديد اقامة الأفراد وفرض رقابة على تنقلاتهم ، وابعادهم عن الجزائر دون محاكمة ، وكذلك منع الاجتماعات ومراقبة المحال العامة ، ومن أهم الاجراءات الاستثنائية انشاء محاكم عسكرية تحل محل المحاكم المدنية ، ولا يجوز للذين يحاكمون امامها الطعن على أحكامها .

وقد حددت مدة سريان هذا القانون بستة أشهر ، ظنا بأن الثورة الجزائرية لن تعيش ولكنها عاشت طويلا ، واضطر الفرنسيون الى تجديد العمل بهذا القانون ، والى اصدار قوانين اخرى أشـــد تعسفا . ومما يستحق الملاحظة أنه عند مناقشة تجديد قانون الطوارىء صرح احـــد النواب الشيوعيين في الجمعية الوطنية بأن المحاكم العسكرية أصـــدرت ستة أحكام بالاعدام ، واثنين بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وثلاثة احـــكام

بالأشغال الشاقة لمدة عشرين عاما . وذلك عقابا على حادث القاء قنبلة لم تصب احدا (1) .

اخذ الحاكم العام يوسع دائرة المناطق التى يطبق فيها قانون الطوارىء حتى شمل الجزائر بأسرها . ولما لم يؤثر هذا القانون فى اشتداد الثورة المطرد : رات حكومة موليه عند توليها الحكم أن تدعمه بقانون استثنائى آخر يعطى للوزير المقيم فى الجزائر سلطات جديدة ، منها حل الجمعيات وتعطيل الصحف ، ومصادرة الأملاك بقرار ادارى . وقد وافقت الجمعية الوطنية على هذا القانون فى مارس ١٩٥٦ على أن يكون سريانه مرتبطا ببقاء الحكومة ، فيجب تجديده عند سقوطها .

لذلك عند تولى بورجيس مونورى رئاسة الحكومة خلفا لجى موليه فى يونيه ١٩٥٧ جدد العمل بالقانون . وعلاوة على هذا طالب بأن يمتد تطبيقه على الاشخاص المولودين فى الجزائر والمقيمين بالأراضى الفرنسية . وقد شعر بعض الفرنسيين بأن مد هذه السلطات الى فرنسا يوشك أن يهدد مبادىء الحرية الفردية هناك . ومع ذلك فقد وافقت الجمعية الوطنية على اقتراح الحكومة .

ومن افظع وسائل القمع التى اشتهرت بها الحرب الجزائرية اقامة المعسكرات لتجميع أهالى منطقة معينة تحت رقابة السلطة المباشرة ، للحيلولة دون اتصال جيش التحرير بهم . وقدر عدد الذين وضعوا فى المعسكرات بمليون وسبعمائة الف نسمة ، مما كان له اسوأ الأثر على الانتاج الزراعى فى البلاد .

ومن الناحية العسكرية البحتة توالى ارسال التعزيزات حتى قررت حكومة موليه سنة ١٩٥٦ دعوة الاحتياطى . ووصل عدد القوات الفرنسية فى الجزائر الى نحو نصف مليون جندى . وتعرضت الثورة الجزائرية لكثير من الأزمات من جراء ذلك ، وكان اخطرها سنة ١٩٥٧ حينما أرسلت فرقة المظلات الى العاصمة فجدت فى تتبع مراكز الثورة فيها . ومن المشهور ان الجزائر بلد المليون شهيد واذا تتبعنا البلاغات الرسمية الفرنسية تجد انها كانت تعلن أسبوعيا عدد ضحاياها من الجزائريين ، ويتراوح المتوسط بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ نفس وقد بلغ فى أحد اسابيع يناير ١٩٦٠ عند تنفيذ عملية شال ثلاثة آلاف .

فاذا كانت الثورة قد امتدت ثمانية وثمانين شهرا ، فان التقدير

Le monde. 30-1955.

التقريبي لمجموع الخسائر الجزائرية في الارواح يبلغ ربع مليون . ولا يدخل في هذا الاحصاء المدنيون الذين قتلوا في حوادث الاغتيالات الفردية سواء أكانوا بفعل العمليات الجوية او المسح أو بفعل جيش التحرير أثناء تتبعه للخونة . ويستحيل الوصول الى تقدير حقيقي بل ولا تقريبي لهذه الخسائر .

وتبلغ خسائر الفرنسيين ١٦/١ في المتوسط ، وعليه تكون النسبة أقل منها في الهند الصينية .

● ●

واما فيما يتعلق بالنوع الثاني من الاجراءات فقد افتتح جاك سوستيل سياسة الاصلاحات الاجتماعية ونادى بمبدأ الالحاق Integration وهو غير الادماج ، لأنه يعني تطوير الانظمة السياسية بحيث تصبح مطابقة لفرنسا ؛ مع الاعتراف بوجود شخصية جزائرية متميزة ثقافيا واجتماعيا . وتحتوي (١) خطته على توسيع ملكيات « المسلمين » وذلك بتقديم المساعدات المالية لهم لشراء الأراضي التي لم تستغل بعد . وفي هذه الحالة يمكن للدولة أن تصادرها من ايدي المستوطنين . وتقسيم المحصول بين المالك والمستأجر (وهو جزائري في الغالب) على أساس المناصفة ؛ بدلا من خمس المحصول . والغاء المجالس البلدية المختلطة وتحويلها الى مجالس كاملة السلطة تنتخب بالاقتراع العام .

وشرع سوستيل في اقامة ادارة متخصصة في الشئون الوطنية . وكان يريد اعطاء العسكريين نصيبا اوفى في هذه الادارة مذكرا بعهد بيجو حينما انشأ المكاتب العربية . مع ملاحظة اختلاف الزمن . فقد نجحت هذه المكاتب حينما كانت تواجه قبائل مفككة . أما الآن فانها تواجه ثورة وطنية عامة . وكذلك اقام الحاكم العام قسما خاصا في جامعة الجزائر لتدريب (المسلمين) على الشئون الادارية تمهيدا لمنحهم نسبة اكبر من الوظائف .

● ●

---

(١) كان جاك سوستيل من النواب الديجوليين في الجمعية الوطنية ، اختاره منديس فرانس حاكما عاما للجزائر بعد قيام الثورة ثم اقاله موليه باعتبار انه يمثل اليمين . وقد تحول سوستيل الى خصم الد لديجول حينما اخذ بسياسة تقرير المصير . وقد وضع سوستيل كتابين عن مهمته في الجزائر .

اتبع الحزب الاشتراكي بعد ان تولى الحكم في يناير ١٩٥٦ نفس السياسة السابقة بالرغم من انه أعلن أثناء الحملة الانتخابية أن هدفه هو تحقيق السلام في الجزائر . وحاول جي موليه أن يحدد موقفه من موضوع القومية الجزائرية . وهل هناك مبرر حقيقي للاستقلال . فخرج بمبادىء غامضة غير مترابطة لخصها في العبارة الآتية « ان الجزائر ليست اقليما فرنسيا ، لأن غالبية السكان تتصف بمميزات اجتماعية وثقافية مغايرة للفرنسيين . وليست الجزائر في نفس الوقت بلدا عربيا لأنه يسكنها عدد من البربر . وليست هي دولة اسلامية لاستيطان عدد كبير من الاوروبيين لها . وانما اقول ان للجزائر شخصية خاصة تربطها بفرنسا روابط لا تنفصم عراها في جميع الميادين » .

واعتبر موليه ان قراره بالغاء الدوائر الانتخابية المنفصلة وتقرير نظام الدائرة الواحدة لجميع السكان هو ثورة سياسية تتيح للجزائريين مساهمة فعالة في ادارة البلاد . وفي رايه ان اجراء هذه الانتخابات هو الوسيلة الوحيدة لايجاد المفاوض الجزائري الشرعي الذي سيكون اصدق تمثيلا للشعب من جبهة التحرير ! ! ولن يكون من حق هذا المفاوض على كل حال مناقشة مسالة السيادة الفرنسية . ووعد رئيس الحكومة بأن الانتخابات ستجرى بمجرد وقف القتال . ودعا جيش التحرير الى تسليم سلاحه وليثق بأن الحكومة الفرنسية لن تنتقم من المقاتلين .

وبما ان مثل هذه العروض لم تكن لتؤثر في مجرى الثورة ، فقد رأى الحزب الاشتراكي أنه من الضروري فعل شيء يظهر للراي العام الفرنسي الذي أبدى ميله الى اليسار في الانتخابات ، أن الحزب لا يسير بنفس درجة التشدد التي تتبعها الأحزاب اليمينية ازاء المشكلة الجزائرية . وعليه اتخذ مؤتمر الحزب توصية بامكان اجراء محادثات لجس نبض جبهة التحرير ، غير ان الحكومة اعتبرت ان مثل هذه المفاوضات تورط لها اذ قد يتضمن ذلك اعترافا بالجبهة . وسنرى كيف أن هذه المشكلة وقفت مدة طويلة عقبة في سبيل التفاوض .

هكذا اكتفت حكومة موليه بارسال مبعوثين غير رسميين تقابلوا مع بعض أعضاء الجبهة في يوجوسلافيا في صيف ١٩٥٦ الى أن توسط محمد الخامس وقبلت الحكومة الفرنسية على مضض الاجتماع بممثلي الجبهة في مؤتمر بتونس يحضره مندوبون عن أقطار المغرب العربي الثلاثة .

لماذا أفسدت فرنسا المؤتمر بالسطو على الطائرة التي كانت تقل الوفد الجزائري برئاسة بن بللا ؟ .

لقد ذكرت الحكومة الفرنسية اذ ذاك ان هذا الحادث كان من فعل المخابرات الفرنسية فى الجزائر ، وانها لا تستطيع بعد سقوط (زعماء العصاة) فى يدها أن تطلق سراحهم ومهما يكن من تفاهة هذا التبرير فقد، اصبح من المؤكد بعد ذلك ان للحادث علاقة بمؤامرة العدوان الثلاثى على مصر .

وقد كان من الممكن ان يؤثر تأثيرا سيئا على مجرى الثورة لو حقق العدوان الثلاثى اهدافه . فان فشل العدوان احتفظ للثورة بهيبتها ، بينما بدت فرنسا معزولة فى الأمم المتحدة لأنها انتهكت القانون الدولى مرتين (١) .

ان الحزب الاشتراكى حينما نشط فى تدبير العدوان عمل على توثيق الروابط بين مصر والثورة الجزائرية ، وعلى عكس ما كان يرجوه الفرنسيون اكد هذا الحادث الصفة الدولية للقضية الجزائرية . كذلك اظهرت أحداث اكتوبر ١٩٥٦ أن الحزب الاشتراكى انتهى باتباع سياسة جزائرية لا تقل رجعية عن اشد احزاب اليمين تطرفا ، واصبح موقف الحزب شاذا بين نظائره فى أوربا الغربية . فمن المعروف أن الحزب الاشتراكى الفرنسى ينتمى الى الدولية الثانية ، وهى نفس الهيئة الاشتراكية التى ينتمى اليها حزب العمال البريطانى . وقد استنكرت جميع الأحزاب المنتمية الى تلك المجموعة العدوان الثلاثى .

أصبح الحزب الاشتراكى بعد هذه الأحداث فى موقف حرج . فقد جاء الى الحكم نتيجة ميل الراى العام الفرنسى الى اليسار . ووقع على عاتق الحكومة التالية التى ساهم فيها الاشتراكيون ايضا ان تخرج المشروع الذى وضعه موليه للجزائر فى صورته النهائية وقد عرف هذا المشروع باسم القانون الاطارى Les lois cadre وعندما تقدم مونورى بهذا القانون الى الجمعية الوطنية رفضه اليمينيون لانهم راوا فيه تقرير حقوق اكثر مما ينبغى للجزائريين . كما رفضه الشيوعيون لانهم راوا فيه قانونا رجعيا . ولكن الجمعية التى اسقطت حكومة مونورى بسبب رفضها لهذا القانون ، عادت فوافقت عليه فى ٣١ يناير ١٩٥٨ باغلبية ٢٩٦ صوتا ضد ٢٥٤ . وهذا يدلنا على أن موافقتها لم تكن صادرة عن اقتناع ، بل كانت لتلافى أزمة وزارية جديدة يصعب الخروج منها .

لم يخرج القانون الاطارى قط الى حيز التنفيذ ، لأن الجمهورية

---

(١) بحث هذه النقاط محمد البيجاوى فى كتاب وضعه عن الثورة الجزائرية والقانون الدولى . انظر ثبت المراجع .

الرابعة نفسها سقطت بعد قليل ، ومن المفيد مع ذلك عرض خطوطه الرئيسية باعتباره آخر حل قدمته الحكومة الفرنسية للجزائر قبل الاخذ بسياسة تقرير المصير ٠

تنص المادة الاولى على ان الجزائر جزء مكمل للجمهورية الفرنسية ٠ وبناء عليه صارت جميع الاصلاحات الأخرى التى شملها القانون غير ذات موضوع فى نظر الثورة الجزائرية التى لم تكن ترضى بغير الاستقلال التام بديلا ٠ فهو لا يصل اذن الى درجة الحل الوسط ٠

ويجرى الاصلاحات الاخرى على أساس المبدأ السابق ٠ ومن بينه الاخذ بنظام الدوائر الموحدة ٠ وينص القانون على اقامة جمعيات اقليمية ذات سلطات تشريعية فى الأمور الداخلية ٠ وفى نظر واضع المشروع يعد انشاء هذه الجمعيات خطوة هامة نحو تحقيق الحكم الذاتى المحلى ٠ وبما ان تطبيق نظام الدوائر الموحدة يؤدى الى حصول الجزائريين على اغلبية المقاعد فى هذه الجمعيات الاقليمية ، فقد رؤى من باب الاحتياط ان يكون لكل اقليم مجلس أعلى هو بمثابة مجلس شيوخ توزع فيه المقاعد مناصفة بين الجزائريين والمستوطنين ٠ ولذلك سمى مجلس الطوائف ٠ فكأن فكرة امتياز الاقلية لأوربية لم تختف من القانون الاطارى ٠

ونص القانون على أن تكون لكل اقليم حكومة مسئولة أمام الجمعية الاقليمية ولكن ليس للجمعية حق اسقاطها ٠ فالوزير المقيم هو الذى يعين هذه الحكومات وله أن يقيلها ٠

ومن الواضح أن تقسيم الجزائر الى وحدات تشريعية متعددة انما يهدف الى تفتيت السلطة المحدودة التى منحت للجزائريين ٠ ولم يحدد القانون عدد هذه الوحدات بل ترك ذلك لحكومة الجمهورية ٠

ومما يدل على نية التفتيت أن نقد النواب للقانون انصب على الفقرة الخاصة باقامة المجلس الفدرالى الذى يمثل جميع أقاليم الجزائر ، اذ كان يخشى أن يتحول الى صورة تعبر عن الكيان الجزائرى ٠ لذلك تقرر تأجيل انشاء هذا المجلس الى ما بعد سنتين من قيام المجالس الاقليمية وضيقت اختصاصاته ما أمكن ٠ فترك للجمعيات الاقليمية تحديد السلطات التى تريد أن تتنازل عنها للمجلس الفدرالى ٠ كذلك نص على أن يراس الوزير المقيم جلسات هذا المجلس ، وهو الذى يدير فى نفس الوقت جميع مصالح الجمهورية فى الجزائر ٠

ويتالف المجلس الفدرالي مثل الجمعيات الاقليمية من قسمين :

القسم الاول تكون المقاعد فيه مناصفة بين الأوربيين والجزائريين • على هيئة مجلس الطوائف •

والثاني ينتخبه اعضاء المجالس الاقليمية ، اى انه سيضم اغلبية من الجزائريين •

لذلك منح القسم الاول من المجلس الفدرالي اختصاصات اكثر تحديدا • ومن بينها الاشراف على تنفيذ قرارات حكومة الجمهورية الخاصة بالجزائر •

اثار هذا القانون سخط الجزائريين والمستوطنين معا • اما الوطنيون الجزائريون فقد رأوا فى هذا التفتيت تلميحا بالتقسيم ، بالاضافة الى انهم اصبحوا لا يلتفتون الى اى مشروع فرنسي ينبني على مبدأ السيادة ، ولا يصل القانون بالجزائر حتى الى درجة الحكم الذاتي •

اما المستوطنون فانهم لم يكونوا قد غيروا عقليتهم بعد ، وراوا ان تطبيق مبدأ الدوائر الموحدة يمس كيانهم كأقلية ممتازة ، وكان هذا القانون من بين اسباب انتقاضهم على نظام الجمهورية الرابعة •

٥ ـ الـدور المصـرى

تبنت مصر قضايا الكفاح الوطنى فى شمال افريقيا وذلك من خـلال مواقف اتخذتها فى اروقة الأمم المتحدة أو من خلال العمل فى اطار جامعة الدول العربية أى أن الدور هنا اقتصر على الجانب الدبلوماسى اما فيما يتعلق بمساعدة الجزائر فان المساندة المصرية تجاوزت كثيرا هذا الدور ٠

ومنذ وفود الطلائع الأولى التى أعدت للثورة الى القاهرة اتيحت لها وسائل شراء السلاح على نطاق ضيق ومع بدء العمليات المسلحة فى نوفمبر ١٩٥٤ أخذت مصر تتوسع فى عمليات نقل السلاح بشتى الطرق حتى دخوله الى مناطق العمليات وتكلفت الميزانية المصرية جزء من النفقات كما كانت المعونات المالية من المشرق العربى تتم عن طريق مصر ٠ ومن بين الطـرق المتخذة لامداد السلاح ما اتبع طريق البر عبر ليبيا كما أشـتركت البحرية المصرية فى النقل احيانا الى احدى الموانى الليبية ومن ثم الى أقصى الجنوب حيث تتصل حدود ليبيا بالجزائر بل نقلت سفن مستأجرة لمصر السلاح فى بعض الأحيان الى موانى صغيرة بشمال المغرب لكى تصدر الى الولايات الغربية حيث كان القادة يشكون من استئثار القيادات الثورية فى شرق البلاد بمعظم الأسـلحة ٠

ومن المتوقع فى مثل حالات امداد السلاح أن تجرى فى تكتم شـديد ولذلك كان جهاز المخابرات هو أصلح السبل لأداء المهمة وقد كلف أحد رجال المخابرات المصريين المختصين بالشئون العربية وهو فتحى الديب (١) للاشراف على التنفيذ ٠

سلمت فرنسا ضمنا بالدور المصرى وحاولت أن تحاصره بالترهيب تارة وبالترغيب تارة اخرى فوعدت بزيادة الاستثمارات الفرنسية بمصر فى حالة امتناعها عن تأييد الثورة الجزائرية ثم بسحب الاستثمارات القائمة لو أن حكومة مصر أصرت على هذا التأييد ، كذلك وعدت حكومة جىموليه الفرنسية

---

(١) انظر كتابه : عبد الناصر وثورة الجزائر ٠

بتأييد مصر فى مناهضتها لحلف بغداد سياسيا غير أن هذه المحاولات باءت بالفشل ٠ وحينما قامت حكومة فرنسا الاشتراكية بعملية جس نبض لقـادة الثورة كانت القاهرة هى المكان المناسب لعقد اللقاء السرى وبتوسط الحكومة المصرية تم ترتيب اللقاء ٠ وأختارت فرنسا لهذه المهمة جوزيف بيجاره أحد أعضاء الحزب الأشتراكى الحـاكم والذى لم يأت ممثلا عن الحكومة حتى لايعنى ذلك أى اعتراف رسمى بجبهة التحرير الجزائرية ٠ وفى ابريل ١٩٥٦ جرت المباحثات بين المندوب الفرنسى ومحمد خيضر عن جبهة التحرير بحضور الديب الذى كان يبلغ جمال عبد الناصر بسير المباحثات أولا بأول ، غير أن وجهات النظر بين الفريقين كانت متباعدة لدرجة أنه تبين استحالة التوصل الى حـــل ٠

ومنذ البداية ألقت الخلافات بين عناصر الحركة الوطنية الجزائريـــة بظلالها على الدور المصرى فبعد تبنى مصر للجان الثورية للاتحاد والعمـــل أوفدت حركة مصالى الحاج المستقرة بفرنسا أثنين من مبعوثيها فى ديسمبر ١٩٥٤ وهما شاذلى المكى وأحمد مزيانا ولدى اكتشاف السلطات المصرية أن هذه الحركة تمثل انشقاقا ضارا بالثورة اعتقلت الرجلين ولم تفرج عنهما الا فى سنة ١٩٥٨ ٠ وفى هذه الأثناء تبلورت جبهة التحرير الجزائرية كممثل وحيد للثورة الجزائرية وبرزت زعامة أحمد بن بللا للجبهة أو على الأقـــل لممثليها فى الخارج ومن هنا جاءت معارضة من العناصر العاملة فى الداخل والتى رأت انها أحق بالزعامة باعتبارها الجهة التى تبذل التضحيات بالنفس فى الكفاح المسلح ضد فرنسا ٠ وقد أوشك هذا الفريق أن يخطف الأضواء من البعثة الخارجية عندما أنعقد مؤتمر وادى الصمام فى أغسطس ١٩٥٦ ويركز على أولوية العمل فى الداخل وتزعم هذا التيار رمضان عبانة الذى ســوف يقتل فيما بعد فى ظروف غامضة ، وقد بقيت مصر بقدر الامكان بعيدة عن هذه الانقسامات وان كانت قد مالت الى التعاون مع أحمد بن بللا ولذلك أدى اختطاف هذا الرجل وأقرانه الأربعة فى اكتوبر ١٩٥٦ الى موجات من السخط عمت الرأى العام المصرى ٠ ومالبث العدوان الثلاثى أن دفع مصر الى مزيداً من الأهتمام بتأييد الثورة الجزائرية دون حرج ٠

وقد انفرد فتحى الديب (١) برواية عن احدى المغامرات الغريبة التى

---

(١) الديب ، ص ٣٧٩ وما بعدها ٠

قامت بها المخابرات المصرية لانقاذ الخمسة المختطفين من سجون فرنسا رحسب الخطة المشار اليها فقد استخدمت المخابرات عشرين ألمانيا وأحد كبار المسئولين الفرنسيين للتنفيذ خلال شهر يناير ١٩٥٧ · واذا صحت هذه الرواية فان عبد الناصر يكون قد بدد كثيرا من الجهد والمال فى مغامرات اقرب ما تكون الى الخيال منها الى الواقعية ·

تعرض الدور المصرى بعد أن أتسعت عمليات الامداد بالسلاح الى متاعب نتيجة الانقسامات التى تعرضت لها الثورة الجزائرية فى الداخل والخارج وأتهم بعض القادة البعض الآخر بأن الأسلحة تخزن ولا ترسل الى (المجاهدين) حتى تستفيد منها عناصر دون أخرى فى المستقبل بعبارة أخرى أن هذه الأسلحة يمكن أن تستخدم لتمكين أحد الفرقاء من الزعامة ثم من الحكم فيحالة الحصولعلى الاستقلال ، وقد أتهم رمضان عبانة مصر بالتقصير فى ارسال السلاح فأرسل أحد معاونيه وهو الأمين دباغين ليتحقق من الأمر وقد أقتنع بعد وصوله بأن مصر لم تقصر فى عمليات الامداد وانما كانت عقبات تضع فى سبيل وصول الأسلحة وخاصة من جانب الحبيب بورقيبة الذى كان يخشى من أن تستفيد المعارضة لحكمه من المسلحين الجزائريين ولذلك أستولى على بعض الكميات من الأسلحة أو أمتنع عن مرورها بتونس ، وسوف يفعل محمد الخامس نفس الشىء بالنسبة للجبهة الغربية ولو أنه لم يتماد فى هذا الأجراء فقد كان حريصا على ابقاء العلاقات الطيبة مع مصر ·

وبينما كانت الحكومة المصرية تسير فى طريق تأييد الثورة المسلحة انصبت مساعى الحبيب بورقيبه على ايجاد الحل الدبلوماسى وأقترح بدلا من الصراع المسلح دخول دول شمال افريقيا الثلاث فى اطار حلف الأطلسى مقابل اعتراف فرنسا باستقلال محدود للجزائر وخلال المرحلة التى سوف ندرسها فى الفصل التالى أنعكست آثار الخلافات العربية على الثورة الجزائرية فكان عبد الكريم قاسم الرئيس العراقى يزايد بالتبرعات للثورة ، كما أن مقر البعثة الخارجية بالقاهرة تشرذم مثلما تشرذمت القيادات فى الداخل وكانت تلجأ الى التصفيات الجسدية بعضها لبعض أولا بأول وكان الثلاثى بوصوف وكريم بلقاسم وبن طوبال يشكلون عنصرا مشاغبا فى البعثة الخارجية · ومن هنا رحبت مصر برئاسة فرحات عباس للحكومة المؤقتة التى أتخذت من القاهرة مقرا لها وقد وضعت أمامها مختلف التسهيلات لاداء

مهمتها بنجاح ، ونظرا لكثرة الدسائس والمؤمرات فكرت الحكومة المؤقته فى أن تنقل مقرها الى طرابلس الغرب الا أنها لم تجد هناك نفس التسهيلات فعادت الى القاهرة ٠

وقد بقى ارتباط مصر بالثورة الجزائرية عاملا يحول دون اعادة العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ٠ وقد أبلغ الجنرال ديجول رئيس الجمهورية الخامسة بهذا المعنى وربما كان الجنرال يعلق على ايجاد حل بعيدا عن المؤثرات الوافدة من الخارج بصفة عامة ومن مصر بصفة خاصة غير أنه لم يستطع أن يجد القوة السياسية التى تتعاون معه فى الحل فأضطر الى التفاوض مع جبهة التحرير مباشرة ٠ وقد قدر للفريق وثيق الصلة بمصر والذى يتزعمه بن بللا أن يتغلب على منافسيه داخل الجبهة وهكذا بدأت الجزائر المستقلة حياتها بعلاقات وثيقة مع مصر برئاسة احمد بن بللا مما شجع عبد الناصر على الاستمرار فى مد الجزائر بالأسلحة التى لم تعد مجرد بنادق ومدافع بل شملت المدرعات والأسلحة الثقيلة ٠

الفصـــل التاسع عشـــر

الثورة ـ المـرحلة الثـانية

١٩٥٨ ـ ١٩٦٢

(١)

موقف ديجـــول

كان المألوف هو أن تكون احداث فرنساهـ ى المؤثرة فى تطور حيـاة الجزائر غير أننا نستطيع أن نلحظ بسهولة أن العكس أصبح ايضا صحيحا فاللثورة الجزائرية وردود فعل المستوطنين عليها الأثر البالغ فى اســـقاط الجمهورية الرابعة وقيام الجمهورية الخامسة الفرنسية . ويتجلى هذا التأثير ابان الفترة موضوع الدراسة فى هذا الفصل (١) ٠

وحتى من قبل وقوع انقلاب مايو ١٩٥٨ أضحت المشكلة الجزائريـــة تتحكم فى سياسة فرنسا الخارجية والداخلية معا ٠ فهى التى جرتها الى المشاركة فى العدوان الثلاثى ثم وقوفها مع الأقلية فى الأمم المتحدة ٠ وذلك بمناسبة التصويت على موضوع الانسحاب من سيناء ، فكانت هى الدولة الوحيدة التى صوتت بجانب اسرائيل ٠ كذلك أثرت الثورة الجزائرية على علاقتها مع تونس والمغرب بصفة خاصة ٠ واذا تتبعنا الأزمات الوزارية منذ سقوط حكومة منديس فرانس فبراير ١٩٥٥! حتى نهاية الجمهورية الرابعة نجدها جميعا دون استثناء قد نشأت عن مشكلات تتعلق بشمال افريقيـا ، وبالجزائر بصفة خاصة ٠ وقد وقع انقلاب مايو ابان أزمة من هذه الأزمات الوزارية وكان سببها هو موضوع الجلاء عن تونس ٠

كذلك أصبحت الحرب فى الجزائر عبئا ثقيلا على اقتصاديات البـلاد

---

(١) خصصت مؤلفة انجليزية كتابا لبحث أثر الثورة الجزائرية فى أوضـاع فرنسا ٠ أنظر Pickles : Algeria and France كما أن الفرنسيين اهموا بدراسة انقلاب ١٣ مايو دراسة تفصيلية وقد ذكرنا بعضا من هذه ا لمؤلفات العديدة فى ثبت المراجع ٠

اذ قدرت نفقات الحرب خلال عامى ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ بسبعمائة مليار فرنك قديم ولا يدخل فى ذلك التقدير حسب تصريح منديس فرانس فى البرلمان الاضرار التى ترتبت على حرمان فرنسا من اليد العاملة نتيجة دعوة الأحتياطى ٠

وتتلخص احداث مايو فى أن المستوطنين قاموا بالاستيلاء على دار الحكومة فى مدينة الجزائر يوم ١٣ مايو ١٩٥٨ وسرعان ما انضم اليهم معظم رجال الجيش العامل وعلى رأسهم راؤول سالان قائد الأركان . وجاك ماسو قائد فرقة المظلات ٠ ثم عمدوا الى تاليف لجان أمن عام فى مختلف انحاء الجزائر لتدير البلاد مستقلة عن حكومة باريس ٠ ولعل المستوطنين كانوا يستوحون أحداث الثورة الفرنسية حينما ألفوا هذه اللجان وسرعان ما امتد العصيان الى كورسيكا . وباتت فرنسا مهددة بحرب أهلية ٠ حينئذ رضخ البرلمان لمطالب المستوطنين وقبل دعوة ديجول الى الحكم ومنحه سلطات استثنائية مع علم أعضائه أنه كان ينوى تغيير نظام الجمهورية الرابعة . واقامة نظام رئاسى يتمتع فيه رئيس الجمهورية بسلطات واسعة ٠

ولم تكن هذه هى المرة الأولى خلال الثورة الجزائرية التى يتمرد فيها المستوطنون على سلطة الحكومة ٠ فقد حدث يوم ٦ فبراير ١٩٥٦ أن أجبر المستوطنون حكومة موليه على اقالة الحاكم العام الجنرال كاترو بعد تعيينه بيوم واحد ٠ ومنعوه من دخول البلاد . محتجين بأنه اشترك منذ قلبل فى المفاوضات التى أدت الى عودة محمد الخامس الى حكم المملكة المغربية ٠ ولا شك أن حركة ٦ فبراير كانت ارهاصا بما سيحدث فى ١٣ مايو ٠

ومن دواعى العجب ان القائمين بانقلاب مايو اشركوا معهم بعض الجزائريين سواء فى لجان الأمن العام أو المظاهرات التى خرجت يوم ١٦ مايو تنادى بالجزائر فرنسية ٠ واهتموا باشراك الجزائريين خداعا منهم للشعب الفرنسى حتى يوهموه بأن مجموع الجزائريين مازال متمسكا بالولاء لفرنسا ٠ غير أنه لايستبعد فى نفس الوقت أن تكون قلة من الجزائيين قد رحبت بعودة الجنرال ديجول الى السلطة ظنا منهم أنه قادر على انهاء الحرب الأليمة بشكل ما ، أو لعل الموالين خافوا على مصيرهم لو حدث واستقلت الجزائر على يد جبهة التحرير ٠

ما هى أسباب هـذا الانقلاب ودوافعه ؟

يبدو أن هذه الأسباب اختلفت كاختلاف القائمين به · أما المستوطنون فكانوا يرمون الى الأتيان بحكومة قوية تسخر امكانيات البلاد للقضـاء على الثورة عن طريق القوة · وكان بعض ضـباط الجيش مرتبطـا ارتباطـات سرية بالمستوطنين · اما غالبيتهم فكانوا مدفوعين بدوافـع متباينة · فظن بعضهم أن عودة ديجول تعنى القضاء على تيار الشيوعية الصـاعد فى فرنسا · وربما اعتقد آخرون أن الجيش اذا تـولى السـلطة أصبح أكثر قدرة على تحقيق الوئام بين الجزائريين والسلطات الفرنسية قياسـا على ما حدث فى عهد نابليون الثالث · كمـا شـعر آخـرون بأن هيبة الجيش معلقة بالانتصار فى الجزائر ومن شـأن هـذا الانتصـار ان يمحو عـار هزيمتين حلتـا بالجيش الفرنسى ، الأولى عند توقيـع الهدنـة مع الألمان سنة ١٩٤٠ والثانية فى حرب الهند الصينية ·

ونستخلص من ذلك كله ان ضباط الجيش أصبحوا مشتغلين بالشئون السياسية ، وذلك بحكم طبيعة عملهم فى الجزائر · وكثيرا ما وجهوا النقد المر لحكومة باريس لتساهلها فى ادارة دفة القتال مراعية اعتبارات سياسية كانت تمنع تتبع الثوار وراء الحدود التونسية · كما أنها تتهاون فى نشر أخبار تعذيب الوطنيين مما يثبط روح الجيش المعنوية ·

والذى يعنينا ههنا هو معرفة موقف ديجـول من قضـية الجزائـر ، ويلاحظ أنه تميز بالغموض فى الأشهر الأولى من حكمه ، والأمر الوحيـد الذى اتضح سريعا هو انه رفض أن يكون أداة فى يد القائمين بالانقـلاب · ولعله حين طلب السلطات الاستثنائية كان يقصد مقاومة زعماء الانقلاب وليس فقط متابعة الحرب فى الجزائر كما فهم فى حينه · ولـم يلبث أن أخرج سالان وبعض الضباط الذين ساهموا فى الانقـلاب من الجيش · ومنع جميع العسكريين من الاشتراك فى لجان الأمن العام ·

ويثير هذا الغموض تساؤلات عدة بين الكتاب الذين تناولوا هـذا الموضوع · فهل كان الجنرال يريـد تطبيق سياسـة تقريـر المصـير علـى الجزائر ، لكنه لم يستطع أن يفصح عنها الا بعد أن واتتـه الظروف وقضى على المعارضة ؟ أم أنه حاول مثل سابقيه أن يحـل القضية الجزائرية حلا

عسكريا ؟ فلما عجز عن ذلك اضطر الى التسليم بالأمر الواقع وتطورت سياسته تدريجا تحت ضغط الحوادث حتى انتهت بالتسليم بالاستقلال ٠

ولكل من الاحتمالين المذكورين شواهد تدل على صحته ٠ فمن شواهد الاحتمال الأول مواقف ديجول السابقة من المسائل الاستعمارية ، وهى تدل على نزعة تحررية نسبيا . فهو الذى أسقط نظام الاحتكار الاقتصادى فى الامبراطورية سنة ١٩٤٤ ٠ كما أنه طالب عند وضع قانون سنة ١٩٤٧ بتوسيع اختصاصات المجالس المحلية فى الجزائر ٠ وأهم من ذلك كله ترك الحرية للمستعمرات فى أفريقيا الغربية والوسطى لكى تختار بين البقاء فى العائلة الفرنسية أو الانفصال عنها ٠ ومن المعروف أنه أجرى استفتاء فى هذا الصدد بمناسبة طرح دستور الجمهورية الخامسة وأن غينيا استطاعت أن تختار الانفصال دون أن تتعرض لأى ضغط ٠ ومن هذه الأدلة أيضا أن ديجول تجنب فى خطبه التلفظ بشعار « الجزائر فرنسية » أو بكلمة الالحاق ٠ ويروى عنه أنه (١) صرح فى مجالسه الخاصة أنه لايخشى من تطبيق سياسة تقرير المصير فى الجزائر مهما كانت نتائجها ٠

أما شواهد الاحتمال الثانى فترتكز الى أسس أقوى ٠ فاذا كان ديجول لم ينطق بكلمة الالحاق فقد تفوه ببعض العبارات التى تدل عليه ٠ من ذلك مثلا ما ورد فى الخطاب الذى ألقاه بمناسبة زيارته للجزائر عقب توليه الحكم اذ قال « ان المسلمين مواطنون ويجب ان يكونوا متساوين فى جميع الحقوق مع بقية الفرنسيين » ٠ كما ذكر فى مناسبة أخرى ان حدود فرنسا تمتد من بحر الشمال شمالا حتى الصحراء الكبرى جنوبا ثم هناك طريقة الاستفتاء على الدستور فى الجزائر ، فبينما خيرت اقطار أفريقيا الغربية والوسطى بين البقاء فى مجموعة الشعوب الفرنسية أو الانفصال عنها ، كان السؤال المطروح فى الجزائر هو نفس السؤال المطروح فى فرنسا للاستفتاء ، وهو التخيير بين الموافقة على دستور الجمهورية الخامسة أو رفضه ٠ وفضلا عن ذلك استخدمت وسائل الضغط

1. Le Monde, 25/6/1908.

والاكراه المعهودة فى هذا الاستفتاء حتى جاءته نسبة الموافقة فى الجزائر اعلى منها فى فرنسا (٩٦٪ مقابل ٨٩٪) ٠

وعلى اثر موافقة الجزائر المزيفة على الدستور فتحت أبـواب المجالس النيابية الفرنسية أمام الجزائريين ، وزيد عدد الأعضاء فى مجلس النـواب الى ٤٤ ، والشيوخ الى ٣٢ ٠ وصارت نسبة الجزائريين الى المســتوطنين الثلثين بدلا من نظام المناصفة ٠ ولوحظ أن معظم النواب الجزائريين الذين دخلوا البرلـان من أنصار « الجزائر فرنسية » فهم اذن ممن ينطبق عليهم المثل القائل « ملكى أكثر من الملك » ٠ ويعد هذا الاجراء فى حد ذاته دليلا على الاتجاه نحو سياسة الالحاق ٠ وأكدت تصريحات دبيريه رئيس الوزراء وجود هذا الاتجاه لدى حكومة ديجول حينما أعلن عن نيته فى توحيد النقد والميزانية ، والقانون المدنى بما فى ذلك قانون الأحوال الشخصية اذا أراد الجزائريون ٠

وعلاوة على ما تقدم سار ديجـول على نهج الحكومات السابقة من الجمع بين وسيلتين : مضاعفة المجهود الحربى . ووضـــع المشروعات ذات الصبغة الاجتماعية لرفع مستوى الجزائريين ٠ وكما فعل جى موليه من قبل ، طلب ديجول الى المقاتلين الجزائريين التسليم واصفا اياه بأنه صلح الشجعان ٠ وكأنه فى اطلاق وصف الشجاعة اغراء يكفى لاقناع الجزائريين بالاستماع اليه ٠ وهكذا واصل الحرب وتفنن فى تنظيمها بقدر المستطاع ٠

ومهما يكن من اختلاف فى الرأى حـول حقيقة نوايـا ديجـــول فمن المؤكد ان الجنرال لم يكن يتفق مع القائمين بانقلاب ١٣ مايو فى الأهداف ، فبينما انصبت أهداف الرئيس الفرنسى الجديد على انهـــاض فرنســـا دوليا ، وعلى المستوى الأوربى خاصة . كانت أهــداف القائمين بالانقلاب محدودة ، وهى ايجاد سلطة مســتقرة تكون اقــدر على مواجهة الثـــورة الجزائرية ٠ واتفق الطرفان صـــدفة علـــى شىء واحــد وهــو أن نظـــام الجمهورية الرابعة يتسم بالفساد والعجز لعدم الاستقرار الوزارى ٠

اما المشروعات الاجتماعية فتتمثل فى مشروع « قسنطينة » للسنوات الخمس ٠ فى أوائل سنة ١٩٥٩ وهو يهدف الى فتح مجالات العمل أمـــام اكبر عدد من الجزائريين بحيث يصل الى تشغيل أربعمائة الف فى خمس

سنوات . ويقوم المشروع على التوسع فى الخدمات العامة ، لا على انشاء الصناعات الثقيلة . من ذلك اقامة ربع مليون مسكن ، والتوسع فى انشاء المدارس حتى تستوعب ثلثى الأطفال فى سن التعليم بدل الربع كما كان الحال سنة ١٩٥٩ . وحجز ١٠٪ من الوظائف العليا فى الجزائر لأبناء البلاد مع ملاحظة أنه لم يكن هناك سوى ثمانية جزائريين يشغلون وظائف كبرى من بين ٨٢٤ وظيفة هامة ١٩٥٦ . كما اقتضى المشروع شراء الأراضى من كبار المستوطنين وبيعها للجزائريين على أقساط . وكان من المفروض أن تقدم الحكومة ثلثى نفقات المشروع ويسهم الرأس مال الخاص بالباقى ، على أن يعفى من الضرائب . وعلاوة على ذلك تقدم الحكومة الفرنسية مساعدة قدرها ٤٠٪ من تكاليف كل وظيفة جديدة توجدها هيئة المشروع .

اعتبر مشروع قسنطينة دليلا على الاتجاه نحو الالحاق . ولم تكن هذه الصفة السياسية وحدها هى التى أفسدته . فمن جهة لم يكن الرأسماليون الفرنسيون مستعدين للمخاطرة بأموالهم فى هذه الأحوال . ومن جهة أخرى قاوم الوطنيون الجزائريون مساهمة الرأسمال الوطنى الذى كان ديجول يود اجتذابه أكثر من غيره للمشروع . وقيل فى هذا الصدد أنه كان يقصد الى توسيع قاعدة برجوازية جزائرية تتعاون مع فرنسا . لذلك قاومته الثورة بشدة . بل انها هددت المزارعين الذين يقبلون الأرض الموزعة بواسطة السلطات الفرنسية وأزهقت أرواح جزائرية من جراء ذلك .

ومهما يكن من قوة الأدلة التى يقدمها القائلون بالاحتمالين السابقين ، فمما لا شك فيه أن ديجول لم يكن عند توليه السلطة مستعدا لتقبل النهاية التى وصلت اليها الثورة الجزائرية ، وهى الاستقلال التام ، ووحدة الأراضى الوطنية وتسليم السلطة الى خصوم الأمس . لذلك نميل الى الرأى القائل بأنه لم تكن لدى ديجول سياسة محددة عند توليه السلطة وأن آراءه تطورت ازاء ضغط الظروف وامام صمود الثورة الجزائرية على وجه الخصوص . وقد مر هذا التطور بثلاث مراحل رئيسية :

المرحلة الأولى هى صدور تصريح ١٦ سبتمبر ١٩٥٩ الخاص بتطبيق مبدأ تقرير المصير . وكان ذلك قبيل انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة التى كانت قضية الجزائر مدرجة ضمن أعمالها . وتتمثل المرحلة الثانية

فى تحول ديجول الى مبدأ اقامة جمهورية جزائرية تختار هى نوع الارتباط بفرنسا · أما المرحلة الثالثة فتبدأ بقبول المفاوضات مع جبهة التحرير فى أبريل ١٩٦١ وتنتهى بتوقيع اتفاقيات ايفيان فى مارس من العام التالى · ولنتتبع هذه التطورات بشىء من التفصيل ·

احتوى مشروع سبتمبر على نقطة واحدة جديدة ولكنها غاية فى الأهمية . وهى الاعتراف بحق الجزائر فى تقرير مصيرها . حتى ولو أدى ذلك الى الانفصال عن فرنسا · فهو اذن قد تخلى عن فكرة السيادة الفرنسية . لأن السيادة عموما ليست من الأمور التى يستفتى عليها · غير أن المشروع قد أحاط مبدأ تقرير المصير بتحفظات خطيرة أفقدته قيمته العملية فى نظر الجزائريين . اذ وعد المشروع باجراء استفتاء تقرير المصير بحضور مراقبين دوليين وذلك بعد (١) مضى اربع سنوات من الهدوء ، ويحدد حالة هذا الهدوء بأنها السنة التى يقل فيها القتلى عن مائتين· وفى هذا مايدل على عدم واقعية المشروع · ويخير الجزائريون فى هذا الاستفتاء بين ثلاثة أمور :

أولا : الانفصال واختيار نوع الحكومة التى يريدونها · ولكن ديجول لم يترك هذا الحق دون قيد · ويصف الانفصال بأنه ضياع لمستقبل الجزائر ، وتمكين لشيوعية منها ويضيف « انى أعتقد بأن هذه الطريقة من التفكير غير معقولة · بل ستجر حتما الى كارثة كبرى · بما أن الجزائر قد وصلت الى هذه الدرجة من الرقى بفضل فرنسا. والعالم كله يشهد بذلك · وأقولها بصراحة فان هذا النوع من التفكير سيؤدى حتما الى الفوضى . ويتيح الفرصة للتنكيل والتعذيب والذبح والشنق · وتكون النتيجة الحتمية لكل هذا ان تتغلغل الشيوعية بسيطرتها ونفوذها » ·

« وانى اقترح أن يبتعد الجزائريون عن هذه الفكرة الشيطانية · واذا هم تمادوا فى تنفيذ هذه الخطة ، فان فرنسا تقرر من الآن أنها لن تتحمل هذه التكاليف الباهظة من أجل قضية لا فائدة من ورائها ، وعلى كل اذا قرر الجزائريون اللجوء الى تطبيق هذه الفكرة الخاطئة ، فان الجزائريين

---

(١) أنظر ترجمته العربية الكاملة فى كتابنا تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر : ص ١٠٢ ·

الآخرين الذين يريدون أن يظلوا فرنسيين لن تتخلى عنهم فرنسا · وستعمل ما فى استطاعتها بأن تجمعهم فى مكان معين وتشرف على أموالهم وأرواحهم· ويجب أن أقول ان استغلال البترول وشحنه باق من اختصاص فرنســا ، وان للغرب مصالح فيــه ، وستحافظ عليه ولن تدعــه ولو أدى ذلك الى متاعب كثيرة » · فديجول اذن يهدد بالتقسيم فى حالة اختيار الجزائريين للانفصال ، وكأنه يريد أن يجعل من الجزائر فلسطين أخرى ·

ثانيا : الادماج « وهو المساواة فى الحقوق والواجبات بين جميع سكان الجزائر من (مسلمين وغيرهم) · وهذا الادماج يتيح للجزائريين أن يمارسوا جميع الوظائف السياسية والادارية والقضائية ، وأن يكون لهم الحق فى الترقى الى جميع الوظائف على جميع أنواع المرتبات ، والتأمين الاجتماعى والتعليم المهنى ، كما يتمتعون بجميع المزايا التى للفرنسـيين أنفســـهم » ·

ثالثا : الفدرالية · وفى هذه الحالة يمكن للجزائريين أن يشـــكلوا الحكومة الجزائرية ويكون جميع الوزراء من الجزائريين ، وتعتمد الحكومة على تأييد فرنسا واعانتها · وترتبط معها برباط وثيق فى ميادين الاقتصاد والتعليم والدفاع والعلاقات الخارجية · وفى هـــذه الحالة يبقى النظام الداخلى فى الجزائر خاضعا للنظام الفدرالى ، بحيث ان الجاليات الفرنسية والعربية والقبايلية والأباضية وغيرها من الجاليات التى تسكن وطنا واحدا ، تجد الظروف المواتية لها لتعيش عيشة هادئة ·

ويفهم من العبارة الأخيرة كيف أن ديجول يريد أن يخلق فى الجزائر مشكلة عنصرية وطائفية علاوة على مشكلة المستوطنين · وذلك بتقســيم الســـكان الى عرب وبربر واباضية · ويتوقــع رئيس الجمهورية من تلقاء نفسه أن الجزائريين لن يختاروا الانفصال ، لأنه كمــا قــال فى مقـــدمة المشروع : لم تقم فى الجزائر حكومة مستقلة أو وحدة قومية منذ أن وجد العالم ، فكان يتعاقب عليها الغزاة من قرطاجنيين ، وروما ، ووونـــدال وبيزنطيين ، والعرب السوريين ، وعرب قرطبة ، والأتراك ، والفرنسيين ·

وفى النهاية يعلن ديجول انه غير مستعد للتفاوض مع هؤلاء الذين

شنوا الحرب على فرنسا . وانما يسمح لهم فقط بالعودة الى الحياة الطبيعيه للمشاركة فى الانتخابات لأن فرنسا لن تتفاوض الا مع حكومة منبثقة عن الانتخابات التى تجريها هى .

لم يحدث هذا المشروع أثرا يذكر لدى الوطنيين رغم تسليمهم باهمية مبدأ تقرير المصير ولم يتحقق ذلك الاحتمال الذى قيل أن ديجول توخاه فى هذا التصريح ، وهو اجتذاب المعتدلين فى جبهة التحرير . غاية الأمر أنه من الجائز أن يكون مهد لعقد محادثات مع الجبهة فى صيف سنة ١٩٦٠ .

وعلى العكس من ذلك أحدث هذا الخطاب رد فعل قوى فى أوساط المستوطنين ، وصرح جاك ماسو فى أوائل يناير ١٩٦٠ بأن الجيش قد يضطر أحيانا الى عدم الرضوخ لأوامر الحكومة . ومع أن ديجول رد على هذا التصريح بفصل صاحبه من الخدمة ، الا أنه كان من بين العوامل التى شجعت المستوطنين على القيام بأول عصيان منذ مجىء ديجول الى الحكم .

وفى المدة مابين ٢٦ يناير ، ٢ فبراير ١٩٦٠ قام المستوطنون بمحاولة للاستيلاء على السلطة فى الجزائر . وأقاموا المتاريس على غرار ما حدث فى باريس ابان ثورتها على شارل العاشر سنة ١٨٣٠ . ولحسن حظ الجمهورية الخامسة أطاع الجيش الأوامر وقضى على حركة العصيان ، وان كان بعض الضباط قد فعل ذلك على مضض .

لماذا أطاع الجيش هذه المرة ، وهو الذى سيتزعم التمرد الثانى فى أبريل ١٩٦١ ؟ والجواب على ذلك أن الجيش كان مايزال يعتقد فى أوائل ١٩٦٠ بأن وجود ديجول فى السلطة هو خير وسيلة لتحقيق النصر فى الجزائر . وهناك ظواهر تدل على ان حق تقرير المصير ليس جديا . وبعد ذلك يمكن اقناع الجنرال بالتراجع . اما بعد اجراء الاستفتاء على سياسة ديجول الجزائرية فى يناير ١٩٦١ والشروع فعلا فى التفاوض مع جبهة التحرير وحدها ، فقد تأكد الاختلاف الشاسع بين بعض الضباط وبين ديجول .

ويبدو أن الرئيس الفرنسى تأثر بأحداث العصيان (يناير ١٩٦٠) فعاد الى غموضه السابق ، بينما ترك لرئيس وزرائه ديبريه مهمة اصدار التصريحات التى تنطوى على تشدد جديد فى السياسة الجزائرية · مثال ذلك قوله انه مهما كانت نتيجة الاستفتاء فان فرنسا لن تقبل انسحاب جيشها من الجزائر ، ولا بد أن تكون المشرفة على الاستفتاء ·

ماذا حدث اذن سنة ١٩٦٠ حتى اضطر ديجول الى أن يخطو الخطوة الثانية فى خطاب ٤ نوفمبر ؟ لقد أصبحت المسألة الجزائرية مثار انقسام شديد فى الرأى الفرنسى ، واتسعت دائرة الانقسام فلم تصبح مقصورة على الخلاف التقليدى بين اليمين واليسار على المشكلات الاستعمارية ، بل انضمت فئات كثيرة الى معارضة الحرب فى الجزائر ، وكان أشهرها صدور بيان عن ١٢١ شخصا يمثلون أهل الفكر والأدب من أمثال بول سارتر ، وسيمون بوفوار ، وفرانسواز ساجان وغيرهم . دعوا فيه الشبان الى تبرئة ضمائرهم اذا عمدوا الى اهمال الأمور التى لا تتفق مع المبادىء الانسانية · وانضم رجال الكنيسة الى التنديد بأعمال التعذيب واستنكروها، ودلوا بذلك على تطور فى موقف (١) الكنيسة ازاء القضايا الاستعمارية · ثم جاءت محاكمات المتهمين فى عصيان مدينة الجزائر فأججت الخلافات فى الرأى العام ، وكانت مثارا لمظاهرات معادية لديجول نادت بتولى الجيش السلطة ·

أما التطور الذى حدث فى سياسة الرئيس الفرنسى فهو اعلانه أن الجزائر لا بد وأن تكون لها أنظمتها وادارتها الخاصة ، وهو ما عبر عنه بعبارة « الجزائر الجزائرية » وقال ان ذلك سيتضمن اقامة جمهورية يمكنها أن تتحد اتحادا فدراليا مع فرنسا · وعلى ذلك فان التخيير فى الاستفتاء المقرر سيكون بين أمرين ، لا ثلاثة ، وهما : الانفصال أو الاتحاد الفدرالى · غير انه استمر يلمح الى التقسيم فى حالة الانفصال · وكان

---

(١) نشرت المجلة المسيحية Témoignage Chrétien, 7/4/1959. بيانا موقعا من ٢٥ قسيسا بهذا المعنى · ويبدو أن المسيحيين العرب رحبوا بهذا التحول فنشر الياس زغبى أحد المطارنة كتابا اسماه « الكنيسة والثورة الجزائرية ».

ديجول يعول لنجاح خطته الجديدة على ايجـــاد قوة ثالثة فى الجزائر ، ليست من الأوربيين ولا من انصـــار جبهة التحرير . غير أنه افتقد تماما وجود هذه القوة · وربما كان يتوقع وجودها بين النـواب المسـلمين فى البرلـان الفرنسى ، ولكن حتى هؤلاء اصبحوا يخشـــون فى عـــام ١٩٦٠ التورط فى معاداة جبهة التحرير بعد ان أثبتت قدرتها على الصمود وازداد احتمال نجاحها · لذلك نصح عدد من هؤلاء النواب الرئيس الفرنسى بأن يتجه الى الجبهة اذا اراد التفاوض مع الشعب الجزائرى ·

ولم يلبث ديجـــول أن لمس الحقيقة بنفســـه . وهى أن اية مفاوضـــة مع غير جبهة التحرير ستكون عبثا . فحينما قام بزيارة الجزائر فى ديسمبر ١٩٦٠ ليشرح سياسته الجديدة استقبلته جموع الجزائريين وهى تحمـــل علم جبهة التحرير وتنادى بشعاراتها · واستغل الأوربيون نفس المناسبة لابراز قوتهم · ومرة أخرى راحوا يفتكون بالجزائريين العزل · ومن المعروف أن لمثل هذه الصور من الصراع بين الأجناس أثرا اعمق بكثير مما تتركه الحرب المألوفة · وقد علقت صحيفة الايكونومست الانجليزية على هـــذه الأحداث بنفس المعنى فقالت « ربما يقول التاريخ بأن المائة والخمســة والعشرين ضحية التى سقطت فى تلك الأيام قد تركت أثرا أعمق من عشرات الآلاف الذين ماتوا فى معارك الثورة » ·

عاد ديجول من الجزائر وهو مقتنع باســتحالة سياسته الجديدة ، وربما بدأ يؤمن منذ ذلك الوقــت بعــدم جدوى الحلول الوسط فى تلك القضية · فتمهد السبيل لكى يخطو الخطوة التالية ·

ـ ٢ ـ

مفاوضـــات ايفيـان

نتبين مما سبق أن عقبتين رئيسيتين حالتا دون تفاوض فرنسا مـــع الثوار الجزائريين لاعادة السلام الى الجزائر · الأولى : هى عدم الرغبة فى الاعتراف بجبهة التحرير كطرف شرعى فى النزاع · والثانية : هـــى اشتراط فرنسا أن تنصب المفاوضات أولا على وقف اطلاق النار ، ثم تجرى بعد ذلك المفاوضات بشأن الحل السياسى للقضية الجزائرية ، مع النـــواب

الذين يتم انتخابهم فى ظل السلطة القائمة ٠ ولم تتزحزح حكومة ديجـول كثيرا عن هذا الموقف حينما دخلت للمرة الأولى فى محادثات غير رسـمية مع جبهة التحرير فى يونيو ١٩٦٠ ٠

ففى ذلك التاريخ دعيت الجبهة الى ارسال مندوبين عنها للتباحث مع الحكومة الفرنسية دون التقيد بجدول أعمال ٠ وسافر أحمـد بو منجـل مندوب الجبهة الى ملان « قرب باريس » حيث عاملته الحكومة الفرنسـية معاملة لا تقوم على أساس المساواة ، فحظر عليه الاتصال بالعالم الخارجى حتى لا تتضمن المحادثات اعترافا بجبهة التحرير ٠

وقد تبدل الوضع تماما حينما بدىء بمحادثات ايفيان بعد أقـل من سنة ٠ فان الحكومة الفرنسية لم تعامل مندوبى الجبهة على قـدم المسـاواة فحسب ، بل اعترفت بجبهة التحرير على انها المتحدث الشرعى الوحيـد باسم الجزائر ٠ فما الذى أدى الى هذا التبدل فى الموقف ؟٠

هناك اولا تماسك جبهة التحرير رغم الأزمات التى مرت بها ، ورغـم فداحة الخسائر البشرية وتقهقر القوة العسـكرية فى الأقـاليم ، الا أن استمرار عـدم الأمن فى المدن كان وحده كفيلا باحداث هدا التطور فى السياسة الفرنسية ٠ ومن أبرز الأزمات التى شهدتها الجبهة تفجر الصراع سنة ١٩٥٨ بين رمضان عبانه . وكريم بلقاسم ، وربما بسبب اختفاء بن بللا وصحبه من المسرح ، وكان الرجـلان يقيمـان معظم الوقت فى تونس ٠ وعرف عن بلقاسم ارتباطه بالحبيب بورقيبة ٠ بينما عد عبانة ناصريا ، ومال الى أنصار صالح بن يوسف ، وشهدت تونس من جراء هذا الانقسـام كثيرا من الاغتيالات وأحكام الاعدام بين صـفوف المجاهدين الجزائيين ٠ وفى غمرة هـذه الأحداث توفى رمضان عبانة فى تونس سنة ١٩٥٨فى ظروف غامضة ، وقيل انه جرح فى الميدان ، وقد أشرنا من قبل الى مقتـل عمروش قائد الولاية الرابعة فى مثل تلك الظروف الغامضة وكان قد اشتهر ببعض أعمال العنف ضد الأهالى الذين تقاعسوا عن التعاون مع جيش التحرير ٠ ونسبت اليه منبحة قرية ملوذة حيث عثر على اكثر من ثلثمائة جثة لرجال مدفونين فى مقبرة جماعية قيل لأن القرية امتنعت عن هـذا التعاون ٠

وقد روى أحد الكتاب (١) الفرنسيين هذه الأحداث مستندا حسبما ذكر الى أوراق عمروش التى عثرت عليها السلطات الفرنسية مع جثته بعد مقتله · ومما جاء فى هذه الأوراق أن عمروش كان فى أوائل سنة ١٩٥٩ فى طريقه الى تونس ليحمل الى الحكومة المؤقتة الجزائرية بتونس شكوى قواد الولايات من أهمالها لهم حتى يكن فان من الطبيعى أن تحدث مثل هذه قواد الولايات المتحدة من أهمالها لهم حتى أن البعض هدد بالاستجابة لدعوة ديجول الى صلح الشجعان · مهما يكن فان من الطبيعى أن تحدث مثل هذه الخلافات فى الظروف القاسية التى مرت بها الثورة ، الا انها كانت تصفى بسرعة . ولم تصل اخبارها الى العالم الخارجى · ومن ثم استطاعت جبهة التحرير ان تظهر امام الأمم المتحدة ، وأمام فرنسا بأنها هى الممثل الوحيد للشعب الجزائرى ·

ثانيا : مهد الرئيس الفرنسى للمفاوضات المقبلة باجراء استفتاء فى فرنسا بصدد سياسته الجزائرية · وحصل على ٧٠٪ من الأصوات المؤيدة . فأصبح اكثر حرية لمواجهة الموقف · ثالثا : تجددت وساطة كل من المغرب وتونس ، وقابل الحبيب بورقيبة الرئيس ديجول فى فبراير ١٩٦١ · وأخيرا تزايد الضغط الدولى على فرنسا · ففى دورة الجمعية العامة لسنة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ طرحت توصية تستنكر أعمال فرنسا فى الحرب الجزائرية · وكادت هيئة الأمم المتحدة تصدر هذه التوصية لولا أن نقص صوت واحد عن الثلثين وهو العدد المطلوب للموافقة على التوصيات فى الجمعيات العامة ·

وفى نهاية مارس ١٩٦١ أعلن أن المفاوضات ستبدأ فى أوائل الشهر التالى · ولكن قبل الشروع فيها فاجأت الحكومة الفرنسية الجبهة بأنها ستفاوض مصالى الحاج فى نفس الوقت · وهو ما لم تقبله الجبهة بأى حال من الأحوال ·

هكذا أوشكت فرنسا أن تقضى على المساعى الشاقة التى بذلت من أجل اجراء المفاوضات حتى من قبل الشروع فيها · حينئذ عرضت الولايات

---

1. Paillat Claude : Dossier secret de l'Algérie, Chap. 14.

المتحدة وساطتها ، مما يؤكد ما بلغته القضية الجزائرية من أهمية فى المحيط الدولى • ومما يذكر بهذه المناسبة أن سياسة الولايات المتحدة ازاء الجزائر تأرجحت بين عاملين : الرغبة فى المحافظة علـى حلف الأطلسى ، وكانت تجرها الى تأييد فرنسا على طول الخط • والعامل الثانى : هو أن قسـما كبيرا من الرأى العام فى الولايات المتحدة يعارض الاستعمار بشكله التقليدى المباشر ، وهو الصورة السائدة فى الجزائر • وكان للعامل الأول الرجحان فى السنوات الأولى • ولكن يبدو أن حكومة الولايات المتحدة أصبحت مقتنعة بأنه طالما أن فرنسا لا تستطيع القضاء على الثورة فان استمرار الحـرب مدة أطول يؤدى الى تقرب الجزائريين من الكتلة الشيوعية • وها هـو فرحات عباس رئيس الحكومة المؤقتة يقوم بزيارة موسكو وبكين على أثـر التجربة السيئة فى ملان •

على أن الوساطة الأمريكية لم تكن الحـافز الرئيسى لدى ديجول لكى يغير موقفه ويقبل التفاوض مع جبهة التحرير وحدها ، فقد وقع خلال شهر أبريل حادث خطير كان له أعمق الأثر فى اقناع رئيس الجمهورية بأن يسلك مسلكا جديدا •

ففى المدة من ٢٢ الى ٢٦ أبريل قام أربعـة من الجنرلات هم سالان ، وشال ، وجوهو ، وزيلر بمحاولة للاستيلاء على السلطة فى الجزائر • وكان شال هو أكبر الشخصيات منبين أعضاء الجيش العامل التى اشتركت فى المحاولة بيد أنه لم يكن زعيم الحركة ، والظاهر أن جماعة من الكولونيلات هم الذين دبروها لذلك حينما رأى شال أن الجيش لم يلتف حول الحركـة آثر هو وزيلر تسليم نفسيهما تجنبا للحرب الأهلية ، سيما وأن رئيس الجمهورية أظهر عزما أكيدا على قمع التمرد • حينئذ أسرع مدبرو الانقلاب الحقيقيون الى التخفى وأخذوا يعدون لتكوين منظمة الجيش السرى التى أتخذت من سلان زعيما لها • وقد لعبت الفرقة الأجنبية دورا بارزا فى تلك الحركة • لأن مصالح ضباطها ارتبطت بالحرب الجزائرية • وهذه الفرقة تتكون من الجنود المرتزقة الذين ألفوا أسـاليب الحرب العتيقة ، تلك الأساليب التى تتلاءم مع الحرب الجزائرية ، ولكنها غير قابلة للتطور الذى أراد ديجـول أن يدخله على الجيش • كما لوحظ أن صغار الملاك والمستوطنين من أصحاب الحرف صاروا عمد هذا الجيش السرى المعارض للسياسة الديجولية • بينما

أظهر كبار الملاك ورجال الصناعة ميلا الى الاعتدال وتمنوا لو وجدت قوة ثالثة يمكن التفاوض معها على حل وسط ·

وبالقضاء على هذا التمرد أصبح ديجول يملك من السلطة ما لم يتأت لحكومة فرنسية منذ زمن بعيد · وقد كشفت له هذه الأحداث أن استتباب سلطة الدولة فى فرنسا يتطلب انهاء المشكلة الجزائرية فى أسرع وقت ممكن· وليس معنى ذلك أن الجنرال صار مستعدا للتسليم بمطالب الوطنيين الجزائريين · فان الهوة كانت ما تزال بعيدة بين الفريقين حينما بدأت مفاوضات ايفيان فى ٢٠ مايو ١٩٦١ وهكذا لم يتم الوصول الى الاتفاق الا بعد مضى عشرة أشهر من بدء المحادثات ، وفى خلال تلك المدة تعرضت المفاوضات لأكثر من مرة للانقطاع ·

اختيرت ايفيان ، وهى مدينة فرنسية صغيرة مشهورة بالسياحة ، لوقوعها على الحدود السويسرية ، فيستطيع الوفد الجزائرى أن يقيم فى أرض محايدة ، وينتقل أثناء العمل عبر الحدود · وقد رأس الوفد الفرنسى فى معظم جلسات المفاوضات لوى جوكس وزير الدولة لشئون الجزائر · أما الوفد الجزائرى فقد رأسه كريم بلقاسم · وكانت الحكومة المؤقتة قد طالبت بالافراج عن بن بللا ليترأس وفد المفاوضات فلم تستجب فرنسا لهذا الطلب ، ولكنها سمحت للمفاوضين أن يتصلوا بـه ·

كانت المشكلات الرئيسية التى طال حولها الجدل تتعلق بضمانات حرية الاستفتاء وبوضع المستوطنين فى الجزائر بعد الاستقلال ، ثم مشكلة الصحراء الكبرى ·

ومن السهل فهم الأسباب التى جعلت الجزائريين يتشددون فى ضمانات حرية الاستفتاء ، لأن فرنسا اذا كانت قد قبلت مبدئيا اجراء استفتاء تقرير المصير ، فهذا لا يكفل قط نزاهة الاجراءات · وقد دلت التجارب السابقة على أن الاستفتاء فى ظل سلطة فرنسية غير مضمون · ومن هذا انتقلت المناقشة الى البحث فى ايجاد فترة انتقالية يساهم الجزائريون خلالهامساهـ مة حقيقية فى السلطة · وقد سلم الفرنسيون بالمبدأ ولكنهم اختلفوا اختلافا كليا فى التفاصيل · وبينما تشدد الجزائريون فى ضمانات سلامة الاستفتاء تشدد الفرنسيون فى الضمانات

الخاصة بالمستوطنين · وطالبوا بحقهم فى أن يحملوا جنسيتين · الجنسية الجزائرية كى يتمتعوا بجميع حقوق المواطن الجزائرى ، والجنسية الفرنسية كى لاتنفصم صلاتهم بالوطن الأم · ومن الواضح ان هذا المطلب يتعارض مع السيادة الجزائرية ·

أما مشكلة الصحراء الكبرى فقد نشأت عن مناورات الفرنسيين لاقتطاعها من الجزائر ابان عهد استعمارها الطويل · وقد تصادف اكتشاف النفط فى الصحراء قبيل اندلاع الثورة الجزائرية ، لذلك قلبت فرنسا سياستها القديمة رأسا على عقب · فمنذ سنة ١٩٥٧ أخذت تعمل على فصل الصحراء اداريا عن الجزائر · واستثنتها من القانون الاطارى لسنة ١٩٥٨ وأصدرت القوانين التى تؤكد أن الصحراء جزء من أراضيها الوطنية وانشأت وزارة خاصة بالصحراء ، ولكن هذه الاجراءات لم يكن بوسعها أن تبطل الحقائق الجغرافية · فليس لأهل الصحراء اتصال بالعالم الخارجى الا عن طريق الجزائر · كما أن انابيب النفط لا بد وأن تمر بأراضيها . وهى ترتبط بالجزائر ارتباطا وثيقا من النواحى البشرية والروحية · لذلك كان على فرنسا أن تبحث عن مناورة جديدة · وفى يوليو أثارت موضوع حقوق الدول الواقعة على حافة الصحراء فيها وفى نفطها · وصرحت بأن هذه المشكلة لا يمكن أن تسوى مع الجزائر وحدها · ولحسن حظ الجزائر أعلنت جميع الدول المعنية أنها ستترك البحث فى هذا الموضوع حتى يتم استقلال الجزائر ·

لقد كان موضوع الصحراء سببا مباشرا فى انقطاع المفاوضات فترة طويلة منذ ٢٨ يوليو ١٩٦١ حتى نهاية العام · وظهرت بوادر تدل على أن الموقف يزداد تعقدا ، فمن جهة ، استمر ديجول يشير الى تجميع هؤلاء الذين لا يريدون العيش فى ظل حكومة وطنية جزائرية ، وكان هذا التلميح ينطوى على التهديد بأمرين : احياء فكرة التقسيم · أو ترحيل الأوربيين لحرمان الجزائر من الخبرة الفنية · ومن جهة أخرى أدخلت تعديلات هامة على الحكومة المؤقتة ، كان أبرزها ابعاد فرحات عباس المعروف بالاعتدال · واسناد رياستها الى يوسف بن خدة وهو صيدلى مثل سلفه ، ولكنه يختلف عنه تماما فى النشأة السياسية · فقد كان أمينا عاما لحركة الانتصار للحريات · ثم انفصل عن المصاليين عند تاسيس اللجنة المركزية سنة ١٩٥٣

وكان مسئولا عن عمليات جيش التحرير فى منطقة العاصمة وقتا ما ، ففهم هذا التعـديل على أنه اتجاه نحـو التشدد بعد أن يئس الجزائريون مـن المفاوضـات ٠

والحق ان موقف جبهة التحرير فى المفاوضات كان محددا من قبل ٠ وهو ينبنى على قرارات مؤتمر الصمام ولم يكن بوسع أحد أن يتنازل عن شيء منها ، لذلك فان فرنسا كانت هى التى تضطر الى تقديم التنازل تـلو الآخر حتى أمكن الوصول الى اتفاق ٠ وقد تعاقبت هذه التنازلات فى خريف سنة ١٩٦١ ٠ ففى سبتمبر أعلن ديجول بأن أية حكومة جزائرية لا يمكنهـا التخلى عن الصحراء الكبرى ٠ ثم أخذ يؤكد رغبته فى أن تلعب فرنسا دورا قياديا فى أوربا ٠ وأن تنفض عنها غبار التبعية فى حلف الأطلسى ٠ ولتحقيق هذه الأهداف لا بد من التخلص من أعباء الحرب الجزائرية ٠ وهكذا نستطيع أن نفسر تطور موقف ديجول من الجزائر بسياسته العامة ٠ ألاو هىتحقيق زعامة فرنسا فى أوربا الغربية ٠ واسترداد مركزها كاحدى الدول الكبرى ٠ وحتى من قبل أن يتم الاتفاق فى ايفيان شرعت الحكومة الفرنسية فى سحب بعض قواتها من الجزائر ٠

ومن جهة أخرى سـاعد ظهور المنظمـة السرية على التقريب بين الخصوم القدامى ، اذ أصبحوا أمام عدو مشترك ٠ فالمنظمة السرية تهدف الى اقامة الفاشية فى فرنسا والاطاحة بحكومة ديجول . مما جعل أحزاب اليسـار تلتف حوله بالرغم من اختلافها معه حـول السياسة الداخلية ٠ وصار الرأى العام أكثر تقبلا لمبدأ استقلال الجزائر ٠ وكانت المنظمة تسعى فى نفس الوقت لتمكين المستوطنين من السلطة والقضـاء على العنصر الوطنى قضاء مبرما وراجت شائعات باقامة جمهورية أوربية فى مدينتى الجزائر ووهران ٠

ومن أمثلة هذا التأثير الذى أحـدثه وجـود المنظمة السرية فى سـير المفاوضات ذلك التقارب الذى تم حول المشكلة المعقدة الخاصة بالمرحـلة الانتقالية حينما استؤنفت المحادثات بصورة سرية فى ديسـمبر ٠ فقـد اتفق الطرفان على ضرورة تقصير تلك المرحلة الى مدة تتراوح بين ثـلاثة أشهر وسنة ، وكان الفرنسيون يريدون فى بدايـة الأمر اطالتها الى نحـو

سنة · كذلك اقتنع الفرنسيون بضرورة وضـــع قوات كافية تحت تصرف الهيئة التنفيذية المؤقتة لتضمن سلامة الاستفتاء ، على أن تتكون هـــذه القوة من الجزائريين · ويمكن أن تصل الى ستين ألفـا · وفى نفس الوقت تساهل الوفد الجزائرى فى نقطة أخرى · فبالرغم من احتياطـه الشـديد لضمان حرية الاستفتاء فانه قبل استمرار اشراف الجيش الفرنسى على الأمن فى المدن الكبرى ، لأنه أقدر على مواجهة المنظمة السرية ·

_ ٣ _

تحليـل اتفاقيـات ايفيـان

اعتبرت اتفاقيات ايفيان فى حينها حلا وسطا هو أقرب الى وجهة النظر الجزائرية · ولا شك أن الذين أيدوا عقد الاتفاقيات من الجزائريين كانوا يدركون الصفة المرحلية لها ·

وقد اشتملت الاتفاقيات على تصريح أولى يحدد المبادىء العامة لطبيعة العلاقات فى المستقبل (١) :

فى حالة اختيار الاستقلال تعترف به فرنسا فورا · وتكون للجزائر مطلق الحرية فى اختيــــار نوع الحكومة وتقرير سياستها الخـــارجية وأوضاعها الاقتصادية · واذا وقع خـــلاف حول تفسير الاتفاقيات يلجأ الطرفان الى تســـويته بالطـرق السـلمية أو التحكيم ، والا رفع الى محكمة العدل الدولية · وينص التصريح كذلك على ضرورة انتخاب جمعية تأسيسية لوضع الدستور بعد ثلاثة أسابيع من اجراء الاستفتاء على تقرير المصير · وقد تعذر وضع هذا البند موضع التنفيذ مثل كثير من بنود الاتفاقية الأخرى ، ويرجع ذلك الى الخلافات التى اقترنت بظهور الجمهورية الجزائرية ·

ويلى هذا التصريح تسع اتفاقيات مختلفة تتناول الثلاثة الأولى منها موضوع الاستفتاء وضمانات حريته ، وتنظيم المرحلة الانتقالية ، وكيفيـة

(١) أنظر الترجمة العربية الكاملة للاتفاقيات فى كتاب الجزائر المعاصرة وقد قام بها المؤلف ·

تنفيذ وقف اطلاق النار · وكلها مسائل مؤقتة انتهى دورها فتشير على سبيل المثال الى حرية تكوين الأحزاب وحضور الصحفيين الأجانب للتثبت من حرية الاستفتاء ·

وفى خلال المرحلة الانتقالية بين وقف اطلاق النار والاستفتاء تحتفظ فرنسا بالسيادة ، ويمثلها فى الجزائر مندوب سام يشرف على الدفاع والشئون الخارجية والأمن العام · على أن تشاركه فى ادارة البلاد هيئة تنفيذية مؤقتة تضم غالبية من الجزائريين · ويرأسها جزائرى · وتوزع على أعضائها الاختصاصات الادارية المختلفة · ولم يؤخذ بالاقتراح الجزائرى يجعل المندوب السامى ملزما بتنفيذ قراراتها · ومع ذلك فقد اكتسبت الهيئة سلطة فعلية بعد أن وضعت تحت تصرفها قوة كبيرة من الشرطة الوطنية · ومهمة الهيئة الرئيسية هى الاشراف على استفتاء تقرير المصير · ويلاحظ أنه عندما تم تأليف الهيئة التنفيذية اشترك فيها خمسة من أعضاء جبهة التحرير ·

ومن الأجهزة المؤقتة التى نصت عليها الاتفاقية لجنة مختلطة لمساعدة المهاجرين الجزائريين فى الخارج على العودة الى بلادهم قبل اجراء الاستفتاء · وكان هؤلاء يقدرون بنحو ربع مليون يعيش معظمهم فى تونس والمغرب · ثم محكمة مختلطة للنظر فى قضايا الأمن العام · وكان من المفروض أن تختص بالنظر فى الجرائم التى يرتكبها أفراد الجيش السرى ·

أما اتفاق وقف اطلاق النار فقد نظم وضع قوات جيش التحرير فى هذه المرحلة الانتقالية · فيجب عليه أن يرابط فى الأماكن التى كان بها يوم توقيع الاتفاق · ويجوز لجنوده أن يتجولوا فى الجزائر دون أن يحملوا أسلحة · وعلى كل فان هذه الاتفاقيات الثلاثة لم تكن بالنسبة لفرنسا سوى طريقة لحفظ ماء الوجه ، اذ كانت نتيجة الاستفتاء معروفة مقدما ، ولكنها لم تشأ أن تتراجع دفعة واحدة وتسلم باستقلال البلاد ·

على أن فرنسا قد احتفظت بمقتضى الاتفاقيات الأخرى بكثير من الامتيازات وكان أخطرها ما يتعلق بالشئون العسكرية ، والضمانات التى نص عليها للأوربيين · ومع ذلك فقد فقدت هذه الضمانات أهميتها بعد أن

غادر معظم المستوطنين البلاد ولـم يبق منهم سوى العناصر المسالمة التى قبلت التعاون مع الجزائريين ٠

قد أشرنا من قبـل الى أن فرنسا طـالبت أن يحتفظ المستوطنون بجنسيتين ، مما يتضمن انتهاكا لسيادة البلاد ٠ وسويت هـذه المسألة المعقدة على النحو التالى : أعطيت لمستوطنين مهلة مدتها ثلاث سـنوات يظلون خـلالها رعايا فرنسيين ، ويستطيعون فى نفس الوقت ممـارسة الحقوق المدنية الجزائرية وحدها ، وبعد هـذه المدة عليهم أن يختاروا بين الجنسيتين ٠ فاذا اختاروا الجنسية الجزائرية أصبوا مواطنين لهـم ما للجزائريين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من الواجبات ٠ ومع ذلك فعلى الجزائر أن تراعى مميزاتهم الخـاصة فى الشـئون الثقـافية واللغوية والدينية . وان يحتفظوا بقانون أحوالهم الشخصية ٠

وقد وصف هؤلاء المستوطنون باسم « الجزائريين الخاضعين للقانون المدنى العام » ولابد ان يكون لهم تمثيل عادل فى المجالس ذات الصـبغة السياسية أو المدنية ٠ وكذلك فى وظائف الدولة ٠ واذا بلغ عددهم فى قرية خمسين شخصا فأكثر دون أن يحصلوا على مقعد فى المجلس المحلى ٠ فلابد وان يعين منهم مندوب يمثلهم ٠ واذا كانوا يشكلون الأغلبية فى احـدى الدوائر ان يديروا الشئون البلدية فيها ٠

كذلك نصت الاتفاقية على ضرورة تمثيلهم فى القضاء بجميع درجاتـه طالما أن احد الماثلين فى المحـاكمة ينتمى الى فئة « الجزائريين التابعين للقانون المدنى العام » واذا كان هناك محلفون فى القضاء الجنائى ، فلابد أن يكون ثلثهم من هذه الفئة واذا كانت المحكمة تتألف من قاض واحـد فيجب أن يعين له مساعد فرنسى ٠ ونصت الاتفاقية على أنه لا يجوز مصادرة املاكهم الا بعد دفع تعويض عادل يتفق عليه مقدما٠

وعلاوة على ذلك كله تقام محـكمة للضمانات تكون من قاضـيين وطنيين وآخرين من فئة « الجزائريين التابعين للقانون المدنى العام » وذلك للنظر فى كيفية تنفيذ الضمانات ٠ على أنه بعد خروج غالبية المستوطنين لم تدع الحاجة الى اقامة مثل هذه المحكمة ٠ ومن جهة اخرى فان الحـكومة

الجزائرية خصصت للأوربيين فى الجمعية الوطنية _ وهى اهم هيئة سياسية _ ستة عشر مقعدا من بين ١٩٦ . وهى نسبة كانت تزيد على أهمية المستوطنين العددية عند الاستقلال · ومن حيث الواجبات فقد اعفت الاتفاقية الأوربيين الذين يختارون الجنسية الجزائرية من الخدمة العسكرية لمدة خمس سنوات ·

أما اذا اختار المستوطنون الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية فانهم يعتبرون اجانب ، ويتمتعون بنفس الضمانات التى يكفلها القانون الدولى للاجانب · وفضلا عن ذلك فقد نصت الاتفاقية على امتيازات خاصة : حق دخول الجزائر والاقامة بها بمجرد حمل البطاقة الشخصية · وحق التملك والاشتغال بجميع المهن اشتغالا مثمرا · وحق نقل الأموال خارج البلاد على الا يضر ذلك بالاقتصاد الجزائرى · ولايجوز التمييز بينهم وبين الجزائريين فى الضرائب ، او قوانين الاصلاح الزراعى مع ملاحظة أن للجزائريين تسهيلات مماثلة بخصوص الاقامة والعمل فى فرنسا ·

اما الامتيازات العسكرية التى احتفظت بها فرنسا فتتمثل فى استئجار قاعدة المرسى الكبير البحرية لمدة خمسة عشر عاما قابلة للتجديد ، مع النص على ان اراضى القاعدة جزء من التراب الجزائرى . وتتبع القاعدة مطارات ومنشات عسكرية حولها تخضع لنفس نظامها ، وبمقتضى هذا النظام يكون للفرنسيين وحدهم حق التحليق فوقها ، واستخدام مياهها الاقليمية ، والاشراف على الأمن فيها ، واستخدام شبكات المواصلات اللاسلكية الخاصة بها · واعطى الفرنسيون حق الاستيلاء على الأبنية اللازمة داخل منطقة القاعدة مع دفع التعويضات المناسبة ·

وبجانب القاعدة تحتل فرنسا بعض المواقع فى الصحراء الكبرى لمدة خمس سنوات · أهمها فى كولم بيشار وريجان · ولها أن تستخدم التجارب النووية ولو أن الاتفاقية لم تذكر صراحة حق فرنسا فى اجراء هذه التجارب · ومع ذلك فقد كان من الضرورى تعديل الاتفاقية العسكرية لتتناسب مع موقف الجزائر من هذه المسألة · ولم تعارض فرنسا فى أن تنقل هذه المحطات الفنية الى بعض ممتلكاتها فى المحيط الهادى ، بعد أن أعلن الرئيس بن بللا فى مارس ١٩٦٣ عدم موافقة بلاده على اجراء التجارب

النووية فى أراضيها • ونصت الاتفاقية على منح التسهيلات للقوات الفرنسية لكى تستخدم الطرق البرية والبحرية والجوية التى تصل بين قواعدها المختلفة • وللجنود الفرنسيين قضاء مستقل ، ولكن اذا ارتكبوا مخالفات تضر بأمن الجزائر فانهم يقدمون الى محاكم جزائرية • وفى هذه الحالة يتم اعتقالهم داخل سجون القوات الفرنسية • ولهذه القوات أن تتنقل فى الجزائر حاملة السلاح •

وفيما عدا ذلك نظمت الاتفاقية مواعيد الجلاء على النحو التالى : تخفض القوات الفرنسية بعد عملية الاستفتاء بسنة واحدة الى ثمانين ألفا • ثم يتم جلاؤها عن بقية البلاد بعد سنتين ، أى عند انقضاء المهلة التى أعطيت للأوربيين لاختيار جنسيتهم •

أما التعاون المالى والاقتصادى فقد جاء فى مقدمة الاتفاقية الخاصة به أن فرنسا تقدم اعانة مالية بقدر ما لها من مصالح فى الجزائر • وتشمل هذه الاعانة التعويضات التى تدفع للأوربيين نتيجة لتطبيق قانون الاصلاح الزراعى أو التاميم • وتذكر الاتفاقية أنه يجب أن تكون الاعانة مساوية لمعدل المشروعات التى يجرى تنفيذها فى السنوات السابقة على تقرير المصير • ويقصد بذلك مشروع قسنطينة •

وتنص الاتفاقية على مبدأ الأفضلية فى المعاملة بالنسبة للرسوم الجمركية • ويتفق على السلع الجزائرية التى تعفى تماما من الرسوم الجمركية فى فرنسا ، وسيترتب على هذا النص وضع ترتيبات خاصة بين الجزائر والسوق الأوربية المشتركة • وحسب الاتفاقية تدخل الجزائر فى منطقة الفرنك • ولكن يخصص لها جزء من العملات الصعبة التى تحصل عليها فرنسا • وتنص الاتفاقية على أقامة مؤسسه فى المستقبل لاصدار النقد الجزائرى •

ومما يلفت النظر أن يدخل ضمن هذه الاتفاقية البند الخاص بوضع الجزائريين فى فرنسا ، فنص على أنهم ، وخاصة العمال يتمتعون بنفس الحقوق التى للفرنسيين ما عدا الحقوق السياسية • وفى ذلك مايغرى العمال الجزائريين بالبقاء فى فرنسا • بل وهجرة اعداد جديدة اليها كما حدث فعلا •

وقد خصصت أحدى الاتفاقيات لكيفية استغلال نفط الصحراء وغيره من المعادن الموجودة فى باطن الأرض · وأبرز مافى هذه الاتفاقية هو النص على أنه ، فى خلال ست سنوات يكون للشركات الفرنسية الأولوية فى الحصول على امتيازات التنقيب ، وذلك اذا تساوت عروضها مع الشركات الآخرى · ويستمر العمل بالامتيازات التى تم منحها قبل الاستقلال ، وكذلك قانون نفط الصحراء الذى وضع فى عهد الحكم الفرنسى · ولا يجوز لفرنسا أن تمنح رخصا جديدة خلال الفترة الانتقالية · وبعد ذلك ينتقل حق منح التراخيص الى الدولة الجزائرية كما تنتقل الى اشرافها الامتيازات الممنوحة من قبل ·

ويلاحظ ان الجزائريين استهدفوا المشاركة الادارية والفنية فى نفط الصحراء دون أن يكتفوا باستلام الأرباح · ولهذا الغرض نصت الاتفاقية على انشاء هيئة فنية مستقلة لها شخصية اعتبارية ، تساهم الدولتان فى تمويلها · ويكون القصد منها وضع الخطط لاستثمار الصحراء بطريقة عملية . وتطوير الاستغلال . والنظر فى العروض المقدمة من الشركات من الناحيتين الفنية والادارية · وتشرف كذلك على صيانة منشآت النفط والأنابيب ·

يبقى بعد ذلك اتفاقيتان : احداهما خاصة بالتعاون الثقافى ، والأخرى بالتعاون الفنى ، واغلب ما ورد فيهما يحقق منافع بالنسبة للجزائر ومن ذلك تسهيل التحاق الجزائريين بالمعاهد الفرنسية . واعطاؤهم منحا دراسية ودورات تدريبية ، ومع ذلك فان الاتفاقية الثقافية تهدف أيضا الى الابقاء على نفوذ فرنسا الثقافى ، وذلك بالنص على حرية انشاء المدارس والمعاهد والمكاتب الجامعية · وتراعى الجزائر فى توزيع أقسام كلياتها الجامعية التوزيع الشائع فى فرنسا ·

وحسب اتفاقية التعاون الفنى تضع فرنسا تحت تصرف الجزائر الموظفين الذين هى فى حاجة اليهم ، وتقدم الجزائر كشفا بهذه الوظائف كل سنتين ، وهى مدة العقد ويتبع الموظفون السلطات الجزائرية ، ولا يجوز لهم الاشتغال بالسياسة ، كما لا يجوز للحكومة الجزائرية طردهم من البلاد

الا بعد اخطار مسبب · وتحـــــدد اتفاقية تالية تنظيم مرتباتهم وتوزيـع الأعباء المـالية بين البلدين ·

● ● ●

حققت الجزائر استقلالها بعقد هـذه الاتفاقيات · وكانت مضـطرة فى سبيل ذلك الى تنازلات كبيرة كما رأينا ولذلك لم يعتبر الجزائريـــون اتفاقيات ايفيان سوى مجرد مرحلة ، كما عبرت عن ذلك مجلة المجاهـــد عندما نشرت ملخص الاتفاقيات بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٦٢ ·

وليست الاتفاقيات محدودة بزمن . باســـتثناء مواعيد الجـــلاء . وتاجير قاعدة المرسى الكبير · ولابد أن يكون الجزائريون قـد عولوا على تطور الزمن بعد الاستقلال لكى يحصروا مساوىء الاتفاقية فى اضـــيق نطاق · وكان بوسعهم أن يجدوا المبررات التى تحقق لهم أغراضهم . سواء بالاستناد الى تفسير النصوص ، أو الانتفاع بأحداث جدت وظروف تغيرت مثال ذلك : وضع نهاية لحق فرنسا فى استخدام محطات تجاربها النووية فى الصحراء الكبرى نزولا على اجماع الدول الأفريقية . وعدم التقيد بالنص القائل بضرورة احترام أماكن العبادة الكاثوليكية والبروتستنتية واليهودية · فان الحقوق التاريخية كانت تبرر للجزائر ارجاع المساجد التى حولهـــا الفرنسيون الى كنائس الى ما كانت عليه قبل الاحتلال · وتم ذلك بالاتفاق مع السلطات الكنسية مباشرة ·

وأهم من ذلك الاســـتيلاء على مليونين ونصـــف مليون هكتار من ممتلكات المستوطنين الذين غادروا البلاد · فقد اعتبروا أنهم باهمالهم زراعتها يضرون بالاقتصاد الجزائرى · وتقررت مصادرتها دون تعويض · كذلك فرضـــت القيود على تنقـل الأموال اســـتنادا الى ما ورد فى الاتفاقية الاقتصادية من اشتراط « الا يضر انتقال الأموال بالاقتصاد الجزائرى » ولم يمض عام واحد على اســتقلال الجزائر حتى شرع فى تعديل بعض الاتفاقيات وخاصة الاتفاق العسكرى ، واتفاق النفط · فقصر أمد الجلاء الى نهاية ١٩٦٤ باستثناء قاعدة المرسى الكبير التى صفيت بدورها سنة ١٩٦٨ ·

أما فى فرنســا فقد أثــارت اتفاقيات ايفيان ردود فعـــل متباينة ·

ومن المتوقع أن تعترض عليها احزاب اليمين التـى تؤيد المستوطنين · وقد حاول هؤلاء الأخيرون افسادها ، وذلك بمضاعفة نشاط الجيش السرى ، رجاء أن يجروا الجزائريين الى الاخلال بشرط وقف اطلاق النار · واضطر الجزائريون الى كثير من ضبط النفس لكى يفوتوا عليهم هذا الغرض · فلما يئسوا من افســادها طالبوا بتعديلها على الاقـل · وذلك بتقويـــة ضمانات الاوربيين ، واستشهدوا بوضع الأتراك فى قبـرص ، وذلك اذا تعذر (١) التقسيم ·

وحجة المعترضين هى أن السوابق دلت على ان مثل هذه الاتفاقيات لا تعمر طويلا ، بدليل ما حدث فى تونس سنة ١٩٥٥ ، وكيف أن الاتفاقيـــة التى ضمنت حقوق المستوطنين ألغيت بعد عشرة أشهر · وقـــد أجـــاب أنصار الاتفاقية بأن المعونة الاقتصادية ضمان كاف لكى يحترم الجزائريون الاتفاقيات · فرد المعترضون بأنه من الممكن أن تلجـأ الجـــزائر الى دول أخرى · وعلى كل فهذه المناقشات لم تكن لها ســـوى قيمة نظرية وكان المعول عليه هو روح السياسة العامة لكلتا الدولتين ، وليست نصـــوص الاتفاقية · فمن المعروف أن حكومة ديجول لم تتخـذ من المعونة الاقتصادية وسيلة للضغط على الجزائر ، فاستمرت فى تقديمها حتى بعد اجـــراء التعديلات وحتى يتغلب ديجول على المعارضة بشأن سياسته الجزائرية اضطر الى طرح هذا الموضوع على استفتاء جديد أثر توقيع الاتفاقيات · ويبـدو أن وجود الجيش السرى قد دفـــع معظم الفرنسيين الى الموافقة دون أن يكونوا مقتنعين بذلك · وهكذا جاءت النتيجة فى استفتاء ٨ أبريل ١٩٦٢ بنسبة ٩١٪ بالموافقة ·

اذا نظرنا الى نتيجة استقلال الجزائر وتأثيره على فرنسا فســوف نلاحظ أنها حققت نتـــائج مفيدة على عكس مــا كان يشيعه المســتوطنون وأنصارهم فقد استطاعت فرنسا أن تمضى فى تحديث صناعاتها وجيشـــها وتحسن من مركزها الدولى ولا أدل على ذلك من اعادة انتخاب الجنرال ديجول كرئيس للجمهورية سنة ١٩٦٥ ·

---

(١) عبر عن وجهة النظر هذه : **Maurice Allais : L'Algérie D'évian**

الفصل العشرون

أزمة السلطة فى الجزائر

قام الجنرال ديجول باعلان استقلال الجزائر فى يوليو سنة ١٩٦٢ ، غير أن الوطنيين الجزائريين رفضوا أن يكون هذا الاعلان هو وثيقة الاستقلال فجعلوا من يوم ٥ يوليو التاريخ الرسمى لاعلان الجمهورية . ويصادف هذا اليوم ذكرى احتلال الفرنسيين للبلاد سنة ١٨٣٠ .

وحسب اتفاقيات ايفيان كان لا بد من اجراء انتخابات لجمعية تأسيسية فى غضون ثلاثة أسابيع من اعلان الاستقلال . ومهمة الجمعية هى وضع دستور للبلاد ، غير أن الخلافات الخطيرة التى صاحبت اعلان الاستقلال أخرت اجراء الانتخابات نحو شهرين كما سنذكر ذلك فيما بعد . ويكفى أن نشير ههنا الى ان الحكومة الجزائرية التى تسلمت السلطة فى أغسطس برياسة أحمد بن بللا وبتأييد معظم جيش التحرير الذى يقوده هوارى بومدين قررت أن الظروف الحالية للجزائر تقضى باتباع نظام الحزب الواحد ، وقدمت قائمة انتخابية بأسماء المرشحين لمقاعد الجمعية التأسيسية البالغة ١٩٦ مقعدا .

١ ـ الصراع من أجل الحكم :

نجح زعماء الثورة فى المحافظة على وحدة الصف طوال فترة النضال المسلح ولايعنى ذلك عدم وقوع خلافات فيما بينهم ، بل على العكس أدت أعمال التجسس ومكافحته الى اثارة الشكوك وتمادى بعض القواد فى حركات التطهير حتى كان البعض يحاكمون لأبسط الشبهات .

وقد حاول حسين آيت أحمد فى كتاب أصدره بالفرنسية سنة ١٩٦٤(١) بعنوان « الحرب ومابعد الحرب » أن يسرد بعض أحداث الخلاف التى نشبت بين الزعماء منذ سنة ١٩٥٦ وقال ان رمضان عبانة كان يريد عقد مؤتمر عام

---

1. La guerre et l'après guerre.

لجبهة التحرير لتسوية الخلاف وانه أى المؤلف اعترض فى ذلك الوقت على تلك الفكرة حتى لايكون هناك مجال للجدل أثناء الانشغال بالثورة ·

أما بعد الاستقلال وبعد أن أصبح آيت أحمد فى صفوف المعارضة وأستاثر بن بللا بالسلطة فقد غير المؤلف رأيه وصار ينادى بدعوة مؤتمر عام يضم مختلف الاتجاهات وتنبثق عنه قيادة جماعية · وقد قيل فى ذلك الحين أن المؤتمر الذى برزت فيه شخصية رمضان عبانة كان يمثل قواد الولايات أو معظمهم وأن نوعا من الصراع نشأ فى ذلك الوقت بين هؤلاء وبين ممثلى الجبهة فى خارج الجزائر ومن بينهم بن بللا وآيت أحمد ومحمد خيضر · وانتقد قواد الولايات ممثلى الجبهة فى الخارج مع كثير من المبالغة بأنهم يعيشون عيشة رغدة ولايشاركون فى الآلام التى يعانى منها رجال جيش التحرير · ولعل هذا هو أول انقسام يظهر بين مايسميه الكتاب بفريق العسكريين وفريق السياسيين ، غير أن هذا التمييز ينطوى على كثير من الاصطناع وخاصة بالنسبة الى الثورة الجزائرية ، فقد اقتضت طبيعة الثورة أن يشغل قواد الولايات الست مناصب ادارية وأن يشتغلوا بالسياسة كما أن كثيرين ممن سموا بأعضاء البعثة الخارجية أو السياسيين نشأوا أصلا تحت علم جيش التحرير ثم كلفوا بمهمات فى الخارج ، وكان بن بللا يتولى مهمة قيادة القوافل التى تنقل الأسلحة الى الجزائر عبر ليبيا ، كما أن يوسف بن خدة كان فى بعض الأوقات قائدا للولاية الرابعة حيث تقع العاصمة قبل أن يصبح رئيسا للحكومة المؤقتة ، ولاشك أن وقوع بن بللا فى الأسر نتيجة حادث الطائرة المشهور هو الذى أبعده عن فرصة العمل النضالى ·

علىأن الانقسامات أمتدت لتشمل القادة الخمسة الذين ظلوا معتقلين حتى توقيع اتفاقيات ايفيان وقد اكتشف ذلك عبد العزيز بوتفليقة حينما ذهب ممثلا للقيادة العامة للاتصال بهم ، فلاحظ أن كلا من بوضياف وآيت أحمد يرفض أن تعتمد السلطة فى الدولة الجديدة على الجيش ، بينما مال بن بللا الى الاستعانة بالقيادة العامة · أما محمد خيضر الذى كان متأثرا بالمناورات السياسية منذ عهد مصالى الحاج ، فقد وافق بن بللا ، ولكنه كان يرغب فى أن يعود الجيش الى ثكناته بعد استقرار الدولة · والواقع أن تصور بن بللا لتكوين القوات المسلحة ظل متأثرا بعهد الثورة وهو يؤكد ماسبق أن ذكرناه من صعوبة التمييز بين السياسيين والعسكريين ، والجيش فى مثل هذه الظروف يكون أقرب الى الميلشيا منه الى الجيش الفنى المحترف ، الذى

يمارس التدريب الدقيق على أحدث الأسلحة ، والجندى فى نظر بن بللا يمكن أن يمسك البندقية بيد ويحمل الفاس باليد الأخرى ليساهم فى تطوير نظام الانتاج الزراعى ٠ غير أن الأحداث ستثبت أن مسئوليات الدولة المستقلة تختلف عن مسئوليات الثورة فى عهد الاستعمار ٠ والدولة المستقلة تحتاج الى جيوش فنية محترفة ٠

طرحت هذه الخلافات للمرة الأولى علنا فى المؤتمر الوطنى الذى عقدته جبهة التحرير كعادتها فى طرابلس فى يونيو سنة ١٩٦٢ ٠ ورأت الحكومة المؤقتة أنها صاحبة السلطة الرسمية التى يجب أن تتسلم البلاد من يد الفرنسيين الى أن تجرى الانتخابات للجمعية التأسيسية٠ اما بن بللا وأنصاره فقد اقترحوا ستة أسماء جديدة معظمهم ممن كانوا مع بن بللا فى الأسر مثل حسين آيت أحمد ورابح بيطاط وبوضياف لتشكيل المكتب السياسى لجبهة التحرير . ومهمته أن يتسلم السلطة باسم الجبهة من يد الفرنسيين ويقوم بعد ذلك بالاشراف على الانتخابات ٠ وبناء عليه طالب بن‌بللا باقالة الحكومة‌المؤقتة ونال تأييد ٥٩ صوتا يشكلون‌غالبية‌أعضاء المجلس الوطنى البالغ عددهم ٧٢ وفسر هذا النجاح بأن بن بللا كان يتمتع بتأييد العسكريين وهم غالبية أعضاء المجلس ٠ والواقع أن مستقبل السلطة كان يتوقف على موقف قواد الولايات الست ، ولوحظ أن عددا من الزعماء أخذوا يتسابقون على كسب ودهم فقد أسرع كريم بلقاسم وبوصوف وبن طوبال الى تزى أوزو مستنجدين بقيادة ولاية القبايل الصغرى بينما اتجه بن بللا ومحمد خيضر الى وجدة فى الغرب حيث ينتشر قسم كبير من جيش التحرير على الحدود يفوق فى حجمه القوى الداخلة فقد قدر بثلاثين الفا مقابل عشرة آلاف بالداخل وفضلا عن ذلك فان مجموعة وجدة تتبع القيادة العامة مباشرة ٠

أما آيت أحمد وبوضياف فقد رفضا الاستعانة أصلا بأى طرف من أطراف القادة العسكريين ٠ كما أن هوارى بومدين أعلن كذلك مساندته للمكتب السياسى ٠ والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هو : لماذا لم يتمكن المكتب السياسى من تسلم السلطة مباشرة بعد اعلان الاستقلال ؟ الواقع أن قواد الولايات الست كانوا يتبعون من الناحية النظرية القائد العام ولكن من الناحية العملية اعتاد كل قائد أن يستقل بشئون ولايته ٠ وذلك لأن تحقيق

الاتصال السريع المباشر كان صعبا فى عهد الثورة ، ومن المدهش أن تقسيم البلاد الى ست مناطق عسكرية استمر بعد الاستقلال واستمرت معه الامتيازات الهائلة التى يتمتع بها قواد تلك المناطق ٠ وهذا يؤكد لنا ماذكرناه من قبل من أن طبيعة الثورة اقتضت أن يكون جيش التحرير جيشا خاضعا للسياسة لايتحقق فيه النظام الدقيق كما هو الحال فى الجيوش المحترفة التى تؤسس بواسطة دولة قائمة من قبل ٠ ومن هنا صار مستقبل الجزائر يتوقف على الاتجاه الذى يتخذه قواد الولايات على حدة ٠ ولم يتفق هؤلاء القواد على موقف موحد عند اعلان الاستقلال ٠

ماذا حدث عند اعلان الاستقلال فى ٥ يوليو ١٩٦٢ ؟ لقد عمدت الحكومة المؤقتة الى عزل هوارى بومدين ووصفت المحاولات التى يقوم بها هوارى وبن بللا بأنها تهدف الى اقامة دكتاتورية عسكرية فى البلاد ، وتمكن أعضاء الحكومة من دخول العاصمة فى بداية الأمر ٠ غير أن كثيرين استنكروا « أن يحرم المجاهدون من جنى ثمرات النصر يوم النصر » ٠ وفى الوقت نفسه ذهب أحمد بن بللا الى المغرب ومنه عبر الحدود الى وهران وأقام مركزه فى تلمسان القريبة من مسقط رأسه ، وبدت البلاد على شفا حرب أهلية ، وتدخل قائد الولاية الرابعة حيث تقع العاصمة وأخذ زمام المبادرة بدعوة الطرفين المتنازعين الى تسوية خلافاتهم بالتفاوض ، واذن فقد كان قائد تلك الولاية يتخذ موقفا مختلفا عن القائد العام هوارى بومدين ، وعلى كل فقد كانت فكرة التوفيق تلقى ترحيبا شديدا من الرأى العام اذ لم يكن أحد مستعدا لسفك دماء جديدة ولسان الحال يقول : ألم تكف سبع سنوات من حرب ضروس مدمرة ؟ ٠

لقد ذكر البعض أن هذا الصراع امتداد للخلافات الحزبية القديمة التى تتكون منها جبهة التحرير ، وفى تلك الحالة يكون بن يوسف بن خدة ممثلا لجماعة المركزيين التى انشقت على مصالى الحاج سنة ١٩٥٣ وأخذت تعد الثورة ، ويكون بن بللا وأنصاره ممثلين للجنة الثورية للاتحاد والعمل التى نفذت الثورة فعلا فى أول نوفمبر ثم انضم اليها المركزيون بعد ذلك ، غير أن هذا التفسير ينهار من أساسه اذا عرفنا أن كريم بلقاسم كان أحد أعضاء اللجنة الثورية للاتحاد والعمل ومع ذلك فقد أصبح الساعد الأيمن لبن خدة يضاف الى ذلك أعضاء هذه اللجنة الذين ساندوا بن بللا فى بداية الأمر

أخذوا ينشقون عليه الواحد تلو الآخر بعد الاستقلال • ويفسر البعض هذا الصراع بخلافات عقائدية ، فمثلا كان محمد بوضياف يمثل الجناح اليسارى فى الجبهة وهو من رفقاء بن بللا فى الأسر ومن اعضاء المكتب السياسى الجديد وقد الف حزبا جديدا باسم « الحزب الاشتراكى الثورى » ولحق به بعد قليل فى سبتمبر حسين آيت أحمد ، اما محمد خيضر فقد بقى فى منصبه كأمين عام للجبهة حتى أبريل سنة ١٩٦٣ ثم أعلن بدوره استقالته وغـادر البلاد بعد ذلك •

شرح بوضياف آراءه فى كتاب نشره بالفرنسية بعنوان « الى أين تسير الجزائر (١) ؟ وهو ينتقد زميله القديم بأنه ورث النظام الادارى نفسه الذى كان سائدا فى عهد الاستعمار دون أن يغير مافيه من أجهزة مركزية ونزعة الى البيروقراطية وماقؤدى اليه من نظرة استعلاء نحو الشعب ولذلك فهـو يدعو الى أن تكون للهيئات الشعبية السلطة العليا فى مختلف القطاعات . فتشرف النقابات العمالية على الصناعات وتسييرها بينما تشرف جماعات الفلاحين على الزراعة • وهو يرى أن الحكومة قد أخطأت اذ أصبحت تحصل لحسابها أرباح المزارع الخاضعة لنظام التسيير الذاتى • ثم يهاجم نظـام الحزب الواحد ويرى أن جبهة التحرير حسب التشكيل الذى وضعه بن بللا أصبحت مجرد فئة من الفئات السياسية ويسميها جماعة تلمسان • وممـا هو جدير بالملاحظة أن الحزب الاشتراكى الثورى اتفق مع الشيوعيين فى كثير من وجهات النظر فكلاهما نادى بضرورة تعدد الأحزاب أو السمـاح للحزب الشيوعى بالعمل على أساس أنه شارك فى الثورة •

وكما كون بوضياف حزبا سياسيا معارضا . كذلك فعل حسين آيت أحمد حينما كون « جبهة القوة الاشتراكية » فى خريف سنة ١٩٦٣ غير أن آيت احمد تجاوز المعارضة السياسية الى العصيان العسكرى حينما ارتبط بمحمد ولد الحاج أحد قواد الولايات الست وأعلن الثورة فى بلاد القبايل ومع أن ولد الحاج تحول بسرعة الى جانب الحكومة فى غمرة الحماس الذى ترتب على النزاع على الحدود مع المغرب فقد بقى آيت أحمد متوليا زعامة المعارضة كرجل سياسى حتى قبض عليه فى أكتوبر سنة ١٩٦٤ •

---

1. Où va l'Algérie.

وتتفق جبهة القوى الاشتراكية مع بقية الاشتراكيـــن الجزائريين فى اعلان اعتناقها للاشتراكية العلمية . ومع ذلك فقد وصفت بالاعتدال ، فهى قد انتقدت الاصلاح الزراعى وطالبت بالحد من التوسع فيه ، ثم أرادت أن ترد أصول اشتراكيتها الى جذور اسلامية وأخذت على بن بللا اعتماده على خبراء أجانب من الماركسيين ولم يكن بن بللا بالفعل يخفى اعجابه بكاسترو ، وقد توثقت العلاقات بين الجزائر وكوبا فى عهده مما جعل الأخيرة تنفرد بقطع علاقاتها بالجزائر بسبب عزل بن بللا ٠

ولم يكن بن بللا يرفض الاستفادة من الماركسية كمصدر من مصـــادر الفكر الاشتراكى الذى تعتنقه جبهة التحرير ، ولكنه أعلن بعيد الاستقــــلال أن مبادئه تختلف عن الماركسية فى أمرين رئيسيين : الاعتراف بالقيم الروحية والأخذ بالمبدأ القومى ٠ أما موقفه ازاء الحزب الشيوعى كتنظيم فكان أشد صلابة . وقد أشرنا كيف أن جبهة التحرير قبلت التحاق الشيوعيين بها كأفراد وما أن أعلن الاستقلال حتى تطلع الشيوعيون الى اعادة تنظيم صفوفهــــم وشرعوا يصدرون جريدتين فى كل من مدينتى الجزائر ووهران حيث بقــى قسم من الجاليات الأوربية ، وتأثر السكان اجتماعيا وثقافيـا بالتيـــارات الفرنسية ٠ وحاول الحزب الشيوعى فى انتخابات الجمعية التأسيسية أن يقدم قائمة منفصلة بمرشحيه فتدخلت السلطات لمنعه وحذف محمد خيضر المسئول عن الانتخابات أسماء معظم المرشحين المعروفين بانتمائهم للحزب وقدم قائمة موحدة على نحو ما رأينا ٠ ورضخ الحزب الشيوعى على أساس أن ذلــك اجراء مؤقت ٠ وطالب فى نفس الوقت بالسماح للأحزاب المختلفة بالعمـــل واحتج على نظام الحزب الواحد الذى لايتلاءم مع ظروف البلاد الاجتماعية وهو يرد بذلك على الذين قد يواجهونه بحجة أن الدول الشيوعية تأخذ بنظام الحزب الواحـــد ٠

ويستنتج من عبارة « الظروف الاجتماعية غير الملائمة » أن الجزائـــر ما زالت مجتمعا طبقيا ٠ وان الشيوعيين هم الذين يمثلون الطبقة الكادحة وأن نظام الحزب الواحد لايطبق الا عندما تتلاشى الطبقات الأخرى ٠ وحتى لو أخذنا بمنطق الحزب فمن الصعب القول بأن الشيوعيين يمثلون الطبقــة العاملة الجزائرية لعدم انتشار الحزب فى الريف حيث تعيش الغالبية العظمى للكادحين ٠ وفى نوفمبر سنة ١٩٦٣ أمرت الحكومة بايقاف جريدتى الحــزب

ثم حظرت نشاطه بتاتا وأعلن بن بللا أن الشيوعيين لم يخلصو للثورة فى جميع الأوقات، ولذلك فهو يرفض حتى فكرة ائتلاف الحزب مع جبهةالتحرير٠ الا أن هذا لايعنى بالضرورة معاداة المبادىء الماركسية . بل أن المقصود من وراء حل الحزب هو توحيد القوى الثورية فى الجبهة ٠

وعلى الطرف الآخر من المعارضة وقف انصار الحرية الفردية مــن الليبراليين بزعامة فرحات عباس ينتقدون هم أيضا نظام الحزب الواحد ولو أن فرحات عباس لم يعلن صراحة معارضته للنظام الجديد بدليل قبوله رئاسة الجمعية التأسيسية وكان ينتظر الفرصة التى تسمح له باقناع النـــواب بدستور ليبرالى ، الا انه لم يوفق فى مهمته واستشاط غضبا من الطريقــة التى اتبعها بن بللا لطرح الدستور للاستفتاء . فبدل أن يناقش مناقشة فاحصة فى أروقة الجمعية التأسيسية قدم الى مؤتمر كبير لأعضاء جبهة التحريــر فى احدى القاعات العامة ثم طلبت الحكومة المصادقة عليه برفع الأيدى ٠ وعلى أثر ذلك قرر فرحات عباس الانزواء عن الحياة السياسية ٠

لقد تمت المصادقة على الدستور فى سبتمبر سنة ١٩٦٣ وبناء عليــه رشح أحمد بن بللا كأول رئيس « للجمهورية الديموقراطية الشعبية » ومنــذ ذلك الحين أخذ يفكر فى افضل الطرق لايجاد نوع من الاستقرار فى السلطة ازاء هذه المعارضة متشعبة الاتجاهات . ومما زاد المعارضة خطورة أنها لم تقتصر على المجال السياسى ٠ بل تخطته الى حركات تمرد متوالية قام بها قواد الولايات وسنشير الى ذلك بعد قليل . وكان بن بللا واقعا بين عاملين : الاعتماد على الجيش وتقويته ، وفى هذه الحالة قد يصبح أسيرا له ، أوتوحيد فئات المعارضة السياسية وامتصاصها فى جبهة التحرير . وكان أميل الى هذا الحل الذى يخفف من خضوعه للجيش ولكنه قد يعجل فى نفس الوقت بتدخله اذا لاحظ المسئولون فى الجيش بأن المعارضة ستندثر ٠ ومن هنــا ستكون الخطة المفضلة لدى بن بللا هى اقامة توازن بين جميع هذه العناصر، ولهذا الغرض فكر فى دعوة مؤتمر عام لجبهة التحرير ، وكون لجنة تحضيرية للتخطيط ومن الملاحظ أن بن بللا كان يعارض من قبل دعوة هذا المؤتمر ، ومضى عامان تقريبا منذ الاستقلال قبل أن ينتظم أول مؤتمر للجبهة فى أبريل سنة ١٩٦٤ ٠

شرعت اللجنة التحضيرية فى عملها منذ ١٩٦٣/١١/١٧ وأعدت ميثاق عمل جديد يحل محل ميثاق طرابلس ، اذ صار من الممكن الآن الاستفادة من تجربة ممارسة السلطة . وقد لعب ستة من اليساريين من بينهم محمد حربى وهيئة تحرير مجلة الثورة الأفريقية دورا رئيسيا فى صياغة الميثاق الذى طرح على المؤتمر (١) ٠ وقد حضر المؤتمر ١٩٩١ عضوا يمثلون مختلف التيارات . وخطة بن بللا هى أن يكون المؤتمر مجابهة صريحة بين زملاء عاشوا معا أيام الثورة الا أنه ظل بعيدا عن تحقيق الوحدة الوطنية ٠

لقد وافق المؤتمر حقيقة على مايعرف بميثاق الجزائر وهو يضع تفاصيل نظام التسيير الذاتى والنظام الاشتراكى فى القطاعات المختلفة . وظهر بهذه المناسبة تيار قوى يستهدف ربط الاشتراكية بالاسلام ٠ كما رسم التشكيلات السياسية لجبهة التحرير ، ويستنتج من ذلك أن المؤتمر أعطى الأولوية للحزب على الدولة ، فالمؤتمر العام هو القاعدة الأساسية لهذه التشكيلات . وهو يجتمع دوريا كل عامين وينتخب أعضاء اللجنة المركزية وتشرف اللجنة المركزية على الحكومة والحزب معا وهى التى تختار المكتب السياسى وتجتمع مرة كل أربعة أشهر على الأقل ويقضى التنظيم بأن يكون رئيس الحزب هو رئيس الدولة فى الوقت نفسه ٠

انتخب المؤتمر اللجنةالمركزية الأولى من ٨٠ عضوا أصليا و٢٣ مساعدا وكان من المقرر الاكتفاء بخمسين ولكن راغبى العضوية كثيرون ٠ وعينت اللجنة المركزية أسماء أعضاء المكتب السياسى الـ ١٧ ودخل أنصار بومدين كلا التنظيمين : اللجنة المركزية والمكتب السياسى ٠ ولم يكن ملء المقاعد فى هذين التشكيلين هو محور الخلاف بين القائد العام ورئيس الجمهورية، وعلى الأصح فان الذى صرح به بومدين كان يتعلق بتنظيم الجيش ورفض فكرة انشاء ميلشيا أو حرس وطنى ، ولم يتدخل بومدين فى المناقشات الا قبيل انتهاء المؤتمر فطالب بالابقاء على الضباط الجزائريين الفنيين الأكفاء الذين خدموا من قبل بالجيش الفرنسى . وحينما اعترض بعض المعروفين بتأييد بن بللا على تلك الفكرة أجاب بومدين متسائلا ، وهل نفضل عليهم الأجانب ؟ كذلك رفض القائد العام دعوة بن بللا لانشاء حرس مدنى القصد

---

1. Revue Magreb, Mai, 1964.

منه حماية الثورة أو بصورة أدق حماية تشكيلات الحزب ٠ ولاتدل هـذه الخلافات على أن فكرة الاطاحة ببن بللا كانت تراود القائد العام فى ذلـك الوقت . فهو مايزال مؤمنا باحترام الشرعية . اذ صرح بأن المؤتمر هـــو صاحب السلطة العليا واذا أقر وجهة نظر مخالفة فليس بوسعه سوى الانصياع لهـــا ٠

كشف المؤتمر من خلال هذه المناقشات (١) عن أن حزب جبهة التحرير لايتمتع بالوحدة ٠ أما الجيش فهو اكثر تماسكا ٠ وكان بن بللا يظن أن ميثاق الجزائر سيملأ هذا الفراغ الا ان العبرة ليست بالاجماع على المبادىء بل يكفيه التنظيم ، ولم يختلف بن بللا رئيس الدولة كثيرا عن الرجل الثورى المناضل . فهو يستمع للشكاوى الخاصة مما ترك قليلا من الوقت للادارة ٠ ورغم ذلك فقد جمع فى وقت مابين وزارات الداخلية والمالية بالاضافة الـى رئاسة الدولة وسكرتارية الحزب ٠ ورأى انه عن طريق التوازن بين القوى يمكن الاحتفاظ بالسلطة ٠ وفكرة انشاء الميلشيا هى جزء من هذه الخطة التى تقيم التوازن بين الحزب والجيش ٠ ومن الغريب أن بن بللا كلف أحد أنصار بومدين بقيادة الحرس الوطنى . ذلك أن السياسة التى أتبعها رئيس الجمهورية ازاء القائد العام للقوات المسلحة تتأرجح بين الارضاء تـــارة وبين اضعاف تدخله فى شئون الدولة العليا تارة أخرى ، عندما أضطر بن بللا فى أكتوبر سنة ١٩٦٣ الى الاستعانة بالجيش لقمع حركة عصـيان محمد ولد الحاج كان يخشى من أن تكون هذه فرصة لتقوية دور الجيش فى الدولة وأزدياد الاعتماد عليه ولذلك وجد فى الحرب مع المغرب خروجا مـن المأزق الداخلى فقد استجاب ولد الحاج فى هذه المناسبة لدعوى الوحـــدة الوطنية وانضم الى القوات الجزائرية وصار عنصرا جديدا مـــن عناصر التوازن ، فدعى الى المشاركة فى المؤتمر العام المذكور فى أبريل سنة ١٩٦٤ ولم يفهم كثيرون من أعضاء الجبهة مغزى دعوة أحد المتمردين القدامى ٠

على أن بن بللا واجه حركات تمرد أخرى واضطر الى الاستعانـــة بالجيش لمواجهتها جميعا ٠ ونذكر على سبيل المثال انشقاق سى العربى فى

---

1. Buy, F. La République Algérienne démocratique et populaire.

فبراير سنة ١٩٦٣ الذى طالب بمساهمة العسكريين مساهمة أكبر فى ادارة البلاد • كذلك شهدت الجزائر فى عام ١٩٦٤ محاولتين من هذا النوع قاد أحدهما الكولونيل شعبانى فى جنوب قسنطينة وقاد الأخرى الكولونيل بو موسى فى وهران •

٢ ـ حركة ١٩ يونيو سنة ١٩٦٥ واستقرار السلطة (١) :

الأرجح أن هوارى بومدين لم يفكر فى التدخل لتغيير السلطة الا خلال الأسابيع الثلاثة التى سبقت حركة ١٩ يونيو • وقد اغراه بذلك كثرة التعديلات الوزارية وتقلب بن بللا بين التيارات اليمينية واليسارية ان صح التعبير . فقد أستبعد مثلا محمد حربى عن مجلة ثورة أفريقيا ، الا أنه ترك أمزيان الماركسى المعروف ليحتل منصب سكرتير الاتحاد العام للعمال الجزائريين •

أما السبب المباشر الذى دفع بومديـن الى القيام بانقلاب فهو رغبة بن بللا فى ابعاد عبد العزيز بوتفليقة عن وزارة الخارجية وقد قاوم بوتفليقة ما استطاع هذه الرغبة . فقال انه ليس من المناسب ابعاده فى وقت تستعد فيه الجزائر لاستقبال مؤتمر القمة الأسيوى الأفريقى وهو حدث عظيـم باعتباره المؤتمـر الثانى من نوعـه منذ باندونـج وأجاب بـن بللا بأنـه وهو رئيس الجمهورية يريد أن يطبع بطابعه الخاص السياسة الخارجيـة للبلاد • وأجاب بوتفليقة بأن استبعاده فى هذه اللحظة يعنى عدم الثقة به وهو ممثل الحزب للشئون الخارجية وليس من حق الرئيس وحده ان يتصرف فى هذه المسألة وعليه أن يستشير الحزب فى ذلك •

كان بومدين يشغل فى ذلك الوقت منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع وقد مثل الجزائر فى مؤتمر رؤساء الحكومات العرب بالقاهرة • ولما علم بمحاولة عزل بوتفليقة عاد على عجل واخذ يرتب للانقلاب مع زملائه من العسكريين وكانت المشكلة التى واجهت القائمين بالحركة هى كيفية مواجهة المؤتمـر الأسيوى الأفريقى بحكومة جديدة ، وهل يقبل اعضاء المؤتمر الاستمـرار رغم هذا التغيير ؟ وللتغلب على هذه المشكلة اتفق على أن التغيير مسألة

---

(١) انظر تفاصيل هذا الموضوع فى : Bourges : L'Algérie à l'épreuve du pouvoir

داخلية ولاتؤثر على سياسة الجزائر الخارجية . أما بوتفليقة فقد طلب الوقت للتفكير ولم يقدم استقالته الا بعد الشروع فى ترتيبات الحركة .

كلف طاهر الزبيرى بأداء المهمة الحرجة الا وهى القبض على بن بللا، وكان الترتيب دقيقا بحيث لم يترك ثغرة تجعل الفشل محتمـلا وكانت المعارضة طفيفة بين المدنيين لم تتعد بعض المظاهرات فى عنابة ووهران حيث سقط بعض القتلى . لقد تضاربت الآراء عند وقوع الحركة حول الفوارق التى تميز بينها وبين النظام السابق فمن قائل أنها تميل قليلا الى اقامة قيادة جماعية ، كما فسرها البعض بأنها تمثل تفوق عنصر العسكريين على السياسيين . والواقع ان الخلاف العقائدى لايبدو واضحا اذا ما استندنا الى الشعارات التى استعملت فى كلا العهدين . أما الخلاف الواضح الذى يظهر للعيان فهو التفاوت بين مزاج الرجلين وتكوينهما . فكل منهما كان يعتبر نفسه قائدا « للثورة » ولكن مفهوم الثورة يختلف عند كليهما ، فهو عند بن بللا انطلاق الجماهير والحزب الذى يمثلها . وهى عند بومدين التخطيط لاقامة دولة بل ان الدولة هى التى تصنع الثورة وتوجهها . وكلا الرجلين يجعل الجيش فى محور اهتمامه ولكن الجيش عند بن بللا هو أداة لخدمة الثورة أو نوع من الجيش الشعبى . وعند بومدين هو أداة لتدعيم الدولة الشرعية ، ومهمته هى الوصول الى أعلى كفاءة فنية لكى يؤدى هذا الدور. كذلك استعمل الرجلان الشعارات الوطنية وربما اختلف مفهومهما لهـذه الكلمة . فالوطنية الجزائرية عند بن بللا ترتبط بالعروبة والاسلام ، وعند بومدين هى بناء دولة جزائرية قوية تتضامن مع البيئة العربية والاسلامية ولاتستمد بالضرورة وجودها من مؤثرات خارجية وقد يكون من المفيد ههنا قبل أن نتتبع منجزات بومدين بعد تولى السلطة أن نلقى نظرة عاجلة على حياته .

بدأ محمد بوخروبة واسمه الحركى هوارى بومدين حياته السياسية كعضو فى حزب الشعب واستمر على ولائه لمصالى الحاج حتى سنة ١٩٥١ وحينئذ يئس بوخروبة مثل كثير من أقرانه من أساليب الكفاح السياسى والديماجوجية التى تميز بها مصالى الحاج ، وجاء الى الأزهر ليدعم ثقافته العربية الاسلامية وأسرع بعد قيام الثورة الى الانضمام لصفوف المجاهدين حتى صعد بسرعة الى رتبة نائب قائد الولاية السادسة فى سنة ١٩٥٦ ثم

أصبح قائدا عاما لجيش التحرير فى سنة ١٩٦٠ واشتهر بالصرامة الشديدة فى معاملة المنحرفين كما تدل الأحكام التى أصدرها أثناء الثورة · وبعد الاستقلال أعطى بومدين كل وقته لتطوير الجيش واعداده لكى يكون جيشـا نظاميـا ·

كان على قائد الحركة الجديدة أن يوضح أهدافه فى بيـان عـــام ، واستغرق اعداد البيان بعض الوقت ، ويتضح منه أن هدف الحركة الأول هو الرغبة فى احلال القيادة الجماعية محل الزعامة الفردية ، وتطبيقا لهذا المبدأ كون بومدين مجلس ثورة موسع يضم ٢٦ عضوا بعضهم من أعضاء الحكومة السابقة كما استبقى بعض الوزراء الـــذين عملوا مع بن بللا ، فبالاضافة الى بوتفليقة استمر بشير بو معزة وحاج اسماعيل وعلـــى محساس يمارسون مناصبهم الوزارية وثلاثتهـم مـــن المشتغلين بالتخطيط الاقتصـادى

على أنه بمضى الوقت ثبت ميل بومدين الى العمـل وسط مجموعـــة صغيرة من زملائه وكانت اقرب المجموعات اليه والتى تحوز ثقته هى ماتعرف بمجموعة ضباط وجدة . اى الذين عملوا تحت قيادته أثناء السنوات الأخيرة من الثورة فى جيش التحرير · ومن هؤلاء مدغرى وشريف بلقاسم وقايد احمد الذى صار الأمين العام لجبهة التحرير ·

أما طاهر الزبيرى فينتمى الى مجموعة أخرى من الضباط تعـــرف بمجموعة الأوراس وربما فكر بن بللا فى تقوية نفوذ هذا الأخير حتى يوازن به هوارى بومدين · غير أن بومدين سبق الى استقطابه · والظاهر أنه ساد شعور بعد فترة من نجاح حركة بومدين أنه اتخذ أداة وكان يشكو أحيانا من اهمال اقليمة الفقير الأوراس ففسر البعض محاولته الانقلابية سنة ١٩٦٧ بأنها صورة من صور الصراع بين مجموعتين متنافستين من الضباط بالجيش الأوراس ووجده ، لكن الزبيرى أراد أن يعطى لحركته صورة ايديولوجيـة فتلقف فرصة استقالة وزيرين من المعروفين بتأييد نظام التسيير الذاتى وقال انه يرفض التخلى عنهما ورفع شعارات الاشتراكية ·

وكان الزبيرى قد تغيب عن حضور احتفالات ذكرى قيام الثورة فى

أول نوفمبر سنة ١٩٦٧ فحامت الشكوك حول موقفه ٠ وفى ١٥ ديسمبر بدأ فى تنفيذ حركته الانقلابية وفى خلال الأيام الثلاثة التى لم يعرف فيها بعد مصير الحركة دعت جريدة المجاهد الى تسوية الخلاف داخل الحزب ، لكن أحدا لم يقتنع ٠ وبفضل تأييد الضباط استطاع بومدين أن يقمع الحركة ومنذ ذلك الوقت تحقق الاستقرار فى السلطة العليا ٠

٣ - عهد بومدين : -

كان على الجزائر المستقلة أن تشرع فى انشاء مؤسسات جديدة دون أن تكون متصلة بالماضى الاستعمارى . غير أن الاتجاه الغالب فى السنوات الثلاث التى حكم خلالها بن بللا أعتمد على المنظمات الشعبية المنبثقة عن الحزب الواحد الحاكم وهو جبهة التحرير وعلى الزعامة الشخصية ومن ثملم تلعب المؤسسات الدستورية دورا بارزا . فلم يظهر أثر ملموس لمجلس النواب ، وحينما تولى بومدين السلطة عطله نهائيا ٠

وفى العهد الجديد تراجع أيضا دور جبهة التحرير كمؤسسة جماهيرية وان ظلت من حيث الشكل هى الحزب الواحد الشرعى فى البلاد ، وأعتمد حكم بومدين على قاعدتين : الجيش النظامى الذى حوله من صفته السابقة التى تشبه الميلشيا الشعبية الموروثة من عهد الثورة الى جيش فنى خاصة وان الحرب مع المغرب فى سنة ١٩٦٢ أثبتت عدم كفاءة هذا النوع من الجيوش فى عهد الاستقلال ٠ وهكذا تكونت على مدى سنى الحكم طبقة جديدة من الفنيين العسكريين ٠ أما القاعدة الثانية فهى بث الحياة فى المجالس الاقليمية والقروية وتعرف الأخيرة فى الجزائر باسم القسمات ، وقد اختير أعضاؤها ليس بالضرورة بسبب مواقعهم الحزبية بل وجد من بينهم الكثيرون الذين اشتهروا بالانشغال بالحياة العامة من بين الأهالى ٠ ولعل استقالة قايد أحمد من الأمانة العامة لجبهة التحرير يعود الى احساسه برغبة رئيس الدولة فى التقليل من دور الحزب واتجاه نحو السياسة البرجماتية فتوقف عقد المؤتمرات العامة التى كان من المفترض أن يعقدها الحزب عند مواجهة الأزمات السياسية والاقتصادية ٠

ولم يعن تراجع جبهة التحرير تغييرا فى التوجه الاشتراكى للدولة خلال حكم بومدين بل على العكس أتخذت اجراءات اشتراكية ورفعت

شعارات جديدة تؤكد هذا التوجه مثل شعار الثورة الزراعية خاصة سنة ١٩٧١ ٠ وهكذا توسعت الجزائر فى تعميم مزارع التسيير الذاتى التى أنشئت أولا فى الأراضى الشاغرة وهى الأراضى التى تركها ملاكها من المستوطنين الفرنسيين كما وزعت أملاك الدولة فى الأراضى الزراعية ، والظاهرة الجديدة تتمثل فى مصادرة أراضى كبار الملاك الزراعيين من المواطنين وتوزيعها على الفلاحين اما على شكل تعاونيات أو مزارع تسيير ذاتى ، وقد اشتملت خطة الثورة الزراعية كذلك على توطين البدو واقرارهم فى هذه المزارع ٠

وتجلى انحياز بومدين الى الجناح الراديكالى فى جبهة التحرير من خلال تشجيع التوسع فى الصناعات الثقيلة التابعة للقطاع العام على حساب الصناعات الصغيرة ٠ وعلى المدى البعيد تكشف أن هذه المشروعات لم تفد أهالى الريف كما لم تحل مشكلة البطالة بسبب الانفجار السكانى ٠

لقد ورث نظام بومدين مؤسستين شعبيتين كان عليه أن يتعامل معهما بمحاولة الامتصاص أحيانا وبالمناورة أحيانا أخرى ٠ وهاتان المؤسستان هما الاتحاد العام للعمال الجزائريين ٠ واتحاد الطلبة ومن السهل أن نلمس فى كيفية تكوين هذين الاتحادين وأسلوب نشاطهما تأثير الاحتكاك والتداخل مع الاتحادات المماثلة فى فرنسا ٠ ففيما يتعلق باتحاد العمال الذى خرج من باطن الاتحاد الفرنسى التابع للحزب الشيوعى (C.G.T.) فانه تأسس فى فبراير ١٩٥٦ أثناء اشتعال الثورة الجزائرية حيث استحال على العمال الجزائريين العمل تحت لواء الحزب الشيوعى الفرنسى وهكذا قرروا انشاء اتحاد خاص بهم ٠ ولكن بقى تأثير الماركسية ملموسا فى قيادات النقابات الجزائرية . ورغم توجهات بن بللا نحو اليسار فان علاقة الدولة بالاتحاد لم تكن على مايرام حتى الأشهر الأخيرة من عهد بن بللا حينما شعر الأخير بحرج مركزه فأطلق حرية الانتخابات للاتحاد العام لرئاسته حتى يكسب رضاه ٠ وهكذا تم أنتخاب مولود أمزيان فى مارس ١٩٦٥ وقد فكر أمزيان فى اجتذاب المزارعين العاملين فى قطاع التسيير الذاتى باعتبارهم أكثر فئات الزراعيين تهيئا للعمل النقابى غير أن الحكومة بادرت بتعيين موظفين فى لجان القرى والأقاليم وتغلب هؤلاء على فروع الاتحاد القروية ٠ وثبت أن موظفى الاصلاح أقدر على التماسك من الفلاحين غير المدربين على العمل النقابى ٠

تحفظ الاتحاد العام للعمال الجزائريين ازاء النظام الجديد فلم يوضح موقفه من حكومة بومدين لأن الاعتقاد السائد كان هو أنها تمثل العسكريين فى مواجهة جبهة التحرير الاشتراكية ، وبمضى الوقت تبين أن الاتجاه لم يتغير فالتأميمات استمرت ولم يتوقف نظام التسيير الذاتى . ومنذ ٢ يوليو سنة ١٩٦٥ اعلن الاتحاد ترحيبه بمبدأ القيادة الجماعية ضد الحكم الشخصى ولكن الخلافات أستمرت بسبب تشكيل اللجنة العليا ، ومن يكون صاحب السلطة فى تكوينها ؟ وهل تعين بواسطة الحكومة أم تنتخب بواسطة الاتحاد ؟ وبسبب هذه الخلافات عطلت صحف الاتحاد فى سبتمبر سنة ١٩٦٧ . وقد جرت محاولة لايجاد حلقات أتصال بين الاتحاد وبين الحكومة عن طريق تعيين بعض الوزراء مثل الزبيرى والزردنى وزير الشئون الاجتماعية ، بينما عين أحد النقابيين القدامى فى مجلس الوزراء وهو على يحيى الذى صار وزيرا للزراعة وكلف بممارسة البيروقراطية المتفشية فى أجهزة التسيير الذاتى . لكن استمرار وجود الماركسيين فى قيادة الاتحاد كان يثير من حين الى آخر شكوك الحكومة . ومع أن نظام التسيير الذاتى لم يثبت كفاءته فى قطاع الصناعة فقد احتج الماركسيون على اجراءات بلعيد عبد السلام وزير الصناعة الرامية الى نقل التسيير الذاتى لملكية الدولة أو حتى القطاع الخاص .

غير أن التوسع الصناعى والرواج الذى نشأ عن تصاعد ثروة النفط أنعكست آثاره على العمال الفنيين على الأقل وبالتالى فان حدة الصدام بين الاتحاد وبين الدولة أخذت تخف دون أن تتلاشى ، ففى سنة ١٩٧٧ استطاعت النقابات العمالية بواسطة الاضرابات أن تجبر الحكومة على رفع الأجور ٣٠٪ .

أوجدت الثورة الجزائرية الكبرى المناخ المناسب لانفصال الحركة الطلابية الجزائرية وتكوين اتحاد عام للطلبة فى سنة ١٩٥٦ تمكن من الدعوة الى مقاطعة الامتحانات فى الجامعات والمدارس الفرنسية وتنفيذ ذلك القرار . على أن تأثير أحداث فرنسا لم يتوقف بعد الاستقلال فاضرابات الطلبة المشهورة فى باريس فى مايو سنة ١٩٦٨ أنعكست آثارها على طلبة الجزائر فراحوا ينادون بحقهم فى التمثيل فى مجالس الكليات وحرية اختيار رؤساء الاتحادات الطلابية دون تقيد بالدولة أو الحزب . على أن القضية

التى أثارت أكثر من غيرها القلاقل فى الجامعات الجزائرية خلال عهد بومدين فى السبعينات كانت تتعلق بالصراع بين طلاب الأقسام العربية الناشئة بالجامعات الجزائرية وطلاب الأقسام الفرنسية ومع أن بومدين أظهر تحمسا للتعريب (١) فى التعليم والادارة الا ان البلاد كانت بحاجة مستمرة الى المؤهلين لوظائف الفنية ومعظمهم من خريجى الأقسام الفرنسية · ومن هنا بقيت اسباب النزاع قائمة وشهد عهد بومدين اضرابات طلابية على مدى سنوات عديدة وكانت نزعته الاشتراكية تقربه من خريجى الأقسام الفرنسية على حين اتجه خريجو الأقسام العربية الى الارتباط بحركة الاسلام السياسى الناشئة ومن ثم الى المعارضة · وفى خضم الصراع حل بومدين الاتحاد العام للطلاب سنة ١٩٧١ ·

وبينما كانت حركة الاسلام السياسى مازالت فى مرحلتها الجنينية حاول اثنان من قدامى السياسيين احياء المعارضة الليبرالية ضد نظام الحزب الواحد وفى مواجهة حكم بومدين الذى وصف بالشمولية وقد وزع كل من فرحات عباس ويوسف بن خدة منشورات معادية للنظام خلال سنة ١٩٧٥ · ويبدو ان معطيات العالم الثالث فى السبعينات لم تفسح المجال بعد للتيارات الليبرالية ولذلك لم تزد محاولة السياسيين القدامى عن صرخة فى واد ولم يلبث بومدين أن حدد اقامة الرجلين غير أن كل هذه العناصر متجمعة دفعت رئيس الدولة الى التفكير فى ضرورة ايجاد شكل محدد للحكم·

وفى أول خطوة اتخذها بومدين نحو هذا الاتجاه فضل الخطاب الشمولى الذى يستخدم مصطلح الميثاق الوطنى بدلا من النظام الدستورى الذى يحدد علاقة الحاكم بالمحكوم ويقيم المؤسسات التى لاتسمح بطغيان احداها على الأخرى · وهكذا صدر الميثاق الوطنى الجزائرى فى سنة ١٩٧٦ ·

ويبدو أن صدور الميثاق الذى يؤكد على الشخصية الاقليمية للجزائر لم يقنع قسما كبيرا من الرأى العام فيكتب محمد حربى على سبيل المثال يجادل فى افراغ التعددية الثقافية من معناها (٢) ذلك لأن الاعتراف

---

(١) انظر فيما بعد الفصل الخاص بالتعريب والتعليم ·

(٢) السياسة الدولية عدد يناير ١٩٨٠ ·

بشخصية اقليمية للجزائر يقتضى اقرار التعدد اللغوى حيث تنفرد منطقة القبايل بلغة خاصة ، ولكن الرئيس رغم الميثاق الوطنى أغلق الاذاعات المحلية المخصصة للقبايل كما لاحظ الكاتب أن المناصب القيادية تقتصر تقريبا على المستعربين ٠

مهما يكن من امر هذه الحوارات التى لم يشجع نظام بومدين على التوسع فيها خلافا لسلفه ، فان العمل بالميثاق الوطنى لم يدم طويلا وفى العالم التالى حل محله دستور يوضح طبيعة العلاقة بين السلطات فهو ينشىء منصب رئيس الجمهورية وينص على انتخاب مجلس شعبى وبعد أن طرح مشروع الدستور على الاستفتاء أجريت الانتخابات النيابية لمجلس ضم ٢٦١ عضوا ٠ ومثل ماسبقه من مجالس تشريعية لم يظهر للمجلس اثر ملموس فى الحياة السياسية الجزائرية شانه فى ذلك شأن بقية المجالس التى تنتخب فى اطار نظام الحزب الواحد ٠ كذلك جرى استفتاء على شخص رئيس الجمهورية كمرشح وحيد وفاز بومدين بـ ٩٩٪ من أصوات المقترعين٠ ولماذا تختلف الجزائر عن بقية اشقائها العرب فى انتخابات الرئاسة !

وفى سنى حكمه الأخيرة ركز بومدين بين يديه عدة مناصب فجمع بين رئاسة الوزارة ووزارة الدفاع لذا حينما أشتد عليه مرض السرطان فى أواخر ١٩٧٨ تحير المراقبون للشئون الجزائرية فى الاحتمالات التى قد تنجم عن وفاته وهل يمكن أن تؤدى الى تجدد الصراع حول السلطة ويبدو أن فترة الاستقرار التى مرت بها الجزائر لأكثر من عشرة سنوات (١) سهلت انتقال السلطة دون وقوع اضطراب ٠

٤ ـ بن جديد والعودة الى القلاقل :

عند وفاة بومدين كانت هناك ثلاث مؤسسات يمكن أن تلعب دورا فى اختيار خليفته : مجلس قيادة الثورة المكون من ثمانية أعضاء ، الأمانة العامة بجبهة التحرير المكون من خمسة أشخاص ، ثم المؤسسة الشعبية التى لم تنعقد منذ فترة طويلة وأعنى بها المؤتمر العام لحزب جبهة التحرير والذى يتكون من حوالى ٣٠٠٠ عضو وكان يمثل بقدر الأسلوب المتاح من الشكل الديمقراطى حينئذ الأقاليم الخمسة عشر بمختلف وحداتها الادارية الأصغر

---

(١) وقعت آخر قلاقل مسلحة فى سهل المتيجة سنة ١٩٦٨ ٠

وكذلك الاتحادات المهنية · وكان العسكريون ممثلين فى المؤتمر العام تمثيلا قويا بنحو ٦٠٠ عضو . وبفضل تماسك أصواتهم رجحت كفة مرشحهم الشاذلى بن جديد على منافسيه وكان من أبرزهم عبد العزيز بوتفليقة المقرب من بومدين ومحمد صالح يحياوى الأمين العام للحزب الحاكم ورابح بيطاط الوحيد من بين الزعماء التاريخيين التسعة الذى أستمر يشارك فى الحياة العامة اذ رأس المجلس الشعبى الأخير · وكان بن جديد فضلا عن كونه قائد منطقة وهران العسكرية يمثل داخل الحزب الحاكم التيار الوسطى بين صقور جبهة التحرير وبين حمائم الحزب المستعدين لتخفيف قبضة الدولة واضفاء بعض مظاهر الديمقراطية ·

كان الشاذلى فى الخمسين من عمره حينما تم اختياره رئيسا للجمهورية فى ٦ فبراير سنة ١٩٧٩ ، وقد دلت الاجراءات الأولى التى اتخذها على ميل ملحوظ نحو تخفيف القبضة فلم يجمع نفس المناصب التى أحتكرها سلفه وعين رئيسا للوزراء هو أحمد عبد الغنى وأطلق سراح الخصوم السياسيين ومنهم الرئيس الأسبق أحمد بن بللا ، كما خفضت الفترة الرئاسية من ست الى خمس سنوات وتخلى الشاذلى عن بعض السلطات الشخصية التى تمتع بها بومدين · ومن مظاهر التخفيف على الحريات الفردية الغاء تأشيرة الخروج بالنسبة للمواطنين الجزائريين · وفيما يخص تركيب الحزب الحاكم نفسه ادخلت تعديلات ذات طابع ديمقراطى كحق المؤتمر العام فى اختيار المكتب السياسى بعد موافقة اللجنة المركزية ، وعلى مدى بضع سنوات استبعد بن جديد بعض المتشددين من الوزارة والمكتب السياسى مثل عبد العزيز بوتفليقة · وعندما جرت أول انتخابات نيابية فى العهد الجديد احتفظت قيادات جبهة التحرير القديمة بـ ٥٥ مقعدا من ٢٨١ ودخل الى المجلس بعض المستقلين ·

وفى المجال الاقتصادى خفضت ضرائب الدخل كما بدأت محاكمة الموظفين المتهمين بالفساد وكان المؤتمر العام للجبهة الذى أنعقد فى أوائل ١٩٧٩ قد أعترف بالعجز الاقتصادى فأعيد تنظيم الشركات الصناعية الكبرى وقسمت الى وحدات أصغر وذلك حتى تتمشى مع مبدأ تشجيع القطاع الخاص نسبيا . وقد أخذت تظهر الآثار السلبية لمشروعات القطاع العام الطموحة ·

وخلال الثمانينات أخذت الحركات الاسلامية ذات الطابع السياسي تزداد نشاطا وتأثيرا فى المجتمع وسوف نتناول هذا التيار تفصيلا فيما بعد٠ ونكتفى هنا بتسجيل بعض الأزمات التى مر بها نظام بن جديد وهى فى نفس الوقت متصلة بشكل أو بآخر بحركة الاسلام السياسى فقد تكررت اضرابات الطلبة الذين يتعجلون تعريب الادارة والتعليم وأصبح النزاع مثلث الجوانب فهو لايقتصر على الخلاف بين أنصار العربية وأنصار الفرنسية بل أشتدت نزعة القبايل الى الاحتفاظ بثقافتهم ، وفى الجامعة الجديدة التى تأسست فى منطقتهم وهى جامعة تيزى اوزو انشأ قسم اللغة القبايلية كما تأسس كرسى لهذه اللغة فى كلية الآداب بجامعة الجزائر ، غير أن الشاذلى مال الى أنصار التعريب وعين ٦٠٠ قاض ممن يستخدمون العربية فى المحاكمات٠ على أن أشد الأزمات تأثيرا على الاستقرار فى عهد الشاذلى هى تلك المتعلقة بالحياة الاقتصادية ٠

فرغم أن الجزائر تجمع بين امكانيات زراعية ضخمة وبين كونها مصدرا هاما للنفط الا أن تراكم أخطاء السياسة الاقتصادية السابقة أخذ يثقل كاهل الشعب فى الثمانينات ٠ فالثورة الزراعية التى تحمس لها بومدين وأسفرت عن التوسع فى مزارع التسيير الذاتى أدت الى تراجع الانتاج الزراعى مما جعل الجزائر تتجه الى استيراد الكثير من السلع الغذائية ، واذا بها تقف فى نفس الخندق الذى سقطت فيه معظم أقطار العالم الثالث غير النفطية ، فالديون الخارجية وصلت فى الثمانينات الى نفس النسبة التى انتهت اليها مصر اذا ماقيست بعدد السكان فحجم الديون الجزائرية وصل الى ٢٥ مليار دولار مثلما وصل حجم الديون المصرية الى مايزيد على ٥٠ مليار ٠ والبطالة التى استشرت فى المجتمع الجزائرى نتيجة الانفجار السكانى ضربت باطنابها الريف والمدينة على السواء وتسربت أخبار الفساد والاختلاسات التى ارتكبها كبار الموظفين وقادة جبهة التحرير فأسقطت هيبة الحزب الذى برر وجوده تاريخيا بالثورة الكبرى التى تفوقت بها الجزائر على غيرها من المستعمرات ٠

كل هذه العناصر تفاعلت لكى تحدث هبة شعبية لم يسبق لها مثيل منذ استقلال البلاد ، وذلك خلال شهر أكتوبر ١٩٨٨ وقد تركت هذه الثورة الشعبية آثارا عميقة على حياة البلاد خلال عدة سنوات تالية ، وليس من

المهم احصاء عدد القتلى والجرحى الذين اصيبوا فى هذه الاضطرابات فهى تعد بالعشرات والمئات وانما الأهم من ذلك ان رئيس الجمهورية لم ير فى هذه الهبة حركة معادية له بل على العكس وجد فيها فرصة للتغيير كما يتضح من اسلوبه فى معالجة الأزمة • بل يمكن القول أن بن جديد استثمرها لكى يفك حكمه من أسر حزب جبهة التحرير وأن يقيم صلة مباشرة بينه وبين الشعب •

فلم تمض أربعة شهور على ثورة أكتوبر حتى كانت الحكومة قد عدلت الدستور تعديلا جذريا حذف بمقتضاه النص على دور جبهة التحرير فى الحكم وسمح بالتعددية الحزبية واختفت الاشارة الى الاشتراكية • وفى هذا الاطار أقيل شريف مساعديه من أمانة جبهة التحرير وكان يمثل التيار المتشدد فهو مثل الحرس القديم للجبهة يقاوم هذه التوجهات الديمقراطية ، كما أن الجيش انقسم ازاء المتغيرات الناجمة عن حركة أكتوبر فقد قاومها كبار الضباط بينما أيد رئيس الجمهورية معظم صغار الضباط وتأكد أن هناك مصالح خاصة دفعت الحرس القديم من جبهة التحرير لمقاومة المتغيرات ويمكن وصف حركة أكتوبر بأنها ثورة الفقراء الذين يعانون من البؤس والبطالة ومن المفارقات أن تتمخض هذه الثورة عن اضعاف القطاع العام لصالح القطاع الخاص مما يسقط النظرية القائلة بأن تحويل ملكية القطاع الخاص الى الدولة أو القطاع العام هو دائما فى مصلحة الكادحين •

٥ ـ التجربة الديمقراطية وحركة الاسلام السياسى :

ماكاد تعديل الدستور يتم فى فبراير سنة ١٩٨٩ ويأخذ بمبدأ التعددية حتى توالى انشاء أحزاب وصل عددها الى ٢٥ عند اجراء أول انتخابات فى يونيو سنة ١٩٩٠ وهى الانتخابات المحلية التى جرت على مستوى البلديات والأقاليم والقرى •

ومن هذه الأحزاب ماكان له وجود فى بداية عهد الاستقلال ثم وجد زعماؤه الفرصة سانحة لاحيائه مثل جبهة القوى الاشتراكية بزعامة حسين آيت أحمد ومنها ماجد على الساحة السياسية واستفاد من حركة أكتوبر ١٩٨٨ مثل الجبهة الاسلامية للانقاذ التى ضمت مجموعات مختلفة من معتنقى الاسلام السياسى أو المطالبين بانشاء الجمهورية الاسلامية فى

الجزائر ، وقد اندمجت هذه المجموعات اندماجا حقيقيا تحت زعامة عباس مدنى ٠ ومن بين الأحزاب الجديدة التى تعبر عن تيار قديم كان موجـودا غير أنه كبت تحت وطأة نظام الحزب الواحد حزب الثقافة والديمقراطيـة برئاسة سعيد سعدى وهو من نوع تلك الأحزاب الطائفية التى يقتصـر أتباعها على منطقة معينة هى بلاد القبايل فى شمال شرق الجزائر ويدور محور اهتمامها حول ضرورة المحافظة على اللغة المحلية المشتقة من لغـة البربر القديمة ويعارضفرض اللغة العربية على المتكلمين بهذه اللغة وكانـوا يقدرون فى عهد الاستعمار الفرنسى بـ ٢٩٪ غير أن هجرة السكان من الجبال الى المدن خفضت هذه النسبة الى حد كبير ٠

وخلال الفترة الممتدة من تطبيق التعددية وحتى اجراء الانتخابـات المحلية سعى كل فريق الى اظهار قدرته على التعبئة وذلك بتسيير المظاهرات والحشود المضادة فمثلا عندما قامت مظاهرة نسائية للاحتجاج على قانون الأحوال الشخصية المتبع منذ زمن . ردت جبهة الانقاذ الاسلامية بحشد مظاهرة مضادة أشترك فيها عدد أكبر من النساء اللائى يفضلن الالتزام بالتقاليد على حركة التحرر النسائية ٠ ومع قرب الانتخابات المحلية ازدادت عدد هـذه المظاهرات والتى اظهرت أن أكبر قوتين متنافستين هما جبهة الانقاذ الاسلامية وحزب جبهة التحرير الحاكم ٠ أما الانتخابات المحلية نفسها فقد فاجئـت المواطنين والمراقبين من الخارج على السواء حينما فازت جبهة الانقـاذ الاسلامية بـ ٦٠٪ من مقاعد المجالس المحلية على مختلف مستوياتها كمـا سيأتى ذكره بعد قليل ٠

قاطعت كل من جبهة القوى الاشتراكية والحركة الديمقراطية التـى أسسها أحمد بن بللا ، وهو مايزال بعد فى منفاه ، انتخابات المحليات فى يونيو سنة ١٩٩٠ وكأن كل من الزعيميين التاريخيين فضلا عدم التعـرض لاختبار الاقتراع والاحتفاظ بمكانتهما التاريخية وسوف تثبت التطـورات التالية احتفاظ آيت أحمد ببعض النفوذ وذلك بفضل ارتباطه بمنطقة القبايل فحزبه لايعبر عن التيار اليسارى بقدر مايعتمد على تأييد جهة معينة وسوف تأتى الجبهة الاشتراكية فى الانتخابات النيابية فى ديسمبر ١٩٩١ فىالمرتبة الثانية بعد جبهة الانقاذ الاسلامية بفرق شاسع ولكنها على كل حال تقدمت على حزب جبهة التحرير ٠

أما الحركة الديمقراطية بزعامة بن بللا فقد هبطت أسهمها بالتدريج الى أن فضل صاحبها الذوبان فى الجبهة الاسلامية للانقاذ ، وعندما قرر بن بللا العودة من منفاه فى سبتمبر سنة ١٩٩٠ توقع أن يستقبل كبطل باعتباره احد قادة الثورة التسعة التاريخيين وأول رئيس للجمهورية غير أنه فوجىء باستقبال فاتر وزاد من ضعف مركزه تردده بين العمل فى اطار جبهة الانقاذ وبين الاحتفاظ بزعامته للحزب الناشىء . وحينما اختار العمل فى ظل جبهة الانقاذ بمشاركتها الاحتجاج على التحالف الدولى ضد العراق لم يجد له مكانا فى قيادة الحركة التى أستأثر بها عباس مدنى ونائبه على بلحاج .

واذا كانت جبهة التحرير قد كشفت عن بعض الحيوية فى القدرة على تعبئة المظاهرات المضادة لجبهة الانقاذ فان مؤيديها ظلوا يتآكلون منذ أن ظهرت نتائج الانتخابات المحلية ولاغرو فقد تحملت جبهة التحرير أوزار الماضى الطويل الذى أنفردت خلاله بالسلطة نحو ثلاثين عاما وهو ماض مثقل بالأخطاء الفادحة والفساد وسوء الادارة الاقتصادية ، وقد أخذ نظام جبهة التحرير يعتمد شيئا فشيئا على تدخل القوات المسلحة وتقل قدرته على التعبئة . وقد استخدم الشاذلى القوات المسلحة فى تهدئة انتفاضة الجماهير فى أكتوبر ١٩٨٨ ثم توسع فى استخدام الجيش خلال المظاهرات التى حشدتها الجبهة الاسلامية للانقاذ عندما أقترب موعد الانتخابات النيابية اذ احتجت هذه الأخيرة على طريقة توزيع الدوائر كما طالبت باجراء انتخابات رئاسية مسبقة .

أسفرت مظاهرات جبهة الانقاذ الأحتجاجية الدامية فى أواخر مايو وأوائل يونيو ١٩٩١ عن وقوع عدد آخر من القتلى والجرحى مما كان له أثر بعيد على تطور الأحداث التالية فقد أجلت الانتخابات من يونيو الى ديسمبر ١٩٩١ والأهم من ذلك اعلان حالة الطوارىء والقبض على مدنى وبلحاج ويبدو أن رئيس الجمهورية فضل فى هذه الظروف أن ينأى بنفسه عن الصراع فاستقال بن جديد من قيادة جبهة التحرير ولأول مرة اختار رئيس وزراء من بين الساسة المستقلين هو سيد أحمد غزالى داعية الاقتصاد الحر . وبهذه الاجراءات صارت جبهة التحرير الحزب العتيق على نفس مستوى الأحزاب السياسية الأخرى من حيث فقدان السيطرة على الحكم وان احتفظت بامكانياتها المادية الموروثة منذ عهدها الطويل بالسلطة .

لم تفد هذه الامتيازات فى معركة الانتخابات النيابية التى جرت فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٩١ . وكانت المفاجئة فى أن تحصـــل جبهة الانقـــاذ الاسلامية على عدد من المقاعد يفوق ماتوقعه لها أنصارها أنفسهم ففى هذه المرحلة الأولى من الانتخابات حصلت جبهة الانقاذ على ١٨٨ مقعدا من ٢٢٨. بينما جاءت جبهة التحرير فى المرتبة الثالثة بالحصول على ١٦ مقعـــدا فقط (١) بعد جبهة القوى الاشتراكية . معنى ذلك أنه حينما تجرى المرحلة الثانية من الانتخابات فى أوائل يناير ١٩٩٢ لملأ المقاعد المتبقية من مجموع عدد المجلس وهو ٤٣٠ يغدو من المؤكد حصول جبهة الانقاذ على أكثر من الثلثين مما يتيح لها القدرة علـى تعـديل الدسـتور ومن ثم اقامة الدولـة الدينية لتحل محل الدولة المدنية .

لماذا قدم بن جديد استقالته من رئاسة الجمهورية بعد ظهور نتائـج المرحلة الأولى ؟ هناك من يرى أنه شعر بالعجز عن مواجهة الآزمة وهناك من يؤكد أن بن جديد أجبر على الاستقالة بضغط من المؤسسة العسكرية . ويعرف عن هذه القوات الجزائرية تبعيتها لقيادة جماعية على رأسها خالد مزار وزير الدفاع ويقال أن ١٨١ من الضباط الذين يرفضون قيام حكومة ثيوقراطية (دينية) اجتمعوا وقرروا أبعـاد بن جديد عن السلطة لأنه كان مستعدا بأن تتم الانتخابات النيابية حسب ماهو مقرر ومهما كانت نتائجها. ولاشك أن الحرس القديم لجبهة التحرير الذى كانت له مصلحة فى بقاء النظام السابق قد صار عاجزا عن حل هذه الأزمة فلم تكن هناك سوى القـــوات المسلحة القادرة على حسم الأمور .

وقد خلفت استقالة بن جديد المفاجئة فراغا دستوريا ، فالمجلس الشعبى قد حل من قبل ولو كان المجلس باقيا حتى هذه اللحظة لحل رئيسه تلقائيا فى سدة الرئاسة محل بن جديد حسب ماينص عليه الدستور . ومن هنـــا تعرضت البلاد لأزمة دستورية مما تطلب اجتماع المجلس الدستورى الجزائرى برئاسة عبد المالك بن حبليس والذى أختير مؤقتا لكى يرأس لجنة أمن عام استحدثت لملأ الفراغ الدستورى وهى تضم وزير الدفاع والداخلية وبعض

---

(١) الصراع على الجزائر شيوخ وجنرالات . فريق من الخبراء العرب . ص ٥٤ وما بعدها .

العسكريين وقد انبثق عنها لجنة مصغرة خماسية جمعت بين يديها مطلق السلطات فهى تذكرنا بالديركتوار الذى حكم فرنسا من عام ١٧٩٥ الى ١٧٩٩ ليقضى على الفوضى التى أحدثتها الثورة الفرنسية وكان يتمتع بسلطات مطلقة ويتكون من خمسة أشخاص ٠

ويبدو أن خالد نزار الذى أصبح فعليا أقوى شخصية فى البلاد كان يفضل البعد عن الأضواء ومن ثم لم ينصب نفسه رئيسا للمجلس الأعلى الجديد للدولة وفجأة تذكر القادة الجدد أحد الزعماء التسعة التاريخيين هو محمد بوضياف وكان قد أختلف مع بن بللا فى سنة ١٩٦٤ وحكم عليه بالاعدام فبقى منفيا بالمغرب الى أن أستدعى فى يناير ١٩٩٢ لرئاسة المجلس الأعلى طبقا لمبدأ القيادة الجماعية الذى أستمر بعد مصرع بوضياف فى يونيو التالى ٠

ومرة اخرى لم يتقدم خالد نزار للرئاسة بل جيىء بشخصية من قدامى المحاربين الذين لم تسلط عليهم الأدوار من قبل وهو على كافى لكى يترأس المجلس الأعلى للدولة ٠ أما فيما يتعلق بمصرع بوضياف فقد تراوحت الاتهامات بين قائل بأن أحد المتطرفين الدينيين هو الذى أرتكب حادث الاغتيال وبين من ألقى التبعة على المسئولين عن فترة الحكم السابقة الذين خشوا من أن يكشف بوضياف جرائم الفساد المالى والاختلاسات التى تنسب الى شخصيات معروفة فى العهد السابق ٠

وخلال هذه الفترة أتخذ المجلس الأعلى للدولة قرارات حاسمة كان لها أبعد الأثر فيما بعد وقد أعاد اعلان الطوارىء وحل جميع الأحزاب بما فى ذلك جبهة الانقاذ الاسلامية ٠ وهكذا انتهت تجربة الديمقراطية القائمة على تعدد الأحزاب بالاخفاق لأن البلاد صارت مخيرة بين أمرين اما قبول الحكم العسكرى مطلق السلطات أو الخضوع لنتائج الانتخابات واقامة الجمهورية الاسلامية التى لاتعترف بالديمقراطية بل بما تسميه الشورى وتفسره حسب الظروف ٠ وغالبا ماتعنى الشورى استشارة رئيس الدولة لأهل الحل والعقد فيما اذا كانت قراراته أو تشريعاته تطابق أحكام الشريعة أم لا ٠



تأخرت حركة الاسلام السياسى نسبيا فى الجزائر بالقياس الى تونس على سبيل المثال الا أنها عوضت هذا التأخير بالصعود على شكل طفرة فى الثمانينات تجلت فى انتفاضة أكتوبر ١٩٨٨ ثم فى الانتخابات المحلية والبرلمانية التى تلتها ٠ ويعود بروز التيار الاسلامى الى عوامل خارجية وداخلية ولاشك ان لحركة الاخوان المسلمين المصرية أثر بعيد فى دفع الاسلام السياسى الجزائرى الى الأمام فكثير من المدرسين المصريين الذين أوفدوا الى الجزائر كانوا مشتغلين بتدريس اللغة العربية للمساعدة فى حركة التعريب وهؤلاء فى معظمهم اما اعضاء فى جماعة الاخوان المسلمين أو متعاطفون معها ٠ كذلك تردد صدى حركة النهضة التونسية على نمو الاسلام السياسى بالجزائر عبر حدود متشابكة وحركة ثقافية متبادلة والجدير بالملاحظة أن المؤثرات الخارجية تزامنت مع تحول حركة الاخوان المسلمين فى مصر عن الاعتدال وخروج جماعات متطرفة جديدة من عباءة الاخوان المسلمين لتقود حركة الاسلام السياسى فى مصر ٠ ومن ثم تحولت الحركة فى الجزائر الى أسلوب العنف بعد فترة قصيرة من اتباع الوعظ والارشاد ٠

وترتبط المؤثرات المحلية بالخصوصيات التاريخية والثقافية الجزائرية فمن خلال البحث عن هوية ابان الأستعمار الفرنسى الذى حاول طمس الشخصية الجزائرية أهتم المفكرون باحياء الشخصية العربية والاسلامية كرد فعل على أساليب هذا الأستعمار ، وأدت جمعية العلماء (١) التى أسسها بن باديس فى الثلاثينيات هذا الدور على خير وجه ٠ وخلال الثورة الكبرى أنضم بعض العلماء كأفراد الى جبهة التحرير غير أن الطابع الغالب على الثورة كان اشتراكيا يستمد أفكاره وأسلوب تنظيماته من الثقافة اليسارية الفرنسية ومن أسلوب حرب العصابات الذى أختبره الجزائريون من خلال حروبهم فى الهند الصينية كمجندين فى الجيش الفرنسى ٠ وابان انفراد جبهة التحرير بالحكم على عهد بن بللا وبومدين كان معظم الحوار يدور مع الماركسيين ومدى اتفاق ايدلوجية الجبهة أو اختلافها مع الاشتراكية العلمية وكثيرا ما ألح انصار الجبهة الى أن من أهم أوجه الاختلاف التمسك بالقيم الروحية الاسلامية وهو نفس المنطق الذى ساد فى مصر على عهد عبد الناصر ٠

---

(١) انظر الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب ٠

لم يعد لجمعية العلماء دور فى الجمهورية الناشئة واتجه المثقفـــون ثقافة تقليدية اسلامية الى تكوين جمعيات جديدة يقتصر نشاطها على الجانب الدينى مع ترسيخ الثقافة العربية . ومن أقدم هذه الجمعيات جمعية القيـم التى تكونت سنة ١٩٦٤ ولم تلتف اليها الدولة طالما كان نشاطها محصـورا فى شئون الدين والثقافة ، ومع ذلك لم يخل نشاطها من بعض الرمـــــوز السياسية • فعندما أعدم السيد قطب فى مصر سنة ١٩٦٦ أرسلت الجمعية برقية احتجاج الى القاهرة ولم يخف أحد قادتها هاشم التيجانى تأثره بحسن البناء وسيد قطب والأفغانى • وقد شرعت الدولة فى التنبه الى خطورة المعارضة الاسلامية فى السبعينات فقد أصدرت هذه الجمعية فتوى بتحريم الصلاة فى الأراضى المؤممة كرمز احتجاجى على الثورة الزراعية «الشعار المفضل عند بومدين » • ونشر أحد المثقفين الاسلاميين عبد اللطيف سلطانى سنة ١٩٧٤ كتابا بعنوان المزدكية مصدر الاشتراكية • والمزدكية مذهـب فوضوىقديم ظهر فى فارس ودخل أصحابه فى خصومة جدلية مع الاسلام وكان سلطانى أراد أن يحتج على اجراءات بومدين الاشتراكية باعتبارها مخالفة للاسلام •

وكما حدث فى مصر شكلت المساجد الأهلية أفضل بيئة لانتشار فكر الاسلام السياسى • وقبل أن يبرز مسجد القبة كمنبر لعباس مدنى كان مسجد بيت الأرقم هو المكان الذى أنطلقت منه خطب الدودى محمد عبد الهادى وهو مثل غيره من أتباع التيار الاسلامى تلقى دراسته فى مصر • وقد أعتقل الدودى مع محفوظ نحناح فى أوائل الثمانينات لانتقادهما الشديد لأسلوب تطبيق الثورة الزراعية •

غير أن مظاهر جديدة دخلت فى هذه الحقبة على حركة الاســـلام السياسى ومنها استخدام القوة بواسطة مغامرين من غير أصحاب الفكـر الدينى المتفقة فى الأمور فمصطفى بويعلى الذى هو فى نفس الوقت صهر الدودى كان كهربائيا الا أنه تطوع لشن الغارات على الحانات وتحطيمهـا ونجد عمليات مماثلة تقع بعيدا فى الواحات الجنوبية فيستولى ثلاثـون من المسلحين على مسجد كبير بالأغواط لنشر الأفكار الجهادية المعادية للدولة• وبينما اليسار هو الذى يقود معظم مظاهرات الجامعـــات فى الستينـات

والسبعينات بات الاسلاميون هم الذين يتصدرون العمل الطلابى فى الثمانينات ٠

ويبدو أن أسلوب الشاذلى خاصة بعد أحداث أكتوبر ١٩٨٨ أستهدف امتصاص غضب جماعات الاسلام السياسى وتهدئتهم ببعض الاجراءات التى قد تلين موقفهم فأختار أحد الاسلاميين المعروفين فى مصر وهو الشيخ محمد الغزالى وعينه رئيسا لجامعة قسنطينة التى هى من أهم معاقل التيار الاسلامى وجعل العطلة الرسمية يوم الجمعة بدلا من الأحد خلافا لما هو عليه الحال فى تونس والمغرب كما توسع فى بناء المساجد الرسمية على أمل تهميش دور المساجد الأهلية ، وكان لدى الرئيس استعداد ما لادخال جبهة الانقاذ الاسلامى ضمن الحركات المشروعة التى يمكن أن تتعاون مع الدولة غير أن قدرة زعمائها على اجتذاب الجماهير وضعت الشاذلى فى موقف حرج وكان نجم عباس مدنى قد أخذ يعلو على الساحة الجزائرية (١) ٠

وزعيم الجبهة الاسلامية للانقاذ هو من مواليد سنة ١٩٤١ بدأ عمله العام بالانضمام الى لجان الثورة الكبرى ضد الفرنسيين فقبض عليه بعد اندلاعها بقليل ٠ قد درس مدنى بجامعة الجزائر وتخصص فى مادة التربية وحصل على الدكتوراة فى هذا الفرع من جامعة لندن ، أما ميوله الاسلامية فقد اتضحت من خلال الالتحاق بجمعية القيم ثم معارضته للميثاق الوطنى الذى أصدره بومدين كبرنامج اشتراكى لحكومته ، وقد اختار مدنى مسجد القبة الواقع وسط الأحياء الشعبية بالعاصمة ليكون مجال دعوته لاقامة دولة اسلامية وتطبيق الشريعة المقدسة (٢) ولقى استجابة واسعة ٠ ومن الواضح انه كان أكثر تفتحا من نائبه على بلحاج السلفى المتزمت والذى كان أكثر تشددا فى اثارة الجماهير ضد الدولة ٠ وقد أنتهى الرجلان الى الاعتقال فى خضم مظاهرات يونيو ١٩٩١ ثم قدم مدنى للمحاكمة وصدر عليه حكم بالسجن مدة ١٢ عاما بعد استيلاء العسكريين على السلطة سنة ١٩٩٢ ٠

كانت جبهة الانقاذ الاسلامية ائتلافا بين جماعات جهادية وأخرى

(١) فرانسوا بورجا : الاسلام السياسى فى شمال افريقيا ٠ الفصل السادس ٠

(٢) نظر برنامج جبهة لانقاذ فى الصراع على الجزئر شيوخ وجنزالات صفحة ١٦٠ وما بعدها ٠

معتدلة وفى الانتخابات المحلية التى جرت فى يونيو ١٩٩٠ سيطرت جبهة الانقاذ على ٨٥٣ مجلس قروى من مجموع ١٥٥١ وعلى ٣٢ مجلس أقليمى من مجموع ٤٨ كما أستاثرت بالفوز فى المجالس البلدية بالعاصمة ٠ وخلال السنتين اللتين قضتهما الجبهة فى ادارة المجالس المحلية أقتصرت انجازاتها على اجراءات رمزية مثل اغلاق الحانات ومنع الاختلاط فى المسابح الى أخره، مما جعل بعض المراقبين يعتقدون بأن عجز الجبهة عن معالجة المشكـــلات الهامة قد يضعف مؤيديها فى الاختبار الأكبر الا وهو الانتخابات النيابية ٠ ومن جهة اخرى حاولت الحكومة بث الفرقة بين صفوف الجبهة وفى سنة ١٩٩١ انشق عليها محفوظ نحناح الذى أسس حركة المجتمع الاسلامى (حماس) وأعترفت الحكومة بهذه الحركة انتقاما من جبهة الانقاذ وقد فشلت المناورة أولا لأن انشقاق حماس لم يؤثر فى قدرة جبهة الانقاذ العالية على الحشد وثانيا لأن الحكومة الجزائرية رفضت مكافأة نحناح باشراكه فى السلطة ، وكثيرا ماكانت جبهة الانقاذ تؤكد وجودها بالحث على الاضطرابات وكانت تجد استجابة واسعة كما حدث بين عمال النفط الذين اضربوا وكبدوا الدولة خسائر فادحة ٠

ويمكن تفسير اكتساح الجبهة للانتخابات النيابية بأحد أمرين : فاما أن تكون أخبار الفساد وسوء الادارة التى لازمت جبهة التحرير مدة ثلاثين سنة قد جعلت المواطنين يصوتون لجبهة الانقاذ حتى وان لم يكونوا مـــن أنصارها المسجلين ٠ وأما أن نسبة الممتنعين عن التصويت كانت عاليـــة وهو أمر شائع فى انتخابات البلاد العربية الأخرى التى توجد بها حركـات مشابهة بحيث تقتصر القدرة على الحشد والتعبئة على حركات الاســـلام السياسى ٠

وفى تقديرنا أن الصراع الذى نتج عن الغاء الانتخابات قبل أن تكتمل وعن تعطيل الحياة السياسية واخضاع البلاد لحكم الطوارىء وانتشـــار حالات منع التجول كل ذلك أدخل الجزائر فى فترة من المواجهة المسلحة بين السلطة المؤيدة من الجيش وبين المقاومة المسلحة على الطرف الآخر التـى تقودها جبهة الانقاذ وربما تكون الجبهة قد ورثت عن الثورة الجزائريـــة الكبرى قدرتها على حرب العصابات ولذلك لا تقارن حركة الاسلام السياسى فى الجزائر أمنيا بمثيلاتها فى مصر ، كما لايقارن الصراع بين الجبهـــة

والحكومة فى الجزائر بالخلاف الحزبى لأن الأمر يتعلق هنا بالاختلاف عميق الجذور بين فكرة الدولة المدنية الحديثة أو الدولة الدينية التى تسعى الى تغييرات جذرية فى المجتمع والنظام السياسى والاقتصادى بل قد يمتد هذا التغيير الى مجالات أخرى حسب ماعبر عنه عبد القادر حشانى أحد أعمدة الجبهة بقوله انه ينبغى على الجزائريين ان يغيروا عاداتهم فى المأكل والملبس ٠

لقد دعا المعتدلون من الفريقين الحكومة والمعارضة الى حل المأزق بالحوار غير أن تصاعد العنف باضطراد والذى أودى بحياة ٦٠٠ فرد خلال السنة الأولى من الصراع حسب الاحصاءات الحكومية جعل الكلمة العليا للمتشددين وخاصة فى دوائر جبهة الانقاذ التى أطلقت على مقاومتها المسلحة للسلطة وصف الجهاد ٠

الفصـل الحـادى والعشرون

المتغيرات الاقتصادية وانعكاساتها على العلاقات الخارجية

ان الصلة بين الاقتصاد والعلاقات الخارجية تتضح بصورة كافية فى تطور تاريخ الجزائر بعد الاستقلال بحيث تدعونا الى الجمع بين العنصرين فى فصل واحد ٠ فقد مرت الجزائر بفترات من التبعية الاقتصادية تلتها مرحلـة من الأزدهار النسبى وأنتهت بالعودة الى حالة التبعية الاقتصادية بحيث لم لتميز عن غيرها من أقطار العالم الثالث ٠

١ ـ العامل الاقتصادى :

اذا كان من السهل اعلان الاستقلال فى تاريخ محدد . فيكاد يكون من المتعذر أن يواكب هذا الاعلان استقلال اقتصادى وخاصة فى مثل ظروف الجزائر التى عاشت فترة طويلة مندمجة فى الاقتصاد الفرنسى ، وفضلا عن ذلك فقد انهكتها حرب التحرير الطويلة ٠ ولما شعر المستوطنون بحتمية الاستقلال كون بعضهم الجيش السرى الذى تعمد تخريب الاقتصاد الجزائرى بينما أسرع آخرون الى نقل رءوس أموالهم المستثمرة خارج البلاد ، واقبل الملاك الزراعيون على بيع أراضيهم بأسعار منخفضة فتهافتت على شرائها البرجوازية ووقعت مضاربات على الأرض مما أدى الى تحقيق أرباح سـريعة وخشى مستغلو الفرص من أن تتعقبهم الحكومة الوطنية فهربوا بدورهم أموالهم الى الخارج ٠

ومما زاد الأمر تعقيدا أن الادارة الاستعمارية لم تفعل شيئا من أجـل تكوين اطارات قادرة على تحمل أعباء الادارة والانتاج مما أضطر البـلاد الى طلب المعونة الفنية من الخارج ولاسـيما فرنسا بحكم سهولة الاتصال اللغوى والجغرافى ، وكان المستوطنون قد توسعوا فى زراعـة الكروم ، وخاصة عندما وقعت أزمة فى هذه السلعة بسبب انتشار آفة زراعية فى جنوب فرنسا فلما انقضت تلك الأزمة استمرت فرنسا تشتـرى انتـاج المستوطنين من الكروم لمساعدتهم رغم كفاية حاجتها لصناعة النبيذ ٠ وبعد الاستقلال واجهت الجزائر ازمة فى تصريف محصولها من الكروم ٠ ممـا

أضطرها الى أن تطالب فرنسا بشراء حد أدنى سنويا • وفى السنة الأولى من الاستقلال كان النبيذ يشكل ٥٠٪ من مجموع صادرات الجزائر . وبفضل اكتشاف النفط ظل يتضاءل حتى أصبح النبيذ يحتل مـــركزا ثانويا فى الصادرات الجزائرية •

ومع ذلك فقد استخدمت فرنسا مسألة شراء النبيذ كأداة من أدوات الضغط الاقتصادى على الجزائر واعتبرته نوعا من انواع المساعدة ، لذا اتجه تفكير الحكومة الجزائرية الى تحويل مزارع الكروم لمحصول آخر حتى ولو ادى ذلك الى حرمان الأرض من الانتاج فترة من الوقت ، ثم انصرفت مؤقتا عن هذا التفكير حينما وجدت سوقا جديدة فى الاتحاد السوفييتى الذى تعاقد على شراء ٥ مليون هيكتولتر سنويا •

اتخذت المعونات الفرنسية أشكالا متنوعة : (١)

أولا ـ أستثمارات حكومية أو تابعة للرأسمال الخاص لاقامة المشروعات العمرانية • ثانيا ـ سد العجز فى الميزانية بتقديم مساعدات مالية محضة• ثالثا : معونة فنية على شكل تقديم موظفين يتلقون مرتباتهم من الحكومة الفرنسية لأداء أعمال فنية فى قطـــاعات مختلفة من الادارة والانتـــاج والخدمات •

أما بخصوص الاستثمارات فقد نصت معاهدة ايفيان على أن تستمر على نفس المستوى الذى كـان قائما فى سنة ١٩٦٢ والذى حدث هو تغير فى طبيعة هذه الاستثمارات تكلفت الدولة الفرنسية بالجزء الأكبر منهـا وحلت محل القطاع الخاص دون أن يتأثر حجمها بصفة عامة • ومن المفهوم أن تلك الاستثمارات تعود بالفائدة على الدولة المستثمرة بقدر ماتفيد القطر النامى . بل قد تكون فائدتها أعظم بالنسبة للرأسمال الأجنبى كما هو الحال فى قطاع البترول مثلا • وكانت الاستثمارات الأجنبية تكاد تكون مقصورة على الفرنسيين باستثناء البترول كما سنشير الى ذلك فيما بعد ، لـــذا شجعت الجزائر الاستثمارات الأجنبية الأخرى أمريكية وبريطانية والمانية

1. Perroux : Problèmes de l'Algérie Independante.

غربية ، وقد فتح الباب منذ سنة ١٩٦٨ للشركات الأمريكية للتنقيب عن البترول بينما تولت الكتلة الشرقية الاشتراكية اقامة عديد من المشروعات.

واشتركت أكثر من دولة شرقية وغربية فى أكبر مشروع صناعى بالجزائر وهو مركب حديد الحجار قرب عنابة بينما تولت شركة رينو الفرنسية تأسيس فرع لها لانتاج السيارات والجرارات ، وقامت ألمانيا الغربية ببناء مصنع كبير فى قسنطينة ينتج حوالى ١٠٫٠٠٠ جرار سنويا . ومن بين الأهداف التى تسعى وراءها الدول الغربية بهذه الاستثمارات ربط النظام الصناعى فى الأقطار النامية بوسائلها الفنية بحيث يألف المهندسون الوطنيون نظاما معينا من نظم الانتاج وبذا يستمر الارتباط بهذه الصناعة أو تلك .

اما المساعدات المالية المحضة فقد أوجد الحاجة اليها العجز فىالميزان التجارى . ويرجع ذلك العجز الى العهد الاستعمارى حينما كان المستوطنون يستوردون سلعا استهلاكية لاشباع حاجاتهم الى حياة الترف ، بينما تقتصر صادرات الجزائر على المنتجات الزراعية ، وقد أخذ الميزان التجارى يتعادل بالتدريج حتى تحول لصالح الجزائر ابتداء من سنة ١٩٦٧ نتيجة تصدير النفط ، وبقيت فرنسا هى أكبر عميل فى تجارة الجزائر الخارجية ولو أن حجم التبادل تناقص بالتدريج . ومن الواضح أن استيراد النفط هو الذى حول الميزان التجارى بين البلدين لصالح الجزائر وقبل أن تتوسع البلاد فى انتاج النفط كانت المعونة المالية الفرنسية تشكل جزءا أساسيا فى الميزانية الجزائرية . وكان تعويض العجز فى هذه الميزانية مألوفا طوال العهد الاستعمارى ويعتبر بمثابة مساعدة للمستوطنين . أما بعد الاستقلال فقد استمرت فرنسا فى تقديم المعونة مقابل الامتيازات التى تتمتع بها . ومع ذلك فقد تعرضت فى أكثر من مناسبة لانتقاد النواب فى الجمعية الوطنية الفرنسية فأشار بعضهم أنه يجب أن تقتطع منها التعويضات عن الأملاك التى أممتها الجزائر نتيجة مغادرة المستوطنين للبلاد ، كما دعا نواب آخرون الى التقليل من حجمها أو قطعها لأن الجزائر أممت بعض الفنادق والشركات الصغيرة ، غير أن ديجول رفض استخدام هذا الاسلوب للضغط على الحكومة الجزائرية .

وخلال أزمة الطاقة تمكنت الجزائر من الاستغناء

عن المساعدات المالية البحتة الا أنها عادت فى الثمانينات لتقع فى حبائل الديون لسد عجز ميزانيتها أو لسوء ادارة الاقتصاد كما مر بنا مما أثر على علاقاتها بالولايات المتحدة وغرب أوربا وأفقدها المكانة الدولية التـى تمتعت بها فى السبعينات وأوائل الثمانينات ٠

وكانت الدولة الاشتراكية تفضل تقديم الخبرات والمعونات الفنية أكثر من المساعدات المالية المحضة ، ومع ذلك فقد وصلت المعونات السوفيتية قبل التوسع فى استغلال النفط ٣٧ مليون جنيه استرلينى ، كذلك قدمت مصر والكويت مساعدات بين عامى ٦٣ ، ١٩٦٥ ٠ وفى السنوات الأولى أخذت الحكومة الجزائرية بخطط سنوية تجريبية ، كان نصيب الصناعة فى تلك الخطط لايزيد عن ٢٥٪ مقابل ٣٢٪ للزراعة ، ثم انعكست الآية وهبط نصيب الزراعة الى ١٥٪ بينما صارت الصناعة تحتل الأولوية وخاصة فى الخطـة الرباعيـــة ٠

ان افتقاد الرأسمالية الوطنية المشتغلة فى قطاع الصناعة القى على الدولة عبء تأسيس الصناعة نفسها فى الأقطار النامية . ونتج عن ذلك أن الصناعة نشأت أصلا فى ظل القطاع العام ، وعلى العكس كانت الاجراءات الأشتراكية فى قطاع الزراعة هى أبرز معالم التطبيق الاشتراكى فى الدول النامية فقد رأت بعض الأقطار العربية أن تحدد الملكية وتوزع الأرض على الفلاحين ليتملكوها ملكية فردية ٠ أما الجزائر فقد تميزت بنظام التسيير الذاتى او المزارع الجماعية قريبة الشبة من الكلخوزات السوفيتية ، ولم تصدر الجزائر قانونا يعين حدا للملكية الزراعية نظرا لتفاوت القـــدرة الانتاجية تفاوتا هائلا من مكان لآخر . لذلك انصب التحديد على الدخـل الذى يحصل عليه المالك وهو يتراوح بين ٢٠٠ جنيه فى الشهر ، و٣٠٠ لمن له أسرة ٠

بلغ التوسع فى التسيير الذاتى ذروته فى السبعينات على عهد بومدين بيد أنه على المدى البعيد تكشفت أخطاء هذا النظام فهو من جهة لم يستوعب سوى نسبة محددة من العاملين وبقيت مشكلة البطالة فى الريف تدفع للهجرة نحو المدينة ٠ ومن جهة أخرى تناقص حجم الانتاج الزراعى خاصة وأن التسيير الذاتى انتهى عمليا الى اخضاع المزارع لادارة الدولة بواســطة

موظفيها ولم يحدث الأثر المرجو منه وهو تكوين طبقة من الفلاحين العاملين فى اطار اشتراكى ٠

وقد شهدت الثمانينات تراجعا فى نظام التسيير الذاتى وفى القطاع العام الصناعى لاسيما وأن البلاد أخذت تعانى من نقص المواد الغذائيــة ويزداد الاستيراد من الخارج وتنشر أخبار الفساد الادارى وتسارع هــذا التراجع بعد انتفاضة أكتوبر ١٩٨٨ التى أدت الى صدور دستور جديد حذف كلمة الاشتراكية فى وصف نظام الدولة ٠ ولم يغن النفط عن سد العجــز الاقتصادى واستمرت الجزائر مثل غيرها من دول شمال أفريقيا منطقة طرد لليد العاملة مما دعا بالحاجة الى عقد اتفاقات مع السوق الأوربية المشتركة لتنظيم هجرة العمال الجزائريين والحقوق التى يمكنهم الحصول عليهــا فى الاقامة والالتحاق بالنقابات ٠

واذا كان نظام التسيير الذاتى قد أدى الى تناقص الانتاج الزراعى فان المشروعات الصناعية الطموحة كانت مصدرا هى الأخرى لتراكم الأخطاء والتى لم تظهر آثارها جلية الا فى اواخر الثمانينات ٠ وقد أنشأت الحكومة الجزائرية وخاصة فى عهد تولى بلعيد عبد السلام وزارة الصناعة مشروعات صناعية طموحه لم تتوافر لها الامكانيات الكافية للتمويل فاذا أضفنا الــى ذلك نقص الكفاءات فى الادارة المالية فان مآل هذه المشروعات أنتهى الى تحقيق خسائر كبيرة مما زاد حاجة الجزائر الى الاستدانة رغم تزايد دخل النفط كما جاءت الطفرة السكانية لتزيد من الأعباء الاقتصادية فبينما كان عدد السكان عند الحصول على الاستقلال ٧ مليون وصل الى ٢٥ خلال ثلاثين عاما أى فى سنة ١٩٩٢ هذا فى الوقت الذى أخذت فيه المصالح المالية الأوربية والفرنسية على وجه الخصوص تتردد فى اقراض الجزائر لعــدم الاطمئنان الى مستقبلها بعدما دخلت فى دائرة العنف مع الجبهة الاسلامية للانقاذ ٠

٢ _ النفط

بدأت أعمال التنقيب بصورة جدية فى الصحراء الكبرى خلال عــام ١٩٥٤ أى فى نفس السنة التى اندلعت فيها الثورة ٠ ولم تسفر الأعمــال الأولية عن نتائج مشجعة اذ اقتصرت الاكتشافات على حقول للغاز الطبيعى

فى منطقة عين صلاح البعيدة عن الساحل · ولم يكن استخدام الغاز الطبيعى شائعا حينذاك فى الدول الصناعية ·

وفى سنة ١٩٥٦ تم اكتشاف أول حقل هام للنفط فى عجيلة وثبت امكان استغلاله بكميات تجارية · وبقيت مشكلة توصيل هذه الحقول بالبحر فالحقل الجديد يقع قرب الحدود بين الجزائر وليبيا ، وساحل تونس الجنوبى هو أقرب منفذ للحقل الجديد من الشواطىء الجزائرية · هكذا تم مد خط الأنابيب الأول عبر الأراضى التونسية لكى ينتهى عند خليج قابس (أكتوبر سنة ١٩٦٠) ·

وقبل ذلك بعام واحد كان قد تحقق أهم الاكتشافات فى الصحراء الكبرى وهى آبار حاسى مسعود التى وصلت بخط أنابيب ينتهى عند ميناء بجاية · وبدأ تصدير النفط من هذا الميناء قبل الاستقلال فى سنة ١٩٦١ ·

وحسب عرف اللاتين تعتبر الثروة الطبيعية الموجودة تحت سطح الأرض ملكا عاما بخلاف النظام الأنجلو سكسونى الذى يلحق الثروة الباطنية بالملكية الخاصة الموزعة فوق سطح الأرض · وعلى ذلك اعتبر نفط الصحراء ملكا للدولة الفرنسية صاحبة السيادة · وبناء عليه صارت صاحبة الحق فى منح الامتيازات · وقد منحت التراخيص الأولى لأربع شركات حددت لكل منها مساحة ٥٠٫٠٠٠ كم بالتساوى ونالت الشركة الفرنسية للبترول التابعة للدولة (c.f.p.) مجموع الأسهم فى شركتين بينما دخلت شركة شل الانجليزية الهولندية كأقلية فى أثنتين من هذه الشركات · ولم تزد أسهمها عن ٢٥٪ ويلاحظ استبعاد الشركات الأمريكية من عقود الامتياز الأولى فى الصحراء الكبرى · وربما يرجع ذلك الى عدم ثقة فرنسا فى السياسة الأمريكية ازاء شمال أفريقيا ، اذ راجت شائعات بأن الولايات المتحدة تشجع استقلال دول المغرب لكى تسيطر عليها اقتصاديا فيما بعد ·

اتبعت فرنسا النظام الشائع منذ أول الخمسينات فى الشرق الأوسط ، والذى يقضى بتخصيص ٥٠٪ للشركة صاحبة الامتياز ، ٥٠٪ للدولة المنتجة· ومع أن الدولة المنتجة اعتبرت ههنا هى فرنسا فقد تعهدت باستخدام نصيبها من الأرباح لتطوير الجزائر والصحراء ولما كنا قد أشرنا الى العجز المستديم فى ميزانية الجزائر بسبب النظام الاستعمارى ، فمن الراجح

أن يكون القصد من هذا التعهد ، هو التخفف من أعباء سد العجز فى ميزانية الجزائر ٠ وتقرر أن يحتسب سعر النفط حسب الأسواق العالمية ٠

ثبتت اتفاقات ايفيان هذه الامتيازات على أساس أن ترث الحكومة الجزائرية الجديدة حقوق الدولة الفرنسية كسلطة مانحة للامتيازات وفضلا عن ذلك تتعهد الجزائر بمنح الشركات الفرنسية الأولوية عند عقد امتيازات جديدة اذا تساوت العروض ، وذلك خلال ست سنوات ٠ كذلك أخذت اتفاقيات ايفيان بنظام مناصفة الأرباح وهو نظام كانت قد تخطته الدول الأخرى المنتجة فى الشرق الأوسط ٠ فهناك مثلا النظام الذى أدخله ماتى الايطالى بالاشتراك مع الدولة المنتجة بـ ٥٠٪ من رأس المال مما يوفر لها ٧٥٪ من الأرباح ٠

غير أن البنود الخاصة بالنفط كانت مثل بقية أجزاء الاتفاقية تمثل مرحلة انتقالية ، ولم تنتظر الجزائر أكثر من عامين حتى أخذت تدخل تعديلات على نظام استغلال نفطها ٠ فهى **أولا** : ألزمت الشركات بالخضوع لتشريعاتها المالية ، والتى تقضى ضمن شروط أخرى باستثمار ٥٠٪ على الأقل من أرباح الشركات الأجنبية داخل البلاد ٠ **ثانيا** : حرصت على الا تحتكر فرنسا صناعة النفط فاتجهت الى شركات غير فرنسية فيما يخص مد الأنابيب فمنحت شركة بريطانية مد خط الأنابيب الغربى ، ثم توسعت فى منح الشركات الأمريكية عقود امتياز للاستغلال ابتداء من عام ١٩٦٨ ٠

ثالثا : وهو الأهم أسست الجزائر شركة وطنية للنفط ، هى شركة سوناتراك واقتفت بذلك أثر كبير من بلدان الشرق العربى التى أسست شركات وطنية بعد أن تكونت لديها مدخرات كافية نتيجة استغلال النفط عدة سنوات ٠ ويلاحظ ههنا أن الجزائر لم تنتظر طويلا لتكوين شركاتها الوطنية اذا ماقورنت بالبلدان العربية الأخرى المنتجة للنفط ٠ وقد اقتصرت أعمال سوناتراك فى بداية الأمر على توزيع النفط داخل البلاد ثم أخذت تتوسع بالتدريج فاشتركت مع شركات أجنبية فى جميع مراحل صناعة النفط من مد أنابيب وتكرير كما شرعت فى استخراج النفط لحسابها مع شركة فرنسية ابتداء من سنة ١٩٦٦ ٠

وفى سنة ١٩٦٥ توصلت الجزائر الى تعديل جوهرى فى اتفاقية النفط

المتضمنة فى اتفاقيات ايفيان • وذلك بعد مفاوضات طويلة مع الفرنسيين • وكان مفروضا أن تسرى هذه الاتفاقية مدة خمسة عشر عاما الا أن تطور علاقات الدول النفطية بالعالم تبدلت بسرعة وكانت اتفاقية ١٩٦٥ تتناول رفع سعر النفط وزيادة نصيب الجزائر من الأرباح حتى تصل الى ٥٥٪ •

وبالنسبة للغاز الطبيعى كانت الجزائر تصر دائما على أنه لايندرج تحت اتفاقيات البترول ، ولابد من عقد اتفاقيات منفصلة بشأن استغلاله • وقد تم ارضاء الجزائر الى حد كبير فى هذا المضمار فاتفق على أن تقوم الشركات الفرنسية باستخراج الغاز لحساب الحكومة الجزائرية وهذه هى التى تتولى تسويقه ولايجوز أن تزيد أرباح الشركات الفرنسية من هذه الأعمال عن ١٢٪ • ويشبه هذا النظام ماعرف فيما بعد فى استغلال النفط فى بعض دول الشرق العربى باسم نظام المقاولة •

واحتوت الاتفاقية سنة ١٩٦٥ على مبدأ هام جديد ، وهو تكوين شركات تسهم فيها الجزائر بنصف رأس المال دون أن تندمج فى الشركات الفرنسية، ويكون مجلس ادارتها بالمناصفة بين رعايا البلدين • وتحددت لهذه الهيئة المشتركة مناطق معينة لاجراء التنقيب ، ولها أن تشترك مع شركات الامتياز القديمة فى مناطقها • ومن أهداف هذه الهيئة تدريب الجزائريين على أعمال استغلال البترول وتسويقه • لم تمنع هذه الاتفاقية تعاقب الخلافات حول كيفية استغلال النفط •

فقد شكت الجزائر من تباطؤ الشركات الفرنسية فى أعمال التنقيب والاستغلال • وقارنت جهودها بتلك التى تبذل فى ليبيا حيث تزايد الانتاج بسرعة فائقة • ولعل ذلك من الدوافع التى جعلت الجزائر تتجه الى الشركات الأمريكية • ورغم انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر والولايات المتحدة بعد حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . فقد حصلت الشركات الأمريكية على أهم عقود لها خلال عامى ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ . بالاضافة الى شركات صغيرة مثل سانت كلير والباسو ، وفيليبس • ونالت شركة جيتى أهم عقود الامتياز وبعضها بالمساهمة مع سوناتراك •

وتفضل شروط جيتى من بعض الوجوه عقود الشركات الفرنسية • فهى تنص على تكوين هيئة خاصة من جيتى وسوناتراك للتنقيب ، على أن

تقدم شركة جيتى لهذه الهيئة ١٦ مليون دولار خلال السنوات الخمس الأولى بالاضافة الى مليون دولار كهبة · ووافقت جيتى على أن يقدر سعر البرميل بما يتراوح بين ٢٫٦١ ، ٢٫٦٥ دولار ، وهى نسبة أعلى مما تدفعه الشركات الفرنسية ، كذلك تعهدت جيتى بأن تستبقى ٧٥٪ من أرباحها داخل البلاد · وأخيرا وافقت بعض الشركات الأمريكية الصغيرة على أن تدخل سوناتراك معها بـ ٥١٪ مما يضمن لها السيطرة على مجلس الادارة ·

تضافرت اذن عدة عوامل خلال عام ١٩٦٨ كى تدفع بالجزائر الى الضغط على فرنسا حتى تدخل تعديلات جديدة على نظم استغلالها للنفط · من هذه العوامل ازدياد الطلب على نفط شمال أفريقيا بسبب اغلاق قناة السويس ثم استعداد الشركات الأمريكية لعرض شروط أفضل ، وعامل ثالث ظهر حديثا هو تحول كثير من الدول الصناعية الى قبول الغاز الطبيعى كوسيلة من وسائل توليد الطاقة ·

وكانت بريطانيا هى التى تستورد وحدها تقريبا غاز الجزائر · ثم أخذت الولايات المتحدة تبنى خزانات هائلة لاستيراد الغاز وتخزينه فيها · وكانت تعترض استغلال الغاز عدة صعوبات منها احتمال الاعتماد على غاز المحيط المتجمد الشمالى · ومنها صعوبة نقل هذا النوع من الوقود الذى يحتل مساحات كبيرة · وقد زالت هذه العقبة باختراع وسائل اسالة الغاز ثم تجميده وذلك فى موانى الشحن التى ينقل منها الى أقطار الاستهلاك · وحينما اقتنعت الصناعة الفرنسية بأهمية الغاز وسهولة استيراده ونقله تعاقدت مع الجزائر على أكبر صفقة من نوعها لاستيراد الغاز فهى تنص على شراء ٣٥٠٠ مليون متر مكعب سنويا لمدة ١٥ سنة ابتداء من سنة ١٩٧٢ ، لذلك نشطت سوناتراك فى مد الأنابيب الخاصة بالغاز وكذلك تشييد مصانع الاسالة والتجميد فى أرزيو بينما قامت شركة فرنسية ببناء مصنع كبير للاسالة والتجميد فى سكيكدة ·

ومنذ سنة ١٩٦٨ طالبت الجزائر بعدم انطباق امتيازات النفط على الغاز الطبيعى · وبضرورة عقد اتفاقات على أسس جديدة وأشارت الى نظام المقاولة الذى طبقته شركات فرنسية فى العراق مثلا وهو يقضى بأن يقتصر دور الشركة الأجنبية على تقديم الخبرة الفنية والعمل لحساب الشركة

الوطنية التى تكون المالك الوحيد للنفط المكتشف وتحصل الشركة الأجنبية على تسهيلات فى استيراد النفط وبيعه لحسابها أو على نسبة بسيطة تحددها من الأرباح ٠ وبذا يصبح دورها أشبه بدور المقاول ٠

غير ان فرنسا تمسكت بأن تنطبق اتفاقات النفط على الغاز الطبيعى ٠ ومنذ سنة ١٩٦٨ شرعت الجزائر فى اتخاذ بعض اجراءات التأميم المحدود ازاء شركات البترول فاستولت على امتياز التوزيع داخل البلاد وهو لايزيد عن مليون طن ٠ وفى ١٩ يونيو سنة ١٩٧٠ بمناسبة الذكرى الخامسة لحركة بومدين اممت ١٠٪ من مصادر الانتاج وبذا صارت سوناتراك تسيطر على ١٥ مليون طن بعد أن كانت تنتج بالاشتراك مع شركات اخرى أصلا ٨ مليون ٠ كذلك استولت سوناتراك على ٣٥٪ من انابيب المنطقة الشرقية الموصلة لتونس ٠ أما نصيب الشركة الوطنية فى التكرير فقفز من ٣٥ الى ٨٠٪ وبعد مضى شهر من هذه الاجراءات قررت الجزائر رفع سعر البترول بدون الاتفاق مع فرنسا مما زاد الأزمة تعقيدا ، وشرع الطرفان فى خوض مرحلة من أشق مراحل المفاوضات تناولت جميع الجوانب الخاصة بالعلاقات الاقتصادية بين البلدين ٠ وبينما كانت حكومة ليبيا تتزعم الدول المنتجة للبترول فى البحر المتوسط لطلب أسعار تزيد عما قررته الجزائر فى يوليو سنة ١٩٧٠ رأت الحكومة الجزائرية أن تتخذ اجراء أكثر حسما فأعلنت فى فبراير سنة ١٩٧١ تأميم ٥١٪ من أسهم أكبر شركتين فرنسيتين للبترول هما «ايراب» و «شركة البترول الفرنسية» (c.f.p.) ووعدت بتعويض الشركتين ٠

ومع التغيرات السريعة التى أقترنت بنظام استغلال النفط أخذ مبدأ التأميم يشيع بين الدول المنتجة وكانت الجزائر وليبيا هما الدولتان اللتان اقتفتا اثر العراق ١٩٧٢ باتخاذ قرار التأميم الكامل للشركات العاملة فى أراضيها دون أن يحدث ذلك رد فعل عنيف اذ اختلفت المعطيات عما كانت عليه فى الخمسينات عندما أممت حكومة مصدق فى ايران نفطها ٠ ثم جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وماترتب عليها من وقوع أزمة فى الطاقة ومن ثم ارتفاعات متوالية فى سعر النفط ٠ فمرت الجزائر خلال السنوات الباقية من السبعينات بفترة ازدهار مكنتها من أن تلعب دورا بارزا على المستوى العربى والأفريقى الى أن تجددت أزمة السلطة فكانت لها انعكاساتها على الحد من هذا الدور ٠

ورغم أن دخل النفط وصل سنة ١٩٩٢ الى ١٢ مليار دولار فان ثلاثة أرباع هذا المبلغ استخدم لدفع أقساط الديون والفوائد المترتبة عليها .

وهكذا تنتقل دخول النفط العربية عموما وتتسرب الى جيوب المؤسسات الرأسمالية فى الدول المتقدمة .

٣ - العلاقات الخارجية :

حددت جبهة التحرير أثناء الثورة الملامح الأساسية للسياسة الخارجية التى ستسير عليها البلاد بعد الاستقلال . وقالت انها ستتبنى الحياة بين الكتلتين الغربية والشرقية وأنها ستنطلق للعمل من دائرتين : المغرب الكبير والوطن العربى . وسوف يضيف الدستور الصادر سنة ١٩٦٣ دائرة ثالثة هى التضامن الأفريقى .

(أ) العلاقات العربية :

ومع أن الدائرة المغربية هى أولى الدوائر التى من المفترض أن تتحرك فيها السياسة الخارجية الجزائرية فى اتجاه الاتحاد فان فترات التوتر والأزمات خاصة مع المملكة المغربية فاقت حالات التقارب والوئام وسوف نتحدث عن العلاقات المغربية فى الفصل الختامى من هذا الكتاب .

وفيما يخص علاقات الجزائر بالمشرق العربى وقضاياه فقد احتلت مصر مكانا بارزا فى علاقات الجزائر الخارجية ، وعند اطلاق سراح بن بللا تسابقت مصر والمغرب على استضافته ذلك لأن انجازات الثورة الجزائرية اكتسبت للبلاد سمعة عالية وهكذا استقبل بن بللا استقبالا جماهيريا ضخما فى القاهرة ٢١ مارس سنة ١٩٦٢ ، وظلت علاقة الجزائر بمصر وثيقة طوال عهد بن بللا وعندما وصلت الأمور بين الجزائر والمغرب الى حد الصدام المسلح وقفت مصر بوضوح فى جانب الجزائر وايدتها فى مختلف المجالات الدبلوماسية والعسكرية . والأرجح أن هذا التأييد جاء من منطلق الأيديلوجية الاشتراكية السائدة والشعارات المرفوعة فى كلا القطرين وفى وقت شاع فيه تقسيم العالم العربى الى معسكرين : المحافظين والتقدميين .

من هنا تلقى المصريون حكومة وشعبا نبأ الاطاحة ببن بللا فى ١٩ يونيو

سنة ١٩٦٥ بشيء من الريبة والشك ولكن دون أن تذهب الأمور الى حد التأثير على التعاون بين الدولتين وخاصة فى المجال الثقافى اذ كان بومدين أكثر اهتماما بقضية التعريب · وقد تلقت العلاقات المصرية الجزائرية وخزة اخرى بمناسبة حرب يونيو ١٩٦٧ فقد عمت المظاهرات مدن الجزائر منددة بعبد الناصر الذى استسلم للهزيمة وربما أراد بومدين امتصاص الغضب حينما شارك بشكل نشط مع بعض الرؤساء العرب فى زيارة الكرملين ساعيا للضغط على القادة السوفييت الذين اتهموا فى الجزائر وغيرها بالتقصير فى مساعدة العرب ازاء النزاع العربى الاسرائيلى ·

وكثيرا ماقورن بين الكفاح الفلسطينى والثورة الجزائرية ، ومن المعروف ان منظمة التحرير اخذت على عاتقها بعض مهام المواجهة مع اسرائيل كرد فعل على تهاوى المواجهة العسكرية النظامية من الدول العربية الثلاث التى خاضت حرب يونيو : مصر سوريا والأردن · غير أن المتعمقين فى النظرة الى هذه المقارنة لسوا وجود أوجه اختلاف تفوق أوجه الشبه بين الحالتين · لقد تعرضت كل من الجزائر وفلسطين لاستعمار استيطانى غير ان الاستيطان الفرنسى فى الجزائر لم يشكل غالبية السكان فى أى وقت من الأوقات · كما أن مساحة الجزائر الشاسعة سمحت بالتحرك واتاحت بطبيعته الجبلية بيئة صالحة لحرب العصابات . على حين أن مساحة فلسطين محدودة وأراضيها مكشوفة كما أن المستوطنين الفرنسيين كانوا ينتمون الى دولة بعينها هى وطنهم الأصلى ويمكنهم العودة اليه أما اليهود فجاءوا الى فلسطين تحت دعوى الحقوق التاريخية ·

مهما يكن من أمر هذه المقارنة فانها أوجدت تعاطفا مستمرا على المستوى الحكومى والشعبى بين الجزائر وبين منظمة التحرير فالمدة طويلة ظلت الجزائر ترفض قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ كما أيدت الجزائر منظمة التحرير ابان الأزمة التى وقعت بين المنظمة وبين الحكومة الأردنية والتى انتهت بمذابح ايلول الشهيرة سنة ١٩٧٠ · وكأن هذا التعاطف الذى يعود الى ذكريات حركات فدائية متشابهة هو الذى جعل منظمة التحرير وحتى نهاية الثمانينات تختار مدينة الجزائر مقرا لاجتماعات المجلس الوطنى الفلسطينى فى أكثر من مناسبة · ومن جهة أخرى استخدمت الجزائر نفوذها

لدى العديد من الدول الأفريقية ، وخاصة الناطقة منها بالفرنسية ، لكى تدثها على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل قبيل حرب أكتوبر ونجحت فى تحقيق ذلك الهدف الى حد كبير . ولم تتردد حكومة الجزائر مشاركة الدول النفطية العربية الأخرى التى حظرت النفط على بعض الدول المؤيدة لاسرائيل حتى اقترح السادات رفع هذا الحظر فى مؤتمر قمة عقد بالجزائر سنة ١٩٧٤ (١) .

اتخذت الجزائر هذه الاجراءات دون أن تندمج فى الحركات الوحدوية أو ترفع شعار القومية العربية اذ كان بومدين من الناحية الفكرية ينزع الى الصورة الاقليمية للوطنية . وظلت الجزائر تشعر بالتميز عن جيرانها بحكم الميراث التاريخى للثورة الكبرى ثم جاءت بعض الأحداث لتزيد من هـــذا الاحساس الاستعلائى فقد نجحت الوساطة الجزائرية فى بداية عهد بن جديد فى تخليص الرهائن الأمريكيين الذين احتجزوا فى السفارة الأمريكية بطهران وكانت هى الضامن لانفاذ الصفقة وتم تبادل الرهائن فوق اراضيها وسوف يشتهر بعض الدبلوماسيين الجزائريين باللباقة فى حل الأزمـــات وفى انقاذ ركاب الطائرات المختطفة وقد أشتهر الأخضر الابراهيمى على سبيل المثال بدوره الفعال فى التمهيد لمؤتمر الطائف الذى وضع نهاية للحرب الأهلية اللبنانية (١٩٨٩) .

وربما كانت الوساطة الجزائرية فى شأن الرهائن الأمريكيين هى التى دفعت الجزائر لكى تقف موقفا محايدا من الحرب العراقية الايرانية ففـى ذلك الوقت لم تكن جبهة الانقاذ الاسلامية قد شكلت عنصرا من عنـــاصر الضغط القوية على مسار السياسة الجزائرية داخليا وخارجيا ويختلف موقف الجزائر فى ذلك عن المغرب أو مصر التى أظهرت تعاطفا مع العراق بحكـم الأخوة العربية .

ويبدو أن فكرة الحياد فى الصراعات الدولية سيطرت على المسئولين الجزائريين على مظنة أن ذلك يعطيهم فرصة لأداء أدوار دبلوماسية مرموقة الا أن الأمر اختلف تماما فى أزمة الخليج ، ففى مؤتمر القمة العربى الذى

---

(١) انظر للمؤلف : السادات زكامب ديفيد صفحة ١٣١ وما بعدها .

عقد فى القاهرة أغسطس ١٩٩٠ لاتخاذ موقف من الغزو العراقى للكويت لم تصوت الجزائر مع أو ضد ادانة العراق ومن ثم اتخاذ موقف حيادى ازاء التحالف الدولى الذى اشتركت فيه دول عربية أخرى تحت قيادة الولايات المتحدة ، وكانت جبهة الانقاذ الاسلامية قد أخذت تطفو على سطح الحياة السياسية الجزائرية وتتطلع الى ايران • وبينما أتخذت الحكومة موقفا سلبيا من الأزمة تعاطفت الغالبية العظمى من تيار الاسلام السياسى عموما مع العراق وانتقد بشدة تلك الدول العربية أو الاسلامية التى أرسلت أبناءها للقتال تحت القيادة الأمريكية ونالت السعودية نصيبها الأوفى من هذا الانتقاد • وبهذه المناسبة كشفت جبهة الانقاذ الاسلامى النقاب عن أن السعودية زودتها بالمال فى السنوات السابقة مما يعنى بث روح الحرج فى العلاقات السعودية الجزائرية . وقد اعترفت السعودية بالواقعة غير أنها بررت هذا العمل الذى يعد تدخلا فى الشئون الداخلية للجزائر بأنه كان يستهدف تشجيع الثقافة العربية والاسلامية على يد جبهة الانقاذ ولابد وأن تكون السعودية قد ندمت على هذه المعونة بعد أن مالت حركات الاسلام السياسى فى الجزائر وتونس الى جانب العراق ثم تلقت التأييد المعنوى على الأقل من الجمهورية الاسلامية فى ايران •

وخلاصة القول أن الصراع الذى تحدثنا عنه فى صفحات سابقة بين السلطة العسكرية الحاكمة فى الجزائر بعد استقالة بن جديد من جهة وبين جبهة الانقاذ الاسلامية من جهة أخرى صار أحد المعايير الهامة التى تحكم علاقات الجزائر الخارجية ليس فقط مع الدول العربية والاسلامية بل مع دولة هى من أكبر شركاء الجزائر فى المجال الاقتصادى وهى فرنسا • فعندما الغيت نتائج الانتخابات البرلمانية فى يناير ١٩٩٢ وحرمت جبهة الانقاذ من جنى ثمرات النصر احتجت بعض الدوائر الفرنسية على هذا الالغاء باعتباره منافيا لمبادىء الديمقراطية وربما كان هذا هو الدافع الحقيقى لدى بعض الليبراليين • ولكن الموقف الفرنسى فسر عند البعض على أن حكومة باريس راهنت على الجبهة الاسلامية للانقاذ وكانت مستعدة للتعاون معها فى حالة فوزها بالحكم ، وهكذا برزت أزمة فى العلاقات الجزائرية الفرنسية وامتنعت فرنسا عن التعاون الاقتصادى على أساس عدم استقرار النظام الحاكم •

(ب) علاقات دولية أخرى :

ظلت الجزائر تعيش فى ذكرى الكتلة الأسيوية الافريقية التى التفت حول قضيتها داخل الأمم المتحدة وهكذا كانت من أكثر الدول تحمسا لاحياء ذكرى مؤتمر باندنج · فدعت فى سنة ١٩٦٥ الى مؤتمر قمــة آسيــوى أفريقى بمناسبة مضى عشر سنوات على انعقاد مؤتمر باندنج ، ولم يقدر لهذا المؤتمر أن ينعقد بسبب مفاجأة حركة ١٩ يونيو التى سبقت موعد انعقاد المؤتمر بعشرة أيام ·

وبحكم الموقع الجغرافى أهتمت الجزائر بالقضايا الأفريقية · ونلمس نوعا من الاختلاف بين الجزائريين على ترتيب الأولويات السياسة الخارجية· فالمتشبعون بالثقافة الفرنسية يشعرون بالروابط التى تشدهم نحو الــدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية ويرون فيها مجالا خصبا للعمل ، فى حين أن المتشبعين بالثقافة العربية يعطون الأولوية للقضايا العربية وعلى رأسها قضية فلسطين ·

وفى مجال السياسة العالمية لم تحل العلاقات الخاصة مع فرنسا دون تطبيق سياسة الحياد ، وتمثلت هذه السياسة فى توثيق العلاقات مع المعسكر الاشتراكى ، وقد اتسع نطــاق هذا التعــاون فشمل المجــال العســكرى وبخاصة بعد الصراع حول الحدود مع المغرب · فبالنسبة للسلاح الجوى زاد حجم الطائرات السوفيتية على الفرنسية وفتح باب التدريب أمام الطيارين الجزائريين فى الاتحاد السوفيتى ·

وقد تجنبت الجزائر التورط فى الصراع الصينى السوفييتى · فرغم تلقى هذه المعونات من الاتحاد السوفييتى بادرت الى اقامة علاقات دبلوماسية مع الصين الشعبية · وتعود هذه العلاقات فى الواقع الى عهد الثورة اذ كانت الصين أوثق صلة بالثوار الجزائريين لأنها لم تتأثر بأى رد فعــــل فرنسى لعدم وجود علاقات بينها وبين فرنسا اذ ذاك · وقد زار شوان لاى الجزائر زيارة طويلة خلال عام ١٩٦٤ وعرض بعض المعونات ·

على أن العلاقات الجزائرية السوفيتية لم تخل من أزمات ، ففى سنة ١٩٦٦ احتجت الجزائر على وجود ممثل للحزب الشيوعى الجــزائرى فى

مؤتمر دولى للأحزاب الشيوعية انعقد فى موسكو حينذاك . وفى أعقاب حرب يونيو ساد الجزائر مثل معظم الدول العربية اعتقاد بأن السوفييت لم يقدموا المساعدات المرجوة ولو أن هذه القضية لم تترك أثرا طويل المدى .

وفى سنوات الاستقلال الأولى نشأت علاقات وثيقة بين الجزائر وكوبا ، ويفسر البعض ذلك بوجود صلات شخصية بين كاسترو وبن بللا بدليل أن كوبا كانت الدولة الوحيدة التى قطعت العلاقات مع الجزائر فى أعقاب حركة ١٩ يونيو سنة ١٩٦٥ ووصفت النظام الجديد بأنه حكم عسكرى دكتاتورى. ويقارن ذلك بموقف فرنسا التى صرحت بأنه لاحاجة للاعتراف بالنظام الجديد لأنها تتعامل مع الدولة وليس مع الحكومة . والواقع أن الجزائر تمتعت بشهرة واسعة بين الحركات الثورية اليسارية فى أمريكا اللاتينية كنموذج لقطر ثورى من أقطار العالم الثالث . وكثيرا ماطلب أنصار اليسار اللجوء السياسى اليها .

لقد استفادت الجزائر مثل غيرها من أقطار العالم الثالث من حالة الحرب الباردة فبينما كانت تتعامل مع الولايات المتحدة على نطاق واسع فى مجال النفط تنامت علاقاتها بالاتحاد السوفييتى فى المجال العسكرى واستخدمت أسلحتها فى تقوية دورها الدبلوماسى عن طريق تسريب الأسلحة الخفيفة الى بعض الحركات الثورية فى أفريقيا ومنها حركات البوليساريو . وانعكست آثار الحرب الباردة على هذه المنطقة بتقارب المغرب مع الولايات المتحدة مقابل تقارب الجزائر مع الاتحاد السوفييتى ، وعندما أخذت بوادر تراجع مركز السوفييت تلوح فى الأفق وتصادف ذلك مع عهد رئاسة بن جديد رأى هذا الأخير أن يحسن من طبيعة العلاقات مع الولايات المتحدة فقام بزيارتها سنة ١٩٨٤ وكانت الأولى من نوعها بالنسبة لرئيس جزائرى . ولاشك أن الانهيار الاقتصادى الذى تعرضت له الجزائر وتراجعها عن الأسلوب الأشتراكى فى ادارة الاقتصاد دفع بالبلاد الى التطلع نحو الولايات المتحدة لدرجة أن هذه الأخيرة حاولت نشر الثقافة الأنجلو سكسونية وفتحت بالفعل ثغرة فى صرح الثقافة الفرنسية الذى احتفظ بنفوذه فى البلاد لمدة طويلة . وكانت الجزائر قد حظيت بتقدير الحكومة الأمريكية منذ نجاحها فى الوساطة التى أدت الى تخليص الرهائن الأمريكيين المحتجزين فى طهران يناير سنة ١٩٨٠ .

(جـ) العلاقات مع فرنسا :

ظلت العلاقات مع فرنسا تشغل مركز الصدارة فى السياسة الخارجية وذلك لوجود ميراث قديم كان لابد من تصفيته او تعديله • ولم تعتبر الجزائر علاقاتها الخاصة مع فرنسا متنافية مع الحياد وذلك لأن تلك العلاقات الخاصة أملتها ظروف تاريخية ومصالح اقتصادية وثقافية لم يكن من السهل بترها دفعة واحدة • وهى لم تؤثر على حرية الجزائر اختيار السياسة الخارجية التى تتفق ومصالحها • ثم أن فرنسا فى عهد ديجول أخذت تخفف من ارتباطاتها العسكرية مع الأحلاف الغربية وتسعى لأن تكون حلقة اتصال بين الكتلتين ، ومجمل القول أن العلاقات بين فرنسا والجزائر اتسمت بسرعة التغير لملائمة الظروف وكان الطرفان يعلمان مقدما أن اتفاقيات ايفيان ذات صفة مرحلية ويكاد ينحصر الخلاف فى مدى السرعة التى يتم خلالها قطع المراحل • ويمكن ضرب مثالين على سرعة التخلص من القيود التى فرضتها اتفاقات ايفيان يتعلق أحدهما بامتيازات المستوطنين والآخر بالقواعد العسكرية •

وقد كان أمر نقل المستوطنين لأموالهم من أعقد المشكلات التى أوشكت أن تثير توترا فى العلاقات بين الجزائر وفرنسا اذ أن اتفاقيات ايفيان تقر بمبدأ حرية نقل الأموال مع اضافة تحفظ مؤداه الا يضر ذلك بالاقتصاد الجزائرى • ومن الواضح أن نقل أموال سائلة دفعة واحدة كان من شأنه أن يخرب اقتصاديات البلاد الأمر الذى حدا بالجزائر الى اصدار تشريع بوضع رقابة على نقل الأموال يخضع له الفرنسيون مما يعنى تعديلا ضمنيا لاتفاقيات ايفيان •

وفيما يخص القواعد العسكرية فان الجزائر حينما طالبت بتعديل النصوص الخاصة بها فى اتفاقيات ايفيان لم تصادف معارضة شديدة من الجانب الفرنسى ، ولم تؤثر هذه القضية تأثيرا كبيرا على العلاقات بين البلدين • بل على العكس كانت الخلافات حول المسائل الاقتصادية هى التى تسببت فى معظم الأزمات التى حدثت . وتختلف الجزائر فى ذلك عن دول الشرق العربى أو حتى عن تونس التى اصطدمت بفرنسا صداما عنيفا بسبب قاعدة بنزرت • وفى رأينا أن سهولة حل المشكلات العسكرية يرجع الى الفترة الزمنية المتأخرة التى عاصرها استقلال الجزائر • فمنذ سنة ١٩٦٢

تطورت المفاهيم الاستراتيجية بسرعة وفقدت القواعد العسكرية قيمتها ٠ ومع دلك فقد ظلت فرنسا تقدم مساعدات مالية هامة تقابل امتيازاتها العسكرية٠ على انه بعد عام ١٩٦٨ تدخلت عدة عوامل جعلت فرنسا تقلل باطراد كبير من هذه المساعدات ، منها تصفية قاعدة المرسى الكبير ومنها تضاؤل حاجة الجزائر الى المساعدات بسبب ازدياد دخلها من النفط واتجاه الجزائر الى استيراد الأسلحة من الاتحاد السوفييتى وذلك بعد فترة قصيرة من التوتر الذى حدث مع موسكو فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ ٠

وبينما احتفظت فرنسا ببعض التسهيلات فى استخدام قواعد الصحراء لأغراض فنية محضة فى مقابل اعانات مالية تمت تصفية قاعدة المرسى الكبير دون اثارة معارضة تذكر . وكانت الحكومة الجزائرية قد أخذت تطالب بتعديل اتفاقيات ايفيان الخاصة بالقاعدة منذ سنة ١٩٦٦ ، ومما هو جدير بالملاحظة ان حكومة ديجول استجابت لهذه الرغبة فى وقت بدأ فيه الأسطول السوفييتى يظهر فى حوض المتوسط مما يدل على أن سياسة ديجول كانت تتجنب التورط فى الصراع بين الدولتين الكبيرتين ، وكان رأيه تحييد الحوض الغربى للمتوسط ويؤكد هذا الاتجاه لدى الرئيس الفرنسى موقفه من تسليح الولايات المتحدة للمغرب بمناسبة موضوع الخلاف على الحدود بينها وبين الجزائر (١) فقد لفتت الحكومة الفرنسية نظر واشنطن الى أن ذلك التسليح سيدفع بالجزائر الى الاعتماد أكثر فأكثر على المعونة العسكرية السوفيتية ٠

كذلك يقارن موقف الحكومة الفرنسية بالحكومة الايطالية . بينما تقبلت الأولى تعهدات الجزائر بعدم استخدام قوة أجنبية لقاعدة المرسى الكبير أبدت الحكومة الايطالية تخوفها من احتمال استفادة الأسطول السوفييتى من تلك القاعدة مما يشكل خطرا على أمن ايطاليا فى نظر أحزابها اليمينية ٠

لقد تأثرت العلاقات الجزائرية الفرنسية بقضية العمالة الجزائرية المهاجرة الى فرنسا ، وظاهرة الهجرة العمالية الجزائرية الى فرنسا قديمة

---

1. **Maghreb : Documents, Algérie, Maroc, Tunisie, Janvier, 1968.**

فقد اتخذت شكلا جماعيا منذ سنة ١٩١٢ ومنذ ذلك الحين تلاحقت وفـــود المهاجرين حتى وصلت الى ٣٥٠ الفا في سنة ١٩٦٢ يعيش معظمهم فى المدن الصناعية الفرنسية ولاسيما ليل وليون ومارسيليا وضواحى باريس ٠ وقد أوجد الاستقلال بعض المشاكل لهؤلاء العمال اذ كانوا يتمتعون فى الماضى بحرية التنقل والعمل باعتبارهم رعايا فرنسيين كما التحقـــوا بالنقـــابات الفرنسية ولا سيما الـ C.G.T. الشيوعية ٠

وقد حرصت الحكومة الجزائرية على بقاء هذا العدد الكبير من أبنائها، أولا لأن عودتهم تشكل هزات اجتماعية ، وثانيا لأن بقاءهم مصدر دخـــل كبير للبلاد من العملات الصعبة . لذلك نصت اتفاقيات ايفيان على أن يتمتع العمال الجزائريون بنفس الحقوق التى للفرنسيين ماعدا الحقوق السياسية، بل ان الجزائر المستقلة حرصت على استمرار حرية التنقل لوجود فائض من اليد العاملة غير الفنية ٠

وعندما ازيلت الحواجز بين فرنسا وشركائها فى السوق المشتركة وجد العمال القادمون من شمال أفريقيا عموما مجالا أرحب للهجرة والعمـــل، وبعد الاستقلال لوحظ أن أصحاب المهن والفنيين هم الذين فكروا فى العودة الى أوطانهم ٠ ولم تزد نسبة هؤلاء على ١٠٪ وفى مقابل ذلك استمرت نسبة الهجرة بين اليد العاملة غير الفنية عالية حتى ان السلطات الفرنسية أخـذت تنزعج لهذه الهجرة سنة ١٩٦٤ فوضعت قيودا بحجة الحجر الصحى وحددت عدد المهاجرين بألف شهريا ، فاحتجت الجزائر بشدة على وضع هذه القيود التى تتنافى وروح اتفاقيات ايفيان ٠ وكثيرا ماكانت فرنسا تستخدم مسألة الهجرة العمالية الجزائرية فى أوقات الأزمات السياسية أداة للضغط على الجزائر ، وقد حدث ذلك عند المطالبة بتعديل اتفاقيات البترول سنة ١٩٦٥ وبهذه المناسبة حصلت الجزائر على موافقة فرنسا بهجرة ٣٠ ألف عامل سنويا (١) ٠

وقد تأزمت العلاقات بين البلدين من جديد أوائل سنة ١٩٦٨ وربطـــت فرنسا بين اضطرابات الطلبة والعمال فى باريس خلال شهر مايو من ذلك

1. P. Bourdieu : Travail et travailleurs en Algérie.

العام وبين وجود تلك اليد العاملة الوافدة غير المستقرة ، فعادت من جديد تهدد بتقييد الهجرة الى أن توصل البلدان الى اتفاق فى يناير سنة ١٩٦٩ ينظم الهجرة على النحو التالى : تتعهد فرنسا بقبول هجرة ٣٥ ألف عامل سنويا وتقوم بتأهيلهم مهنيا وتأسيس مكاتب فى فرنسا لهذا الغرض • واذا وفق العامل فى ايجاد عمل يمنح حق الأقامة خمس سنوات ، أما اذا فشل فى التأهيل او فى ايجاد عمل يسحب منه تصريح الاقامة بعد ثلاثة أشهر وتجتمع لجنة مشتركة من البلدين كل شهرين لتنظيم هجرة العمال واقامتهم أو اعادتهم الى بلادهم •

وكنتيجة لتواصل عمليات الهجرة على مدى سنوات طويلة تكونت احياء خاصة للهاجرين غير ان انتشار أزمة البطالة فى أوربا الغربية أدى الى اتخاذ مواقف معادية للمهاجرين عموما وعمال شمال أفريقيا خاصة وجسدت أحزاب يمينية هذا الموقف العدائى وعلى رأسها حزب الجبهة الوطنية فى فرنسا والنازية الجديدة فى ألمانيا •

تداخلت أذن عدة عناصر لتضمن استمرار ارتباط الجزائر بفرنسا كاكبر شريك لها فى مجال الاقتصاد والثقافة : استيراد النفط والغاز الجزائرى والذى تقرر تسهيل نقله ببناء خطوط أنابيب تحت سطح البحر المتوسط ، حاجة الجزائر الى ضمان حرية العمال فى الهجرة الى فرنسا ومنها الى المجموعة الاقتصادية الأوربية كحل جزئى لمشكلة البطالة ، استمرار تدفق المعونة الفنية والمالية سواء عن طريق فرنسا مباشرة أو صندوق النقد الدولى • ولضمان تدفق هذه المعونات احتاجت الجزائر الى كسب ثقة الحكومة الفرنسية فقد اهتزت هذه الثقة بعد الغاء نتائج الانتخابات وظهور بوادر حرب أهلية بين المجلس الأعلى للدولة وبين المعارضة الاسلامية المسلحة • وقد اقتنعت الحكومة الفرنسية بعد فترة من التردد بأفضلية استمرار التعاون مع النظام العسكرى الحاكم منذ أوائل سنة ١٩٩٣ •

الفصل الثانى والعشرون

النظام السياسى فى الجمهورية التونسية

(١) الحزب والزعامة

راينا عند سرد دور بورقيبة فى مواجهة الأستعمار كيف أنه تحمس للنظام الليبرالى الذى يضمن حرية الفرد سياسيا واقتصاديا وفكريا · بيد انه ما ان امسك بزمام السلطة بعد الاستقلال حتى تنكر لهذه المبادىء وفرض نظام الحزب الواحد · وربما تظاهر بتطعيم حزبه الدستورى الجديد بفئات اخرى بيد انه قصر هذا الائتلاف على بعض افراد من الحزب الشيوعى ادخلوا الى قوائم المرشحين الى الجمعية الوطنية باسم الجبهة الوطنية الموحدة ، ويقال أن تعجل بورقيبة الى الأخذ بنظام الحزب الواحد هو بمثابة رد فعل على انشقاق صالح بن يوسف ·

ومن الصعب وصف الانشقاق باليمينية بالرغم من ان المظاهر تدل على ذلك ، فابن يوسف ينتمى الى جزيرة جربة مقر الأباضية فى تونس ، وقد اشتهرت هذه الطائفة الدينية بالأشتغال بتجارة الجملة فتصادف ان كثيرا من مؤيديه انتموا الى تلك الطبقة الرأسمالية · ومن جهة أخرى فان انصار الفكرة العربية والاسلامية ينتمون أيضا فى المغرب بصفة عامة الى بيئات محافظة فهم ينتشرون مثلا بين طلبة جامع الزيتونة بتونس ولهذه العناصر تكوين ثقافى دون ان يكون لها وجود تنظيمى كحزب أو هيئة سياسية من اى طراز ·

أما صعوبة وصف هذه العناصر باليمينية فلأنها من الناحية السياسية كانت أشد حزما فى الرغبة فى تحرير تونس من بقايا القيود الاستعمارية بينما كانت نظرة العناصر الأكثر تقدما أو التى توصف باليسارية هى أنه من الخطأ محاربة الاستعمار عن طريق اتخاذ مواقف معاكسة دائما لأساليب المستعمرين ومناهجهم فى التطوير الاجتماعى والاقتصادى والثقافى ·

كان قبول الشيوعيين فى الجبهة اذن من باب ذر الرماد فى العيــون دون أن يدل بالضرورة على ميل بورقيبة الى اليسار ، فضلا عن ذلك لـم يوفق واحد من الشيوعيين فى اقتحام الجمعية الوطنية . لذلك ســاءت العلاقات بينهم وبين السلطة وطالبوا بتطبيق التمثيل النسبى الذى قد يتيح لهم الظفر بمقعد أو اثنين فلم يستجب بورقيبة الى ذلك ، وعلى العكس لوحظ أن عددا من الأعيان (كبار الملاك الزراعيين) قد رشحوا فى قائمـة الجبهة الوطنية وظفروا بعشرة مقاعد من مجموع مقاعد الجمعية البالغة ٩٨ وبجانبهم ٢٠ من أعضاء الاتحاد العام للعمال التونسيين · ويمـكن القول أن النخبة المثقفة من برجوازية المدن هى التى سيطرت على أول جمعية وطنية تونسية (١) ·

كان من الممكن أن يكون تحليل انتماءات النواب أكثر فائدة لولا أنـه لم يقدر للجمعية الوطنية أن تلعب الـدور المنوط بها فهى لم تستشـر فى جميع الاجراءات الهامة التى اتخذت منذ الاسـتقلال حتـى صـدور الدستور سنة ١٩٥٩ ولم يتدعم مركزها بعد صدور الدستور ·

ففى الفترة الأولى تم خلع الباى واعلان النظام الجمهورى فى ٢٥ يوليو عام ١٩٥٧ دون التشاور مع الجمعية ، كذلك صدرت قوانين الغاء الوقف والاصلاحات الاجتماعية دون الرجوع اليها · ولم تجتمع الجمعيـة الوطنية بصورة دورية كل ٣ أشهر كما كان مقررا · فهل معنى ذلك أن الحزب وليست المؤسسات الدستورية هى حجر الزاوية فى السلطة كمـا هو الحال فى بعض الدول الاشتراكية مثلا ؟ فالحزب الدستورى الجـديد الذى بدأ فى بعض الأوقات أقوى المنظمات السياسية فى أقطار المغـرب الثلاث كان قد أخذ يتلقى ضربات متوالية قبيل الاستقلال : اعتقـال زعيمه وابعاده عن البلاد من عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٥ ثم الانشقاق الذى حدث فى الحزب بمجرد عودة بورقيبة الى البلاد ·

اذن فمبدأ الزعامة الشخصية هو الذى أستمد منه الحبيب بورقيبة سلطاته الواسعة وليس الحزب ، والدليل على ذلك أنه صرح بآراء مـن شأنها أن تؤثر فى شعبيته وما كان يجرؤ على ذلك لو أنه خشى من تعرض

1. Charles Micaud : Tunisia, The Politics of Modernization.

سلطته للخطر · مثال ذلك الحض على لفطار رمضان حتى لايتأثر الانتاج مع العلم بأن الصيام يحاط فى البلاد الاسلامية بمظاهر شعبيـة تجعـل له قيمة لدى الجماهير أكثر من كونه مجرد أداء فريضة دينية · ومن الشواهد على هذه الزعامة الشخصية اجراء الاحتفالات بمولد بورقيبة واعطاء الأولوية لذكرى عودته الى البلاد فى أول يونيو على عيد اعلان الاستقلال فى ٢٠ مـارس ·

ويمكن القول أن الزعامة الشخصية قد لقيت طريقها ميسرا لأنها لم تصطدم بمنظمة سياسية قوية تقف فى وجهها ، بينما أن محاولة الملك الحسن فى المغرب ممارسة الحكم الشخصى واجهت معارضـة شديدة من الأحزاب القوية مثل حزب الاستقلال أو الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية ، كما أنـه كان من الأيسر الصاق تهمة الأوتوقراطية بملك غير دستورى منها برئيس جمهورية· وقد يقال أن الحبيب بورقيبة مارس هذه السلطة باعتبـاره زعيما لحزب جماهيرى ، ولكن عند التأمل يلاحظ أن صفته كرئيس دولـة تغلبت دائما على صفته كزعيم حزب ، ولذا يبرر البعض السلطة الشخصية بأن الدولة تسبق الشعب الى رسم الخطط الاصلاحية فى الأقطار الناميـة ولكن مما لاشك فيه أنه من الأفضـل تكليف حـزب أو هيئة سياسية بعملية التوعية لأن ذلك مستحيل على رجال الادارة ، وتلك هى الخـطة التى اتبعها الحبيب بورقيبـة فقد برر وجود الحزب الواحد بأن المطلوب الى الجماهير ليس هو المفاضلة بين مرشحى حزبين بل يجب أولا توعيتها بالشئون العامة ، والريف يعيش فى عزلة عن هذه الشئون ولذلك فان الحاجـة الى الحزب تبدو قوية لأنه هو القـادر على التغلغل فيه وتوعيـة سكانه·وقد أدى حزب الدستور الجديد هذه المهمة بكفاءة تلفت النظر فأقام لجانا محلية بالقرى كانت توصـل رأيهـا الى العاصمة وطعمت هذه اللجان بعناصر متنورة ، ولو أن تلك العناصر لقيت أحيانا مقاومة من سـكان القرية اذ اعتبر المدرس الموفد من المدينة أجنبيا عنها ، ولذلك كان لابـد من مضى وقت كاف لكى يجد الحزب قواعد عريضة فى الريف ·

لقد قيل ان اعضاء الحزب بلغوا فى وقت ما ٦٠٠ر٠٠٠ أو حوالـى ٢٠٪ من السكان الا انه لايجب أن تقاس فاعلية الحزب بعدد الأسماء المقيدة فى سجلاته وأن السنوات الأولى من الاستقلال شهدت تغييرا جوهريا فى

تركيب الحزب . ففى عهد النضال ضد الاستعمار كان المؤتمر الوطنى يلعب دورا هاما فى توجيه سياسة الحزب . أما بعد الاستقلال فأصبح انعقاد المؤتمر نادرا وبعد أن كانت هناك ٤٠ وحدة اقليمية منتخبة صار المكتب السياسى هو الذى يعين الفروع الاقليمية التى أنقص عددها الى ١٤ ، بل ان المكتب السياسى نفسه الذى كان ينبثق عن المؤتمر العام قد سقط وحلت محله لجنة تنفيذية معينة بواسطة الرئيس . وكان لابد من الاستعاضة فى تركيب الحزب بمظهر آخر من مظاهر الديمقراطية وهو اقامة مجالس بلدية واطلاق الحريات فى انتخاب أعضائها وبلغت تلك المجالس نحو ٩٤ عام ١٩٥٧ .

وعندما كانت تحدث خلافات فى الرأى لاتطرح على المؤتمر الوطنى ولاعلى اللجنة التنفيذية وانما يحسم الرئيس هذه الخلافات . ومن أبرز الخلافات التى أوشكت أن تهدد وحدة الحزب دعوة أحمد بن صالح فى عام ١٩٥٧ الى الأخذ بالتخطيط الاقتصادى وتأميم المشروعات الكبرى وسيطرة الدولة على الانتاج . ووصف بورقيبة هذا الاتجاه بأنه يحمل أفكارا أجنبية. ولعله يشير بذلك الى الماركسية بالرغم من أن مفهوم بن صالح للاشتراكية ما يزال بعيدا عن المفهوم الماركسى (١) . وربما توجس بورقيبة خفية من ذلك الشاب الطموح الذى لم يتجاوز الثلاثين وقد صار يحتل منصب الأمين العام لاتحاد العمال التونسيين . وسنرى كيف أن الاتحاد كان هيئة أكثر تماسكا من الحزب نفسه ولذلك بادر بورقيبة الى اقالة أحمد بن صالح من الاتحاد وبعد أن هدأت النفوس دعاه لتولى وزارة الصحة ثم ناط به مسئوليات أعظم فأسند اليه وزارة الاقتصاد حينما قرر الأخذ بسياسة التخطيط الاقتصادى سنة ١٩٦١ .

وعلى الطرف الآخر ظهر داخل الحزب تيار ليبرالى يتزعمه محمد المصمودى والهادى نويرة ، ولهذا التيار مؤيدون بين الطلبة الذين رفضوا تحكم الحزب الواحد وكان المصمودى يشرف على تحرير جريدة Action [؟] وهى الطبعة الفرنسية من جريدة الحزب (العمل) وقد أخذت تنتقد بعض

---

1. Le Socialisme en Tunisie et en Algérie, Etude Publiée dans L'Annuaire de l'Afrique du Nord, 1966.

التصرفات مثل تعطيل الدستور والمحاكمات السياسية وكبت الحريات ، ولذلك أبعد المصمودى عن هيئة التحرير كما تعرض وزير الاعلام للمؤاخذة ٠ وحلت محل الطبعة الفرنسية جريدة أخرى كان من المفروض أن تهتم بالشـــئون الأفريقية وألا تركز على أحــــوال تونس الداخليـــة ولذلك ســـميت بـ L'Afrique Action ومع ذلك ستتعرض هذه الجـــريدة بدورهـــا للمؤاخذة ويتغير اسمها الى افريقيا الفتاة Jeune Afrique وتخضع خضوعا تاما للحزب ٠

هل لحزب الدستور الجديد أيديولوجية محددة ؟ يرى بورقيبة ، مثـل بعض المستنيرين فى بلاد المغرب ، أن الحاجة خلال المرحلة الأولى مـن الاستقلال هى الى بناء الدولة العصرية أكثر منها الى البحث عن عقيـــدة سياسية . ولذلك يجب أن تكرس الجهود لتكوين الاطارات الفنية ، ومـع ذلك فقد كان لابد من اتخاذ موقف من مفهوم الاشتراكية حيث أن هـــذه القضية تشغل أذهان المثقفين فى العالم العربى بصفة عامة ٠ وفى خطـاب ألقاه بورقيبة فى سبتمبر سنة ١٩٥٦ قال ان الاشتراكية لاتعنى بالضرورة الاعتراف بمبدأ الصراع بين الطبقات لأن وضع تونس يختلف عن أوربـا اذ لم تنم بها طبقة قوية من رجال الصناعة والأعمال ، والرأسمال ليس دائما مســتغلا . بل أن تونس فى هذه المرحـلة بحاجة الى تكوين رأســـمال وطنى ولذلك فهو يدعو كل فرد الى زيادة مدخراته حتى ولو أدى ذلك الى الحرمان من بعض الحاجيات وعن طريق التوسع فى استثمار الرأســمال الخاص يمكن مكافحة البطالة ، ومشكلة تونس ليست هى القضاء على طبقة لحساب أخرى بل ايجاد العمل لأكبر عدد ممكن من السكان (١) وقد وصف بعض الكتاب الغربيين هذا التحليل بأنه ينم عن روح تجريبية لـــدى الزعيم التونسى ، الا أن بورقيبة لن يتمسك بهذه النظرية الاقتصادية على طول الخط فسيتحول فترة من الوقت الى سياسة التخطيط الاقتصادى ويؤثر ابتداء من سنة ١٩٦٤ وصف حزبه بالدستورى الاشتراكى ٠

وسوف نشير فيما بعد الى تجربة التخطيط الاقتصادى خلال الستينات وهى تجربة لم تتخذ صفة الدوام ، وحتى فى أثناء تطبيقها حرص بورقيبة

---

1. Les Discours d'El-Habib Bourguiba.

على أن يميز بين الاشتراكية الدستورية، والاشتراكية الثورية ٠ فالأولى تعنى أن اتخاذ أى لجراء يجب أن يتم بالاتفاق بين مصالح الطبقات المختلفة. فالتأميم لابد وأن يقابله تعويض لأصحاب رءوس الأموال ، ولو أن هـــذه التعويضات ستصبح مستحيلة بالنسبة لكبار الملاك الزراعيين الأوربيين ٠ وقد كانت خطة بورقيبة دائما هى أن يجعل الحزب الدستورى الاشتراكى قادرا على امتصاص جميع الطبقات فيكون مثلا فرعا خاصا للتجار وأصحاب الحرف بجانب اتحاد الطلبة واتحاد العمال . كذلك بدل أن يمس الملكيـة الزراعية يعمل على تجميعها فى تعاونيات . ويمكن لهذه الملكية أن تؤدى وظيفة اجتماعية ، وهو يسعى فى نفس الوقت الى امتصاص الاتحادات اليسارية مثل الاتحاد العام للعمال واتحاد الطلبة التونسيين ٠ وبينما اتخذ بورقيبة أسلوب الاعتدال فى مفهوم الاشتراكية تجاوز الحد قياسا الى غيره من الرؤساء العرب فى مبدأ العلمانية ٠ وتتضح شواهد هـــذه النزعة فى اجراء تعديلات على قانون الأحوال الشخصية الاسلامى سنة ١٩٥٧ وجعله جزء من القانون المدنى ٠ وقد ترتب على ذلك ادماج المحاكم الشرعية فى القضاء الوطنى . وبمقتضى التعديل قيد حق الرجل فى الطلاق وحظر تعدد الزوجات كذلك صفيت جامعة الزيتونة الدينية وحولت الى كلية من كليات الجامعة تتخصص فى دراسة الشئون الاسلامية على مناهج حديثة ٠

لم يحدد الدستور الصادر فى سنة ١٩٥٩ علاقة الحزب بالدولـة بخلاف دستور الجزائر لسنة ١٩٦٣ ٠ ويلاحظ عند تتبع تشكيل مجالس الوزراء وجود عدد من الوزراء غير المنتمين للحزب الدستورى الجديد ٠ وقد أخذ الدستور التونسى بنظام الجمهورية الرئاسية . ومدة الرئاسة خمس سنوات يمكن تجديدها مرتين علاوة على الفترة الأولى ، ومن المعروف أن بورقيبة لم يتقيد بهذا النص ٠ وأجاز الدســـتور للرئيس الاعتراض علـى التشريعات التى تسنها الجمعية الوطنية اذا صدرت بأغلبية أقل من الثلثين. كما يجوز له اصدار القوانين فى حالة غياب الجمعية واتخاذ اجراءات تشبه حالة الحكم العرفى عند وقوع خطر يتهدد أمن البلاد ٠ ولايجوز للنواب تكوين لجان تحقيق لأن الوزراء مسئولون أمام الرئيس وليس أمام الجمعية الوطنية ٠ على أنه لوحظ منذ سنة ١٩٦٣ وبعد محاولة انقلاب فاشلة نسبت الى الجيش أن بورقيبة قد أخذ يعيد الحياة الى الحزب ، فأعيـــد تكويـن الفروع الاقليمية ولو أن النخبة المثقفة هى التى سيطرت عليها حتى فى

الريف فسميت بالطبقة السياسية الجديدة • وتنتخب هذه اللجان الاقليمية كل سنتين وتعقد الندوات والمناقشات لبحث الشئون العامة على المستوى الوطنى والاقليمى ، وهى أقوى تأثيرا من الجمعية الوطنية • وفى سنة ١٩٦٦ اثير موضوع القوائم الموحدة وضرورة افساح مجال للاختيار عند انتخاب المرشحين ، وكل ماتحقق فى هذا الشأن هو حق الخلايا أو القاعدة الأساسية فى أن تستبعد من ترى استبعاده من المرشحين لفروع الحزب الاقليمية •

وقد استطاع بورقيبة أن يحتفظ بالزعامة رغم صراعات الحزب الداخلية ففى سنة ١٩٦٨ أعلن أحمد المنستيرى عن انتقاده لنظام التعاونيات وكيف أن أحمد بن صالح قد تسرع فى تنفيذه . فاقيل المنستيرى من قيادة الحزب وبعد قليل أبعد طاهر بن خوجة المسئول عن شئون الأمن لاصطدامه مع الباهى الأدغم رئيس الوزراء حينذاك والذى كان يحتل المكانة الثانية باعتباره الأمين العام للحزب • وحسب التنظيمات الجديدة التى صدرت مع التجديد الثالث للرئاسة فى سنة ١٩٦٩ يصبح الأمين العام للحزب رئيسا للجمهورية فى حالة وفاة الرئيس • وفى نفس الوقت وسعت اللجنة التنفيذية فصارت تتكون من ١٩ عضوا بدلا من ١٤ كما وضع مشروع لاقامة لجنة مركزية •

٢ ـ نحو الغروب :

يتضح مماسبق أن الزعامة الفردية رجحت كفتها على الحزب وعلى مؤسسات الدولة بحيث أنه كان بوسع بورقيبة أن يحدث تغييرات جذرية مفاجئة دون الرجوع الى أحد • وبناء عليه فانه بعد عشر سنوات من تجربة الاشتراكية على أساس التعاونيات أطيح بأحمد بن صالح منفذ هذه الخطة وصاحب نظريتها وقدم الى المحاكمة بحجة الاختلاس وتبديد أموال الدولة• ورفع «الزعيم» شعار الاقتصاد الحر دون أن يقابل ذلك تغير فى نظام الحزب الواحد ، كما استمرت الزعامة التونسية فى اضعاف المؤسسات الشعبية والنقابية التى يمكن أن تثير المتاعب مثل اتحاد الطلبة الذى طوع تماما فى سنة ١٩٧٢ •

وعلى العكس صمد الاتحاد العام للعمال التونسيين كعنصر فعال فى

حياة البلاد والظاهر أن عمق المخالطة للمجتمع الفرنسى أوجدت هذا الوعى بدور النقابات العمالية فى الدفاع عن حقوق الطبقات المطحونة · لذلك حينما شعر بن عاشور الرئيس العتيد للأتحاد العام للعمال التونسى بضغوط الدولة الثقيلة وتساهلها مع كبار المستثمرين قدم استقالته من الحزب فجاءت هذه الاستقالة بمثابة اشارة لحركة اضراب واسعة النطاق احتاجت الحكومة لايقافها الى استعمال القوة وسقط العديد من الضحايا وقدم زعماء الحركة الى المحاكمة يناير ١٩٧٨ · وصدر الحكم بسجن الحبيب بن عاشور لمدة عشر سنوات كما صدرت أحكام أخرى على أكثر من ٢٠٠ نقابى وشطبت أسماء المحامين الذين تولوا الدفاع عن النقابيين من نقابة المحاماة وقد أثارت هذه الاجراءات انتقادات لجنة حقوق الانسان · ومما هو جدير بالملاحظة أن الحزب الدستورى الجديد كان يعتبر اتحاد العمال التونسيين احدى الشعب التابعة للحزب طوال عهد الحماية · وللمرة الثانية يثبت أن بورقيبة (المجاهد الأكبر ضد الاستعمار) يختلف عن بورقيبة رئيس الجمهورية الذى يقبض بين يديه نواصى السلطة ·

ومع تقدم سن الزعيم أخذ الناس يتساءلون فى منتصف السبعينات عن كيفية خلافة بورقيبة ، وحسب الدستور يحل محله فى حالة وفاته رئيس الوزراء وكان يحتل هذا المنصب حتى سنة ١٩٧٧ الهادى نويرة الذى اشتهر بضعف الشخصية · ومن ثم أختير محمود المنستيرى الأكثر تطورا ليرأس الحكومة وكان مستعدا لقبول مبدأ التعددية الحزبية كما عبر عن ذلك فى احدى اجتماعات الحزب الحاكم ، فطلب اليه التأجيل دون رفض المبدأ ويبدو أن المنستيرى كان قد كون وزارته من شخصيات قادرة على المصارحة والمكاشفة بالأخطاء فعندما وقع الاضراب الكبير فى ينساير ١٩٧٨ صرح طاهر بن خوجة وزير الداخلية بأن سبب الاضطرابات يعود الى سوء الادارة الاقتصادية والى الزيادة السكانية المطردة وكان هذا الانتقاد كافيا لاقالته· ولاشك أن بورقيبة لم يسبق له أن واجه تحديا من وزرائه كما حدث فى هذه الأزمة اذ تضامن مع بن خوجة ستة من الوزراء ·

وتحت وطأة هذه التحديات رأى الرئيس التونسى أن يخفف من الاجراءات العنيفة التى اتخذت ضد النقابيين فعفى عن بن عاشور والعديد ممن صدرت ضدهم أحكام بالسجن فى العالم التالى ١٩٧٩ ولكنه ظل متمسكا

بمبدأ نظام الحزب الواحد حتى سنة ١٩٨٣ وفى هذه الأثناء تعرض حكم (المجاهد الأكبر) لأزمة أمنية كبيرة ففى سنة ١٩٨٠ أستولى ٣٠٠ من المسلحين على مدينة قفصة الجنوبية وأضطرت الحكومة الى استخدام الجيش لاسترداد سلطتها هناك وقد نسبت هذه الحركة الى تحريض من ليبيا القذافى . لذلك أبدت كل من فرنسا والولايات المتحدة استعدادها لمساندة النظام الحاكم فى تونس المعروف بتعاطفه مع الغرب ولم يكن بورقيبة مهتما بتقوية الجيش فهو يختلف عن معظم أقرانه من حكام البلاد العربية فى أنه فرض حكمه المطلق باسم ماضى الكفاح وليس على أساس ولاء القوات المسلحة الذى يستند اليه الآخرون عندما يصلون الى السلطة عن طريق الانقلابات العسكرية ولاشك أن بورقيبة كان يهدف الى تجنب مثل هذه الانقلابات . بيد أن ذكريات ماضى الكفاح التى بعد بها الزمن كانت قد أخذت تذبل فى الثمانينات .

خففت وزارة محمد مزالى سنة ١٩٨١ - ١٩٨٤ من قبضة السلطة على النشاط السايسى ومع أن انتخابات مجلس النواب لسنة ١٩٨٢ كانت أقل تعسفا . فقد أحتفظ الحزب الحاكم بـ ٨٤٪ من المؤيدين وكنوع من الثقة فى استمرار حزبه فى الأحتفاظ بالأغلبية سواء بتزوير الانتخابات أو بضعف الوعى . فقد وافق بورقيبة فى نهاية الأمر على مبدأ التعددية وذلك بشرط الا تتخذ الأحزاب السياسية الدين أساسا لوجودها وألا تتلقى من الخارج اعانات مالية وبناء عليه رخصت الحكومة التونسية فى نوفمبر سنة ١٩٨٣ بالعمل لحزبين جديدين هما : الحزب الديمقراطى الاشتراكى برئاسة أحمد المنستيرى . والحركة الديمقراطية الشعبية برئاسة عمر بلحاج . كما لوحظ أن حكومة مزالى أبدت استعداد للحوار مع حزب النهضة الاسلامى دون أن يعنى ذلك اعترافا به كحركة مشروعة .

نشأت هذه التعددية فى اطار النخبة التى تستمد وضعها اما من المركز الثقافى الاجتماعى أو من الانتماء الى الطبقة الرأسمالية ، ومن ثم لم تظهر خلافات عقائدية ذات مغزى كبير ولم تكن هذه التعددية لتغنى الطبقات الكادحة عن تدهور حالتها الاقتصادية . فطبقا لشروط صندوق النقد الدولى اتخذت الحكومة التونسية فى يناير ١٩٨٤ قرارا برفع الدعم

عن الخبز مما أدى الى مضاعفة سعره (١) · وتكررت اضرابات سنة ١٩٧٨ بصورة أعنف وأشمل فقد بدأت من الجنوب ثم عمت جميع أنحاء البلاد وبعد أيام من استمرار الاضطرابات ظهر بورقيبة على شاشة التليفزيون ليعلن الغاء قرارات رفع الدعم ١٦ يناير ١٩٨٤ ، وكان هذا الظهور بمثابة الانتفاضة الأخيرة لزعامة (المجاهد الأكبر) ·

لم تتوقف حركة الاضرابات ولكنها تكررت بين فئات من الموظفين كعمال البريد ثم تبعها اضراب موظفى البنوك بيد أنه دخل عنصر جديد فى مقاومة النخبة (المتفرنسة) التى تستأثر بالحكم والتى تحيط بالرئيس المسن، ذلك لأن حركة الاسلام السياسى ، كما سنتحدث عنها بعد قريب ، أشتد عودها وتطلب ذلك اتخاذ اجراءات مضادة أظهرت الدولة بمظهر من يمارس العنف للبقاء فى الحكم وصدرت قرارات مستفزة دون الحاجة اليها مثل حظر الحجاب أو رفت الموظفين الذين يعرفون بميولهم الى التيار الاسلامى وسوف يعترف بذلك زين الدين بن على بعد توليه السلطة ·

ان اليد التى أستخدمها بورقيبة لقمع المعارضة التونسية هى نفس اليد التى أرتدت اليه فخلعته من السلطة · فقد استعان بورقيبة بمدير الأمن السابق ووزير الداخلية ذى القبضة الحديدية زين الدين بن على الذى كلفه بورقيبة برئاسة الوزارة ليواجه المعارضة المتصاعدة فتوسع فى عمليات الاعتقال والقمع خلال صيف سنة ١٩٨٧ وكان الرئيس المسن قد وصل الى الرابعة والثمانين من العمر وأخذ ظهوره على المسرح يقل بالتدريج· ومن ثم لم يكن بن على المسك بزمام الأمن بحاجة الى جهد لكى يعلن خلع بورقيبة من رئاسة الجمهورية فى ٧ نوفمبر ١٩٨٧ · وهكذا انتهت حياة المجاهد الأكبر بتحديد الاقامة ردحا من الزمن خففت عنه القيود فيما بعد ، فقد أخذت غياهب النسيان تلف من تحكم فى البلاد مدة تزيد على ثلاثين عاما ·

١

حاول الرئيس الجديد أن يتظاهر بالتغيير سواء لارضاء المعارضة أو حركة الاسلام السياسى فجاءت هذه التغييرات فى المظهر دون أن تصل

---

(١) السياسة الدولية · عدد ابريل ١٩٨٤ ·

الى الجوهر ومنها الغاء بعض الرموز الدالة على عبادة الشخص في العهد السابق فالغيت الاحتفالات بمولد بورقيبة وعودته المشهورة الى تونس فى يونيو ١٩٥٥ كما اخذ التليفزيون التونسى يذيع الآذان فى مواعيدها ورفع الحظر على الحجاب وكذا من الاشارات التى كانت تستفز التيار الاسلامى٠ كما سعى بن على الى توسيع قاعدة الحزب العتيد الذى ورثه عن بورقيبة واكتفى بتغيير اسمه الى التجمع الديمقراطى الدستورى بدلا من الدستورى الاشتراكى ثم اصدر عفوا عن المبعدين القدامى مثل احمد بن صالح والحبيب بن عاشور واطلق سراح ستمائة من الذين حكم عليهم بالسجن فى قضايا ضد الاسلاميين وعلى راسهم راشد الغنوشى . واخيرا اعاد الاعتبار الى جامعة الزيتونة ٠ وكظاهرة انفردت بها تونس تحرك العلمانيون الذين خشوا من ان يمثل حكم بن على ردة تدخل تونس تحت مظلة تيار الاسلام السياسى، وقد ظهر تأثير هذا التيار فى انتخابات اتحادات الطلبة سنة ١٩٨٨ على حين تقدم اربعون من اساتذة الجامعة بعريضة تدعو الى الحفاظ على المكاسب الوطنية ويقصدون بذلك استمرار الحكم المدنى وقانون الأحوال الشخصية الذى يعبر عن هذا الاتجاه ٠

أراد الرئيس الجديد أن يختبر قوة حزبه فقرر اجراء انتخابات نيابية وكان قد فتح باب الحوار مع الاسلاميين ومن بينهم راشد الغنوشى وسمح لممثليهم بالترشيح دون التصريح بقيام حزب النهضة الاسلامى فتقدموا بصفة فردية الى الانتخابات وفى ابريل سنة ١٩٨٩ أحتفظ حزب التجمع الديمقراطى الدستورى بالأغلبية ٠ غير أن الاسلاميين حصلوا على ١٢٪ من الأصوات واليسار على ٥٪ ومع ضعف هذه النتائج فان الرئيس لم يتحمل استمرار معارضة التيار الاسلامى وكان خلال الفترة السابقة منذ توليه الحكم وحتى اجراء هذه الانتخابات يركز نظرة على القوات المسلحة ويخشى من أن تكون قد اخترقت ومن ثم توسع فى عمليات التطهير المتوالية بتصفية الضباط الذين يشك فى انتماءهم الى التيار الدينى ٠ أما بعد الانتخابات فقد تحولت أنظار الرئيس الى المدنيين الذين يمثلون المعارضة ولم يتحمل استمرار الحوار معهم كما كان من قبل ٠ ولم ينفرد التيار الاسلامى باجراءات القمع بل شملت كذلك احزاب المعارضة التى رخص لها فى سنة ١٩٨٣ بالعمل ٠ وهكذا انتقلت تونس من ديكتاتورية الزعيم الأوحد الى ديكتاتورية نظام عسكرى يشبه اغلبية النظم الحاكمة فى المغرب والمشرق ٠

٣ ـ بين المعارضة المدنية والمعارضة الدينية :

اذا كان الحبيب بورقيبة قد تمكن من تسوية الخلافات داخل الحزب، فان هناك عناصر معارضة اخرى كان من المتعذر امتصاصها بسهولة وعلى راسها اتحاد الطلبة والعمال ، رغم كون هذين الاتحادين ظلا من الناحية النظرية فرعين من فروع الحزب • وبالاضافة الى ذلك ظهرت من حين لآخر فئات معارضة خارج الحزب او من داخله • والظاهر ان حزب البعث استطاع ان يمد نشاطه الى تونس منذ سنة ١٩٦١ وربما ورث بعض الفئات التى كانت منضمة الى حركة صالح بن يوسف الذى اغتيل فى هذا العام . وذلك نظرا لانتشار فكرة العروبة بين انصار بن يوسف •

وقد برزت عناصر المعارضة هذه اثناء حرب الأيام الستة فشهدت تونس أعنف المظاهرات الطلابية مما أدى الى وقوع اكبر محاكمة سياسية فى تاريخ البلاد . فقد بلغ عدد المتهمين ١٣٤ شخصا • حكم على ١٨ منهم باحكام متفاوتة بالسجن ، وكان اقساها ١٤ عاما ، وكانت التهمة الموجهة اليهم هى الانتماء الىأحد اتجاهات ثلاث : البعث ، او الماوتسية أو التروتسكية• ويبدو ان البعث كان هو صاحب النفوذ الفعلى بين هذا الفريق من الطلبة الذين تشبعوا بالفكرة العربية •

ويمكن القول ان التيارين الرئيسيين اللذين اجتذبا الطلبة المعارضين هما : الماركسية والنزعة الليبرالية • ولاينسجم التياران مع نظام الحزب القائم ، أحدهما بسبب الخلاف العقائدى والآخر بسبب تناقض الليبرالية مع نظام الحزب الواحد • وبينما نسبت تهمة الشيوعية الى بعض اعضاء اتحاد الطلبة سنة ١٩٦٣ كانت الاتهامات فى سنة ١٩٦٧ موجهة ضد الانتماء لحزب البعث المحظور • ونتج عن هذه المحاكمات المتوالية للطلبة ان تدخلت الحكومة لتعيين أعضاء من الحزب الحاكم فى قيادة اتحاد الطلبة، غير أن الطلبة التونسيين قاوموا هذا الاتجاه وهم متأثرون بنظم الاتحادات الطلابية الفرنسية حيث يتم أختيار أعضاء الاتحاد بحرية كاملة •

وبعد الأزمة الخطيرة التى مرت بها الحياة الجامعية سنة ١٩٦٧ عدل

نظــام الطلبة بحيــث فتت الى فروع مستقلة لكل كلية . ويشترك الموظفون والاداريون والعمال التابعون لهذه الكليات فى انتخابات قيادات هذه الفروع.

هكذا حاول الحزب اخضاع فئة مناوئة من فئات المعارضة . أمــا الفئة الأخرى فهى أعظم شانا وأعنى بها الاتحاد العام للعمال التونسيين ، وهو أقوى الاتحادات العمالية عند مقارنته بالاتحادات العربية الأخرى (١) اذ كان يضم نصف اليد العاملة فى تونس «حوالى ١٥٠ ألفا» ويرجع الفضل فى ذلك الى التنظيم الدقيق الذى وضعه للاتحاد الزعيم النقابى فرحــات حشاد . وكانت شخصية حشاد تنبىء عن مستقبل مرموق . والظاهر أن المستوطنين ادركوا دوره فى الحركة الوطنية فدبروا اغتياله فى سنة ١٩٥٢. وكان الاتحاد الركيزة الأساسية للحزب الدستورى الجديد أثناء النضال ضد الاستعمار . وتجلى نفوذه من خلال أوامر الاضراب التى نفذت بدقة هائلة الا ان القضية اختلفت بعد حصول تونس على الاستقلال ، فهل يصبح الاتحاد العمالى الذى يمثل طبقة أكثر تماسكا أقوى من الحزب نفســه مع أنه من الناحية النظرية يعتبر فرعا منه ؟ ربما توجس بعض الساســة التونسيين خيفة من هذا الاحتمال فقد لوحظ فى السنوات الأولى مــن الاستقلال انه تغلغل فى الأجهزة السياسية فاحتل أعضاؤه ٢٠ مقعدا من مقاعد الجمعية الوطنية واختير معظم هؤلاء النواب ليشكلوا مجلس ادارة الاتحاد . كذلك سيطر الاتحاد على بعض الفروع الاقليمية للحزب وتغلغل فى الهيئات الاقتصادية الاستشارية ونتيجة ذلك هو أنه لم يمض زمن طويل على الاستقلال حتى أخذت القيادة السياسة تحد من نمو الاتحاد العــام .

لقد بدت عوامل التنافس بين قيادة الاتحاد وقيادة الحـزب منــذ السنوات الأولى للاستقلال فقد نصح أحمد بن صالح حين كان أمينا عاما للاتحاد بتطبيق الاقتصاد الموجه وتأميم المشروعات الكبرى والاستيلاء على الأملاك الأجنبية . غير أن بورقيبة لم يوافق على هــذا الاتجاه وأخرج بن صالح من الاتحاد ثم أبعده نهائيا حينما اختاره وزيرا للصحة وعيــن اثنين من منافسيه هما أحمد التليلى والحبيب بن عاشور فى قيادة الاتحاد.

---

(١) هذا هو رأى الباحث الامريكى المتخصص فى شئون شمال أفريقيا ، أنظر :
Clement Moore : Politics in North Africa.

ثـم عـاد يميـل بالتـدريج الى نظريـات بن صـالح حينما كلفه بوزارة الاقتصـــاد ·

تمتع احمد التليلى أمين عام الاتحاد بثقة بورقيبة فترة من الزمـن فكان يعتمد عليه للاتصال بممثلى جبهة التحرير الجزائرية . الا أن المشكلة الأساسية ظلت قائمة وهى تحديد علاقة الاتحاد بالحزب · وقد وافق التليلى على أن يكون الاتحـــاد هو الشريك الأصغر دون أن يفقـد استقلاله · لذلك كلما حاولت الدولة التدخل فى تعيين اعضاء مجلس ادارة الاتحاد جوبهت بمعارضة من الزعماء النقابيين فتضامن الحبيب بن عاشور مع التليلى فى مقاومة هذا الاتجاه ثم سوى الخلاف مؤقتا فى سنة ١٩٦٣ على أســاس انتخاب بن عاشور أمينا عاما للاتحاد وتعهد فى نفس الوقت بأن يقصـــر نشاطه على الأغراض العمالية المحضة وفى هذا الاطار على سبيل المثـال طالب برفع الأجور بمناسبة تخفيض الدينار التونسى سنة ١٩٦٤ ·

ومع آن بن عاشور وافق على أن يكون للاتحاد استقلال محدود . الا آنه اصطدم مع بن صالح اصطداما عنيفا وهذه نتيجة غير متوقعة نظرا لأن بن صالح نفسه عانى من التعدى على حقوق الاتحاد . ولكن ما آن صار مسئولا عن التخطيط حتى أعتبر انشاء التعاونيات من اختصاص الدولة فحســـب ولم يرحب بخطة بن عاشور الرامية الى انشاء تعاونيات مستقلة مـــن حيث التمويل والانتاج والتوزيع ، تخضع خضوعا تاما لسيطرة الاتحاد · وكان قد أسس نحو ٢٧ جمعية تعاونية من هذا النوع وأستثمر فيها ٥ مليون دينار تونسى فطالب بن صالح بضمها لتبعية الدولة فلما قاوم كل من التليلى وبن عاشور هذا المطلب أتهما بمعارضة التخطيط ، وفى المؤتمر النقـــابى الدولى الذى انعقد بامستردام سنة ١٩٦٥ انتقد الرجلان علنا عرقلة الدولة للحياة النقابية وبذا تم فصلهما ·

ويلاحظ أن التليلى وغيره من أنصار استقلال الاتحاد العمالى لـم يـعارضوا نظام الحزب الواحد ، بل كانوا يرون أن استقلال الاتحاد العمالى فى ظل هذا النظام هو المظهر الديمقراطى البديل عن تعدد الأحزاب لأن استقلال الاتحاد يؤدى الى نوع من التوازن فى القوى ·

أستمر كفاح الاتحاد العام للعمال التونسيين من أجل المحـــافظة

على كيانه يصطدم بنزعة الحكم الفردى للحبيب بورقيبة · وتحت تأثير النفوذ المعنوى للاتحاد رؤى التوصل الى حل وسط ، فعاد بن عاشور يتولى أمانة الاتحاد ، وفى نفس الوقت عين عضوا باللجنة التنفيذية للحـــزب الدستورى الجديد · ونظرا لانتشار البطالة والتضخم العالمى الذى عانت منه تونس مثل غيرها ، فقد شهد عام ١٩٧٧ اضرابات واسعة النطاق · وقد اختلف طاهر بن خوجة وزير الداخلية مع كل من رئيس الجمهورية ، والهادى نويرة رئيس الوزراء حول طريقة معالجة المتاعب الاقتصادية ، فلم يوافق على اتباع وسائل العنف وحدها مع المضربين ، بل ينبغى معالجة المشاكل من جذورها · وقد كلفه هذا الخلاف منصبه فتضامن معه ستة وزراء قدموا استقالتهم . وأعاد الهادى نويرة تشكيل الوزارة ولوحظ أن المجلس الجديد اقتصر على الفنيين والمتصلبين فى مواجهة العمال · وبادر بن عاشور على اثر ذلك الى الاستقالة من اللجنة التنفيذية للحزب ، وصدرت الآوامر بتعميم الاضرابات ·

● ● ●

لم تتوقف المنافسات داخل قيادة الحزب الدستورى الجديد ، وربما ساعد عليها اعتلال صحة الرئيس وترقب خلافته ، ولكن من المؤكد أيضا أن الزعامة الفردية أثارت غضب الشخصيات الهامة فى الحزب وقــد سبق أن رأينا أحمد المنستيرى يختلف مع بن صالح حول التخطيط ، لذلك أعيد الى الحكم بعد سقوط هذا الأخير الا انه لم يمر عليه وقت طويل فى وزارة الداخلية حتى انتقد مسلك بورقيبة فى حكم البلاد ، ونظرا لوقوع هذه الخلافات . دعى المؤتمر العام للحزب لمناقشة هذا الموضوع وخاصـــة مستقبل البلاد حينما تنتهى الفترة الثالثة لرئيس الجمهورية · وهذا هو الاجتماع الثالث لمؤتمر عام الحزب منذ تأسس فى سنة ١٩٣٧ ·

وفى هذا المؤتمر أعلن المنستيرى أنه لايطالب بالديمقراطية على النسق الغربى بل يريد فقط تدعيم المؤسسات بحيث لاتستقطبها جميعا الزعامـــة الفردية وقد نجم عن هذا المؤتمر تعديل طفيف فى تنظيم الحزب ، فبعد أن كان الرئيس يقوم بتعيين المكتب السياسى ، اقترح أن يقدم الرئيس قائمة بعشرين شخصا يختار منهم الحزب ١٣ ·

وسيعود المنستيرى (١) الى الظهور فى المعارضة سنة ١٩٧٧ فيطالب هذه المرة بنظام ليبرالى صحيح يقوم على أساس تعدد الأحزاب ، وأقترح اصدار ميثاق وطنى يؤكد على الحريات الفردية ، ومن بينها حق تكوين الأحزاب ، وقد أعلن فى يونيو ١٩٧٨ أن مفاوضاته بهذا الشأن قد اخفقت ٠

واذا كان المنستيرى يمثل التيار الليبرالى فى المعارضة ، فان أحمد بن صالح يمثل تيارا اشتراكيا آخر لمعارضة نظام بورقيبة ، وكان قد تمكن من الفرار من سجنه سنة ١٩٧٣ ، وكون فى أوربا حركة معارضة باسم الاتحاد الشعبى ، ظهر أثرها فى اضرابات الطلبة سنة ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ وقد حوربت هذه الحركة مثل غيرها من حركات المعارضة وحوكم الطلبة بتهمة الانتماء اليها ٠ وقد قابل بورقيبة هذه الحركات بتصلب فى نظام الحكم حتى انه أدخل تعديلا على الدستور قرب انتهاء فترته الثالثة للرئاسة ، فنص التعديل على أن تكون الرئاسة بالنسبة له مدى الحياة ، وأن يخلف رئيس الوزراء رئيس الجمهورية فى حالة غيابه وفى هذا التعديل الأخير ماينطوى على التقليل من شأن الحزب والمؤسسات ٠

وبينما كانت حركة المعارضة المدنية فى تراجع ظهرت حركات الاسلام السياسى فى أواخر السبعينات وبلغت فى الثمانينات ذروة قوتها ٠ وفى تونس اتخذت الحركة طابعها السياسى سنة ١٩٧٢ وهى نفس السنة التى أفرج فيها السادات عن الاخوان المسلمين فى مصر وشرعوا فى اعادة طبع مؤلفاتهم وتوزيعها فى معظم الأقطار العربية ٠ وكما كان هدف السادات من التساهل مع الاخوان المسلمين هو ضرب اليسار المصرى فكذلك تحدد طريق الطلبة التونسيين فى الاتجاه الاسلامى من خلال الجدل مع زملائهم اليساريين ذلك الجدل الذى كان ينتهى أحيانا بالتشابك بالأيدى ٠ وبالاضافة الى الطلبة شكل هؤلاء الذين تلقوا دراستهم الأولى فى مدارس تحفيظ القرآن التى انشئتها وزارة الشئون الدينية عنصرا هاما من عناصر الحركة الاسلامية التونسية والتى كانت أسبق من حيث الترتيب الزمنى من الحركات المماثلة فى الجزائر والمغرب ٠

The Middle East, and North Africa (1978-79), p. 710 S.Q.

وبجانب العوامل الخارجية التى أثرت فى بعث الحركة الاسلامية فى تونس وجدت معطيات محلية دفعت هى الأخرى بانتشار الاسلام السياسى من ذلك التحول المفاجىء الذى طرأ على سياسة الدولة من الالتزام بالاشتراكية التعاونية الى الاقتصاد الحر سنة ١٩٦٩ والاعتراف بأخطاء التطبيق السابق وما اسفر عنه من اختلاسات فدفع ذلك المثقفين الى البحث عن هوية تونس ووجدوا فى تاريخها الوسيط بعض فترات المجد مثلما كان عليه الحال عهد الدولة الحفصية ، وبقدر الامكان سعت الحركة الاسلامية الى التوفيق بين التمسك بالأصالة والموروث مع الاستفادة من الأساليب العصرية فى وسائل الاعلام وتعبئة الجماهير ولاشك أن النخبة المتفرنسة المحيطة بالرئيس بورقيبة فقدت مصداقيتها لأنها لم تطبق الليبرالية على النمط الغربى الذى تنتمى اليه ٠ فما هو اذن مبرر بقاءها !

فى غياب هذه المصداقية وجد راشد الغنوشى استجابة واسعة لدعوته الى تيار يمكن وصفه بالاستنارة بالقياس الى بعض تيارات الاسلام السياسى الأخرى ٠ وفى أول اجتماع للمؤتمر التاسيسى لحركة النهضة تم انتخاب الغنوشى رئيسا لمجلس الشورى فى أكتوبر ١٩٧٩ وتقرر أن يجتمع المجلس أربع مرات فى السنة . غير ان بعض تصرفات حزب النهضة رغم استنارته لفتت انظار الحكومة الى علاقاته بحركات اسلامية أخرى متطرفة تسعى لقلب انظمة الحكم ففى مجلة المجتمع التى كانت تصدرها الحركة وضعت صورة الخمينى على غلاف احد اعدادها فكان ذلك سببا فى ايقاف المجلة٠ كذلك تبنت الحركة بعض شعارات الثورة الايرانية كالتحدث عن العمال والفلاحين باسم (المستضعفين) اما من الناحية النظرية فان الحركة (١) ترفض العنف وتسمى نظامها بالاسلام الشورى الذى يقبل التعددية وربما كان تصنيفها مع الحركات الاسلامية المستنيرة يعود الى انفتاحها المعرفى واستخدام صيغ عصرية فى التعبير عن أفكارها ٠

وما أن تبلور الكيان التنظيمى لحزب النهضة حتى قبض على راشد الغنوشى فى سنة ١٩٨٠ بيد أن الحكومة مزالى التى كانت راغبة فى الحوار مع الاسلاميين أفرجت عنه وكان راشد الغنوشى قد تلقى دراسته الجامعية

---

(١) انظر برنامج حزب النهضة - السياسة الدولية عدد أكتوبر ١٩٨٧ ٠

الأولى فى مصر ثم واصل دراسة الفلسفة فى سوريا وعمل مدرسا لهذه المادة فى تونس نحو عشر سنوات قبل القاء القبض عليه وخلال عمله بالتدريس طاف الغنوشى بأقطار الخليج وايران والتقى بالزعيم السودانى حسن الترابى مؤسس حركة الاسلام السياسى فى السودان وعندما أفرجت حكومة مزالى عن الاسلاميين اعيد انتخاب الغنوشى رئيسا لمجلس الشورى وكانت اتصالات الاسلام السياسى بالحركات المماثلة فى الخارج وخاصة فى السودان مستمرة واقترن ذلك أيضا ببعض المناورات التى لم تنجح فى ايجاد تحالف انتخابى بين المعارضة الدينية والأحزاب المدنية فى التجربة الانتخابية التى جرت سنة ١٩٨٩ (١) ٠

ويدور برنامج الحركة كما نشر فى سنة ١٩٨١ حول بعث الشخصية الاسلامية التونسية المتميزة بالدور القيادى فى أفريقيا وتنقية المفاهيم الاسلامية الحديثة من آثار التغريب كما تناول البرنامج بعض الأفكار الاجتماعية وتحدث عن العدالة فى توزيع الثروة حسب مصلحة الجماعة ٠ وهذا هو البرنامج الذى دعا بعض المحللين الى وصف حزب النهضة بالاستنارة وفى الحقيقة وجدت تيارات أخرى لم يكن لها أثر كبير فى حركة الاسلام السياسى التونسى مثل حركة الجهاد المتفرعة عن حزب التحرير الاسلامى ٠ كذلك فان انشقاق زميل الغنوشى فى مجلس الشورى وهو عبد الفتاح مورو لم يؤثر فى تفوق حزب النهضة وامتصاصه لجمهور المشتغلين بالاسلام السياسى ٠

ويعود انشقاق مورو الى عهد أزمة الخليج حينما لم يشترك مع حزب النهضة فى ميله الى العراق ٠ بيد أن العامل الرئيسى الذى شق حزب النهضة وأخرج منه عبد الفتاح مورو كان يتعلق بأسلوب العنف فعندما تعرضت احدى مراكز حزب التجمع الدستورى الحاكم للتدمير والاحراق سنة ١٩٩١ أحتج مورو على استخدام العنف الذى حظره برنامج الجماعة كما أظهر تفهما لمركز تونس فى العالم المعاصر كاحدى الأقطار السياحية المشهورة والتى يتعذر اتخاذ بعض القرارات بالنسبة لها مثل التعامل فى المشروبات الكحولية ، ولم يفد هذا الاعتدال فى اعتراف الدولة بأتباع

---

(١) فرانسوا بورجا : الاسلام السياسى فى شمال أفريقيا ٠ الفصل الخامس ٠

عبد الفتاح مورو ومن باب اولى أن تخفق محاولة الحوار بين زين الدين بن على فى أول عهده وبين حزب النهضة وزعيمه الغنوشى والذى أفرج عنه الرئيس الجديد ضمن اجراءات تحريرية أراد أن يبدأ بها عهده فبعد أن ظهرت نتائج الانتخابات النيابية فى أبريل ١٩٨٩ وحصل الاسلاميون فيها على ١٢٪ لم يتحمل بن على هذه النتيجة فاضطر الغنوشى الى مغادرة البلاد ٠ ومع ذلك لم يتركه بن على ينتقل بحرية فى الخارج فطلب من مصر عدم استضافته كما اوعز الى السلطات الفرنسية بحرمانه من الاقامة فى فرنسا فأستقر فى بريطانيا منتقلا من حين الى آخر بين كندا والولايات المتحدة حيث كان يلقى محاضرات فى الدين والفلسفة يمكن أن تروق للمفكرين العصريين ٠

لقد انتهت حركة الاسلام السياسى فى تونس ، بعد حادث احــــراق أحد مقرات الحزب الحاكم الى الاصطدام مع السلطة ولو فى نطاق أضيق كثيرا من الجزائر وأدت هذه الحوادث الى تشريد بقايا أعضاء حزب النهضة أو اعتقالهم ٠ ولم تقتصر اجراءات القمع على التيار الدينى بل ان احزاب المعارضة المدنية التى سعى بن على على استمالتها وجدت فى المناخ العام السائد مالا يشجع على النشاط السياسى فقررت مقاطعة الانتخابات المحلية التى تكررت سنة ١٩٩١ ٠

الفصل الثالث والعشرون

عــــلاقات تونس الخارجية

يمكن تتبع أصول السياسة الخارجية التونسية من خلال التصريحات التى صدرت عن الحبيب بورقيبة منذ عهد كفاحه ضد الحماية · فهو قد حدد مثلا شخصية تونس منذ سنة ١٩٢٧ بقوله أنها حلقة اتصال بين حضارتين : الحضارة الشرقية ترتكز على المشرق العربى والحضارة الغربية السائدة فى غرب أوربا · وقد ظهرت أفكار مشابهة فى ذلك الحين بين مفكرى مصر ولبنان عرفت بالفكرة المتوسطية ومؤداها أن ثمت روابط حضارية تجمع بين شعوب البحر المتوسط سواء كانت تتحدث العربية أم تسكن الشاطىء الأوروبى · وان هذه الروابط تميز عرب البحر المتوسط عن غيرهم من عرب البلاد الأخرى ·

١ ـ العلاقات العربية :

وعندما استقلت تونس سنة ١٩٥٦ كان تيار القومية العربية فى تصاعد وهى الفكرة التى لم يقتنع بها الحبيب بورقيبة باعتبارها نقطة انطلاق لوحدة سياسة تتمتع بالشعبية · ذلك أن أستقلال تونس تعاصر مع اعداد للوحدة المصرية السورية ، ومع تاييد المشرق العربى ماديا ومعنويا لثورة الجزائر ، واختلطت حركة الوحدة العربية بالزعامة الناصرية ، ومن شأن ذلك كله أن يقلق الحبيب بورقيبة خاصة وأن عبد الناصر ابدى عطفا على حركة صالح بن يوسف المنشق على بورقيبة ·

ومن جهة أخرى لم يكن بوسع الزعيم التونسى أن يتحدى كل هذه التيارات التى تتمتع بشعبية واسعة ، كما أن الأزمات فى علاقات تونس المستقلة حديثا مع فرنسا تكررت : غارة الطيران الفرنسى على ساقية بن يوسف سنة ١٩٥٨ ، والاختلاف حول تصفية قاعدة بنزرت سنة ١٩٦١ مما كان يضطر بورقيبة الى التقارب من التيار العربى ، الا أن هذا التقارب اختير على مضض ، ولذلك رأى أن يوازن هذا التيار بحركة تجمع أضيق هى حركة المغرب الكبير التى اتخذت بعض الأشكال التنظيمية فى سنة

١٩٥٨ (١) ودعا البعض فى هذه المناسبة الى أن تشمل الحركة ليبيا بالاضافة الى الأقطار الثلاثة التى خضعت للاستعمار الفرنسى وحسب مفهوم بورقيبة للمغرب الكبير فانه يعنى التضامن بين كيانات قائمة بذاتها وليست وحدة سياسية وفى اطار هذا التصور عقدت تونس اتفاقيتين فى بداية عهدها بالاستقلال ، احداهما فى يناير سنة ١٩٥٧ وهى اتفاقية حسن جوار مع ليبيا تضمنت تسهيلات للمرور والاقامة بين رعايا الدولتين . والثانية اتفاقية صداقة وتحالف لمدة عشرين سنة مع المملكة المغربية .

على أن الاتجاه نحو ليبيا اتخذ فيما بعد طابعا آخر وهو فتح مجال للعمل أمام اليد العاملة التونسية حيث أن البلاد تشكو من بطالة مستديمة. وقد صارت ليبيا تمتص بعد كشف النفط عددا كبيرا من العمال التونسيين ، لذلك حينما تحولت ليبيا لفترة قصيرة الى التكتل مع مصر والسودان بادرت تونس بارسال بعثة فى أغسطس سنة ١٩٧٠ للتأكد من أن ذلك لن يؤثر على التسهيلات الممنوحة للعمال التونسيين .

على أن تصريحات بورقيبة عن السياسة الخارجية كانت تشير الى وجود اطارات تدور فيها السياسة الخارجية التونسية ففى ١٦ مايو سنة ١٩٥٧ قال انه يسعى لاقامة مغرب كبير بأجزائه الأربعة وأن لهذا المغرب شخصيته البارزة فى اطار عالم عربى ثم اسلامى ، ثم آسيوى أفريقى . وفى فبراير سنة ١٩٥٨ وافق بورقيبة على أن تشكل دول المغرب الثلاث التى كانت تابعة لفرنسا علاقة خاصة مع الدولة الاستعمارية السابقة فى مقابل التنازل عن السيادة الفرنسية على الجزائر . ولابد انه اختلف فى هذا التصور لمستقبل المغرب الكبير مع معظم الوطنيين المغاربة .

واذا تتبعنا علاقات تونس بالدول العربية نلاحظ أنها تميزت بعدم الاستقرار . فكانت فى معظم الأوقات ترفض المشاركة فى أعمال الجامعة العربية بحجة أنها واقعة تحت سيطرة بعض الدول الأعضاء ونشأ التوتر غالبا عن الخلاف فى اتجاهات السياسة الخارجية . فبينما تبنت بعض الحكومات العربية سياسة معادية للغرب انتقد بورقيبة هذا الاتجاه . واذا ألقينا نظرة على العلاقات بين مصر وتونس منذ استقلال الأخيرة وحتى

---

(١) أنظر الفصل الختامى من هذا الكتاب عن العلاقات المغاربية .

وفاة جمال عبد الناصر نلاحظ أن السنوات التى انقطعت فيها العلاقـات الدبلوماسية بين البلدين أو جمدت خلالها تزيد على تلك التى قام فيها تمثيل دبلوماسى على مستوى السفراء • ففى أعقاب الانسحاب من الجامعة العربية تنقطع العلاقات بين البلدين نحو ثلاث سنوات . ثم تعود وتتحسن أثنـاء الصراع مع الفرنسيين بخصوص قاعدة بنزرت • ولاتلبث أن تسوء مـن جديد حينما تتهم مصر بتشجيع مؤامرة قام بها بعض الضباط فى الجيش التونسى سنة ١٩٦٢! . وفى العام التالى يطوى النسيان هذا الحادث مؤقتا ويشترك الرئيس المصرى فى احتفالات الجلاء عن بنزرت فى أكتوبر سنة ١٩٦٣ وتعقب ذلك فترة من التعاون بين الحكومة التونسية وبين الجامعـة العربية كما يتضح ذلك من اشتراك تونس فى مؤتمرى القمة العربيين اللذين انعقدا خلال عام ١٩٦٤ وفجأة انعكس الموقف بسبب تصريحات أدلى بهـا بورقيبة أثناء جولته فى الشرق الأوسط فى ربيع سنة ١٩٦٥ وتنـاول فيها قضية فلسطين وعبر عن آراء كانت تبدو مضادة للرأى العام العربى فى ذلك الوقت •

وقـد تطور موقـف بورقيبـة من القضـية على النحـو التالى : ففى بداية الأمر شبه بورقيبة وضع اليهود فى فلسطين بالمستوطنين فى الجزائر• ومعنى ذلك أن مآلهم الى الزوال • ثم أخذ يعدل من نظرته ويطبق علـى قضية فلسطين سياسة المراحل ، تلك السياسة التى أتبعها هو فى تـونس لمواجهة الاستعمار الفرنسى ووفق فيها لظروف خارجة عن تخطيطه كمـا رأينا • وقد لمح فى مؤتمر القمة العربى الأول بأن سياسة المراحل تشبه الخطة العسكرية بل قد تكون مفيدة لها ولاتتناقض مع الهدف النهائى ثم وضـح نظريته بصورة أدق خلال جولته فى الشرق العربى حيث قال انه لا بأس من التفاهم مع الاسرائليين مباشرة اذا كان هذا التفاهم سيؤدى الى كسب جزئى • فمثلا يمكن التفاوض على اساس انكماش اسرائيل فى الحدود التى رسمها تقسيم الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ على أن يستفاد من الأقاليم التـى تسترد منها فى توطين اللاجئين • كما أن هذا العرض يمكن أن يحـرج أسرائيل دوليا (١) •

---

(١) نشرت وزارة الاعلام التونسية هذا الرأى فى كتيب بعنوان الحبيب بورقيبه وقضية فلسطين •

أثار هذا التصريح فى حينه ضجة كبرى ، ومما زاد الرأى العام العربى سخطا أن حكومة تونس كانت احدى حكومات عربية ثلاث رفضت قطع العلاقات الدبلوماسية مع حكومة المانيا الغربية التى اعترفت فى ذلك الوقت أيضا باسرائيل . وخرجت ليبيا والمغرب بذلك عن قرار الجامعة العربية . ويلاحظ ان الرد الرسمى الذى وجهه مؤتمر القمة العربى الثالث على تصريحات بورقيبة كان هو أن اسرائيل نفسها ترفض تلك المقترحات. وعلى كل حال فانه على المدى البعيد تبينت وجاهة أفكار بورقيبة .

ازدادت العلاقات بعد ذلك توترا بسبب رد الفعل العنيف الذى أحدثه موقف بورقيبة من مسألة اليمن . فبالرغم من أنه كان ينتقد النظام الأمامى واعترف بالجمهورية بعد قيامها . فانه عاد وسحب ذلك الاعتراف فى أوائل سنة ١٩٦٧ وانضم الى السعودية فى دعواها امام مجلس الأمن بأن حكومة عبد الناصر تستخدم الغازات السامة فى حرب اليمن . وتبدلت الأحوال بعد حرب يونيو سنة ١٩٦٧ واعتبر بورقيبة ان موافقة مصر على قرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ دليل على اتفاق وجهتى النظر ازاء الوسائل التى تعالج بها مشكلة الشرق الأوسط ، ولكن رأيه فى الجامعة العربية لم يتغير بدليل هجوم جديد شنه عليها متهما اياها بالخضوع لهيمنة احدى دولها يعنى مصر . وعلى العكس ادت حرب يونيو ١٩٦٧ الى ازمة بين سوريا وتونس ذلك لأن المظاهرات التى شهدتها البلاد كرد فعل على الهزيمة اتهم قادتها بالتبعية لحزب البعث ومن ثم قطعت العلاقات مع حكومة دمشق .

وكان موضوع تخطيط الحدود بين تونس والجزائر مايزال محل الخلاف . وترجع هذه المشكلة الى فبراير سنة ١٩٥٩ حينما طالبت الحكومة التونسية بقسم من الصحراء وقالت أن حدود تونس قد عينت شرقا وغربا ولكنها تركت دون تحديد من جهة الجنوب مع أن التونسيين هم الذين بنوا الحصون فى هذا القسم من الصحراء الواقع من الجنوب الى برج البوف وهم الذين تحملوا الأعباء المالية . وفى اثناء الصراع حول بنزرت أرسلت بعض الوحدات للتظاهر أمام الحصون الفرنسية فى تلك المنطقة مع العلم مقدما بانها لن تفيد من الناحية العسكرية ، فأهابت الحكومة الجزائرية المؤقتة بالمسئولين فى تونس بأن يؤجلوا تسوية هذه القضية ريثما تحصل

الجزائر على الاستقلال ، غير أنها بقيت معلقة حتى يناير سنة ١٩٧٠ حينما اعترف بخط الحدود الذى كان قائما فى العهد الاستعمارى وذلك طبقا لوجهة النظر الجزائرية . وتعهدت الجزائر بأن تمد بعض خطوط أنابيب البترول عبر الاراضى التونسية . على أن هذا الاتفاق لم يكتمل بترسيم الحدود على الطبيعة وبقى ذلك معلقا الى أن أحدثت حركة الاسلام السياسى رد فعل عنيف لدى الحكومتين . وفى اطار التعاون الوثيق فى المجال الأمنى لمواجهة هذا التيار تم الترسيم نهائيا فى فبراير ١٩٩٣ .

ويبدو أن الحبيب بورقيبة أراد أن يصحح نظرة الرأى العام العربى اليه . خاصة وأنه أيد قيام حركة مقاومة فلسطينية ، وقال أن ذلك أجدى من مواجهة الدول العربية فى المشرق لاسرائيل فى حرب نظامية . وبمناسبة وقوع الصراع فى الأردن بين الملك حسين وبين المنظمات الفلسطينية ، اتخذ بورقيبة لأول مرة موقفا نشطا فى أحدى القضايا العربية حين كلف الباهى الأدغم رئيس وزراء تونس بمسئولية اللجنة التى نيط بها تنفيذ قرارات مؤتمر القاهرة للتوفيق بين المقاومة الفلسطينية وبين ملك الأردن . ومن المعروف أن تلك اللجنة لم تتمكن من أداء مهمتها ، ولعل أبرز نتائجها تتعلق بأوضاع تونس المحلية ، فقد أتاح غياب الباهى الأدغم فترة طويلة عن الأردن الفرصة لكى يتولى الهادى نويرة رئاسة الوزارة ويتطلع الى خلافة الرئاسة التى يبدو أن الأدغم فكر فيها أيضا .

ازداد التوتر بين ليبيا وتونس اذن كصورة من صور الحرب الباردة وكانت مغامرات القذافى تزيد الموقف اشتعالا . فعندما استولت جماعة مسلحة على قفصة نسبت العملية الى تحريض من حكومة طرابلس واتخذ القذافى من جموع العمال التونسيين العاملين فى ليبيا أداة ضغط فهو يلوح بطردهم فى حالة استمرار مضى الحكومة التونسية فى التحالف مع الغرب وسوف ينفذ هذا التهديد فى أواخر الثمانينات .

لقد وجدت تونس نفسها ودون تخطيط مسبق تدخل فى دائرة قضايا المشرق فكانت من بين الدول التى قطعت علاقاتها مع مصر أثر معاهدة السلام مع اسرائيل وطبقا لمقررات مؤتمر بغداد ولكن دون أن تنضم الى مجموعة الدول العربية التى سميت بالصمود والتصدى ولعل هذا الموقف

السلبى كان أحد العوامل فى اختيار تونس مقرا لجامعة الدول العربيــة بدلا من القاهرة واعتبر هذا الاختيار باعثا للشعور بالكبرياء الوطنى سيما وأن أحد مواطنى تونس وهو الشاذلى القليبى انتخب أمينا عاما جديــدا للجامعة العربية واحتل المنصب الذى أستأثرت به مصر منذ تأسيس الجامعة وعلاوة على نقل المقر انتقلت قيادة منظمة التحرير الى تونس وجاء تحول هذه الأجهزة المختلفة الى العاصمة التونسية ليشكل مصدرا هاما من موارد السياحة التونسية ٠

ان حكومة تونس التى لم تول عناية كافية لتطوير قواتها المسلحــة لم توفر الحماية المطلوبة لحياة القادة الفلسطينيين ففى احدى الليالى تمكنت مجموعة من الموساد الاسرائيلى من اختراق العاصمة والوصول الى مقــر اقامة أبو جهاد الشخصية الثانية فى منظمة التحرير الفلسطينية وأستطاعت المجموعة اغتيال الرجل وبعض حراسه وعادت بسلام الى الساحل حيث وجدت الوسائل اللازمة لعودتها الى اسرائيل ٠

ويمكن تفسير السلبية التامة التى اتبعها زين الدين بن على ازاء أزمة الخليج برغبته فى البعد عن الانقسامات العربية ومن ثم الاحتفاظ بمقــر جامعة الدول العربية داخل بلاده باعتبارها محايدة بين الأطراف العربيــة المتصارعة وهكذا كان الزعيم العربى الوحيد الذى امتنع عن الحضور فى مؤتمر القمة المنعقد بالقاهرة للنظر فى معالجة الأزمة اثر وقوعها ، ولم يفد هذا الحذر كما هو معروف فى ابقاء المقر الذى تقرر اعادته حســـب الميثاق الى العاصمة المصرية ٠

وفى نفس الوقت الذى اقتربت فيه حكومة تونس من شئون المشرق. سويت الخلافات المعلقة مع الجزائر بين عامى ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ وكانــت العلاقات قد توترت بين تونس والجزائر بعد التجاء طاهر الزبيرى الـــى تونس سنة ١٩٦٧ عقب محاولته الانقلابية الفاشلة ٠

وعلى حين سويت الخلافات مع جيران الغرب ، ظهـر على الجانب الشرقى تيار جديد معاكس للسياسة البورقيبية يتمثـل فى حركة القذافى المعادية للغرب كما ان أفكار الرئيس التونسى تتعارض مع نظيره الليبــى

فى مبادىء الوحدة العربية . لذلك يصعب تفسير تلك الخطوة المسرحية التى أعلن عنها فى ١٢ يناير ١٩٧٤ فعلى أثر زيارة القذافى لتونس أعلن عن قيام اتحاد اندماجى بين البلدين يتولى رئاسة الدولة فيه الحبيب بورقيبة على أن يكون القذافى نائبا للرئيس • وبعد يومين فقط من هذا الاعلان أقيل محمد المصمودى وزير الخارجية كدليل على تراجع بورقيبة عن هذه الخطوة • والواقع ان فكرة الوحدة الاندماجية مع ليبيا لم تلق قبولا شعبيا فىتونس . ربما لعدم الثقة بنوايا القذافى والذى يصعب تفسيره هو مسلك بورقيبة • فهل تم الاعلان دون أخذ موافقته على التفاصيل . ولذلك سارع الى اقالة وزير خارجيته ، أم أنه تصرف لتحقيق مصلحة ذاتية عاجلة ؟ على اية حال فان هذه الخطوة ذهبت دون أن تترك أثرا وراح كل فريق يتهم الآخر بانه قد عرقل مسيرة الاتحاد • ولاشك أن حكومة تونس أخذت تنظر بقلق الى تصاعد تسلح ليبيا من الاتحاد السوفييتى خاصة وأنها صارت محاطة من جهتين بدول صديقة للكتلة الشرقية ، بينما حافظ بورقيبة على مبدأ التقارب من الغرب • ولعل ذلك الموقف هو الذى أخرجه عن سياسته التقليدية التى كانت تعارض تقوية القوات المسلحة ، وأقبلت كل من الولايات المتحدة وفرنسا على تسليح تونس فى اطار امكاناتها المحدودة •

كانت تونس منذ العهد الرومانى وفى بعض المؤلفات العربية تعرف بافريقيا ومن هذا المنطلق التاريخى نشطت حكومة تونس بعد استقلالها فى قارة أفريقيا جنوب الصحراء كما أسمى الحزب الحاكم احدى صحفه الرسمية باسم أفريقيا الفتاة • وقد تبنت تونس منذ البداية النظرية الواقعية القائلة بأن الدول الأفريقية الحديثة تلتزم بالتقسيمات التى وضعت فى العهد الاستعمارى تجنبا للمنازعات • وتمشيا مع هذه النظرية كانت أول قطر عربى يعترف بموريتانيا رغم ما أدى اليه ذلك من اساءة للعلاقات بين تونس والمملكة المغربية وانقسام فى حركة المغرب الكبير • ولما كان بورقيبة من المعجبين بالثقافة الفرنسية فقد دفعه ذلك الى توثيق العلاقات مع الأقطار الأفريقية الناطقة بالفرنسية وهو يرى فى هذه الأقطار مجالا لأظهار تفوق تونس باعتبارها تضم عددا أكبر من الكفاءات الادارية القادرة على العمل فى افريقيا الناطقة بالفرنسية ، وتتفق وجهة النظر هذه مع مبدأ الفرنكفونية الذى تبنته فرنسا وهو يستهدف استمرار ارتباط مجموعة الأقطار

الناطقة بالفرنسية مع الدولة الاستعمارية السابقة على أسس ثقافية بدلا من الأسس الاستعمارية القديمة ٠

٢ - تونس والمغرب :

ظلت العلاقات مع فرنسا هى محور السياسة الخارجية التونسية لأكثر من عشر سنوات نظرا الى ان انهاء الحماية فى ٢٠ مارس لم يعن زوال جميع الامتيازات السابقة فقد بقيت امتيازات واسعة فى القضاء والاقتصاد فضلا عن وجود قوات فرنسية متناثرة فى جميع انحاء البلاد ٠ وبالنسبة للقضاء فقد تم توحيد جميع انواعه من شرعى وأجنبى فى سلك واحد هو القضاء الوطنى وذلك فى يوليو سنة ١٩٥٧ ٠

أما الامتيازات الاقتصادية فقد تأثرت تأثرا مباشرا بسبب فتح الأراضى التونسية أمام جيش التحرير الجزائرى ٠ فقد ادى ذلك الى أن تقطع فرنسا معونتها المالية وبالتالى فسخ الاتحاد الجمركى القائم بين البلدين ٠ ونتج عن ذلك أيضا ان امتنعت الحكومة الفرنسية عن تقديم أى نوع من انواع الأسلحة الى تونس بما فى ذلك الأسلحة اللازمة للشرطة ٠ وحينما توجهت تونس بطلب هذه الأسلحة الخفيفة الى بلجيكا وأجيبت الى طلبها قدمت فرنسا احتجاجا شديدا فامتنعت حكومة بروكسل عن توريد الأسلحة ارضاء لجارتها ٠ كذلك حجزت اسلحة مستوردة من المانيا الغربية فى وهران ٠

وبلغ هذا التوتر ذروته بسبب تتبع سلاح الطيران الفرنسى لجيش التحرير الجزائرى فوق الأراضى التونسية وفى ٨ فبراير سنة ١٩٥٨ تعرض المدنيون فى ساقية سيدى يوسف التونسية لغارة واسعة النطاق سقط خلالها عديد من الضحايا وانقطعت العلاقات بين البلدين ٠ واتجه بورقيبة فى هذه المناسبة الى فكرة اقامة توازن فى علاقاته الخارجية بحيث لايعتمد على فرنسا اعتمادا كليا ، وبدل أن يقيم التوازن بين المعسكرين الشرقى والغربى وهو مايعرف بسياسة الحياد ، تصور اقامة هذا التوازن بين دول الغرب الكبرى نفسها ٠

ففى سبيل الحصول على السلاح لم يتجه الى الكتلة الشرقية بل طلب الى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا تزويده ببعض الأسلحة الخفيفة

فاستجابت الدولتان لهذا الطلب ، وأحدث ذلك ازمة فى العلاقات بين دول حلف الاطلسى ، وبادرت الولايات المتحدة الى تبرير موقفها أمام فرنسا بانه يهدف الى منع تونس من التحول الى استيراد الأسلحة من الكتلة الشرقية ، وبالتالى الى فقدان صديق معروف بحبه للغرب كما حدث فى بعض البلدان العربية الأخرى ٠

ولم تؤد هذه السياسة الى ماكان يبغيه بورقيبة ، فان الدول الغربية الكبرى لاتعرض علاقاتها للازمات من اجل مشكلات تعتبرها ثانوية وهكذا اقتصرت الأسلحة التى ارسلتها كل من بريطانيا والولايات المتحدة حسب تصريحهما على تلك التى تستعمل للمحافظة على الآمن الداخلى ، بل ان الولايات المتحدة ظلت تعتبر تونس منطقة نفوذ فرنسية فاعتمدت لها اعانات ضئيلة فى بداية الأمر استنادا الى أن فرنسا هى المسئولة عن تونس اقتصاديا ثم تاكد فشل هذه السياسة اثناء أزمة بنزرت حينما تضامنت الولايات المتحدة مع فرنسا ٠

ومما يذكر بهذه المناسبة ان الولايات المتحدة أيدت فى وقت ما فكرة قيام حلف دفاعى لغرب البحر المتوسط ٠ تلك الفكرة التى راجت فى اوائل سنة ١٩٥٨ وكانت تبنى على اساس دخول دول المغرب التلاث وأسبانيا وفرنسا فى حلف عسكرى تحت قيادة الأخيرة وفى مقابل ذلك تنال الجزائر استقلالها . الا ان فرنسا اذ رحبت بالفكرة رفضت أن تقدم آية تنازلات فى مقابل تزعمها لهذا الحلف العسكرى الذى يشمل الحوض الغربى للمتوسط (١) ٠

تاثرت كل من تونس والمغرب بأحداث الثورة الجزائرية غير ان تأثر تونس كان أعظم شانا وانعكست آثاره بصورة أوضح على العلاقات بينها وبين فرنسا ويرجع ذلك لعدة أسباب : ان معالم الحدود اقل وضوحا بين تونس والجزائر منها بين الجزائروالمغرب ، هذا اذا كانت ثمة معالم جغرافية واضحة أصلا تفصل بين الأقطار الثلاثة ٠ أن تونس تقع بين الجزائر ودول المشرق العربى وتمر عبر أراضيها الامدادات التى تاتى معظمها من هذه

---

1. Le Monde 13-1-1958.

الأقطار . وتمركز جبهة التحرير . ثم الحكومة المؤقتة فى مدينة تونس · وقد احتفظت جبهة التحرير الجزائرية بتشكيلات عسكرية ضخمة فى الأراضى التونسية مما استدعى توقيع اتفاق بين الجبهة وبين الحكومة التونسية فى فبراير سنة ١٩٥٨ لتنظيم عمليات نقل المهمات الحربية الى الجزائر عبر تونس· فتعهدت جبهة التحرير باحترام سيادة تونس فلا تقوم بأعمال حربية فوق اراضيها وتبلغ الحرس الوطنى التونسى عن الأسلحة التى تريد نقلها عبر أراضيه حتى يتولى بنفسه هذه المهمة ·

وبسبب المشكلة الجزائرية انقطعت العلاقات الدبلوماسية بين تونس وفرنسا اكثر من مرة وذلك خلافا لما كان يخطط له بورقيبة أصلا مـــن اقامة علاقات طيبة بين البلدين بعد الاستقلال · قد انقطعت اولا فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ بمناسبة حادث الطائرة . وثانيا فى أعقاب الغارة الفرنســية على ساقية سيدى يوسف ·

عجلت هذه الأحداث بمطالبة تونس تصفية القواعد الفرنسية · وعند الاستقلال كان مايزال يرابط فى البلاد نحو ٢٥ الف جندى فرنسى ومنذ سنة ١٩٥٧ وافقت فرنسا على اخلاء العاصمة وجمعت الجنود فى قـواعد رئيسية وقد اصبح ظهور الجنود يثير أسوأ المشاعر عند المدنيين بعـــد حادث الساقية وتوسطت الولايات المتحدة وبريطانيا لدى فرنسا لكى تخلى القواعـــد المتبقية فى تونس وتجميع القوات الفرنسية فى بنزرت ومع أن الحكومة الفرنسية وافقت الا أن الجمعية الوطنية فى باريس رفضت الخطة فسقطت الحكومة وبقيت المسألة معلقة حتى تولى ديجول السلطة فأمكنـــه توقيع اتفاقية مع تونس فى ١٧ يوليو ١٩٥٨ نصت على الجلاء فى مدى أربعة اشهر عن القواعد الأربع التى تحتفظ بها فرنسا على أن ينظر فيما بعد فى مستقبل قاعدة بنزرت ·

وتمشيا مع سياسة المراحل انتظر بورقيبة الانتهاء من تنفيذ الاتفاقية ثم سارع بالمطالبة بتسوية مسألة بنزرت وكان مستعدا لقبول فترة زمنيــة يتفق عليها لتحديد موعد للجلاء ولو بعـد عدة سنوات · ومن الحلول التى اقترحها أيضاالدارة مشتركة للقاعدة بين تونس وحلف الأطلسى كما اقترح التساهل فى بنزرت مقابل تساهل فرنسا مع الجزائر ، ولكن فرنسا لـــم توافق على أى من تلك الاقتراحات ·

قرر بورقيبة ان يتبع اسلوبا جديدا فى صيف سنة ١٩٦١ وذلك عن طريق اثارة الاشتباكات لا بقصد اخراج الفرنسيين بالقوة فافكاره تنبثق غالبا عن روح واقعية ، وانما استهدف من وراء هذه الاشتباكات اجتذاب الرأى العام الدولى وقد وفق فى بلوغ هذا الهدف والدليل على ذلك هو انه لم يتردد فى أن يتورط فى نفس الوقت بمطالب اقليمية فى الصحراء وان يوسع هذه المظاهرات الجماهيرية حتى تشمل ذلك القطاع الجنوبى من البلاد وانتهزت الحكومة التونسية فرصة مواتية لخلق الاشتباكات • وقد تحققت هذه الفرصة حينما شرع الفرنسيون فى توسيع منشآت المطار فى أوائل يونيو ، وادت الاشتباكات الى وقوع خسائر فادحة بين التونسيين قدرت بـ ٦٠٠ قتيل و ١٥٠٠ جريح وبذلك صار هناك مايبرر دعوة الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة الى جلسة استثنائية• واصدرت الجمعية العامة باغلبية ساحقة توصية تدعو الفرنسيين الى التفاوض من اجل الجلاء (١) فى ١٩٦١/٨/٢٥ ، واستجابت الحكومة الفرنسية لرغبة الجمعية العامة فصرح الرئيس ديجول فى ٥ سبتمبر بانه يقر بالسيادة التونسية على بنزرت •

ومع ماينطوى عليه التصريح من رغبة فى التمسك بالقاعدة العسكرية فان المفاوضات استؤنفت على ألتو وقدمت فرنسا عدة اقتراحات لاستمرار اشرافها على القاعدة • من ذلك توليها شئون الصيانة وعودة القوات الفرنسية فى حالة الحرب أو حالة التوتر الدولى ، لكن الزمن تخطى مثل هذه الشروط التى فرضت على الدول العربية فى الثلاثينات ولم تنجح فرنسا فى تهديدها بسحب آلاف الموظفين والمدرسين الذين يعملون فى تونس • ولابد أن يكون ديجول قد اقتنع بتغير الاستراتيجية العالمية ولم يعد يرى فى التمسك بالقاعدة ضرورة عسكرية لفرنسا خاصة بعد ان تقرر الاعتراف باستقلال الجزائر . وقد اجلت المفاوضات بالفعل ريثما تتم تسوية القضية الجزائرية وصار الخلاف يدور فى هذه الحقبة حول المدة اللازمة لاتمام الجلاء ، وفى يوليو سنة ١٩٦٢ وافقت فرنسا على تحديد جدول زمنى للجلاء فى خلال ٢١ شهرا • ثم اختصرت المدة فتم الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٦٣ •

---

(١) الحبيب بورقيبه حياته وجهاده . وزارة الاعلام التونسية •

ماكادت تسوى مشكلة القواعد العسكرية حتى انتقلت الحكومة التونسية الى « معركة استرجاع الأرض » والواقع ان عديدا من المستوطنين كانوا قد رحلوا عند اعلان الاستقلال فصدر قانون فى ٨ مايو سنة ١٩٥٧ يخول للدولة ملكية بعض هذه الأراضى . وقد حرصت تونس على ابعاد المستوطنين عن مناطق الحدود القريبة من الجزائر فى سوق الاربعاء والكاف • وحتى سنة ١٩٦١ كانت الدولة قد استولت على ٢٢٥ الف هكتار . وحسب الخطة العشرية كان لابد من نقل جميع أراضى الاستيطان الى ملكية الدولة أو للمزارع التعاونية فى خلال خمس سنوات ، الا ان الأخذ بمبدأ التعويض عن الأملاك المصادرة حال دون تنفيذ ذلك • فكان لابد من صدور قانون خاص فى ٢٢ مايو سنة ١٩٦٤ يقضى بحظر ملكية الارض الزراعية على الأجانب ويحصرها فى ثلاث فئات : الدولة أو التعاونيات او الأفراد من ذوى الجنسية التونسية • وقد انطبق هذا القانون على نحو ٥٦٠ الف هكتار وسس املاك الكنسية •

وكنتيجة لتضاؤل المصالح الفرنسية اخذت الولايات المتحدة تحتل بالتدريج المركز الاول فى علاقات تونس الخارجية • فصارت تقدم القسط الأكبر من المساعدات الاقتصادية كما ان الحكومة التونسية وقفت منها موقفا يسوده التعاطف حتى بالنسبة لبعض القضايا التى لقيت فيها الولايات المتحدة معارضة شديدة من مختلف انحاء العالم مثل حرب فيتنام ، فامتنعت الحكومة التونسية على الأقل عن النقد •

وقد حدث ان هددت تونس ابان ازماتها مع فرنسا سنة ١٩٥٨ باستيراد السلاح من تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ولكن التلميح كان غاية فى الضعف • ومع ذلك فقد بادرت الولايات المتحدة الى منع مثل هذا التحول • وقد اعتبرت تونس فى بعض الأوقات من دول الحياد فدعيت الى مؤتمر بلجراد لدول عدم الانحياز سنة ١٩٦١ كما اعترفت بالصين الشعبية فى اعقاب زيارة شواين لاى لشمال أفريقيا سنة ١٩٦٤ الا أن ذلك لم يمنع من انتقاد سياسة الصين فى بعض الحالات •

وخلاصة القول أن هذه المواقف لم تكن تنم عن الاتجاه العام لسياسة تونس الخارجية • ومع أن مبدأ الحياد وعدم الانحياز اتبع من الناحية

الشكلية ، وانضمت تونس الى مجموعة الدول غير المنحازة ، الا أن الخط السائد ظل هو الميل نحو الغرب سواء أكان ممثلا فى الولايات المتحدة أم فى دول غرب أوربا • وخلال السبعينات صدرت بين الفينة والأخرى تصريحات لمسئولين تونسيين بالرغبة فى اقامة تجمع اقتصادى ثقافى يشمل بعض اقطار غرب أوربا مع تونس ومن يرغب من دول غرب البحر المتوسط فى الالتحاق بهذا التجمع وتمشت هذه الخطة مع ما سمى بالحوار العربى الأوربى الذى نشط فى أعقاب حرب أكتوبر . ورأت بعض الدول العربية أن تستفيد من هذا الحوار وتستثمر التعاطف النسبى الذى لقيته قضية فلسطين من دول غرب أوربا بالقياس الى الولايات المتحدة • ولم يثمر هذا الحوار بخلق نتائج اقتصادية ملموسة فبقيت الهيمنة الأمريكية تلف كلتا المجموعتين الأوربية والمغربية واكتفى بانتساب دول شمال أفريقيا الى السوق الأوربية المشتركة •

الفصل الرابع والعشرون

القوى السياسية والاجتماعية فى المملكة المغربية

١ ـ نفوذ القصر :

ظهر محمد الخامس في بداية عهد الاستقلال بمظهر الزعيم الوطنـــي الذى شارك فى الكفاح ضد الاستعمار · وفى اثناء المعركة الوطنية ضـــد فرنسا كثيرا ما دارت المطـــالب الوطنية حول اعطـــاء السلطان حقوقـه التقليدية فى ممارسة السلطة وعدم تعدى الحماية عليها . ولذلك اعتبـرت هذه الممارسة بعد الاستقلال مظهرا من مظاهر السيادة الوطنية · وهـــذا مايفسر لنا استئثار الملك بمختلف السلطات رغم ازدهار الحياة الحزبيـــة· وقد كان من المفروض ان يسود نظام الملكية الدستورية طبقا لمطالب الوطنيين وتصريحات الملك نفسه اثناء المعركة ضد الاستعمار · غير أن محمد الخامس اكتفى باقامة جمعية استشارية واعدا الشعب بانشاء نظام نيابى حينما تتهيأ الظروف · والحجة التى استند اليها هى ان الدول النامية تحتاج اولا الى تطوير اجهزتها الادارية قبل أن تفكر فى التطور السياسى · والمغـرب بالذات كان يحتاج الى سلطة فعالة لما تعرض له الوطن من تمزق سياسى فضلا عن اختلاف التركيب الاجتماعى ·

كذلك افتقد المغرب الخبرات اللازمة لتسيير الشـــئون العـــامة · ويرجع ذلك الى ثقل التركة التى خلفها الاستعمار الفرنسى · ففى اخر عهد الحماية كان هناك نحو ٨٠ الف موظف اكثر من نصفهـــم فرنســـيون · واتضحت مشكلة نقص الكفاءات فى عدة (١) مجالات · ففى القضـــاء مثلا انسحب قضاة الصلح الفرنسيون الذين كانوا ينتشـــرون خاصـــة فى المناطق الناطقة بالبربرية فاضطر المغرب الى استبقاء عـــدد منهم · ومن اسباب نقص القضاة المدربين هو ما درج عليه المغرب منذ زمن طويل من عدم الفصل بين السلطات القضائية والادارية · وكان انتزاع الاختصاصات

---

1. Zartman William : Morocco, Problems of new power.

القضائية من رجال الادارة هو من أهم مطالب الحركة الوطنية • فسارعت الحكومة المستقلة الى اجراء هذا الاصلاح والغاء آثار القضاء الخاص بالبربر، ولكنها أضطرت الى تنفيذ ذلك بالتدريج •

وفى عهد الحماية كان استئناف القضايا الهامة يتم فى فرنسا ، فتأسست بعد الاستقلال محكمة عليا فى الرباط للنظر فى القضايا المستأنفة، وعين احد المغاربة رئيسا لها ، كما عين أحد المغاربة ممثلا للنيابة فيها ، الا انه تعذر الاستغناء عن مستشارين فرنسيين يساعدون القضاة المغاربة • وقد قبل المغرب فى السنوات الأولى من الاستقلال عقد اتفاق قضائى مع فرنسا يبيح للمستوطنين تطبيق قانونهم المدنى فى حالة الخصومات التى تقع بينهم •

كذلك استبقى المغرب نحو ١٥٠٠ من ضباط الصف الفرنسيين ، ولو انه بالنسبة للقوات المسلحة كان المغرب أفضل منه فى قطاعات أخرى ويرجع هذا النقص فى الكفاءات الى اهمال التعليم العصرى فى عهد الحماية • فلم تكن الميزانية المخصصة لتعليم الوطنيين تكفى لأكثر من ٥٠٪ من الأطفال فى سن التعليم • وعلى ذلك كان على المغرب ان يجابه مشكلتين فى آن واحد : مكافحة الأمية (١) وتعريب التعليم • ورغم أن حزب الاستقلال المتحمس للتعريب كان مشاركا فى الحكم فانه لم يستطع أن يدفع حركة التعريب بالسرعة التى كانت منتظرة منه •

وبسبب ندرة الخبرات أيضا لم يتمكن المغرب من استغلال مواردة الطبيعية استغلالا مفيدا • فالمغرب هو ثانى أقطار العالم من حيث انتاج الفوسفات والثالث فى انتاج الكوبالت • وتشمل ثروته المعدنية الضخمة كذلك مناجم للحديد والمنجنيز •كما توجد امكانيات عظيمة لتوليد الطاقةالكهربائية• فكيف نفسر بعد ذلك انخفاض مستوى المعيشة بحيث لم يختلف المغرب عن بقية الدول الأفريقية ؟

انه يسير على النظام الاقتصادى المتخلف ، أى يكتفى بتصدير تلك المواد الخام دون الاستفادة بتحويلها محليا ، ثم أن ٨٠٪ من السكان

---

1. La couture, Le Maroc à l'épreuve.

يعيشون على الزراعة أو هامش القطاع الزراعى · كما أن الاستثمـــارات اتجهت فى عهد الحماية الى مشروعات غير صناعية ولو أنها أفادت المغرب من حيث تجهيزه بأحدث وسائل العمران ·

تسابقت رؤوس الأموال الأجنبية على المغرب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية · وعلى عكس تونس والجزائر لم يكن الرأسمال الفرنسى هو الوحيد الذى يستثمر فى البلاد . بل وفدت أموال كثيرة من الولايات المتحـــدة وبريطانيا مستندة الى مبدأ المساواة فى الفرص الذى أقره مؤتمر الجـزيرة سنة ١٩٠٦ واستمر العمل به طوال عهد الحماية · على أنه منذ أن بـدأت الحركة الوطنية تتخذ أسلوب الكفاح المسلح شرعت رءوس الأموال تنسحب من البـــلاد ·

حرص القصر منذ البداية على كســـب ولاء الجيش وتقويته ، فعين الحسن قائدا عاما للجيش حتى من قبل أن تسند اليه ولاية العهد · وآثر الحسن استخدام الضباط والجنود المسرحين من جيش الاحتلال ســـواء أكان فرنسيا أم أسبانيا ، وقدر عدد هؤلاء بـ ٢٤ ألفا · وحاول فى نفس الوقت أن يمتص جزء من جيش التحرير الذى عمل مستقلا عن القصـــر ، ولم يخضع لأى حزب من الأحزاب التقليدية ·

وقد قوبلت هذه المحاولة برد عنيف فى بعض المناطق · ففى تافيلالت بالجنوب الشرقى كان أوبهى قد عين حاكما للواحة مكافأة له على نضالـه فى المعـــركة ضد الاستعمار · ولم يلبث أن أعلن بعـــد الاســـتقلال أن المجاهدين لم يلقوا الجزاء المناسب · ثم تحول الى تحد صريح للسلطة ونسب اليه أنه اتصل بجهات أجنبية كما فسرت حركته بأنها تعبر عن سخط البربر الذين استاءوا من سيطرة حزب الاستقلال على الوزارة ذلك الحزب الذى يمثل عـــرب المدن · وشاهد ذلك أن العصيان لم يعلن بصراحة الا بعـد استبعاد الحسن اليوسى البربرى الأصـــل من وزارة الداخلية وتعييـــن ادريس محمدى مكانه ·

والواقع أنه لم تظهر حركة معارضة عامة باسم البربر ، فهـــؤلاء

أنفسهم لاتجمعهم لغة واحدة ، بل تنتشر بينهم ثلاث لغات ويتعذر التفاهـم فيما بينهم • والأقرب الى الصواب هو أن الخلاف اجتماعى أكثر منـــه لغوى • يتضح ذلك من حركة المعارضة التى نشـــأت بمنطقة الـــريف فى الشمال • فقد تزعمها الدكتور عبد الكريم الخطيب القائـد السابق لجيش التحرير • يساعده محجوب أحردان • أحد الزعماء المحليين • واستندت المعارضة الى عدة حجج • منها تمييز سكان المدن على أهل الأقاليم الزراعية فى المناصب الهامة ، ومنها اهمال الشمال الذى يعانى من فقر شديد حيث كانت الادارة الأسبانية تهمله أهمالا تاما • فلم ينشأ من بين أهله عـــدد كاف يصلح لتولى المناصب الادارية • ثم ندد الخطيب بابعـــاد جيش التحرير وضباطه عن المناصب العليا فى الجيش . مـــع أن أبناءه هم المضحون الحقيقيون فى المعركة الوطنية • ومع ذلك فقد وصفت الحركة فى البـداية بأنها بربرية عنصرية ثم خفف القصر من معاداته لها سنة ١٩٥٨ واعترف بها كحزب سياسى يعرف باسم الحركة الشعبية • أما عصيان تافيلالت فتم القضاء عليه قبل ذلك عسكريا •

تلقى الخدمة العسكرية تقديرا كبيرا فى المغرب الأقصى • وهـــذا مايفسر لنا انخراط عدد كبير من المغاربة فى الجيش الفرنسى والأسبانى • فلما حلت الحكومة الوطنية محل الحماية اهتمت بتدعيم الجيش ، كما ولت الضباط مناصب ادارية . وهى تختلف بذلك اختلافا تاما عن تونس • أما الجزائر فقد اتخذت نفس أسلوب المغرب فى نطاق أضيق وفى خـــلال ست سنوات خرجت الادارة العسكرية المغربية ١٢٠٠ ضابط سواء مـــن مدرسة عسكرية محلية أو من المدارس العسكرية الفرنسية • ونشير بهـذه المناسبة الى أن المغرب ألغى النظام الأسبانى تماما ، واعتبر النظام الفرنسى عاملا موحدا للجيش •

ولوحظ فى ذلك الوقت أن معظم الضباط الجدد هم من أبناء المـــدن الساحلية ولذلك لم يتأثروا بالنزعات القبلية • والسؤال الهام هو : هـــل تأثروا على العكس من ذلك بالمذاهب السياسية المنتشرة فى تلك المدن ؟ من الصعب الاجابة على ذلك فالعمل السياسى محظور فى الجيش كمـــا هو الحال فى تونس حيث لم تنشأ فى الجيش خلايا للحزب الحاكم ، فمـن باب أولى أن تمنع الأحزاب المغربية من ممارسة أى نشاط داخل الجيش •

وقد استخدم القصر الجيش فى قمع حركة العصيان فى تافيلالت • والأهم من ذلك استخدم لكبت المظاهرات العنيفة التى قامت فى الدار البيضاء ورفعت شعارات يسارية ضد القصر • وقد يدل هذا الاستخدام فى مرحلة على ولاء الجيش للقصر ، ولكنه قد يؤدى فى مرحلة أخرى الى اشتغال الجيش بالسياسة ومن ثم احتمالات لجوء بعض العناصر الى محاولات انقلابية كما سيحدث فى عام ١٩٧١ •

صار الجيش اذن الأداة الرئيسية التى تعتمد عليها الملكية غير أن القصر شعر بالحاجة الى قواعد أخرى معنوية يثبت بها نفوذه ، وكان هذا النفوذ فى الماضى يستمد من الزعامة الروحية ، وبانتشار الثقافة العصرية فقدت هذه الزعامة شيئا من هيبتها • ومن القواعد الجديدة التى استنها القصر تعيين ولى للعهد بعد أن كان علماء جامع القرويين هم الذين يبايعون السلطان من بين افراد الأسرة الحاكمة دون أن يكون بالضرورة الابن الأكبر للسلطان المتوفى • هكذا عين محمد الخامس ابنه الحسن وليا للعهد فى سنة ١٩٥٧ وعندما وضع الدستور (١) الأول سنة ١٩٦٢ حصر وراثة العرش فى الابن الأكبر •

وفى أثناء النضال ضد الاستعمار وافق محمد الخامس على نظام الملكية الدستورية ، وظل يعد بعد الاستقلال باصدار دستور ، لكنه رأى أن يتحقق ذلك على مراحل ، فاكتفى فى بداية الأمر بمجلس استشارى عينه بنفسه وعمل على أن يكون ممثلا لمختلف الاتجاهات السياسية والبيئات الاجتماعية • فلما أحس باشتداد المعارضة أصدر فى سنة ١٩٥٨ ميثاقا ملكيا حدد فيه خطوات السير الى الديمقراطية على النحو التالى :

« ان السيادة تخص شخص الملك ، وان مراكش مملكة دستورية باسم المملكة المغربية ، وان الوزراء مسئولون أمام الملك • وسوف يتم الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية مع اعلان الحريات الكاملة • وتقوم مجالس قروية فى الأرياف وأخرى بلدية فى المدن على أساس مدنى حديث وليس اساس قبلى • وستتمتع الجمعية الاستشارية بحق

---

1. Landau : Hassan II King of Morrocco.

المناقشـــة والتصويت على الميزانية وسيتم انتخاب أعضائها من بين أعضاء المجالس البلدية والمحلية • وبعد ذلك يصدر الدستور وتظهر أول جمعيــة برلمانية وطنية تنتخب بالاقتراع العام » •

ويتضح من ذلك ان حجة القصر فى تأجيل الدستور هى أن المجتمع المغربى لم يتهيأ بعد لممارسة الحقوق السياسية الكاملة • وبناء عليه تم تنفيذ الخطوات المعلنة ببطء • ففى مايو سنة ١٩٦٠ شرع فى انتخاب المجـــالس القروية • وللمرة الأولى يشترك أهل الأرياف فى المغرب فى انتخـــابات عامة • أما المدن الكبرى كالرباط والدار البيضاء فقد سبقت الـــى معرفة المجالس البلدية واكتسبت هذه المجالس نفوذا كبيرا منذ أواخر عهـــــد الحمـــاية •

وخاضت الأحزاب السياسية انتخـــابات المجـالس القرويـــة حيث اعتبرتها مجالا لاختبار قوتها وحاول بعض المعلقين اعطاء تقديرات لمركـز كل حزب من الأحزاب السياسية فى هذه المجالس • فقدر أنصــــــار حزب الاستقلال بـــ ٤٠٠٠ وأنصار حزب الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية بـــ ٢٣٠٠ بينما حازت الحركة الشعبية ٧٠٠ مقعد . ونال حزب الشورى والاســتقلال الذى صــــار يعرف باسم الحزب الديمقراطـى الدستورى ٣٠٠ مقعـــد • ولو كانت هذه الانتمـــاءات الحزبية تعبـر عن حقيقة اتجاهات الرأى العام لقلنا أن المجتمع المغربى تطور سياسيا وأن الاتجاهات العصرية والتقدميـة تحتل مكانا بارزا فى هذا المجتمع • ولكن الواقع هو أن المرشحين لم يعوا هـــذه الأنتماءات الحزبية ، ف ٧٠٪ أميون ، ٢٥٪ لم يتلقوا سوى تعليـم أولى فى الكتاتيب • ولذا صـاروا أداة طيعـــة فى يد الادارة ، وتبين أن صلاتهم بالأحزاب شكلية محضة • وفضلا عن ذلك فان المجالس القرويـة نفسها لم تتمتع بصلاحيات هامة • وقد نزعت منها سلطة تحصيل الضرائب المحلية كما ألغيت الضرائب القديمة التى كانت مفروضة على المزارعين وهى ضريبة (الترتيب) والتى كـــان من الممكن أن تزود هــذه المجالس بموارد خـــاصة •

وللمجالس القروية حسب قانون انشائها حق مناقشة المســــائل الاقتصادية الخاصة بالاقليم . ولها أن تصدر التوصيات ويجـب مصـادقة

حاكم الاقليم عليها حتى تصبح نافذة · ويجوز لوزير الداخلية حل تلك المجالس او ابطال قراراتها · اذن هذه الخطوة الأولى فى السير نحو الديمقراطية قليلة الجدوى ·

وعلى المستوى الأعلى استغل القصر صراع الأحزاب وشدد منقبضته على السلطة التنفيذية ففى مايو سنة ١٩٦٠ عين الحسن نائبا لرئيس الوزراء بينما احتفظ الملك بمنصب رئيس الوزراء · وفى نفس الوقت عين محمد الخامس لجنة للنظر فى صياغة الدستور · وكان هذا الاجراء فى حد ذاته مخالفا لأمانى العناصر التقدمية التى ألحت على ضرورة انتخاب جمعية تاسيسية يناط بها وضع دستور · وقبل ان تتقدم أعمال اللجنة توفى الملك فاتبع الحسن اسلوبا اكثر تصلبا فى وضع الدستور اذ استدعى فقيهين فرنسيين واعتمد عليهما اساسا فى صياغة أول دستور مغربى ، ثم طرح هذا الدستور للاستفتاء فى ديسمبر سنة ١٩٦٢ ومع ان الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية أصدر الأمر بمقاطعة الاستفتاء ، فقد صوت نحو ٩ر٣ مليون (١) ووافق ٨٠٪ على المشروع ·

وبمقتضى الدستور الجديد يكون الوزراء مسئولين بصفة فردية أمام الملك · وتتكون السلطة التشريعية من مجلسين : مجلس نواب منتخب بالاقتراع العام المباشر ، وهو مطلق للرجال والنساء · ومجلس أعيان ينتخب بوساطة المجالس البلدية والأقليمية · وللملك أن يقترح القوانين كما أن له حق حل البرلمان · وحسب المادة ٣٥ يجوز للملك اعلان حالة الطوارىء وايقاف العمل بهذه الاجراءات (حماية للدستور) · وسيستخدم الملك هذه المادة لتعطيل الحياة السياسية بصفة عامة عندما تنشب مظاهرات الدار البيضاء سنة ١٩٦٥ ·

ومما يلفت النظر ان الدستور حدد شخصية المغرب فجعل للصفة الاسلامية الأولوية وتليها الصفة العربية · ثم يليها الانتماء الى المغرب الكبير وأفريقيا ·

---

(١) انظر نص هذا الدستور فى مجموعة الوثائق التى تصدرها فرنسا عن شمال افريقيا ·

وعند متابعة الحياة السياسية فى ظل حكم الحسن يلاحظ أنه كان أكثر نزوعا الى الحكم الشخصى من والده بالرغم من أن محمد الخامس نشأ فى بيئة تقليدية ، بينما أن الحسن درس القانون فى فرنسا · وربما يرجع ذلك الى أن الحسن مارس السلطة بالفعل قبل توليه الملك فصار من العسير عليه الاكتفاء بدور ملك رمزى · ثم أن هذا النوع من الملكية غير مألوف فى البلاد النامية · وقد يكون السبب فى ذلك هو انتشار نظام حكم الفرد فى معظم البلاد النامية · فلماذا لا يأخذ الملك لنفسه ما لرؤساء هذه الجمهوريات من سلطات ؟

يلاحظ اذن أن دستور سنة ١٩٦٢ لم يرق الى نظام الملكية الدستورية التى تحقق الديمقراطية السياسية بصورة فعالة · وستؤكد الانتخابات البرلمانية الأولى نفوذ القصر وسيطرته على البرلمان · ومع ذلك لم يتحمل الملك استمرار المعارضة فانتهز فرصة المظاهرات الضخمة التى قامت فى الدار البيضاء سنة ١٩٦٥ وأوقف الحياة النيابية لمدة خمس سنوات · وحينما فكر فى اعادة العمل بالنظام الدستورى قرر وضع دستور جديد يعدفى بعض مواده أكثر محافظة من الدستور السابق ، فهو مثلا يلغى مبدأ الاقتراع المباشر فتتكون الهيئة التشريعية من مجلس واحد عدد أعضائه ٢٤٠ وتقوم الهيئات المهنية واتحاد الغرف الزراعية والتجارية وممثلوا النقابات بانتخاب ١٥٠ عضوا بينما يتم انتخاب الـ ٩٠ الآخرين بواسطة أفراد الشعب على درجتين ، ونص الدستور الجديد أيضا على حق الملك فى حل البرلمان كما دعم نفوذه فى الأسرة المالكة فهو الذى يختار وريثه دون أن يتقيد بالابن الأكبر · كما يعين معظم أعضاء مجلس الوصاية· وقد طرح الدستور للاستفتاء فقرر الحزبان الكبيران وهما : الاستقلال والاتحاد الوطنى للقوى الشعبية مقاطعته · ورغم ذلك فقد زعمت الحكومة أن الموافقة عليه تمت بأغلبية ٩٨٫٥٪ وبناء عليه صدر الدستور فى يوليو سنة ١٩٧٠ · وعند اجراء الانتخابات فى ظل هذا الدستور فاز المستقلون بالأغلبية ، ولم يجد الملك فى الحزب السلطوى الأداة الصالحة لمواجهة المعارضة ·

ذلك أن الحزبين الرئيسيين ظلا يقاومان اغراءات المشاركة فى السلطة· واعتقد الحسن الثانى انه من الممكن مجابهتهما بانشاء حزب سياسى يكون

مجرد واجهة للقصر ، وهكذا تأسس حزب الدفاع عن الدستور ، ثم تبين عدم جدواه ، فليس له جذور تاريخية تشبه حزب الاستقلال ، أو قواعد اجتماعية تشبه الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية ، فاندثر دون أن يشعر به أحد ·

وفى ظل العجز الذى بدا على أحزاب المعارضة واختراق القصـــر لهذه الأحزاب لم يعد هناك مجال للتغيير سوى عن طريق انقلابات عسكرية مماثلة لما حدث فى مصر أو العراق غير أن وضع الجيش فى المغرب كـــان مختلفا اذ أن الموالين من الضباط كانوا يمثلون الغالبية العظمى فى القـوات المسلحة ·

وقعت المحاولة الانقلابية الأولى فى يوليو سنة ١٩٧١ اذ هاجمت فرقة من الكلية العسكرية قصر الصخيرات بقيادة (جنرال مذبوح) بينما كان الملك يحتفل بعيد ميلاده فى ذلك اليوم · ومع أن الفرقة اقتحمت القصر لكن الحرس الملكى تمكن بعد استدعاء قوات موالية على عجل من السيطرة على الموقف وكان الانقلابيون قد استولوا على الاذاعة لعدة ساعات وأعلنوا من خلالها قيام الجمهورية المغربية ·

كان رد الفعل على هذه المحاولة هو مزيد من الكبت والاعتماد علـــى الشخصية البوليسية الجنرال أوفقير فى تدعيـــم حكم القصر وقـــد تبـــع هذا الحادث اجراء محاكمات واعتقالات واسعة لآلاف الأفراد ، مما دفـــع بعض الضباط فى التفكير فى وسيلة أخرى للتخلص من الملك . فكان الهجوم على طائرته فى أغسطس ١٩٧٢ وقد نجا الملـــك بأعجـــوبة رغم أصـــابة الطائرة (١) . واشتبه فى أن يكون أوفقير من المشتركين فى المؤامرة . فلقى مصيره على أيدى الذين طالما أرتكب الجرائم لحسابهم ·

دفعت هذه الأحداث الملك الى محاولة تغيير أسلوبه ، فعاد يدعـــو المعارضة الى الاشتراك فى الحكم ، محـــاولا اجتذابها بتعديل الدستور

---

(١) يعتقد بعض المغاربة ان نجاة الملك فى هذا الحادث تعود الى ما يتمتع به من شخصية دينية باعتباره من نسل النبى ويروون عن ذلك نجاته فى الحادث على شكل أسطورة كما حدثنى عنه عبد الحميد البنانى سفير المغرب بقطر سنة ١٩٧٨ المؤلف· كما اكد الملك اقتناعه بمبدأ البركة · الحسن الثانى · ذاكرة ملك · صفحة ٩٥ ·

ليكون أقرب الى الروح الديمقراطية ، وبناء عليه صدر دستور جديد فى ربيع ١٩٧٢ · الا أن ذلك لم يثن المعارضة عن موقفها ، فعاد الحسن مرة أخرى يتخذ مواقف متصلبة · فيحل اتحاد الطلبة ويتوسع فى الاعتقالات، وخاصة بالنسبة لليساريين · واذا كانت البلاد قد شهدت فى السبعينات حالة من الهدوء . فان ذلك راجع الى اتخاذ اجراءات ذات طابع قومى نجح الملك بواسطتها فعلا فى تحويل الأنظار عن الصراع الداخلى · من هذه الاجراءات توزيع الأملاك الكبيرة ومعظمها لمستوطنين الفرنسيين سابقا على الفلاحين . وقد ترتب على ذلك اصطدام مع فرنسا بشأن التعويض · ومنها ارسال قوات مغربية فى فبراير ١٩٧٣ الى الجولان أدت دورها بكفاءة أثناء حرب اكتوبر . وخلال تلك الحرب أضاف بعض الكتائب الى الجبهة المصرية·

وتعتبر قضية الصحراء المغربية هى المحور الذى دارت حوله شعبية الملك اذ استقطب عدد كبير من المعارضين فى السنوات الأولى التى اقترنت بضم الصحراء الأسبانية السابقة الى الوطن الأم كما يقول المغاربة (١) · وهكذا استطاع الملك امتصاص عناصر معارضة بادخال بعض أعضائها الى التشكيلة الوزارية سنة ١٩٧٦ · وتصور المعارضون امكانية تحقيق نتائج افضل فى الانتخابات نتيجة مشاركتهم فى السلطة ·

وطبقا لدستور ١٩٧٢ جرت الانتخابات على مراحل : مستوى البلديات والأقاليم والانتخابات المهنية وقد حصل الموالون للقصر والمستقلون على اكثر من ٦٠٪ بين ١٩٧٦ و١٩٧٧ ولم يتحسن وضع الأحزاب السياسية المعارضة عندما تلت الانتخابات النيابية فى ظل وزارة اشترك فيها محمد بوستة عن حزب الاستقلال وبوعبيد عن الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية فمن ٢٦٤ مقعدا لمجلس النواب أحتفظ المستقلون والموالون بـ ١٤١ ·

لقد لعبت الحركة النقابية والهزات الاجتماعية دورا أكبر فى تحدى سلطة الملك . بينما كانت الأحزاب السياسية تناور من أجل الحكم قام عمال الدار البيضاء فى سنة ١٩٨١ باضطرابات عنيفة استخدمت فيها القوة من الطرفين ونتج عنها مقتل ٦٦ شخصا ونسبت هذه الأضطرابات الى

1. **Hassan II : Le Défit, Paris, 1976.**

الحزب اليسارى العتيق الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية فسجن زعيمه وعطلت صحف اليسار وأجلت الانتخابات الى سنة ١٩٨٤ بل عدل الدستور بحيث صار تجديد البرلمان كل ٦ سنوات بدل من ٤ سنوات · وعند الغاء الدعم للسلع الغذائية وفى ظل حكومة يرأسها أحد المستقلين محمد كريم عمرانى تجددت حركة الاحتجاج العمالية وسقط فى هذه المرة عدد أكبر من الضحايا ١١٠ من القتلى و١٨٠٠ معتقل ·

صار للمغرب سجل سيىء اثر هذه الأحداث أمام اللجان الدولية المهتمة بحقوق الانسان وظهرت بعض المؤلفات الفرنسية التى انتقدت أسلوب الحكم المغربى مثل كتاب جيل بيرو بعنوان صديقى الملك · ولعل هذه المؤثرات الخارجية بالاضافة الى رفض قسم كبير من الرأى العام المغربى لموقف الملك من حرب الخليج وارساله قوات رمزية ضد العراق هو مادفعه الى اعادة النظر فى تعطيل الحياة الدستورية تلافيا لتجدد الاضطرابات التى اجتاحت بعض مدن المغرب أثناء أزمة الخليج. على أنه فى العام التالى ١٩٩٢ طرح دستورا جديدا على الاستفتاء هو الرابع من نوعه خلال ثلاثين سنة وتضمن الدستور الجديد بعض المواد التى تخفف من السلطات المطلقة الممنوحة للقصر فاللمجلس المنتخب حق اقتراح القوانين واذا لم يوافق الملك على تشريع ما يرد الى المجلس لاعادة النظر ولكن للملك أن يرفضه اذا أصر المجلس على موقفه . فالاصلاح هنا شكلى يبيح لمجلس النواب فرصة ثانية للنظر فى القوانين · وفى حالة اختلاف المجلس التشريعى مع الوزارة لايلزم حل المجلس · وعند تنصيب وزارة جديدة تتقدم ببرنامجها الى المجلس ولابد ان تحوز ثقة اغلبيته حتى تتم مصادقة الملك على التشكيل ·

وقد أعتبر كل من حزبى الاستقلال والاتحاد الوطنى أن هذه الاصلاحات الدستورية غير كافية ودعيا الى مقاطعة الاستفتاء · غير أن بيان الداخلية زعم أن ٩٧٪ ممن لهم حق الاقتراع شاركوا فى التصويت وأن الموافقة تمت بنسبة ٩٩٪ ·

ومما هو جديد بالملاحظة أن الاستفتاء سرى فى هذه المرة على اقليم الصحراء مما أعطى للأستفتاء دلالة سياسية هامة وأستخدم الملك ذلك لتجاهل احزاب المعارضة ·

٢ ـ الأحزاب السياسية :

أشرنا الى أن القصر شـــجع النشاط الحزبى لكى يتخذ من تنافس الأحزاب نوعا من التوازن فى القوى حتى يستطيع أن يسيطر عليها فى النهاية ٠

وقد حاول محمد الخامس أن يبتعد عن الصراعات الحزبية مكتفيـــا بقوى اجتماعية أخــــرى التصق بها النظـــام الملكى وهى الأسر الكبيرة التقليدية ٠ ولاشك أن الحسن اعتمد كذلك على تلك القوى الاجتمـــاعية حينما غير أسلوب أبيه فدخل كطرف فى صراع الأحزاب وحاول ان يضرب بعضها بالبعض الآخر ٠ ولاتمثل الأحزاب السياسية فى المغرب مصـــــالح طبقية فى جميع الأحوال ٠ واذا تأملنا فى نشأة الأحزاب وتفرعها نـــلاحظ أن التكوين الثقافى لعب دورا هاما فى تكتل هذه الهيئات السياسية ٠ فعلال الفاسى يمثل المتشبعين بالثقافة العربية الاسلامية . بينمـــا مثل محمد الحسن الوزانى أبناء البرجوازية الذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية ٠ كذلك يمكن القول أن الفروق الاجتماعية بين حياة أهل الأرياف والمدن لعبت دورا فى تكوين الأحزاب فبينما انتشر الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية بين المثقفين والعمال الذين يتمركزون فى المدن الكبرى . أعتمدت الحركة الشعبية على ســـكان الأريـــاف ٠

وفى عهد النضال ضد الاستعمار كانت الخلافات الطبقية والقضايا الاجتماعية تتوارى خلف القضية الوطنــــية الكبـــرى ، ولكن صــــار من المستحيل تجاهل هذه القضايا بعد الاستقلال . ومن ثم اتخذت الصراعات الحزبية طابعا اجتماعيا جديدا ٠ وحدث انشقاق بسبب ذلك فى صـــفوف حزب الاستقلال فقد كان الحزب يعتمد على أبناء الطبقة الوسطى مـــن تجار وموظفين فى المدن كما يضم أيضا الملاك الزراعيين ولاسيما أصحاب الملكيات المتوسطة ٠ وهو ينتشـــر فى بيئـــات أكثر تنوعا بصفة عـــامة ٠ أما الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية فينتشر بين العمال والمثقفين ٠ وهؤلاء لايوجدون الا فى المدن الكبرى والمتوسطة وفى بعض الحالات دخلت عوامل اقليمية محضة فى تكوين الأحزاب ٠ فقد حدث أن انضم تجار منطقة السوس

الى الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية ، لمجرد أنهم يتنافسون مع تجار فاس انصار حزب الاستقلال (١) .

وقبل أن نعرض بشىء من التفصيل لبرامج الأحزاب الرئيسية نشير الى التقلبات السياسية التى مرت بها هذه الاحزاب . ففى بداية الأمـــر حاول حزب الاستقلال ان يجعل من نفسه المعبر الوحيد عن الوطنية المغربية على أساس ارتباطه السابق بالقصر . وقد احتل بالفعل معظم المناصـــب الوزارية فى وزارة البكاى المحايد الذى كلف بالرياسة فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ فمنح الحزب تسعة مقاعد وزارية مقابل ستة لحزب الشورى والاستقلال . وكان حزب الاستقلال يتخذ من كل مناسبة تبرز فيها السياسة الاستعمارية الفرنسية فرصة للدعوة الى التشدد . فهو يطالب بمزيد من التأييد للثورة الجزائرية ، وبالعمل على استرجاع الجيوب الأسبانية وضم موريتانيا . كما وجه نقده للتهاون ازاء العدوان الفرنسى على قرية الساقية التونسية وحمل على الحكومة لتلكئها فى الانضمام الى الجامعة العربية .

ولكى يقابل القصر هذا التيار المتصاعد من المعارضة رأى ان يحمـل حزب الاستقلال مسئولية الحكم . ربما بقصد وضعه موضع الاختبـــار . فكلف أحمد بلا فريج أمين عام الحزب بتشكيل حكومة جديدة يسيطر عليها حزب الاستقلال فى مايو سنة ١٩٥٨ .

تصادف تكوين الحكومة الجديدة مع وقوع أزمة اقتصادية وتسريح عدد مـن العمـال مما أثار اضرابات عنيفة ، وقد كانت هذه الأحـــداث مناسبة لابراز الخلافات التى كانت تقسم الحزب منذ مدة الى فرعين : فرع يسارى يتزعمه مهدى بن بركة ، وهو أستاذ للرياضة اشتغل بالسياسة ثـم اختير لرئاسة الجمعية الاستشارية التى تكونت على أثر الاستقلال . وفرع يمينى يتزعمه الفاسى . وكان هذا الخلاف معروفا من خلال المقالات التى يكتبها بن بركة فى جريدة العلم الناطقة باسم الحزب . ونادى حينـــذاك بالاشتراكية الديمقراطية ، ثم اضطر بعد ذلك الى استخدام تعبير الملكيـــة الدستورية حتى يتجنب الصدام مع القصر أو قيادة الحزب اليمينية .

بذل علال الفاسى ما استطاع لمنع الانشقاق بين فرعى الحزب ، واقترح

1. Moore, Politics in north Africa.

ادخـــال ابن بركـــة فى وزارة بلا فريج ، غير أن مشكلة العمال جاءت موسعت هوة الخلاف بين الفريقين ، ودلل بن بركة على ميول يسارية أكثر وضوحا حينما قام بزيارة للصين الشعبية ، وحاول القصر ان يلتقى مع اليساريين فى منتصف الطريق . وذلك بأن عهد الى عبد الله (١) بن ابراهيم بتأليف حكومة اخرى فى ديسمبر ، وكان معروفا بميوله اليسارية « المعتـــدلة » والحق ان الملك أدخل كثيرا من انصاره الشخصيين فى تلك الحكومـــة ٠ وعطل جريدة التحرير الناطقة باسم اليساريين ، مما أضطر بن ابراهيم الى الاستقالة بعد قليل . وتمت القطيعة بين الفرعين وأعلن عن انفصال جماعة اليساريين تحت زعامة بن بركة فى يناير سنة ١٩٥٩ وسميت الجماعـــــة الجديدة بالاتحاد الوطنى لحزب الاستقلال . ثم رؤى ان تقطع كل صلاتهـا بالحزب العتيق اذ أختارت أسما جديدا هو «الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية»٠ وسوف يتغير هذا الاسم فى السبعينات الى الاتحاد الاشتراكى للقـــــوى الشعبية ٠

فتح الباب لصراع حزبى جديد بعد هـــــذا الانشقاق ٠ فتنافس الحزبان على النفوذ لدى النقابات العمالية ٠ ورغم أن الاتحاد الوطنى قرر مقاطعة الاستفتاء على الدستور فانه خاض المعركة البرلمانية الأولى ربما ليختبر قوته فى مواجهة حزب الاستقلال وقد أسفرت الانتخابات عن توزيع المقاعد على النحو التالى : ٤١ مقعدا لحزب الاستقلال . ٢٨ للاتحاد الوطنى ٠ أما باقى المقاعد وعددها ٧٦ فقد فاز بها مستقلون يناصرون القصر مباشرة ، وبـــذا صار من المتعذر على أى من الحزبين الكبيرين أن يشكل حكومة أو أن يؤثر فى مجريات الحكم اذ أن مجموع مقاعدهما لو ائتلفا لايشكل أغلبية المجلس ٠ وقد انتهز احد الزعماء الموالين للقصر هذه الفرصة ليجمع حوله النـــواب المستقلين فى اطار حزب سياسى جديد أسماه «حزب الدفاع عن المؤسسات الدستورية » وهو حزب بلا برنامج أو أصول عقائدية ، ويختلف بذلك عـــن الحزبين الآخرين اللذين شكلا معا جبهة معارضة ، ذلك أن حزب الإستقلال اخذ يشعر بالندم على أنه سمح لنفسه أن يكون أداة فى يد القصر ٠ وقـــد تبين له أن الطرف الأخير هو الذى استفاد منه وليس العكس ، لذا اتفـــق

1. Ashford, Politics change in Morocco.

مع الاتحاد الوطنى على الطعن فى نزاهة الانتخابات . ولكنه ظل متمسكا بمبدأ الملكية الدستورية ٠

على أن وجود حزب الاستقلال فى صفوف المعارضة أفقده كثيرا من ميزاته ٠ فقد كان يكسب الأنصار عن طريق اثارة المشاعر الوطنية والدينية ٠ وبمضى الوقت تلاشت دعوى المغرب الكبير واعترفت المملكة بموريتانيا والحدود الجزائرية ، ففقد الحزب كثيرا من مبررات وجوده ٠ أما المشاعر الدينية فقد امتصها القصر لحسابه بالتحمس لمنظمة المؤتمر الاسلامى والتذكير دائما بالزعامة الروحية للملك ٠

وعلى خلاف ماحدث فى سنة ١٩٦٢ وقف حزب الاستقلال موقف المعارضة من دستور سنة ١٩٧٠ وأمر بمقاطعة الانتخابات ٠ أما الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية فقد اخذ نجمه يتصاعد سنة ١٩٦٥ حين عرض عليه الملك اشراكه فى الحكم غير أنه وضع شروطا لذلك وانتهت المساومة بوقوع مظاهرات الدار البيضاء التى حمل الحزب مسئوليتها فصدر القرار بحله ، ثم أغتيل زعيمه المهدى بن بركة فى أكتوبر سنة ١٩٦٥ وحمل الرئيس ديجول وزير داخلية المغرب الجنرال اوفقير مسئولية الجناية التى ارتكبت فوق الأراضى الفرنسية ٠ ولم يؤثر اغتيال بن بركة أو حل الحزب فى نفوذه لدى الفئات التى اعتنقت مبادءه . وهذا شأن الأحزاب العقائدية ، فهى لاتنتهى بموت مؤسسيها او بوضعها خارج القانون ٠ ومما زاد الصراع حدة بين القصر واليسار اعطاء مزيد من الاختصاصات للجنرال أوفقير الذى صار يجمع بين يديه بعض وزرات بالاضافة الى الداخلية ٠

وفى أعقاب حرب يونيو سنة ١٩٦٧ تجددت المظاهرات المعادية للقصر بسبب ترك بعض اليهود يحتلون مراكز هامة فى ميدان التجارة الخارجية ٠ وقد كلفت هذه المظاهرات النقابات العمالية مركزها الشرعى فحلت بدورها مثل أحزاب اليسار واعتقل محجوب بن صديق زعيم أكبر نقابة مغربية ٠ وقد جاء هذا الحل فرصة لكى يجدد الاتحاد الوطنى نشاطه ٠ وكان قد دخل فى صراع غير متوقع مع الاتحاد المغربى للشغل واتهم المنظمة النقابية بمداهنة القصر ، فلما تعرضت بدورها للحل أعاد اليسار تجميع صفوفه وحاول الاتحاد الوطنى أن يعمل تحت أسم جديد هو حزب

التحرير الاشتراكى ، واتخذ طابعا أكثر يسارية وقال انه يتجه للعمـــال والمثقفين ، وأصدر جريدة الكفاح الوطنى ٠

على ان تعطيل الحياة النقابية أثار ضجة فى النقابات الدولية عــامة والأفريقية خاصة ٠ فتدخلت هذه لدى الحكومة المغربية للافراج عن بن صديق واستئناف العمل النقابى ٠ ثم جاءت مظاهرات فبراير ١٩٦٨ بمناسبة الذكرى الثالثة عشر لانشاء الاتحاد المغربى للشغل لتضيف عاملا جديدا من عوامل الضغط اضطرت فى نهاية الأمر القصر الى اطلاق سراح بن صديق والترخيص للنقابة بالعمل من جديد . وصدور الجريدة العمالية اليسارية «الطليعة» ٠

وفى هذه المرحلة التى مال خلالها الاتحاد الوطنى بوضوح الى اليسار. حاول الشيوعيون أن ينضموا تحت لواء حزب التحرير الاشتراكى ٠ وصار شعارهم هو توحيد القوى اليسارية ٠ ولهذا السبب لم يقدموا سوى ثلاثـة مرشحين فى انتخابات المجالس البلدية والقروية حتى تتاح الفرصـــة لليساريين الآخرين ٠ والواقع أن الحزب الشيوعى لم تكن له قواعد قويـة فى المغرب ففى عهد الحماية كان فرعا من الحزب الشيوعى الفرنسى ٠ وبعد الاستقلال لم يتهيأ المجتمع (١) المغربى لتقبل الآراء الماركسية كما أن الحزب لم يتمتع فى وقت ما بالشرعية ٠

كذلك تهاوت الحركة الشعبية التى بلغت أقصى قوتها فى أوائـــل الستينات عندما حصلت على ٧٪ من الأصـوات فى الانتخابات البلديـة والقروية ٠ وتعاونت الحركة بعد ذلك مع القصر بقبول مناصب وزارية حتى بعد حوادث سنة ١٩٦٥ وكان محجوب أحردان هو آخر وزير حزبى ينسحب من الحكومة اذا ما استثنينا أنصار القصر من أعضاء حزب الدفاع عن المؤسسات الدستورية ٠ وانقسمت الحركة الشعبية على نفسـها لهـذا السبب اذ انتقد عبد الكريم الخطيب زميله فى الوزارة ٠

★ ★ ★

٦

يدور محور برنامج حزب الاستقلال حـــول اعطـــاء الصفة العربية

---

(١) ناقش الكاتب المغربى اليسارى عبد الله العروى هذه الآراء فى كتابه الذى نشره بالفرنسية : L'Ideologie Rabe

للمغرب وتوحيـــد التراب المغــربى • ولايستهدف التعريب فقط ونشـــر الثقافة العربية واحلالها محل التعليم الفرنسى ، بل يتوخى الحزب تحقيق الانسجام فى المجتمع المغربى ، وذلك عن طـــريق تعيين الموظفين الاداريين فى مختلف المناطق من بين سكان المدن الذين تلقوا تعليما عربيا •

والثقافــة العربيـــة ترتبط فى تصـــور حزب الاستقلال بالتقاليـــد الاسلامية التى يجب مراعاتها فى الحياة العامة • فهو يشن الحملة علـى العادات الغربية التى انتشرت بين الطلبة . ويركز حملته على الشيوعيين ، ويدعو الى الاكثار من المدارس القرآنية واعتماد المال اللازم لها •

اما أراضى الوطن التى يسعى لتوحيدها فتشمل الجيوب التى احتفظت بها أسبانيا وكذلك الصـــحراء وموريتانيا • كما تبنى حزب الاســـتقلال الدعوة الى اعادة تخطيط الحدود بين الجزائر والمغرب ، واسترداد ما كـان تابعا للسلاطين قبل العهد الاستعمارى • وبنى كل هذه المطالب على أســاس الحقوق التاريخية •

وقد وقف الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية موقفا أكثر مرونة • فهو لم يعارض بعض هذه المطالب ولكنه كان يذكر دائما أن الأولوية لاقامة نظام تقدمى • وفى اطار هذا النظام يمكن الحاق موريتانيا مثــلا • واعترض صراحة على المطالبة بجزء من الأراضى الجزائرية باعتبار أن حكومة الجزائر تعبر عن نظام أكثر شعبية •

ومن حيث نظام الحكم وافق حزب الاستقلال على تطبيق الديمقراطية بالتدريج واشترك فى معظم الحكومات قبل سنة ١٩٦٣ كما صوت بالموافقـــة على دستور سنة ١٩٦٢ رغم نقائصه • ثم أخذ يحمل شعار الاشتراكية منذ سنة ١٩٦٥ ولكنه فعل ذلك بحذر • فهو دائما يذكر بأن اشتراكيته مستمدة من الاسلام • وقد سبق لعلماء المغرب أن حددوا موقفهم من بعض هذه القضايا فى سنة ١٩٦٤ حينما أعلنوا فى مؤتمرهم أن ضريبة التركات تتعارض مـــع الشريعة الاسلامية • ومعروف مابين حزب الاستقلال وعلماء القرويين من صـلة •

ولعل المبدأ الذى يقرب حزب الاستقلال من الدعوة الاشتراكية ولــو

من بعيد هو مناداته بالاصلاح الزراعى ، الا أنه يلاحظ أن الحزب طـــالب أولا بالاستيلاء على أراضى الاستعمار الأوربى والخونة المغاربة · ولم يوافق الا تحت الضغط الشعبى فى سنة ١٩٦٥ على شـمول الاصلاح الزراعـــى لجميع الملكيات الكبيرة ، ويلاحظ انه وضع الاصـــلاح الزراعى فى ذيـــل قائمة المطالب وألح على مبدا التعويض العادل ، بل حدد طريقة التعويض ، فينبغى أن تصرف على شكل سندات حكومية لاتزيد مدتها عن ١٥ سنة · كذلك اختلف حزب الاستقلال فى تصوره للانتفاع بالأراضى المستولى عليها ، فهو يرى أن توزع على الفلاحين لتملكها ملكية خاصة فردية ، بينما دعا الاتحاد الوطنى الى انشاء المزارع التعاونية أو الجماعية · وخلاصة القول أن حزب الاستقلال ظل يوجه كل اهتمامه للقضايا الخارجية ، بينما ركز الاتحاد الوطنى برنامجه على الاصلاحات الداخلية ·

عندما نشأ (١) الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية سلم بمبدأ وجـــود الطبقـــات ولذا سمى نفسه اتحادا وطنيا . لايستبعد من صفوفه ســـوى الاقطاعيين وأعوان الاستعمار . ويعلن ولاءه للقصر حيث يتربـع محمـــد الخامس على العرش · وقد نادى منذ البداية بالاصلاح الزراعى بحيـــث تتراوح ملكية الفرد بين ٤٠ ، ٢٠٠ هكتار ، حسب جودة الأرض ، ولاتزيد عنها كما نبه على ضرورة التصنيع ونقل وسائل الانتاج الحديثة من الأيدى الأجنبية والبورجوازية العليا الى مجموع الشعب ·

ومنذ وفاة محمد الخامس أخذ ينتقد القصر ، وشدد حملته علـــى الطبقات المستغلة ودعا الى تأميم الأرض فتنشأ ملكيات جماعية أو تعاونية· وفى مؤتمر تاريخى للحزب عقد فى الدار البيضاء فى مايو ســـنة ١٩٦٢ كشف الحزب عن اتجاهات شبيهة بالماركسية · فهو يعلن أن الأرض لمـــن يفلحها ، وأنه يجب توجيه الانتاج حسب حاجات الشعب ، كما يجب أن يحقق الانتاج والتوزيع والتسويق أما بواسطة قطاع عام أو جمعيات تعاونية· ويسلم بأن النهوض بالصناعة شرط أساسى للتطبيق الاشتراكى ؛ ويجـب على المغرب أن يستعين بالدول المتقدمة فى مرحلة الانتقال بشرط أن تكـون العلاقات قائمة على أسس حديثة تختلف عن العلاقات الاستعمارية ·

---

1. **Mehdi Ben Baraka, Option Revolutionaire au Maroc.**

وفى تصوره للمغرب الكبير رأى الاتحاد الوطنى أن العبرة ليست بالهدف بل الوسيلة ، فلابد أن يتحقق بوساطة هيئات شعبية ، لاعن طريق حكومات رجعية • ونص على أن هذه الهيئات تتكون من النقابات العمالية والاتحادات الطلابية والهيئات النسائية • وتأتى فى المرحلة التالية بعد المغرب الكبير الوحدة العربية الشاملة ثم التضامن الأفريقى • وفى جميع الأحوال يجب أن تتم هذه الاتحادات بوساطة هيئات شعبية •

ماهى السياسة الاقتصادية التى اتبعتها حكومة المغرب لتواجه هذه التيارات ؟ لقد فكرت الحكومة فى سن أول قانون لاصلاح زراعى فى مارس سنة ١٩٥٨ واقتصر تطبيق القانون على أراضى الاستعمار الأوربى ولاسيما تلك التى استولت عليها حكومة الحماية كما استولت على بعض أملاك الأسر التى ناصبت القصر العداء وقالت أنها ليست بحاجة الى تحديد ملكية ، طالما أنه ما زالت توجد ٧ ملايين من الهكتارات غير مستغلة • ولم تتضح سياسة الحكومة ازاء الأخذ بالاقتصاد الحر او الموجه . ولكنها كانت اميل الى تشجيع القطاع الخاص ، وتتطلع الى المعونات الأمريكية حتى لاتظل تحت رحمة المعونات الفرنسية ولعل هذا من أسباب تشجيع القطاع الخاص الذى كان مايزال فى الستينات يسيطر على ٦٠٪ من الأعمال • ولم يحل ذلك دون وضع خطة خمسية فى سنة ١٩٦٠ تبين أنها طموحة فقد كانت تشتمل على اقامة مصنع للحديد والصلب الا أنها لم تجد الأموال الكافية فتوقف المشروع وأكتفى بأقامة الصناعات الخفيفة والمتوسطة •

على أن أهم ما أخذ على الحكومة هو طريقة ادارتها للأملاك الزراعية المؤممة ، فقد أساءت الادارات الاقليمية استغلالها وكشف النقاب عن استيلاء بعض الموظفين والأعيان على تلك الأراضى ، كما شنت مجلة «المزارع» حملة على تلك الادارة ، وقالت انها تمتنع عن توزيع الأرض ، وأن القيمة الانتاجية للهكتار كانت تتراوح فى الماضى بين ٤٠٠ ، ٢٠٠٠ درهم انخفضت الى ١١٠ درهما • وقد أدى سوء الادارة الى وقوع اضطرابات متكررة بين الفلاحين الذين يطالبون بالأرض ، اتخذ بعضها شكل صدام مسلح بين الفلاحين ورجال الشرطة •

ويمكن القول أن الحركة النقابية لعبت دورا هاما فى حياة البلاد

السياسية والاجتماعية والاقتصادية • ورغم ارتباط الحركة النقابية بالحياة الحزبية فانها فى كثير من المواقف اتخذت اتجاها مستقلا وشجع القصر فى بداية الأمر هذه الحركة باعتبارها احدى القوى التى ينتفع بها فى المناورات السياسية • لم يسمح نظام الحماية الفرنسية بقيام نقابات وطنية الا اذا كانت فروعا من نقابات فرنسية ، ولذا وجد زعماء العمال المغاربة مثل زملائهم فى بقية المستعمرات الفرنسية منفذا لممارسة نشاطهم فى اطار منظمة C.G.T. العمالية التابعة للحزب الشيوعى •

ونظرا لما تبيناه من موقف الشيوعيين الفرنسيين من الحركات الوطنية فى شمال أفريقيا عامة • فمن اليسير علينا أن ندرك مدى تطلع العمال المغاربة الى انشاء نقابة وطنية خاصة بهم • وقد نفذوا تلك الخطة رغم المعارضة الشديدة من حكومة الحماية • ففى مارس سنة ١٩٥٥ أعلن عن قيام الاتحاد المغربى للشغل • ويرجع الفضل فى تأسيسه الى محجوب بن صديق والطيب بوعزة • وكلاهما عضوان سابقان فى الـ C.G.T. وارتبطت النقابة أثناء عهد النضال بحزب الاستقلال الا أنها تفوقت على الحزب من حيث التنظيم وكان لها تمثيل مستقل فى الجمعية الاستشارية ، اذ خصص للاتحاد عشر مقاعد ، كما أن القصر درج على استشارة زعمائها فى الأزمات السياسية ، شأنهم فى ذلك شأن زعماء الأحزاب •

اكتسب الاتحاد المغربى للشغل نفوذا وشهرة واسعة • وتراوحت تقديرات العضوية (١) بين ٣٠٠ ، ٦٠٠ ألف ولم ير القصر فى بداية الأمر أن نفوذ النقابة يهدد أمنه ، فكثيرون من الطبقة العاملة التى وفدت حديثا من الأقاليم كانت تعتقد بتلقى (البركة) من السلطان • على أن الانشقاق الذى حدث فى حزب الاستقلال سنة ١٩٥٩ انعكست آثاره على النقابات العمالية • ولما كان معظمها قد انحاز بطبيعة الحال الى الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية فقد حدثت هوة بين القصر والحركة النقابية •

وفى فرنسا تعتبر الاتحادات العمالية وسائل قوة للأحزاب السياسية وهى تتأثر بالصراع الحزبى ، وقد انتقلت العدوى الى المغرب ، وهنا

---

1. Ashford, Political change in Morocco.

أصاب الضرر الاتحاد من جراء انتمائه للأحزاب وتأثره بانشقاقاتها ، ذلك لأن نظام الدولة مختلف · والظاهر أن محجوب شعر بأغراض هـذا الضرر عندما أقيلت حكومة عبد الله بن ابراهيم دون مبرر ، وبدا فى الأفق احتمال وقوع الصراع بين القصر وبين الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية · فقال: نحن لسنا فى قوة الهستدروت حتى نمنع وقوع انقلاب يهدد وجودنا · ولهذا السبب تحفظ الاتحاد النقابى فى اصدار بياناته فكانت تنتقد سـياسة الدولة فى عبارات عامة · ولم يشأ بن محجوب أن يدخل فى صراع مكشوف مع القصر مما عرضه للتجريح من بعض الساسة اليساريين ·

ولعل من أسباب هذا الاحتياط هو ماتعرض له الاتحاد المغربى للشغل من انقسامات ، فقد آثر ٢٥٪ من الأعضاء استمرار الولاء لحزب الاستقلال· وهم يمثلون غالبا فئات المدرسين وأصحاب المهن الحرة · ومعروف ما بيـن المدرسين وحزب الاستقلال من صلات وثيقة · وقد تلا هذا الانشقاق خروج عدة نقابات على أساس حرفى · فاستقل عمال المناجم بانشاء نقابة خاصة بهم كما لعبت بعض اعتبارات محلية فى توجيه العمال سياسيا ، فصـوت عمال الفوسفات فى خريبجة لزعيم الاقليم رغم أنه لاينتمى الى أى هيئـة سياسية بل لوحظ وجود بعض أبناء الأسر الكبيرة فى زعامات العمـال حتى قيل أن القصر استخدمهم لامتصاص غضب الطبقة العاملة · وواجه الاتحاد صعوبة فى اقامة فروع له بالريف ·

وبصفة عامة كان العمال المهرة فى الدار البيضاء وغيرها من المـدن الكبرى هم الذين التفوا حول المحجوب بن صديق وظلوا يكونون العمود الفقرى للاتحاد المغـربى للشغل · ولـم يسـد الوئام ـ كما ذكرنا ـ بين الاتحاد وبين الزعامة السياسية للاتحاد الوطنى للقوى الشعبية · فاختلف الفريقان حول التصويت على الدستور سنة ١٩٦٢ وبينما قرر حزب القوى الشعبية المقاطعة ، أمر الاتحاد أعضاءه بالتصويت بالنفى والظاهر أن بن بركة لم يكن يتقبل خروج الاتحاد عن التبعية التامة للحزب ·

ومهما قيل عن متاعب الاتحاد المغربى للشغل فانه قد وفق فى الحصول على عدة مكاسب للطبقات العاملة مثل علاوات الأسر · وتجدد نفوذه بعد مظاهرات سنة ١٩٦٧ ومن المعروف أن الحسن حرص على أن يكبت أى تعبير

عن الشعور الوطنى أثناء حرب يونيو ، غير أن الزمام أفلت منه فى الشهر التالى حينما احتج الاتحاد العمالى على بقاء الصهاينة ـ كما قالوا ـ فى مراكز أساسية فى تجارة البلاد الخارجية • وقد أدى الصدام بين القصر والعمال الى عودة بعض الفروع الى الاتحاد المغربى للشغل مثل عمال البريد• وخلاصة القول أن تكتل اليسار فى المغرب منذ سنة ١٩٦٧ أتاح فرصا أفضل للعمل النقابى •

ان استمرار القمع لم يتح بيئة صالحة لنمو الحياة الحزبية كما ان الزعامة الروحية التى ورثها الحسن الثانى عن أسلافه تركت هامشا محدودا لحركة الاسلام السياسى • واذا كان حزب الاستقلال قد حسب على التيار الاسلامى فان مفهوم هذا التيار فى الستينات أختلف عنه فى السبعينات بمعنى أنه فى المرحلة الأولى كان التيار الاسلامى يركز على المحافظة على التقاليد فى وجه التغريب أما فى المراحل التالية فقد صار يسعى الى اقامة الدولة الدينية •

وكانت الساحة التى اقتحمها تيار الاسلام السياسى فى المغرب تكاد تعتمد بالدرجة الأولى على طلبة الجامعات حيث كان للاتحادات الطلابية فى الستينات والسبعينات دور بارز فى المعارضة اليسارية وشيئا فشيئا حل الاسلاميون محل اليساريين فى القيادات الطلابية • وربما كان الصراع بين الاسلاميين واليساريين داخل الجامعات هو أبرز مظاهر حركة الاسلام السياسى فرغم تراجع الماركسية فى العالم فى أواخر الثمانينات كان أول عمل قام به عبد السلام ياسين بعد اطلاق سراحه فى سنة ١٩٨٦ هو نشر كتاب للرد على الماركسية فى العام التالى . ويعتبر عبد السلام ياسين من رواد حركة الاسلام السياسى التى تأخرت فى المغرب الأقصى زمنيا عن مثيلاتها فى تونس والجزائر كما أنها ظلت تعمل فى دائرة محدودة ولم تمثل خطرا على نظام الحكم •

ويعود ذلك الى أن الملك عمق الخطاب الدينى أمام الجماهير بحيث أستطاع أن ينافس حركة الاسلام السياسى ويسحب البساط من تحت أقدامها لصالح الدولة أحيانا ولصالح الطرق الصوفية ذات النفوذ فى المغرب والتى يرى فيها بعض الكتاب تعبيرا عن الاسلام الشعبى • ومن أمثلة اجراءات

الحسن الثانى التى أكدت على خصوصية العلاقة بين السلطة والدين جعل الصلاة اجبارية فى المدارس وتدعيم نشر الوعاظ فى القرى ثم تكوين لجنة سنة ١٩٨٠ من علماء الدين لمراجعة قرارات الحكومة والتاكد من أنها لاتخالف الشريعة الاسلامية . وعندما قرر الانضمام الى التحالف الدولى ضد العراق سنة ١٩٩٠ جمع ٦٠ من العلماء لتأييد موقفه وان لم يمنع ذلك من وقوع مظاهرات معادية اشترك فيها عشرة آلاف طالب فى فاس فقط حيث كان الاسلاميون قد سيطروا على اتحاد الطلبة .

وكان الحسن الثانى اسبق من غيره من الحكام العرب الى فهم الوسائل التى يجب الاستعانة بها لمواجهة حركة الاسلام السياسى فحرص على التحكم فى خطب الجمعة التى تلقى فى المساجد بحيث تقتصر على الموضوعات الدينية البحتة . كما ان طرحه لمشروع قومى يتمثل فى ضم الصحراء حول الأنظار عن المشروع الدينى الذى تتوخاه حركة الاسلام السياسى . بل أن الملك فكر خلال الستينات ان ينشأ حركة دينية تدين بالولاء للقصر فشجع ماعرف بحركة الشبيبة الاسلامية والتى تمخضت عن شخصيات حولت الحركة الى محدى الملك ويشبه هذا التطور تشجيع السادات لحركات الاسلام السياسى التى انقلبت عليه فى نهاية الأمر . الا ان الأمر لم يتخذ نفس الأبعاد فى المغرب . ففى سنة ١٩٧٤ وجه احد اعضاء الشبيبة الاسلامية وهو عبد السلام ياسين المفتش بوزارة التربية والتعليم خطابا الى الملك يدعوة فيه الى الالتزام بالشريعة الاسلامية فى الحكم ولم ينتظر الملك استفحال هذه الأزمة فسرعان ما القى بصاحب الخطاب فى أحدى مستشفيات الأمراض العقلية وبعد الافراج عنه عاد عبد السلام ياسين يمارس نشاطه فأعتقل مرة ثانية الى ان افرج عنه فى سنة ١٩٨٦ وقد أصبح مقتنعا بأن المواجهة مع القصر تؤدى الى مزيد من الديكتاتورية . ومن هنا تحول نشاطه الى مناهضة اليسار فى الجامعات بدلا من مواجهة الدولة وكتعبير عن اهتمامه بمناهضة اليسار سمى عبد السلام ياسين جمعيته باسم العدل والاحسان (١) وبذا لايكون مبدأ العدالة الاجتماعية حكرا على اليساريين.

وخلال فترة نشاطه اتبع عبد السلام ياسين اسلوب الأخوان المسلمين فى

---

(١) فرانسوا بورجا المرجع السابق ، ص ٢١٧ وما بعدها .

النتظيمات الشعبية والأساليب الادارية فلقب نفسه بالمرشد العام وقسم البلاد الى اقاليم ومناطق وتوزع الشعب على مستوى القرية أو البلدة فى كل أقليم · ومثلما فعل عبد السلام ياسين فى نهاية عهده بالحركة الاسلامية بدأ عبد الكريم مطيع حركته بمجابهة التيار اليسارى بل أنه ذهب الى حد استعمال مفردات اليسار · غير أن عبد الكريم مطيع أنتهى امره الى الهرب من المغرب ومواصلة حركة الاسلام السياسى فى أوربا حيث أصدر جريدة «المجاهد» فى بلجيكا وتحول شيئا فشيئا الى تبنى مواقف العنف ولذلك تعرض لأحكام غيابية متشددة ·

ومند السبعينات أتهم عبد الكريم مطيع باغتيال عمر بن جلون رئيس تحرير صحيفة اليسار وعضو بارز فى الاتحاد الاشتراكى للقوى الشعبية ولف الغموض هذا الحادث بشكل يذكرنا باغتيال بن بركة فى الستينات فلم يستبعد البعض أن تكون السلطة هى التى أوعزت باغتيال بن جلون وقد مات بعض المتهمين فى السجن بعد مدة ممن كانوا يعرفون سر هذا الحادث ·

وعبثا حاول أنصار التيار الاسلامى الذين بقوا داخل البلاد أن ينشروا جريدة «الاصلاح» التى هى أقل استفزازا للسلطة من جريدة المجاهد وأن يحصلوا على اعتراف قانونى من السلطة غير أن القصر ظل حذرا ازاء هذه التيارات الجديدة · وقد اختلفت هذه التيارات ازاء قضية محورية بالنسبة للقصر وهى مسألة الحاق الصحراء المغربية فعبد الكريم مطيع التزم الصمت وحينما تكلم آخرون عن قضية الصحراء أعتبروا وحدة الدين هى الأساس اذا أريد الحاق الصحراء بالمغرب · وهكذا كان موقف عبد السلام ياسين أيضا الذى لم يوافق على أن ضم الصحراء هو مشروع قومى أو أن يؤسس على حجة تاريخية وهى التبعية القديمة للأسرة الحاكمة المغربية ، بل على العكس انضم هؤلاء الى الذين نسبوا الى حرب الصحراء المتاعب الاقتصادية المترتبة على نفقات الحرب ومما أفرزته من ارتفاع فى الأسعار الى آخره ·

تقلصت اذن حركة الاسلام السياسى فى المغرب الأقصى مثلما تراجعت أهمية الأحزاب السياسية فى أواخر الثمانينات وتجلى هذا التراجع فى تركيب المجالس النيابية المتوالية وسواء أكانت الانتخابات تتم بحرية أو تتعرض

للتزوير • وقد كان المستقلون عن الأحزاب والموالون للقصر يشكلون دائما اغلبية أعضاء المجلس • ففى الانتخابات التى جرت سنة ١٩٨٤ فاز كل من حـــزب الاتحاد الدستورى برئاسة عبد المعطى بوعبيد بـ ٨٨ وحزب التجمع الوطنى برئاسة أحمد عثمان بـ ٦٥ مقعدا وحزب آخر موالى بزعامة المحجوبى الذى يمثل البربر بـ ٤٨ بينما لم تفز المعارضة ممثلة فى حزب الاستقلال الا بـ ٤٨ مقعدا والاتحاد الاشتراكى للقوى الشعبية بـ ٣٩ من مجموع عدد المقاعد البالغ ٤٠٦ • وهكذا لم تلعب الحياة النيابية دورا بارزا فى تاريخ المغرب المعاصر رغم انتشار الثقافة السياسية بين الطلبة والوعى النقابى بين العمال •

الفصـل الخامس والعشرون

العلاقات الخارجية

لايصح التحدث عن سياســة خارجية مغربية فى السنوات الأولى من الاستقلال الا مع شيء من التجاوز · ذلك آنه كـان على الحكومة المغربية آن تمر بمرحلة انتقالية شاقة قبل أن تملك حرية التصرف فى مقدراتهـــا الخارجية والدليل على ذلك تاخر التحاق المغرب بالجامعة العربية أكثر من عامين رغم مشاركة حزب الاستقلال فى السلطة وما عرف به هذا الحــزب من تحمس للفكرة العربية ·

وصادف المغرب عقبتين رئيسيتين فى سبيل مزاولة شئونه الخارجية : الأولى استمرار بعض الاتفاقيات المعقودة مـــع فرنسا والتــى حدت من سيادة الدولة الخارجية ولاسيما اتفاقية دبلوماسية تنص على تنســيق السياسة الخارجية بين البلدين (مايو سنة ١٩٥٦) · والثانية هى انشغال الحكومة المغربية بتحقيق وحدة التراب الوطنى نظرا الى أن البلاد كانــت مقسمة الى أربعة أقسام تختلف من حيث وضعها القانونى وهى : المحميــة الفرنسية التى تغطى أربعة أخماس البلاد · والمحمية الاسبانية فى الشمال. ومنطقة طنجة الدولية ثم الجيوب الساحلية التى اعتبرتها أسبانيا جزءا من أراضيها مثل سبتة ومليلة وأفنى ·

واذا لم تكن الحـــكومة المغربية قد صادفت صعوبة فى اســترجاع المحمية الأسبانية . فذلك راجع الى أن أسبانيا اعتبرت وضـــع هـــذه المحمية مختلفا عن الجيوب الساحلية . فهى تستمد وجودها فيها من معاهدة الحماية الفرنسية ويشبه وضعها فيها حالة المستاجر (١) من الباطن وبما أن الحماية الفرنسية قد سقطت فى اعلان ٢ مارس . فان الحماية الأسبانية تسقط بدورها تلقائيا ·

---

1. Landau Rome : The Moroccan Drama.

وفضلا عن ذلك فان العلاقات بين القصر وبين أسبانيا كانت وطيدة فى أثناء الصراع ضد الحماية الفرنسية ، اذ أبدت أسبانيا عطفا على الحركة الوطنية ولم تعترف بالسلطان بن عرفة الذى عينه الفرنسيون بعد خلع محمد الخامس . لذلك قام الملك بزيارة ودية لاسبانيا بعيد اعلان الاستقلال . ولم تثر المغرب فى ذلك الحين موضوع الجيوب الساحلية .

١ ـ العلاقات المغربية الفرنسية :

عندما انتهت الحماية استمرت فرنسا تتمتع بامتيازات قضائية واقتصادية هامة . ونظمت هده الامتيازات فى اتفاقيات خاصة عقدت عام ١٩٥٦ . ١٩٥٧ منها اتفاقية قضائية تنص على ان يتمتع المستوطنون الدين يبقون فى المغرب بتطبيق القانون المدنى الفرنسى والتقاضى امام محاكم يشترك فيها قضاة فرنسيون مع مغاربة . هذا بالاضافة الى بقاء بعض المستشارين القانونيين الفرنسيين فى محكمة الاستئناف التى تأسست بالرباط . كذلك تم عقد اتفاقيه اقتصادية تنص على حق الافضليه للبلدين فى تبادل السلع . واتفاقية اقامة لتأمين المستوطنين الدين اختاروا البقاء فى المغرب .

وقد كان تأمين الملاك الزراعيين يثير كثيرا من المشكلات بخلاف أصحاب الأعمال الذين يعيشون فى المدن ، فبقيت نحو ٤٠٠ مزرعة تغطى مليونا ونصف مليون هكتار بأيدى المستوطنين الفرنسيين بعد الاستقلال. وتعرض هؤلاء فى مناسبات عدة للثأر من قبل الجماهير ، كما حدث مثلا عندما اختطف الزعماء الجزائريون الخمسة فى حادث الطيارة فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ وبصفة عامة فان الحرب الجزائرية تسببت فى اثارة التوتر المستمر بين المغرب وفرنسا ، فحينما قتل أحد المحامين اليساريين الفرنسيين فى الدار البيضاء سنة ١٩٥٨ اتهمت الثورة الجزائرية الارهاب المضاد بتدبير هذا الحادث . وخصت بالاتهام المستوطنين الزراعيين الذين يتعاطفون مع أقرانهم فى الجزائر ويساعدونهم على حركة الارهاب المضاد . ومرة ثانية أحرقت بعض المزارع الأوربية النائية ، ولم يكن بوسع الحكومة أن تمنع مثل هذه الأعمال سيما وأن العلاقات فى سنة ١٩٥٨ كانت قد ساءت من جديد بسبب قضية أخرى ، وهى تدخل الجيش الفرنسى لمساعدة الأسبان فى الدفاع

عن أفنى وساقية الحمراء فى الصحراء الأسبانية · وقد كان من المنتظـــر بعـد فتـرة طويلة من التنافس بين الدولتين الاستعماريتين أن تقف فرنســا على الأقل موقف الحياد من النزاع المغربى الأسبانى ، ولكن يبدو أنه جـــد *عاملان دفعا فرنسا الى تأييد أسبانيا بكل قوتها* ·

الأول : هو الخوف من أن يؤدى انتصار مغربى الى التشبث بالمطالبة بموريتانيا وهى ماتزال بعد تابعة لفرنسا · والثانى : أن هذا الانتصار لابد وأن يكون حافزا معنويا أمام الثوار الجزائريين لذلك كان لابد من البت فى فى قضية المستوطنين بعد أن تبين أن المعاهدة لاتكفى لتأمينهم · ونوقش هذا الموضوع على النحو التالى : هل من المفيد بقاء بعض القواعد الفرنسيـة لتأمين هؤلاء المستوطنين ؟ وكان الرد هو أن مثل هذه القواعد البحـــرية والجوية يمكن أن تخدم أغراضا استراتيجية عليا أما تأمين المستوطنين فيتطلب وجود قوات احتلال من طراز مختلف تنتشر فى الداخل على نســق ماكان أيام الحماية . ومن المستحيل ابقاء هذا الوضع بعد الاستقلال · واذا كانت القواعد البحرية أو الجوية لاتخدم المستوطنين بل على العكس قـــد تكون عامل اثارة ضدهم ، فمن الأفضل سحبها سيما وأن حكومة ديجــول اعتنقت مفاهيم استراتيجية جديدة لاتقوم على أساس انتشار القواعد فى الامبراطورية القديمة ، بل على أساس تطوير الجيش الفرنسى وتسليحـه على أحدث الأساليب وتزويده بالأسلحة النووية لكى يكون فعـالا فى المجال الدولـى ·

وكان هذا هو العامل الذى عجل بتصفية القواعد الفرنسية من المغـرب كما أن فرنسا قد شرعـــت فى تخفيض قواتها بعد انتهـــاء الحماية · وقد اتخذت الحكومة المغربية من موضوع التجـارب النووية الفرنسية فى الصحراء الكبرى فرصة لالغاء الاتفاقية الدبلوماسية التـى كـــانت تلزم المغرب بتنسيق شئون الدفاع والشئون الخارجية مع فرنسا ، ودخلت فى مفاوضات من أجل الجلاء حتى توصل الطرفان الى اتفاقية فى سبتمبـر سنة ١٩٦٠ تجلو فرنسا بمقتضاها عن جميع قواعدها فى المغرب فى ميعـاد أقصاه مارس سنة ١٩٦١ (١) باستثناء بعض القواعد الجوية التى يقتصـر

---

1. Landau : Independent Morocco.

تشغيلها على التدريب ، ولكن المعارضة فى المغرب ممثلة فى حـــزب اتحاد القوى الشعبية ظلت تنتقد استمرار بقــاء القـــوات الفرنســية على أى صورة من الصور • فلما تولى الحسن الثانى الملك ، وكانت فرنســا ترجو أن تصرفه عن سياسة التضامن العربى التى بدأها والده ، رأت أن تقـــوى جانبه باعلان استعدادها للجلاء عن تلك القواعد ونفذ الوعد فعلا عند حلول موعده فى أكتوبر سنة ١٩٦١ حينما جلت القوات الفرنسية عن آخر قاعدة جوية لها فى مدينة مراكش •

ومن جهة أخرى فان حكومة ديجول منذ أن صادفت تمرد المستوطنين فى الجزائر لم تتحمس لرعاية مصالح هذا النوع من المستوطنين الفرنســيين الذى يسبب لها المتاعب فى الخارج . ولذلك آثر معظم المستوطنين الـــذين يشتغلون بالزراعة أن يستفيدوا من مبدأ التعويض الذى أخذت به الحكومة المغربية وان يغادروا البلاد بعد أن اختفت منها القوات الفرنسية •

على أن تسوية هذه المشكلة لم تحل دون تأزم العلاقات فى مناســبات كثيرة بين فرنسا والمغرب وقد كان اغتيال بن بركة فى باريس يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٦٥ من الأحداث الخطيرة التى ظلت آثارها تخيم على العلاقات بين البلدين فترة طويلة • ذلك أن فرنسا طالبت بتسليم وزير الداخلية المغربى محمد أوفقير المشتبه بالضلوع فى الحادث قائلة بأن ذلك أمر ضرورى طبقا للاتفــاقيــة القضائية المعقودة بين البلدين سنة ١٩٥٧ ، غير أن المغرب احتج بـــــان الاتفاقية لاتلزم بلاده بتسليم شخص لمجرد الشبة • واتخذت القضـــية طابعا سياسيا حينما صرح ديجول فى فبراير سنة ١٩٦٦ بمسئولية الحكومة المغربية عن الحادث . وقابل الملك الحسن ذلك بتثبيت الجنرال أوفقير عندما أعاد تشكيل مجلس الوزراء فى هذا العام •

على أن حدة الخلاف هدأت حينما أوعزت حكومة المغرب الى متهم آخر هو الديلمى رئيس الشرطة المغربى بتسليم نفسه الى السلطــات القضـــائية الفرنسية ومع طول الاجراءات التى يشتهر بها القضاء الفرنسى هدأت النفوس فتحسنت العلاقات بالتدريج واستؤنف التمثيل الدبلوماسى على مســتوى القـــائم بالأعمال وتأخر تبادل السفراء حتى سنة ١٩٧٠ ثم بدت فى الأفق احتمالات تحسن فعلى ، اذ لمح وزير خارجية فرنسا الى امكان تزويد المغرب

بالأسلحة ولابد أن ترحب الحكومة المغربية بهذا الاتجاه حيث ان استيعاب الأسلحة الأمريكية كان يتطلب بعض الوقت ، ومن الأيسر العودة الى استخدام الأسلحة الفرنسية . كذلك وعدت فرنسا بزيادة المعونات الاقتصادية .

ذلك ان التقلبات فى العلاقــات السياسية لم تحــل دون استمــرار الصــلات الاقتصادية بين المغرب وفرنسا . وبقيت هذه الأخيرة هى أكبــر مستورد للفوسفات المغــربى والمواد الخــام الأخــرى ، وأهــم مصــدر للمصنوعات . ويلاحظ عند مراجعة الأرقام الخاصة بالتبادل التجارى بين البلدين أن الميــزان تحــول بالتدريج لصالح المغرب اذ قلت وارداتها مــن فرنسا بينما ازداد الطلب على الفوسفات . على أن فرنسا بحكم تــأثيرها على السوق المشتركة استطاعت أن تمارس ضغطا على المغرب لتخفيض سعر الفوسفات ورأى بعض الاقتصاديين المغاربة أنه من الممكن تعويض هــذا الانخفاض فى السعر بزيادة الانتاج .

٢ ـ العلاقات مع أسبانيا :

رأينا كيف نشأت علاقات وطيدة بين المغرب وأسبانيا فى المرحلة الأولى من عهد الاستقلال . ولعل أسبانيا توقعت أن تحتفظ بنفوذ اقتصادى فى منطقة حمايتها السابقة على نسق النفوذ الذى تتمتع به فرنسا فى بقية البلاد. ثم خابت هذه الآمال نظرا الى أن سياسة الحكومة المغربية استهدفت تحقيق الوحدة الادارية والاقتصادية والتغلب على آثار التفتيت الماضية . وكانت فرنسا ثم الولايات المتحدة أقدر على استثمار أموال فى المشروعات العمرانية التى تحتاجها البلاد لاسيما المنطقة التى خضعت من قبل للادارة الأسبانية واهملت من حيث التعمير والاصلاح . ثم جاءت مسألة الجيوب والنزاع حول الصحراء لتحول تلك العلاقات الحسنة الى توتر شديد أوشــك فى بعض الأوقات أن يؤدى الى الحرب ، بل وقعت الاشتباكات المسلحة بالفعل ، واذا لم يكن (١) نطاقها قد اتسع فذلك راجع الى تعاطف خفى بين حكومة الجنرال فرانكو وبين الملكية المغربية . فالجنرال فرانكو بدأ حربه الأهلية الهــى حملته الى السلطة من الأراضى المغربية واستعان فى تلك الحرب بجنــود مغاربة . وكان يتعاطف مع النظام الملكى بصفة عامة ويرغب فى استمرار

1.. Landau Rome : Mohamed V. King of Morocco.

وجوده على الشاطىء المواجه من المتوسط . وقد تأكد ذلك عندما أوصى باعادة الملكية الى أسبانيا عند وفاته سنة ١٩٧٥ ٠

وقد ظلت مسالة الجيوب (١) والصحراء المؤثر الأول فى العلاقات بين المغرب وأسبانيا حتى سويت لصالح المغرب فيما يخص سيدى أفنى اما جيبا سبتة ومليلة فلم تظهر حكومة المغرب رغبة جدية فى اثارة موضوعهما ٠ وتبلغ مساحة سبتة ١٩٫٢٦ كيلو مترا مربعا ومليلة ١٢٫٣ ويحكم خمسة قرون من الادارة الأسبانية المتصلة انطمست الشخصية العربية الاسلامية فى الميناءين تقريبا فحسب احصاء سنة ١٩٦٠ لم يزد عدد المسلمين المغاربة فى سبتة عن ٥٠٠٠ من بين مجموع السكان البالغ ٧٦ الفا ، وفى مليلة ٦٢٠٠ من مجموع السكان البالغ ٩٠ الفا وتدار المدينتان كجزء من اقليم قادس ، وتطبق فيهما الأنظمة الادارية والاجتماعية السائدة فى أسبانيا باستثناء وجود الكورتيز او المجلس المحلى ٠ كما ان المسلمين يخضعون لقانون الأحوال الشخصية الاسلامية ٠ وتشرف جامعة جرانادا على الشئون التعليمية فى المدينتين ٠

ويلاحظ ان بعض المسلمين فى المدينتين وصل الى مناصب عليا مثل الجنرال مزيان الذى صار حاكما لجزر كناريا ، الا انه آثر العمل مع الحكومة المغربية بعد استقلال المغرب وأصبح احد المستشارين العسكريين للملك ٠ وقد تكون حالة مزيان مظهرا لميول المغاربة من سكان الجيوب الأسبانية ٠ وتشكل مدينتا سبتة ومليلة عبئا على الادارة الأسبانية ، وحتى تجذب اسبانيا اليهما النشاط السياحى والتجارى طبقت فيهما نظام الموانى الحرة ، مما ساعد على تغطية نفقات الادارة ٠ ومما شجع أسبانيا على اتخاذ هذا الاجراء الغاء نظام طنجة الدولى دون معارضة من الدول الثمانية المشتركة فى ادارتها وادمج الميناء الشهير فى الماضى بسوقه الحرة ضمن الاقتصاد الوطنى المغربى (٢) ٠

---

(١) انظر للمؤلف مقالا فى مجلة معهد الدراسات العربية عدد ١٩٦٩ وعنوانه « الجيوب الاسبانية فى المملكة المغربية » ٠

2. Nevill Barbour' Survey of North West Africa.

وهذا الكتاب يعد من أفضل الدراسات التى خصصت جزءا كبيرا للوجود الاسبانى فى المغرب ٠

وقد يتساءل المرء : لماذا لم تثر المغرب منذ أن استقلت وعملت على وحدة أراضيها المغربية موضوع سبتة ومليلة ، بينما طالبت بسيدى أفنى والصحراء ؟ قد يكون السبب فى ذلك هو قرب الميناءين من أسبانيا وانطماس الشخصية المغربية فيهما ٠ ولو أجرى استفتاء لاختارت الغالبية العظمى بقاء الوضع على ماهو عليه ، ويشبه موقف سكان سبتة ومليلة من بعض الوجوه موقف سكان جبل طارق الذين اختاروا البقاء فى ظل العرش البريطانى رغم وجودهم وسط أراض أسبانية ٠ ويذكر البعض ان مطالبة أسبانيا بجبل طارق تبرر للمغرب مطالبته بسبتة ومليلة ٠ ومن شواهد هذا الاحتمال امتناع المغرب عن افتتاح قنصليات بالميناءين ٠

كان موضوع افنى اكثر اثارة للخلاف بين أسبانيا والمغرب ، ذلك ان الوجود الأسبانى فى هذه المنطقة لايرجع الى نفس المدة الطويلة التى حكمت خلالها أسبانيا ميناءى سبتة ومليلة ٠ وكانت مساحة هذا الجيب الكبير تغطى ٧٤٠ ك٠م٠ ويقدر عدد السكان بحوالى ٥١ر٥٠٠ يتركز معظمهم فى الشمال وفى العاصمة سيدى افنى خاصة ٠ ومن الصعب تبين حدود فاصلة للمنطقة اذ تغطى معظمها جبال الأطلس التى هى امتداد للسلسلة الجبلية الهائلة المنتشرة فى جنوب المغرب ٠ كما أن معظم السكان ينتمون الى قبيلة آيت باعمران (١) وهى واحدة من مجموعة بربرية كبيرة تعرف بالشلوح وتنتشر فى جنوب المغرب ٠ واذن فالتكوين البشرى مختلف تماما عن حالة سبتة ومليلة ٠ وهذا هو مادفع حكومة المغرب الى المطالبة بهذا الجيب بعيد الحصول على الاستقلال ٠ واحتجت أسبانيا بأن تنازل المغرب عن المنطقة كان نهائيا فى معاهدة سنة ١٨٦٠ غير أن الحكومة المغربية قدمت حول هذا الموضوع حججا قانونية فذكرت أن نص التنازل فى معاهدة سنة ١٨٦٠ يشير الى المصايد لا الى الأرض ، كما أن اعتراف أسبانيا باستقلال المغرب سنة ١٩٥٦ يلغى اتفاقية سنة ١٩١٢ وهى الاتفاقية الأسبانية الفرنسية التى أكدت الوجود الأسبانى بالمنطقة ٠

وفى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٧ قامت وحدات من جيش التحرير المغربى بعدة هجمات على منطقة أفنى ، وتعرض الوجود الأسبانى لخطر محدق ،

1. Montagme — notes sur les Effnies et les Ba-Amran, Revue Africaine, Alger 1918.

غير أن بعض الحاميات استطاعت الصمود الى أن آتت تعزيزات من كناريا ومن أسبانيا ذاتها . وانتهى القتال تقريبا فى ١٢/٨ من نفس العام ، ولم تشأ الحكومة المغربية أن تدفع بالأمر الى حرب سافرة فتعللت بأنها غير مسئولة عن أعمال جيش التحرير مع مافى ذلك من احراج لمركزها لأنه يكشف عدم سيطرتها على جماعات عسكرية تتحدى السلطة ، وفى نفس الوقت صرحت الحكومة المغربية أنها لا تتنازل عن مطلبها الشرعى فى افنى. وازاء هذا الموقف اتخذت أسبانيا اجراء قانونيا مضادا اذ أعلنت منطقة افنى جزء من أراضيها يخضع لحاكم عسكرى ويشكل هو والصحراء وجزر كناريا منطقة عسكرية واحدة يكون مقر قيادتها فى جزر كناريا . وعلى ذلك يحظر على المغاربة دخول منطقة أفنى الا باذن من السلطات الاسبانية.

دارت مفاوضات طويلة سيما وأن العلاقات تحسنت بعد الزيارة التى قام بها الحسن الثانى لمدريد مما جعل أسبانيا تلين شيئا فشيئا فى موقفها فعرضت التنازل عن المنطقة الداخلية والاحتفاظ بالميناء ، غير أن المغرب رفض هذا الحل . واستجابت أسبانيا فى نهاية الأمر وجلت عن منطقة أفنى بأكملها فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٦٩ . ولاشك أن وجودها فى تلك المنطقة كان يكلفها أعباء مالية دون مقابل بعكس الصحراء الغنية بالفوسفات .

٣ - قضية الصحراء :

تبلغ مساحة الصحراء ١٠٠ر٠٠٠ ميل٢ وهى تمتد من حدود المغرب الجنوبية حتى رأس بلانكو التابع لموريتانيا . وقدر السكان سنة ١٩٧٤ بـ ٧٤ ألف . ومن الناحية البشرية تعتبر الصحراء حلقة اتصال بين العنصر بين العنصر العربى البربرى السائد فى الشمال والعناصر الزنجية السائدة فى الجنوب. فالسكان يمثلون امتزاج تلك العناصر المختلفة ، غير أن المغرب يعتبر نقطة اجتذاب أقوى نظرا لأنه مصدر الحياة الروحية والثقافية لسكان الصحراء .

ومن المعروف أن حزب الاستقلال هو الذى تزعم الدعوة الى فكرة المغرب الكبير الذى يضم موريتانيا والصحراء وتمتد حدوده الى مالى والسنغال ، وهو الذى أصدر مجلة الصحراء سنة ١٩٥٧ ، ويعد الحزب مسئولا الى حد كبير عن قيادة جيش التحرير الذى هاجم منطقة أفنى وقد

وجد جيش التحرير عند ظهوره فى الصحراء صدى قويا لدى قبائل الرقيبات التى استجابت له وتعاونت معه ، وهى أعظم قبائل الصحراء شأنا · وقد تحرج مركز الأسبان حتى فى المراكز الرئيسية : العيون وساقية الحمراء ، وفيلا سيزنوروس واضطروا الى الاستنجاد بالفرنسيين الذين أمدوهم بعون عاجل مما دل على وجود اتفاق بين أهداف السياستين الفرنسية والأسبانية فيما يتعلق بمطالب المغرب الاقليمية حينذاك · ففرنسا تحرص على جعل موريتانيا وحدة سياسية قائمة بذاتها فى المستقبل · وأسبانيا تتمسك بالصحراء التى تضم ثروة معدنية هائلة ·

قدمت فرنسا مساعدتها العسكرية عن طريق قواعدها فى موريتانيا ولاسيما حصن ترنكى · بل أتت ببعض هذه الامدادات من قاعدة تندوف الفرنسية بالصحراء الكبرى · وهى التى أنقذت ساقية الحمراء من السقوط فى يد جيش التحرير المغربى · ولكن بينما كانت هذه العمليات العسكرية دائرة حرصت الحكومتان المغربية والأسبانية على عدم الاصطدام المباشر· فنرى الجنرال فرانكو مثلا يعلن فى الكورتيز (البرلمان الأسبانى) فى أول يناير سنة ١٩٥٨ أن ثمة فرقا بين تلك الجماعات غير النظامية وغير المسئولة ، وبين الشعب المغربى الذى هو صديق للشعب الأسبانى · ولم تلبث أسبانيا أن استجابت جزئيا للمغرب بتسليم طرفايه ، القسم الشمالى من الصحراء ، لأنه من الناحية القانونية جزء من المحمية · وقد انتهت الحماية باعتراف أسبانيا فى أبريل سنة ١٩٥٦ وفى نفس الوقت دعمت أسبانيا وجودها فى كل من سيدى افنى وبقية الصحراء ، فقسمتها الى ثلاث مناطق ادارية وهى : افنى . وساقية الحمراء ، وريودورو · ولكل منها حاكم عسكرى يتبع وزارة الشئون الأفريقية من الناحية السياسية . والقيادة العامة فى جزر كناريا من الناحية العسكرية· وبرر وزير الدفاع هذه الاجراءات فى خطاب القاه فى ١٩٥٨/٣/٢١ موضحا الأهمية الاستراتيجية للصحراء ، فهى ملتقى طرق جوية عديدة تمر بغرب افريقيا ، ويمكن اتخاذها قاعدة للصواريخ الموجهة ضد جزر كناريا · ويجدر بنا أن نتساءل : هل كان يقصد أن المغرب هو الذى سيستخدم هذه الصواريخ اذا ما ألحقت به الصحراء ؟ أم كان يقصد أن المغرب المستقل قد يخضع لنفوذ دولة كبرى معادية لأسبانيا ، ويفكر فى الاتحاد السوفييتى ؟ أنها على كل حال احتمالات بعيدة عن الواقع ·

لم يتوقف المغرب عن المطالبة بالصحراء الأسبانية رغم أن العلاقات ظلت طيبة مع أسبانيا حتى ذلك الوقت ، فقد تمت أكثر من مقابلة بين الملك الحسن الثانى وبين فرانكو عامى ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ كما وقعت اتفاقيات مختلفة بين البلدين تتناول مساعدات فنية فى قطاع الصناعة ، واتفاقية ثقافية أخرى تتضمن التبادل فى ميدان الاذاعة والتليفزيون بالاضافة الى تسهيلات سياحية ٠٠ ولم يحل ذلك دون تذكير المغرب بمطالبها فى الصحراء ٠ ففى فبراير من ذلك العام قام الملك بزيارة لأغادير قرب الحدود الجنوبية ، فكانت فرصة للالتقاء بممثلى الصحراء الذين وفدوا بهذه المناسبة على المدينة المغربية ٠ ولعل هذا الحدث (١) هو الذى شجع المغرب على اثارة القضية للمرة الأولى فى الجمعية العامة عند انعقادها فى الدورة العشرين سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ ٠

وبعد دراسة الموضوع اتخذت الجمعية قرارا فى ١٩٦٥/١٢/١٦ يقضى بدعوة أسبانيا الى تحرير الصحراء وأفنى ، وذلك عن طريق المفاوضات مع الأطراف المعنية ٠ فى هذه الأثناء برز طرف جديد فى النزاع هو موريتانيا وطالما كان النزاع قائما بين المغرب وموريتانيا ، فلم تتسق بينهما سياسة ازاء الاستعمار الأسبانى فى الصحراء التى هى من الناحية الجغرافية اقرب اليها من المغرب ، لأنها هى الامتداد الساحلى للجمهورية ، وتقع حدودها المشتركة وسط جبال زيمور ٠

وفى ١٩٦٤/١٠/١٥ قام المندوب الدائم لموريتانيا فى الأمم المتحدة بتقديم مذكرة الى احدى اللجان التابعة للجمعية العامة يطالب فيها بالصحراء الأسبانية مستندا الى الكتاب الأبيض المغربى الذى أصدرته وزارة الخارجية المغربية عن قضية موريتانيا ٠

طرح موضوع الصحراء الأسبانية مرة ثانية على اللجنة الرابعة الخاصة بتصفية الاستعمار والتابعة للأمم المتحدة ، وذلك فى سبتمبر سنة ١٩٦٦ وسمح لوفدين يمثلان سكان الصحراء بالتحدث أمام اللجنة فطالب أحدهما بانهاء الحكم الاستعمارى ، الا انه لم يبين اذا كان يريد فى نهاية الأمر الحاق بلاده بدولة من الدول المجاورة ٠ وعارضه وفد آخر من أهل البلاد

---

1. Rizette : Le Sahara occidental.

ايضا ، ذكر أن الصحراء لايزيد سكانها عن ٣٠ ألفا وبالتالى فهى عاجـزة عن اقامة دولة مستقلة · ورحب بالخطوات التى أعلنت عنها أسبانيا فى مايو السابق ووعدت بمقتضاها أن تنفذ مشروعات عمرانية واقتصادية هامة ، وأن تساعد السكان على الحكم الذاتى · ذلك أن أسبانيا صارت تعول على البقاء فى الصحراء معتمدة على استرضاء الرأى العام الدولى بقدر الامكان ·فمن جهة وعدت بتطوير نظام حكم ذاتى للسكان · ومن جهة أخرى دعت رءوس الأموال الأمريكية والفرنسية والألمانية الى تكوين كنسورسيوم لاســتغلال موارد الصحراء ·

اشتد الضغط على أسبانيا منذ سنة ١٩٧٠ فقد سوى جيران الصحراء خلافاتهم خلال هذا العام وتمت مقابلة فى تلمسان بين الحسن الثانى وبومدين. اتفق فيها على تنسيق الجهود لتحرير الصحراء ، على أن يترك تقرير مصيرها للمستقبل بعد التحرير · كذلك انتهى الصراع الطويل بين المغرب وموريتانيا بتوقف المغرب عن دعاواها بضم هذه الجمهورية الناشئة وانتقـل الطرفـان الى مرحلة من التعاون من أجل تحرير الصحراء وعلى الأرض الموريتانية نفسها تكونت جبهة تحرير ساقية الحمراء وريودورو التى اختزل اسمها من الحروف الأولى اللاتينية لكلمات أسبانية تعنى الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء وريو دورو (بوليساريو) ، وتلقت الحركة الجديدة منذ سنة ١٩٧٤ تأييد كل منموريتانيا والجزائر ·وزادت أعباء أسبانيا العسكرية فىالصحراء·

تكررت التوصيات الصادرة من الجمعية العامة بخصوص حق تقريـــر المصير لسكان هذا الاقليم · ولم تفد اجراءات أسبانيا التى شرع فى تطبيقها بالفعل لمنح سكان الصحراء الحكم الذاتى فى اطار السيادة الأسبانية · حينئذ أعادت حكومة فرانكو النظر فى الأمر ، فوجدت أنه لو ترك للصحراء حق تقرير المصير ، واختارت قيام دولة مستقلة فقد تكتسب الجزائر نفوذا خاصا فى هذه الدولة لما لوحظ من توافق نزعة البوليساريو اليسارية مـع نظام الحكم الجزائرى · ومن جهة اخرى أكد المغرب حقوقه التاريخية بأن طلب تحويل قضية الصحراء الى محكمة العدل الدولية فى لاهاى · وبعد دراسة (١) وافية اكدت المحكمة فى رأيها الاستشارى (أكتوبر ١٩٧٥) كيف

---

1. Cour : International de Justice Sahara occidental.

أن للصحراء صلات تاريخية قديمة تربطها بالمغرب ، وان لم تدل برأى حاسم حول الوضع السياسى فى المستقبل ٠

أراد الملك الحسن أن يعطى لبلاده وزنا ماديا بجانب هذا الكسب المعنوى ، فنظم فى نفس الشهر (المسيرة الخضراء) التى حظيت بتأييد شعبى واسع ، ومن ثم صار المغرب اقوى الأطراف من جيران الصحراء الثلاثة الذين يتسابقون على ميراث أسبانيا فيها ٠

وبينما كان فرانكو يحتضر ٠ رأت حكومة مدريد أن تنهى نزاع الصحراء بحل يتمشى مع أهداف السياسة المغربية بصفة عامة ، ويحول دون تسرب نفوذ الجزائر الى شاطىء المحيط الأطلسى ٠ ولتدعيم هذه السياسة اتفق على اشراك موريتانيا فى هذا الحل ، على أن تكون الشريك الأصغر فى عملية اقتسام الصحراء ٠ وهكذا بدلا من الاستجابة لرأى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ولغالبية منظمة الوحدة الأفريقية الداعى الى تطبيق مبدأ تقرير المصير . وقع اتفاق بين أسبانيا من جهة والمغرب وموريتانيا من جهة أخرى على تسليم الصحراء لهما . وسارعت أسبانيا الى تسليمها قبل الموعد المقرر ، أى فى ٢٨ فبراير ١٩٧٦ ، وفى نفس اليوم ، أعلنت جبهة البوليساريو قيام جمهورية الصحراء المستقلة ، واتخذت من الجزائر مقرا لها . بينما اتفقت المغرب وموريتانيا على تفاصيل التقسيم بحيث حصل المغرب على ثلثى الاقليم بما فى ذلك مناجم الفوسفات فى بوكراع ، بينما خصص لموريتانيا القسم الجنوبى من البلاد ٠ واشترت الحكومة المغربية ٦٥٪ من أسهم الشركات العاملة فى استغلال المناجم ٠

أضحت الصحراء منذ الحاقها بالمغرب وموريتانيا من أهم العوامل المؤثرة على سياسة المغرب الداخلية والخارجية ٠ فقد اضطر المغرب الى عقد معاهدة دفاع مشترك مع موريتانيا ، وارسال عدة آلاف من الجنود المغاربة للمرابطة فيها بعد أن ثبت عجزها عن مواجهة البوليساريو ، لا فى الصحراء فحسب ، بل فوق الأراضى الموريتانية ٠ وعلى الصعيد السياسى واجه المغرب انتقادا شديدا فى منظمة الوحدة الأفريقية التى تتبنى عادة مبدأ احترام الحدود حسبما خلفها العهد الاستعمارى ٠

ولوحظ ازدياد مساندة الجزائر وكوبا وليبيا والكتلة الاشتراكية ماديا

ومعنويا لجبهة البوليساريو . فى حين اضطرت المغرب الى طلب مزيد من المعونات العسكرية من الولايات المتحدة وفرنسا • ومنذ صيف ١٩٧٩ خرجت موريتانيا من هذه المعركة بعد أن ناءت بالأعباء الاقتصادية والعسكرية • ووقع على المغرب وحده عبء المواجهة خاصة وأنه قرر الحلول محل موريتانيا فى القسم الجنوبى من الصحراء . الذى أعلن ولاية مغربية جديدة باسم وادى الذهب •

كلف ضم الصحراء للمغرب أعباء باهظة على المستوى العسكرى والمالى والدبلوماسى فعلى المستوى العسكرى استمرت حركة البوليساريو تستمد معونات من ليبيا تارة والجزائر تارة أخرى حيث أقامت هناك قواعد للاجئين من الصحراء وشنت حرب عصابات كانت تتوقف لفترات على أمل التفاوض مع المغرب ثم تستأنف تارة أخرى • وكانت حرب الصحراء سببا فى استنزاف بعض موارد البلاد وازدياد حجم ديون المغرب علاوة على الأزمات الدبلوماسية التى سممت العلاقات مع الجزائر ومع منظمة الوحدة الأفريقية التى اعترفت بجمهورية الصحراء كدولة مستقلة • ذلك أن أغلب أعضاء المنظمة هى من الدول الواقعة جنوب الصحراء والتى نشأت فى اطار التقسيمات الاستعمارية تلك التقسيمات التى لم تعترف بالتوزيعات الثقافية والقبلية وربما لانعدام التراث الثقافى المشترك أصلا وهو حالة تختلف عن التراث العربى الاسلامى الذى يجمع بين سكان الصحراء والمملكة المغربية •

وبينما تشكلت حكومة للصحراء فى المنفى برئاسة محمد عبد العزيز أمين عام جبهة البوليساريو عمد المغرب الى تخصيص مقاعد تمثل الصحراء فى مجلس النواب بالرباط كنوع من تأكيد السيادة المغربية على هذه المنطقة (١) • وقاوم بشدة العروض التى تقدمت بها جهات أفريقية ودولية لاجراء استفتاء يستهدف حرية تقرير المصير لسكان الصحراء • الا أنه تحت وطأة ضغوط دولية طوال الثمانينات وشعور المغرب بعزلة فى منظمة الوحدة الأفريقية والرغبة فى ايجاد تقارب بين دول المغرب تمهيدا لانشاء الاتحاد المغاربى وافق الملك الحسن على مبدأ استفتاء سكان الصحراء على أن يخيروا بين الاستقلال أو الاندماج فى المملكة المغربية •

---

1. BarBier, Maurice : Le Conflit du Sahara occidental, 1982.

وما لبثت أن ظهرت عقبات متنوعة حول كيفية اجراء هذا الاستفتاء فهل يتم مع وجود القوات المغربية والادارة المدنية التى اقيمت فى المنطقة أم لابد من انسحابها أو تخفيضها ؟٠ ومن سوف يحل محل القوات المغربيةهل يسمح لممثلى حركة البوليساريو بالتواجد العسكرى فى الصحراء الأمر الذى لم يوافق عليه المغرب مبدئيا لأنه لايعترف أصلا بجبهة البوليساريو ولايقبل التفاوض معها ٠ على العكس طالبت البوليساريو بأن يتم الاستفتاء بتواجد مشترك على أن يكون لها ثلث القوات المرابطة فى الصحراء ٠ وكلما تعقدت المباحثات استؤنف القتال ٠ بيد أن الأمين العام للأمم المتحدة بيريز دكويار مارس نفوذا كبيرا خلال سنة ١٩٩٠ أثمر فى العام التالى بوقف اطلاق النار منذ شهر سبتمبر ١٩٩١ ويبدو أن أستفحال الأزمة الاقتصادية التى أدت الى تخفيض الدينار المغربى سنة ١٩٩٠ والمظاهرات المعادية التى واجهها القصر بسبب موقفه من حرب الخليج قد اقنعت المغرب بالتفاوض مع البوليساريو على أساس اجراء استفتاء تشرف عليه الأمم المتحدة ٠

بيد أن عقبة رئيسية عرقلت التوصل الى اتفاق وهى تتعلق باحصاء السكان الذين لهم حق التصويت فرأت جبهة البوليساريو أن هذا الحق يقتصر على السكان الذين دخلوا فى الاحصاء الأسبانى الذى أجرى سنة ١٩٧٤ وحدد رقم ٧٤ ألف كسكان أصليين للمنطقة فى حين رأى المغرب أن هـذا الرقم يحرم آلاف السكان الذين هربوا من الاستعمار الأسبانى واستقروا فى جنوب المغرب وقد عادوا الى الصحراء بعد أن عادت الى الوطن الأم وقدر المغرب عدد هؤلاء بـ ١٢٠ ألفا يحق لهم التصويت فى الاستفتاء المقتـرح ولكى يحل هذه المعضلة أقترح دكويار عقد مؤتمر فى جنيف يشترك فيه ٣٨ من رؤساء العشائر سكان الصحراء الذين يعرفون كل عائلة بالاسم واثر انعقاد المؤتمر فى يونيو سنة ١٩٩٠ ظهر أن الخلاف لم يحسم لأنه لم يؤد الى دخول العدد المطلوب بواسطة المغرب الى المشاركة فى الاستفتاء ٠

ولاشك أن أنهيار الكتلة الشرقية والأزمة الداخلية فى الجزائر قـد حرمت البوليساريو من قدرتها على المساومة ومـن ثم تلكأ المغـرب فى الاستعدادات اللازمة لاجراء الاستفتاء بقدر ماسمحت له الظروف الدوليـة وهدوء الحالة العسكرية ٠

٤ ـ العلاقات المغربية الأمريكية :

حينما حصل المغرب على الاستقلال كانت الولايات المتحدة تحتل اربع قواعد جوية علاوة على قاعدة بحرية فى بورليوتى أو القنيطرة ٠ ويرجع وجودها فى هذه الأخيرة الى أيام الحرب العالمية الثانية ٠ أما القواعد الجوية فقد حصلت عليها بمقتضى اتفاق مع فرنسا فى اطار حلف الأطلسى ، وذلك فى سنة ١٩٥١ وقد شارك محمد الخامس الحركة الوطنية فى الاحتجاج على عقد هذا الاتفاق الأخير . ولم ينصب احتجاجه على مبدأ حصول الولايات على قواعد بالمغرب . وانما لأنه وجد ان ليس من حق الدولة الحامية منح هذه القواعد ، ولذلك لم يمض زمن طويل على اعلان الاستقلال حتى قام الملك بزيارة الى واشنجتن وهناك ثبت وجود القواعد الأمريكية وأشاد أثناء هذه الزيارة بالعلاقات الوطيدة التى تربط بين البلدين منذ أقدم العصور ٠ وذكر فى هذه المناسبة كيف أن المغرب كان من أوائل الدول التى اعترفت بالولايات المتحدة بعد اعلان الجمهورية بقليل فى سنة ١٧٨٩ وكيف أن البلدين تعاونا لمجابهة «القرصنة» التى اشتهر بها البحارة الجزائريون فى حوض المتوسط وعلى سواحل الأطلسى (١) ٠

ومن الواضح أن الموقع الجغرافى يجعل المغرب أقرب البلاد العربية الى الولايات المتحدة . ولذلك أبدت هذه الأخيرة اهتماما بشئون المغرب حتى أثناء اتباعها لسياسة العزلة فاشتركت فى مؤتمر الجزيرة الذى عقد فى سنة ١٩٠٦ وأقر مبدأ المساواة بين الدول الأجنبية فى الامتيازات الاقتصادية ٠ وفى أكثر من مناسبة أحتجت الولايات المتحدة على الاجراءات الفرنسية فى عهد الحماية التى استهدفت الغاء مبدأ المساواة ٠ لذلك ساد فرنسا اعتقاد بأن الولايات المتحدة تساند الحركة الوطنية ، وتأكد هذا الاعتقاد حينما قابل روزفلت محمد الخامس على انفراد دون حضور المقيم العام أثناء انعقاد مؤتمر للحلفاء فى الدار البيضاء أوائل عام ١٩٤٣ وذهب الفرنسيون الى حد القول بأن هذه المقابلة هى التى شجعت الملك على تحدى الحماية وقربت بينه وبين الوطنيين ٠ ولم ترحب الولايات المتحدة بقرار

---

(١) أنظر للمؤلف دراسة فى مجلة السياسة الدولية عدد يناير سنة ١٩٦٩ بعنوان « السياسة الخارجية للمملكة المغربية » ٠

فرنسا خلع السلطان فى سنة ١٩٥٣ لذلك كانت جميع السبل مهيأة لاقــامة علاقات وثيقة بين المغرب وبين الولايات المتحدة بعد الاستقلال · فلــم يعترض القصر كما رأينا على وجود القواعد · وحينما أخذت المعارضة تثير هـــذا الموضوع كانت نظرة الأمريكيين الى القواعد العسكرية المقامة فى الخــارج قد تغيــرت ·

ففى أوائل الخمسينات اعتبرت القواعد الأمريكية بالمغرب ذات أهمية استراتيجية عظمى بدليل أنه حينما أعترض بعض النواب فى الكونجــرس على النفقات التى تكلفها أجيب بأن تلك البلاد تحتل موقعا استراتيجيا ربما يكون أهم من أوربا بالنسبة للولايات المتحدة ، فهو يقع فى مواجهــة السواحل الشرقية عبر الأطلسى · وعلاوة على ذلك فهو أقل تعرضا من أوربا لأى غزو برى مفاجىء قد يقوم به الاتحا دالسوفيتى · ومن المعروف أن عهد الصواريخ قد قلب هذه المفاهيم الاستراتيجية ، لذلك حينما أثار الوطنيون موضـــــوع القواعد لم تبد الولايات المتحدة معارضة تذكر فى اخلائها · وبمناسبة زيارة الرئيس الأمريكى ايزنهاور للمغرب سنة ١٩٥٩ أعلن أن أخر موعد لتصفية تلك القواعد سيحل فى نهاية عام ١٩٦٢ ·

وفى أثناء الصراع على الحدود مع الجزائر أبدت الولايات المتحــدة ميلا الى تأييد المغرب ، بل زودته ببعض الأسلحة ومنها الطائرات لمواجهة الأسلحة السوفييتية التى أرسلت الى الجزائر فى هذه المناسبة ·

ورغز اختلاف النظام السياسى بين الجزائر والمغرب فان الصراع على حدود لم يقم على أساس عقائدى · ولذلك رحبت الدولتان العظميان بالتسوية السريعة التى تمت فى اطار منظمة الوحدة الأفريقية · غير أن الملك الحسن خــرج من هذه التجربة لينادى بنظرية تلتقى مع وجهة النظر الأمريكية بالنسبـــة لأفريقيا والشرق الأوسط ·

فعلى أثر زيارة قام الى واشنجتن ســنة ١٩٦٥ عــاد ليطالـــب بتجريد المغرب العربى من الســـلاح واشراف الأمم المتحدة على المنطقــة المتنازع عليها بالاضافة الى اشراف دولى عام لتنفيذ مبدأ التجريد مـــن السلاح ، ولتشجيعه على هذه الفكرة اعتمد الكونجرس مبلغ ١٥ مليـــون

دولار للمملكة المغربية ضمن برنامج المعونة الأمريكية · وقد أثار هـــذا الاقتراح استياء الحكومة السوفييتية لأنها تعتبر القوات التابعة للأمـــم المتحدة فى غالب الأحيان أداة لتسلل النفوذ الأمريكى ·

ازداد التقارب بين الحكومة المغربية وبين الولايات المتحدة منذ أن دخلت الأولى فى صراع مكشوف مع المعارضة اليسارية ، وقد كشـــف النقاب عن وجود اتفاقات سرية بين الحكومتين · ففى أكتوبر سنة ١٩٧٠ كان الكونجرس يناقش الميزانية الخاصة بنقل بعض القواعد ، فعرف صدفة أثناء المناقشة أن الولايات المتحدة تحتفظ بـ ١٧٠٠ جندى فى قاعدتين جويتين بالقنطرة وبويحيى · ويستخدم هؤلاء العسكريون فى أعمال فنية دقيقة كادارة أجهزة الاتصال المتعلقة بالأقمار الصناعية · ويعتبر هذا النوع من النشاط العسكرى الصورة الجديدة التى حلت محل القواعد الكلاسيكية · وهذا الوجود وان كان ضئيل الحجم فان قيمته عظيمة للاستراتيجية الأمريكية كما دلت مناقشات الكونجرس · وكان على الحكومة المغربية أن تبرر موقفها بعد نشر هذه الأنباء فذكرت أن مهمة هؤلاء الجنود هى تدريب الجيش المغربى، غير أن ذلك التبرير لم يكن مقنعا ، فالمسألة برمتها كشفت فى وقت اشتد فيه سخط الرأى العام العربى على أمريكا · وذكرت المعارضة كيف أن أراضى المغرب صـــارت تستخدم لمساعدة اسرائيل فى حربها العدوانية على العرب ·

وقد أكد النزاع حول الصحراء استمرار العلاقات الحسنة بين المغرب والولايات المتحدة ، فرغم الاختلاف الظاهرى بين البلدين حـول خطـــة السلام فى الشرق الأوسط ، فقد واصلت الولايات المتحدة تزويد المغـــرب بالأسلحة والمعونات لمواجهة البوليساريو والجزائر · ويمكن القول أن الولايات المتحدة حلت محل فرنسا فى مجال التعاون العسكرى اذ لم تتعرض علاقات البلدين لأزمات بسبب سلوك الحكومة المغربية وبطشها بالمعارضة مثلما تسبب ذلك فى أزمات دبلوماسية مع فرنسا ·

٥ ـ التوجهات العامة للسياسة الخارجية : ـ

مر المغرب بمرحلة حاول خلالها محمد الخامس أن يفلت من قبضـــة النفوذ الفرنسى عن طريق التحاقه بمجموعة من الدول الأفريقية التى أعلنت نفسها غير منحازة بين الشرق والغرب وكان عبد الناصر قد تزعم هـــذه

المجموعة باسم كتلة الدار البيضاء ·· واذا كان محمد الخامس قد ارتقى الى السلطة بعد مرحلة كفاح وطنى فان ولى عهده الحسن نشأ نشأة مختلفـــة فقد أظهر منذ أن كان وليا للعهد ميوله نحو الغرب ليس على المســـتوى السياسى فقط بل على المستوى الحضارى أيضا · ففى دورة دراســـية تراسها فى فلورنسا فى سنة ١٩٥٨ حث الحسن العرب على الاستفادة من الحضارة الغربية والتعاون فى اطار تراث مشترك للبحر المتوسط ·

وفى السبعينات بينما كانت عناصر التوتر مع فرنسا غير قائمة انفرد المغرب بالاشتراك مع فرنسا فى حمله عسكرية الى زائير تستهدف تثبيت حكم موبوتو الذى دلله الغرب على حساب شعبه المطحون · وربما كان مـــن أسباب تدخل الحسن فى هذا القطر الأفريقى هو مناهضة الحكومة اليسارية المجاورة فى أنجولا ، كما أن هذا التدخل ينسجم واحدى الدوائر التـــى وضعها المغرب لسياسته الخارجية فهو مثل الأقطار الأخرى التى استقلـت فى شمال أفريقيا حدد ثلاث دوائر كانت تختلف من حيث أولوياتها (١) وتأتى الدائرة الأفريقية فى المرتبة الثالثة بعد الاسلامية والعربية ·

ويعود وضع الدائرة الاسلامية فى الدرجة الأولى من الأهمية الى أسباب متنوعة منها : أن عدد المتكلمين بالبربرية يبلغ فى المغرب نحو ٣٦٪ وهـــو يزيد عن عدد المتكلمين بها فى الجزائر ٢٥٪ ولكن يضعف من هذا التفسير أن المشكلة البربرية أخذت تتلاشى منذ الاستقلال ، وعلى خلاف الأكراد يسلم البربر بأن العربية هى لغة الثقافة الوحيدة المعترف بها ولايستخدمون البربرية على اختلاف لهجاتها الا فى الحديث اليومى · اذن فالأرجح عندنا لتفسير هذا الاتجاه الاسلامى لدى الحكومة المغربية هو الرغبة فى التضامن مـــع الحكومات المحافظة ·

وقد جسد الحسن الثانى هذا الاتجاه بجولته فى الشرق الأوسط سنة ١٩٦٨ · ثم قرن نشاطه بنشاط الملك فيصل فى الدعوة الى المؤتمر الاسلامى،

---

(١) انظر للمؤلف بحثا بالفرنسية بعنوان
L'idée du Panarabism Maghreb.
القى فى مؤتمر تاريخ البحر المتوسط فى نيس سنة ١٩٦٨ (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٩) ·

وجاء حديث المسجد الأقصى فرصة لبث الحماس لدى رؤساء الدول الاسلامية كى يعقدوا مؤتمر قمة اسلامى · وأختيرت الرباط مقرا للمؤتمر ، وأفتتح بالفعل فى سبتمبر سنة ١٩٦٩ ·

ونستخلص من هذا المؤتمر عدة نتائج : أولا : أن الفكرة لم تقنع كثيرين من رؤساء الدول التى توصف بالاسلامية فتغيب الكثيرون منها · ثانيا تبين التباعد التام فى اتجاهات السياسة الخارجية لمجموعة كبيرة من الدول تختلف من حيث النظم والموقع ودرجة التقدم · ثالثا : أن حادث احراق المسجد الاقصى سنة ١٩٦٩ يعتبر فرعا من مسألة القدس التى وحدتها اسرائيل لتكون عاصمة لها وصارت من أعقد المشكلات للوصول الى الحل السلمى فيما بعد . ورغم ذلك فقد بقى الملك الحسن يترأس لجنة خاصة تعنى بشئون القدس ومستقبل الآثار الاسلامية هناك وبدت هذه اللجنة شبه مجمدة معظم الوقت ·

أما التحرك فى الدائرة العربية فقد ظهرت بوادرد فى سنة ١٩٦٠ حينما أشتهر المغرب بطرح مشروع لتعديل ميثاق الجامعة العربية يدعو الى الغاء قاعدة الاجماع والأخذ بنظام التصويت بالأغلبية بحيث تسرى قرارات الأغلبية على جميع الأعضاء وهو اقتراح ينم عن رغبة المغرب فى تقوية فاعلية الجامعة العربية الأمر الذى لم يلق استجابة من معظم الأعضاء الآخرين ·

وقد تأثر المغرب بالمنازعات العربية العربية ليس فقط نتيجة الصدام المسلح مع الجزائر بل انعكست عليه بدرجة أقل الخلافات فى المشرق وأسلوب حل النزاع العربى الاسرائيلى خاصة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ · قد انفرد الملك الحسن بمواقف أملاه عليه تعاطفه مع الجالية اليهودية الكبيرة فى المملكة وحتى من قبل توليه الحكم عين الملك محمد الخامس أحد أعضاء هذه الجالية فى الوزارة المغربية الأولى بعد الاستقلال كدليل على التسامح وحينما وقعت حرب يونيو سنة ١٩٦٧ واشتعلت المظاهرات المعادية لليهود فى عدة أقطار عربية بطشت حكومة المغرب بالمتظاهرين ولم يكن بوسع الحسن فى هذه السنوات الأولى أن يظهر استعداده للاتصال بالدولة الاسرائيلية مباشرة فغض الطرف عن هجرة اليهود المغاربة الى فرنسا ومن ثم الى اسرائيل كما أنه أستقبل ناحوم جولدمان رئيس المجلس اليهودى الذى كان مختلفا مع الصهيونية الأمر الذى لم يثر احتجاجات لدى الأقطار

العربية الأخرى التى اتصلت بجولدمان علنا . وبدا الملك الحسن فى حرب أكتوبر وكأنه من أكثر دول المغرب تعاونا مع جبهة المواجهة فأرسل بفرقة الى جبهة الجولان ولكن منذ ان تحول السادات الى التقارب مع الولايات المتحدة واتصل مباشرة بالاسرائيليين سرا كان الحسن أسبق منه فى هذا الاتجاه .

ويدخل اقتراب المغرب مع الدولة العبرية فى اطار مختلف عن دول المواجهة فهو لاينطلق من مبدأ الأرض مقابل السلام وربما كان منطلق الحسن فى هذه الاتصالات هو التقارب مع الولايات المتحدة ، كما فسره البعض(١) برغبة الملك فى التعاون مع الموساد الاسرائيلى بقصد دفع الأخطار التى تهدد نظام الحكم عن طريق التنسيق مع المخابرات المغربية .

وحسب رواية الملك الحسن نفسه فان ديان وزير الدفاع الاسرائيلى فى ذلك الوقت هو الذى اخذ زمام المبادرة سنة ١٩٧٧ بزيارة المغرب وكان الحديث يدور أولا حول امكانية الانسحاب من الجولان فأبدى الوزير الاسرائيلى تشاؤمه من احتمال الاتفاق مع سوريا ورأى أن مصر أيسر فى التفاهم معها فسأل الملك هل تقابلون مبعوثا خاصا للسادات للتباحث معه هنا حول تغيير طبيعة العلاقات بينكم وبين مصر فأجاب ديان بأنه يرحب بذلك (٦) .

وقد كان الحسن من أوائل الحكام العرب الذين دعوا الى التفاهم المباشر مع الدولة العبرية ومن ثم فقد صار مؤهلا للقيام بالترتيبات التى أدت الى لقاءين بين مبعوث السادات حسن التهامى وبين موشى ديان ولم تكشف الوثائق بعد عما اذا كانت زيارة القدس قد اشير اليها خلال هذه اللقاءات التى تمت فى شهر أغسطس فقد مضت ثلاثة أشهر قبل أن يعلن السادات مبادرته الشهيرة وقد انفرد الحسن بتأييد هذه المبادرة ولكن ملك المغرب لم يستطع أن يواصل التمسك بموقفه أمام الضغوط العربية ولاسيما ضغوط الدول النفطية التى تلوح بالمنح والمنع . وعليه فقد ساير الملك الأتجاه

---

(١) محسن عوض . الاستراتيجية الاسرائيلية لتطبيع العلاقات مع البلاد العربية صفحة ١٨٥ وما بعدها .

العام الذى اتخذ فى مؤتمر بغداد وهو مقاطعة مصر . ويعترف فى مذكرته بأن ذلك الموقف العربى كان خطأ كبيرا (١) .

وهكذا وقف الملك موقفا سلبيا من معاهدة كامب ديفيد فلا هو أشترك مع جبهة الصمود والتصدى المعادية لمصر ولا هو أيدها بنفس الوضوح الذى عبر عنه فى بداية زيارة السادات للقدس . ولم تنقطع على أية حال اهتمامات الحسن بقضية فلسطين وهو يذكر كيف أختلف مع صديقه الملك حسين حول مستقبل الضفة الغربية بعد احتلالها اذ مال الى الفريق الذى يفضل اقامة دولة فلسطينية فى الضفة والقطاع على خطة الخيار الأردنى . وربما كان احساس الملك بمركزه الدينى هو الذى يدفعه الى محاولة اثبات وجوده فى قضية تبدو بعيدة من الناحية الجغرافية عن بلاده . ومن هنا كان اختياره فى مؤتمر فاس سنة ١٩٨٢ رئيسا للجنة القدس التى تدافع عن حق المسلمين فى الأحتفاظ بنوع من الاشراف ان لم تكن السيادة على الأماكن المقدسة (وثالث الحرمين الشريفين اى المسجد الأقصى بالقدس الشرقية) . ويرى الملك ان مؤتمر فاس يعد نقطة تحول فى الاستراتيجية العربية فالمرة الأولى تقر الدول العربية ضمنا بالاعتراف باسرائيل وذلك من خلال الاعتراف بتنفيذ قرار مجلس الآمن رقم ٢٤٢ .

خلاصة القول أن ملك المغرب تبنى السياسة الواقعية التى تشبه مواقف السادات الى حد كبير مع هذا الفارق هو أنه لم يكن مضطرا الى اتباع مثل تلك السياسة لتحرير جزء من أراضيه .

اضطر الحسن الى أن يعود لأسلوب السرية فى اتصالاته باسرائيل ففى سنة ١٩٨٤ سمح لبعض النواب من الكنسيت للحضور الى المغرب للمشاركةفى مؤتمر اليهود المغاربة وربما اضطر الى السرية فى هذه الحقبة لأن الحسن كان يستضيف مؤتمرات القمة العربية أكثر من أى زعيم عربى أخر ويجد متعة فى هذا النشاط السياسى على المستوى العربى والذى قد يساعده فى مواجهة المعارضة الداخلية . هكذا كان انعقاد مؤتمر قمة الرباط فى سنة ١٩٧٤ ثم مؤتمر قمة فاس سنة ١٩٨٢ وهو المؤتمر الذى انبثقت

---

(١) الحسن الثانى : ذاكرة ملك . صفحة ١٦٣ وما بعدها .

عنه نقطة التحول فى السياسة العربية خارج مصر اذ اعترف المشتركون فيه بشكل ضمنى بالوجود الاسرائيلى ، وقبل ان يتفجر الموقف العربى بسبب حرب الخليج استضاف الحسن الثانى مؤتمر قمة الدار البيضاء سنة ١٩٨٩ والذى كان هدفه البحث عن اسلوب مشترك لدفع عملية السلام الى الأمام لكنه شغل معظم الوقت بالتوفيق فى الخلاف الناشىء بين سوريا والعراق حول الأزمة اللبنانية ٠

ولاشك ان تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل وتعثر مساعى السلام الأخرى قد شجع الحسن على الخروج من الأساليب السرية واستقبال شيمون بيريز سنة ١٩٨٦ فى زيارة رسمية لم تثر فى حينها سوى انتقادات محدودة فى العالم العربى مما يدل على التحول التدريجى الذى طرأ على فكرة التسوية مع اسرائيل ٠

كان التضامن الأفريقى احدى الدوائر الهامة فى السياسة الخارجية المغربية والحافز الظاهر على اتخاذ هذا الاتجاه هو اجتذاب موريتانيا التى تضم عناصر زنجية الى الانضمام الى المملكة المغربية ، ولكن هذه السياسة أدت الى نتيجة عكسية عزلت المغرب فى بعض الأوقات عن منظمة الوحدة الافريقية ٠ ومن المعروف أن المغرب منذ أن استقل وهو ينادى بضم موريتانيا الى اراضيه مستندا الى حقوق تاريخية وروابط عنصرية ودينية واجتماعية ٠

وحينما قررت فرنسا منح الاستقلال لمستعمراتها السابقة فى غرب أفريقيا أعدت موريتانيا للحكم الذاتى فسارت فى نفس مراحل التطور التى سارت فيها دول غرب افريقيا الناطقة بالفرنسية ٠ والواقع أن عهد الادارة الفرنسية هو الذى ربط موريتانيا بهذه المجموعة وأبعدها عن المغرب ، والا فان معظم السكان نحو ٧٥٪ يتكلمون أما العربية او احدى اللهجات البربرية ٠ ولاتزيد العناصر الزنجية عن ٢٥٪ من عدد السكان(١)٠

وعندما اقترب موعد تقرير المصير ظهرت فى موريتانيا ثلاثة اتجاهات سياسية : احداها يدعى بحزب النهضة الوطنية ، وهو الذى تبنى فكرة

(١) انظر للمؤلف وآخرين (الجمهورية الاسلامية الموريتانية) دراسة شاملة ٠

الاتحاد مع المغرب . والثانى يدعى حزب الاتحاد الموريتانى ، وينادى باقامة اتحاد فدرالى في غرب أفريقية تكون موريتانيا احدى أعضائه . أما الاتجاه الثالث فقد شكل حزبا يعرف بالتجمع الموريتانى ، وهو الحزب الذى حصل على أغلبية المقاعد فى أول جمعية تشريعية انتخبت سنة ١٩٥٨ وتولى رئيس الحزب مختار ولد داده الادارة المحلية . ومنذ ذلك الحين وهو يعمل على اقامة جمورية مستقلة عن كل من المغرب والاتحاد الفدرالى المقترح لغرب أفريقيا .

وعلى اثر اعلان الاستقلال الرسمى فى نوفمبر سنة ١٩٦٠ طلبت موريتانيا الانضمام الى عضوية الأمم المتحدة ، فاحتج المغرب بشدة وتصادف أن الاتحاد السوفييتى كان يشكو من استبعاد دولة شيوعية من المنظمة الدولية فرأى أن يرد على ذلك برفض طلب موريتانيا مستخدما حق الفيتو . وذلك باعتبارها دائرة فى فلك النفوذ الفرنسى .

اثار موقف المغرب انقساما بين الحكومات الافريقية فقد شعرت الحكومات العربية فى أفريقيا مثل زميلاتها فى آسيا ان الحاق موريتانيا بالمغرب مسألة قومية ، اذ أنها ستؤدى الى انتزاع جزء من الوطن العربى من السيطرة الفرنسية التى أستمرت قوية حتى بعد أعلان الاستقلال الرسمى ، وشذت تونس فى هذه المسألة واتفقت مع الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية على احترام الدول التى تنشأ فى اطار ما رسمه الاستعمار من حدود ادارية ، لأن فتح الباب للمطالب الاقليمية على أسس تاريخية أو عنصرية من شأنه أن يثير فوضى لانهاية لها فى الأوضاع القائمة بالقارة .

ولما تأسست منظمة الوحدة الأفريقية وتبنت هذه النظرية لانت الدول العربية الواحدة تلو الأخرى ازاء الاعتراف بموريتانيا فتوقفت أولا الحملات الاذاعية فى سنة ١٩٦٤ وفى العام التالى اعترفت مصر بها ، ولم يحدث ذلك رد فعل عنيف على العلاقات مع المغرب مثل ماحدث يوم أن اعترفت تونس بها أول قيامها . وشيئا فشيئا أخذت الحكومة المغربية تغفل موضوع المطالبة بموريتانيا ، ثم أبدت استعدادا للاعتراف بها . وفى ٨ يونية سنة ١٩٧٠ قام ولد دادة بزيارة للمغرب حيث عقد فى الدار

البيضاء معاهدة حسن جوار على أساس الحدود التى خططت فى العهد الاستعمارى .

وما لبثت مسألة الصحراء أن دعمت العلاقات بين خصمى الأمس . فقد انتهى الأمر . كما ذكرنا ، باقتسام الصحراء بين المغرب وموريتانيا وعقد معاهدة دفاع بين البلدين . وعندما خرجت موريتانيا من حرب الصحراء سنة ١٩٧٩ وتغير نظام الحكم فيها ، طلبت انهاء هذه المعاهدة ، مع بقاء اتفاق حسن الجوار . ذلك أن موريتانيا كانت فى سنوات الاستقلال الأولى أميل الى توثيق الروابط مع مجموعة غرب أفريقيا . ثم تدخلت عوامل أخرى اجتذبتها نحو العالم العربى ، منها : توقف المغرب عن دعواه ، ثم تطوع الدول العربية المنتجة للنفط لتقديم المساعدات والقروض والاستثمارات لتخفيف المتاعب الاقتصادية عن هذه الدولة التى أختارت «الجمهورية الاسلامية الموريتانية» أسما لها . وبعد التغلب على معارضة العناصر الزنجية لاتخاذ اللغة العربية لغة رسمية أو تحت تأثير مساعدات دول النفط ، والحماس العربى الذى أعقب حرب أكتوبر . أختارت موريتانيا الالتحاق بجامعة الدول العربية بعد ثلاثة عشر عاما من الاستقلال .

الفصل السادس والعشرون

التعليم والتعريب

واجهت الدول المغربية مشكلات تعليمية معقدة فى بداية عهد الاستقلال فكان عليها أن تقوم بعمليتين فى آن واحد : مكافحة الأمية المتفشية ، وتعريب التعليم ولغة الثقافة والادارة ، نظرا الى أن الفرنسيين عمدوا الى فرض لغتهم وثقافتهم على المغرب العربى بدرجات متفاوتة وصلت الى العمل على محو الشخصية العربية فى الجزائر .

وقد تكون تونس هى أقل الدول الثلاث معاناة لهذه المشاكل . فقد كانت نسبة التعليم فيها أعلى عند الحصول على الاستقلال . واستطاعت بعد تنفيذ خطتها العشرية (١٩٥٩ ـ ١٩٦٩) أن تقترب من محو الأمية ، كما أنها قطعت شوطا لا بأس به فى التعليم المهنى وتعليم الكبار .

وهى الوحيدة التى تعتمد على نفسها فى اعداد المدرسين الذين يستخدمون اللغة العربية فى المرحلتين الابتدائية والثانوية . وينطبق هذا أيضا على معظم المدرسين الذين يستخدمون الفرنسية فى هاتين المرحلتين . فمن بين ٧١ الف مدرس لم يزد عدد الفرنسيين عن عشرة آلاف . وكما سيتضح لنا لم تتخذ الحكومة التونسية أية خطوة نحو التوسع فى التعريب ، مكتفية بمركز اللغة العربية الذى كان قائما من قبل .

ويلاحظ أن دول المغرب كانت تخصص جزءا كبيرا من ميزانياتها للتعليم . بلغ فى تونس نحو ٢٥٪ ولنه زاد عن ذلك فى الجزائر والمغرب نظرا لكثرة الأعباء التى خلفها العهد الاستعمارى ، فقد بلغت نسبة الأمية فى المغرب مثلا عند الاستقلال ٨٥٪ وفى الجزائر لم تستطع المدارس الابتدائية رغم الجهود الجبارة التى تبذلها الحكومة أن تستوعب أكثر من ٧٨٤ر١٠٠٠ من مجموع الأطفال الذين هم فى سن الالزام وهو ٢ مليون ، ١١٨ الف ، فالنسبة لاتزيد عن ٤٧٪ وهى أعلى من ذلك بالنسبة للفتيات ، وفى الأقاليم خارج الجزائر ووهران .

وقد بلغ اهتمام المغرب بقضية التعليم الى حد أنه أقام فى سنة ١٩٦٨ ثلاث وزارات لكل من المراحل التعليمية الثلاث : الابتدائى والثانوى والعالى . وقد بلغ عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية سنة ١٩٦٩ مليونا ، ٩٠٠ الف . وبالثانوى ٢٦٠ ألف وهو يمثل نسبة ضئيلة اذا ما قورن بعدد تلاميذ الابتدائى .

بلغت نسبة المدرسين المغاربة (١) ٥٤٪ فى المدارس الابتدائية ، ٥٧٪ فى المدارس الفنية ، ١٢٪ فى المدارس الثانوية . ونظرا للاتجاه نحو التعريب فان المدرسين الأجانب لايستقدمون من فرنسا وحدها ، بل صار المشرق العربى يقدم نسبة كبيرة منهم . وكانت مصر هى التى تزود الجزائر والمغرب بأكبر نسبة من هؤلاء . غير أن المغرب بدأ منذ سنة ١٩٦٣ لأسباب سياسية يفضل عدم الاعتماد على دولة عربية واحدة . وفى الجزائر طبق التعريب بالتدريج فى المرحلة الابتدائية وتلتها المرحلة الثانوية خطوة فخطوة ويمكن القول أن ارتفاع نفقات التعليم ترجع الى سببين : الاعتماد على هذا العدد الكبير من المدرسين الموفدين من الخارج . وثانيا : وجود تلك الظاهرة العامة فى الأقطار النامية وهى أن معظم السكان هم فى سن أدنى من العشرين .

واذا كان الاعتماد على الخارج ضروريا بالنسبة للمرحلتين الابتدائية والثانوية فمن باب أولى أن تستعين دول المغرب العربى بالأساتذة الأجانب لتكوين هيئة التدريس بجامعاتهم . وقد تعجلت هذه الدول التوسع فى التعليم الجامعى وخاصة الجزائر ثم المغرب ، وذلك لسد الحاجة الى الموظفين الفنيين سواء فى الادارة أو فى المهن الحرة . فهى اذن دعامة من دعائم استقلالها الفعلى .

وفى العهد الاستعمارى لم توجد بالمغرب العربى كله سوى جامعة واحدة ، هى جامعة الجزائر التى أسسها الفرنسيون على نسق الجامعات

---

(١) انظر قسم التعليم فى الكتاب السنوى الفرنسى الذى يصدر لمسح أحوال المغرب العربى وقد راجعنا الاحصاءات حتى سنة ١٩٧٠ .
annuaire de l'Afrique du Nord
(المغرب العربى)

الفرنسية دون مراعاة للبيئة · ولذلك كان على الجزائر بعد الاستقلال أن تطورها أولا ، وقبل أن يكتمل هـذا العمل عمدت الى انشاء جامعتين جديدتين احداهما فى وهران سنة ١٩٦٦ ، والثانية فى قسنطينة سنة ١٩٦٧ ثم أضافت ثلاث جامعات أخرى اقليمية ·

أما فى المغرب وتونس فقد كان يوجد بهما قبل الاستعمار معاهد اسلامية عالية على نمط الأزهر : أشهرها جامع القرويين فى فاس والزيتونة فى تونس · واتجه بعض المصلحين الى الدعوة لتطوير هذين المعهدين واعدادهما لتدريس العلوم الحديثة · غير أن الصلة كانت منقطعة تماما بين نظام التدريس ومناهجه فى مثل هذه المعاهد وبين العلوم العصرية لذلك صار من الأيسر اتخاذ المعاهد العالية التى أسسها الفرنسيون نواة لانشاء الكليات الجامعية · هكذا طورت معاهد الرباط الى كليتين للآداب والحقوق سنة ١٩٥٨ كما طورت معاهد تونس الى جامعة تضم خمس كليات سنة ١٩٦١ ، وقد أدمج معهد الزيتونة فى الجامعة وحول الى كلية للدراسات العربية والاسلامية · أما جامع القرويين فقد بقى محتفظا بنظامه التقليدى العتيق ونشأت مشكلة ايجاد العمل لخريجى هذا المعهد اذ أن المجالات محدودة بالنسبة لتخصصاتهم ·

وتبدأ هذه الجامعات عادة باعداد الكليات النظرية ، فلم تنشأ كلية للطب مثلا فى الرباط الا فى سنة ١٩٦٩ . وقد سارت جامعات المغرب على النظام السائد فى فرنسا وهو أن تكون نواة الجامعة كليات أربعة فقط هى الطب والعلوم والآداب ثم الحقوق والعلوم الاقتصادية · أما الفروع الأخرى كالزراعة والهندسة فتخصص لها معاهد عليا ·

وكنتيجة لهذا التوسع السريع فى تاسيس الجامعات لم يكن بالامكان ايجاد هيئة تدريس مؤهلة تأهيلا كافيا للقيام بأعباء التعليم الجامعى فى بعض الأحوال ، كذلك لم توضع شروط دقيقة لقبول الطلبة · فقد حدث أن احتج قدماء المجاهدين فى الجزائر على حرمانهم من التعليم الجامعى ، واتهموا الجامعة بأنها ورثت الاستقراطية عن العهد الاستعمارى · فاستجابت الحكومة لهذا الاحتجاج ومنحت قدماء المجاهدين فرصة للالتحاق بالجامعة دون اشتراط الحصول على الشهادة

الثانوية ، بل يكتفى باجتياز سنة اعدادية تحت اشراف الجامعة ولعل مادفع الدولة الى هذا التساهل هو شعورها بالحاجة الى الخريجين لسد النقص فى أجهزة الادارة والتدريس الخ ٠٠٠

١ ـ التعريب :

تعريب الثقافة العامة : يمكن أن نميز بين ثلاثة اطارات عند تناول التعريب ٠ تعريب الثقافة ، ونعنى بذلك استخدام اللغة العربية فى مجالات الاعلام والمسرح والكتب التى تتداولها الأيدى ٠ ثم تعريب التعليم وتعريب لغة الادارة ٠ وقد يبدو غريبا الا يتمشى تعريب أحد هذه القطاعات مع تعريب القطاع الآخر ، وذلك لاعتبارات سياسية ٠ ففى الجزائر مثلا حيث كانت تبدو اللغة العربية ضعيفة فى مجال الثقافة العامة اتبعت الحكومة سياسة نشطة لتعريب التعليم ، وعلى العكس تتمتع اللغة العربية بانتشار أوسع فى مجال الثقافة فى تونس بينما تعمدت الحكومة التونسية قصر التعليم العالى على اللغة الفرنسية فى العقد الأول من الاستقلال تمشيا مع السياسة التى تبنتها فى الماضى والتى استهدفت ربط تونس مع فرنسا والأقطار الأفريقية الناطقة باللغة بالفرنسية فى مجموعة من الدول تكون اللغة الفرنسية أداة اتصال وثيق فيما بينها فى مختلف المجالات ، وتعرف هذه السياسة بالفرنكوفونية ٠ أما المغرب فقد وقف موقفا وسطا بين الاتجاهين السابقين ٠

ولعل الظروف التاريخية التى مر بها كل قطر من حيث تاريخ استعماره وطبيعة علاقاته مع فرنسا هى التى أدت الى تلك الأوضاع المتضاربة ، فقد شهدت تونس مثلا نهضة ثقافية قبل سقوطها فى براثن الحماية الفرنسية ٠ ولم تعمد سلطات الحماية الى محو شخصية البلاد العربية ، وانما شجعت غالبا ازدواج اللغة فى مرحلة التعليم المتوسط ٠ ولذلك صار الجيل الحالى من المثقفين التونسيين يجيد اللغتين وهو مايشتهر فى المغرب العربى باسم البيلانجزم Bilanguisme

ولم تنقطع صلات تونس فى عهد الحماية بالنهضة الأدبية فى العالم العربى بل خرج بعض شعرائها مثل أبى القاسم الشابى عن الاطار المحلى

وصار يقرأ فى مختلف البلاد العربية • وتنتشر الصحف اليومية العربية على قدم المساواة مع الفرنسية بل تتفوق المجلات الأسبوعية العربية علـــى نظيراتها الفرنسية •

وعلى العكس من ذلك لم تكن تصدر فى الجزائر ســـوى صحيفـة يومية عربية واحدة هى الشعب وكانت أقل انتشارا من صحيفة المجاهـــد التى تصدر بالفرنسية • أما الصحف الاقليمية فكانت لاتصدر الا بالفرنسية « الجمهورية » فى وهران « النصر » فى قسنطينة بالرغم من أن هـــذه المدينة الأخيرة تعتبر المركز الرئيسى للثقافة العربية فى الجزائر •

وفى المغرب انطبع الخـلاف بين المستعمرين والمتفرنسـين بسيـاسة الماريشال ليوتى اول مقيم عام فرنسى فى عهد الحماية . فقد كان ليـــوتى معجبا بالتراث المغربى القـديم . ولذلك حافظ على مظاهره من عمـــارة وفن . وشملت هذه المحافظة جامعة القرويين • وعندما قرر تخطيط مـدن جديدة كان يقيمها فى جوار أسوار المدن القديمة حتى لا يزيل معالمهـــا • وعلى هذا النسق فصل بين بيئتين ثقافيتين . فترك المحافظين على الثقافة العربية يعيشون فى ظل المناهج التقليدية دون أن يتأثروا كثيرا بالأساليب العصرية ، وابتعدت الشقة بينهم وبين الذين اصطنعوا الثقافة الفرنسـية من أبناء البلاد • ومن هنا كان الصراع فى المغرب أظهر منه فى تونس ، وأمتد الى داخل برامج الأحزاب السياسية فتبنىحزب الاستقلال المحافظة على التـراث العـــربى الاســلامى واعطاء العهود الاسلامية مكان الصدارة فى مقـــررات التـــاريخ والعناية بالفلسفة الاسلامية فى مختلف مـــراحل التعليـم •

وتصدى علماء جامعة القرويين لمناهضة الأفكار الحديثة بمـــا فى ذلك الاشتراكية واعتبروها مســتوردة من الخـــارج كما نتبين ذلك مـــن المؤتمر الذى عقدوه سنة ١٩٦٤ وعارضوا فيه فرض ضرائب التركات •

ولا يقـل الصراع بين أنصـــار الثقافتين فى الجزائر عنه فى المغرب أن لم يكن أشد عنفا • ويرجع ذلك أيضا الى ظروف تاريخية فمن المعـــروف أن الادارة الفرنسية عمدت الى محو الثقافة العربية فلم تبق حية الا بين

علماء الدين الاسلامى . ولم تشجع الادارة الاستعمارية التعليم المـزدوج ٠ وهنا ايضا اقتصرت دراسة العربية على المشتغلين بالشئون الدينيـــة ٠ وحينما ارادت جماعة العلماء فى الثلاثينات أن تحيى الثقافة العـــربية وتجعلها ملائمة لمتطلبات العصر ، جوبهت بمعارضـــة شـــديدة من الادارة الفرنسية . والواقع أن الجزائر لم تكن تعانى فقط من محـــو شخصيتهـا العربية وانما عانت ايضا من تفشى الأمية فعند الاستقلال قـــدر عـــــدد المتعلمين بالفرنسية بـــ ١٠٪ وبالعـــربية بـــ ٥٪ واصحاب اللغة المزدوجة ٨٪ وترتب على ذلك انه عندما حصلت الجزائر على الاســتقلال لم تجـــد الدولة امامها سوى هذا الجيل الجديد ممن تلقى ثقافة فرنسية محضـــــة قادرا على تولى الوظائف الادارية والفنية ٠ ولم يكن هناك بد من استخدامه لسد العجز الذى نشأ فجأة بانسحاب الموظفين الفرنسيين ، بل ان هذا الجيل الجديد لم يسد سوى قدر يسير من حاجات البلاد ٠

ومما يسترعى الانتباه أن تكوين هذا الجيـــل من الجزائريين المتعلمين بالفرنسية قد تم فقط اثناء الثورة الكبرى اى خـــلال السنوات الســـبع التى سبقت الاستقلال . اذ أرادت الادارة الفرنسية أن تواجه الثـــورة ببعض الاصلاحات ومن بينها التوسع فى تعليم الجزائريين ، وكان أبنـــاء المستوطنين هم الذين يحتلون معظم الفصول فى المرحلة الثانوية ٠ وتكاد الجامعة تقتصر عليهم ٠ وللمرة الأولى خصصت نســـبة ١٠٪ للشـــبان الجزائريين فى الجامعة ٠ وبالتالى نستطيع القول انه لو لم تعمد فرنســـا الى نشر التعليم بين الجزائريين فى هـــــذه الحقبة الأخيرة من عهـــدها الاستعمارى لصارت سياسة التعريب أيسر تحققا ، اذ أن الجيل النـــاشىء من المتفرنسين سيحاول عرقلة التعريب دفاعا عن مصالحة الخاصة ٠

وانعكست آثار الصراع بين أنصار الثقافتين العربية والفرنسية على الاتجاهات السياسية ٠ فيلاحظ مثلا أن المتشبعين بالثقافة الفرنسية مالوا وقتا ما الى تحديد الصلات بالمشرق العربى . وعبروا عن ذلك أحيانـــا بالتشبث بفكرة المغرب الكبير وأحيانا أخرى بابراز النزعة الاقليمية الضيقة٠ أما أنصار الثقافة العربية فتربطهم بالمشرق صلات عاطفية وكثير منهـــم نشأ بين معاهده ٠ فبينما تركز الاذاعة الناطقة بالعربية على أخبار المشرق

العربى تعطى الاذاعة الموجهة بالفرنسية أهمية خاصة لأخبار الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية ·

ويتردد صدى التيارات الفكرية والسياسية بمجرد أن تظهر فى فرنسا على المتفرنسين فى المغرب العربى · فيلاحظ أن المظاهرات التى قام بها الطلبة اليساريون فى باريس فى مايو سنة ١٩٦٨ قد انعكس تأثيرها على طلبة الأقسام الفرنسية فى جامعات المغرب واذا بالطلبة يقلدون زملاءهم الفرنسيين بالمطالبة بالاشتراك فى مجالس الكليات ·

وقد أحرج ذلك حكومات المغرب الثلاث مما جعلها تفكر فى تخفيف الصلة بالثقافة الفرنسية · وأعلن الملك الحسن بهذه المناسبة أن سياسة فرنسا هى التى تضعف مركزها الثقافى فى المغرب ، ذلك أن بعض الأساتذة الفرنسيين وكثيرا ممن يعملون فى شمال أفريقيا هم أساتذة يساريون يقومون بنقل هذه الآراء والتيارات الى طلبتهم المغاربة ·

يضطر كثير من الكتاب المغاربة الى معالجة شئون بلادهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مؤلفات باللغة الفرنسية ولا يعتبر ذلك تهديدا لشخصية المغرب العربية اذا كان الأمر يتعلق برسائل جامعية ولكن وجه المسألة يتغير تماما اذا اتخذ الأديب من لغة أجنبية أداة للتعبير عن أحاسيسه · وهذه الظاهرة شائعة فى الجزائر بصفة خاصة· فقد أضطر بعض كتاب المسرح والقصة الى اتخاذ اللغة الفرنسية أداة للتعبير ، أولا لأنهم ليس بوسعهم أن يخرجوا عنها ، وثانيا لأن جمهورهم من الجزائريين أنفسهم هو أكبر عددا · فالمسرحيات التى تعرض بالفرنسية كانت تلقى أقبالا أعظم من المشاهدين بينما يقل عدد الرواد اذا عرضت نفس الرواية بالعربية ·

وقد أثير جدل بهذه المناسبة عند وصف هذا الانتاج الأدبى وهل يعد جزائريا أم فرنسيا ؟ وهل يكون جزائريا لمجرد أنه تناول موضوعات محلية وخاصة تلك المسرحيات والقصص التى صورت حياة المجاهدين أثناء الثورة ؟ ويجاب على ذلك بأن بعض الكتاب الفرنسيين اليساريين تناولوا نفس الموضوعات ، ولكن مما لاشك فيه أن البيئة التى عاشها الكاتب الجزائرى ومعاناته تترك انعكاساتها أيضا · ومن جهة أخرى

فان هؤلاء الكتاب يشعرون بالأسف لعجزهم عن التعبير بلغة بلادهـــم ، كما علق على ذلك الأديب الجزائرى كاتب ياسين اذ قـال اننـى أشـــعر باننى منفى وسط الثقافة الفرنسية ٠

تتصل كتابة التاريخ اتصالا وثيقا بتكوين الشـــخصية الوطنية ـ وقد شهدت تونس فى القرن التاسع عشر محاولات عدة لتسجيل أحـداث القرن بطريقة وسط بين مناهج القدامى وبين المناهج الحديثة ـ يتضح ذلك مثلا من كتاب صفوة الاعتبار لبيرم الخامس أو كتاب المسالك والمـــــالك لخير الدين باشا التونسى ٠ ثم خطا التاريخ خطوة أفضل نحو المنهج الحديث عندما تناوله مؤرخ واثرى معروف هو حسن حسنى عبد الوهاب الذى أمتد به العمر الى مابعد الاستقلال ٠

وقد بذلت الجزائر المستقلة جهودا عظيمة لتعريب كتابة التـاريخ . فكانت أقسام التاريخ فى الجامعات الجزائرية هى أول ماعرب فيهـــا ٠ وفى المراحل الابتدائية والثانوية سار تعريب مادة التاريخ والجغرافيـــا بخطى أسرع وتم تعريب تدريس التاريخ حتى نهاية المرحلة الثانوية خـلال العام الدراسى ٧١/٧٢ ٠

وبينما نشرت وثائق ودراسات عديدة باللغة الفرنسية عن الثـــورة الجزائرية الكبرى مازال الكتاب الجزائريون يتجنبون تناول الموضوع حتـى دعا الرئيس بومدين الى ضرورة طرق هذا الموضوع بالعربية ومن وجهـــة النظر الوطنية ٠ وقد تلى ذلك فعلا نشر العديد من المذكرات بواســـطة الشخصيات التى اشتركت فى الثورة الكبرى أمثال بن بللا وبوضياف ٠

٢ ـ فى مجال التعليم :

اتبعت تونس فى العقدين الأولين من استقلالها سياســـة تعليميـــة تهدف الى ابقاء اللغة الفرنسية لغة متـداولة بجانـب العربية ٠ وطبقـــا لسياسة الفرنكفونية رأى المسئولون عن التعليم فى تونس بناء على نصـح بورقيبة ان اتقان اللغة الفرنسية يفتح مجالا للعمل فى الدول الأفريقيـــة الناطقـة بالفرنســـية ويســاعد على تكوين كفاءات فنية وادارية بسـرعة أكبر ٠ وعلى ذلك سارت خطة التعليم على أساس أن يقتصر فى الســنتين

الأوليين على تعليم اللغة العربية ثم تدرس اللغة الفرنسية ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية وتزيد الساعات المخصصة لها بالتدريج حتى تصير على قدم المساواة مع العربية فى المرحلة المتوسطة ، وفضلا عن ذلك تدرس جميع العلوم التطبيقية والاجتماعية باللغة الفرنسية وعلى ذلك لايبقى للعربية فى المرحلة المتوسطة الا الساعات المخصصة للغة والأدب العربى ٠

وقد استهدفت الخطة العشرية التى وضعت فى سنة ١٩٥٩ للتعليم محو الأمية فى خلال عشر سنوات وصرحت وزارة التعليم فى سنة ١٩٦٩ انها صارت تستوعب مائة فى مائة من جميع الأطفال الذين هم فى سن الالزام (٧٧٠ر٠٠٠) ٠

والى جانب المدارس الحكومية تركت تونس للمدارس الخاصة حرية كبيرة فى ادارة شئونها ووضع برامجها وعلى ذلك بقيت معاهد فرنسية عديدة تعمل طبقا للنظام السابق كما أن المعاهد المهنية استخدمت الفرنسية ٠

افتتحت جامعة تونس سنة ١٩٦١ وهى تضم خمس كليات : الآداب . الحقوق والعلوم الاقتصادية ، والعلوم . والطب ٠ وهذه كلها تستخدم الفرنسية دون غيرها فى التعليم باستثناء قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ٠ أما الكلية الخامسة فهى كلية العلوم الاسلامية التى نشأت فى اطار السياسة العلمانية وضمت الى الجامعة ١٩٥٧ ٠

قامت فرنسا حسب الاتفاقية الثقافية لسنة ٥٩ بتاسيس الكليات الاخرى التى لاتدخل ضمن الجامعة التونسية وأهمها كلية للهندسة وأخرى للادارة مما سيكون له أثر على ابقاء اللغة الفرنسية مستخدمة فى الشئون الادارية كما اختارت فرنسا تونس لتكون مقرا لمعهد لتكوين الاطارات الفنية الخاصة بالدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية ٠

وفى المغرب كان تعليم الفرنسية يبدأ كذلك من السنة الثالثة الابتدائية غير أن العلوم الاجتماعية تدرس بالعربية فى مدارس الدولة على اختلاف مراحلها وخصصت بعض الثانويات لتعليم جميع المواد بالعربية ، وترك

لبعض المدارس الخاصة الفرنسية السابقة استقلال ادارى حسب الاتفاقيةالثقافية ويميل أبناء البورجوازية العليا والحكام الى أرسال ابنائهم وبناتهم الى هذه المدارس ولعل هذا من الأسباب التى أخرت التعريب مع أنه هدف من أهداف الحكومة المعلنة ٠

وحينما تاسست جامعة الرباط بعيد الاستقلال اتفق على جعل اقسام كليتى الآداب والحقوق مزدوجة ، فهناك قسم للتاريخ مثلا يستخدم العربية ونظير له يستخدم الفرنسية وهكذا الأمر بالنسبة لكلية الحقوق ٠ وكان العنصر الفرنسى غالبا على الجامعة سواء من حيث عدد الأساتذة أم من حيث تولى الفرنسيين للمراكز الادارية العليا ، وبالتدريج أخذت الأقسام العربية تنمو ولكن عندما افتتحت كليات جديدة للعلوم ثم للطب فى سنة ١٩٦٩ ازدادت الحاجة من جديد الى استقدام اساتذة فرنسيين وعندما تازمت العلاقات بين المغرب وفرنسا بسبب مقتل بن بركة رأت الحكومة أن تقلل من اعضاء البعثة التعليمية كما أن فرنسا نفسها خفضت من معونتها الفنية للمغرب وهى تشمل دفع مرتبات المدرسين ٠ غير أن المسئولين عن الحكم الذين يفضلون تعليم أبنائهم فى المدارس التى تسير على برامج فرنسية لم يستطيعوا عمليا تنفيذ هذه الخطة فازداد على العكس عدد اعضاء البعثة التعليمية الفرنسية فى سنة ١٩٦٨ ٠

وأثناء تازم العلاقات ارادت بعض الدول الأوربية الأخرى أن تستغل الفرصة لنشر ثقافتها ولاسيما اسبانيا فأنشأت مدرستين فنيتين بالدار البيضاء والرباط علاوة على جامعة مصغرة فى طنجة تستخدم اللغة الأسبانية ٠ كذلك تنافستا كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا على نشر ثقافتهافى المملكة المغربية ٠

ومن أبعد المعاهد الفنية أثرا فى هذا الصراع التعليمى مدرسة الادارة التى أسسها اليونسكو فى المغرب والتى جعلت من الفرنسية لغة التعليم وذلك لتستوعب طلبة غرب أفريقيا الفرنسية أيضا ، وقد تكون عديد من الاداريين المغاربة فى هذا المعهد الذى لايقبل الطلبة الا بامتحان يجرى باللغة الفرنسية ٠ ومن الطبيعى أن تفضل الحكومة الاعتماد على هذه

الكفاءات بينما يشكو طلبة جامعة القرويين والثانويات المعربة من عدم وجود مجالات لهم فى العمل ٠

وتعرض المدرسون لضغط أنصار الثقافتين ويتضح نفوذ حـــزب الاستقلال على مدرسى اللغة العربية والعلوم الدينية بينما يتأثر غيرهـــم بالتيارات اليسارية ٠ وقد وجد المتفرنسون فى الدعوة الى احياء البربرية فرصة للتهرب من التعريب ٠ فنجد أحد زعماء الحركة الشعبية وهـــو أحردان ينادى بتحسين مستوى الاذاعات البربرية ٠ ويلاحظ ان الجامعات التى تاسست فيما بعد أنشأت اقساما عربية فقط فى الكليات النظرية على الأقل مثل جامعة فاس ٠

لقد بدأت الجزائر التعريب من الصفر عند الحصول على الاستقلال وتعثرت فى قضية التعريب غير ان تصميم الحكومة الجزائرية جعلهـــا تسبق جارتيها تونس والمغرب فى تعريب بعض قطاعات التعليم العـــالى ، فقد ألغت بعض الأقسام الفرنسية من كليات الآداب مثل التاريخ والجغرافيا ، وذلك لأن تدريس هاتين المادتين قد تم تعريبه على جميع المراحل ٠

وكانت الخطة تقضى بتعريب التعليم الابتدائى ثم المتوسط ســـنة بعد أخرى وبالفعل نفذ تعريب السنة الأولى الابتدائية فى العام الدراسى ٦٣/١٩٦٤ ثم توقف لعدم وجود امكانيات (١) لاستقدام عدد كاف من أقطار المشرق العربى . وفى سنة ١٩٦٧ عربت السنة الثانية الابتدائية ، وفى سنة ١٩٦٩ عربت السنة الثالثة . وتوالت عملية التعريب بعد ذلك ٠ هذا علاوة على وجود معاهد اسلامية قديمة كانت تستخدم اللغة العربية فى العهـــد الاستعمارى ثم حولت الى مدارس ثانوية حديثة تعتمد اعتمادا تاما فى تدريس مختلف المواد بها على اللغة العربية ٠

وفى رأينا أن التعثر الذى صحب التعريب فى السنوات الأولى تزول أسبابه بالتدريج حيث أنه أخذت تتكون أجيال من المـــدرسين الجزائريـــن القادرين على التعليم بالعربية وكان هذا التكوين يتطلب بعض الوقت فقـــد

---

(١) عثمان سعدى : قضية التعريب فى الجزائر ٠

وفدت ١٥٠٠ بعثة للمدارس والجامعات بالبلاد العربية كما قرر مؤتمـــر المعلمين المنعقد في بيروت سنة ١٩٦٢ مساعدة الجزائر على التعريب . وحتى السبعينات لم يظهر تفكير مافى أن تعرب كليات العلوم أو الطب ولكن الأمر الذى يقتضى التساؤل هو انه أسست جامعات جديدة فى قسنطينة ووهران بدىء بالأقسام الفرنسية وكان لابد من صراع بين المثقفين ثقافة عربية وبين المتفرنسين وهم أصحاب نفوذ فى اجهزة التعليم العالى حتى تمكن الأولون من انشاء اقسام عربية فى كليات الآداب فى سنة ١٩٦٨ ٠ وكانت جامعة الجزائر قد أفتتحت القسم العربى بالحقوق فى نفس العام ٠

ومن الأسباب التى عوقت عملية التعريب وأعطت حجة لانصار الثقافة الفرنسية ، هو أن مدرسى اللغة العربية خلال السنوات الأولى من الاستقلال كانوا منفاوتين من حيث درجة الكفاءة نظرا لاضطرار الجزائر الى استقدام أعداد كبيرة دفعة واحدة . وينتمى هؤلاء المدرسون الجدد الى مصــــادر ثقافية متعددة ، بعضها يعود الى التعليم الدينى التقليدى . والبعض الآخر الى التكوين التربوى الحديث ٠

الادارة :

شاع استخدام اللغة الفرنسية فى المكاتبات الحكومية فى أقطـــار المغرب الثلاثة ، غير أن الادارة فى كل من تونس والمغرب استخدمت اللغــة العربية فى بعض الحالات حتى أثناء عهد الحماية ٠ وبعد الاستقلال استخدمت الادارة لغة مزدوجة مع اتجاه مطرد الى تغليب اللغة العربية ٠ أما الجزائر فقد واجهت صعوبة كبرى فى تعريب لغة الادارة ٠

لقد نص دستور الجزائر الصادر فى سنة ١٩٦٣ على أن العربية هى لغة البلاد الرسمية . الا أن الموظفين لم يأخذوا هذا النص مأخذ الجـد ، الى أن أصدر هوارى بومدين فى ابريل سنة ١٩٦٨ قانونا بأن اللغة العربية ستصبح اجبارية ابتداء من سنة ١٩٧١ ، وهو يعتبر من أبرز المتحمســين للتعريب فى الجزائر ، لذلك أخذ يذكر فى خطبه المتوالية أنه ينوى تطبيق هذا القانون بالفعل ، بالرغم من أن ذلك يؤدى منطقيا الى الاستغناء عن الموظفين الذين لايقبلون على دراسة اللغة العربية ٠ وتسهيلا لتعريب الادارة افتتحت الحكومة فصولا ليلية لتعليم الموظفين اللغة العربية ٠ ومع ذلك لم يخل الأمر

من عقبات ٠ فالعمل الحكومى يجرى على فترتين ومن ثم لايتوفر وقت كاف فى المساء للدراسة ٠ ثم أن كثيرين ممن يجهلون العربية هم من حملة الشهادات المتوسطة الذين يعملون فى وظائف كتابية وفى الحسابات ٠ ومن هؤلاء عمال البرق والبريد ٠ وقد يثير هؤلاء من مسألة التعريب قضية اجتماعيـة فيحتجون بحقوق الطبقة العاملة التى لايمكن الاستغناء عنها حسب قوانين العمل التى تضمن لهم عدم الفصل التعسفى ٠ وبالاضافة الى ذلك وضـــع فريق من كبار الموظفين المتفرنسين العقبات لتعطيل التعريب حماية لمصالحهم٠

وخلاصة القول أن دخول الجزائر فى أزمة السلطة القائمة علـــى المواجهة بين العسكريين والاسلاميين طرحت من جديد مشكلة التعريب فبينما تشدد الاسلاميون فى تعميم استخدام اللغة العربية فى المجالات المختلفة عادت الحكومة العسكرية الى التلكأ فى قضية التعريب كنوع من رد الفعل على اتجاه الاسلاميين . كما ظهر تيار معارضة اخر للتعريب يتمثل فى حركة الديمقراطية والثقافة التى ينادى بها قسم كبير من البربر يسعى للحفاظ على تراثه الخاص ٠

الفصل السابع والعشرون

العلاقات المغاربية

ـ ١ ـ

عندما تقرر تأسيس الاتحاد المغاربي فى فبراير ١٩٨٩ ادخلت كل من ليبيا وموريتانيا فى الاتحاد بينما كان الاتجاه خلال الخمسينات والستينات هو قصر فكرة التجمع على الأقطار الثلاثة تونس والجزائر والمغرب ٠ وقد اتبعنا فى هذه الدراسة الخطة القديمة لمفهوم الاتحاد المغربى ٠ ذلك لأن عمق تأثير التاريخ الحديث وخاصة عهد الاستعمار الفرنسى جعلت أدوات البحث أيسر منالا بالنسبة لهذه الأقطار من حيث الرجوع الى المصادر الحديثة والوثائق المنشورة الخاصة بالعهد الاستعمارى ٠ ورغم اختلاف الوضع القانوني بين الجزائر التى ضمت الى الأراضى الفرنسية منذ ١٨٤٨ وبين تونس والمغرب التى وضعتا تحت نظام الحماية فقد التجمت النخبة فى الأقطار الثلاثة وتبودلت المساعدات بين الحركات الوطنية كما تجلى ذلك من خلال تأييد الوطنيين فى تونس والمغرب للثورة الجزائرية الكبرى ٠

أما ليبيا وموريتانيا فقد كان لكل منها خصوصيته التاريخية فليبيا كيان حديث بالقياس الى جارتيها مصر وتونس وبينما أرتبط تاريخ برقة بمصر كانت الصلات قوية بين سكان طرابلس وجيرانهم فى الغرب ومن هنا تتسم خصوصية التاريخ الليبى بأنها كانت حلقة اتصال بين المشرق والمغرب٠

كذلك ظلت موريتانيا تشكل اداة اتصال بين العالم العربى فى الشمال والعالم الأفريقى الزنجى فى الجنوب وحتى سنة ١٩٦٠ ألحقت موريتانيا بمجموعة اقطار غرب أفريقيا التابعة لفرنسا أى أنها خلال العهد الاستعمارى كانت اكثر اتصالا بدكار عاصمة المجموعة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية منها بجارتها الشمالية المملكة المغربية وبعد الاستقلال صارت لها مشكلاتها الخاصة مثل استخدام العربية وأعتراض ربع السكان من الزنوج على جعلها اللغة الرسمية كما شهدت موريتانيا أزمة حدود مع السنغال ٠

وفى العصور الوسطى الاسلامية درج الكتاب على التمييز بين المشرق والمغرب دون تحديد دقيق للموقع الذى يفصل بين المنطقتين والأرجح أن مدينة طرابلس اعتبرت هى بداية ماعرف باسم المغرب الاسلامى ويعرف تاريخ الأدب العربى قضية التنافس الثقافى بين المشرق الاسلامى ومغربه ·

لقد تبنت الحركات الوطنية . رغم انفصالها فى الواقع ، مبدأ التضامن المغربى ، وكثيرا ما أعطيت له الأولوية على التضامن العربى ، بل كان بعض الزعماء يستبدل فكرة التضامن الاسلامى بالعربى ولكنه يستبقى فى جميـع الأحوال مبدأ المغرب الكبير · وبمجرد ان حصلت كل من تونس والمغرب على الاستقلال بادرتا الى عقد معاهدة صداقة وتحالف فيما بينهما · وكان يظن ان استمرار خضوع الجزائر للاستعمار هو الذى يعرقل مشروع المغـــرب الكبير · وقد تبين خطأ هذه النظرية بعد قليل ، الا أن احدا لم يدرك ذلك فى سنة ١٩٥٨ حينما وصلت الفكرة الى أعلى مراحلها · ويقال أن الشروع فى اقامة أجهزة اتحادية باسم المغرب انما كان رد فعل على قيام اتحاديـــن آخرين فى المشرق العربى فى نفس التاريخ هما : الجمهورية العربية المتحدة، والاتحاد الهاشمى الذى جمع بين العراق والأردن ·

وقد تبنت الدعوة الى مؤتمر طنجة الهيئات الشعبية : حزب الاستقلال المغربى والدستور الجديد التونسى وجبهة التحرير الجزائرية وتم ذلك بعيدا عن الجهات الرسمية ، ولعل ذلك راجع الى أن الجزائر لم تكن قد حصـــلت بعد على الاستقلال · فرؤى اتاحة الفرصة لجبهة التحرير لكى تشترك على نفس المستوى مع حزب الاستقلال المغربى والحزب الدستورى الجـــديد التونســـى ·

أقر المؤتمر الذى انعقد فى المدة من ٢٨ _ ٣٠ أبريل سنة ١٩٥٨ أن فكرة المغرب الكبير هى جزء من حركة الوحدة العربية · وهـــو مقتنع بأن الوقـت قد حان لتجسيم هذه الادارة فى الوحدة عن طريق مؤسسات مشتركة تمكن هذه الشعوب من القيام بدورها بين الأمم · وقرر أن يعمل على تحقيق هذه الوحدة ، ويعتبر أن الشكل الفيدرالى اكثر ملاءمة للواقع فى البـــلاد المشتركة فى هذا المؤتمر · ولهذا الغرض يقترح المؤتمر ان يشكل فى المرحلة الانتقالية مجلس استشارى للمغرب العربى منبثق عن المجالس الوطنيـــة

المحلية فى تونس والمغرب · وعن المجلس الوطنى للثورة الجزائرية ، ومهمته درس القضايا ذات المصلحة المشتركة وتقديم التوصيات للسلطات التنفيذية المحلية ·

(ويوصى المؤتمر بضرورة الاتصالات الدورية ، وكلما اقتضت الظروف ذلك بين المسؤلين المحليين للأقطار الثلاثة من أجل التشاور حول قضـايا المغرب العربى . ولدراسة تنفيذ التوصيات التى يصدرها المجلس الاستشارى للمغرب العربى) · (ويوصى المؤتمر حكومات أقطار المغرب بألا تربط منفردة مصير شمال أفريقيا فى ميدان العلاقات الخارجية والدفاع الى أن تتم اقامة المؤسسات الفيدرالية) ·

ثم قرر المؤتمر تأسيس أمانة دائمة للسهر على تنفيذ مقرراته ، تؤلف من ستة أعضاء ، بنسبة مندوبين عن كل حركة ممثلة فى المؤتمر · وتنقسم الى مكتبين : احدهما بالرباط ، والثانى بتونس · وتجتمع الأمانة دوريا فى احدى العاصمتين بالتناوب ·

كانت التوصيات الوحيدة التى وضعت موضع التنفيذ هى تكوين الحكومة المؤقتة الجزائرية · أما التوصيات الخاصة بالاتحاد الفيدرالى فقد بقيـت حبرا على ورق · ويلاحظ أن هذه التوصيات لمحت الى انتقاد المشروع الذى اقترحه بورقيبة والذى استهدف ربط شمال أفريقيا فى صورة أتحاد غامض مع فرنسا أسماه الكومنولث مقابل حصول الجزائر على الاستقلال ·

٢ ـ تعثر مشروع الاتحاد المغاربى :

أن العقبة الكاداء التى أصطدمت بها هذه النوايا فى الاتحاد انما هى النعرة الاقليمية التى ترسخ قواعدها بمجرد أن تظهر دولة حديثة الـى الوجود . وتشرع فى اتخاذ شعارات الدولة التامة السيادة من علم وجيش وسفارات تمثلها فى الخارج وقانون جنسية خاص بها · وسرعان ما تتحول هذه الجنسية الى شعور قومى · هكذا نشأت القوميات الاقليمية فى أجزاء العالم العربى ·

ومما زاد مشروع المغرب (١) الكبير بعدا عن التحقيق ، التنافس الذى

---

(١) السياسة الدولية عدد اكتوبر ١٩٧٠ ·

دب بين حكوماته المختلفة على الزعامة • وربما تطلع محمد الخامس الـــى هذه الزعامة بحكم هيبة أسرته التقليدية ودوره فى الكفاح الوطنى • ثم ان امكانيات بلاده تفوق تونس من جميع الجهات • والجزائر لم تســتقل بعد • ولعل فى تغيير اسم البلاد من مراكش الى المملكة المغربية ما ينم على هذا التطلع ، اذ صار اسم الدولة مطابقا للمنطقة بأكملها •

ورغم أن تونس هى أصغر الأقطار من حيث عدد السكان والمساحة فان ذلك لم يمنع بورقيبة بدوره من الطموح الى زعامه المغرب ولو اقتصر الأمر على تونس والجزائر وحدهما • ويتضح ذلك من المقترحات التى قدمها لحل المشكلة الجزائرية • ففى سنة ١٩٥٧ دعا الى قيام اتحاد بين تونس والجزائر على أن تمنح فرنسا الاستقلال للأخيرة ، وفى مقـــابل ذلك تحصل علـــى امتيازات اقتصادية فى الدولة الجديدة موسعة • وخلص بورقيبة من هــذه الفكرة الى مشروع كومنولث فرنسى فى شمال افريقيا • وقد تلقف بعض الأمريكيين هذه الفكرة ليقترحوا على أساسها مشروع حلف عسكرى للحوض الغربى من البحر المتوسط • ولم تعد هذه الأفكار جميعا مرحلة الاقتراحات. فضلا عن أن مؤتمر طنجة سرعان ما أعلن نبذه لها •

وقبل أن يظهر المنافس الثالث على زعامة المغرب العــــربى تأزمت العلاقات بين تونس والمغرب بسبب اعتراف الأولى بموريتانيا مما أدى الى سحب السفراء • وعندما تجددت الدعوة على أسس اقتصادية فى ســـنة ١٩٦٤ سعى بورقيبة لضم ليبيا الى المغرب الكبير ، وذلك بهدفين الأول ايجاد أطراف أكثر عددا مما يعرقل استقطاب الزعامة فى المغرب أو الجزائر بصفة خاصـة التى صارت لها امكانيات أعظم لزعامة المغرب • ثانيا : الاستفادة من موارد ليبيا الاقتصادية . وشعور تونس بالحاجة الى حل مشكلة البطالة المتفشية فيها بايجاد مجالات أوسع للعمل فى ليبيا •

قلنا أن استقلال الجزائر زاد من حدة الصراع حول زعامة المغرب • فقد اكتسبت البلاد شهرة نضالية ممتازة بين دول العالم للدور البطولى الذى قامت بــه إبان ثورتها المسلحة • وقــد خرجت من هذا الصراع مستكملة لسيادتها وأراضيها التى شملت الصحراء الكبرى • وبذا صارت أكبر دول المغرب من حيث المساحة فضلا عن أن استغلال النفط فى هـــذه الصحراء

كان قد بدأ يؤتى ثماره ، ويشير الى احتمالات ثروة معدنية كبيرة فى المستقبل وبالاضافة الى ذلك كان نظام الحكم فى الجزائر نقطة اجتذاب للعناصر التقدمية فى المغرب وخاصة الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية الذى لم يوافق حكومة الرباط على استخدام القوة لتعديل الحدود ٠

وتعتبر مسألة الحدود مظهرا بارزا على نمو النعرة الاقليمية ، وهى التى قضت على التفكير الجدى فى المغرب الكبير بعد أن كان يظن بأن استقلال الجزائر يمكن أن يساعد على تحقيقه ٠ ويرجع الخلاف على الحدود الى عهد الحكومة المؤقتة الجزائرية ٠ فقد تعرضت لمطالب اقليمية من المغرب وتونس بينما شعرت هاتان الأخيرتان بأحتمال قرب استقلال الجزائر ٠ ووعدت الحكومة المؤقتة ببحث هذه المسألة بعد الانتهاء من الكفاح ضد الفرنسيين ، الا انه بعد الاستقلال تمسكت الجزائر بالنظرية القائلة أن الدول الأفريقية يجب أن تراعى الحدود التى رسمت فى عهد الاستعمار ٠ وقد رأينا كيف ان تونس أيدت هذه النظرية بمناسبة مطلب المغرب فى موريتانيا ، ولذلك لم تلح فى مطالبها الاقليمية بينما تشدد المغرب واتهم الجزائر بالتنكر للوعود السابقة ٠

وتضم منطقة تندوف التى طالبت بها المغرب مناجم غنية بالحديد بالاضافة الى الغاز الطبيعى ٠ لذلك قيل أن بعض الشركات حرضت المغرب على استخدام القوة ، لأنها تفضل التعاون مع الحكومة المغربية وتخشى من استثمار أموالها فى الجزائر حيث تسود الاتجاهات الاشتراكية والدعوة الى تأميم وسائل الانتاج ٠

وفى اكتوبر سنة ١٩٦٣ تمكن الجيش المغربى من احتلال بعض المواقع وتوغل الى مسافات بعيدة فى بعض المناطق داخل الجزائر ٠ وكان للحرب بين دولتين عربيتين صدى بعيد فى العالم العربى حيث جرت عدة محاولات للوساطة عن طريق الجامعة العربية الا أن المغرب كان يشعر بأن الخلاف بين فريق المحافظين والتقدميين قد ينعكس على هذه الوساطة فلا يتوفر فيها الحياد ٠ ومن المؤسف أن كلا الطرفين المتنازعين رفض فى نهاية الأمر وساطة الجامعة العربية أو اجتماع قمة لرؤساء الدول العربية الخمس الواقعة فى أفريقية بالاشتراك مع دولة أفريقية سادسة ٠ وتقبلا بدلا عن

ذلك عقد مؤتمر رباعى بالاشتراك مع كل من مالى وأثيوبيا ، وهو المؤتمر الذى انتهى باتفاقية باماكو فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، ومما جاء فى هذه الاتفاقية قرار بايقاف القتال فى موعد أقصاه الثانى من نوفمبر سنة ١٩٦٣ وانسحاب القوات الى الحدود السابقة على أن تحل محلها قوات من مالى وأثيوبيا بعد أن تجرد من السلاح · ولكن قبيل ايقاف القتال أسرعت فرقة جزائرية خفيفة الى التوغل داخل الأراضى المغربية حيث أحتلت واحة فجيج · وبذا صار الانسحاب الى الحدود السابقة مطلبا للطرفين المتنازعين بعد أن كان مطلبا جزائريا من طرف واحد ·

ومهما كانت المشاعر العنيفة التى أثارها القتال فى حينه فانه لم يترك أثرا طويل المدى على العلاقات بين الدولتين · ويمكن القول أنه كان نتيجة وليس سببا فى النعرة الاقليمية المتفشية · فبعد وقت قصير تم تبادل الأسرى وتوقف المغرب لفترة عن أثارة مطالبه فى الحدود ، ولذلك لم تبق حاجة الى وجود قوات أجنبية · وفى سنة ١٩٦٨ فتح الطريق على الحدود لمرور البضائع ، وكأن ذلك خطوة أولية نحو مزيد من التقارب ·

ويلاحظ أن الحكومة الجزائرية اخذت زمام المبادرة (١) نحو تنشيط العلاقات نبين دول المغرب على أساس اتفاقات ثنائية كانت هى محورها · ففى ١٩ يناير سنة ١٩٦٩ وقعت اتفاقية تعاون وحسن جوار مع المغرب · وتلاها بعد قليل اتفاقية أخوة وصداقة مع الحكومة الليبية فى نهاية عهد الملك ادريس السنوسى · وأخيرا عقدت معاهدة ثالثة لحسن الجوار مع تونس · وعلى أثر تصفية الخلافات على الحدود توقفت الحملات الاعلامية التى كانت تشن باسم الدول التقدمية على المحافظين والعكس بالعكس ·

ومن مظاهر التهدئة للصراعات الاقليمية أن الحكومات المغربية سلمت بواقعية التقسيم الى الكيانات القائمة وصارت تنظر الى مشروع المغرب الكبير على أنه مجرد تعاون فى المجالات الاقتصادية والثقافية دون التفكير فى تنازل الدول عن أى شىء من سيادتها لحساب هيئة اتحادية مهما كانت

---

(١) انظر نصوص هذه الاتفاقيات فى مجلة Magreb documents عدد ١ سنة ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ·

هذه الهيئة محدودة السلطات · وهى روح تختلف عن تلك التى سادت مؤتمر طنجة سنة ١٩٥٨ ·

وفى هذا الاطار عقدت اتفاقية افرام بين الجزائر والمغرب تضمنت الاعتراف بالحدود القائمة . ويعد ذلك بمثابة تنازل عن المطالب المغربيـــة السابقة · وفى مقابل هذا التنازل منح المغرب حق المساهمة فى انشـــاء الشركات التى تستغل الحديد فى مناجم غار جبيلات الغنية · كما اشـارت الاتفاقية الى تنشيط التبادل التجارى بين البلدين ·

وقد وصفت الاتفاقية المعقودة بين الجزائر وليبيا فى أول فبراير سنة ١٩٦٩ بأنها معاهدة اخوة وصداقة ومدتها عشرون سنة ونصت على التشاور فى الشئون الدولية وعدم عقد اتفاق مضاد لمصالح الطرف الآخر · والحقت بها اتفاقية تجارية تنص على تسهيلات فى تبـــادل البضائع والمعلومـــات والخبرات · كذلك أقرت الاتفاقية المعقودة مع تونس خط الحدود القـــديم طبقا للنظرية الجزائرية · وفى مقابل ذلك وعدت الجزائر بمد بعض أنابيب النفط عبر الأراضى التونسية ·

ومهما كان الاتجاه ضعيفا نحو بناء المغرب الكبير فى المجال السياسى فانه قد حدث منذ سنة ١٩٦٤ نزوع قوى الى ادخال ليبيا فى مفهوم المغرب الجغرافى · ومن المعروف تاريخيا أن ليبيا كانت دائما حلقة اتصال بيـــن المشرق والمغرب ·

وفى البداية شجعت المملكة المغربية اجتذاب ليبيا السنوسية الـــى مشروعات المغرب الكبير . الى أن وقعت الحركة الجمهورية فتبدل ميـزان القوى فى منطقة المغرب ، اذ أن القذافى فى شعاراته المعلنة كان يبدو أقرب الى الجزائر مع الاختلاف حول نظرية الوحدة العربية · فحسبما نادي بـه القذافى رجحت فكرة اتحاد شامل على اتحاد جزئى يضم دول المغرب · فلما فترت هذه الأفكار ، صار هناك اتجاه الى توثيق الروابط الثنائية بين ليبيا والجزائر · وازداد تقارب الدولتين بمناسبة الاتفاق على مساعدة البوليساريو فى الصحراء الغربية فى مواجهة المملكة المغربية ·

أما تونس فقد نظرت حكومتها بعين القلق الى تغير النظام فى ليبيا ،

وخاصة أنه ظهر احتمال فى وقت مايشير الى امكان قيام اتحاد بين ليبيا ودول أخرى فى المشرق • على أن الحاجات العملية كانت أكثر الحاحا فوجود عدد كبير من العمال التونسيين فى ليبيا أزال الخلافات التى كانت متوقعة بعد قيام النظام الليبى المعادى للغرب ، والذى يختلف اختلافا بينا عن نظرة بورقيبة الى العلاقات الدولية •

وعلى أية حال فان معارضة اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل جاءت لتغطى على تلك الخلافات • ذلك أن النظام التونسى رغم صداقته التقليدية مع الغرب رأى فى مسايرة ركب الدول العربية التى قررت فى مؤتمر بغداد مقاطعة مصر مصلحة لبلاده ومن المفارقات أن بورقيبة كان من رواد الدعوة الى عقد صلح مع اسرائيل • أما فى سنة ١٩٧٩ فقلب مواقفه رأسا على عقب وانتهز فرصة مقاطعة مصر ونقل مقر الجامعة العربية الى تونس لكى يستثمر هذا الانقسام العربى الجديد للمصلحة الاقليمية •

انعكست التقلبات المفاجئة التى تميزت بها شخصية القذافى على حركة التجمع المغاربى وذلك بمحاولة تكوين محاور داخل المغرب الكبير غير أن موارد بلاده البترولية لم تكن كافية لتحقيق زعامة تلك المحاور فقد أشرنا الى الهبة التى لم تدم سوى بضعة أيام من يناير ١٩٧٤ التى أعلن فيها عن اتحاد اندماجى بين ليبيا وتونس ذلك الاتحاد الذى استنكره بورقيبة بعد أيـــام •

ومن أغرب الاتفاقات التى تمت فى اطار المحاور التى سعى لهـا القذافى اتفاق وجدة فى سنة ١٩٨٤ ويبدو أن الرئيس الليبى هو الذى بادر باقتراح اتفاق اتحاد قريب من صوزة الفيدرالية مع المملكة المغربية رغم مابين الدولتين من تناقض فى نظام الحكم والتوجهات الخارجية وكانت مفاجئة للقذافى عندما قبل الملك هذا الاقتراح وبناء عليه تم اجتماع فى وجدة على الحدود المغربية الشرقية أغسطس ١٩٨٤ حيث تمت الموافقة المبدئية على هذا الاتحاد •

وتعود المفاجئة الى سلسلة طويلة من الخلافات التى حكمت العلاقات بين الدولتين فقد ألقى الملك على القذافى مسئولية التحريض على هجوم قصر الصخيرات سنة ١٩٧١ بل أشار فى مذكراته الى أن القذافى اشترك

فى تدبير حادث الاعتداء على طائرته فى العام التالى (١) ، لدرجة أنه طلب الى بومدين فتح المجال الجوى الجزائرى للطائرات الليبية كيما تكمل المؤامرة بضرب قصر الرباط اذا ما افلت الملك من الاعتداء عليه فى الجو . ويضيف الحسن أن بومدين أستشاط غضبا مما يدل على أن العلاقات الجزائرية المغربية كانت قد تحسنت منذ تسوية أزمة الحدود ولم تتعكر مرة أخرى الا بسبب الصراع حول الصحراء المغربية . وقد كانت الصحراء نفسها هى من أقوى عوامل الخلاف بين ليبيا والمغرب فان أحد مؤسسى حركة البوليساريو كان طالبا مغربيا منتميا الى الحزب الشيوعى المغربى وحينما طرد من الحزب توجه الى القذافى وعرض عليه تزويد حركة البوليساريو بالسلاح وجاءت استجابة الرئيس الليبى بالايجاب وطلب السماح لمرور هذه الأسلحة عبر الأراضى الجزائرية . ولم يكن تأييد الحركة المناهضة للمغرب فى الصحراء قد توقف حينما اتفق على عقد معاهدة وجدة لذلك كان على الملك أن يبرر هذا التحول المفاجىء فى سياسته نحو القذافى ليس أمام شعبه فقط بل أمام الأمريكيين الذين دهشوا ازاء هذا التحول فقد كانت سياسة القذافى العامة وتدخله فى تشاد بصفة خاصة تثير ردود فعل معادية لدى الادارة الأمريكية . وهكذا طلبت الى الملك تفسير هذا التحول وكان جوابه هو انه يأمل من وراء المعاهدة توقف ليبيا عن مساعدة البوليساريو ومن ثم انقاذ حياة الألوف من ابناء شعبه ولكن بوش . نائب الرئيس فى ذلك الوقت . لم يقتنع بهذا التبرير. فقد كانت قضية الصحراء تتصل بشكل أو بآخر بالحرب الباردة ، فليبيا والجزائر حليفتا الاتحاد السوفيتى هما اللذان يساعدان حركة البوليساريو بينما يضطر المغرب الى مجابهتها مستعينا بالمساعدة الامريكية .

اعتبرت الجزائر اتفاق وجدة موجها ضدها سيما وأن تونس أغريت بالانضمام اليه واثر تحفظ تونس ازاء هذا المشروع قرر القذافى طرد ٣٠ الف عامل تونسى من البلاد (٢) .

واذا مابحثنا فى التوجهات السياسية لأقطار المغرب العربى نجد أن الجزائر كانت أقربها الى ليبيا وبمناسبة الغارة الأمريكية المفاجئة على

---

(١) الملك الحسن : ذاكرة ملك . صفحة ٨٥ وما بعدها .

(٢) السياسة الدولية . عدد أكتوبر ١٩٨٤ .

طرابلس فى أبريل ١٩٨٦ حدث نوع من التقارب بين الدولتين المغربيتين تمثل فى لقائى قمة بين الشاذلى بن جديد والقذافى ٠

اما الخطوة الحاسمة فى حركة الاتحاد المغاربى فجاءت فى اطار عمليات تجمع شهدها المشرق العربى بين عامى ١٩٨١ _ ١٩٨٩ فعلى نمط مجلس التعاون الخليجى ومجلس التعاون الرباعى أعلن فى ١٧ فبراير ١٩٨٩ عن قيام اتحاد مغاربى دل فى بداية الأمر على طموح أصحابه وجديتهم فقد تضمن اعلان الاتحاد فى مدينة مراكش تكوين مجلس رئاسى للدول الخمسة المؤسسة والتى شملت موريتانيا لأول مرة فى مثل هذا التجمع كما اشتملت الخطة على تكوين امانة عامة وأجهزة اتحادية واعلن عن اصدار بطاقة مغربية تسمح للمواطنين فى الأقطار الخمسة بحرية المرور عبر الحدود ٠

وكانت عوامل النجاح تبدو متوفرة لهذا التجمع فهناك الاتصال الجغرافى والتراث التاريخى والمشكلات الاقتصادية المتماثلة ٠ وباستثناء ليبيا تعانى أقطار المغرب من الانفجار السكانى ونقص الغذاء والاضطرار الىالاستدانة وهجرة يد عاملة كبيرة العدد نحو أوربا الغربية ٠ غير أنه قد نجم عن توسيع دائرة المغرب الكبير زيادة فى التناقضات مابين الأنظمة الحاكمة . وعلى سبيل المثال فقد أدى انضمام موريتانيا الى الاتحاد أن حكومة نواكشوط صارت تتطلع لتدخل شركائها لمساعدتها فى أزمة الحدود مع السنغال ٠ وبعد فورة الحماس لوحظ أن اهتمامات القادة أخذت تتراجع بالتدريج ففى القمة الثالثة نوفمبر ١٩٩٢ لم يحضر كل من القذافى والملك الحسن وقد عاصرت هذه القمة فرض مجلس الأمن العقوبات على ليبيا واظهرت أزمة لوكربى أن الأشقاء المغاربة التزموا بتطبيق العقوبات الخاصة بحظر الطيران وأكتفت هذه القمة بالأحتجاج على هذه العقوبات ٠

كذلك لم يمنع قيام الاتحاد من اختلاف السياسات ازاء حرب الخليج فبينما أيدت موريتانيا العراق أتخذت تونس موقفا سلبيا على حين أن المغرب شارك بقوات رمزية مع التحالف الدولى الذى تدخل عسكريا لكى يسحب العراق قواته من الكويت (١) ٠

---

(١) السياسة الدولية عدد يناير ١٩٩٣ ٠

خلاصة القول أن المشاغل الاقليمية طغت على مسيرة الاتحاد وكان على رأسها كما يبدو من اعمال قمة نوفمبر ١٩٩٢ انتشار حركة الاسلام السياسى والتى اعتبرها المجتمعون ظاهرة تهدد الأمن والاستقرار للدول الأعضاء . يضاف الى ذلك خلافات جانبية اتصلت باختيار مكان الأمانة العامة . وهكذا عجزت دول المغرب رغم توفر عناصر النجاح عن اقامة اتحاد فعال حيث أن النظم الاتحادية بصفة عامة تتطلب تعاون انظمة ديمقراطية الأمر الذى لم تتمتع به الأنظمة الحاكمة فى العالم العربى بصفة عامة .



لقد كان قيام السوق الأوربية المشتركة فى سنة ١٩٥٧ دافعا للتفكير فى توثيق العلاقات الاقتصادية بين دول المغرب الثلاث التى استقلت عن فرنسا . ففى سنة ١٩٦٤ انضمت ليبيا الى الاتفاقية الاقتصادية التى عقدت بمدينة طنجة ونصت على تخفيف الحواجز الجمركية بين الأعضاء غير أن المشكلة التى واجهت دول المغرب هى أن اقتصادها أقرب الى التنافس منه الى التكامل .

ففى العهد الاستعمارى حاولت فرنسا أن تنسق العلاقات الاقتصادية بانشاء مكتب يتولى شئون تصدير وتوزيع أهم سلعة تنتجها الأقطار الثلاثة فى ذلك الوقت وهى الفوسفات الأمر الذى لم يستمر بعد الاستقلال . وبالنسبة للجزائر فان وجود ثروة معدنية هامة : النفط والحديد لم تستغل بطريقة علمية حديثة وأدى سوء الادارة الى خضوع الجزائر لنفس مشكلات جارتيها وهى العجز عن استغلال الموارد لكفاية حاجة البلاد للتنمية .

وباستثناء ليبيا فأن دول المغرب وجدت نفسها مضطرة لتصدير يد عاملة كبيرة العدد الى أوربا الغربية وصارت تحويلات المهاجرين تشكل نسبة ربما أعلى من بترول الجزائر فى دخل البلاد القومى لذا حرصت دول المغرب على ايجاد علاقة اقتصادية خاصة مع غرب أوربا ، فوقعت اتفاقيات انتساب للسوق المشتركة وتطلعت الى تمتع صادراتها من الحمضيات والمواد الخام المعدنية لاعفاءات جمركية (١) .

---

1. Middle East Journal, Jan., 1968.

وهكذا بقى التعامل مع اوربا لكل قطر من أقطار المغرب على حــدا يفوق من حيث الحجم كثيرا قيمة المبادلات بين أقطار المغرب بعضها والبعض الآخـــر ٠

وعندما أنتشرت البطالة فى أوربا شعرت دول المغرب بتهديد لمهاجريها الذين تسلل بعضهم بطرق غير شرعية ومن ثم تعرضوا بين حين وآخر للطرد وكان لمشروع الاتحاد الأوربى المقرر لسنة ١٩٩٣ أثر على التعجيل باقامة الاتحاد المغاربى غير أن العوامل السياسية كما شرحناها فى الصفحات السابقة عطلت الى حد كبير تحقيق هذه الخطة مما أبقى صورة التبعية الاقتصـــادية بشكل لايختلف كثيرا عن العهد الاستعمارى ٠

١

المـراجع العربيــة

١ _ ابن أبى دينار (أبو عبد الله الرعينى) :
المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ، تونس سنة ١٣٥٠ ٠

٢ _ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدار البيضاء سنة ١٩٥٥ ومابعـدهـا ٠

٣ _ أبو القاسم سعد الله :
(أ) الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٠٠ _ ١٩٣٠) _ بيروت ١٩٦٩ ٠
(ب) الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٣٠ _ ١٩٤٥) القاهرة ١٩٧٥ ٠

٤ _ أحمد توفيق المدنى :
(أ) هذه هى الجزائر _ القاهرة ١٩٥٦ ٠
(ب) حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر واسبانيا _ الجزائر ١٩٦٨ ٠

٥ _ الياس مرقس :
الحزب الشيوعى الجزائرى _ بيروت ٠

٦ _ بطرس بطرس غالى :
منظمة الوحدة الأفريقية _ القاهرة ١٩٦٤ ٠

٧ _ بورجا فرانسوا :
الاسلام السياسى فى شمال افريقيا ، ترجمة لورين زكرى ، القاهرة ١٩٩٢ ٠

٨ _ الحبيب ثامر
هذه تونس _ القاهرة _ سنة ١٩٤٨ ٠

٩ _ الحسن الثانى :
ذاكرة ملك ٠ أجرى الحوارات : ايريك لوران ٠ كتاب الشرق الأوسط ١٩٩٣ ٠

١٠ _ حسن أحمد محمود :
الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا (الجـزء الأول) _ القـــاهرة ١٩٥٨ ٠

١١ _ حسن حسنى عبد الوهاب :
خلاصة تاريخ تونس ١٣٧٣ هـ ٠

١٢ _ **صلاح العقاد :**

(أ) المغرب فى بداية العصور الحديثة _ القاهرة ١٩٦٣ ·

(ب) الجزائر المعاصرة _ القاهرة ١٩٦٤ ·

١٣ _ **عثمان سعدى :**

قضية التعريب فى الجزائر ، القاهرة ·

١٤ _ **عــــلال الفاسى :**

(أ) الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى ، القاهرة ١٩٤٨ ·

(ب) المغرب العربى ، القاهرة ١٩٥٥ ·

١٥ _ **فريق من الخبراء العرب :**

الصراع على الجزائر · شيوخ وجنرالات ، القاهرة ١٩٩٢ ·

١٦ _ **محمد بن الأمير عبد القادر :**

تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (جزآن) الاسكندرية ١٩٠٣ ·

١٧ _ **محمد خير فارس :**

(أ) المسألة المغربية من سنة ١٩٠٠ _ ١٩١٢ ، القاهرة ١٩٦١ ·

(ب) تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب ، دمشق ١٩٧٢ ·

(ج) تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى الى الاحتــــلال الفرنسى دمشق ، ١٩٦٩ ·

١٨ _ **محمد داود :**

تاريخ تطوان _ تطوان ١٩٥١ ·

١٩ _ **محمد رفعت :**

التيارات السياسية فى البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٤٩ ·

٢٠ _ **محمد مبارك بن محمد الهلالى الميلى :**

تاريخ الجزائر ، الجزائر ١٩٦٤ ·

٢١ _ **محمد مصطفى صفوت :**

مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، وأثره فى البلاد العربية ، القاهرة ١٩٥٧·

٢٢ _ **نصر السيد نصر وآخرون :**

الجمهورية الاسلامية الموريتانية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ·

٢٣ - لجنة المغرب العربي :
تونس ، ٦٧ عاما تحت الاحتلال .

٢٤ - الحزب الدستوري التونسي :
مأساة عـــرش .

٢٥ - وزارة الاعلام التونسية :
الحبيب بورقيبة ، حياته وجهاده .

الدوريـــــات

١ - مجلة تاريخ وحضارة المغرب :
تصدر عن كلية الآداب بالجزائر منذ يناير ١٩٦٧ .

٢ - مجلة السياسة الدولية :
تصدر عن صحيفة الأهرام القاهرية ، الأعداد المذكورة .

٣ - مجلة البحوث والدراسات العربية القاهرة :
الأعـــداد المذكورة .

المراجع الأجنبية

وثائق منشورة

- Affaires du Maroc (A.M.) 1901-1912, 6 Vols., Paris, 1914.
- Albin, P. : Les Grands Traités Politiques, Paris, 1923.
- British Documents on the Origins of the War, 1898-1914 Edited by George Gooch and Temperly. London, 1927.
- Correspondence Respecting the Affairs of Tunis, London, 1881.
- De Castries : Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc 1530-1845, 19 vols., Paris, 1905-1924.
- Documents Diplomatiques Français, 1871-1914 Ministère des Affaires Etrangères. Commission de Publication des Documents Relatifs aux Origines de la Guerre de 1914, Paris, 1929.
- Documents Diplomatiques Français, Question de la Protection Diplomatique et Consulaire au Maroc, Paris, 1880.
- Documents Diplomatiques, Français Livre Jaune, Affaires de Tunisie, 1871-1880, Paris, 1881.
- Documents Inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique, 1506-1574, Alger, 1875.
- Documents Relatifs au Traité de la Tafna 1837 par Georges Yver, Alger, 1924.
- Douin, Georges, Mohamed Aly et l'Expédition d'Alger, 1829-1830, Le Caire, 1930.
- Gautherot Gustave, la Conquête d'Alger, Paris, 1929.
- Grandchamp Pierre, la France en Tunisie, 1582-1650, Documents Inédits, 4 vols, Tunis, 1920.

— Parti de l'Istiklal, Documents 1944-1946, Paris 1946.

— Plantet Eugène, Correspondence des Deys d'Alger avec la cour de France 1579-1830, 2 vols, Paris 1889.

— Robiquet P., Jules Ferry, Discours et Opinions, 5 vols, Paris 1893-1897.

المؤلفـــات

1. Alwan M. : Algeria before the United Nations, New York, 1959.

2. Ashford : Political change in Morocco, New Jersey 1961.

Azan Paul : L'Emir Abd El-Kader (1808-1883) du Fatalisme Musulman au Patriotisme Français, Paris 1925.

Barbour, N. : A Survey of North West Africa, London 1959.

Barlow, Ima Christina : The Agadir Crises, aCrolina 1940.

Barrat Robert : Justice pour le Maroc, Paris 1953.

Bedgaoui, Mohamed : La Révolution Algérienne et le Droit Bruxelle, 1961.

Blunt Wilfred : The Desert Hawk, Abd El-Kader and the French Conquest of Algéria, London, 1947.

Bou Diyaf, M. Où'va l'Algérie, Paris, 1964.

Bourguiba, El-Habib : La Tunisie et la France, Paris, 1954.

Bourdieu, P. Travaille et Travailleurs en Algérie, Paris 1965.

Bourges Hervail : L'Algérie à l'Epreuve du pouvoir, Paris, 1967.

Bovill, W. : The Golden Trade and the Moors, London, 1958.

Broadley : The Last Punic War, London, 1882.

Buy F. : La République Algérienne Démocratique et Populaire Paris, 1965.

Cambon Henri : 1. Histoire du Maroc, Paris, 1952.
2. Histoire de la Régence du Tunis, Paris, 1948.

Catroux Général : Lyautey le Marocain, 1952.

Chaliand Ch. L'Algérie est-elle Socialiste, Paris, 1964.

Clark : Algeria in Turmoil, a History of the Rebellion, U.S.A., 1959.

Cooke George : Conquest and Colonization of North Africa, London, 1860.

Cour Auguste : L'Etablissement des Dynasties des Chérifs au Maroc et leur Rivalité avec les Turques de la Régence d'Alger, 1509-1830, Paris, 1901.

Courière, de : La guerre d'Algérie, 4 vols, Paris, 1970.

Culman Henri : L'Union Française, Paris, 1950.

Démontés V. : La Colonization Militaire sous Bugeaud, Paris, 1917.

Devoulx : Le Rais Hamidou, un corsaire Algérien du 13ème siècle, Alger, 1858.

El-Hagoui Omar : L'Histoire Diplomatique du Maroc, Paris, 1937.

Esquer Gabriel : La Prise d'Alger, Paris, 1923.

D'Estournelels de Constant : La Politique Française en Tunisie, Paris, 1891.

Fau̥on Narcisse : La Tunisie avant et depuis l'occupation Française, 2 vols, Paris, 1893.

Farrod Charles : Le F.L.N. et L'Algérie, Paris, 1961.

Pavrod Charles : Abdel Krim, Origine de la Rebellion Nord Africaine, Paris, 1958.

Gaffarel, P. : L'Algérie, Histoire, Conquête et Colonisation, Paris, 1883.

Ganiage Jean : Les origines du Protectorat Français en Tunisie (1861-1881), Paris, 1959.

Garas, Félix : Bourguiba, et la Naissance d'une Nation, Paris, 1956.

Gillespie, Joana : Algeria, Rebellion and Revolution, London, 1960.

De Grammont H. : Histoire d'Alger sous la Domination Turque, Paris, 1887.

Hanotaux, G. : Histoire des Colonies Françaises, Volume 2 et 3, Paris, 1930.

Harris, Walter Burton : 1. Morocco That Was, London, 1921.
2. France, Spain, and the Rif. London, 1927.

Hocine Ayat Ahmed : La guerre et l'après Guerre, Paris, 1964.

Isnar, H. : Le Magreb, Paris, 1966.

Jackson, G.A. : Algiers, Complete Picture of the Barbay States, Their Governments and Various Revolution and the Victory of Lord Ex Mouth, London, 1817.

Jeanson, Colette et Francis : L'Algérie Hors la Loi, Paris, 1956 .

Julien Charles André :

1. Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1931.
2. L'Afrique du Nord en Marche, Paris, 1952.
3. Histoire de l'Algérie Contemporaine (1827-1871), Paris, 1964.

L'Arwi, Abdallah : L'Ideologie Arabe, Paris, 1966.

La Couture, Jean et Simonne : Le Maroc à l'Epreuve, Paris, 1958.

Landau, Rom :

1. The Moroccan Drama, London, 1956.
2. The Sultan of Morocco, London, 1951.
3. Morocco Independent, London, 1961.
4. Hassan II King of Morocco, London, 1962.

Lyautey, Pierre : Lettres du Sud Oranais, 1903-1906.
Masson Paul :

1. L'histoire du Commerce Français dans le levant aux XVI et XVII Siècle, Marsailles, 1896.
2. L'Histoire du Commerce Français dans le levant au XVIII siècle.

Marchand, E.P. : L'Europe et la Conquête d'Alger, Paris, 1913.

Mehdi Ben Barka : Option Revolutionnaire au Maroc, Paris, 1960.

Micaud, Charles : Tunisia, The Politics of Modernisation, London, 1964.

Mellor, F. : Morocco Awakes, London, 1939.

Morel, E. : Morocco in Diplomacy, London, 1912.

Moore Clement : Politics in North Africa, U.S.A., 1970.

Odinot Paul : Role Politique des Confréries Religieuses et des Zaouias au Maroc, Oran, 1930.

Paillat Claude : Dossier secret de l'Algérie, Paris, 1961.

Pellissier, E. : Annales Algériennes, 3 vols, Paris, 1836.

Pickles, Dorothy : Algeria and France, London, 1963.

Piquet, V. :

1. L'Algérie Française, Paris, 1963.
2. Les problèmes des protectorats, Recueil d'Articles, Paris, 1953.

Playfair, R. Episodes de l'Histoire des relations de la Grande-Bretagne avec les Etats. Barbaresques avant la conquête Française, Alger, 1879.

Barbaresques avant la conquête Française, Alger, 1879.

Rager, Jean Jacques : Les Musulmans Algériens en France et dans les pays Islamiques.

Ricard, Robert : Etude sur l'Histoire des Portugais au Maroc, Paris, 1955.

Rinn, Louis : Histoire de l'Insurrection d'Algérie, Alger 1891.

Rizette Robert : Le Sahara occidental, Paris, 1976.

Roberts, Ct. John : History of the French Colonial Policy (1871-1925) 2 vols, London, 1929.

Robin : L'Insurrection de la Grande Kabylie en 1871, Paris sans date.

Roche Léon : Trente deux ans à travers l'Islam, Paris.

Roland et Lampué : Précis du droit d'outremer, Paris, 1949.

Rousset, Camille : La conquête d'Algérie (1848-1857), Paris, 1889.

Samir Amine : L'Economie du Magreb, Paris, 1965.

Safwat, M.M : Tunisie and the Great Powers, Alexandria, 1943.

Secretariat d'Information Tunisienne.

Les Discours d'Alhabib Bourguiba, Tunis, 1965.

Serres Jean : La Politique Turque en Afrique du Nord sous la monarchie de juillet, Paris, 1925.

Teilac, J. Autogestion en Algérie, Paris, 1965.

Tlatli, S.E. Tunisie Nouvelle Problèmes et Perspectives, Paris, 1963.

Tourneau Rouger : L'Evolution Politique de l'Afrique du Nord Musulmane, Paris, 1962.

Zartman, W. : Morocco, Problem of New Power, U.S.A., 1964.

Governement and Politics in Northern Africa, London, 1964.

الدوريـــات

Annuaire de l'Afrique du Nord

— Bulletin du Comité de l'Afrique Française.

— Journal Officiel.

— Journal le Monde.

— Revue Africaine, 1856, et Suivantes.

— Maghreb 1964 et Suivantes.

محتـــويات الكتــاب

القسم الثالث

الحـــركات الوطنية

الموضـــــوع	صفحة

القسم الرابع

المغــــرب المعـــاصر

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ٥٠٤٨ / ١٩٩٣

